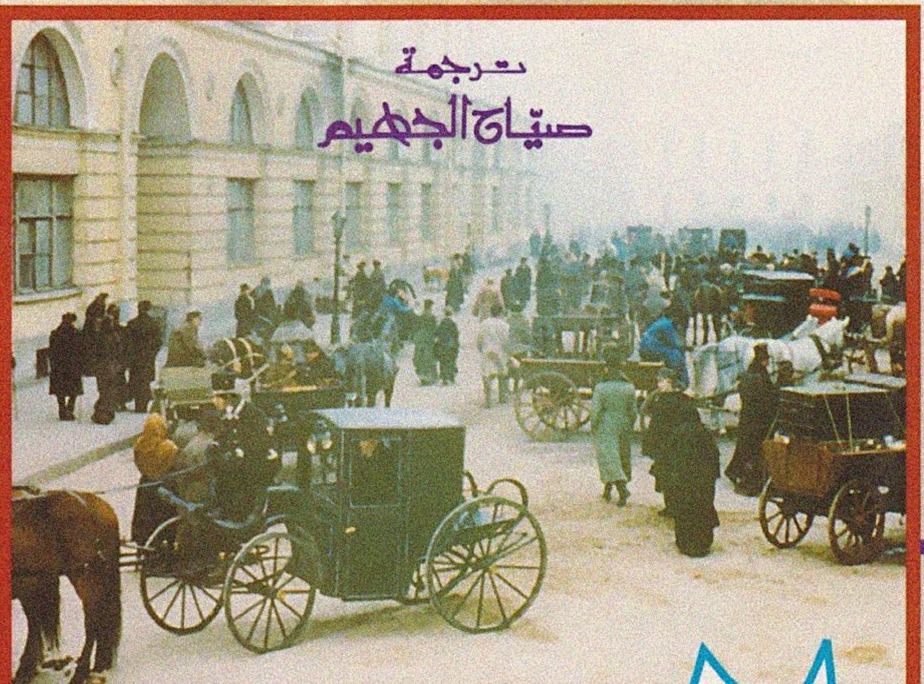
ليون تولستوي

الأعمال الادبية الكاملة

آنّا كارينين

ترجمة

صيّاح الجهيم



٢

المجلد الثاني



آنّا کارنینا

دارُ الفِكر اللبنَاني
للطباعة والنشر والتوزيع
كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا
ص.ب : ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلفون : ٦٤٤٤١٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣١٧٦٠
فاكس : ٦٣٠٧٥٧ - بيروت ، لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٨

مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف: ٨٣٧٦٢٧ - ٨٣٧٥٤٩ - ٤٦٠٧٤٣

ليون تولستوي

الأعمال الأدبية الكاملة

آنّا كارينين

المجلد الثاني

ترجمة

صيّاح الجهيم

دارُ الفِكرِ اللبْناني

بيروت

الجزء الخامس

[١]

كانت الأميرةُ تشرباتزكي تجدُ أن من المستحيل الاحتفال بالزواج قبل الصوم الكبير لأن نصف الجهاز لا يمكن أن ينتهي قبل خمسة أسابيع لكنها اضطُرت إلى الأخذْ برأي ليفين الذي كان يؤكد أن الانتظار إلى آخر الصيام تأخّرٌ مفرط، لأن إحدى العجائز من عمّات الأمير تشرباتزكي مُدنفةٌ، وقد تموت بين لحظة وأخرى، ولأن الحداد سيؤخر موعدَ الزواج أيضاً فقرّرت إذن أن تأمر بإعداد جزء ضئيل من الجهاز، في الوقت الحاضر، على أن ترسل الجزء الباقي فيما بعد، وغضت على ليڤين الذي لم يستطع قط أن يجيبها جواباً حاداً وهي تسأله رأيه وكان هذا الترتيبُ ملائماً ولا سيما أن العروسين سيذهبان بعد الاحتفال مباشرةً إلى الريف حيث لا يحتاجان إلى معظم الجهاز.

كان ليفين يُلفي نفسه دائماً في حالة الجنون ذاتها: كان يلوحُ له أنه هو وسعادته يكوّنان الغاية الوحيدة والأساسية لكل ما هو موجود، وأنه ليس من الضروري أن يَشغل باله بشيء، وأن كل شيء تمَّ وسيتم دون أن يمدَّ إليه يداً. بل لم يكن له غايةٌ ولا هدف. كان يَكِلُ أمره إلى الآخرين، لعلمه أن كل شيء سيكون تاماً. وكان أخوه سيرج ايفانوفتش وستيڤان اركادييڤتش والأميرةُ يُملون عليه ما ينبغي فعلُه. وكان يوافق على كل ما يُعرَضُ عليه لقد اقترضَ أخوه مالاً له، ونصحته الأميرةُ أن يغادر موسكو بعد الزواج، واقترح عليه ستيڤان اركادييڤتش السفر إلى الخارج، فوافق على ذلك كله، وكان يفكّر في نفسه: «افعلوا ما تشاؤون، إن سرّكم ذلك، أنا سعيدٌ، ومهما تفعلوا فلن تزيد سعادتي ولن تنقص

من جراء ذلك» وعندما أطلع كيتي على اقتراح ستيڤان اركادييڤتش، دهش دهشةً عظيمة حين رأى أنها لا توافق على السفر إلى الخارج، وأنها تملك أفكاراً محدّدة عن تنظيم حياتها المقبلة. كانت تعلم أن لليفين في الريف عملاً يحبّه. ولم تكن تفقه شيئاً منه (لاحظ ليفين ذلك)، بل إنها لم تكن ترغب في أن تعرف شيئاً عنه، بيد أن ذلك لم يمنعها من أن تولي مشاغلَ زوجها اهتماماً عظيماً. ثم علمت أن مسكنهما سيكون في الريف، فأحبّتْ أن تذهب إلى حيث سيكون منزلهما، لا إلى الخارج الذي لن يعيشا فيه. وهذا القصد الذي عبّرت عنه بوضوح أدهش ليفين. لكن بما أن جميع الأشياء استوت عنده، فقد رجا ستيڤان اركادييڤتش على الفور، أن يَقْصد إلى البيت الريفي، وأن يُجري فيه الترتيبات التي يراها مناسبة، بما عُرف عنه من ذوقٍ رفيع، وكأن هذا الأمر من اختصاصه وحده دون منازع.

قال له ستيڤان اركادييڤتش بعد عودته من أملاك ليفين حيثُ هيّأ كل شيء لاستقبال العروسين:

ــ قل لي، أمعك وثيقةُ الاعتراف؟

ــ لا، لماذا؟

ــ لا بد منها للزواج؟

فهتفَ ليفين:

ــ آخ! آخ!آخ! أعتقد أنني لم أعترف منذ تسع سنوات. بل إني لم أفكّر في ذلك.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يضحك:

ــ هذا سيّء! وأنتَ تصفُني بأنني عدمي! لا بد لك من ذلك يجب أن تعترف وتتناول.

ــ متى ذلك؟ لم يبقَ لنا سوى أربعة أيام.

توسّط ستيڤان اركادييڤتش هذه المرة أيضاً، وبدأ ليفين بالاعتراف والتناول

لقد كان حضور الاحتفالات الدينية والمشاركة في الشعائر الدينية شاقّين على ليفين، كما هما شاقان على كل إنسان غير مؤمن وإن احترمَ، في الوقت نفسه، قناعات الآخرين. بل إن فَرْضَ التصنّع بداله، في غمرة حنانه ورقّته، شيئاً لا يُطاق وليس شاقاً فحسب كان لا بدّ له، وهو في أوج مجده، في عنفوان تفتّحه، إما أن يكذب وإما أن يسخَر من الأشياء المقدّسة، وكان يحسّ بعجزه عن الكذب والسخرية، وعبثاً ألحّ على ستيڤان اركاديي‌ڤتش بالسؤال إن كان من الممكن الحصول علـى تلك الوثيقة دون أن يُضطَر إلى الاعتراف، فلم يَنثنِ عديلُه عن رأيه:

ـ لن يكلّفك ذلك كثيراً: يومين، ليسا شيئاً! ستكون صلتكَ بشيخٍ قصيرٍ، رائع، ماهر جداً. وسوف يقتلع هذه السنّ دون أن تحسّ بذلك.

عندما حضّر ليفين القدّاس الأول. حاول وسعَه أن يبتعثَ في نفسه ذكرى ذلك الشعور الديني القوي الذي خالجه بين السادسة عشرة والسابعة عشرة. لكنه ما لبث أن اقتنع بأن جهده غيرُ مجدٍ. وحاول وسعه أن ينظر إلى ذلك كله على أنه طقسٌ ديني خالٍ من الدلالة، مثلُه كمثل عادة الزيارة، لكنه أحسّ أنه لا يُفلح في ذلك أيضاً. كان موقفُه من الدين مُبهماً، مُلتبساً، كموقف معاصريه. لم يكن يستطيع أن يؤمن، لكنه لم يكن، في الوقت نفسه، مقتنعاً اقتناعاً وطيداً بأن ذلك كله خطأ. ولذلك أحسّ في هذه الفترة، وهو العاجز عن الإيمان بدلالة ما كان يَفعله وعن النظر إليه، في الوقت نفسه، بلا مبالاة أحسّ بشعورٍ من الضيق والخجل. لقد رضخَ لأفعالٍ لم يكن يفهمها وهتفَ به صوتٌ داخلي قائلاً: إن موقفه كاذبٌ. وجديرٌ باللوم.

وأثناء القدّاس. كان يصغي حيناً إلى الصلوات وهو يَجهد في أن ينسبَ إليها معنى لا يتعارضُ وأفكارَه، ويحاول حيناً آخر. إذْ يحسّ بأنه لا يفهم منها شيئاً وأنه لا يستطيع أن يتخلّى عن فكره النقدي، ألا يُصغي إليها، فيستسلم للأفكار

والملاحظات والذكريات التي تتوافد عليه بوضوح خارق، أثناء هذه الوقفات البطّالة في الكنيسة.

وهكذا حضر القداس وصلاة العصر وتعاليم المساء وفي اليوم التالي نهضَ أبكر من عادته ووصل إلى الكنيسة قبل الثامنة، ودون أن يتناول شايه، لتعاليم الصباح وللاعتراف.

لـم يكن في الكنيسة سوى جندي متسوّل وامرأتين عجوزتين وخُدّام الكنيسة.

أقبل عليه شماسٌ شاب رسم ظهرهُ نتوءين بارزين تحت جبتّه الرقيقة، ولم يلبثْ أن اقترب من طاولة صغيرة قرب الجدار وبدأ قراءة التعاليم أحسّ ليفين حين أصغى إليه وهو يكرّر في كل لحظة، وبعجلةٍ شديدة خَلَطَ معها الكلمات بعضها ببعض: «يا رب، ارحمْ!»، أن فكره مُغلقٌ وكأنه قد خُتم عليه، وأنه لا ينبغي مسّه، في هذه اللحظة. كان واقفاً خلف الشماس، لا يسمح ولا يحاول أن يفهم، متابعاً سلسلة أفكاره. قال في نفسه وهو يتذكّر سهرة البارحة: «ما أعظم تعبيرَ يديها». كانا جالسين قرب طاولة في ركن من القاعة، لا يجدان ما يقولانه كما كان يقع لهما، على الأغلب، في هذه الآونة الأخيرة، لقد وضعتْ يدها على الطاولة وأخذت تفتحها حيناً، وتغلقها حيناً آخر. وهي تضحك من هذه اللعبة وتذكر أنه قبّل هذه اليد وفحص الخطوط المتداخلة على راحتها الوردية. وقال في نفسه، وهو يرسم إشارة الصليب وينحني وينظر إلى حركة ظهر الشماس المرنة وينحني في الوقت نفسه: «وأيضاً، يا رب ارحم».

ثم أمسكتْ بيدي وتأملتْ خطوطها، وقالت لي: «إن لك يداً رائعة» ونظر إلى يده ثم إلى يد الشماس القصيرة. وقال في نفسه وهو يصغي إلى الأدعية: «نعم، أوشك ذلك أن ينتهي. آه! كأنه يبدأ من جديد لا، هذه هي النهاية. وها هو ينحني إلى الأرض، لا شك أنها النهاية».

بعد أن دسّ الشماس خفيةً في كمّه، عند قفا المخمل، ورقةً بثلاث روبلات، قال له: إنه سيسجّل اسمه للاعتراف، ومضى إلى خلف فاصل المذبح، وهو يُرن جزمته الجديدة بجسارة على بلاط الكنيسة المقفرة، وغاب دقيقة، ثم أطلّ برأسه وأشار إلى ليفين بأن يلحق به.

أخذ تفكيرُ ليفين يضطربُ في رأسه، لكنه حاول دفعَه وقال في نفسه: «سينتهي ذلك كله بشكل أو بآخر»، واتجه إلى المنبر، وصعد درجاته، واستدار إلى اليمين، فشاهد الكاهن، كان شيخاً قصيراً ذا لحية رمادية، قليلة الشعر، وعينين وادعتين، متعبتين: كان واقفاً قربَ مقرأ الترتيل، يتصفّح كتابَ القدّاس. حيّا ليفين تحيّة سريعةً. وبدأ من فوره يقرأ الأدعية بصوت رتيب، وعندما انتهى سجد والتفت إلى ليفين، وقال له وهو يريه الصليب:

ـ إن المسيح يحضر اعترافك، وهو غير مرئي.

وأضاف وهو يرفع عينيه عن وجه ليفين ويُصلّب يديه تحت صدرته الكهنوتية:

ـ أتؤمن بكل ما تعلّمنا إياه الكنيسة الرسوليّة المقدّسة؟

أجاب ليفين بصوت صَدمَ أذنه صدماً كريهاً:

ـ شككتُ وما زلتُ أشك في كل شيء.

وصَمتَ.

انتظره الكاهنُ بضع ثوان ليضيف شيئاً، ثم أغمض عينيه وأخذ يقول بسرعة مشدّداً على «الضّم» مثل أهالي فلاديمير:

ـ الشك هو خاصةُ الضعف البشري. لكن يجب أن ندعو الله الرحيم لكي يثبتنا.

وأضاف دون أن يتوقف. وكأنه لا يريد أن يضيع دقيقة واحدة:

ـ وما الخطايا الخاصة التي اقترفتَها؟

ـ خطيئتي الأساسية هي الشك. إنني أشك في كل شيء. شكاً دائماً، في الأغلب.

وكرّر الكاهن:

ـ الشكُ هو خاصةُ الضعف البشري. لكن في أي شيء. على وجه الخصوص، تشك؟

قال ليفين على مضضٍ، وقد رُوِّع من فظاظة أجوبته، وإن بدا أن هذه الأجوبة لم تترك أثراً في الكاهن:

ـ أشك في كل شيء. حتى إني أشك أحياناً في وجود الله.

قال الكاهن بسرعة وعلى شفتيه ابتسامةٌ لا تكاد تُلْحَظ:

ـ كيف يجوز أن نشكَ في وجود الله؟

صمت ليفين.

تابع الكاهن كلامه بلهجة رتيبة:

ـ كيف يجوز لك أن تشك في الخالق وأنت تتأمل خليقته؟

وأضاف وهو يُلقي على ليفين نظرةً مستفهمةً:

ـ مَنْ زيَّن القبّة السماوية بالأفلاك؟ مَن وشى الأرضَ بالجمال؟ مَنْ، إن لم يكنْ الخالق؟

أحسّ ليفين أن من غير اللائق الدخول في مناقشة فلسفية مع هذا الكاهن، واكتفى بجوابٍ متصلٍ مباشرة بالسؤال:

ـ لا أدري.

فقال له الكاهن بلهجة تنم على الحيرة والبهجة:

ـ لا تدري؟ فكيف تشكّ إذن في أن الله خلق كل شيء؟

قال ليفين وقد علتهُ الحمرةُ وشعر أن كلماته كانت غبيةً في مثل هذه المناسبة:

ـ لست أفقه شيئاً من ذلك.

فردّد الكاهنُ بعجلة:

ـ صلِّ إلى الله ليكون في عونك، الآباء القدّيسون شكوا وصلّوا كي يثبت إيمانهم الشيطان قوي ويجب ألا تَستسلم له صلِّ، صلِّ.

سكت الكاهن بضع لحظات. وكأنه يخلد إلى التفكير. وأضاف وعلى فمه ابتسامةٌ:

ـ أعتقد أنك تنوي عقد الزواج بابنة أحد أفراد رعيتي وابني الروحي الأمير تشرباتزكي؟ إنها فتاةٌ رائعة.

أجاب ليفين وهو يخمر عن الكاهن:

ـ نعم.

وفكّر في نفسه: «ما حاجتُه إلى طرح هذه الأسئلة في الاعتراف؟» قال الكاهن وكأنه يجيب عن فكرته:

ـ إنك تستعد لعقد الزواج، ولعل الله سيمنحك الذرية. وأضاف بلهجة الملامة الملأى بالرفق:

ـ فما التربيةُ التي تريد أن تربّي أولادك عليها إذا كنتَ لا تُفلح في التغلب على إغـواء الشيطان الذي يريد أن يجرّك إلى الشك؟ إذا أحببتَ أولادك، حب الأب الشفيق، فلن تطلبَ لهم فقط الثروة والترف والمجد، بل ستطلب خلاصَهم. وتعليمهم الروحي على ضوء الحقيقة، أليس كذلك؟ بماذا تجيب ابنك البريء عندما يسألك: «مَنْ خَلَقَ، يا أبي كل ما يسحر في هذا العالم: الأرض والمياه والشمس والأزهار والعشب؟» لن تجيبه: «لا أدري!» لن تستطيع أن تتجاهل ما كشفه الرب، في رحمته اللانهائية وماذا ستقولُ لابنك إذا سألكَ: «ماذا ينتظرني بعد الموت»؟ أتتركه فريسةً لسحر هذا العالم ولحبائل الشيطان؟ ليس هذا حسناً!

قـال ذلـك وتوقّف، وحنى رأسه جانبياً وهو ينظر إلى ليفين بعينيه الوادعتين.

لم يجب ليفين هذه المرة، لا لأنه يرفض النقاش، بل لأن أحداً لم يطرح عليه من قبل مثل هذه الأسئلة. وسيكون لديه متّسعٌ من الوقت للتفكير فيما سيجيبُ به أولادَه عندما يطرحون عليه بدورهم هذه الأسئلة.

تابع الكاهنُ:

ـ إنك تدخل مرحلةً من الحياة ينبغي أن يختار المرءُ فيها طريقه وأن يَثْبتَ فيه. صلّ إلى الله ليمدّ إليك يدَ العون وليمنحك مغفرته.

ثم حلّه من خطاياه:

ـ يغفر لك ربنا، يسوع المسيح، بعظيم رحمته...

وبعد أن أنهى عبارت الحلّ، باركه وصرفَه.

عاد ليفين إلى بيته، وهو مغتبطٌ لأن هذا الوضع المُزعج قد انتهى دون أن يُضطَرّ إلى الكذب. وفوق ذلك، فقد أحسّ إحساساً مبهماً أن ما قاله هذا الشيخُ القصيرُ، الطيّب، لم يكن سخيفاً كما لاح له في أول الأمر، وأن فيه شيئاً يستحقّ التعمّق.

وفكّر ليفين: «لا شك أن هذا التعمق سيكون فيما بعد، لا الآن» لقد أخذ ليفين يحسّ أكثر من ذي قبل أن في نفسه مناطق مظلمة، غامضة وأن موقفه من الدين هو نفس الموقف الذي اكتشفه لدى الآخرين واستنكره ولا سيما لدى صديقه فياجسكي. كان ليفين كثير المرح، أثناء هذه السهرة التي قضاها مع خطيبته عند دولي ولكي يشرح لستيڤان اركادييڤتش حالة التهيّج الذي كان فيه، قال له: إنه كان يلهو كما يلهو الكلبُ الذي يُدَرّب على القفز في الطوق، وبعد أن يتعلّم ذلك يُنفّذ هذه الحركة البارعة التي تُطلب منه ويُطلق أصوات الفرح، ويقفزُ على الطاولات وعلى مُتكأ النافذة وهو يحرّك ذيله.

[٢]

لم يَرَ ليفين خطيبته، في يوم الزواج، جَرياً على التقاليد (كانت الأميرة وداريا الكسندروفنا مع المراعاة الدقيقة للتقاليد) وتناول عشاءَه في الفندق مع ثلاثة عُزاب اجتمعوا عَرَضاً عنده وهم: سيرج ايفانوفتش، وكاتافاسوف، وكان رفيقاً له في الجامعة، وهو اليوم أستاذٌ للعلوم الطبيعية، وقد لقيه ليفين في الطريق، وتشيريكوف شاهدُ الزواج، وهو قاضي صلح ورفيق في صيد الدب.

كان العشاء بهيجاً جداً. كان سيرج ايفانوفتش في أحسن مزاج وقد استمتع بطرافة كاتاسوف. وحين أحسّ كاتاسوف أن الحاضرين يقدّرونه ويفهمونه استفاض في الحديث وبادلهم تشيريكوف الحديث بمرح.

قال كاتافاسوف ماداً كلماته، وهي عادةٌ تعودها في التعليم:

ــ نعم، إن صديقنا الشاب قسطنطين دميتريتش كان فتى موهوباً. إني أتحدّث عنه بصيغة الماضي الغائب، لأنه لم يعد موجوداً. كان يحب العلومَ عندما ترك الجامعةَ، وكانت له اهتماماتٌ إنسانية، بينما هو يستخدم الآن نصفَ مواهبه ليخدع نفسه، ويستخدم النصف الآخر ليبرّر هذا الوهم.

قال سيرج ايفانوفتش.

ــ لم ألقَ قط عدواً لدوداً للزواج مثلك.

ــ لا، وإنما أنا من أنصار... تقسيم العمل، فالذين لا يُحسنون شيئاً يتوالدون، والآخرون يُسهمون في النمو الفكري وفي إسعاد أمثالهم من البشر، هذه هي وجهةُ نظري وهناك طائفة من الناس مُهيّأةٌ للمزج بين هاتين الفعاليتين، ولستَ في عداد هؤلاء.

قال ليفين:

ــ كم سأكون سعيداً عندما أعلم أنك عاشقٌ! أرجوك، ادعُني إلى زواجك.

ـ لكنني عاشق.

قال ليفين.

ـ نعم، عاشقٌ للعلوم.

وأضاف وهو يلتفت إلى أخيه:

ـ أتعلم أن ميشيل سيمينيتش يؤلف كتاباً عن الغذاء و. . .

ـ دعكَ من هذا، ولا تَخْلط الأشياء بعضها ببعض! فما أكتبه قليلُ الأهمية، لكن الصحيح أنني عاشقٌ للعلم.

ـ ذلك لا يمنعك من أن تعشق امرأةً.

ـ العلم لا يعوقني عن ذلك، لكن المرأة هي التي تعوق حبـي للعلم.

ـ ولمَ ذاك؟

ـ سوف ترى. إنك تحبّ استغلال أراضيك، والصيد، سترى! قال تشيريكوف:

ـ جاءني «آرشيب» اليوم، وقال لي: إن في «برودنوي» دبّين وعدداً من الظباء.

ـ تستطيع أن تصيدها بدوني.

قال سيرج ايفانوفتش:

ـ أرأيتَ، تستطيع أن تودّع منذ اليوم صيد الدب: ستمنعُك امرأتُك من ذلك!

ابتسم ليفين. لقد سرّته كثيراً هذه الفكرةُ وهي أن امرأته ستمنعه من صيد الدب حتى إنه كان مستعداً لأن يتخلى عن فرحته برؤية هذا الحيوان.

قال تشيريكوف:

من المؤسف، مع ذلك، أن نصيد هذين الدبّين بدونك. أتذكرُ المرّة الأخيرة في كابيلوفو؟ سيكون صيدهما ممتعاً!

لم يشأ ليفين أن يبدّد له أوهامه وهي أن المتعَة، أينما تكنْ، ممكنةٌ بدون كيتي. ولذلك لزمَ الصمتَ.

قال سيرج ايفانوفتش:

ــ لم تنشأ عبثاً تلك العادةُ التي بموجبها يودّع المرءُ حياةَ العزوبة. إننا نأسف على حرّيتنا مهما نكنْ سعداء.

ــ بلْ قلْ إننا نشتهي أن نُلقي بأنفسنا من النافذة، مثل خطيب «غوغول»[1].

قال كاتافاسوف:

ــ بالتأكيد، لكنه لا يُقرّ بذلك.

وأخذ يقهقه بصخب.

قال تشيريكوف وهو يبتسم:

ــ حسناً! النافذة مفتوحة... فَلْنَمضِ على الفور إلى «تفير»! ويمكننا أن نجد الدبّ في وجاره، فلنركب، حقاً، فلنركب قطار الخامسة؟ سيتدبّرون أمرهم هنا.

قال ليفين وهو يبتسم:

ــ لا، يشهد الله، إني لا أجدُ في نفسي شيئاً من الأسف على حرّيتي.

قال كاتافاسوف:

ــ لكن في نفسك من الفوضى، في هذه اللحظة ما يمنعك من وجدان شيء فيها، انتظر حتى تصفوَ نفسك قليلاً، وسترى.

ــ لا، يلوحُ لي أنني سأشعر بالأسف على حريتي، إلى جانب عاطفتي (كان يأبى أن يستخدم كلمة: حب)... وسعادتي، مهما يكن ذلك الأسفُ طفيفاً على العكس، إن فقداني حرّيتي هو ذاته الذي يوفر لي هذا الفرح.

---

(١) «خطيب غوغول»: شخصية ــ يملؤها التردد ــ في ملهاة «الخطبة» لنيقولا غوغول (١٨٣٥)، وهذه الشخصية تقفز من النافذة إلى الطابق الأرضي لتتفادى الزواج.

ـ هذه حالةٌ ميؤوسٌ منها! لنشربْ على أمل شفائه أو لِنَتمنَّ له أن يتحقَّق جزء بالمائة من أحلامه. ولسوف يبلغُ سعادةً لم يُر مثلُها على الأرض.

انصرف المدعوون رأساً بعد العشاء ليتسنى لهم تغييرُ ملابسهم قبل الاحتفال.

تساءَل ليفين مرَّةً أخرى، وقد بقي وحده وأخذَ يسترجع في ذاكرته أحاديثَ هؤلاء العزّاب، إن كان في نفسه أدنى أسفٍ على حرِّيته.

وابتسم وهو يطرح هذا السؤال على نفسه. «الحرية؟ لِمَ الحريةُ؟ السعادة عندي هي في أن أحبّ وأن أرغبَ في ألَّا يكون لي من أفكار ورغبات إلا أفكارها ورغباتها، وإذن فهي نفيُ الحرية... هذه هي السعادة!».

وهَمسَ به صوتٌ: «لكنْ هل أعرفُ أفكارها ورغباتها وعواطفها؟» وغابت الابتسامةُ عن شفتيه واستغرق في تأمُّل عميق. وفجأةً، انتابه شعورٌ غريب. تملّكه الرعبُ، والشكوك... شكٌّ في كل شيء.

وتساءل: «وإذا كانت لا تحبّني؟ وإذا كانت تقترنُ بي لتتزوَّج فقط؟ وإذا كانت لا تعلم هي نفسها ماذا تفعل؟ فقد تثوب إلى رشدها بعد الزواج فقط لتدرك أنها لم تحبّني ولا يمكن أن تحبّني». وتقاطرتْ عليه أشدُّ الأفكارِ جَرْحاً لكيتي. وأخذت غيرتُه من فرونسكي تنهشه كما نهشتْه قبل سنة، وكأن السهرة التي رآها فيها مع فرونسكي وقعتْ البارحة. ارتابَ في أنها لم تصارحْه بكل شيء.

نهضَ فجأة، وقال بيأس: «لا، الأمرُ غير ممكنٍ هكذا! سأذهبُ إليها وسأسألها، وسأقول لها للمرة الأخيرة:

ما زلنا حرّين، أو ليس الأجدر بنا أن نظل حيث نحن؟ كل شيء أفضل من الشقاء الأبدي، من العار، من الخيانة!» وخرج من فندقه وخرج إلى منزل آل تشرباتزكي، وفي قلبه أسىً، وقد امتلأ بالحقد على البشرية بأسرها، وعلى نفسه، وعلى كيتي.

وجدها في الغرفة التي في الصدر. كانت جالسةً على صندوق تُصنّف مع خادمتها أثواباً مختلة الألوان، على الأرض وعلى ظهور الكراسي.

هتفتْ، عندما شاهدته، وهي مشرقةٌ من الفرح:

ـ آه! هذا أنت، هذا أنت؟ (ظلَّت تخاطبه حتى آخر يوم بضمير المفرد تارة، وبضمير الجمع تارة أخرى). ما كنتُ أتوقّع مجيئك! إني أصنِّف أثوابي لأوزِّعها...

قال وهو ينظر إلى الخادمة بتجهُّم:

ـ آه! هذا رائع!

قالت كيتي:

ـ اذهبي، دونياشا، وسوف أدعوك.

سألته وقد صمَّمتْ أن تناديه بضمير المفرد:

ـ ما بك؟

لقد تملّكها الرعبُ عندما رأتْ وجهَه الغريب، المتجهّم، المنقلب. قال بلهجة يائسة، وهو يقف أمامها وينظر إليها بعينين ضارعتين. لقد رأى سَلَفاً من وجهها الشريف والمحب أنه لا يمكن أن ينتج شيءٌ ممّا ينوي أن يقوله لها، بيد أنه كان بحاجة إلى أن تبدِّد له مخاوفه:

ـ كيتي، إني أتعذَّب. لم يعد في طاقتي أن أتألَّم وحدي. جئتُ لأقول لكِ أن الأوانَ لم يَفُتْ بعد. وكل شيء يمكن تداركُه.

ـ كيف؟ لم أفهمْ. ما بك؟

قال دون النظر إليها:

ـ ما بي... هو ما قلتُه لك مائة مرَّة، وما لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فيه... لستُ جديراً بك، لا يمكنك أن توافقي على الزواج بي. فكِّري. لقد أخطأتِ. فكِّري مليّاً لا يمكنك أن تحبِّيني... بلى... الأفضل أن تصارحيني

بذلك. سأكون تعساً... وليقلْ الناس ما شاؤوا... كل شيء أفضل من الشقاء... الآن وما زال في الوقت متَّسعٌ...

أجابته مرتعبةً:

ــ لم أفهمْ. أتريد أن ترجع عن كلامك؟

ــ نعم، إذا كنتِ لا تحبينني.

فهتفت وقد علتها الحمرةُ من الحنق:

ــ أصبحتَ مجنوناً!

لكن وجه ليفين كان يستدرّ الشفقة إلى الحد الذي احتوى فيه فورَتها وأوقف غضبها. فأضافت وقد خلَّصتْ مقعداً من الثياب التي تغطِّيه وجلست مقتربةً منه:

ــ فيم تفكِّر؟ قل لي كلّ شيء.

ــ أفكِّر في أنك لا يمكن أن تحبِّيني. ولِم تحبِّيني؟

قالت وقد انفجرت باكيةً:

ــ يا إلهي، ما حيلتي في ذلك؟

قال وهو يجثو أمامها ويغطِّي يديها بالقبل:

ــ آه! ماذا فعلتُ؟

عندما دخلت الأميرة الغرفة بعد ذلك بخمس دقائق، وجدتهما متصالحين. لم تؤكِّد له كيتي فقط أنها تحبّه، بل إنها بيَّنت له لماذا تحبّه عندما سألها عن ذلك. قالت له: إنها تحبّه لأنها لا تفهمه فهماً تاماً، لأنها تعلم ماذا يمكن أن يحبّ ولأن كل ما يحبه حسنٌ. وبدا ذلك واضحاً كل الوضوح. وعندما دخلت الأميرةُ كانا جالسين على الصندوق جنباً إلى جنب، يفحصان الأثواب ويتناقشان، لأن كيتي كانت تريد أن تُعطي دونياشا الثوبَ الأسمر الذي كانت تلبسه عندما خطبها ليفين، بينما كان يصرّ عليها لكي لا تعطي هذا الثوب أحداً، وأن تهدي دونياشا الثوبَ الأزرق الفاتح.

كيف لا تفهم؟ إنها سمراء وهذا لا يناسبُها. . . فكَّرتُ في كل شيء.

عندما علمت الأميرةُ لماذا جاء ليفين غضبتْ وهي تمزج بين الضحك والجدّ، وصرفتْه ليرتدي ثيابه، ولكي لا يزعج كيتي باعتبار أن «شارل» سيأتي بين لحظة وأخرى ليرتِّب لها شعرها. وقالت له:

ـ إنها لم تعدْ تأكل، وهي تفقد جمالَها من يوم إلى يوم، وجئتَ تهزّها فوق ذلك بحماقاتك. انصرفْ، انصرفْ، يا عزيزي.

عاد ليفين إلى فندقه خجلاً، لكنْ مطمئناً. وفي الفندق كان ينتظره أخوه وداريا الكسندروفنا وستيڤان اركادييڤتش وهم بلباسهم الرسميّ، وذلك لكي يباركوه بالأيقونة[1]. لم يبقَ لهم من وقت يضيعونه. كان لا بدَّ لداريا الكسندروفنا من أن تمرّ على البيت لتأخذ ابنها الذي امتشط وتطيَّب لكي يحمل الأيقونة أمام العروس[2]. ثم لا بدَّ من إرسال عربة إلى شاهد الزواج، بينما يعود الآخر إلى الفندق بعد أن يوصل سيرج ايفانوفتش إلى الكنيسة. . . كانت هناك إذن مشاغل جمة في رأسها. والشيء الأكيد هو أنه ينبغي ألا يتأخَّروا. لأن الساعة تجاوزت السادسة والنصف.

خَلَت حفلةُ المباركة من الجد. لقد اتّخذ ستيڤان اركادييڤتش وضعاً مضحكاً وارتسامياً إلى جانب زوجته، وأمسك بالأيقونة. وبعد أن أمر ليفين بالسجود باركَه وعلى شفتيه ابتسامةٌ هازئةٌ، وقبّله ثلاث مرات. وفعلت داريا الكسندروفنا مثله، وهي تتعجّل الذهابَ، وقد تاهت بين حركات العربات التي رتّبتْها.

---

(١) لكي يباركوه بالأيقونة: إن الزوجين أوبلونسكي يقومان مقام الأهل. وتقضي التقاليد الروسية أن يكون للعروسين «أبوا شرف» يباركانهما إذا كان الأبوان الحقيقيان ميتين. وقد قام نائب حاكم موسكو بهذا الدور أثناء زواج تولستوي في ١٨٦٢، وهو ما يقربه من شخصية ستيڤان أوبلونسكي.

(٢) لكي يحل الأيقونة أمام العروس: كانت التقاليد الروسية تقضي أنه ينبغي للعروس التي تدخل الكنيسة أن يسبقها صبي يحمل أيقونة.

ــ هذا ما ستفعله: تذهبُ أنت لتأتي بشاهد الزواج في عربتنا وسوف يتكّرم سيرج ايفانوفتش بإرسال عربته بعد أن يصل إلى الكنيسة.

ــ بدون شك، وبكل سرور.

قال ستيڤان اركاديڤتش.

ــ وسآتي أنا مع «كوستيا» على الفور. هل أُرِسلتْ الأمتعةُ؟

أجاب ليفين:

ــ نعم.

ونادى «كوزما» كي يرتدي ثيابه.

[٣]

كان يحيط بالكنيسة المضاءة جمهورٌ يتألف معظمه من النساء. فالذين لم يستطيعوا أن يلجوا إلى الداخل ازدحموا على النوافذ وهم يتدافعون ويتنازعون، ويلقون بين الحين والآخر نظراتٍ خاطفةً من خلال القضبان.

اصطفّت على طول الرصيف أكثر من عشرين عربة بحراسة الشرطة. ووقف قرب المدخل ضابطُ شرطة متألقٌ في بزته، غيرُ مبالٍ بالبرد. وفي كل لحظةٍ، كانت تصل العرباتُ الجديدة حاملةً السيدات المزدانات بالزهور، الرافعات ذيول أثوابهن، والرجال الذين كانوا يرفعون قبّعاتهم وهم يدخلون الكنيسة. وفي الكنيسة كانت الثريات مضاءة، وكذلك جميع الشموع أمام أيقونات الكنيسة. كان كل شيءٍ مغموراً بالنور: فاصلُ المذبح على أرضيّة حمراء، ترصيعاتُ الأيقونات المذّهبةُ فضّةُ القناديل والشمعدانات، بلاطُ الأرض، السّجادُ، الأعلام التي تعلو الجوقات، درجات المنبر، الكتب القديمة المسوّدة، صدراتُ الكهنة، الحللُ الكهنوتية. وإلى اليمين، زحمة الملابس والعقد البيضاء والبزات والحرير والجوخ والساتان، والشعور العالية والأزهار والأكتاف والأرع العارية والقفازات الطويلة، سرى همسٌ

مخنوقٌ ومحتدم كـان يدوّي تحت القبّة العالية، على نحوٍ غريب. وكان هذا الهمس يقفُ كلما فُتح الباب وصرّ صريراً شاكياً، ويلتفت الجميع عـلى أمل أن يروا العروسين. داخلين. لكن الباب فُتح ما يقرب من عشر مرات وكان الداخل، في كل مرة، إما مدعواً أو مدعوة تأخّرا وانضمّا إلى جمهور الأصدقاء، في الجهة اليمنى، أو متفرّجة استطاعت أن تخدع ضابطَ الشرطة أو أن تستعطفه واختلطتْ بالجمهور، في الجهة اليسرى. لقد مرّ الأهل والمتفرّجون بجميع مراحـل الانتظار.

لقد قدّروا، في مبتدأ الأمر، أن العروسين سيصلان بين لحظة وأخرى، دون أن يولوا تأخّرهما أهميةً. ثم أخذوا يلقون نحو الباب، بنظراتٍ عجلى متواترة شيئاً فشيئاً، وهم يتساءلون إن كان قد وقع لهما حادثٌ طارىء. وأخيراً، بدا التأخّرُ مزعجاً، فتظاهر الأهل والأصدقاء بالاستغراق في أحاديثهم.

كان رئيس الشمامسة يسعل بنفاد صبرٍ فيهزّ زجاج النوافذ، وكأنه يذكِّر بأن وقته ثمين. وفي الجوقة، كان المرتّلون الذين آذاهم البردُ والضجرُ يجريون أصواتهم ويمتخطون. أما الكاهن فكان لايني يرسل الشماس تارة ليستطلع له، وخادم الكنيسة تارةً أخرى، وأخذ يطلّ من الباب الجانبـي، في أوقات أشد تقارباً، بجبته البنفسجية وزنّاره المذهب.

وأخيراً نظرتْ سيّدةٌ إلى ساعتها وقالت: «الأمر، مع ذلك، غريب!» واستولى القلقُ على الجميع وأخذوا يُعربون بصوت مرتفع عن دهشتهم واستيائهم. وفي الحين الذي كانت كيتي فيه مستعدةً منذ زمن طويل، واقفةً في قاعة الاستقبال، بثوبها الأبيض وخمارها الطويل وإكليل زهور البرتقال، تنتظر عبثاً منذ أكثر من نصف ساعة، برفقة شبينتها وأختها السيدة «لفوف»، جاء شاهدُه ليعلن أن العروس اتّجه إلى الكنيسة[١].

---

(١) العروس اتجه إلى الكنيسة: يجب أن يكون العروس قبل العروسة لكي ينتظر وصولها.

في هذه الأثناء كان ليفين، ببنطاله ودون صدرته وسترته، يذرع غرفته في الفندق ذهاباً وإياباً، مطلاً برأسه، في كل لحظة، من الباب ليتفقّد الممرّ. لكن الذي ينتظرهُ ليفين لا يُطلّ، فيدخل غرفته ويحرّك يديه ويلوم ستيڤان اركاديِيڤتش الذي كان يدّخن بهدوء، قائلاً:

ــ هل مرَّ امرؤٌ بأسخف من هذا الموقف!

فيؤيده ستيڤان اركاديِيڤتش بابتسامةٍ مُهدئة:

ــ نعم، هذا سخيف. لكنْ اهدأْ، فسيأتيك بقميصٍ في الحال.

قال ليفين وهو يكظم غيظه:

ــ تستطيع أن تتكل عليه.

وأضاف وهو يتأمل صدر قميصه المجعد:

ــ وتلك الصدرات السخيفة المفتوحة! لا خيرَ يُرجى من هذه! وهتفَ بيأس:

ــ وإذا كانت حقائبي قد أصبحت في القطار؟

ــ سترتدي قميصي.

ــ هذا ما كان ينبغي أن أفعله منذ زمن طويل.

ــ نعم، لكن لا يَحْسُن بالمرء أن يغدو مضحكاً... انتظر «ستُسَوّى» الأمورُ.

هذا ما جرى عندما طلب ليفين ثيابه من «كوزما»، وجاءه كوزما بسترته وصدرته وكل ما هو ضروري. فصاح به ليفين:

ــ والقميص!

فأجاب كوزما بابتسامة هادئة:

ــ القميص، إنه عليك.

لم يخطرْ ببال كوزما أن يحتفظ له جانباً بقميص نظيف، وبعد أن تلقّى الأمرَ

بحَزْم كل شيء وبإرساله إلى منزل آل تشرباتزكي الذي سيسافرُ منه العروسان في المساء نفسه، حَزمَ كل شيء ما عدا الثياب التي سيلبسها ليفين. وكان القميص الذي لبسه منذ الصباح قد تجعد وغدا لا يُلبس مع الصدرة المقوّرة على آخر زيّ. وكان منزل آل تشرباتزكي بعيداً. فأُرسِلَ خادمٌ ليشتري قميصاً. لكن الخادم عاد: كانت المتاجرُ مغلقةً لأن اليوم يوم أحد وجيء بأحد قمصان ستيڤان اركادييڤتش لكنه كان واسعاً جداً وقصيراً جداً. وحين استُنْفدت جميع الوسائل أُرْسلَ الخادم ليفكّ الأمتعةَ في منزل آل تشرباتزكي. كان الناس ينتظرون الخطيبَ في الكنيسة، وهو كالوحش الهائج في قفصه، يروح ويجيء في غرفته ملقياً بين الحين والآخر نظرات خاطفةً على الممر، ومتسائلاً برهبةٍ عمّا يمكن أن تتصوّره كيتي في هذه اللحظة، بعد ذلك الهراء الذي ألقاه عليها.

وأخيراً اقتحمَ الغرفةَ كوزما المذنبُ وهو يلهث ومعه القميص. وقال:

ــ وصلتُ في الوقت المناسب. كانت الحقائب تُحمّلُ.

وبعد ثلاث دقائق مرّت دون أن ينظر ليفين إلى الساعة حتى لا ينكأ جراحه، كان ليفين يجري في الممر.

قال ستيڤان أركادييڤتش مبتسماً وهو يتبعه دون أن يستعجل:

ــ ليس كذلك تُسوّى الأشياء. لقد قلت لك أن كل شيء سيُسوّى.

[٤]

عندما استقبل ليفين العروس في فناء الكنيسة ودخل الكنيسة معها، سُمعتْ في الجمهور أصواتٌ تقول: ــ «لقد وصلوا» ــ «ها هو ذا» ــ «أيّهم هو؟» ــ «الأصغر؟» ــ «وهي، المسكينة، ميتةً أكثر منها حيّةً!».

أسرّ ستيڤان اركادييڤتش إلى زوجته بسبب التأخّر، وتناقل المدعوّون النبأ بصوت خفيض وهم يبتسمون. ولم يكن ليفين يلاحظ شيئاً ولا إنساناً، ولم يكنْ يرفع بصره عن العروس.

كان الجميعُ يقولون: إنها فقدتْ الكثيرَ من جمالها في هذه الأيام الأخيرة، وأنها بالإكليل أقل جمالاً بكثير من العادة. ولم يكن كذلك رأي ليفين. كان يتأملُ زينةَ شعرها العالي مع الخمار الأبيض الطويل والأزهار البيضاء، والكشكش المرتفع الذي كان يحيط بجانب من عنقها الطويل، كما يليق بالعذارى، ويكشف عن مقدمة هذا العنق، وقامتها النحيفة إلى حد غير عادي، كان يتأمل ذلك كله فتبدو له أجمل منها في أي وقت مضى، لا لأن هذه الأزهار، وذلك الخمار وذلك الثوب الذي أوصيَ عليه من باريس، قد أضافت شيئاً إلى جمالها، بل لأن وجهها الفاتن ونظرتها وشفتيها احتفظت، بالرغم من البذخ المتكلف في زينتها، بمظهر الصدق البريء الذي كان خاصاً بها.

قالت له وهي تبتسم:

ـ ظننتُك ستهربُ.

فأجابها والحمرةُ تعلوه:

ـ وقع لي مضحكٌ للغاية، وأنا أخجل من الكلام عليه!

واضطرّ إلى أن يلتف نحو سيرج ايفانوفتش الذي اقترب منه، وقال وهو يهز رأسه ويبتسم:

ـ قصة القميص هذه مسليةٌ حقاً!

فردّ ليفين دون أن يعلم ماذا يُقال له:

ـ نعم، نعم.

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو يتظاهر بالقلق الكاذب:

ـ كوستيا، لقد آن الأوانُ لحل هذه المسألة الخطيرة. وسوف تقدّر أهميّتها، في الحال. إنهم يسألونني إن كان ينبغي أن نضيء شموعاً جديدةً أو مستعملة.

وأضاف وهو يغلق شفتيه في ابتسامة:

ـ والفرق هو عشرة روبلات، اتخذتُ قراراً، لكنني أخشى ألاَّ توافق عليه.

أدرك ليفين أنها مزحةٌ لكنه لم يستطيع أن يضحك.

ـ ما رأيكَ! جديدة أم مستعملة؟ هذه هي المسألة.

ـ جديدة، جديدة!

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو يبتسم:

ـ آه! أثلجتَ صدري! حُلّتْ المشكلةُ.

وقال لتشيريكوف عندما عاد ليفين إلى جانب عروسه بعد أن ألقى عليها نظرة ولهى:

ـ عجيبٌ كم يغدو الناس بُلهاً في مثل هذه المناسبة!

قالت الكونتيسة نوردستون وهي تلحق بالعروسين:

ـ كيتي، انتبهي، ضعي قدمكِ على البساط قبله[1].

وأضافت وهي تلتفت إلى ليفين:

ـ إنك ترتكب حماقات!

وقالت ماريا دميتريفنا وهي عمةٌ عجوز:

ـ لستَ خائفاً؟

وقالت السيدة «لفوت»:

ـ أتشعرين بالبرد! أنتِ شاحبةٌ. انتظري، اخفضي رأسك.

وأدارت ذراعيها الجميلتين فأصلحت اكليلَ أختها.

دنتْ دولي، وأرادت أن تقول شيئاً، لكنها لم تستطع أن تلفظ حرفاً، فانفجرتْ باكيةً، ثم ما لبثْ أن أخذتْ تضحك بعصبية.

---

(١) ضعي قدمك على البساط قبله: هناك خرافة روسية تقول إن الذي يضع قدمه ـ من العروسين ـ قبل الآخرة على البساط الصغير أمام المقرأ الذي يجري عنده الاحتفال بالزواج سيكون سيد الأسرة المقبلة.

كانت كيتي مثل ليفين تنظر إلى الجميع بعينين شاردتين.

في هذه الأثناء لبس المحتفلون زينتهم ووقف الكاهن والشماس بجنب المقرأ الذي وُضع في صحن الكنيسة. التفت الكاهنُ إلى ليفين وقال له بضع كلمات. فلم يفهم ليفين.

فهمس إليه شاهدُه:

ــ خُذْ عروسَك بيدها وقفا أمامَ المِقْرأ.

خلال برهة غير قصيرة، لم يفهمْ ليفين ما يُطلَبُ منه. وقد هبَّ الذين حوله لنجدته غير مرة، وكادوا يعدلون عن التدخل، لأنه كان يخطىء في استخدام يديه، وعندما أدركَ أخيراً أنه ينبغي أن يضع يد العروس اليمنى في يده اليمنى، دون أن يغيّر وضعه، وبعد أن أقام بالحركة المطلوبة، تقدّم الكاهنُ بضع خطوات ووقفَ أمام المقرأ.

تبعَه جمهورُ الأهل والأصدقاء في همس الأصوات وحفيف ذيول الأثواب. وانحنى أحدُهم ليصلح ذيل ثَوب العروس. ورانَ على الكنيسة صمتٌ عظيمٌ حتى لقد كانت تُسْمَعُ قطراتُ الشمع وهي تسقط.

أخرج الكاهنُ ــ وهو شيخٌ قصير ــ ، يلبس قلنسوة، وقد فصَلَ شعره الفضي إل خصلتين خلف أذنيه ــ يديه المغضّنتين الصغيرتين من حلته الثقيلة، وهي من الجوخ الفضي وعلى ظهرها صليبٌ مذهب، وقلّب صفحات كتاب القدّاس على المقرأ.

اقترب من ستيڤان أركادييڤتش بهدوء وهمس إليه بكلمتين، وبعد أن غمزَ بعينه ليفين، تراجع.

أشعل الكاهن شمعتين مزدانتين بالورود، وأمسكَ بهما في يده اليسرى وهما مائلتان حتى إن الشمع كان يتساقط منهما قطرةً قطرةً ببطء، واستدار نحو العروسين. كان الكاهنُ هو نفسُه الذي عرَّف ليفين. حطّ على العروسين عينيه

الحزينتين المتعبتين، وتنّهد، وأخرجَ يده اليمنى من تحت حلته، وبارك العروس، ثم وضع، بشيء من الحنان، أصابعه المضمومة على رأس كيتي المنحني. ثم مدّ إليهما الشمعتين، بعد أن تناول المبخرة، ابتعد عنهما بخطوات بطيئة.

فكّر ليفين: «أحقيقيٌّ هذا؟» والتفت إلى عروسه. كان يرى جانباً من وجهها: لقد أحسّ من حركة شفتيها التي لا تكاد تُرى ومن أهدابها أنها شعرت بنظرته. فلم تتحرك، لكن الكشكش العالي اضطراب وارتفع حتى أذنها الوردية الصغيرة. ورأى أن زفرةً استقرّت في صدرها، وأن يدها الصغيرة المغطّاة بقفاز طويل والتي كانت تحمل الشمعة أخذت ترتجف.

حينئذٍ توارى ذلك الاضطرابُ: القميصُ، وتأخّرُه، وأحاديثُ الحاضرين، واستياؤهم، ووضعُه المضحك، اختفى كل ذلك فوراً، وشعر بفرح ممزوج بالرهبة.

تقدم رئيس الشمامسة، وهو رجلٌ وسيم في حلة من الجوخ الفضي، ردّ شعره المجعّد إلى جانبي رأسه، بخطوات ثابتة، ووقف أمام الكاهن، رافعاً الصدرة الكهنوتية بحركة معهودة:

ــ باركْني، يا سيدي!

ودوت الأصوات المهيبة ببطء، واحداً بعد الآخر، فارتعش الفضاءُ بها.

وردّد الكاهنُ العجوز بصوت رخيمٍ ومُذعن، وهو لايني يبحث عن شيء في كتاب القدّاس:

ــ تبارك الله الآن وإلى دهر الداهرين!

وارتفع من الجوقةِ غير المرئية ترتيلٌ عريض، منسجمٌ، ملأ الكنيسة كلها من النوافذ إلى القبة، وتعاظم، وتذبذب، ثم تلاشى بهدوء. وصلّوا كالعادة، من أجل الراحة الأبدية، وخلاص النفوس، والمجمع المقدّس، والامبراطور؛ وأيضاً من أجل خادمي الرب قسطنطين وكاترين اللذين كانا يتّحدان في هذا اليوم.

رتّل صوتُ الشماس الذي كان كأنما يبعث الحياةَ في الكنيسة بنفسه:

ــ لنُصلِّ للرب كي يمنحهما الحبّ الكامل والسلام بعونه.

أصغى ليفين إلى هذه الكلمات فأذهلتْه. وقال في نفسه، وقد خطر بباله قلقُه وشكُوكهُ الحديثة: «لكأنهم حزروا أنني بحاجة إلى العون بالذات». ما نفعُ علمي، وما نفع مقدرتي، في هذه القضيّة الرهيبة، بدون عون. إنما أنا بحاجة إلى العون بالذات في هذه اللحظة.

عندما أنهى الشماسُ صلواته، استدار الكاهن نحو العروسين بكتابه:

ــ أيها الربّ الأزلي، يا من جمعَ برباط الحبّ الذي لا ينفصم مَنْ كانا مفترقين، يا من باركتَ اسحق ورفيقيه اللذين جعلتهما وارثين لعهدك، باركْ أيضاً عبديك قسطنطين وكاترين وثبّتْهما في طريق الصلاح لأنك إلـه المحبّة والرحمة ونحن نسبّح: المجدُ للآب والابن والروح القدس الآن وإلى دهر الدهور.

ورتّلت الجوقةُ التي لا تُرى، من جديد: آمين.

عندما التفتَ إليها، لاقى نظرَتها. فاستنتج من تعبير تلك النظرة أنها كانت تحسّ بما يحسّ به. لكنه كان مخطئاً: ذلك أنها لم تكد تفهم الصلوات، بل لم تعرْها انتباهاً أثناء تبادل الخاتمين. لم يكنْ بوسعها أن تفهمها أو تصغي إليها لفرط ما كان قوياً ذلك الشعورُ الوحيد الذي ملأ نفسها بقوة متعاظمة. أما هذا الشعور فكان الفرح بإتمام ما طرأ على أعماق كيانها منذ شهر ونصف، ما عذّبها حيناً وما ملأها نشوةً حيناً آخر، طوال ستة أسابيع. في ذلك اليوم الذي فيه دنت منه، دون أن تقول شيئاً، وأعطتْه نفسها؛ وهي في قاعة الاستقبال، وفي ثوبها الأسمر، في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة حدثَ في نفسها انفصام تام عن حياتها الماضية بأسرها، وبدأت حياةٌ جديدةٌ ومجهولةٌ تماماً، بينما استمرّتْ الحياةُ القديمةُ في الظاهر. كانت هذه الأسابيع الستة أسعد فترات حياتها وأكثرها تعذيباً لها. كانت حياتها كلها، ورغباتُها كلها، وآمالها كلها منصَبّةً على هذا الرجل الغامض الذي

كان يجذُبها تارة وينبذها تارةٌ أخرى بيد أنها ظلَتْ تعيش كما كانت تعيش في الماضي. وكانت، وهي تعيش حياتها القديمة، مروَّعةً من ذاتها، من عدم اكتراثها التام بماضيها: بالأشياء والعادات، والناس الذين أحبّوها والذين ما زالوا يحبّونها، بأمها التي أحزَنها عدم الاكتراث هذا، بأبيها اللطيف والرقيق الذي أحبّته أكثر من أي شيء في العالم. كانت حيناً مرتعبةً من عدم الاكتراث هذا، وحيناً آخر مغتبطة ممّا ساقها إلى هذه الحالة. لم يكن بوسعها أن تفكّر أو ترغب في شيء ما عدا الحياة مع هذا الرجل، لكن هذه الحياة الجديدة لم تبدأ بعدُ، ولم تكن تستطيع أن تتصورها تصوّراً واضحاً. فلم يبقَ سوى الانتظار... الرهبةُ والفرحُ من الجديد ومن المجهول. أما الآن فسوف ينتهي كل شيء، بين لحظة وأخرى، سينتهي الانتظارُ، والغموض والالتباس، والندم على تنكّرها لحياتها الماضية.

وكيف لا يكون ذلك مرعباً بشكوكه، لكن التغيّر، سواء أكان مرعباً أم لا ، ابتدأ فيها قبل ستة أشهر، وهذه اللحظة ليست سوى تكريس لما تمّ في أعماقها منذ زمن بعيد.

أخذ الكاهن بصعوبة خاتم كيتي الصغير، بعد أن عاد إلى جانب المقرأ، وأدخله في سلامي بنصر ليفين.

ــ يُكلّل خادم الرب فسطنطين على أمّة الرب كاترين.

وبعد أن وضع الكاهن خاتم ليفين في بنصر كيتي الوردي، المثير للعطف بنحافته، كرّر الكلمات نفسها.

حاول العروسان، غير مرة، أن يعرفا ما ينبغي فعله، لكنهما كانا يخطئان في كل مرة، وكان الكاهن يدّلهما بصوت خفيض. وأخيراً باركهما بالخاتمين، بعد أن فعلا ما يجب فعلُه، وأعاد الخاتمَ الكبير إلى كيتي والصغير إلى ليفين. فتخبّطا مرة أخرى، وتبادلا خاتميهما، مرتين متواليتين، دون أن يتوصلا مع ذلك إلى النتيجة المتوخّاة.

خرجَ تشيريكوف وستيڤان أركادييڤتش ودولي من جمهور الحضور ليساعدوهما. ونجم عن ذلك من الفوضى والهمس والابتسامات، لكن العروسين حافظا على تعبيرهما الرقيق والارتسامي. بل إن هيئتهما، وهما يخطئان في اليد التي ينبغي استعمالها. كانت أكثر رصانةً وإغراقاً في الجد، حتى إن الابتسامة غابت عن شفتي ستيڤان تلقائياً عندما همس إليهما أن كل واحد منهما ينبغي أن يضع خاتمه في يده. لقد أحسّ أن كل مظهر من مظاهر السخرية جديرٌ بأن يجرحهما.

وقرأ الكاهن بعد تبادل الخاتمين:

ـ أنتَ، يا مَنْ خلقَ منذ البَدْء، الذكر والأنثى، ومن تلقّى منه الرجلُ والمرأة لتكون عوناً له وليدومَ الجنسُ البشري. أنتَ، يا مَنْ أظهرتَ الحقيقة لآبائنا خُدَامك الذين اختَرتَهُم من جيل إلى جيل. انظرْ بعين الرضا إلى خادمك قسطنطين وأمَتكَ كاترين، وثبّتْ اتحادهما في الإيمان والوفاق والحقيقة والمحبة.

كان ليفين يحسّ أكثر فأكثر أن جميع أفكاره عن الزواج، وجميع أحلام المستقبل، لم تكنْ سوى صبيانيات، وأن هاهنا شيئاً لم يفهمه حتى الآن، وأن فهمه له أقل من ذي قبل، الآن بعد أن غدا هو مدار الأمر، وهزت صدرَه الزفراتُ، واغرورقت عيناه بدموع أبتْ إلا أن تنهمر.

[٥]

موسكو بأسرها، أهلاً وأصدقاء، حضرت الزفاف. وأثناء تبادل الخاتمين، في الكنيسة المتألقة الأنوار، استمرّتْ الأحاديث المتكتمّة بصوت خفيض بين النساء، والفتيات المتبرّجات، والرجال بعقدهم البيضاء ولباسهم الرسمي الأسود وبزّاتهم، ولا سيّما بين الرجال، لأن النساء كنّ مستغرقات في تأمل جميع تفاصيل الاحتفال المثير دائماً لهنّ.

في طائفة الخُلصاء الذين يحيطون بالعروس، كان هناك الأختان دولي الكبرى، والسيدة لفوف التي وصلتْ من الخارج.

قالت السيدة كورسونسكي.

ــ لمَ يا ترى تلبس ماري ثوباً خبازياً؟ إن هذا أقربُ إلى الحداد.

وقالت السيدة دروبنسكوي:

اللون الخبازي هو ملاذُها الوحيد، مع تلك السحنة التي لها. لكني أتساءل لِمَ اختاروا المساء للزفاف إن في ذلك رائحة التجارة...

أجابتْ السيدة كورسونسكي:

ــ في المساء أجمل. وأنا أيضاً تزوجتُ، في المساء.

وتنهّدت وهي تتذكّر كم كانت فاتنة في ذلك اليوم، وكم كان زوجها مضحكاً في عشقه. وأضافت:

ــ لكن الأشياء تغيّرتْ كثيراً اليوم!

قال الكونت سينيافين للأميرة الجميلة تشارسكي التي كانت تطمع في الزواج منه:

ــ يقال إن من كان شاهد زواج في حياته أكثر من عشر مرات فلن يتزوج؛ لقد أردتُ أن أحصِّن نفسي ضد الزواج، لكني وجدتُ المكان مشغولاً.

فلم تجب الأميرةُ بغير الابتسام. كانت تنظر إلى كيتي وتفكِّر أنها عندما تصبح مع الكونت سينيافين في مثل هذا الموقف، فسوف تذكّره بهذه الدُعابة.

وكان الشاب تشرباتزكي يقول للوصيفة العانس نيكولاييف: إنه سيضعُ الإكليل[1] على عقيصة كيتي ليحمل السَعْد إليها.

---

(١) سيضع الإكليل: كان الشبينان يمسكان بإكليلين مذهبين فوق رأسي العروسين أثناء الاحتفال؛ وأحياناً يضعانهما بكل بساطة على رأسي العروسين.

قالت الفتاةُ العانس التي قرّرت منذ زمن بعيد أنه إذا ما تزوّجها ذلك الأرملُ العجوز الذي تأمل في اصطياده فسوف يكون الزواج كأبسط ما يكون. لستُ أحبُّ هذه الأبهة.

وقال سيرج ايفانوفتش ممازحاً داريا دميتريفنا[1]: إن عادة السفر بعد الزواج إذا كانت منتشرة فلأن العروسين كانا دائماً خجلين من اختيارهما.

ـ يحق لأخيك أن يفتخر. إنها رائعة. وأقدّر أن ذلك ينبغي أن يثير غيرتك.

فأجاب وقد اصطبغ وجههُ فجأة بأمارات الجدّ والكآبة:

ـ تجاوزتُ هذه المرحلة.

وكان ستيڤان أركادييڤتش يُطلع أخت زوجته على توريته عن الزواج.

فأجابت دون أن تصغي إليه:

ـ ينبغي تسوية الإكليل على رأسها.

قالت الكونتيسة توردستون للسيدة لفوف:

ـ من المؤسف أن تفقد من جمالها إلى هذا الحد. وبالرغم من كل شيء فإنه لا يساوي إصبعها، أليس كذلك؟

فأجابت السيدة لفوف.

ـ لا، إنه يُعجبني كثيراً، لا كصهرٍ فقط. وما أحسن هيئته! من الصعب جداً أن يكون المرءُ حسن الهيئة وألا يكون مضحكاً في هذا الموقف. وهو ليس مضحكاً ولا متصنعاً، بل إنه متأثّر، كما ترين.

ـ كنت تتوقعين هذا الزواج، على ما أظنّ؟

ـ تقريباً. لقد أحبّته دائماً.

ـ أوه! لِنرَ من سيضع قدَمه قبل الآخر، على البساط. لقد نبّهتْ كيتي.

أجابت السيدة لفوف:

---

(١) داريا دميتريفنا: هي السيدة لفوف أخت كيتي.

ـ لا أهمية لذلك. نحن جميعاً نساء خاضعات لأزواجنا، هذا شيءٌ في أسرتنا.

ـ أنا، وضعت قدمي قصداً قبل «بازيل»، وأنت، يا دولي؟

كانت دولي بجنبهما تصغي إليهما، لكنها لم تجبْ. كانت منفعلةً جداً. كانت عيناها مبللتين، ولم يكن بوسعها أن تقول شيئاً دون أن تنفجر باكيةً. كانت سعيدة لكيتي وليفين، وحين انتقلت بفكرها إلى زواجها، أخذت تنظر إلى ستيڤان أركادييڤتش المتألّق، ونسيت الحاضر فلم تتذكر سوى حبّها الأول البريء. لم تكن تفكّر في نفسها فحسب، بل في جميع النساء اللواتي عرفتهن عن كثب؛ تذكّرتهنّ في تلك اللحظة الوحيدة والمهيبة حيث بقين واقفاتٍ، مثل كيتي، وفوق رؤوسهن الإكليلْ والحب والأمل، وفي قلوبهن حسرةُ القلق، بعد أن قطعْنَ صلاتهن بماضيهن ودَلَفْن إلى مستقبل غامض. وفي عداد هؤلاء النساء اللواتي مرزْن بذاكرتها الحبيبةُ «آنا»، وقد علمت. منذ وقت قريب، بمشروع طلاقها. لقد رأتها آنذاك، نقيّةً مثل كيتي، يغطيها خمارٌ أبيض، ويكلّلها إكليلٌ من زهور البرتقال، والآن؟ قالت في نفسها «ما أغرب ذلك!».

لم يكن الأهل والأختان والصديقات هم الذين يلاحظون وحدهم تفاصيل الاحتفال، بل كان هناك متفرّجات غريبات، متأثّرات، يَحْبسْن أنفاسهن خوفاً من أن يُضعن حركة من حركات العروسين أو تعبيراً من تعابير وجهيهما، ولا يرددْن إلا مكرهاتٍ على الدعابات والملاحظات النابية التي يبديها رجالٌ غيرُ مبالين والتي لم يكنّ يصغين إليها، في معظم الأحيان.

ـ لِمَ كانت عيناها محمرّتين؟ هل زُوِّجَتْ بالرغم منها؟

ـ بالرغم منها؟ مثل هذا الرجل الوسيم! إنه أمير، أليس كذلك؟

ـ أختُها هذه التي هي هناك بالساتان الأبيض؟ اصغي إلى الشماس كيف يزعق: «لِتَخفْ زوجها!».

ـ والمرّتلون هل جاؤوا من تشودوفو[1]؟

ـ لا ، من المجمع الكنسي.

ـ سألتُ الخادمَ فقال لي: إنه سيأخذها على الفور إلى أملاكه. وهو عجيبُ الثراء، على ما يبدو. ولذلك زوّجوها.

ـ آه! إنهما زوجان متكافتان.

ـ وأنت، يا ماري فاسيلييفنا، كنت تزعمين أن النساء لم يعدْن يلبسن التنانير المنتفخة. انظري إلى ذلك الثوب الأكلف، كم تنورة تلبس. . . أترين!

ـ ما ألطفها، العروس، إنها مزينةٌ مثل حمل صغير! مهما يُقلْ فإننا، نحن النساء، جديراتُ بالرثاء.

هذه هي الأحاديث التي تبادلتها المتفرجات اللواتي نجحن في الانسلال إلى داخل الكنيسة.

[٦]

بعد تبادل الخاتمين، مدْ أحدُ المحتفلين أمام المقرأ، وسط الكنيسة، بساطاً من الحرير الوردي، وأنشدت الجوقة أحد المزامير إنشاداً لطيفاً تجاوبَ فيه الصوتُ الصادحُ والصوت الجهير، وأشار الكاهن، وهو يستدير للعروسين إلى البساط الوردي المدود على الأرض. ومع أنهما سمعا كلاهما عدة مرات بالخرافة التي تقضي أن يكون مَنْ يضع قدمه قبل الآخر على البساط سيّد الأسرة، إلا أنهما لم يتذكرا ذلك عندما خطوا هذه الخطوات على البساط، ولم يسمعا أيضاً الملاحظات التي قيلت حولهما بصوت عالٍ: لقد زَعَم بعضُهم أنه هو الذي وضع قدمه أولاً، وزعم آخرون أنهما وضعا قدميهما معاً.

---

(١) تشودوفو: (دير المعجزة)، دير قديم في وسط الكرملين، مقر البطاركة حتى سنة ١٧٠٠. وهو غير موجود اليوم.

وبعد الأمثلة الطقْسيّة عن رغبتهما في عقد الزواج وتأكيدهما بأنهما لم يقطعا عهداً لآخرين، وبعد الأجوبة التي وقعتْ على مسمعيهما نفسيهما موقعاً غريباً، بدأ قدّاسٌ جديد. كانت كيتي تصغي إلى كلمات الصلوات محاولةً التقاطَ المعنى دون أن تُفلح في ذلك. لقد استولى على نفسها أحساسٌ من الظفر والحبور بقوةٍ متعاظمة مع تقدّم القدّاس، وجعلها عاجزةً عن تركيز انتباهها.

لقد صُلِّي لكي «يمنح الله العروسين العفّة والخصبَ، ولكي «يغتبطا بمرأى بنيهما وبناتهما». وأشيرَ إلى أن الله قد خلق المرأة من ضلع آدم» ولذلك يتركُ الرجلُ أباه وأمه ويتعلّق بامرأته فيصيران اثنين في جسد واحد»: «وهذا سرّ كبير»؛ وصُلِّي لكي يباركهما الله كما بارك اسحق ورفقة... ولكي يريا أولادهما. وفكرت كيتي وهي تصغي إلى هذا الكلام: «هذا رائع، ولا يمكن أن يكون الأمرُ غير ذلك» وأضاءتْ وجهها ابتسامةٌ مشرقةٌ كانت تُعدي كل الذين ينظرون إليها بالرغم منهم.

وعندما رفع الكاهنُ الإكليلين فوق رأسيهما، وأخذَ تشرباتزكي واحداً منهما وثبّته فوق رأس كيتي ويده ترتجف في قفازها ذي الأزرار الثلاثة همس إليه الحاضرون:

ــ ضَعْهُ على رأسها كلياً.

وهمستْ إليه كيتي وهي تبتسم:

ــ ضَعْهُ على رأسي.

التفت ليفين إليها وراعتْه إشراقةُ الحبور التي بدتْ على وجهها؛ وانتقل إليه هذا الإحساس تلقائياً، فأحسّ مثلها أنه سعيدٌ مبتهجٌ.

سُرّا بسماع الرسائل وبصوت رئيس الشمامسة المُجلجل في الآية الأخيرة التي انتظرها الحاضرون بفارغ الصبر. وشربا أيضاً من الكأس خمراً أحمر ممزوجاً بالماء، وازداد فرحهما عندما أزاح الكاهن صدرته الكهنوتية عنه، وأخذ يديهما في يديه ودار بهما دورةً حول المقرأ في حين كان الشماس يرتّل: «اشعيا، ابتهجْ!»

وكان تشرباتزكي وتشيريكوف يبتسمان أيضاً، وهما يثبتان الإكليلين، ويبدوان مسحورين وهما يتعثران بذيل ثوب العروس ويتباعدان حيناً، ويصطدمان حيناً آخر بالعروسين عندما يقف الكاهن. وكانت شرارة الفرح التي أشعلتها كيتي تطوفُ بالجميع. وخُيِّل إلى ليفين أن الكاهن والشماس كانا يشتهيان أن يبتسما مثلها.

بعد أن رفع الكاهنُ الإكليلين عن رأسيهما، قرأ الصلاة الأخيرة وهنّأ العروسين. تطلّع ليفين إلى كيتي: لم يرها قط بمثل هذا الجمال. كانت مزدانةً بإشرافة السعادة الجديدة الظاهرة على وجهها. أراد ليفين أن يقول شيئاً، لكنه لم يكن يعلم إن كانت الصلاة قد انتهت. فخلّصه الكاهن من ورطته. إذ ابتسم له ابتسامةً رقيقةً وقال له بصوت عذب:

ــ قَبِّلْ زوجتك، وأنتِ قبّلي زوجك.

واستردّ الشمعتين منهما. فقبّل ليفين شفتي كيتي بحذر، وقدّم إليها ذراعه، وخرج من الكنيسة، وهو يُحسّ بتقاربٍ غريب بينهما لم يكن يصدّق، لم يكن بوسعه أن يصدّق أن ذلك حقيقي. ولم يستطعْ أن يُصدّق إلا عندما تلاقت نظرتاهما المدهوشتان والمرتعبتان، لأنه أحس أنهما قد صارا كائناً واحداً منذ هذا اليوم.

بعد العشاء، سافر العروسان في المساء نفسه إلى الريف.

[٧]

مرّت ثلاثةُ أشهر وآنا وفرونسكي ما يزالان مسافرين في أوروبا لقد زارا البندقيّة وروما ونابولي ووصلا إلى مدينة إيطالية صغيرة كانا ينويان أن يقيما فيها بعض الوقت.

كان مديرُ الفندق ــ وهو رجل وقور ذو شعر كثيف، مدّهن، يفصله مفرقٌ يبدأ من عنقه، في ثياب وقميص من القطن الرقيق، وقد ازدان بطنُه المدوّرُ بالسلاسل ــ يجيب عن الأسئلة التي يطرحها عليه رجلٌ هناك وهو يغمز بعينيه غمزاً

ينمّ عن الاحتقار، ويداه في جيبيه وعندما سمع خطوات على درج المدخل، استدار وشاهد الكونت الروسي الذي يشغل أفضل شقة في الفندق. فأخرج حينئذٍ يديه باحترام، وانحنى وأبلغه أن له رسائل وأن وكيل «القصر» الذي تجري المحادثات بشأنه، وافق على التوقيع على عقد الإيجار.

قال فرونسكي:

آه! هذا حسنٌ. هل السيدة في البيت؟

أجاب المديرُ:

ـ السيدةُ ذهبت إلى النزهة، وقد عادت قبل هنيهة.

رفع فرونسكي قبْعته الرخوة، العريضة الحافة، ومسح بمنديله جبهته التي بللها العرق، وشعره المتوسط الطول، المردود إلى الوراء ليغطيّ صلعته. وألقى نظرةً شاردة على الرجل الذي ظل واقفاً يلاحظه، وأراد أن يتابع طريقه. فقال له مدير الفندق:

ـ هذا السيّد روسيٌّ وقد سأل عنك.

التفت فرونسكي مرة أخرى نحو هذا الرجل، وقد تملّكه شعورٌ مركّبٌ من الحنق لأنه لا يستطيع أن يتخلّص من علاقاته، ومن الرغبة في أن يجد له سلوى تنقذه من رتابة حياته، وفي اللحظة نفسها استضاءت عيونهما:

ـ غولينيتشيف!

ـ فرونسكي!

كان الرجلُ هو غولينيتشيف بعينه، وهو زميل فرونسكي في المدرسة العسكرية: كان من الزمرة المتحرّرة فيها وقد تخرّج برتبة مدنية ولم يسعَ إلى متابعة الخدمة. ومنذ تخرّجهما من المدرسة لم يلتقيا سوى مرة واحدة.

في تلك المرة التي التقيا فيها، أدرك فرونسكي أن غولينيتشيف قد اختار نشاطاً متحرراً واسع الآفاق ساقه إلى ازدراء حالة فرونسكي. ولذلك واجهه

فرونسكي بتلك التصرفات الباردة والمتعالية التي يُحسن إظهارها والتي كان معناها: «إن نمط حياتي قد يعجبك أو لا يعجبك، لا فرق عندي، ينبغي لك أن تُبدي لي بوادر الاحترام إذا شئت أن تظل على صلة أحدنا بالآخر». وهذا الأسلوب لم يترك في غولينيتشيف سوى الاستخفاف واللامبالاة. هذا اللقاء كان قميناً أن يبعدهما أحدهما عن الآخر إلى الأبد. بيد أن وجهيهما استضاءا وندت عنهما صرخةُ الفرح عندما تعرف أحدهما بالآخر. لم يكن فرونسكي يتوقع أن يشعر بمثل هذا الفرح عند لقاء غولينيتشيف، ولعل ذلك لأنه لم يتبيّن إلى أي حدّ انتابه الضجرّ. لقد نسي الأثر المؤلم الذي تركه لقاؤهما الأخير، فمدّ يده إلى زميله القديم، بوجه منبسط وسعيد. ونفس التعبير الفَرح بَسطَ أساريرَ غولينيتشيف.

قال فرونسكي وهو يبتسم ابتسامةً كشفتْ عن أسنانه البيضاء، الجميلة:

ــ كم أنا سعيد بلقائك!

ــ سمعتُ الناسَ هنا يتحدثون عن فرونسكي، لكني ما كنتُ أعلم أنك أنت. أنا سعيدٌ بلقائك.

ــ هيّا، ادخلْ. ماذا تفعل هنا؟

ــ أنا هنا منذ أكثر من سنة. إنني أعمل.

قال فرونسكي باهتمام:

ــ آه! هيّا ادخلْ.

واستأنف الحديثَ بالفرنسية، على عادة الروس، لكي لا يفهمه الخدمُ، فقال له بالفرنسية وهو يلاحظ بانتباه وجهَ غولينيتشيف:

ــ أتعرف السيدة كارينين؟ نحن مسافران معاً، أنا ذاهب إليها. أجاب غولينيتشيف بلهجة غير مبالية:

ــ آه! إنني أجهل ذلك (لم يكن يجهل ذلك إطلاقاً).

وأضاف:

ـ أمن زمن بعيد وصلتَ؟

قال فرونسكي وهو ما يزال يلاحظ وجهَ صديقه:

ـ أنا؟ منذ ثلاثة أيام.

قال فرونسكي في نفسه وقد استحسن طريقة غولينيتشيف في تغيير الحديث: «نعم، إنه رجل حسنُ التهذيب يرى الأشياء بمظهرها الحقيقي. إنه يفهم الأشياء، ونستطيع أن نقدّمه إلى آنا».

كان فرونسكي دائما التساؤل، أثناء هذه الأشهر الثلاثة التي قضاها مع آنا في الخارج، كيف ينظر الناسُ الجددُ الذين يلقاهم إلى علاقته بآنا، وكان يعثرُ، في معظم الوقت، لدى هؤلاء الناس على الفهم «اللازم». لكنه لو سُئل هو أو هؤلاء الناس: علام يقومُ ذلك الفهمُ، لأعياهم الجوابُ.

والحقيقة أن الذين كانوا، في رأي فرونسكي، يفهمون الأشياء كما «يلزم»، لم يكونوا يفهمونها على الإطلاق، لكنهم كانوا يتصرّفون على العموم، كما يتصرف الناس الحسنو التهذيب إزاء القضايا المعقّدة، التي لا تُحَلُّ، والتي يصطدم بها الإنسانُ لدى كل خطوة في حياته؛ كانوا يلتزمون التحفّظ الفطنَ، ويتحاشون التلميحات والأسئلة المُستثقلة، ويتظاهرون بأنهم يفهمون الموقفَ كل الفهم، ويقبلون به، بل ويوافقون عليه، وإن قدّروا أنه لا طائل من شرحهم لرأيهم ولا محلّ له.

لقد استشفّ فرونسكي، على الفور، أن غولينيتشيف في عداد هؤلاء، ولذلك سُرّ سروراً مضاعفاً بلقائه. والواقع أنه تصرّف مع السيدة كارينين، عندما دخل لمقابلتها، التصرّف الذي كان يتمنّاه فرونسكي. كان يتحاشى دون مشقّة الموضوعات المزعجة.

لم يكن يعرف آنّا فراعَه جمالُها. وراعته فوق ذلك تلكُ البساطةُ التي تتحمّل

بها وضعَها. لقد علتها الحمرةُ عندما قدّم فرونسكي إليها غولينيتشيف، وهذه الحمرةُ الطفولية التي اجتاحتْ وجهها الجميل، الصريح، خلبتْ لبّه. لكنه فُتن، على وجه الخصوص، عندما سمعها من فورها، تنادي فرونسكي باسمه، وكأنها تتفادىء سوءَ الفهم بحضوره وتروي له أنهما سيقيمان في البيت الذي استأجراه. فهذا الموقف البسيط والمباشر أسر قلبه. ولقد أحس غولينيتشيف الذي كان يعرف الكسي الكسندروفتش وفرونسكي، أمام هذه المرأة القوية واللطيفة والمرحة، أحسّ أنه يُعطيها الحق فيما فَعلَتْ وبدا له أن يفهم ما لم تفهمه هي نفسها قط: وهو أنه يحق لها أن تشعر بالسعادة والقوة والمرح وإنْ سبّبَتْ شقاء زوجها، وهجرتْه هو وابنها، وفقدت سمعتها.

قال غولينيتشيف عندما أعلمه فرونسكي باسم «القصر».

ــ إنه في الدليل. وفيه لوحةٌ بديعة «لتنتوريه»، بآخر أسلوب له. قال فرونسكي وهو يلتفت إلى آنا.

ــ اصغي: الجو رائع، فليتنا نذهب لنلقي نظرةً سريعة عليه؟

ــ قالت وهي تقف عند عتبة الباب وترمي فرونسكي بنظرةٍ مستفهمة:

ــ بكل سرور، سأضع قبّعتي، في الحال. قالت: إن الطقسَ حارٌّ؟

واجتاحتْ وجهها من جديد حمرةٌ قانية.

أدرك فرونسكي من نظرتها أنها تجهل ما العلاقات التي يرغب في إقامتها مع غولينيتشيف، وأنها تخشى ألا تكون قد تصرّفتْ كما ينبغي. فأجابها بنظرة طويلة ورقيقة، وقال:

ــ لا، ليس شديد الحرارة.

وخُيِّل إلى آنا أنها استشفّت سروره منها؛ فابتسمتْ له وخرجتْ بخطوات سريعة.

نظر الصديقان أحدهما إلى الآخر وعبّر وجهاهما عن الارتباك؛ فغولينيتشيف

الذي فتنته آنا لم يجد الكلمات ليُفصح عن إعجابه، أما فرونسكي فكان يرغب أن يتحدّث صديقه عن آنا ويخشى في الوقت نفسه هذا الحديث.

واستأنف فرونسكي كلامه بادئاً موضوعاً جديداً:

ــ وإذنْ، فقد أقمتَ هنا؟

وأضاف وهو يتذكّر ما قيل له من أن صديقه يكتب شيئاً ما:

ــ وأنت تكرّس نفسك دائماً للأعمال ذاتها؟

أجاب غولينيتشيف الذي علتْه حمرةُ الفرح بهذا السؤال:

ــ نعم، إنني أكتب الجزء الثاني من «المَبْدآن»، أوبالأحرى، على وجه الدقة، إنني لا أكتبه وإنما أحضّره، وأجمع موادّه. وسيكون أوسع من الجزء الأول بكثير وسيتناول جميع المشكلات تقريباً. الناسُ عندنا في روسيا لا يريدون أن يفهموا أننا وارثوا بيزنطة.

قال ذلك وبدأ برهاناً طويلاً، نارياً.

أحسّ فرونسكي، في مبتدأ الأمر، بالضيق لأنه كان يجهل المقالة الأولى التي تعالج «المبدآن» والتي كان مؤلّفها يحدّثه عنها كنصّ مشهور. ولكنْ عندما عَرضَ غولينيتشيف عليه أفكاره واستطاع فرونسكي أن يفهمه، دون معرفة «المبدآن»، أصغى إليه باهتمام لأن غولينيتشيف كان يجيد الكلام. لكنه دهش واغتمّ، بالمقابل، من الاندفاع الذي أبداه صديقهُ وهو يعرضُ أفكاره. كانت عيناه تبرقان، وكان كلامُه يتسارع وهو يردّ على خصومه الخياليين، وكان وجهه يكتسي تعبيراً عن القلق والمهانة. ولم يستطع فرونسكي الذي أخذ يتذكر غولينيتشيف إذ كان صبياً، حَرِكاً، هزيلاً، ممتلئاً بالنية الحسنة والمشاعر النبيلة، أولاً في صفّه دائماً، لم يستطع أن يفهم أسباب هذا الاندفاع. واستنكره. وما صَدمَه بخاصة هو أن ينزل غولينيتشيف، وهو رجل من المجتمع الراقي، إلى مستوى هؤلاء الكتّاب الفاشلين الذين أحنقوه، وأن يصبّ غضبه عليهم. وهل يستحقّون ذلك؟ ساءه

ذلك، لكنه أحسّ أن غولينيتشيف كان تعساً، وأخذتْه الشفقةُ عليه. إن ذلك الضِنْك الشديد القريب من الجنون كان يُقرأ على وجهه المتقلّب والجميل حتى إنه ظل يعرض أفكاره بسرعة فائقة، دون أن يلحظ دخول آنا.

وعندما وقفت آنا بجنب فرونسكي، بقبّعتها ووشاحها، ويدُها الجميلة تداعبُ مظلّتها بحركة حادّة، تملّص فرونسكي، وهو يحسّ بالانفراج، من النظرة القلقة التي حدجه بها غولينيتشيف بإلحاح، ونَقَل بصره بحبّ إلى صاحبته المليحة، التي كانت تشعّ بالحياة والسعادة. وتمالك غولينيتشيف نفسه بمشقّة، وغدا في الدقائق الأولى متجهّماً وكئيباً؛ لكن آنا التي بشّتْ للجميع، (على عادتها في هذه الفترة). سرعان ما بعثت فيه الحياة بأساليبها البسيطة والمرحة. فبعد أن طرقت موضوعات شتى، ساقته إلى الرسم الذي أحسن الكلام عليه وأصغت إليه بانتباه. ذهبوا مشياً إلى البيت وداروا حوله.

قالت آنا لغولينيتشيف وهم على طريق العودة:

ــ ما يسرّني هو أن الكسي سيجد مشغلاً جميلاً.

وقالت لفرونسكي بالروسية مخاطبةً إياه بضمير المفرد لأنها أدركت أن غولينيتشيف سيكون أحد خلصائهما في وحدتهما وأنه لا حاجة إلى التستّر عليه.

ــ يجب حتماً أن تأخذ تلك الغرفة.

قال غولينيتشيف وهو يلتفت بشدة إلى فرونسكي:

ــ أترسم؟

قال فرونسكي وقد علته الحمرةُ:

ــ نعم، رسمتُ قديماً، وأنا أمارس ذلك قليلاً، في هذه الأيام. قالت آنا وهي تبتسم ابتسامةً مشرقة:

ــ إنه ذو موهبة. بالطبع، إنني لست حكماً. لكن هذا هو رأي العارفين.

[٨]

أحسّتْ آنا، في هذه الفترة من خلاصها وشفائها، إحساساً لا يُغتفَر بأنها سعيدة وملأى بحب الحياة. ولم تكن ذكرى شقاء زوجها لتكدّر سعادتها. فمن جهة أولى، بلغت هذه الذكرى حداً من الفظاعة لا يسمح بالتفكير في ذلك الشقاء، ومن جهة ثانية. لقد منحها شقاءُ زوجها فيضاً من السعادة لا يسمح بمعاناة الندم. إن ذكرى كل ما وقع لها بعد مرضها: مصالحتها لزوجها، وانفصالها عنه، نبأ انتحار فرونسكي، وظهوره من جديد، والاستعداد للطلاق، وهجران بيت الزوجية، ووداع ابنها، إن ذلك كله بدا لها شيئاً من الهذيان لم تخرجْ منه إلا عندما غدتْ وحيدةً مع فرونسكي في الخارج. إن ذكرى إساءتها إلى زوجها أيقظ فيها شعوراً قريباً من القرف وشبيهاً بالشعور الذي يعانيه إنسانٌ أشرف على الغرق وقد تخلّص من رفيقه الذي كان يتشبّث به. لقد غرق هذا الرفيق. ولا شك أن ذلك شرّ، لكنه شرّ لا بد منه لأنه الخلاص الوحيد، ومن الأفضل ألا تستحضر ذكرى هذه التفاصيل المرعبة.

جاءتها السكينةُ منذ الدقيقة الأولى من انفصالهما. وعندما كانت تستعيد الماضي في ذاكرتها، كانت ترجع إلى تلك اللحظة. لقد قالت فيها لنفسها حينئذٍ: «كان لا بد من أن أسبّب شقاء هذا الرجل، لكني لا أريد أن أستغلّ شقاءه؛ إنني أتألم أنا أيضاً، وسأظلّ أتألم: لقد حُرمتُ أعزّ ما أملك في هذه الدنيا: سمعة المرأة الشريفة، وابني. لكنها لم تكن تتألم وإنْ رغبتْ رغبةً صادقةً في التألم. ولم يداخلْها الخجلُ. ولقد كانا يتفاديان، بما أوتيا من ذوق، جميع اللقاءات في الخارج التي قد تضعهما في موقف مزيّف. وكانا يريان أينما ذهبا أناساً يتظاهرون بأنهم يفهمون وضعهما أكثر مما يفهمانه هما نفساهما. ولم يؤلمها حرمانها ابنها الذي كانت تحبّه، في الآونة الأولى. ذلك أن ابنة فرونسكي كانت لطيفة جداً، وقد تعلّقت بها آنا تعلّقاً شديداً حتى أنها لم تفكّر بابنها إلا نادراً.

كانت متطلبات الحياة قويةً بعد أن نمّتْها عودتُها إلى صحتها، وكانت الظروف التي تعيش فيها جديدة وجذّابةً إلى الحد الذي أحسّت فيه آنا بأنها سعيدة إحساساً لا يُغتفر. وكانت كلما عرفت فرونسكي ازدادت حباً له. لقد أحبّته من أجل ذاته، ومن أجل الحب الذي يحمله لها. كان الامتلاك الكامل لهذا الرجل يوفّر لها فرحاً متّصلاً. وكان حضورُه محبّباً دائماً. وسحرتْها سماتُ طبعه التي أخذت تألفها أكثر فأكثر، وفتنَها تغييرُه للباسه (لقد هجر البزة العسكرية) كما تُفْتَنُ العاشقةُ الجديدة، ورأت طابع الأصالة والنبل والعظمة في كل ما كان يقول أو يفكر أو يفعل. وكثيراً ما روّعتها حماستُها نفسها: كانت تبحث عمّا لا يُعجب فيه فلا تستطيع أن تعثر عليه، وكانت تخشى أن تُظهر له تفاهتها إزاءه. ولاح لها أنه لو عرف ذلك لا نفصل عنها بسرعة؛ وهي لم تكن تخشى شيئاً خشيتها من أن تفقد حبه، مع أنه لم يكن هناك ما يخوّفها من ذلك. لكنْ لم يكن بوسعها إلا أن تحمد له سلوكه نحوها وتظهر له أنها تقدّره حقّ قدره. إذْ لم يُبد قط أدني أسف على أنه ضحّى من أجلها بمنصب سياسي كان جديراً أن يلعبَ فيه، برأيها، دوراً عظيم الأهمية هيأته له مؤهّلاته المتميّزة، ولم يُبد قط ما أبداه لها في هذه الفترة من الحب والاحترام والحرص المستمر على أن يجنّبها ما في وضعها من مزعجات. إن هذا الرجل الممتلىء بالرجولة لم يكن يمتنع عن مناوأتها فحسب، بل إنه كان يتنازل أمامها وكأن همه الوحيد هو تلبية رغباتها قبل أن تُفصح عنها. ولم يكن يسعها إلا أن تتأثر بذلك، وإن كانت الرعاية والعناية المستمرتان تثقلان عليها أحياناً.

بيد أن فرونسكي لم يكن سعيداً سعادةً كاملة، بالرغم من تحقيق ما تاقَ إليه زمناً طويلاً. فسرعان ما أحسّ أن تحقيق رغباته لم يمنحْه سوى ذرة من بحر السعادة التي حَلِمَ بها. وأدرك ذلك الخطأ الأبدي الذي يقترفه الناس عندما يعتقدون أن السعادة هي تحقيق رغباتهم. لقد تذوّق، أثناء الفترة الأولى من

حياتهما المشتركة التي تلت استقالته، سحر الحرية التي لم يعرفها قط واستساغها، لكن ذلك لم يدم طويلاً. إذ أحسّ بعد قليل أنْ قد برزتْ في قرارة نفسه رغبةُ الرغبات: السأم. وأخذ يتشبّث تشبّثاً مستقلاً عن إرادته بكل نزوة عابرة معتقداً أن فيها رغبة وهدفاً. كان ينبغي له أن يستخدم ست عشرة ساعة من ساعات النهار، وكانا حرين تماماً في الخارج، بعيداً عن شروط الحياة الاجتماعية التي كانت تشغل وقته من بطرسبرج. وكان عليه أن يُقلع عن التفكير في مسرات حياة العزوبة التي كان يستسيغها قديماً، في رحلاته السابقة، لأن تجربة من هذا النوع (عشاء مع أصدقائه) أثارت في آنا يأساً غير متوقّع وغير متناسب مع الحادث. ولم يكن يستطيع، نظراً لزيف وضعهما، أن ينشىء علاقات لا مع المجتمع المحلي ولا مع الروس. أما الطرائف ففضلاً عن أنه رآها كلها من قبل، إلا أنه لم يكنْ يوليها، كرجل روسي عظيم الذكاء، ذلك الاهتمام المتطرف الذي اعتاد الانكليز أن يولوها إياها.

وكما يرتمي الحيوان الجائع على كل ما يقع تحت يده آملاً أن يجد فيه ما يأكله، كذلك ارتمى فرونسكي على السياسة أو القراءة حيناً، وعلى الرسم حيناً آخر.

وبما أنه أبدى استعداداً للرسم في طفولته، فقد أخذ يكوّن مجموعة من الصور، وكأنه لا يدري كيف يُنفق ماله، وتوقّف عند الرسم مكرساً له جزءاً من وقته ومحوّلاً إليه جملةَ مطامحه التي لم تُروَ والتي كانت تتطلّب الإشباع.

كان يملك موهبةَ الفهم والمحاكاة، فظنّ أنه يملك الموهبة التي تجعل من الفنّان فنّاناً. وبعد أن تساءل حيناً ما نوع الرسم الذي سيختاره؛ الديني أو التاريخي أو الشعبي أو الواقعي، عكفَ على العمل. كان يعرف جميع الأنواع وكان قادراً على استلهام هذا النوع أو ذاك. لكنْ لم يخطر بباله أن الفنان يمكنه أن يتجاهل كلياً جميع أنواع الرسم ويستلهم ما في نفسه مباشرة دون أن يهتمّ بمعرفة ما إذا كان ما

يرسمه تابعاً لهذه المدرسة المعروفة أم لا. وبما أنه كان يجهل ذلك ولا يستلهم الحياةَ ذاتها وإنما يستلهم تجسّداتها في الفن، فقد كان يعثر على موضوعاته بسرعة وبيسرٍ ويُفلح بسرعة في رسم لوحة مشابهة جداً للنوع الذي يريد محاكاته.

كانت تعجبه المدرسةُ الفرنسيةُ الرشيقةُ التي تهدف إلى إثارة الإعجاب. أكثر من غيرها، فبدأ على هذا النمط لوحةً لآنا باللباس الإيطالي، وبدت هذه الصورةُ له ولجميع الذين كانوا يشاهدونها جدّ موفقة.

[٩]

استطاع «القصر» القديمُ الخربُ، بسقوفه العالية ذات النواتىء، وبلوحاته الجدارية، وبأرضية الفسيفساء، وبستائر الديباج الثقيلة، الصفراء أمام النوافذ المرتفعة، وبأوعيته الثمينة على الأفاريز والمدافىء، وبأبوابه المنقوشة، وبأبهائه المظلمة والمزينة باللوحات، استطاع، عندما استقرّا فيه، أن يغذّي في فرونسكي ذلك الوهمَ اللذيذَ وهو أنه ليس نبيلاً روسياً، وعقيداً متقاعداً، بقدر ما هو هاوٍ متنوّر، وحامٍ للفنون، ورسّامٌ متواضع، تخلّى عن العالم، وعن علاقاته، وعن طموحه من أجل حبّ امرأة.

هذا الدور الذي اختاره فرونسكي، بعد استقراره في «القصر» أرضاه كلَّ الرضى، وعندما تعرّف ببعض الشخصيات المرموقة، بواسطة غولينيتشيف، اطمأنّتْ نفسه، في الآونة الأولى. كان يرسم بإشراف أستاذ إيطالي وفقاً لنموذج طبيعي ويدرس العصر الوسيط الإيطالي. ولقد فتنه هذا العصرُ إلى حدّ أنه أخذ يلبس، على نمط العصر الوسيط، قبعة ودثاراً ملقًى من فوق الكتف لاءمه كثيراً.

قال فرونسكي ذاتَ صباح لغولينيتشيف الذي جاء لزيارته:

ــ إننا لا نعلم شيئاً عمّا يجري. هل رأيتَ لوحةَ ميخايلوف؟

قال ذلك ومدّ إليه جريدةً روسية وصلتْه حديثاً ودلّه على مقالةٍ عن رسّام روسي يسكن المدينة نَفسها قد انتهى من رسم لوحة تحدّث الناس عنها منذ وقت طويل واشتُريتْ سلفاً. وتلوم المقالة الحكومةَ والأكاديمية على ترك هذا الفنان البارز دون عَوْن.

أجاب غولينيتشيف:

ــ نعم، لقد رأيتُها. بالطبع إنها لا تخلو من الموهبة، لكن اتجاهاتها خاطئةٌ أصلاً. لأن تصوّرَ المسيح والحياة الدينية فيها هو التصور الذي نجده لدى ايفانوف وشتراوس ورينان(١).

سألتْ آنا:

ــ وماذا تمثل هذه اللوحة؟

ــ المسيح أمام بيلاطس(٢). وللمسيح فيها هيئةُ يهودي، وقد رُسِمَ بحسب تعاليم المدرسة الواقعية الجديدة.

وتابع غولينيتشيف كلامه بعد أن ساقته هذه المسألة إلى أحد موضوعاته المفضّلة:

ــ لا أفهم كيف يمكنهم أن يغلطوا هذا الغلط الفادح. فللمسيح نموذجٌ محدّد جداً في فنّ المعلّمين القدامى. وإذا شاؤوا أن يرسموا ثورياً أو حكيماً،

---

(١) التصور الذي نجده لدى إيفانوف وشتراوس ورينان: وبموجب هذا التصور يبدو المسيح شخصاً إنسانياً يملك صفات فذة، الـهية؛ ونحن نجده في اللوحة الكبرى للرسام الكسندر إيفانوف (١٨٠٦ ــ ١٨٥٨)، وفي «المسيح يظهر للشعب» في «حياة يسوع» للاهوتي الألماني دافيد شتراوس (١٨٠٨ ــ ١٨٧٤)، وفي «أصول المسيحية» للكاتب الفرنسي «ارنست رينان» (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢).

(٢) المسيح أمام بيلاطس: تجدر الإشارة إلى أن الرسام الروسي «نيقولا غي» الذي غدا صديق تولستوي، عرض بعد ذلك بكثير ــ في ١٨٩٠ ــ لوحة هي «المسيح أمام بيلاطس» وقد أثارت واقعيتها الواضحة الكثير من الاستنكار آنذاك.

لا الله، فليرسموا سقراط، أو فرانكلين، أو شارلوت كورداي، لا المسيح. إنهم يتناولون الشخصية الوحيدة التي لا يجوز للفن أن يمسّها، ثم إن. . .

سأل فرونسكي، وقد خطر بباله أن عليه، باعتباره حامياً روسياً للفن، أن يَهبَّ إلى نجدة ميخايلوف، سواء أكانت لوحتُه جيدة أم رديئةً:

ـ أصحيح أن ميخايلوف قد وصل إلى هذا الحد من الفاقة؟

ـ أخشى ذلك. إنه رسام صورٍ مرموق. هل رأيتَ صورةَ السيدة فاسيلتشيخوف؟ لكنْ يبدو أنه أقلع عن رسم صور الأشخاص؛ ولعله إنما بلغ الفاقة بسبب ذلك. قلتُ. . .

قال فرونسكي:

ـ ألا نستطيع أن نطلبَ إليه رسم صورة آنّا أركاديفنا؟

قالت آنا:

ـ ولمَ صورتي؟ لا أريد صورةً أخرى بعد الصورة التي رسمتَها لي. ليرسمْ بالأحرى صورة آني (هكذا كانت تدعو ابنتَها).

وأضافت وهي تشاهدها من النافذة مع المربية الإيطالية الحسناء التي أنزلت الطفلة إلى الحديقة وأخذت تختلس النظر إلى فرونسكي:

ـ ها هي ذي.

كانت هذه الحسناء التي رسم فرونسكي رأسها للوحته، الغمّ الوحيد في حياة آنا. وكان فرونسكي معجباً بجمالها وبنموذج شخصها الذي هو من نماذج العصر الوسيط، ولم تكن آنا تجرؤ على الإقرار أمام نفسها بأنها تخشى أن تكون غَيْرى من هذه المربية وأنها من أجل هذا السبب إنما تغمرها بالرعاية والتدليل لها ولطفلها الصغير.

ألقى فرونسكي أيضاً نظرة من النافذة، وما لبث أن استدار نحو غولينيتشيف، عندما لاقت نظرته نظرة آنا:

ـ أتعرفُ ميخايلوف هذا؟

ـ لقد لقيتُه مرةً. إنه رجلٌ غريب الأطوار، بدون أية تربية. وهو أحد هؤلاء المتوحشين الذين كثروا في هذه الأيام، أحد هؤلاء المفكرين الأحرار الذين يغتذون «دفعة واحدةً» بمبادىء الالحاد والمادية ورفض كل مُعتقدٍ.

وتابع غولينيتشيف دون أن يتيح لآنا وفرونسكي أن يتفوّها بكلمة:

ـ كان المفكّر الحرُّ قديماً، رجلاً تربّى على احترام الدين والقانون والأخلاق، وكان يصلُ إلى التفكير الحرّ من خلال النضال والعمل، أما اليوم فقد ظهر، بتولّد ذاتي، نموذجٌ جديد للمفكرين الأحرار الذي توصّلوا من ذاتهم إلى نفي كل شيء، دون أن يسمعوا بالقوانين الأخلاقية والدينية، وبالسلطة، وهم، بكلمة واحدة، متوحشون. وميخايلوف من هؤلاء وهو ابن قهرمان من موسكو، إن كنتُ أتذكّر جيداً، لم يتلقّ أيّ تعليم وما إن دخل الأكاديمية حتى ذاع صيتُه، وأراد أن يتعلم، لأنه ليس بأحمق، فلجأ إلى ما بدا له أنه مصدرٌ للثقافةِ: إلى المجلات في الزمن الغابر، كان الإنسان إذا أراد أن يتعلم ـ كالإنسان الفرنسي مثلاً ـ بدأ بدراسة الكلاسيكيين جميعاً: اللاهوتيين، وكتّاب المأساة، والمؤرخين والفلاسفة، أنت ترى العمل الضخم الذي كان ينتظره. لكن الإنسان عندنا يقع على الأدب السلبي، ويستوعب بسرعة شيئاً مختاراً من هذا العلم السلبي، وهذا كل شيء كان بإمكانه أن يجد في هذا الأدب، منذ عشرين عاماً، آثار النضال ضد السلطة، ضد التقاليد الموغلة في القدم، وأن يفهم أنه قد كان هناك شيءٌ آخر، أما اليوم فهو لا يكلّف نفسه حتى النقاش في مفاهيم الماضي. إنه يقول بكل بساطة: ليس هناك شيء، فالتطور، والاصطفاء، والصراع من أجل الحياة، حلّت محلّ كل شيء. وفي مقالتي...

لكن آنا التي كانت تبادل فرونسكي منذ برهة نظرات خفيّة وتَعلمُ أن فرونسكي لم يكن يهتم بتكون هذا الرسام، وإنما كان مشغولاً بفكرة مساعدته

وطلب صورةٍ لآنا، قاطعت غولينيتشيف ومنعته، عن قصد، من اختتام كلامه، فقالت:

ــ أتدري، ليتنا نذهب لزيارته؟

فتمالك غولينيتشيف نفسه وقبل راضياً، وبما أن الفنان كان يسكن حيّاً بعيداً، فقد قرروا أن يستقلّوا عربةً.

بعد ساعة ونصف، وصل الثلاثة في العربة إلى منزل جديد، بشع المنظر، في حيّ ناءٍ وإذْ علموا من زوجة البواب أن ميخايلوف يستقبل الزوار في مشغله، لكنه الآن موجود في شقته على خطوتين من هنا، أرسلوا المرأة لتحمل إليه بطاقاتهم ولتستأذنه برؤية لوحاته.

[١٠]

كان ميخايلوف كعادته في عمله عندما حُملت إليه بطاقاتُ الزيارة. لقد عكف في مشغله صباحاً، على لوحته الكبرى، وعندما وصل إلى البيت غضبَ على امرأته لأنها لم تستطع أن تُصبِّر المؤجرة التي كانت تطلب أجرتها. وقال لها بعد مشادّة طويلة:

ــ لقد قلتُ لك عشرين مرة ألا تسترسلي في النقاش معها. أنت في الأصل غبية، لكنك عندما تبدئين بإيضاع رأيك تصيرين أغبى بثلاث مرات.

ــ لا تضع اللوم عليّ، فالغلطة ليست غلطتي. ولو كان معي المال...

فصاح ميخايلوف وقد غصَّ صوتُه بالدمع:

ــ دعيني وشأني، بحق الله!

وسدّ أذنيه وفرّ إلى الغرفة المجاورة وأغلق الباب بالمفتاح وقال:

ــ يا لها من غبية!

وجلس إلى طاولته، وما لبث أن أكب بحرارة على رسم بدأه.

لم يكن يجيد العمل مثلما كان يجيده عندما تسوء أحواله المعاشية، ولا سيما عندما يتخاصم هو وامرأته.

كان يقول في نفسه وهو يُتابع عمله: «آه! ليتني أستطيع أن أدفن نفسي في مكان ما!» كان يرسم رأس رجل استولت عليه سورةُ الغضب. تمّ الرسم، لكنه لم يكن راضياً عنه. «لا، الرسمُ الآخر كان أفضل... أين هو؟» ومضى إلى غرفة زوجته، كالح الوجه، ودون أن ينظر إليها سأل ابنته الكبرى عن الرسم الذي أعطاهم إياه. وعثر على الرسم، لكنه كان وسخاً ومغطى ببقع دهنية، فأخذه مع ذلك، ووضعه على الطاولة، وأخذ يتأمله وهو يبتعد عنه ويطرف بعينيه. وهمس:

ـ وهو كذلك، وهو كذلك!

وسرعان ما تناول قلمه وبدأ يرسم كالمحموم. إذ أن إحدى البقع الدهنيّة أسبغت على اللوحة المرسومة وضعاً جديداً.

فرسمَ هذا الوضع الجديد، وتذكّر فجأةً ذلك الوجه القوي والذقن البارزة للتاجر الذي يشتري سيجاراته من عنده، وجعل لموضوعه هذا الوجه وتلك الذقن. وغدا المخطّط الإجمالي حيّاً، نهائياً، بعد أن كان مصوّراً في الخيال، عديمَ الحياة، لقد دبت فيه الحياة، واتضحت حدوده لقد أمكنه أن يصحّح الرسم وفقاً لمقتضيات الشخصية، وأمكنه بل وجب عليه أن يباعد بين الساقين على نحوٍ آخر، وأن يغيّر كلياً وضع الذراع اليسرى. وكان، وهو يدخُل على لوحته هذه اللمسات، لا يغيّر الشخصية، وإنما يخلصها ممّا يغطّيها كان ينزع عنها، إن صحّ التعبير، الأغشية التي تسترها جزئياً، وكانت كل لمسة تُسهم في إعطاء هذه الصورة التعبير القويَّ الذي أوصت به فجأةً البقعة الدهنيّة. كان يستكمل رسمه بعناية عندما حُملت إليه البطاقات.

ـ على الفور، على الفور!

ومضى إلى غرفة امرأته، وقال لها وهو يبتسم ابتسامةً رقيقة وجلة:

ـ هيا، ساشا، لا تغضبي. لقد أخطأ كلانا سأسوّي ذلك.

وبعد أن تصالح هو وامرأته ارتدى معطفه الأخضر الزيتي، ذا القبّة المخملية، وقبّعته، وذهب إلى مشغله لقد نسي رسمه. وهو الآن لا يفكّر إلاّ في زيارة هؤلاء الضيوف الروس الرفيعي المقام الآتين في عربة.

كان يرى، في أعماقه أن أحداً لم يرسم قط لوحةً تضاهي اللوحة التي تشغل الحمّالة الآن. لم يكن يرى أن لوحته أعلى شأناً من جميع لوحات رفائيل، لكنه كان يعلم أن أحداً لم يؤد ما أراد أداءَه في هذه اللوحة. كان على يقينٍ من ذلك. كان يعلم ذلك منذ أمد بعيد، منذ أن بدأ برسمها، لكن أحكام الناس، أيّاً كانوا، كانت عظيمة الأهمية عنده، وكانت تحرّك نفسه حتى قرارتها، كانت تهزّه أتفه الملاحظات الدالة على فهم ما كان يراه في لوحته، ولو كان ضئيلاً ذلك الفهم. كان ينسبُ دائماً إلى حكّامه فهماً أعمق من فهمه، وينتظر دائماً أن يكشفوا له عن جانب من اللوحة لم يخطر بباله، وكثيراً ما كانت أحاديث المشاهدين تكشف له، كما كان يعتقد، عن نفسه.

أدرك بابَ مشغله بخطوات سريعة. وبالرغم من اضطرابه، فإن الإنارة الخفيفة التي لفّتْ شخصَ آنا وهي تُحدّث غولينيتشيف في الظل، وتنظر إلى الرسام وهو مقبلٌ، قد أذهلته، فالتقط هذا الانطباع والتهمه وهو يمشي، دون أن يدرك ذلك، وخبّأه في زاوية من نفسه، كما فعل بذقن بائع التبغ، على أن يستخرجه منها عندما يحتاج إليه.

أما الأثرُ الذي تركه منظرُ الرسام في الزوار فكان مزعجاً، وقد هيّأهم غولينيتشيف لمثل ذلك. كان ميخايلوف ربعةً، سميناً، يُنطنطُ في مشيته، بقبعته السمراء، ومعطفه الأخضر المائل إلى السمرة، وبنطاله الضيق (كان الناس يلبسون البنطال الواسع منذ زمن بعيد)، وخشونة وجهه العريض مع الوجل المرتسم عليه والممتزج بالحرص على الاحتفاظ بوقاره، وهو بذلك كله ترك أثراً سيّئاً فيهم.

قال وهو يحاول أن يصطنع اللامبالاة:

ــ ادخلوا، أرجوكم.

وأخرج مفتاحه من جيبه، وهو يدلف إلى البهو، وفتح الباب.

[١١]

عندما بلَغَ ميخايلوف مشغله، ألقى نظرة عاجلةً، جديدة على ضيوفه، وسجّل أيضاً في خياله تعبير وجه فرونسكي، ولا سيّما وجنته. وبينما كان حسّه الفنّي يعمل بلا كلل، جامعاً المواد، أخذ يكوّن فكرةً عن هؤلاء الأشخاص الثلاثة بفضل أمارات لا تكاد تُلحظ وهو فريسةٌ لاضطرابٍ كان يتعاظم كلما اقتربت اللحظة التي سيصدرون فيها حكمهم على عمله الفنّي، هذا (غولينيتشيف) روسي من هنا، لكن ميخايلوف لم يتذكّر اسمه ولا أين لقيه ولا عمّ تحدّثا. تذكّر فقط وجهه كما يتذكّر جميعَ الوجوه التي رآها مرةً واحدة، لكنه تذكّر أيضاً أنه دفعه إلى خياله ليكون في تلك الفئة الواسعة، فئة الوجوه الفقيرة التعبير التي تشوبُها أصالةٌ زائفة، فالشعر الطويل والجبهة المكشوفة أسبغا طابعاً سطحيّاً على هذا الوجه الذي لم يكن يعبّر إلاّ عن قلق صبياني متركّز في هذه المسافة الضيّقة التي تفصل بين العينين. أما فرونسكي والسيدة كارينين فلا بد أنهما كانا، في ذهن الفنّان، روسيين بارزين وغنيين، لا يفقهان شيئاً في الفن، شأنهما شأنُ جميع الروس الأغنياء الذين يتظاهرون بأنهم عارفون. وقال في نفسه: «لا شك أنهم طافوا بمتاحف الرسم القديم وأخذوا الآن يزورون مشاغلَ الرسامين الجدُد، مثل هذا المشعوذ الألماني وذاك الغبـي الإنكليزي، وهم لا يجيئون إليّ إلاّ ليكمّلوا جولتهم». كان يعرف أساليب الهُوة (وأسوؤُهم أذكاهم)، كانوا يزورون المشاغل المعاصرة وهدفُهم الوحيد أن يكون لهم الحق في القول: إن الفن آخذٌ بالانحطاط، وأننا كلما نظرنا إلى الرسّامين الحديثين تَبيّنا أن القدماء متفوقون، لا يشقَ غبارُهم.

كان يتوقع ذلك كله، ويقرؤه على وجوههم، في هذا الفتور اللامبالي الذي به كانوا يتحدّثون فيما بينهم، وينظرون إلى الشواخص والتماثيل النصفية، ويتجوّلون بلا حرجٍ في المشغل، ريثما يكشف عن لوحته لكنه كان يشعر مع ذلك، وهو يتصفّح مخطّطاته، ويرفع الستائر، وينزع غطاءَ الجوخ الذي يُغطي لوحته، بانفعال عنيف، وهو انفعال اشتدّ عنفُه لأن فرونسكي وآنا على الخصوص أعجباه، مع أنه طالما ردّد على نفسه أن هؤلاء الروس الأغنياء، اللجوجين ما هم سوى وحوش وأغبياء.

قال وهو يحيد اللوحة بمشيته المُنطنطة ويشير إليها:

ــ ها هي ذي، إنها مشهد المسيح أمام بيلاطس. متى، الاصحاح السابع والعشرون:

وأحسّ أن شفتيه أخذتا ترتجفان من التأثر، فابتعد ووقف خلفهم. أثناء الثواني القليلة التي تأمّل فيها الزوّار اللوحةَ بصمت، تأمّلها هو أيضاً بعين غريبة، غير مبالية وأثناء هذه الثواني القليلة انتظر من هؤلاء الزوّار الذين كان يحتقرهم من كل قلبه قبل دقيقة، حُكماً رفيعاً لا يخطىء، لقد نسي كل ما رآه في اللوحة أثناء السنوات الثلاث التي قضاها في رسمها، نسي مزاياها جميعاً، وهي مزايا لا شك فيها بنظره، وأخذ ينظر إليها بعين باردة، غير مبالية مثلهم، فلم يجد فيها أية مزيّة في المستوى الأمامي، وجهُ بيلاطس الكالح، ووجه المسيح الهادىء، وفي المستوى الثاني، جنودُ بيلاطس ووجهُ يوحنا الذي كان يُلاحظ ما يجري. كل هذه الوجوه، وهي ثمرة أبحاث لا تُحصى، وتنقيحات وأخطاء، كانت قد وُلدت فيه ولادةً جديدة بسماتها الخاصة، مسبّبةً له جميع صنوف الفرح والعذاب، بعد أن صحّحت ألف مرة لتنسجم مع المجموع، كل تلك الظلال في ألق الألوان، وفي الفوارق اللونية التي حصل عليها بمشقة كبيرة، كل ذلك لاحَ له الآن، عندما كان يتطلّع بعيون زُوّاره إلى وجه المسيح ذاته، النقطة المركزية في اللوحة التي كان

يعزها أكثر من غيرها والتي ابتعثتْ فيه حماسة عظيمة عندما اكتشفها، كل ذلك لاح له أنه الفشل بعينه، لم يكن وجه المسيح سوى نسخة حسنة (بل إنها لم تكن حسنة لأنه أخذ يكتشف فيها الآن عدداً من الأخطاء) لصور المسيح عند تيتيان وروبنس ورفائيل. وجنود بيلاطس أنفسهم لم يكونوا سوى نسخ، كل ذلك كان مسطّحاً سقيماً، قديماً سيِّىء الرسم هشّاً، مبرقشاً. لسوف يقولون له عبارات منافقة بأدب، وسيكون من حقهم أن يرثوا لحاله وأن يهزؤوا منه عندما يصيرون وحدهم.

بدا له هذا الصمتُ لا يُطاق، (مع أنه لم يدم سوى دقيقة)، ولكي يقطعه ويُظهر أنه لم ينفعلْ، بذل جهداً والتفت إلى غولينيتشيف، وقال له وهو يُلقي نظراتٍ قلقة على آنا تارةً وعلى فرونسكي تارةً أخرى لكي لا يضيع شيئاً من تبدّل ملامح وجهيهما:

ــ أعتقد أنني قد حظيتُ بلقائك.

فرد غولينيتشيف بيسر محوّلاً نظره عن اللوحة دون أدنى أسف لينقله إلى الرسام:

ــ بالتأكيد! التقينا عند روّسي، أتذكرُ، في المساء الذي ألقت فيه تلك الآنسة الايطالية، راشيل الجديدة[1]، شعراً.

وحين لاحظ أن ميخايلوف كان ينتظر حكمه على لوحته قال له:

ــ لقد تقدّمت لوحتُك منذ آخر مرة رأيتُها فيها ووجهُ بيلاطس هو الذي يروعني اليوم كما راعني بالأمس ومن السهل فهم هذا الرجل الطيّب، الفاضل، الموظّف حتى أعماق نفسه، الذي لا يعلم ما يفعل ويبدو لي. . .

استنار وجهُ ميخايلوف المتحرّك فجأةً، وأخذت عيناه تبرقان. أراد أن يقول شيئاً، لكنه عجز عن ذلك في غمرة اضطرابه، فتظاهر بالسعال. ومهما يكن ضحلاً

(١) راشيل الجديدة: اليز راشيل (١٨٢٠ ــ ١٨٥٨) ولدت في سويسرا، ممثلة فرنسية مشهورة.

فهمُ غولينيتشيف للفن، في رأيه، ومهما تكن تافهةً تلك الملاحظة عن وجه بيلاطس، ومهما تبدُ جارحة تلك الملاحظةُ التي كانت تُهمل الجوهري، فإنه قد فُتن بها، كان رأيه هو نفسه في وجه بيلاطس كرأي غولينيتشيف. وكونُ هذه الملاحظة واحدةً من آلاف الملاحظات الصحيحة التي يُمكن أن تُقال في هذه اللوحة، لم يقلّل من شأن ملاحظة غولينيتشيف. وإذا به يكلَفُ بزائره، وينتقل فجأة من الوهن إلى الحماسة، وإذا بلوحته تَزْخرُ بالحياة أمامه، وتستعيد تعقُّد كل ما هو حي، ولقد حاول ميخايلوف أيضاً أن يقول: إنه هو أيضاً يفهم بيلاطس على هذا النحو، لكن شفتيه أخذتا ترتجفان. ولم يستطع أن يتلفّظ بشيء. وكان فرونسكي وآنا يتكلمان بصوت بهيم كالذي يتكلم به الناس عادةً في المعارض، لكي لا يجرحا الرسام من جهة، ومن جهة أخرى لكي لا يجهرا بحماقة من تلك الحماقات التي تندّ بسهولة عن المرء وهو يتحدث عن الفن، وخُيّل إلى ميخايلوف أنه استشفّ تأثرهما هما أيضاً بلوحته، فدنا منهما.

قالت آنا:

ــ تعبير المسيح مثيرٌ للإعجاب! فمن الواضح أنه يشفق على بيلاطس. كان هذا التعبير بخاصة هو الذي أثار اهتمامها، من كل ما رأته أحسّتْ أنه هو مركز اللوحة، وأن هذا الثناء يسرّ الرسام.

كانت هذه الملاحظة واحدةً من الملاحظات الصحيحة والعديدة التي يمكن أن تقال في اللوحة وفي وجه المسيح قالت: إنه يشفق على بيلاطس، لكن وجه المسيح، كما كان يعبّر عن الشفقة، كان يعبّر أيضاً عن المحبة، وعن السكينة التي تفوق الطبيعة، وعن قبول الموت، وعن الشعور ببطلان الكلام. لا شك أن بيلاطس كان يبدو موظفاً، والمسيح كان يعبّر عن الشفقة لأن أحدهما كان تجسيداً لحياة الجسد، والآخر كان تجسيداً لحياة الروح. كل ذلك مرّ بخاطر ميخايلوف ممتزجاً بطائفة من الأحاسيس المتداعية، فاستنار وجهُه بالحماسة من جديد.

قال غولينيتشيف:

ـ نعم، وما أروعَ الرسمَ! وما أكثر الفضاءَ حول هذه الصورة! يمكن الدورانُ حولها!

وأراد أن يُظهر بهذه الملاحظة أنه ينتقد سمة الشخصية.

قال فرونسكي:

ـ إن هاهنا مهارة مدهشة! وما أوضحَ بروزَ هذه الشخوص في المستوى الخلفي!

وأضاف وهو يلتفت إلى غولينيتشيف:

ـ هذه هي التقنية!

مشيراً بهذه العبارة إلى حديث اعترف فيه بأنه يائسٌ من الحصول على هذه التقنية.

فأيده غولينيتشيف وآنا:

ـ نعم، نعم، هذا رائع!

وبالرغم من حالة المرح التي كان فيها، فقد أصابته كلمةُ «تقنية» في قلبه، ونظر إلى فرونسكي نظرة الغضب، وقطّب بين حاجبيه. ذلك أنه طالما سمع بكلمة «تقنية» فلم يفهم حتماً المقصود بها، كان يعلم أن هذه الكلمة قد تُعبر عن الموهبة الآلية في التصوير والرسم، بمعزلٍ عن الموضع وقد لاحظ كثيراً أن الناس يعارضون المهارة التقنية بالمزية الجوهرية في العمل الفني، كما هي الحال في الثناء الذي وُجِّه إليه قبل هنيهة، وكأن الرسام يمكن أن يرسم جيداً ما تصوره تصوراً سيئاً، كان يعلم أنه لا بدّ من كثير من الانتباه والمهارة لرفع الحجب دون الإضرار بالعمل نفسه، ولرفع جميع الحجب، لكن فنّ الرسم لا علاقة له بالتقنية ولو أتيح لولد صغير أو لطاهية أن يريا ما كان يراه لأمكنهما تجسيد حواشي رؤيتهما. لكن أكثر تقنيّـي الرسم تجربةً ومهارة لا يمكنه أن يصوّر شيئاً بموهبته

الآلية وحدها إذا لم ير قبل ذلك محيطَ عمله. وأكثر من ذلك، لقد كان يحسّ ـ بما أن التقنية موجودة ـ أنه لا يمكن الثناء على تقنيته بالذات. ففي جميع أعماله الفنية، كان يشاهد عيوباً بارزةً للعيان، جاءَتْه من إغفاله رفع الحجب: وما كان بوسعه تصحيحها دون أن يُعرض للخطر العمل الفني كله وعلى جميع الشخوص، وجميع الوجوه كان لايني يُشاهد بقايا الحجب التي لم تُرفع رفعاً تاماً والتي كانت تضرّ بالمجموع.

لاحظَ غولينيتشيف:

ـ كل ما يمكن قولُه، إذا سمحت بإبداء هذه الملاحظة...

قال ميخايلوف بابتسامة متكلّفة:

ـ آه! سيسعدني ذلك... أرجوك.

ـ إن المسيح عندك هو الإنسان ـ الإله، وليس الإله الذي صار إنساناً. على كل حال، أنا أعلم أن هذا هو قصدُكَ.

قال ميخايلوف وقد بدا عليه التجهم:

ـ لا أستطيع أن أصوّر المسيح إلاَّ كما أحسّه في أعماقي.

ـ صحيح، لكن في هذه الحالة، إذا سمحت لي بالإعراب عن فكرتي... إن لوحتك قد بلغتْ حداً من الجمال بحيث أن ملاحظتي لا يمكن أن تُسيءَ إليها، وهي على كل حال ملاحظة شخصيةٌ خالصةٌ. الأمرُ عندك مختلف، الموضوع ذاته مختلف. ولنأخذ ايفانوف مثلاً، فأنا أزعم أنه كان ينبغي له، باعتباره رَدَّ المسيحَ إلى مستوى الشخصية البشرية، أن يختار موضوعاً جديداً، أو غير مطروق حتى الآن.

ـ وإذا كان هذا الموضوع هو أرفع موضوع يفرض نفسه على الفن؟

ـ لو فتّشنا لوجدنا غيره، لكن الواقع أن الفن لا يحتمل النقاش. وأمام لوحة إيفانوف نجد السؤال نفسه يطرحُ ذاته على المؤمن وعلى غير المؤمن: أهذا هو الله أم ليس الله؟ وهكذا تُدَمّرُ وحدةُ الأثر.

ــ ولمَ ذاك؟ يلوح لي أنه لا مجال للنقاش في ذلك، بالنسبة إلى المثقفين.

لم يقبل غولينيتشيف بهذا الرأي وأصر على فكرته الأولى عن وحدة الأثر الضرورية للفن، فأفحم ميخايلوف. وعبثاً حاول ميخايلوف أن يتململ، أذ لم يستطع أن يقول شيئاً ليدافع عن نفسه.

[١٢]

كان فرونسكي وآنا يتبادلان النظرات منذ لحظة غير قصيرة، وقد ذُعرا من هذا الهذر المتحذلق الذي استفاض فيه صديقهما، وأخيراً عَبرَ فرونسكي، من غير أن ينتظر مضيفه، إلى غرفة صغيرة مجاورة للمشغل.

قالا بصوت واحد:

ــ آه! ما أروع هذا العمل! هذا عجيب! هذا بديع!...

وفكر ميخايلوف في نفسه: «ما الذي يعجبهما إلى هذا الحد. لقد نسي هذه اللوحة التي رسمها قبل ثلاث سنوات. نسي الآلام والأفراح التي ابتعثتها فيه هذه اللوحة حين قضى عدة أشهر وهو يعمل فيها ليلاً ونهاراً بلا انقطاع. ونسي أنه كان ينسى دائماً اللوحات المُنجزة. ولم يكن يطيب له النظر إليها، ولم يعلّقها هنا إلاّ لأنه كان ينتظر إنكليزياً يرغبُ في شرائها. فقال:

ــ آه! ليست هذه شيئاً، إنها دراسةٌ قديمةٌ.

قال غولينيتشيف بدوره، وقد سحرته اللوحةُ، فيما يبدو:

ــ ما أجملها!

صبيّان يصيدان السمكَ في ظل دغل. أكبرهما يرمي صنارته ويخلّص بعناية العوّامة التي علقتْ بالدغل؛ إنه يبدو مستغرقاً استغراقاً تاماً فيما يشغله؛ أما الأصغر فهو مضطجع على العشب، ورأسُه الأشقر المشعّث مستند إلى يده، يتأمل الماء بعينيه الزرقاوين الساهمتين. فيمَ يفكِّر؟

لقد بعثت الحماسةُ التي أثارتْها هذه اللوحةُ الانفعالَ القديم في نفس ميخايلوف، لكنه كان يخشى هذا الشعور الفارغ تجاه الماضي، ولذلك أراد أن يصرف انتباه الزوّار إلى لوحة ثالثة، مع أن مدحهم أدخل السرور على نفسه.

سأله فرونسكي إن كانت اللوحةُ للبيع. فشقَّ على ميخايلوف هذا التلميح إلى المال في لحظات الاضطراب الداخلي، وأجاب بوجه مكفهرّ وهو يقطّب بين حاجبيه:

ـ إنها معروضةٌ للبيع.

عندما انصرف الزوّار، جلس ميخايلوف قبالةَ لوحة يسوع وبيلاطس واستعرض في ذهنه ما قاله، أو على الأقل ما أضمره الزوّار. والغريبُ أن ما كان له وزنُه عندما كانوا هنا وعندما نظر من الزاوية التي كانوا ينظرون منها، قد فقد فجأة كلَّ أهميته عنده. فأخذ يتأمل من جديد لوحته بنظرة الفنان، وعاد إليه اليقينُ بكمالها، منطلقاً من قيمة عمله الفني، وهو يقين لا بدَّ له منه ليحافظ على هذا التوتُّر الذي يمتصّ كل اهتماماته الأخرى والذي بدونه لا يستطيع أن يعمل.

بيد أنه كان في ساق المسيح المصغَّرة عيبٌ. فأخذ ريشته وبدأ العمل. وكان، وهو يصحح الساق، لا يني ينقل عينيه إلى وجه القديس يوحنا في المستوى الخلفي، التي لم يلاحظها الزوّار والتي بلغت، كما كان يعلم، كمال الإتقان. وعندما انتهى من الساق، أراد أن يتصدَّى للوجه، لكنه أحسَّ بالتأثُّر الشديد. ولم يكن يستطيع العمل، لا وهو مفرط اللامبالاة، ولا وهو شديد الرقة، قابل للتأثر بكل شيء. وإنما كان العملُ ممكناً في الحالة المتوسطة بين البرودة والحماسة. لقد كان في هذه اللحظة، منفعلاً أشد انفعال، وأراد أن يغطِّي اللوحة، لكنه توقَّف وهو يمسك بيده ستارة الجوخ، وتأمَّل طويلاً وجهَ يوحنا بابتسامة الغبطة. وأخيراً، ابتعد على مضض، بعد أن أسدل ستارة الجوخ، وعاد إلى بيته متعباً لكنْ سعيداً.

كان فرونسكي وآنا وصديقهما على درجة عظيمة من الابتهاج والحيوية عندما عادوا إلى المنزل. فتحدثوا عن ميخايلوف ولوحاته. وكانت كلمةُ «موهبة» التي يستخدمونها للتعبير عن هبةٍ فطرية، جسدية تقريباً، مستقلة عن القلب والفكر، والتي تُتيحُ لهم أن يجدوا اسماً لكل ما يحسّ به الفنان، تتردَّد كثيراً في حديثهم: كان لا بدَّ من هذه الكلمة لتحديد ما يريدون الكلام عليه، مع أنهم لا يملكون أية فكرة عنها. كانوا يقولون: إننا لا نستطيع أن ننفي عنه «الموهبة»، لكن هذه الموهبة لم تكن تستطيع أن تَنْمو بسبب انعدام الثقافة، وهي مصيبة مشتركةٌ بين جميع الفنانين الروس. لكن لوحةَ الصبيَّين انطبعتْ في ذاكرتهم، وأوشكوا أن يعودوا ليروها.

قال فرونسكي:

ــ ما أروعها! وما أنجحها، وأبسطها! إنه لا يرى هو نفسه مقدار جمالها! يجب ألا نترك الفرصة تمرّ، وسوف أشتريها.

[١٣]

باع ميخايلوف اللوحةَ لفرونسكي، وقَبِلَ أن يرسم صورة آنا. وفي اليوم المحدَّد، جاءَ وبدأَ العملَ.

ومنذ الجلسة الخامسة، أذهلت الصورةُ الجميعَ ولا سيما فرونسكي، لا بشَبَهِها بل بجمالها الخاص. لقد كان غريباً أن يلتقط ميخايلوف كلَّ ما في جمال نموذجه من خصوصية. ودار بخلَد فرونسكي: «ينبغي أن يعرفها كما أعرفها وأن يحبّها كما أحبها حتى يكتشف هذه الملاحةَ الفاتنة التي هي صورةُ نفسها». والواقع أن الصورة هي التي أظهرت هذه الملاحةَ الفاتنة التي هي صورة نفسها. لكن هذا التعبير كان صحيحاً إلى حد كبير خَيّل إلى الناس أنهم يعرفونه منذ أمدٍ بعيد.

قال فرونسكي وهو يتحدث عن الصورة التي رسمها هو نفسه:

ـ إني أكافح منذ زمن بعيد دون أن أتوصَّل إلى شيء. وقد اكتفى هو بالنظر ليعثر على السر. هذه هي التقنية.

قال غولينيتشيف معزِّياً:

ـ سوف تتوصَّل.

وكان يقدِّر أن فرونسكي يملك الموهبة كما يملك، بخاصة، ثقافة تمنحه نظرات عُليا في الفن. وكان هذا اليقين مُدَّعماً بحاجته إلى عطف فرونسكي وثنائه على أعماله الخاصة، وكان يحسّ أن العطف والثناء يجب أن يكونا متبادلين.

كان ميخايلوف، عند الآخرين، ولا سيَّما في «قصر» فرونسكي، رجلاً آخر يختلف عمّا هو عليه في مشغله. كان يبدو شديد الاحترام للآخرين، متحفِّظاً، وكأنه يخشى أن يدخل في خصوصيّة الناس الذين لا يقدِّرهم. وكان يدعو فرونسكي: «سيادتك» ولم يمكثْ قط للعشاء بالرغم من دعوات آنا وفرونسكي، ولم يزرهم إلا في أوقات جلسات التصوير. وكانت آنا عظيمة اللطف معه وممتنّة للصورة التي رسمها. وكان فرونسكي يعامله برقة متناهية، ويرغب في أن يعرف رأي الفنان في رسمه ذاته. أما غولينيتشيف فلم يفوِّتْ فرصةً يرسِّخُ فيها، في ذهنه، الأفكارَ الصحيحة عن الفن. لكن ميخايلوف كان يظهر الفتور إزاءَ الجميع على حدّ سواء. وكانت آنا تشعر أنه يُحبّ أن يتأمَّلها لكنه يتحاشى الحديثَ معها. وعندما حدّثه فرونسكي عن رسمه، صمت بعناد وأصرَّ على هذا الصمت عندما اطلع على لوحة فرونسكي. وظهر عليه العناءُ من حديث غولينيتشيف، ولم يكن يردّ عليه الجواب.

والخلاصة أن ميخايلوف لم يُعْجبهم بموقفه المتحفِّظ وغير الودِّي بل والعدائي، عندما عرفوه عن كثب. وسُرُّوا عندما انتهت الجلسات؛ لقد حصلوا على لوحة جميلة وكفَّ ميخايلوف عن المجيء.

وكان غولينيتشيف أول من عبَّر عن رأي يشاطرانه إياه، وهو أن ميخايلوف كان، بكل بساطة، يحسد فرونسكي:

يجب ألا نستعمل كلمة «حسد» لأن له «موهبةً»، لكنه يشعر بالتبرُّم من أن يستطيع رجلٌ غنيّ، رفيع المنزلة، وكونتٌ فوق ذلك، (إنهم يكرهون ذلك كله، كما تعلم) بدون عمل مفرط أن يجيد الرسم مثله، بل أكثر منه، في حين أنه يَقفُ عليه كل حياته. الشيء الجوهري هو الثقافة، وميخايلوف عديم الثقافة.

دافع فرونسكي عن ميخايلوف، لكنه كان، في قرارة نفسه، من هذا الرأي، لأن ابن الطبقة الدُّنيا، في رأيه، لا بدَّ أن يكون حسوداً.

إن صورتيْ آنا، الصورة التي رسمها هو نفسه والصورة التي رسمها الفنان كانتا حريَّتين أن تُرياه الفرقَ بينه وبين ميخايلوف، لكنه لم يكنْ يرى. بيد أنه توقَّف عن صورته، بعد ميخايلوف، مصرِّحاً بأنها غير ضرورية. وظل يعمل في لوحته التي استلهمَها العصرَ الوسيط. وكان يجد هذه اللوحة، كما كان يجدها غولينيتشيف وآنا، بالغة الجمال لأنها تشبه اللوحات الشهيرة أكثر مما تشبهها لوحات ميخايلوف.

أما ميخايلوف فقد كان أعظم سروراً منهم عندما انتهتْ الجلسات، وعندما استغنى عن سماع تعليقات غولينيتشيف على الفن، وعندما استطاع أن ينسى رسم فرونسكي، هذا مع أن صورة آنا قد أثارت اهتمامه كثيراً. كان يعلم أنه لا يستطيع منع فرونسكي من التسلي، وكان يعلم أيضاً أن لفرونسكي الحقّ، شأنه شأن جميع الهواة، أن يرسم ما يحلو له، لكن ذلك كان يسوؤُه. فنحن لا نستطيع أن نمنع إنساناً من جَبْل لعبة كبيرة من الشمع ومن تقبيلها. لكن هذا الرجل لو جاء بلعبته وجلس أمام العاشقين وأخذ يداعبها كما يداعب العاشقون معشوقاتهم، لساء العاشقين ذلك. كان ميخايلوف يحسّ بمثل هذا الإحساس أمام رسم فرونسكي: كان يجد ذلك مُضحكاً، مثيراً، جديراً بالرثاء، ومهيناً.

لم يدمْ طويلاً ولعُ فرونسكي بالرسم وبالعصر الوسيط. كان يملك ما يكفي من الحسّ الفنِّي لكي لا يُتمّ لوحته. فظلت اللوحةُ إذن ناقصةً. وأحسَّ فرونسكي

أن عيوبها، وهي قليلة الظهور في البداية، ستكون مُذْهلةً لو استمرَّ فيها. كان شأنه كشأن غولينيتشيف الذي أحسَّ أنْ ليس لديه ما يقوله فأخذ يخدع نفسه قائلاً لها: إن فكره لم يبلغْ بعد درجةً كافيةً من النضج، وأنه ينبغي أن يسعى إلى استكماله وهو يجمع موادَّه. لكن ذلك كان يغيظ غولينيتشيف ويعذِّبه، بينما كان فرونسكي عاجزاً عن خداع نفسه وتعذيبها والشعور بالحنق عليها. وكفَّ عن الرسم، بما في طبعه من حزم، دون تعليل ولا تبرير لنفسه.

لكن حياته وحياة آنا التي أدهشها انصرافُه عما افتتن به بدتْ لهما، بعد أن خلتْ من هذا الشاغل، تافهةً في هذه المدينة الإيطالية الصغيرة؛ وفجأةً بدا له «القصرُ» وسخاً، خرباً؛ واتخذت بقعُ الستائر، وشقوق الأرضية الخشبية، والأفاريز المقشَّرة، مظهراً منفّراً؛ وأصبح غولينيتشيف الملازمُ لهما، والأستاذ الإيطالي، والمسافر الألماني، مضجرين، على نحوٍ لا يُطاق: كان لا بدَّ لهما من تغيير حياتهما. فقرَّرا العودة إلى روسيا للسكن هناك، في الريف.

وفي بطرسبرج، كان فرونسكي ينوي أن يشرع هو وأخوه في تقسيم أملاكهما، وكانت آنا مشتاقة إلى ابنها. وأزمعا أن يقضيا الصيفَ في أرض واسعة لفرونسكي.

[١٤]

مضتْ ثلاثةُ أشهر على زواج ليفين. كان سعيداً، لكن على نحو مختلفٍ عمّا تصوَّر. ولدى كل خطوة، كان يُصاب بانحسار السحر، لكنه كان يلقى أيضاً فنوناً من السحر لم يتوقعها. كان سعيداً لكنه كان كلما أوغل في الحياة الزوجية رأى أن سعادته لم تكنْ كما تصوَّر. كان يُعاني ما يُعانيه امرؤٌ أُعجبَ بمسيرة الزورق السهلة، الرخيّة، في بحيرة؛ فلما استقرَّ فيه بدوره رأى أنه لا يكفي أن يظل جالساً وممتنعاً عن الحركات الخاطئة: ولا بدَّ له من ملاحظة القيادة دون أن يغفلها لحظة واحدة، ومن التفكير في الماء تحت قدميه، ومن التجديف، وهذا مؤلم لأيدٍ غير

مجرَّبة. إن تأمَّل هذه الملاحة شيءٌ سهل؛ أما قيادتها فربما كانتْ ممتعةً، لكنها صعبةٌ جداً.

عندما كان عزباً، كان يكتفي بابتسامة الازدراء، في أعماقه، من مشهد حياة الآخرين الزوجية، من همومهم السخيفة، وخصوماتهم وحسدهم. وكان مقتنعاً أنه لا يمكن أن يحدث شيءٌ مشابه، في بيته، بل إن المظاهر نفسها ستكون مختلفةً. وها هي ذي حياتُه مع زوجته لا تخلو فقط مما هو طريفٌ، بل إنها، على العكس، كانت مصنوعةً من هذه الصغائر التي طالما احتقرها والتي اتخذت الآن، بالرغم من إرادته، أهمية محقّقةً، لم يعهدها من قبل، ورأى ليفين أن التغلُّب على هذه الصغائر ليس بالسهولة التي اعتقدها أوَّل الأمر. ومع أنه كان يعتقد أنه كوَّن فكرة دقيقة عن الزواج، فقد كان يأمل، شأنُه شأن جميع الرجال، ألا يجد فيه سوى متع الحب دون أية عقبة، ودون أية تفاصيل مثيرة. كان ينبغي له، في رأيه، أن يتابع عمله وأن يستريح بجنبها، في سعادة الحب. وكان ينبغي لها أن تقنع بحبّه لها. لكنه نسي، شأنه شأن جميع الرجال، أن عليها أيضاً مهمةً يجب أن تقوم بها. لقد أدهشه أن تُفكِّر كيتي، هذه الرقيقة والساحرة، منذ الأيام الأولى في حياتهما الزوجية، بالأغطية والأثاث والفرش والطاهي والطاولة، إلخ... ومنذ خطوبتهما أذهلته بالوضوح الذي رفضتْ به السفرَ إلى الخارج، وقرَّرت به الذهابَ إلى الريف، كأنها كانت تعلم ما يناسبهما، وكأنما كان يمكنها أن تفكِّر في شيء آخر غير الحب. لقد جرحه ذلك من قبل، وهو الآن يحسّ بالإهانة من جرّاء هذا النشاط الحقير الذي تبذله. لكنه كان يرى أنها لا تستطيع أن تفعل غير ذلك. وبما أنه كان يحبّها فلم يكن بوسعه الامتناع عن الإعجاب بها مع السخرية منها كلما لاحت المناسبة، ودون أن يفهم أسبابَ سلوكها. كان يضحك حين يراها توزِّع الأثاثَ المجلوبَ من موسكو، وتغيِّر تأثيث غرفتيهما، وتعلِّق الستائر وتهيِّـىء غرفاً لأصدقائهما ولدولي، وتوجِّه خادمتها الجديدة والطاهي العجوز، وتدخل في نقاش

مع آغات ميخايلوفنا، وتسحب منها مهمة الإشراف على المؤن. كان يرى الطاهي العجوز يبتسم وهو يتلقّى أوامر حكمتْ بها نزوتُها ولا سبيل إلى تنفيذها؛ كان يرى آغات ميخايلوفنا تهزّ رأسها بوجه ينمّ على الحب والتفكير أمام الترتيبات الجديدة التي تفعلها سيِّدتُها الشابة؛ وكان يجد كيتي فائقةَ الروعة عندما تأتي نصف ضاحكة، ونصف باكية لأن «ماشا» ما زالت تعتبرها فتاةً صغيرة، ولأن أحداً لا يحملها على محمل الجدّ. كان كل ذلك ساحراً وغريباً وكان يفكِّر أنه كان في غنىً عن ذلك.

لم يتنبَّأ بالتغيُّر الذي تعانيه: كانت إذا اشتهت، عند أهلها، الملفوف بالخمر، أو الملبَّس، عجزت عن الحصول عليهما، أما الآن فهي حرَّة أن تأمر بما تشاء، وأن تشتري جبالاً من الملبَّس والحلوى، وأن تنفق المال على هواها.

كانت تحلم الآن، وفي فرحةٌ، بوصول دولي والأولاد: سوف تصنع لكل واحد من الأولاد الحلوى التي يفضِّلها، وستُعجب دولي بمسكنها الجديد. لم تكن هي نفسها تعلم لماذا، لكنّ مفردات المنزل كانت تشدها شداً لا يُقْهَر. وإذْ أحسَّتْ إحساساً غريزياً بمقدم الربيع، وعلمتْ أن أياماً عابسة ستأتي أيضاً، أخذتْ تبني عشّها كما تستطيع، وتستعجل في البناء وفي تعلُّم طريقة العمل.

هذه الاهتمامات المسكينة من جانب كيتي، المناقضة جدّاً للمثل الأعلى من السعادة السامية التي يحلم بها ليفين، كانت انحساراً لفتنة السحر: وهذا النشاط نفسه الذي غاب عنه معناه والذي لم يكن يستطيع أن يراه دون استمتاع، كان سحراً جديداً.

الخصام بينهما كان أيضاً انقشاعاً للأوهام وسحراً. فلم يتصوَّرْ ليفين قط أنه يمكن أن تقوم بينه وبين امرأته علاقاتٌ غير علاقات الحنان والاحترام والمودة، بيد أنهما تخاصما منذ الأيام الأولى. فقد أعلنت له أنه لم يكن يُحبّها، ولم يكن يُحبُّ غيرَ نفسه، وانفجرت باكية وندَّت عنها حركاتٌ دالةٌ على اليأس.

وقع أول شجار بينهما على إثر جولة قام بها ليفين في مزرعة جديدة: فقد تأخَّر نصف ساعة لأنه أراد أن يسلك طريقاً مختصراً فضلَّ سبيله. وعاد إلى بيته، وهو لا يفكِّر إلا فيها وفي حبه، وسعادته؛ وكان كلما اقترب زاد التهاب شوقه إليها. وصعد إلى غرفتها وهو يركض، يحدوه شعورٌ أعنف من الشعور الذي حرَّكه عندما ذهب إلى منزل آل تشرباتزكي ليطلب يدها. وإذا بها تلقاه بوجه كالح لم يرها بمثله قط. وأراد أن يعانقها فدفعتْه عنها.

ــ ما بكِ؟

فبدأت تقول وهي ترغب في أن تظهر سخريتها الباردة:

ــ هذا يسرّكَ...

لكنها ما أن فتحتْ فمها حتى انفجرتْ تلك الغيرةُ الرعناء باللوم، وهي غيرةٌ عذَّبتها طوال نصف ساعة قضتْها جالسةً تنتظرهُ على حافة النافذة. حينئذٍ فقد أدرك ما لم يستشفّه إلا استشفافاً عندما خرجا معاً من الكنيسة بعد الاحتفال. لقد أدرك أنها لم تكن قريبةً منه فحسب، بل إنه لم يكن يعلم أين تنتهي وأين يبدأ. أدرك ذلك من الشعور بالازدواج الذي عاناه في هذه الدقيقة. لقد جُرح في أول الأمر لكنه أحسَّ في اللحظة نفسها أنه لا يجوز له أن يُجرَحَ من جرَّائها لأنها غدتْ جزءاً منه. لقد كابد، في الدقيقة الأولى، شعوراً شبيهاً بالشعور الذي يكابدُه امرؤٌ أصابته ضربةٌ قوية في ظهره، فالتفت بغضب وهو يتهيَّأ للانتقام، فإذا به يشاهد أنه اصطدم سهواً، وأنه لا يحق له أن يلوم أحداً، وأن عليه أن يتحمَّل ألمه.

لم يحس ذلك فيما بعد بمثل هذه القوة، لكنه، في هذه المرة الأولى، تأخَّر حتى تمالك نفسه. وكان الشعور الطبيعي يأمره أن يُبرِّىء نفسه، أن يظهر لها خطأها؛ لكن ذلك كان قميناً بأن يزيد من غيظها وأن يُفاقم خلافهما، وهو سبب الشقاء كله. كان الشعور الطبيعي يأمره أن يتبرَّأ من الخطأ وأن ينسبه إليها؛ لكن

شعوراً أقوى كان يأمره أن يُهدِّىء الخلاف بأسرع وقت ممكن لكي لا يتيح فرصةً يتفاقم فيها. كان بقاؤه مُثْقلاً بمثل هذه التهمة شيئاً معذَّباً، لكنَّ إيذاءَها بتبرئته لنفسه كان أسوأ.

كان كرجل نهَشَه الألمُ، وهو بين اليقظة والنوم، فأراد أن ينتزع الشطر المريضَ، لكنه عندما صحا أبصر أن الشطر المريض هو نفسه. كان لا بدَّ له من أن يحاول وسعه الصبرَ على الألم، وهذا ما فعله.

تصالحا. وشعرتْ بغلطتها وإن لم تشأْ الإقرارَ بها. فبدتْ أكثر حناناً إزاءه، وتضاعف حبُّهما. لكن ذلك لم يمنع هذه الاصطدامات من أن تتكرَّر كثيراً، بأوهى الحجج وأتفه الذرائع. كانت هذه الاصطداماتُ تحدث في الغالب لأنهما لم يكونا يعلمان بعد ما المهمُّ عند كل منهما، ولأنهما كانا، في هذه الفترة الأولى، متكدِّري المزاج باستمرار. فإذا كان أحدهما مبسوطاً والآخر متكدِّراً، لم يتعرض الصلحُ للخطر، أما إذا كان كلاهما متكدِّرين حدثتْ الاصطدامات بذرائع واهية وتافهة إلى حدّ لا يمكنهما بعده أن يتذكَّرا سبب خلافهما. والحقيقة أن فرحهما كان يتضاعف وهما مبسوطان. لكن هذه الفترة الأولى كانت شاقّةً عليهما بالرغم من كل شيء.

أثناء هذه الحقبة، كان بينهما شدٌّ، وكان كلاًّ منهما يسحب إلى جهته السلسلة التي تربطهما. إن شهر العسل الذي كان ينتظر منه ليفين الكثير، كما هو متعارف، لم يكن شهراً من العسل وإنما ظلَّ في ذاكرتهما كليهما باعتباره أشق فترات حياتهما وأشدها هواناً. ولقد بذلا وسعهما، فيما بعد، أن يطرحا من ذاكرتهما الحوادث المخجلة والمضحكة من هذه الفترة غير الصحية التي قلَّما وجدا نفسيهما فيها في حالة عادية.

وإنما صارت حياتُهما أقل تعثُّراً في الشهر الثالث من حياتهما المشتركة، بعد عودتهما من موسكو حيث ذهبا ليقضيا شهراً فيها.

وصلا من موسكو قبل فترة وجيزة، وكانا سعيدين بوحدتهما. كان أمام مكتبه يكتب، وقد ارتدت كيتي ثوباً ليلكياً قاتماً كان زوجُها يحبّه لأنها لبسته في الأيام الأولى التي تلت زواجهما، وجلست على مقعد، نفس المقعد الجلدي العتيق الذي كان في مكتب جَدّ ليفين وأبيه، وأخذت تشتغل «بالتطريز الإنكليزي». كان يفكِّر ويكتب، وهو سعيدٌ إذ يحسّ بحضورها. لم يترك لا أملاكه ولا الكتاب الذي ستُعرَضُ فيه أُسس اقتصادٍ ريفي جديد. وكما بدتْ له هذه المشاغل قديماً هزيلةً بالقياس إلى الظلمات التي كانت تغطِّي حياته، بدت له الآن هزيلةً وتافهة بالقياس إلى النور الباهر الذي غمر وجوده. سوف يتابع أعماله لكنه أخذ يحسّ الآن أن مركز ثقل انتباهه قد انتقل، وأنه، من ثمَّ، سينظر إلى نشاطه بطريقة أخرى، وبوضوح أكبر. كان هذا النشاط عنده قديماً دفّةَ النجاة الوحيدة، أما اليوم فكان لا بدَّ له منه لكي لا تكون حياته مفرطة الإشعاع وعلى نحو متشابه. وعندما رجع إلى أوراقه وأعاد قراءة ما كتب من قبل، اكتشف بسرور أن هذا العمل يستحق أن يُتابعَ وبدا له الكثيرُ من أفكاره القديمة لغواً ومبالغاً فيه، لكن الكثير من الثغرات، بالمقابل، سُدَّت عندما راجع المسألةَ في ذاكرته.

كان يكتب الآن فصلاً جديداً عن أسباب وضع الزراعة المؤقت في روسيا، وكان يدلِّل على أن الفقر في روسيا لا يعود فقط إلى توزيع الملكيات الظالم وإلى الإدارة الخاطئة، بل وأيضاً إلى الادخال الاصطناعي للحضارة الأوروبية، ولا سيما طرق المواصلات، والطرق الحديدية التي أدَّتْ إلى التمركز في المدن، وإلى نموّ الترف، ومن ثمَّ، إلى نمو الصناعة، والقرض ومعه المضاربة، على حساب الزراعة، وبرأيه أن النمو الطبيعي للثروة في بلد ما لا يترافق وهذه الأحداث إلا عندما تبلغ الزراعة نمواً نسبياً.

وبينما كان يكتب، كانت كيتي تفكِّر فيما أبداه زوجُها من اهتمام غير عادي

بالأمير الشاب «تشارسكي» الذي غازلها بغير تحفُّظ عشيّة سفرهما. قالت في نفسها: «إنه يغارُ. يا إلـهي! ما ألطفه وما أغباه! إنه يغار! ليته يعلم أن جميع الرجال لا يقعون من نفسي موقعاً أفضل من موقع الطاهي بطرس» فكَّرَتْ في ذلك وهي تنظر إلى قذاله وعنقه الحمراء، بشعور من الملكية غريبٍ عليها. وقالت في نفسها: «مع أن المؤسف أن أقطع عليه مشاغله (وفي الوقت مهلةٌ!) إلا أنني يجب أن أرى وجهه. أيحسُّ أننى أتطلع إليه؛ أريد أن يلتفت... أريد ذلك الآن!» وفتحت عينيها محملقة فيه، آملةً بذلك أن تزيد من قدرتهما.

همهم وهو يتوقف عن الكتابة وقد شعر أنها كانت تنظر إليه:

ـ نعم إنها تستأثر بالنسغ كله وتبعثُ ببريقٍ كاذب.

والتفت وهو يبتسم، وسألها وهو يبتسم وينهض:

ـ ما بكِ؟

وفكّرت في نفسها: «لقد التفتَ»، وقالت وهي تنظر إليه وتحاول أن تكشف إن كان قد استَاءَ حين قطعته عن عمله:

ـ لا شيء، كنت أريدُ أن تلتفت.

قال وهو يدنو منها ويشعّ سعادةً:

ـ ما أسعدنا هكذا، نحن الاثنين! أنا على الأقل.

ـ وأنا! لا أريد أن أذهب إلى أي مكان آخر، ولا إلى موسكو، على وجه الخصوص.

ـ فيمَ كنتِ تفكّرين؟

ـ أنا؟ كنتُ أفكّر في...

وقالت وهي مبرطمة:

ـ لا، لا، عدْ إلى الكتابة، ولا تَلْتهِ عنها. يجب أن أقصّ هذه الثقوب الصغيرة، أترى؟

وتناولت مقصها وأخذت تقصّ القماش.

قال لها وهو يجلس بجنبها ويتأمل الحركة الدائرية لمقصّها الصغير:

ــ لا، قولي لي فيمَ كنت تفكّرين؟

ــ آه! نعم. كنتُ أفكّر في موسكو، في قذالكَ.

فقال وهو يلثم يدها:

ــ لمَ أنا سعيد إلى هذا الحد؟ ليس هذا طبيعياً. ذلك مُفرط الجمال.

ــ أنا، على العكس، أجد أن الأمور كلما ازدادتْ حسناً غدت طبيعية أكثر.

قال وهو يدير رأسها بحذر:

ــ إن لكِ خصلة صغيرةً، هنا.

ــ دعْ ذلك، إننا نهتمّ بأشياء جدّية.

لكن الأشياء الجدّية تُركتْ، وافترقا فجأةً كالمذنبيْن عندما دخل «كوزما» ليعلن أن الشاي جاهز. فسأله ليفين:

ــ هل جاء أحدٌ من المدينة!؟

ــ جاء حامل البريد، في هذه اللحظة، وهو يصنف البريد.

قالت له وهي تترك المكتب:

ــ أسرعْ، وإلاَّ قرأتُ الرسائل بدونك.

عندما ظلّ ليفين وحده، رتّب أوراقه في نشافة جديدة اشترتها له امرأتُه، ثم غسل يديه في مغسلة جديدة، مجهّزةٍ بجميع لوازمها، وهي أيضاً من عند كيتي. كان يبتسم لأفكاره ويهزّ رأسه هزّة الاستنكار؛ لقد أخذ يعذّبه شعورٌ قريبٌ من الندم. ففي حياته الحاضرة شيءٌ من الرخاوة (التي أخذ يستحي منها. وخطر بباله انهماكُ جنود «هانيبال» في ملذّات «كابو»). وقال في نفسه: «ليس حسناً أن يعيش المرءُ كذلك». هاقد مضتْ ثلاثةُ أشهر ولم أفعلْ شيئاً. هذه أول مرة تقريباً أستأنفُ العمل، وقد أقلعتُ عنه على الفور بعد أن بدأتُه. بل إني هجرتُ تقريباً جميع

مشاغلي المعتادة. لقد تركتُ الإشرافَ على أملاكي. فأنا آسف على فراق زوجتي تارةً، وتارةً أخرى أخاف أن ينتابها الضجرُ. وأنا الذي كان يفكّر أنّ الحياة لا تُعَدَّ حياةً حتى الزواج، وأنها لا تبدأ حقاً إلاّ بعده! هاقد مضت ثلاثة أشهر، ولم أقضِ قطّ وقتي في مثل هذا الفراغ. لا، هذا مستحيل، ويجب أن أبدأ. بالطبع، ليست الغلطة غلطتها. ولا نستطيع أن نلومها على شيء. أنا الذي ينبغي لي أن أكون صلباً، وأن أدافع عن استقلالي... بالطبع، ليست الغلطةُ غلطتها».

لكنّ من الصعب على رجل مستاءٍ ألاّ يلومَ غيره، ولا سيّما أقرباءَه، على ما هو مستاءٌ منه. ولذلك أخذ ليفين يفكّر تفكيراً مشوّشاً بأنها ليست هي المذنبة (لا يمكن أن تكون هي مذنبةً في شيء)، وإنّما تربيتها المفرطة السطحيّة والتفاهة هي المذنبة (هذا الأحمق تشارسكي، اعلمُ أنها أرادت أن توقفه عند حدّه، لكنها لم تُحسنْ). «نعم ليس لها اهتمامات جديّة وراء المنزل، وزينتها، «والتطريز الانكليزي». فليس يَعْنيها لا عملي، ولا الأملاك، ولا الفلاحون، ولا الموسيقا مع أنها مارستها كثيراً، ولا القراءة. إنها لا تفعل شيئاً وهي راضيةٌ كل الرضا». وليفين، بحكمه هذا، لم يفهم بعدُ أن كيتي تتهيأ لمرحلة من النشاط ستكون فيها زوجةً وربةَ بيت وأمّاً ومرضعاً ومربيّة، في آن واحد. لم يكن يفهم أنها تعلم ذلك بغريزتها، وأنها كانت تمنح نفسها، وهي تتهيّأ لهذه المهمة الرهيبة، بضع دقائق من اللامبالاة والسعادة تبني فيها بفرحٍ عشها المقبل.

[١٦]

صعد ليفين إلى الطابق الأول. حيث وجد زوجته جالسةً قرب السماور وطقم الشاي المتوهّج، الجديد. لقد أجْلست العجوزَ آغات ميخايلوفنا عند المنضدة مع كأس من الشاي، وأخذت تقرأ رسالةً من دولي التي كانت تراسلها باستمرار.

قالت آغات ميخايلوفنا لليفين بابتسامة ودّية:

ــ أترى، لقد أجلستني زوجتَك بقربها.

في هذه الكلمات قرأ ليفين حلاًّ للقصة التي طرأت في هذه الآونة الأخيرة بين آغات ميخايلوفنا وكيتي. رأى أن كيتي المنتصرة، بالرغم من الغمّ الذي سبّبته للخادمة العجوز حين سحبتْ منها شؤون الإدارة، استطاعت أن تحبّبها بذاتها.

قالت كيتي وهي تمدّ إليه رسالةً رديئةَ الخطّ:

ــ فتحتُ هذه الرسالة الموجّهة إليك. إنها من امرأة أخيك، فيما أعتقد. . . ولم أقرأْها. وأنا تلقيتُ رسالةً من أهلي، وأخرى من دولي. تصوّرْ أن دولي اصطحبتْ «غريشا» و «تانيا» إلى حفلة راقصة للأطفال عند آل سارماتسكي! وكانت تانيا بثياب المركيزة.

لكن ليفين لم يكن يصغي إليها: لقد تناول وهو يحمّر رسالةَ ماري نيكولاييفنا، عشيقة أخيه القديمة، وأخذَ يقرؤها. كانت هذه هي الرسالة الثانية التي يتلقّاها منها. في الرسالة الأولى، كتبتْ ماري نيكولاييفنا تقول: إن أخاه طردها مع أنها بريئة، وأضافت، بسذاجة مؤثّرة، أنها لا تطلب شيئاً، وإن كانت في فاقة، لكنها تتألم لكون نيقولا دميتريفتش ستُضنيه العلةُ، نظراً إلى ضعفه، وتطلبُ من أخيه ألاّ يَغْفل عنه. وكتبتْ اليوم تقول: إنها لقيت نيقولا دميتريفتش، وأنهما استأنفا حياتهما المشتركة في موسكو، وأنهما كانا قد سافرا إلى مدينة من مدن المقاطعة حيث عُيّن في وظيفة إدارية. وهناك تخاصم مع رئيسه فعاد إلى موسكو. لكنه مرض في الطريق مرضاً شديداً حتى إنها تشك في شفائه منه. «وهو دائم الحديث عنكَ ولم يبق معه مال».

استأنفت كيتي كلامها وهي تبتسم:

ــ انظرْ، إن دولي تتحدّث عنك.

لكنها توقّفتْ فجأةً عندما لاحظت تبدُّلَ ملامح زوجها:

ـ ما الأمر؟ ماذا جرى لك؟

ـ إنها تكتب أن أخي مشرفٌ على الموت. وسأسافر لأكون بجنبه. تغير وجه كيتي رأساً. واختفتْ من ذهنها تانيا بثياب المركيزة ودولي، وقالت:

ـ متى؟

ـ غداً.

ـ أأستطيع الذهاب معك؟

قال لها بلهجة الملامة:

ـ كيتي، قولي لي، فيمَ تفكّرين؟

فأجابت، وقد جَرَحَها أن ترى عَرْضَها يُقابَل بالتبرم والضيق:

ـ فيمَ أفكّر؟ ولمَ لا أذهب؟ لن أضايقك في شيء. وأنا...

قال ليفين:

ـ إنني ذاهبٌ إلى موسكو لأن أخي يحتضر. وأنتِ لماذا...

ـ لماذا؟ للسبب نفسه الذي حملك على الذهاب.

فكّر في نفسه: «حتى في مثل هذه اللحظة الحرجة، إنها لا تفكر إلاَّ في الضجر الذي سيصيبها وهي وحدها». وغاظه أن تختلق الأعذار في مثل هذه المناسبة الحرجة، وقال بقسوة:

ـ هذا مستحيل.

وعندما رأت آغات ميخايلوفنا أنهما سيتخاصمان وضعت كأسها برفق وخرجت. ولم تفطن كيتي إلى ذلك. فاللهجةُ التي قال بها زوجُها هذه الكلمات الأخيرة قد جرحتها جرحاً شديداً ولا سيما لأنه لم يصدق، كما يبدو، ما قالته له.

فردّتْ عليه بعجلةٍ وبغضب.

ـ وأنا أقول لك: إنك إنْ ذهبتَ ذهبتُ معك لا محالة. ولمَ يكونُ ذلك مستحيلاً؟ لمَ تقولُ إنه مستحيل؟

قال ليفين وهو يحاول أن يحتفظ بهدوئه:

ـ لأننا سنسافر على طرقٍ رديئة، لا يعلمها إلاّ الله، وسننزل في فنادق... ستضايقينني.

ـ أبداً. لست بحاجة إلى شيء. فحيث تستطيع أن تذهب. أستطيعُ أن أذهب أيضاً...

ـ على الأقل، بسبب المرأة التي لا يجوز لك أن تخالطيها.

ـ لا أعلم شيئاً ولا أريدُ أن أعلم شيئاً. ما أعلمه هو أن أخا زوجي يموت وأن زوجي ذاهب إليه، وسأصحبُه لكي...

ـ كيتي! لا تغضبي. لكن فكّري. الوضع حرج إلى الحد الذي يؤلمني فيه أن أراك تمزجينه بشعور من الضعف، بالخوف من أن تظلّي وحدك. اذهبي إلى موسكو إن كنت تضجرين.

فردّت عليه، ودموعُ الغضب تَهمْي:

ـ كذلك أنت، تنسبُ إليَّ دائماً أفكاراً رديئة وسوقيّةً. ليس ما بي ضعفاً. أحّس أن من واجبي أن أكون قرب زوجي في الضرّاء، لكنك تؤذيني عن قصد، وتتعمّد ألا تفهمني...

فصاح ليفين وهو ينهض وقد عجز عن كبح نفسه أطول من ذلك:

ـ آه! إنه لشيء فظيع أن يصير المرءُ عبداً إلى هذا الحد!

لكنه أحسَّ، في اللحظة نفسها، أن هذه الطعنة موجهة إليه نفسه.

فقالت:

ـ ولمَ تزوّجتَ إذن؟ كنتَ ستبقى حراً. لم تزوجتَ، إذا كنتَ نادماً منذ الآن على الزواج؟

ونهضتْ فجأة وفرّتْ إلى قاعة الاستقبال.

وعندما لحق بها كان النحيب قد خنقها.

وبدأ يتكلم، وهو يسعى إلى العثور على الكلمات التي يمكن أن تهدّئها على الأقل، إن لم تَثْنها عمّا هي فيه. لكنها لم تُصغ إليه ولم توافقْ على شيء. فانحنى عليها وأمسك بإحدى يديها فأبت أن تعطيه إياها وقبّل يدها وشعرها، ثم قبل يدَها أيضاً. . . وأخلدتْ إلى الصمت. لكنه عندما أمسك بوجهها بين يديه وقال لها: «كيتي»، تمالكت نفسها فجأة، وبكتْ قليلاً وتصالحاً.

قرّرا الذهاب معاً، في اليوم التالي. وقال ليفين لزوجته: إنه يعتقد أنها ترغب في مرافقته من أجل تقديم خدماتها، ووافق على أن وجود ماري نيكولاييفنا قرب أخيه ليس فيه ما لا يليق؛ لكنه سافر، وهو في أعماق قلبه، غيرُ راضٍ عنها وعن نفسه. وكان غير راض عنها لأنها لم تستطع أن تدع له حرية الذهاب في حين كان ذلك ضرورياً (وبدا له غريباً أنه ما كان يجرؤ على الاعتقاد، قبل وقت قريب، بأنها يمكن أن تحبه، وهو الآن يحسّ بالشقاء لأنها تحبّه حباً مفرطاً!)؛ وكان غير راضٍ عن نفسه لأنه لم يُبد الحزمَ الكافي. لكنه كان يخشى، على الخصوص، ذلك التقارب بين كيتي وهذه المرأة التي تعيش مع أخيه؛ وكان يفكر برعبٍ في جميع الاصطدامات التي قد تحدث. كان يرتعشُ من الهول والاشمئزاز لهذه الفكرة وحدها وهي: أن امرأته، أن كيتي، ستُوجد في غرفة واحدة هي وإحدى بنات الهوى.

[١٧]

كان فندق مركز القضاء، الفندق الذي يحتضر فيه نيقولا ليفين، أحد فنادق المقاطعات المزوّدة بالتجهيزات المتقنة والحديثة، مع تطلّعات إلى النظافة والراحة، بل وإلى الأناقة، لكن روّاده سرعان ما يحوّلونه إلى حانات قذرة ومدّعية، وهذا الإدعاء يجعلها أسوأ عشر مرات من الفنادق القديمة والبسيطة التي نرضى بأن تكون وسخةً فقط. وصل هذا الفندق إذن إلى هذه الحالة: فالجندي الذي يرتدي بزة باليةً ويدخّن سيجارة في البهو باعتباره يقوم بوظيفة البوّاب،

والدرج المعدني المخرّم والمعتم، والخادم الرثّ الهيئة الذي تغطّتْ ثيابُه بالبقع، والقاعة المشتركة، بباقات زهورها الشمعية، المكسوّة بالغبار، التي تزيّن الموائد، والوسخ، والقذارة، وهذا النوع من الادعاء الذي شاع منذ تطوّر الخطوط الحديدية، كل ذلك ترك في ليفين، بعد حياته الزوجية الحديثة العهد، أثراً مؤلماً، ولا سيما أن هذا الانطباع الزائف لا يتّفق مع ما كان ينتظرهما.

وكما هي القاعدة في مثل هذه الحالة، فإنهما لم يجدا غرفةً حسنةً، خاليةً، مناسبةً لطلبهما: فهذه الغرفة يشغلها مفتشُ الخطوط الحديدية، وتلك يشغلها محامٍ من موسكو، وثالثة تشغلها الأميرةُ آستافييف الآتية من الريف. ولم يُعطيَا سوى غرفة وسخةٍ، مع وعدٍ بأن تُخلى الغرفة المجاورة في هذا المساء. قاد ليفين زوجته إلى الغرفة المخصصة لهما، وهو خانق لأنه رأى توقّعاته تتحقق، ولأن عليه أن يشغل باله بامرأته منذ وصولهما، في حين كان قلبه ينقبض عند التفكير بأخيه الذي ودّ لو يطيرُ في الحال إليه.

قالت له وهي ترميه بنظرة وجلةٍ ومذنبة:

ــ امضِ! امضِ!

خرج دون أن يفوه بكلمة، وسرعان ما اصطدم بماري نيكولاييفنا التي علمت بوصوله ولم تجرؤْ على الدخول. كانت تماماً كما رآها في موسكو: نفس الثوب الصوفي الذي يكشف عن ذراعيها وعنقها، نفس الوجه المجدور، البليد، الساذج، والمنتفخ قليلاً.

ــ ماذا؟ كيف حاله؟

ــ سيئة جداً. إنه لا يغادر فراشه. وهو ينتظرك بفارغ الصبر. وهو... أنتَ... أنتَ مع زوجتك؟

لم يُدركْ ليفين رأساً ما الذي جعلها تضطرب، لكنها سرعان ما بيّنت السبب. قالت:

ـ سأنصرف، سأذهب إلى المطبخ. إنه يعرفها. وهو يتذكّر أنه رآها في الخارج.

أدرك ليفين أنها تتحدّث عن امرأته لكنه لم يدرِ كيف يجيب. وقال:

ـ هيّا، هيّا!

لكنه ما كاد يخطو خطوةً حتى فُتح بابُ غرفته وظهرتْ كيتي. وعلتْ الحمرةُ ليفين من الارتباك والحنق عندما رأى امرأته تلجئهما إلى مثل هذا الوضع المحرج. لكن ماري نيكولاييفنا كانت أشدّ حمرةً منه. انكمشتْ على نفسها، وهمت الدموعُ من عينيها، وقد أمسكت بيديها طرفيْ خمارها وأخذت تفتلهما بأصابعها الحمراء وهي لا تدري ماذا تقول وماذا تفعل.

وفي مدى طرفة عين، رأى ليفين تعبيراً عن الفضول المتعطّش في النظرة التي ألقتها كيتي على هذه المرأة، تعبيراً لم يفهمه، لكنه لم يدم سوى طرفة عين.

قالت وهي تلتفت إلى زوجها، ثم إلى المرأة:

ـ وكيف حاله؟

قال ليفين وهو يلقي نظرة غضبى على سيّد قلق المشية، كان يمرّ في هذه اللحظة:

ـ لا يمكننا الكلام في الممرّ!

قالت كيتي لماري نيكولاييفنا التي تخلّصت من انفعالها:

ـ طيّب! ادخلي.

واستدركتْ وهي ترى وجهَ زوجها المروَّع:

ـ أو بالأخرى، اذهبي ثم ابعثي في طلبي.

ودخلت غرفتها، واتجه ليفين إلى غرفة أخيه.

ما كان يتوقّع البتة مثل هذا المشهد الذي ينتظره. تصوّر أنه سيجد أخاه في هذه الحالة من الشعور بالخفة الذي يُلاَحظ غالباً ـ كما سَمع ـ لدى المسلولين

والذي أدهشه كثيراً أثناء زيارة أخيه له في الخريف. وقدّر أن دنوّ الموت يظهر في أعراض أشد وضوحاً، ضعف أشد وهزال أعظم، وأنه سيلقى أخاه في الوضع نفسه. توقّع أن يخالجه الأسف على فقد أخيه الحبيب، بدرجةٍ أقوى، وأن يكابد أمام الموت تلك الرهبة التي أحسّ بها قديماً. لقد هيّأ نَفسه لذلك؛ لكن ما وجده كان مختلفاً أشد اختلاف.

في غرفة صغيرة قذرة توسختْ جدرانها المدهونة بالبصاق، ولم يستطع حاجزها الرقيق أن يخنق ضجيج المناقشات، وقد نتّنتْ هواءَها الأقذارُ، وعلى سرير أُبعد عن الجدار، تمدّد جسدٌ مغطّى بغطاء. وعلى الغطاء حطّتْ يدٌ عريضةٌ كالممشاط، معلّقة على نحو غريب، بمغزل طويل، ودقيق في أوله متلماً هو دقيق في وسطه. أما الرأس فقد استند إلى الوسادة بجانب منه. ورأى ليفين شعراً نادراً، ألصقه العرق بالصدغين، وجبهةً مرتفعة، وشفافة تقريباً.

فكّر ليفين: «أمن الممكن أن تكون هذه الجثة هي أخي نيقولا؟» لكنه دنا وشاهد الوجه، ولم يبق من مجالٍ للشك. وبالرغم من تبدّل ملامحه المرعب، فقد كان يكفي ليفين أن ينظر إلى هاتين العينين المتوقّدتين المرفوعتين نحو القادم، وأن يلتقط حركةً خفيّةً من شفتيه تحت شاربه المبلّل بالعرق ليدرك الحقيقة المرعبة: هذه الجثة كانت حقاً أخاه.

عندما أمسك ليفين بيد أخيه، ابتسم له أخوه. كانت ابتسامةً ضعيفة، لا تكاد تُلمَحُ، وظلّ تعبيرُ العينين قاسياً، ونطق بمشقّة:

ــ ما كنتَ تتوقّع أن تراني هكذا.

قال ليفين وقد تلبّك في جملته:

ــ بلى... لا، لم تخبرني قبل الآن، عند زواجي؟ لقد فتشتُ عنك في كل مكان.

كان لا بدّ من الكلام، من تفادي الصمت، ولم يكن يدري ماذا يقول، ولا

سيما أن أخاه لم يكن يجيب، وكان يكتفي بالنظر إليه، دون أن يغضّ بصره: كان من الواضح أنه ينفذ إلى معنى كل كلمة. وأعلن ليفين لأخيه أن زوجته جاءت معه. فأبدى نيقولا رضاه لكنه قال: إنه يخشى أن يخيفها. وخيمَّ الصمتُ، وفجأة أخذ نيقولا يضطرب وبدأ يتكلّم. وخيّل، إلى ليفين، من تعبير وجهه، أنه سيُسرّ إليه بنبأ مهم جداً. لكن نيقولا تحدّث عن صحته. وشكا له طبيبه، وأسف لغياب شخصية طبيّة شهيرة من موسكو، فأدرك ليفين أن أخاه ما يزال يأمل بالشفاء.

استغل ليفين أول دقيقة من الصمت، فنهض وهو يحرص أن يتخلّص، ولو للحظةٍ، من شعور معذّب وقال إنه ذاهب ليأتي بامرأته.

قال المريضُ بصعوبة:

ــ طيّب. سأطلب إلى ماشا أن تُنظّف الغرفة قليلاً. فهي وسخة ورائحتها غير حسنة، على ما أتصوّر. تعالي يا ماشا ورّتبيها.

وأضاف وهو ينظر إلى أخيه نظرةً مستفهمةً:

ــ واخرجي عندما تنتهين.

لم يجب ليفين بشيء. وحين بلغ الممرّ، توقّف. لقد قال له إنه سيأتي بامرأته، لكنه عزَم الآن، بعد أن انكشف له الشعورُ الذي يعانيه، أن يحاول ثَنْيَها عن زيارة المريض. وفكّر: «ولماذا تتألم مثلي؟».

سألته كيتي بوجه مرتعب:

ــ ماذا؟ كيف حالُه؟

قال ليفين:

ــ آه! هذا فظيع، فظيع! لماذا جئتِ؟

سكتت كيتي بضع لحظات، وهي تتأمّل زوجها بنظرةٍ وجلةٍ، تَعِسة، ثم دنت منه وتعلّقت بعنقه، بكلتا يديها.

ــ كوستيا، خُذْني إليه، سيكون ذلك أقل إيلاماً لنا الإثنين.

وأضافت:

ــ خُذْني إلى هناك، أرجوك، وَدَعْنا. واعلمْ أن أسوأ من كل شيء عندي أن أراك ولا أراه.

وقالت بلهجة ضارعة، وكأن سعادتها تتوقّف على هذا الطلب:

ــ إقبلْ، أرجوك.

اضطُرّ ليفين إلى القبول، وعندما هدأ روُعه، رجعَ إلى أخيه مع كيتي؛ لقد نسي كلياً ماري نيكولاييفنا.

دخلتْ غرفةَ أخيه بخطوات خفيفة، ناظرةٌ، في كل لحظة، إلى زوجها، مُبديةً له وجهاً شجاعاً ومتفهّماً، وأغلقت الباب برفق، وهي تستدير ببطء. ثم دنت بسرعة وبلا ضجيج من فراش المريض، ووقفتْ بحيث لا تكلّفه إدارة رأسه، وأمسكت بيدها الفتية والنضرة يدَهُ الضخمة، وشدّت عليها، وأخذت تحدّثه بحيويّة، تحدوها تلك الموهبةُ الخاصة بالنساء في أن يُبدين عطفهن دون أن يجرحْن.

قالت له:

ــ التقينا في «سورن»، لكنا لم نتعارف. ما كنتَ تتصوّر إنني سأكون زوجة أخيك.

فقال:

ــ ما كنتِ لتعرفيني؟

وكان وجهه قد استنار بابتسامةٍ عند دخولها.

ــ أوه! بلى. أحسنتَ جداً حين دعوتنا! كان كوستيا قلقاً، وكان يحدثني عنك كل يوم.

لكن حيوية المريض لم تدمْ طويلاً. وقبل أن تنتهي من كلامها، عاد إلى وجهه تعبيره الصارم الذي ينطق باللوم وبحسد المحتضر للحيّ.

قالت وهي تتخلص من نظرته الثابتة وتُجيل بصرها في الغرفة:

ــ أخشى ألا تكون مرتاحاً هنا.

وقالت لزوجها:

ــ يجب أن نطلب له غرفةً أخرى بحيث يكون قريباً منا.

[١٨]

لم يكن بوسع ليفين أن ينظر إلى أخيه بهدوء، لم يكن بوسعه أن يظل طبيعياً وهادئاً بحضوره. وعندما كان يدخل على المريض كانت عيناه وانتباهه تتغشّى بغشاوة تمنعه من رؤية وضع أخيه. كان يتنشق رائحةً كريهة، ويرى الوسخ والفوضى، ويسمع الأنين، ويحسّ أن ليس بوسعه أن يفعل شيئاً لتدارك هذا الوضع الفظيع. ولم يخطر بباله أن يفكّر في تحليل تفاصيل هذا الوضع. أن يتساءل كيف يرقد هذا الجسمُ هنا، تحت هذا الغطاء، وما وضعُ هاتين الساقين الناحلتين، وتينك الكليتين، وهذا الظهر، وهل من الممكن العثور على حل أفضل. وكان يَسْري في ظهره إحساسٌ من البرد إذا بدأ يفكّر فيه. وكان مقتنعاً اقتناعاً ثابتاً أنه لا سبيل إلى إطالة عمر أخيه أو تخفيف آلامه. لكن شعوره بالعجز الكلّي كان يؤلمه ويخنقه. فيشتدّ ضيقُه من جرّاء ذلك. وكان البقاء في غرفة المريض عذاباً بالنسبة إليه، لكن الامتناع عن الذهاب كان عذاباً أكبر. ولذلك كان يدخل ويخرج في كل لحظة، بأعذارٍ شتّى، من غير أن يَقْوى على البقاء وحده.

لكن كيتي كانت تفكّر وتحسّ وتعمل على نحو مختلف. لقد أيقظَ منظرُ المريض شفقتها. ولم تولّدْ الشفقةُ في نفسها، في نفس المرأة ذلك الإحساس بالهول والنفور الذي بعثته في نفس زوجها، وإنما ولّدت الحاجة إلى العمل، وإلى معرفة حالة المريض بكل تفاصيلها، ومحاولة نجدته. وبما أنها لم تشكّ لحظة واحدة بأن من واجبها أن تمدّ له يدَ المساعدة، فإنها لم تشك أيضاً بأن ذلك

ممكن. ولذلك فسرعان ما عكفتْ على العمل. وهذه التفاصيل نفسها التي كان التفكير وحده بها يُغرق زوجها في الرعب، ما لبث أن استرعتْ انتباهه. أرسلتْ تطلب طبيباً وتشتري دواءً، وأمرتْ خادمتها التي رافقتها بأن تنفِّض الغبار وأن تغسل، وغسلتْ هي نفسها، ومهّدتْ سرير المريض، وجلبتْ أشياء شتى. وقصدتْ إلى غرفته عدة مرات، دون أن تهتم بالناس الذين تصادفهم، وحملت الأغطية منها، ووجوه الوسائد والمناشف والقمصان.

وجاء الخادمُ الذي يقدّم للمهندسين عشاءهم، في القاعة العامة، عدة مرات، وهو بادي الغضب، بناءً على دعوتها، ولم يستطع أن يتملّص من أوامرها لأنها كانت تلقيها بإصرار محبّب إلى الحد الذي كان من المستحيل معه أن يُرْفَض لها طلبٌ. وكان ليفين يستنكر ذلك كله. لم يكن يستطيع أن يؤمن بأن ذلك كله قد يخرج منه ما يخفف أوجاع المريض. وكان يخشى بخاصةٍ غضبَ أخيه. لكن المريض لم يغضبْ، وإن بدا غير مبالٍ بهذه الأحداث الصغيرة. وكان يُظهر الارتباكَ فقط، ويبدو وكأنه يهتمّ بما تغمره به من عناية. وعندما عاد ليفين من عند الطبيب، وقد أرسلته كيتي ليأتي به، رأى، وهو يفتح الباب، ماري نيكولايفنا والخادم يغيرّان ثياب المريض، وكان ظهره الأبيض، الطويلُ عارياً بألواحه العريضة وأضلاعه وفقراته الناتئة، وقد تلّبكا بكمّي القميص ولم يستطيعا أن يدخلا فيهما ذراعي المريض الطويلتين، الهامدتين. أغلقت كيتي البابَ بسرعة وراء ليفين دون أن تنظر إلى الجهة الأخرى؛ لكن المريض أخذ يئنّ فاتجهت على الفور إليه، وقالت:

ـ عجّلا.

قال لها المريض بحنق:

ـ لا تقتربي. سأتدبّر الأمر بنفسي.

قالت ماري نيكولايفنا:

ـ ماذا تقول؟

لكن كيتي سمعت وفهمت أنه يخجل من الظهور عارياً أمامها.

وقالت وهي توجّه يده:

ـ لن أتطلع، لن أتطلّع.

وأضافت:

ـ ساعديه من الجهة الأخرى، يا ماري نيكولاييفنا.

واستأنفتْ مخاطبةَ زوجها:

ـ اذهبْ، أرجوك، وأخرجْ القمقم من حقيبتي، في الجيب الجانبي الصغير، وأتْني به، وفي هذه الأثناء، سننتهي من ترتيب الغرفة.

عندما عاد ليفين ومعه القمقم، وجدَ المريضَ ممدّداً، وقد تغيّر كلُ شيء من حوله كلياً. فالرائحة الخانقة أخلتْ مكانَها لرائحة الخل المعطّر التي نشرتها كيتي وهي تنفخ في أنبوب صغير، مادةً شفتيها ونافخةً خديها الورديين. وأُزيلَ الغبارُ، وفُرِشتْ سَجادةٌ قرب السرير. وعلى الطاولة، صُفّتْ بعناية القماقم والدوارق ورزمةُ الغسيل وشغلُ كيتي من «التطريز الانكليزي». وعلى طاولة أخرى كان، قرب سرير المريض، شرابٌ وشمعةٌ ومسحوق. وغُسل المريضُ نفسه ومُشط شعره، واستقر على فراشه في أغطية نظيفة، على وسائد عالية، بقميص نظيف. وبرز عنقه النحيل، على نحو غير معهود، من قبّة قميصه البيضاء، وتجلّى في عينيه اللتين لم يحوّلهما عن كيتي تعبيرٌ جديد من الأمل.

إن الطبيب الذي وجده ليفين في ناديه وجاء به لم يكن هو الذي يُعالج نيقولا، في العادة، والذي كان ليفين مستاءً منه. لقد جسّ المريضَ، وهزّ رأسه، ووصف دواءً وشرح بالتفصيل كيف ينبغي أن يؤخذ الدواء، وما الحمية التي يجب التقيّد بها. ونصح بتناول البيض النيء أو الذي لم ينضج، وبالماء المعدني مع الحليب الساخن بحرارة معينة. وعندما انصرف الطبيبُ، قال المريضُ شيئاً لأخيه،

بيد أن ليفين لم يميّز سوى الكلمات الأخيرة: «زوجتك كاتيا»، لكن ليفين أدركَ من النظرة التي ألقاها على زوجته، أنه أثنى عليها. ثم دعا كاتيا، وهكذا كان يدعوها.

وقال:

ـ إني أشعر بتحسن كبير. كنتُ سأشفى، معك، منذ زمن بعيد.

ما أحسن حالتي!

وأمسك بيدها، ورفعها إلى شفتيه، لكنه خشي أن يفعل ما تكرهه فغيّر رأيه، وخفض تلك اليد واكتفى بمداعبتها. وشدّت كيتي على يده بين يديها.

قال:

ـ الآن، أديروني على الجهة اليسرى، واذهبوا لتناموا.

كيتي وحدها فهمت ما قال. فهمتْ لأنها كانت لاتني تتساءل عمّا يحتاج إليه.

قالت لزوجها:

ـ على الجهة الأخرى. إنه ينام على هذه الجهة دائماً، أدرْه أنت نفسك. فمن المزعج أن ندعو الخادم. أنا لا أقدر.

وسألت ماري نيكولاييفنا:

ـ وأنتِ؟

أجابت هذه:

ـ أنا خائفة.

أيّاً كانت الرهبةُ التي خالجت ليفين من أن يمسك بين ذراعيه هذا الجسد المرعب، وأن يلمس، تحت الغطاء، أجزاء جسده التي أراد أن يتجاهلها، فقد انصاع لمشيئة زوجته. أمسك أخاه من وسطه، وقد اصطبغ وجهُه بالعزم الذي عهدتْه فيه، وعلى الرغم من قوته فقد دهش من الثقل الغريب لهذه الأعضاء

المنهكة. وبينما كان يديره، شاعراً أن عنقه تحيطُ بها ذراعٌ طويلة هزيلة، أدارتْ كيتي الوسادة على عجل، ومهّدتها، وصفّت له شعره القليل الذي لصق من جديد بصدغيه.

استبقى المريضُ إحدى يديْ أخيه في يده، وأحسّ ليفين أنه يريد أن يفعل شيئاً بهذه اليد وأنه يشدّها. فتركه يفعل وهو منخوبُ الفؤاد. وأخيراً، قرّبها من شفتيه ولثمها، فترك ليفين الغرفة، والنحيبُ يهزّه، دون أن يَقْوى على التفوّه بكلمة.

[١٩]

«أعلنَ للصغار ما أخفاه عن الحكماء والفهماء»[(١)]، إذا كانت هذه الآية قد خطرت ببال ليفين فليس لأنه كان يحسب نفسه حكيماً. لم يكن يحسب نفسه حكيماً، لكنه لم يكن يستطيع أن يتجاهل أنه أذكى من زوجته ومن آغات ميخايلوفنا، وكان يعلم، من جهة أخرى، أنه حين يفكّر في الموت فإنما يفكّر فيه بكل قوى نفسه. وكان يعلم أيضاً أن كثيراً من العقول الواسعة التي قرأ تفكيرها فيه، كانت تفكّر فيه دون أن تكتشف واحداً بالمئة مما كانت تعلمه بهذا الصدد زوجتُه وآغات ميخايلوفنا. فهاتان المرأتان المختلفتان اختلافاً شديداً، آغات ميخايلوفنا وكاتيا، كما سمّاها أخوه نيقولا وكما صار ليفين يحب أن يُسمّيها، كانتا متشابهتين تماماً بهذا الصدد. كانتا تعلمان، دون أن يخالجهما أدنى شك، ما الحياة وما الموت، ومع أنهما لم تكونا تستطيعان الجواب عن الأسئلة المطروحة على ليفين ولا حتى أن تفهماها. فإنهما لم تكونا تشكان في معنى هذه الظاهرة، وكانتا تشاركان في هذا الاقتناع ملايين البشر. كانتا تدلّلان على نفاذهما إلى معنى

(١) «أعلن للصغار ما أخفاه عن الحكماء والفهماء»: استشهاد غير دقيق، مأخوذ من: متى ١١ ــ ٢٥ (انظر أيضاً لوقا ١٠ ــ ٢١).

الموت: كانتا تعلمان، دون أن تتردّدا لحظة واحدةً، كيف تتصرفان مع المشرفين على الموت ولا تخافانهم، أما ليفين وأضرابُه فكانوا يجهلون جهلاً واضحاً لماذا يخافون الموت ــ وإن عنّوا أنفسهم بالتفكير فيه ــ ولا يدرون ما الذي ينبغي أن يفعلوه عندما يموت الناسُ. ولو كان ليفين، في هذه اللحظة، وحده مع أخيه نيقولا لتأمّل أخاه بذعر، ولا ننتظر بذعر أكبر، ولما استطاع أن يفعل شيئاً غير ذلك.

وأكثر من ذلك أنه لم يكن يدري ما يقوله، ولا أي موقف يتّخذه، ولا كيف يمشي. فالكلام على الأشياء التافهة بدا له مهيناً؛ والكلام على الموت، وعلى الأشياء المحزنة، غير وارد؛ أما الصمتُ فكان مستحيلاً أيضاً. «لو نظرتُ إليه لظنّ أنني ألاحظُه وأنني خائف؛ ولو لم أنظرْ إليه لظن أنني أفكّر في شيء آخر؛ ولو مشيت على رؤوس أصابعي ــ ولا أستطيع أن أمشي بدون احتراس ــ لاستاء» بيد أن كيتي لم تكن تفكّر ولم يكن يتسنى لها التفكير في نفسها؛ كانت تفكّر في مريضها لأنها كانت تعلم ما يجب فعلُه، وتؤدّيه على أكمل وجه. كانت تحدّثه عن نفسها، عن زواجها، وتبتسم، وترثي له، وتغمره بعنايتها، وتذكر له حالات شفي فيها المرضى، وكان كل شيء على ما يُرام؛ وإذن فقد كانت تعلم. ولم يكن نشاطها، شأنه شأن نشاط آغات ميخايلوفنا، نشاطاً غريزياً، حيوانياً، غير خاضع للعقل، إذ كانتا تطلبان للمحتضر، فضلاً عن العناية الجسدية وتخفيف الآلام، شيئاً أعظم أهمية من هذه العناية، شيئاً ليس بينه وبين حياة الجسد جامعٌ مشترك. كانت آغات ميخايلوفنا تقول وهي تتحدث عن شيخ مات منذ هنيهة: «الحمد لله، لقد اعترف وتممّ واجباته، ليُعطِ الله كل إنسان أن يموت هكذا!». وكذلك كيتا، فوراء اهتمامها بالغسيل والشراب والضماد، أفلحت، منذ اليوم الأول، في إقناع المريض بضرورة الاعتراف وتلقي المسحة الأخيرة.

وعندما عاد ليفين في المساء إلى شقته، ظلّ جالساً، خافض الرأس، دون أن

يعلم ماذا يفعل. كان غير قادر على العشاء، وعلى الاستقرار في الليل، وعلى التفكير فيما سيفعلانه، بل إنه كان غير قادر على محادثة امرأته: لقد كان يشعر بالندم. أما كيتي فكانت أشدّ نشاطاً من عادتها. وأمرت أن يُقدَّم العشاءُ إليهما، وحلّت أمتعتها، وأسهمت بترتيب السريرين ولم تنسّ أن ترشهما بمسحوق قاتل للحشرات. وكانت تظهر التحفّز، وسرعة الإِدراك التي تبدو عند الناس قبل المعركة، والنضال، في الخطر أو في الدقائق الحاسمة من وجودهم، هذه الدقائق التي يكشف فيها الإِنسان دفعةً واحدةً عن كل ما هو قادر عليه، أو يكشف عن أن ماضيه لم يضع بل إنه كان تحضيراً لمثل هذه اللحظة.

لم يأتِ منتصفُ الليل حتى كان قد رُتِّب كل شيء؛ نُظِّم متاعهما بكثير من الذوق الشخصي، وغدت شفتهما شبيهةً ببيتهما، وسُوِّي السريران، وصُفِّتْ الفراشيّ والأمشاط والمرآة على الطاولة، ونُشرتْ المناشف.

كان ليفين يجد أن الأكل والنوم بل والكلام أمرٌ لا يُغْتفَر، ويحسّ أن كل حركة من حركاته غير لائقة. أما هي فكانت ترتّب فراشيها دون أن يبدو عليها أنها ترى في ذلك ما يجرح.

بيد أنهما لم يستطيعا أن يأكلا شيئاً، ولم يناما إلا بعد زمن طويل؛ بل إنهما لم يستطيعا أن يعزما على النوم.

قالت وهي تجلسُ بقميص النوم أمام مرآة السفر وتمشط شعرها الناعم المعطّر بمشط دقيق:

ــ أنا مسرورةٌ لأنني جعلته يقبل التقرّب غداً. لم أرَ أحداً يُمنح الأسرار، لكن أمي قالت لي إن الصلوات تُتْلى من أجل شفاء المريض. قال لها ليفين وهو ينظر إلى مفرق ضيّق خلف رأسها الصغير المدوّر يختفي كلما حرّكت المشط إلى الأمام:

ــ أرجو ألا تظني أنه قد يشفى.

قالت وهي تختلس النظر إليه من مؤخر عينها، ومن خلال شعرها:

ـ سألتُ الطبيب، فقال لي إنه لن يعيش أكثر من ثلاثة أيام. لكن هل يمكنهم حقاً أن يعلموا. أنا مع ذلك جدّ سعيدة لأنني أقنعته.

وأضافت بتعبير خاص، ماكرٍ قليلاً، وهو تعبيرٌ تتخذه كلما تحدثت عن الدين:

ـ كل شيء ممكن.

بعد الحديث الذي دار بينهما عندما كانا خطيبين، لم يتطرّقا إلى هذا الموضوع قط، لكنها كانت تؤدّي واجباتها الدينية وهي مقتنعة اقتناعاً هادئاً بأنها تؤدي واجباً. كانت مقتنعة اقتناعاً راسخاً ـ وإن أكّد العكس ـ أنه مسيحيّ صالح مثلها أو أحسن منها وأن كل ما يقوله بهذا الصدد ما هو إلا مزحة من مزحاته. كما كان يقولُ لها وهو يحدّثُها عن تطريزها الانكليزي: إن الشرفاء يَرتْقون ثقوبهم، أما أنتِ فتلتذين بعمل الثقوب» إلخ. . .

قال ليفين:

ـ نعم، إن هذه المرأة، ماري نيكولاييفنا لا تحسن شيئاً من ذلك كله. و. . . يجب أن أعترف أنني مسرور جداً بمجيئك. إنك نقية إلى حد كبير حتى. . .

أخذ يدها، ودون أن يقبّلها «تقبيل يدها وهو في جوار الموت جديرٌ بأن يبدو غير لائق) شدّ عليها وهو ينظر إلى عينيها الملتمعتين بوجه منسحق:

قالت له:

ـ كان سيكون شيئاً بشعاً فوق الحدّ عليك لو كنتَ وحدك.

ورفعت ذراعيها لتخفي خدّيها اللذين علتهما حمرةُ الفرح، ولفتْ ضفائرها على قذالها وثبتتها بدبابيس.

واستأنفت:

ـ نعم، إنها لا تُحسن ذلك. . . وأنا، لحسن الحظ، تعلّمتُ الكثير في «سودن».

ـ أكان هناك مرضى مصابون بمثل هذه الإصابات الخطرة؟

ـ وأكثر من ذلك.

ـ المريعُ أنني لا أستطيع ألا أراه كما كان في صباه... لا يمكنك أن تصدّقي أيّ فتى ساحر كان... لكنني لم أكن أفهمه آنذاك.

قالت:

ـ بلى، أصدّق ذلك. كم كنا سنكون صديقين حميمين.

وارتعبتْ ممّا قالت، والتفتت إلى زوجها، وهمتْ الدموعُ من عينيها.

قال بحزن:

ـ نعم كنتما ستكونان صديقين حميمين. كان، بالتحديد، واحداً من أولئك الرجال الذين لم يخلقوا لهذا العالم.

قالت كيتي بعد أن ألقت نظرة خاطفة على ساعتها الصغيرة:

ـ ما يزال أمامنا الكثير من أيام التعب، يجب أن ننام.

[٢٠]

في اليوم التالي، تقرّب المريض وتلقّى المسحة الأخيرة، وأثناء الاحتفال، صلى نيقولا بحرارة. ففي عينيه الواسعتين، المحدّقتين في الأيقونة الموضوعة على طاولة لعب مغطاة بمنشفة ملوّنة، تراءى أملٌ قوي إلى الحد الذي روّع ليفين. كان يعلم أن هذه الصلوات وذلك الأمل ستجعل فراق الحياة التي أحبها كثيراً أشد إيلاماً. كان ليفين يعرف أخاه ويعرف سيرَ أفكاره؛ كان يعلم أن كفره لم يأت قط من أن العيش بلا إيمان أدعى للراحة، بل لأن التفسيرات العلمية المعاصرة لظاهرات العالم قد طردت إيمانه شيئاً فشيئاً، ولذلك كان يعلم أن عودة أخيه الحاضرة للإيمان لم تكن النهاية الطبيعية لتفكيره، لكنها تنازل مؤقت، نفعي، على أمل الشفاء الذي لا يُعقل. وكان ليفين يعلم أيضاً أن كيتي قد رسّختْ هذا الأمل

بما روته من قصص الشفاء العجائبية. كان يعلم ذلك كله. وكان يقضّ مضجعه أن يرى تلك النظرة الضارعة، المفعمة بالرجاء، وتلك اليدّ المهزولة التي كانت ترتفع بمشقة لترسم إشارة الصليب على هذه الجبهة العظيمة، وهاتين الكتفين الناتئتين. وذلك الصدر الأجوف والصافر الذي لم يعد في طاقته أن يحتوي الحياة التي يَنْشدها المريضُ. وأثناء الاحتفال، ردّد ليفين، باعتباره كافراً، ما ردّده ألف مرة من قبل، مخاطباً الله: «إن كنت موجوداً فاعملْ على شفاء هذا الرجل، وسوف تخلّصنا نحن الاثنين».

بعد المَسْحة، أحسّ المريض فجأة بالتحسّن الكبير. فلم يسعلْ مرةً واحدةً أثناء الساعة التي تلتْ: كان يبتسم، ويلثم يد كيتي وهو يشكرها دامع العينين، ويقول إنه في حالة حسنة، وإنه لا يتألم في أية منطقة من جسده ويحس أن قواه وشهيّته عادت إليه. بل إنه نهض وحده عندما جيء بالعشاء وطلب قطعاً من اللحم. ومع أن ليفين كان يائساً أشد اليأس، ومع أنه كان مقتنعاً من منظر المريض وحده بأنه لن يشفى، فقد قضى، هو وكيتي، هذه الساعة وهما في حالة من الاهتياج السعيد الممزوج بالخوف من أن يكونا مخطئين.

كانا يقولان بصوت خفيض وهما يتبادلان الابتسام:

ـ حالته أحسن؟ ـ نعم أحسن بكثير ـ هذا غريب ـ ليس في ذلك ما هو غريب ـ هذا أمر واقع، إن حالته أحسن.

لم يدمْ هذا الوهمُ إلا قليلاً. فقد نام المريضُ بهدوء، لكن السعالَ أيْقظه بعد نصف ساعة. وفجأة اختفى كلُّ أملٍ فيه وفيمن حوله. لقد ألغتْ حقيقةُ الألم كلَّ أملٍ.

طلبَ أن يتنشّق «اليود»، دون أن يلمِّحَ إلى ما اعتقده قبل نصف ساعة، وكأنه كان خجلاً من تذكّره. ومدّ إليه ليفين قمقماً مغطّى بورقة مثقوبة بثقوب. فألقى عليه أخوه نظرةَ الأمل القوية التي ألقاها وهو يتلقّى المسحةَ الأخيرة، وكأنه كان ينتظر تأييداً لأقوال الطبيب الذي أكّد أن تنشق اليود يصنع المعجزات.

قال بصوت مبحوح وهو يُجيل نظراته حوله بينما كان ليفين يُعيد عليه كلمات الطبيب على مضض:

ــ كيتي ليست هنا؟ لا، إذنْ أستطيع أن أتكلم... من أجلها تظاهرتُ بالإيمان. إنها لطيفة جداً، أما أنت وأنا فلا يمكن أن ننخدع.

وقال وهو يضغط على القمقم بيده المعروقة ويتنشق بنَهم: ؛

ــ هذا هو ما أؤمن به.

في نحو الثامنة، كان ليفين يتناول الشاي في غرفته مع زوجته، عندما اقتحمت ماري نيكولاييفنا الغرفة وهي تلهث، وتمتمتْ:

ــ إنه يموت. أخشى أن يقضي في مدى لحظة.

ركضا كلاهما إليه. كان جالساً في سريره، متّكئاً على مرفقه، مقوّسَ الظهر، حاني الرأس.

ــ قال له ليفين بصوت خفيض، بعد صمت قصير:

ــ بماذا تحسّ؟

قال نيقولا بمشقة، لكن بوضوح غريب، منتزعاً الكلمات من صدره ببطء:

ــ أحسّ أنني أموت.

ولم يرفع رأسه واكتفى بأن وجّه نظرته إلى الأعلى، دون أن يبلغ وجهَ أخيه. وقال أيضاً:

ــ كاتيا انصرفي!

نهض ليفين فجأة وهمس إلى زوجته بلهجة آمرة أن تخرج.

وكرّر:

ــ إنني أموت.

سأله ليفين ليقول شيئاً:

ـ لمَ تعتقد ذاك؟

فكرّر وكأنه أحبَّ هذه العبارة:

ـ لأنني أموت. هذه هي النهاية.

اقتربت ماري نيكولايفنا منه، وقالت له:

ـ سترتاح أكثر لو اضطجعتَ.

قال بصوت رفيق:

ـ سأضطجع عمّا قريب.

وأضاف بسخرية، بغضب:

ـ سأضطجع ميتاً. لكنْ أضجعوني، إذا شئتم.

مدّد ليفين أخاه على ظهره، وجلس قربه، وتأمّل وجهه وهو يَحْبس نَفَسَه. لقد أغمض المحتضر عينيه، لكن عضلات جبينه كانت تتحرّك من وقت إلى آخر، كما تتحرك لدى الإنسان الذي اشتغل ذهنه بالتفكير العميق. وكان ليفين يفكّر هو أيضاً، بالرغم منه، فيما يتمّ، في هذه اللحظة، في المريض، لكنه كان يرى، برغم الجهد الذي بذله لمرافقته، ومن تعبير وجهه الهادىء والصارم ومن حركة العضلات فوق حاجبيه، أن المحتضر قد انكشف له بوضوح يتزايد شيئاً فشيئاً ما ظلّ غامضاً بالنسبة إلى ليفين.

قال المحتضر ببطء، وبوقفات:

ـ نعم، نعم، الأمر «كذلك». انتظروا.

وصمت مرّةً أخرى، ثم قال فجأة بلهجة مطمئنة وكأن كلَّ شيء قد حُلَّ بالنسبة إليه:

ـ وهو كذلك.

وهتفَ:

وتنهّد تنهداً عميقاً.

جسّتْ ماري نيكولايفنا قدميه، وهمست:

ــ إنهما تبردان.

ظلّ المريض مستلقياً، ساكناً، خلال برهة من الزمن بدت لليفين أنها لا نهاية لها. لكنه كان ما يزال حياً يتنفّس في فترات متباعدة. وكان ليفين متعباً من توتّر ذهنه. وكان يحس أنه لا يمكن أن يفهم ما «كذلك» بالرغم من هذا التوتّر. كان يحس أن المحتضر خلّفه وراءَه، منذ زمن بعيد. لم يعد بوسعه أن يفكّر في مشكلة الموت، لكنه كان يتساءل لا إرادياً عما ينبغي أن يفعله بعد لحظة: أيغلق عيني أخيه، أيُلبسه ثيابه، أيطلب تابوتاً. والغريب أنه كان يحس بفتور تام، إذ لم يكن يشعر لا بالحزن على الخسارة التي ستحلّ به، ولا بالشفقة على أخيه. وإذا كان يشعر بشعور، في هذه اللحظة، فهو بالأحرى الحسدُ على هذا اليقين الذي بلغه المحتضر والذي لا يمكنه أن يطمح إليه.

ظل جالساً بقربه، زمناً طويلاً، ينتظر النهاية من لحظةٍ إلى أخرى. ولم تأتِ النهايةُ، وفُتح البابُ وظهرت كيتي. فنهض ليفين ليمنعها من الدخول. وبينما كان ينهض، سمع المحتضر وقد بدرتْ منه حركة.

قال نيقولا وهو يمدّ يده:

ــ لا تنصرفْ.

وأمسك ليفين بهذه اليد، وأشار إلى امرأته كي تخرج، بحركة تدلّ على الاستياء.

ظل هكذا نصفَ ساعة، وساعة، ثم ساعة، ويدُ المحتضر في يده. في اللحظة الأخيرة، لم يعد يفكّر في الموت. كان يتساءل ماذا تفعل كيتي، وإذا كان الطبيب يملك بيتاً خاصاً. ولقد ألمَّ به الجوع والنعاس. فخلّص يده من يد أخيه برفق وجسّ قدميه. كانت القدمان باردتين لكن المريض ما زال يتنفس. أراد ليفين أن يخرج على أطراف قدميه، لكن المريض عاد إلى الحركة وكرّر:

ـ لا تنصرفْ.

* * *

أشرق النهار؛ ظل المريضُ على حاله. سحب ليفين يده برفق دون أن ينظر إلى المحتضر، ومضى إلى غرفته ونام. وعندما استيقظ بُلِّغ أن المريض عاد إلى حالته السابقة، بدلاً من أن يُبلَّغ موتُه الذي كان يتوقّعه، وأنه عاد إلى الجلوس والسعال والأكل والكلام، وأنه كفّ، من جديد، عن الكلام على الموت، وعبّر، من جديد، عن أمله في الشفاء. كان أكثر تقلّباً وعبوساً من ذي قبل. ولم يستطع أحدٌ، لا كيتي ولا أخوه، أن يهدّئه. كان يغضب على الجميع، ويرمي مَنْ حوله بشتّى الحماقات، ويلومهم على آلامه، ويطلب منهم أن يأتوه بقطْب من أقطاب الطب في موسكو. وكان كلما سُئل عن حالته أجاب جواباً واحداً لا يتغيّر، بلهجة الملامة والحقد:

ـ إنني أتألم على نحوٍ لا يُطاق.

كان المريض يتألم أكثر فأكثر، ولا سيّما من جراحِهِ التي لم يمكن أن تندمل، ويغضب أكثر فأكثر على الذين يحيطون به، لائماً إياهم على كل شيء، وبخاصة لأنهم لم يأتوه بالطبيب من موسكو. وكانت كيتي تبذل وسعها بكل الوسائل لمساعدته، وتهدئته، لكن كلّ شيء كان بلا جدوى، وكان ليفين يرى أنها مُنْهكة جسدياً ونفسياً إن لم تعترفْ بذلك. وقد تبدّد الشعورُ بالموت الذي أيقظه في كل منهم وداعُه للحياة في الليلة التي دعا فيها أخاه. وكانوا جميعاً يعلمون أنه سيموت عما قريب، وأنه صار نصفَ ميت. كانت تخالج الجميع رغبةٌ واحدة: هي أن يموت بأسرع ما يمكن. كانوا يُخفون هذا الشعور ويصبّون له الشراب، ويبحثون عن أشربة أخرى، ويدعون الطبيب، ويخدعونه ويخدعون أنفسهم، ويغشّ بعضهم بعضاً. لم يكن ذلك كله سوى كذب، كذب مُدنِّس، دنيء ومهين. وكان ليفين، بسبب طبعه وبسبب حبّه لأخيه، يتألم ألماً شديداً من هذا الكذب.

كان ليفين يحرص منذ زمن بعيد أن يُصلح بين أخويْه، ولو كان ذلك قبل الموت. وقد كتب إلى سيرج إيفانوفتش وقرأ جوابه للمريض الذي يقول فيه: إنه لا يستطيع المجيء لكنه يطلب الصفحَ من أخيه بعبارات مؤثّرة.

ولم يقل المريضُ شيئاً.

سأله ليفين:

ــ ماذا ينبغي أن أكتب إليه. أرجو ألا تحقد عليه؟

أجاب نيقولا بتبرّم:

ــ لا، أبداً. أكتب إليه لكي يرسل إليّ الطبيبَ.

مرّت ثلاثةُ أيام قاسية على هذا النحو؛ كان المريضُ في الحالة نفسها. وكان جميع الذين يَدْنون منه يتمنّون موته الآن:

خدمُ الفندق ومديره وجميع النزلاء والطبيب وماري نيكولاييفنا وليفين وكيتي. المريضُ وحده لم يكنْ يعبّر عن هذا الشعور؛ على العكس، كان يغضب لأنهم لم يأتوا بالطبيب، وظل يتناول أدويته ويتحدّثُ عن الحياة. في الدقائق النادرة وحدها التي كان الأفيون ينسيه فيها أوجاعه المستمرة، إنما كان يقول ما يعانيه معاناة أشدّ من غيرها: «آه! ليت النهاية تأتي»! أو «متى سينتهي ذلك»؟ .

كان الألم الآخذ بالاشتداد يفعل فعله ويهيّئه للموت. لم يبق وضعٌ لم يتألم فيه، ولا دقيقة نسي نفسه فيها، ولا موضع من جسمه، ولا عضو من أعضائه لم يألمه. وكانت ذكرياتُه وانطباعاته وأفكاره توقظ فيه الاشمئزاز الذي يوقظه جسدُه ذاته. وكان مرأى الناس وأحاديثهم عذاباً بالنسبة إليه. وقد أدرك الذين حوله ذلك وامتنعوا باللاشعور عن أية حركة عفوية، أو أي حديث، أو أي تعبير عن رغباتهم في حضوره. لقد انصهرت حياتُه كلها في الشعور بالألم، والرغبة في التخلّص من ذلك الألم.

كان يتمّ فيه بجلاءٍ التغيّرُ الذي سيرغمه على اعتبار الموت تحقيقاً لرغباته،

على اعتباره السعادة. كانت كل رغبة من رغباته الخاصة التي يوقظها الألم أو الحرمان، كالجوع والتعب والعطش، تشبعها وظيفة من وظائف الجسم وتوفّر له المسرة. كان هذا من قبل، أما الآن فإن الحرمان والألم لا يجدان ما يشبعهما، وكل محاولة للحصول على ذلك تولّد ألماً جديداً. ولذلك انصهرت جميعُ رغباته في رغبة واحدة: وهي أن يتخلص من جميع الآلام ومن مصدر هذه الآلام: أي من جسده. لم يكن لديه من الكلمات ما يُعبّر به عن رغبة التحرر هذه، لذلك لم يكن يتحدّث عنها، لكنها كان يطلب، بفعل العادة، أن تُشبع تلك الرغبات التي لا سبيل إلى تحقيقها. كان يقول: «أضجعوني على الجهة الأخرى»، وسرعان ما يطلب بعد ذلك أن يعيدوه إلى وضعه السابق. «أعطوني حساءً». «خذوا هذا الحساء». «ارووا لي شيئاً؛ لم لا تقولون شيئاً»؟ . ولكن ما إن يبدأ أحدهم الكلام حتى يغمض عينيه ويعبّر وجهُه عن الإعياء واللامبالاة والاشمئزاز.

أصاب المرضُ كيتي. في اليوم العاشر بعد وصولها. وشكت من أوجاع الرأس ومن الغثيان، واضطرت إلى أن تلزم فراشها الصبيحة كلها.

قال الطبيب أن ذلك من جراء التعب والانفعال، وأوصاها بالهدوء.

بيد أنها نهضتْ، بعد العشاء، وذهبت كعادتها إلى المريض ومعها شغلها. نظر إليها بصرامة عندما دخلتْ، وابتسم ابتسامة الازدراء عندما قالت له إنها كانت متوجّعة. ولم يكفّ طوال هذا النهار عن الامتخاط والأنين الشاكي.

سإلتْه:

ــ كيف تُحسّ بحالك؟

فنطق بمشقة:

ــ أسوأ، إني أتألم.

ــ أين؟

ــ في كل موضع من جسدي.

قالت ماري نيكولاييفنا:

ـ سينتهي ذلك اليومَ، سترون.

لكن، مع أنها تكلّمت بصوتٍ خفيض فقد كان بمقدور المريض الذي كان مرهف السمع كما لاحظ ليفين، أن يسمعها وقد سمعها المريض، لكن هذه الكلمات لم تترك فيه أثراً. ظلّتْ نظرتُه ثابتة ملأى باللوم.

سأل ليفين ماري التي خرجتْ في إثره إلى الممرّ:

ـ لمَ تعتقدين ذلك؟

قالت:

ـ لأنه أخذ يتعرّى.

ـ كيف؟

قالت وهي تسحب ثنايا ثوبها الصوفي:

ـ هكذا.

وبالفعل، لاحظ ليفين أن المريض كان يشدّ أغطيته، طوال هذا اليوم، كأنه يريد أن يتخلّص منها.

صدقتْ نبوءة ماري نيكولاييفنا. فنحو الليل لم يعد المريض يقوى على رفع ذراعيه: كان يشخص أمامه بنفس التعبير المشدود والمركّز. وكان يحافظ على الوضع ذاته حتى عندما ينحني أخوه أو كيتي فوقه بحيث يراهما. وأرسلت كيتي تدعو كاهناً لقراءة صلاة المحتضرين.

وبينما كان الكاهن يتلو الصلوات، لم تكن تبدو عليه دلائل الحياة. وكان ليفين وكيتي وماري نيكولاييفنا واقفين قرب سريره. لم تنته الصلاة حتى تصلّب المريض وتنهّد وفتح عينيه. وعندما انتهى الكاهن من صلاته، وضع الصليب على جبينه البارد، وغطاه بصدرته الكهنوتية، ببطء، وبعد أن انتظر بضع دقائق دون أن يفوه بكلمة، لمس اليد الضخمة الباردة والفاقدة الدم.

قال الكاهن:

ـ انتهى الأمر.

وأراد أن يبتعد، لكن شاربي المريض الملتصقين تحركاً فجأة وسُمعتْ في الصمت أصواتٌ واضحة صاعدةٌ من أعماق صدره:

ـ لم ينته تماماً. . . عمّا قريب.

وبعد دقيقة، استنار وجهُه، وظهرت الابتسامةُ تحت شفتيه وبادرت النسوة إلى البدء بزينته الأخيرة.

إن مرأى أخيه ومجاورة الموت أيقظ في ليفين شعوراً بالهلع أمام سرّ الموت المحتّم، وهو شعور تملّكه في ذلك المساء الخريفي الذي وصل فيه أخوه إلى منزله. لقد كان هذا الشعور الآن أقوى من ذي قبل؛ كان يحسُّ أنه أعجز عن فهم معنى الموت، وبدا له دنوّه المحتم أشد هولاً، لكن هذا الشعور لم يعد يوحي إليه باليأس، وذلك بفضل امرأته؛ كان يشعر بضرورة الحياة والحب، رغم الموت. كان يحسّ أن الحب قد خلّصه من اليأس، وأن هذا الحب، المهدَّد دائماً، يغدو بسبب ذلك أقوى وأنقى.

لم يكد سر الموت الذي لا يُدرك كنهه، يتم أمام عينيه حتى برز سرٌّ آخر لا يدرك كنهُه أيضاً، لكنه سرٌّ من الحياة والحب.

أيّد الطبيب افتراضاته بصدد كيتي: لقد كانت حاملاً.

[٢١]

منذ اللحظة التي استنتج فيها الكسي الكسندروفتش من أحاديثه مع بيتسي وستيڤان اركادييڤتش أن ما يُطلب منه فقط هو أنْ يدعَ امرأته وشأنها، دون أن يضايقها بحضوره، وأن امرأته نفسها ترغب في ذلك، أحسّ بأنه في حيرة شديدة من أمره حتى إنه لم يستطع أن يتخذ أي قرار، ولم يدر هو نفسه ما الذي كان يبغيه

الآن، فأسلم أمره بفرح لأيدي الذين كانوا يتدخّلون في شؤونه ووافق على كل شيء. وإنما أدرك وضعه بوضوح ورُوِّع منه عندما تركت آنا البيت وسألتْه الانكليزية إن كان سيتعشى معها أو وحده.

كان أشقّ شيء هو أنه لم يستطعْ أن يوفِّق بين الماضي والحاضر. لا لأن الماضي، الفترة التي عاش فيها سعيداً مع زوجته، أخذ يُقلقه. فهذا الماضي قد أنساه إياه اكتشافُ خيانة زوجته، بعد أن كابد آلاماً مبرّحة. هذه الحالة كانت مؤلمة لكنه كان يدركها. ولو أن زوجته هجرته معترفةً له بخيانتها لشعر بأنه مُهان، تعسٌ، لكنه ما كان ليقع في هذا الوضع الذي لا يُفهَمُ والذي لا مخرج منه في الظاهر. لم يكن بوسعه أن يوفّق الآن بين الماضي القريب ـ حنانه وحبه إزاء زوجته المريضة والطفلة التي ليست منه ـ والحاضر، وبعبارة أخرى، بين الماضي القريب وكونه قد وجد نفسه ـ في مقابل ذلك الحب والحنان ـ وحيداً، متسربلاً بالعار، مضحكاً، عديم الفائدة، مُحتَقراً من الجميع.

في اليومين اللذين تبعا سفر امرأته، استقبل الكسي الكسندروفتش المراجعين، وذهب إلى اللجنة، وتعشّى في قاعة الطعام، كعادته. ولقد حَفزَ كل قوى نفسه، في هذين اليومين، من أجل هدف واحد: وهو أن يبدو هادئاً بل وغيرَ مبال، دون أن يفهم لماذا يفعل ذلك. وحين كان يُعطي أوامره بصدد أمتعة آنا أركاديفنا وشقتها فإنه كان يبذل جهوداً جبّارة لكي يظهر بمظهر الرجل الذي يعتبر الحدث الذي حدث أمراً متوقعاً وليس فيه ما يخرج عن مستوى الأحداث العادية. وبلغ هدفَه: فلم يشك أحدٌ في يأسه. لكن في اليوم التالي لسفر آنا، عندما حمل إليه «كورني» قائمة من صانعة القبّعات نسيت آنا أن تدفعها، وأخبره أن الوكيل هنا، طلب الكسي الكسندروفتش إدخاله.

ـ اعذرني، يا صاحب السيادة، إذا تجاسرتُ على إزعاجك. وإذا كان ينبغي أن نرسل القائمة إلى السيدة، فلتتفضّلْ سيادتك بإعطائي عنوانها.

بدا الكسي الكسندروفتش كمنْ يفكّر، وفجأة استدار وجلس إلى مكتبه، وظل طويلاً في هذا الوضع، ورأسه بين يديه؛ حاول أن يتكلم عدة مرات، لكنه توقّف.

فهم «كوني» شعور سيّده ورجا الوكيل أن يعود ثانيةً. وعندما بقي الكسي الكسندروفتش وحده، أحسّ بأنه لم يعد يقوى على تحمّل دوره. فأمر بحل عربته التي كانت تنتظره، ومنع الدخول عليه، ولم يظهر للعشاء.

أحسّ أنه لا يستطيع بعد الآن تحمل هجمة الاحتقار والقسوة التي كان يراها على وجه الوكيل، وكورني، وجميع الذين لقيهم في هذين اليومين، بدون استثناء. أحسّ أنه لا يستطيع أن يرد عن نفسه كره الناس، لأن هذا الكره يستهدفه لا لأنه سيٌّ (بإمكانه حينئذٍ أن يسعى ليكون أفضل) بل لأنه كان تعساً على نحو مُنكر. وعلم أنهم سيكونون بلا رحمة وذلك بالضبط لأن قلبه كان ممزّقاً، وأن الناس سيقطّعونه إرباً إرباً، مثلما تحنق الكلابُ كلباً مغطّى بجراحه يجوح من الألم، وأن الوسيلة الوحيدة للإفلات منهم هو أن يُخفي عنهم جراحه، وهو ما حاول أن يفعله غريزياً في اليومين الأولين، أما الآن فلم يعد بمقدوره متابعة هذا الصراع غير المتكافىء.

وازداد يأسُه من جراء شعوره بأنه وحده مع حزنه. فلم يكن في بطرسبرج، ولا في أي مكان آخر مَنْ يشكو له همّه ومَنْ تخالجه الشفقة عليه، لا من حيث هو موظف كبير أو عضو في المجتمع، بل من حيث هو رجل يتألم لا غير.

عاش الكسي الكسندروفتش يتيماً منذ شبابه مع أخ له. لم يكن يتذكّر أباه، وماتت أمُّه وهو ابن عشر سنوات. ولم يخلّف أبواه إلا ثروة قليلة. وقد عُني بتربيته عمّه كارينين، وهو موظف مرموق، وكان من قبل ذا حظوة لدى الامبراطور المتوفّى.

بعد أن أنهى الكسي الكسندروفتش دراسته في المعهد والجامعة بتفوّق، في رعاية عمه، بدأ عمله الإداري بنجاح، وَوَقفَ نفسه عليه دون غيره. ولم يَصْطف صديقاً له لا في المعهد، ولا في الجامعة، ولا فيما بعد. كان أخوه أقرب الناس

إليه، لكنه كان يعمل في وزارة الخارجية، وكان يعيش معظم وقته في الخارج حيث مات بعد زواج الكسي الكسندروفتش بقليل.

بينما كان حاكم مقاطعة، سهّلت عمّةٌ لآنا وهي سيدة واسعة الثراء، اللقاءات بين صاحب هذه الرتبة العالية الصغير السن بالنسبة إلى منصبه وابنة أخيها، وألجأته إلى موقع لم يبق عليه فيه إلا أن يطلبها للزواج أو أن يهجر المدينة. وتردد الكسي الكسندروفتش طويلاً. كانت حججه المحبّذة للزواج تساوي حججه المناهضة للزواج، ولم يجد في نفسه ما يكفي من العزم للخروج على مبدئه: «توقّفْ عند الشبهة». لكن عمّة آنا أفهمتْه من خلال شخصٍ توسّطَ أنه لوّث سمعة الفتاة وأن واجبه كرجل شريف يقضي عليه بطلب الفتاة للزواج. فوافق على ذلك، وحوّل إلى الخطيبة ثم إلى الزوجة كل كمية الحب التي كان قادراً عليها.

إن التعلّق الذي خصّ به آنا نفى من نفسه الحاجات الأخيرة لعلاقات المودّة بينه وبين أقرانه. وليس له الآن بين جميع الناس الذين يخالطهم من صديقٍ حميم. كان له عدد من المعارف ولم يكن له أصدقاء. كان الكسي الكسندروفتش يعرف كثيراً من الناس يمكنه أن يدعوهم إلى العشاء، وأن يستمزجهم من أجل قضية أو طالب حاجةٍ، وأن ينتقد بحرية عمل شخصيات أخرى أو الحكومة، لكن هذه العلاقات مع هؤلاء الناس كانت محصورة في مجال ضيّق محدود بالعادة، يصعب الخروج منه.

كان له رفيقٌ في الجامعة ارتبط به فيما بعد، وكان جديراً أن يبوح له بهمومه، لكن هذا الرفيق كان مشرفاً على دائرة مدرسيّة[1] بعيدة. أما خلصاؤه في بطرسبرج فكانوا رئيسَ مكتبه وطبيبه وحدهما.

---

(١) «كان مشرفاً على دائرة مدرسية»: كانت امبراطورية روسيا مقسمة إلى حوالي اثنتي عشرة «دائرة مدرسية» (كما هو الشأن أيضاً في «الدوائر العسكرية»). وعلى رأس كل دائرة مشرف هو المفتش الأعلى للجامعة ولجميع المؤسسات المدرسية في هذه المنطقة. =

كان ميشيل فاسيليفتش، رئيس مكتبه، رجلاً رصيناً، بسيطاً، ذكياً، طيباً، وكان الكسي الكسندروفتش يحسّ أنه يكنّ له المودة؛ لكن خمس سنوات من النشاط الإداري أقامتْ بينهما حاجزاً يحول دون البوح الذاتي الصميم.

عندما انتهى الكسي الكسندروفتش من توقيع بريده، لزم الصمتَ طويلاً، وهو ينظر بين وقت وآخر إلى ميشيل فاسيليفتش وحاول عدة مرات أن يكلّمه، فلم يفلحْ. لقد هيّأ جملةً: «هل سمعتَ بمصيبتي؟». لكنه قال، كعادته، في النهاية: «وهكذا فسوف تهيء لي هذا العمل». وصَرفَه.

الشخص الآخر كان طبيبه الذي كان يضمر له الإخلاص أيضاً. لكن اتفاقاً ضمنياً مضمراً قام بينهما وهو أنهما كليهما مرهقان بالعمل ولا بد لهما من العجلة.

أما صديقاته، وعلى رأسهن ليديا ايفانوفنا، فلم يكن الكسي الكسندروفتش يفكّر فيهن. جميع هؤلاء النساء كنّ ينفّرنه ويُخفنه من حيث هنّ نساء.

[٢٢]

نسي الكسي الكسندروفتش الكونتيسة ليديا ايفانوفنا لكنها لم تَنْسَه. ففي هذه اللحظة بالذات، لحظة يأسه المتوحد، جاءت لتراه ودخلت مكتبه دون أن تُعلن عن نفسها فوجدتْه جالساً إلى مكتبه، ورأسُه بين يديه.

قالت وهي تدخل بخطوات سريعة وتلهث من المشي والانفعال:

ـ خرقتُ الأوامر.

وأضافتْ وهي تشدّ على يده في يديها، وتحطّ عليه عينيها الجميلتين، المتأملتين:

ـ أعرفُ كل شيء، يا صديقي، الكسي الكسندروفتش.

نهض الكسي الكسندروفتش وهو يقطّب بين حاجبيه، وخلّص يده وقدّم لها كرسيّاً.

قال لها وقد أخذت شفتاه ترتجفان:

ـ تفضلي بالجلوس، كونتيسة. إني لا أستقبل لأنني متوعك.

فكرّرت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا دون أن ترفع عينيها عنه:

ـ يا صديقي!

وفجأة ارتفع حاجباها راسمين مثلّثاً على جبينها؛ فزاد وجهُها الأصفر دمامةً. لكن الكسي الكسندروفتش أحسّ أنها ترثي لحاله وأنها توشك أن تبكي، فانتقل إليه التحنّن وأخذ يدها الربلة وقبّلها.

قالت بصوتٍ قطّعه الانفعال:

ـ يا صديقي! لا ينبغي لك أن تستسلم للحزن. مصيبتك كبيرة، لكنْ يجب أن تجد العزاء.

قال الكسي الكسندروفتش وقد أرخى يده وظل يحدّق فيها بعينيه الممتلئتين بالدمع:

ـ إنني مدمر، محطّم، لم أعد إنساناً! المرعبُ في وضعي هو أنني لا أجدُ مستنداً في أي مكان، حتى ولا في نفسي.

قالت وهي تتنهد:

ـ ستجدُ هذا المستند؛ لا تفتّشْ عنه فيّ، مع أني أرجوك أن تؤمن بصداقتي.

وأضافت وهي تنظر تلك النظرة الحماسية التي يعرفها كارينين جيداً:

ـ مستندُنا هو الحب، الحب الذي خلّفه لنا. وحملُه خفيفٌ. فهو يسندك ويُسعفك.

ومع أن هذه الكلمات أظهرت تحنّنها أمام عواطفه الرفيعة، وكشفت عن الاتجاه الجديد. . . الصوفي، الذي انتشر حديثاً في بطرسبرج والذي كان يستنكره الكسي الكسندروفتش، فقد سرّه سماع هذه الأحاديث في هذه اللحظة.

ـ أنا ضعيف، ومحطّم. لم أتوقع شيئاً من قبل ولست أفهم شيئاً.

فردّت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا:

ـ يا صديقي!

واستأنف الكسي الكسندروفتش:

ـ لستُ أبكي الخسارةَ التي لحقتني. لكنْ لا يسعني إلا الشعور بالعار من الوضع الذي أنا فيه. هذا سيء. لكني لا أستطيع غير ذلك. لا أستطيع... قالت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا وهي ترفع عينيها إلى السماء كالمخطوفة:

ـ لستَ أنتَ الذي بدرتْ منه بادرةُ الصفح الرفيع الذي أعجب به الجميع مثلي، بل الذي يسكن في قلبك، ولذلك يجب ألا يخامرك الخجل.

قطّب الكسي الكسندروفتش بين حاجبيه، وطوى أصابعه وأخذ يفرقعها عند المفاصل.

وقال بصوت نحيف:

ـ يجب أن تعرفي جميع التفاصيل. إن لقوى الإنسان حدوداً، يا كونتيسة، وقد بلغتُ حدودَ قواي. كان لا بدّ لي، طوال النهار من اتخاذ الترتيبات الناجمة (وشدّد على كلمة «الناجمة») عن وضعي الجديد، الخدم والمربيّة والحسابات... فهذه الأشياء الحقيرة أنهكتني، ولم يبق لي من طاقة على احتمالها. لقد أوشكتُ أن أترك المائدة البارحة، أثناء العشاء. لم أستطع أن أتحمّل نظرةَ ابني. لم يكن يسألني عن دلالة ذلك كله، لكنه يودّ أن يسألني، ولم أستطعْ أن أتحمل نظرته. ما كان يجرؤ على النظر إليّ، وليس هذا أسوأ ما في الأمر...» لقد أراد الكسي الكسندروفتش أن يتحدث عن القائمة التي حُملت إليه، لكن صوته أخذ يرتجف وتوقف. لم يكن بوسعه أن يفكّر في هذه القائمة من الورق الأزرق التي سُجل عليها ثمّن قبعة وأشرطة إلا أخذته الشفقةُ على نفسه.

قالت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا:

ـ فهمتُ، يا صديقي. فهمتُ كل شيء. لن تجد العون والعزاء فيّ، بيد أني جئتُ لأعينك، إن استطعتُ. ليتني أستطيع أن أخلّصك من هذه الهموم الحقيرة. . . أرى أنك بحاجةٍ هنا إلى يد امرأة. أتثقُ بي؟

شدّ الكسي الكسندروفتش على يدها دون أن يفوه بكلمة وقد بدا عليه مظهرُ الامتنان.

ـ سنعْتني أنا وأنت بسيرج. وأنا لا أفهم شيئاً في الأمور العملية لكني سأحاول، وسأكون قيّمتك. لا تشكرّني. إني لا أفعل ذلك من نفسي.

ـ لا يسعني إلا أن أشكرك.

ـ لكن، لا تُسلمْ نفسك، يا صديقي، إلى هذا الشعور الذي حدثتني عنه: إلى الخجل مما هو أسمى ما في المسيحي! «من انخفض فسوف يُرَفع[1]». ولذلك فلا تشكرني أنا، وأشكرْهُ «هو»، وأطلب عونه. فيه وحده نجد السلام والعزاء والخلاص والحب.

قالت ذلك ورفعت عينيها إلى السماء، وأخذتْ تصلّي. وقد أدرك ذلك الكسي الكسندروفتش من صمتها.

كان الكسي الكسندروفتش يصغي إليها الآن، وبدت له هذه العبارات بسيطة ومعزّية، وكانت تبدو له من قبل لغواً، إن لم تبدُ مُكدّرةً. لم يكن الكسي الكسندروفتش يحب هذه الروح الجديدة من الحماسة. كان مؤمناً وكان يهتم بالدين ولا سيّما من الناحية السياسية؛ وكان يكره مبدئياً التعاليم الجديدة التي تسمح لنفسها بتأويلات جديدة وتفتح الباب للنقاش والتحليل. ولقد أبدى من قبل برودةً وعداءً لهذه التعاليم الجديدة وللكونتيسة ليديا ايفانوفنا التي ولعت بها؛ ولم يكن يناقش قط لكنه كان يقابل ضيوفه بصَمْت حذر. ولأول مرة، أخذ يصغي اليوم لكلماتها بسرور، ولا يجد رداً عليها في قرارة نفسه.

---

(١) «من انخفض فسوف يرفع»: استشهاد غير دقيق بكلمات يسوع التي ذكرها متى. ٢٠ ــ ٢٧.

قال لها بعد أن انتهت من صلاتها:

ــ أنا ممتن جداً، جداً، لمسعاك ولكلماتك.

شدّت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا على يديْ صديقها مرة أخرى، وقالت وهي تبتسم بعد صمت، وتمسح عن وجهها آثار الدموع:

ــ الآن، سأعكف على العمل. وسأذهب لألقي سيرج. ولن أرجع إليك إلا في الحالات القصوى.

ثم نهضت وخرجت.

مضتْ الكونتيسة ليديا ايفانوفنا إلى شقة سيرج، وهناك قالت للصبي المرتعب وهي تبلل خدّيه بالدموع إن أباه قدّيس وأن أمه ميتة.

وفتْ الكونتيسة ليديا ايفانوفنا بوعدها. فقد تكفّلتْ فعلاً بإدارة منزل الكسي الكسندروفتش. لكنها لم تكن تبالغ عندما قالت إنها لا تفهم شيئاً في الحياة العملية. كان لا بد لها من تغيير أوامرها التي يتعذّر تنفيذها، فأخذ «كورني» خادمُ الكسي الكسندروفتش ذلك على عاتقه. وانتقلت إدارة المنزل إلى يديه، على نحو غير ملحوظ:

وكان يقدم لسيّده وهو يلبسه ثيابه تقريراً متحفظاً. لكن مساعدة ليديا ايفانوفنا كانت بالرغم من كل شيء فعّالةً إلى أقصى حدّ: فعطفها وتقديرها كانا سنداً لألكسي الكسندروفتش، ولا سيما أنها توصلت ــ وهذا أعظم عزاء لها ــ إلى هَدْيه؛ فحوّلته على الأقل من مؤمن فاتر الإيمان، غير مبال، إلى نصير ورع من أنصار التأويل الجديد للتعليم المسيحي الذي انتشر في هذه الأيام الأخيرة في بطرسبرج. ولم يجد مشقة في قبول هذا التأويل. كان الكسي الكسندروفتش، مثله مثل ليديا ايفانوفنا ومثل جميع الناس الذين يشاطرونه وجهة نظره، محروماً كلياً من عمق الخيال، من هذه الملكة الداخلية التي بفضلها تغدو التصوّرات التي يثيرها الخيالُ حقيقيةً إلى الحد الذي تستدعي فيه التوافق مع التصورات الأخرى ومع

الواقع. لم يكن يرى شيئاً من المستحيل أو من غير المعقول في أن يكون الموت موجوداً بالنسبة إلى غير المؤمنين لا بالنسبة إليه؛ أن تكون الخطيئةُ مستبعدةً من نفسه لأنه يملك الإِيمان الكامل الذي هو وحده حكمٌ عليه، وأن يكون مقتنعاً بأنه قد نال الخلاص منذ هذه الحياة.

ولا شك أنه كان يشعر أحياناً بخفة هذا المذهب وهشاشته، وكان يعلم أنه عندما انساق غريزياً وراء الشعور بالصفح، دون أن يفكّر في أن الصفح هو عمل قوّة عليا، وجد من السعادة أكثر ممّا يجد الآن، وهو يفكّر، في كل ساعة من ساعات النهار، أن المسيح يسكن نفسه وأنه يتمّم مشيئته حين يوقّع الأوراق. لكن، كان لا بدّ لألكسي الكسندروفتش من أن يفكّر هكذا؛ كان لا بدّ له، في مذلّته، من أن يَمْلك تلك العظمة ــ ولو كانت خياليّة ــ التي تتيح له، وهو المحتقر من الجميع، أن يحتقر الجميع، كان لا بدّ له من أن يتشبّث بخشبة الخلاص المزعومة، هذه.

[٢٣]

تزوّجت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا، وهي فتاةٌ متهوّسة، في وقت مبكّرٍ من فاسق شهير، واسع الثراء، منهمك في الفجور، وإِنْ كان طيّب القلب. وبعد شهر من الزواج، تركها ولم يرد على مظاهر حنانها المتهوّس إلا بالسخرية بل وبشيء من العداء حار في تفسيره الناسُ الذين عرفوا طيبة قلبه ولم يجدوا خطأً في ليديا المتحمّسة. ومنذ هذا الوقت. عاشا منفصلين وإن لم يقع الطلاق بينهما، وكان الزوجُ إذا لقي امرأته خاطبها دائماً بهذه السخرية المستهزئة التي لم يُعرَفْ سببُها.

نزعتْ الكونتيسة ليديا ايفانوفنا، منذ وقت بعيد، حبها لزوجها من نفسها، لكنها كانت، منذ ذلك الوقت، مغرمة دائماً بأحد الناس. كانت مغرمة بعدة أشخاص في آن واحد، من الرجال والنساء؛ لقد شُغفتْ بجميع الناس الذين

يخرجون عن المألوف بشكل أو بآخر: بجميع الأمراء والأميرات الذين صاهروا العائلة الامبراطورية، برئيس أساقفة، بنائب أسقف، بكاهن، بصحفي، بثلاثة من أنصار السلافية، بكوميساروف[١]، بوزير، بطبيب، بمبشر انكليزي، بكارينين. ولم تكن كل علاقات الغرام هذه تمنعها من المحافظة على أوسع العلاقات وأشدّها تعقيداً بالبلاط وبالمجتمع الراقي. لكنها منذ أن مدّت جناحها على كارينين بعد المصيبة التي حلّت به، ومنذ أن وقفتْ جهودها على منزل كارينين، حرصاً على راحته، أحسّت بأن جميع علاقات الحب الأخرى كانت وهميّة وأنها لم تكن مغرمةً حقاً إلا بكارينين. بدا لها الشعور الذي خالجها الآن أقوى من جميع المشاعر التي خالجتها قديماً. رأت بوضوح. حين حلّلت حبها وقارنته بما سبق من حب، أنها ما كانت لتُغرم بكوميساروف لولا أنه أنقذّ حياة القيصر، وما كانت لتغرم بريستتش ــ كودجيكي[٢] لولا نزعته السلافية، لكنها أحبّت كارينين من أجل ذاته، من أجل روحه السامية التي لم تُقدَّرْ حق قدرها، من أجل جرس صوته النحيف، من أجل نبراته الممدودة، ونظرته المتعبة، وطبعه ويديه الناعمتين البيضاوين بعروقهما المنتفخة.

لم تكن تستمتع بلقائه فحسب، بل إنها كانت تحاول أن تقرأ على وجهه الأثر الذي تُحدثه فيه. كانت تتوق إلى إرضائه لا بأحاديثها وحدها، بل بكل شخصها. من أجله، ازدادت عنايتُها بزينتها. كانت تحلم بما كان يمكن أن يقع لو لم تتزوج ولو ظل حراً. كانت تحمرّ من الانفعال عندما تدخل الغرفة التي هو فيها؛ ولم تكن تستطيع أن تكبح ابتسامةً سعيدة عندما كان يبادرها ببعض اللطف.

---

(١) «كوميساروف»: الشاب البرجوازي كوميساروف أمسك بمسدس العدمي «كاراكوزوف» وحول عن هدفه، أثناء الاعتداء الأول على الاسكندر الثاني الذي كان يتنزه بهدوء في «حديقة الصيف» سنة ١٨٦٦؛ وقد كوفىء كوميساروف مكافأة عظيمة واحتفى به مجتمع العاصمة.

(٢) «ريستش ــ كودجيكي»: (١٨٣١ ــ ١٨٩٩) وزير خارجية الحرب آنذاك.

منذ بضعة أيام، وقعت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا فريسة لاضطراب عظيم: لقد علمتْ أن آنا وفرونسكي موجودان في بطرسبرج. وينبغي لها أن تُجنِّب الكسي الكسندروفتش اللقاء معها؛ بل ينبغي لها ألا تُعرِّفه بأن هذه المرأة الفظيعة موجودة في المدينة نفسها التي يقيم فيها، وأنه مُعرّض في كل لحظة لأن يلتقيها.

استعلمت ليديا ايفانوفنا، بواسطة أصدقائها، نيّة «هذين الخبيثين» كما كانت تدعوهما، وبذلت وسعها لكي توجّه كل حركة من حركات صديقها بحيث لا يتسنى له لقاؤهما. وكان المرافق العسكري الشاب، صديق فرونسكي، الذي أعلمها بكل شيء آملاً أن ينال بواسطتها امتيازاً، قد قال لها إنهما رتّبا أمورهما وأنهما سيسافران في اليوم التالي. بدأت ليديا ايفانوفنا تطمئن عندما حُملتْ إليها في اليوم التالي بطاقةٌ عرفت خطّها وهي مذعورة. كانت البطاقة من آنا كارينين، وكان المغلف من الورق السميك كاللحاء؛ وعلى الورقة الصفراء المستطيلة كتب اسمُها بحروف كبيرة مشبكة، ومنها انبعث عطرٌ ذكيّ.

ـ من حَمَل هذه؟

ـ خادم الفندق.

ظلّتْ الكونتيسة ليديا ايفانوفنا زمناً طويلاً دون أن تستطيع قراءة الرسالة. وقد سبّب لها الانفعالُ نوبة رَبْوٍ (وكانت عرصةً لها). وعندما هدأتْ، قرأت الرسالة التالية المكتوبة بالفرنسية.

«السيدة الكونتيسة، إن المشاعر المسيحية التي تملأ قلبك تمنحني الجرأة (وهي جرأة غير مغتفرة، كما أحسّ) على أن أكتب إليك. إنني أتألم لانفصالي عن ابني. وأنا أضرع إليك أن تسمحي لي برؤيته مرة قبل سفري. اغفري لي إن ذكّرتك بوجودي. وإذا كنتُ أخاطبك دون الكسي الكسندروفتش، فذلك فقط لأني لا أريد أن أؤلم هذا الرجل الكريم حين أذكّره بنفسي. وأنا واثقةٌ من أنك ستفهمين ذلك، لعلمي بمودتك له. أترسلين لي سيرج، أينبغي أن آتي إلى البيت في ساعة محدّدة،

أم هل ستُعلمينني متى وأين أستطيع أن أرى ابني خارج البيت؟ وأنا لا أتوقع الرفض، لأنني أعرف شهامة الذي يتوقّف عليه هذا الأمر. لا تستطيعين أن تتصوري تعطّشي لرؤية ابني، ومن ثم العرفان بالجميل الذي ستبتعثه المساعدة التي ستتكرّمين بتقديمها».

كل ما في هذه الرسالة غاظ الكونتيسة ليديا ايفانوفنا: المحتوى، والإشارة إلى الشهامة، ولا سيما اللهجة التي بدتْ لها طليقة.

قالت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا:

ـ قلْ له ألا ينتظر الجواب.

وما لبثتْ أن فتحت النشّافة وكتبت إلى الكسي الكسندروفتش أنها تأمل أن تراه في الساعة الواحدة، في القصر، عند تقديم التهاني.

«يجب أن أحدّثك عن أمر محزن ومهم. سوف نتفق على المكان. الأفضل أن يكون في بيتي حيث يُقدَّم لك الشاي. لا بدّ من ذلك».

وأضافت من أجل أن تهيّئه للنبأ: «إنه يُعطي الصليب، لكنه يعطي القوة على حمل الصليب».

كانت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا تكتب عادةً بطاقتين أو ثلاثاً في اليوم لالكسي الكسندروفتش. كانت تحب هذه الطريقة في التواصل، وهي طريقة تصفي على علاقاتهما الشخصية أناقةً وخفاءً كانا يعوزانها فيما عدا ذلك.

[٢٤]

انتهى الاحتفال. والذين انصرفوا أخذوا يتحدّثون عن آخر أنباء اليوم: المكافآت والتنقلات.

قال شيخٌ قصير ببزة رسمية مقصبّة لوصيفة من وصيفات الشرف طويلة وجميلة:

ــ ما قولكِ لو عُيِّنتْ الكونتيسة ماري بريسوفنا وزيرة للحرب والأميرة فاتكوفسكي رئيسةً للأركان؟

فأجابت الوصيفةُ:

ــ وأنا مرافقة عسكرية.

ــ أنتِ أنت وزيرةٌ للأديان من قبل.... ومعك كارينين وزير دولةٍ. مرحبا، يا أمير.

قال ذلك وهو يشدّ على يدّ شخص اقترب منه.

قال الأمير:

ــ ماذا قلتَ عن كارينين؟

ــ لقد حاز هو وبوتياتوف وسام الكسندر نيفسكي[1].

ــ كنت أظنه حائزاً له من قبل.

أشار الشيخ القصير بقبعته المقرّنة والمقصّبة إلى كارينين الواقف في فرجة الباب يتحدث مع عضو متنفّذ من أعضاء مجلس الدولة، وقد تقلّد فوق بزة البلاط شريطاً أحمر جديداً، وقال:

ــ لا، انظر إليه.

وأضاف:

ــ إنه سعيد ومسرور مثل فلس جديد.

قال ذلك وهو يقف ليشدّ على يد حاجبٍ ملكيّ، عريض المنكبين.

قال الحاجب:

ــ لا، لقد شاب.

---

(١) «وسام الكسندر نيفسكي»: أنشأته كاترين الأولى سنة ١٧٢٥ في ذكرى البطل الذي انتصر على السويديين على «النيفا» سنة ١٢٤٠. وكان مؤلفاً من شريط عريض أحمر ووسام، كما كان يعتبر وساماً رفيعاً.

ــ إنها الهموم. وهو يقضي وقته في تحرير المشروعات. في هذه اللحظة، لن يترك محدّثه المسكين قبل أن يَعْرض عليه كلّ شيء نقطةً فنقطة.

ــ لم يشبْ، بل إنه يعاني تباريح الهوى، أظن أن الكونتيسة ليديا ايفانوفنا لا بد أن تكون غَيْرَى من زوجته.

ــ لا تذكرْ الكونتيسة ليديا ايفانوفنا بسوء، أرجوك.

ــ أهو سوءٌ أن تكون عاشقة لكارينين؟

ــ أصحيح أن السيدة كارينين هنا؟

ــ ليست هنا في القصر، وإنما في بطرسبرج. صادفتُها أمس مع الكسي فرونسكي، وهما متآبطان في «المورسكايا».

بدأ الحاجب يقول:

ــ هذا رجل ليس له...

لكنه توقّف ليتنحّى أمام شخص من العائلة الأمبراطورية وليحيّيه أثناء مروره.

وبينما كانوا يتحدثون هكذا عن الكسي الكسندروفتش منتقدين له وهازئين به، كان هو يسدّ طريق عضو مجلس الدولة، ويعرض عليه نقطةً فنقطة مشروعه المالي، دون أن يتوقف لحظة واحدة لكي لا يُفلت منه.

في الوقت الذي تركته فيه زوجتهُ تقريباً، أصيب بحادثة مؤلمة للموظف بخاصة: وهي توقّف مسيرته الصاعدة في مهنته الجميع لاحظوا ذلك أما هو فلم يكن يتبين بعد أن مهمته قد انتهت. أكان ذلك لأنه اصطدم بستريموف أكان ذلك مصيبةً أم أنه قد بلغ حدوده المرسومة؟ لكن الثابت أنه قد بدا واضحاً للجميع في هذه السنة أن مهمته قد انتهت. كان ما يزال يشغل منصباً مرموقاً، وكان عضواً في عدة هيئات ولجان، لكن زمنه انقضى ولم يعد يُرجى منه خيرٌ. ومهما يقلْ، مهما يقترح، فقد كان الناس يصغون إليه وكأن ما يقترحه شيء مُتداولٌ وبال، لكن الكسي الكسندروفتش لم يتبين ذلك، على العكس، كان يرى الآن بعد أن نُحي عن

المشاركة المباشرة في الحكومة، عيوبَ الآخرين وأخطاءهم رؤية أوضح من أي وقت مضى، وكان يقدّر أن من واجبه تعيين الوسائل لتفادي ذلك. وبعد سفر آنا بقليل، بدأ يكتب عن المحاكم الحديثة أول مبحث في سلسلة من المباحث التي لا نهاية لها ولا جدوى منها البتة، وبدأ يؤلف في جميع فروع الإدارة.

لم يلاحظ الكسي الكسندروفتش هذا الانحطاط ولم يتأذ منه، بل إنه كان أكثر رضىً عن نشاطه من ذي قبل.

يقول بولس الرسول: «غيرُ المتزوج يهتمّ فيما للرب كيف يرضي الرب، وأما المتزوج فيهتمّ فيما للعالم كيف يُرضي امرأته»[1]، كان الكسي الكسندروفتش الذي أخذ يرجع إلى الكتاب المقدّس، في كل مناسبة، يردّد هذه الجملة، وقد بدا له أنه بدأ يخدم الرب منذ هذه اللحظة، بمشاريعه الشهيرة، خدمة أفضل من ذي قبل.

لم يضطرب الكسي الكسندروفتش لنفاذصبر عضو مجلس الدولة الذي كان يرغب في استئذانه، ولم يقطع عرضَه إلاّ عندما انتهز محدّثه مرور شخصٍ من العائلة الامبراطورية ليتخلّص منه.

وعندما بقي وحده أطرقَ رأسه، وجمّع أفكاره، ثم ألقى نظرة شاردةً حوله، واتجه إلى الباب حيث كان يأمل أن يلقى الكونتيسة ليديا ايفانوفنا.

فكر الكسي الكسندروفتش حين نظر إلى الحاجب القويّ بعارضيه الممشوطين والمعطّرين، وإلى القذال الأحمر للأمير المحزوم في بزته، وكان لا بدّ له من المرور بجانبهما «ما أقواهم جميعاً وما أصحّ أجسامهم». وفكّر أيضاً وهو يلقي نظرة جانبية على ربلة ساق الحاجب: «بحقٍ قيل: كل ما في هذا العالم كذبٌ[2]».

---

(١) «غير المتزوج... امرأته»: الرسالة الأولى لأهل كورنثوش (الاصحاح السابع ٣٣).

(٢) «كل ما في هذا العالم كذب»: استشهاد غير دقيق من رسالة يوحنا الرسول الأولى. (الاصحاح الخامس ١٩).

كان يمشي بلا استعجال، وانحنى بوجه وقور ومتعب لهؤلاء السادة الذين كانوا يتحدّثون عنه، ثم تطلّع إلى الباب، باحثاً بعينيه عن الكونتيسة ليديا ايفانوفنا.

قال الشيخ القصير، وفي عينيه بريقٌ شرير، في اللحظة التي حاذاه فيها كارينين وحيّاه بفتور:

آه! الكسي الكسندروفتش!

وأضاف وهو يشير إلى الوسام الذي ناله حديثاً:

ــ لم أهنّئك بعد.

أجاب الكسي الكسندروفتش!

ــ شكراً.

وأضاف:

ــ ما أجمل الطقس.

وشدّد، كعادته، على لفظة «أجمل».

كان يعلم أنهم يهزؤون منه، لكنه ما كان ينتظر منهم سوى العداء: لقد تعوّد ذلك.

عندما شاهد كتفي الكونتيسة ليديا ايفانوفنا الصفراوين اللتين خرجتا من ثوبها، وعينيها الجميلتين الساهمتين، ابتسم كاشفاً عن أسنانه البيضاء، واقترب منها.

انشغل بالُه بما كانت تصطنعه ليديا ايفانوفنا من تزيّن، في هذه الآونة الأخيرة، كان هدف هذه الزينة مخالفاً للهدف الذي تابعتْه قبل ثلاثين سنة كانت آنذاك ترغب في أن تتزيّن ما وسعها التزيّن. أما الآن فإن زينتها على العكس، متعارضة مع سنها وشخصها حتى إن همها الوحيد انحصر في تخفيف هذا التناقض بين لباسها ومظهرها. أما بالنسبة إلى الكسي الكسندروفتش فقد بلغتْ هدَفها وبدت له فاتنة كانت عنده هي الجزيرة الوحيدة لا للعطف وحده وإنما للحب في بحر العداء والسخرية الذي يحيط به.

كان يمرّ أمام صفّ من العيون الهازئة، وهو منجذبٌ بنظرتها العاشقة انجذاباً لا يُقهر كما تنجذب النبتة بالضوء.

قالت وهي تومىء بعينها إلى الوسام:

ــ أهنّئك.

هزّ كتفيه وهو يكبح ابتسامة الرضا، مغمضاً عينيه كأنما يقول: إن ذلك لا يمكن أن يُدخل السرور على نفسه. لكن الكونتيسة ليديا ايفانوفنا كانت تعلم أن ذلك من أعظم مباهجه وإن لم يعترف به.

سألته ملمّحة عن سيرج:

ــ كيف حال ملاكنا؟

قال الكسي الكسندروفتش وهو يرفع حاجبيه ويفتح عينيه:

ــ لا يمكنني أن أقول: إنني راض عنه كلّ الرضا. وسيتنيكوف غير مسرور منه كذلك (سيتنيكوف هو المربـي الذي عهد إليه بتربية سيرج). فهو ــ كما قلتُ لكِ ــ يُظهر كثيراً من البرودة إزاء المسائل الأساسية التي ينبغي أن تمسّ قلب كل إنسان وكل صبّـي.

قال ذلك وبدأ يعرض أفكاره حول الموضوع الوحيد الذي يهمه خارج مهنته: وهو تربية ابنه.

فعندما استأنف الكسي الكسندروفتش حياته ونشاطه، بمساعدة ليديا ايفانوفنا، أحسْ بضرورة العناية بتربية ابنه، وبما أنه لم يهتم بهذه المسألة من قبل، فقد كرّس بعض الوقت لدراسة هذا الموضوع دراسة نظرية، وبعد أن قرأ بعض الكتب عن الانتروبولوجيا والتربية والتعليم رسم خطّةً تربوية ودعا خير مُرب في بطرسبرج لتطبيقها. وكانت المسألة تشغله باستمرار.

قالت ليديا ايفانوفنا باندفاع:

ـ صحيح، لكن قلبه؟ إني أرى فيه قلبَ أبيه، وبمثل هذا القلب لا يمكن للولد أن يكون سيئاً.

ـ ربما... أما أنا فإني أقوم بواجبي، وهذا كل ما أستطيع أن أفعله.

استأنفت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا بعد صمت:

ـ تعال إلى منزلي، إن علينا أن نتحدّث في موضوع مؤلم لك أتمنى أن أدفع كل ما أملك لأجنّبك بعض الذكريات، لكن الآخرين لا يفكّرون مثلي. تلقّيت رسالةً منها «هي» هنا، في بطرسبرج.

ارتعش الكسي الكسندروفتش عند تذكيره بزوجته، لكن سرعان ما استقر على وجهه، بعد ذلك، جمودُ الموت الذي يُظهر عجزه الكلّي في هذه القضية. وقال:

ـ كنتُ أتوقع ذلك.

رمته الكونتيسة ليديا ايفانوفنا بنظرة إعجاب، وهمت من عينيها دموع الانفعال أمام عظمة نفسه.

[٢٥]

عندما دخل الكسي الكسندروفتش القاعة الصغرى، الانيقة في منزل الكونتيسة ليديا ايفانوفنا، المزينة باللوحات وبالخزف القديم، لم تكن ربة المنزل هنا.

كانت تستكمل زينتها.

وعلى منضدة مغطاة بغطاء صفَّ طقم الشاي الصيني والغلاية الفضية ألقى الكسي الكسندروفتش نظرة شاردة على اللوحات المعروضة التي لا تُحصى والتي كانت تُزيّن القاعة، وجلس قرب الطاولة،وفتح انجيلاً كان عليها، لكن حفيف ثوب الكونتيسة الحريري حوّل انتباهه.

قالت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا وهي تنسلّ بين الطاولة والأريكة، وعلى شفتيها ابتسامة التأثر:

ــ آه! الآن سنكون مطمئنّين، وسنتحدّث قليلاً ونحن نتناول شاينا.

وبعد مقدمة من بضع كلمات سلّمته الكونتيسة ليديا ايفانوفنا الرسالة التي تلقتها، وهي تتنفّس بمشقّة وتحمّر.

وبعد أن قرأ الرسالة، صمت برهةً طويلة، ثم قال بوجل وهو يرفع عينيه:

ــ لا أظن من حقي رفضَ طلبها.

ــ يا صديقي، إنك لا ترى الشرّ في أي مكان.

ــ على العكس، إنى أراه في كل مكان لكنْ أمن العَدْل أن... عبّر وجهُه عن التردد وعن طلب النصيحة، والسند، والتوجيه في مسألة لا يفقه منها شيئاً.

قاطعته الكونتيسة ليديا ايفانوفنا:

ــ لا، هناك حدودٌ لكل شيء.

وأضافت من غير أن تكون صادقة تماماً لأنها لم تفهم قط ما يدفع النساء إلى انتهاك القوانين الأخلاقية:

ــ إني أفهم الخلاعة، لكني لا أفهم الوحشية، وتجاهَ منْ؟ تجاهك! كيف يجوز لها أن تبقى في مدينةٍ أنتَ فيها؟

آه! صحيح، لا يكبرُ الإنسان عن التعلّم! لقد تعلّمتُ حين عرفتُ سمّوك الأخلاقي ودناءتها.

قال الكسي الكسندروفتش، وهو ظاهر الرضا عن دوره:

ــ مَنْ سيرميها بأول حجر؟ لقد صفحتُ عن كل شيء ولا أستطيع أن أحرمها ما هو حاجة من حاجات حبها لابنها...

ــ لكن، أهذا من الحب، يا صديقي؟ أهو حبٌ صادق؟ ولنقبل بأن تصفح أيضاً مثلما صفحتَ من قبل... أيحقّ لنا أن نهزّ نفسَ هذا الملاك؟ إنه يظنها ميتةً،

ويصلّي من أجلها، ويضرع إلى الله كي يغفر لها خطاياها. . . الأمر أفضل هكذا فماذا سيقول الآن؟

قال الكسي الكسندروفتش وقد ظهر عليه القبول:

ــ لم أفكّر في ذلك.

غطّت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا وجهها بيديها وصمتتْ. كانت تصلّي ثم قالت بعد أن صلّت ورفعت يديها عن وجهها:

ــ إن سألتَني رأيي، فأنا لا أنصحُك بذلك. أتظنني لا أرى أنك تتألم وأن هذا الأمر قد نكأ جراحَك كلها؟ لكنْ لنفرض أنك تنسى نفسك، كما يقع لك دائماً، فإلى أين سيُقضي بك ذلك؟ إلى آلام جديدة، وإلى عذابات جديدة بالنسبة إلى ابنك وإذا كان قد بقي فيها شيءٌ من الإنسانية فينبغي ألا ترغب في ذلك. لا، إني أنصحك، دون تردد، بالعدول عن ذلك، وسأكتب إليها إذا سمحتَ بذلك.

وافق الكسي الكسندروفتش وكتبت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا الرسالة التالية بالفرنسية:

«سيدتي العزيزة.

إن ذكراك يمكن أن تثير، لدي ابنك، أسئلة لا يمكن الجواب عنها دون أن يُدفَع الصبي إلى نقد ما ينبغي أن يظلّ مقدّساً عنده ولذلك أرجوك، أرجوك أن تفهمي رفض زوجك بروح المحبّة المسيحية وأنا أدعو الخالق أن يرأف بك»

«الكونتيسة ليديا»

بلغتْ هذه الرسالة الهدفَ الخبيءَ الذي كانت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا تخفيه عن نفسها: لقد جَرحتْ آنا حتى أعماق نفسها.

ومن جهة أخرى، فإن الكسي الكسندروفتش، بعد أن رجع من عند ليديا ايفانوفنا، لم يستطع، في هذا اليوم، أن ينصرف إلى مشاغله العادية ولا أن يجد هذه السكينة الداخلية لمؤمن مقتنع بخلاصه، وهي سكينة عرفها من قبل.

إن ذكرى امرأته، المذنبة بحقه والتي تصرّف إزاءها كما يتصرّف القدّيسون، على حدّ قول الكونتيسة، ما كان ينبغي أن تُدخل الاضطرابَ إلى نفسه، لكنه لم يكن مطمئناً، لم يكن بمقدوره أن يفهم الكتب التي يقرؤها، ولا أن يصدّ الذكريات المعذبة لعلاقاته بها، وللأخطاء التي بدا له الآن أنه ارتكبها. إن ذكرى الطريقة التي استقبل بها اعترافها بخيانتها وهما عائدان من السباق (طالباً منها فقط مراعاة أصول اللياقة، دون أن يدعو فرونسكي إلى المبارزة) كانت تعذّبه كما يعذّبه الندم. كان يتعذب أيضاً بفكرة الرسالة التي كتبها إليها، والصفح الذي منحها إياه من غير أن يحتاج إليه أحد، والعناية التي غمر بها الطفلة التي ليستْ منه: كان كل ذلك يحرق قلبه خجلاً وندماً.

كان يشعر اليوم بنفس الشعور وهو يستعيد ماضيه معها ويتذكّر الكلمات الخرقاء التي قالها وهو يخطبها بعد تردّدات طويلة.

قال في نفسه: «لكن فيمَ أنا مذنب؟» وهذا السؤال استدعى سؤالاً آخر: كل هؤلاء الناس من أمثال فرونسكي وأوبلونسكي... كل أولئك الحّجاب الأمبراطوريين ذوي الربلات الغليظة، أكانوا يحسّون ويحبّون ويتزوّجون على نحو مختلف؟ واستعرض في ذاكرته طائفةً من هؤلاء الناس الأقوياء، المرفّهين، الواثقين من أنفسهم، الذين استرعوا انتباهه دائماً، بالرغم منه، أينما وجدهم كان يدفع عنه هذه الأفكار ويَجْهد في إقناع نفسه أنه لا يحيا من أجل هذه الحياة الزائلة على الأرض، لكن من أجل الحياة الأبدية، وأن الحب والسلام يسكنان نفسه، لكنه فكّر: إن بعضاً من هذه الأخطاء التافهة التي ارتكبها في هذه الحياة الزائلة والحقيرة كانت تُقضّ مضجعه، كما لو أن الخلاصَ الأبدي الذي يؤمن به لم يكن موجوداً، بيد أن هذا الإغواء لم يدم طويلاً، وسرعان ما عادت إلى نفسه تلك السكينةُ وعاد إليها ذلك السمو الروحي، وبفضلهما استطاع أن ينسى ما لم يكن يحب أن يتذكّره.

[٢٦]

قال سيريوجا الذي عاد من نزهته محمراً ومنتعشاً، عشية عيد ميلاده، بينما كان الحاجب العجوز ينزع معطفه وهو يبتسم للفتى من أعلى قامته:

ـ وبعد! يا كابيتونيتش؟ هل جاء الموظفُ ذو العصابة؟ وهل استقبله أبـي؟

قال الحاجب وهو يغمز غمزةً فرحة:

ـ نعم، ولقد أعلنتُ عن وصوله عندما انصرف رئيسُ مكتبه، اسمحْ لي أن أنزع عنك معطفك.

ناداه المربـي الصربـي، على عتبة الباب الذي يؤدي إلى الشقق:

ـ سيريوجا! اخلع ملابسك بنفسك!

ومع أن سيريوجا سمع صوتَ المعلم الضعيفَ، لكنه لم يعره انتباهاً، وظلّ هنا ممسكاً الحاجب بحمالته، ناظراً إليه في وجهه:

ـ وهل فعل له أبـي ما يلزم؟

فأومأ الحاجب برأسه إيجابياً.

إن الموظف ذا العصابة الذي جاء سبع مرات يطلب شيئاً من الكسي الكسندروفتش أثار اهتمامَ سيرج والحاجب معاً. لقيه سيريوجا ذات يوم في البهو وسمعه يرجو الحاجب بصوت شاكٍ لكي يُعلن عن وصوله، قائلاً إنه إذا لم يلق الكسي الكسندروفتش فسوف يُحكم عليه وعلى أولاده بالموت.

ومنذ هذا اليوم، اهتم به سيريوجا، وكان قد لقيه مرةً ثانية في البهو. وسأله:

ـ أكان مسروراً جداً؟

ـ لا شك، فقد رجع وهو يكادُ يثب!

سأله سيريوجا بعد أن صمت لحظة:

ـ هل جاءَني شيءٌ؟

قال الحاجب بصوت خفيض وهو يهزّ رأسه:

ــ نعم، يا سيدي، من عند الكونتيسة.

وأدرك سيريوجا في الحال أن ما جاءه هديةٌ من الكونتيسة ليديا ايفانوفنا بمناسبة عيد ميلاده.

ــ ماذا تقول؟ أين؟

ــ حملها «كورني» إلى غرفة أبيك. لا بد أن يكون شيئاً جميلاً!

ــ كيف، أهو كبير؟ هكذا؟

ــ لا، أصغر، لكنه جميل.

ــ كتاب؟

قال الحاجب وهو يسمع خطوات المربـي:

ــ لا، هو شيءٌ، اذهب، اذهبْ، «بازيل لو كيتش[1]» يدعوك.

ودفعَ برفق اليدَ الصغيرة المنزوعة القفاز نصفياً والمتشبّثة بحمالته، وغمز بعينه صوب المربّـي لو كيتش.

أجاب سيريوجا بهذه الابتسامة المرحة المتودّدة التي كانت تسحر دائماً «بازيل لو كيتش» الصارم:

ــ في الحال.

كان سيريوجا أعظم سعادةً من ألا يشرك صديقه الحاجب في فرحته العائلية التي أطلعته عليها، أثناء نزهته في حديقة الصيف، ابنةُ أخت الكونتيسة ليديا. وهذه الفرحة بدت له عظيمة الأهمية، ولا سيّما أنها توافقت مع فرحته بالموظف وفرحته باللعبة التي حُملت إليه. وخُيِّل إليه أن جميع الناس ينبغي أن يكونوا سعداء وفرحين في هذا اليوم.

ــ أتعلم أن أبـي نال وسام الكسندر نيفسكي؟

---

(١) «بازيل لو كيتش فونتيش»: المربـي الصربـي لسيرج كارينين.

ـ لا شك أني أعلم! وقد جئنا قبل حين لتهنئته.

ـ أهو مسرور؟

قال الحاجب بلهجة رصينة، متصنعة الوقار:

ـ الناسُ يسرّون دائماً بخطوة القيصر، ذلك أنه استحقها.

أخذ سيريوجا يفكّر، وهو يتأمل وجه الحاجب الذي يعرفه حتى في أدنى تفاصيله، ولا سيما الذقن المعلّقة بين عارضيه الرماديين والتي لم يكن يراها أحد إلاَّ سيريوجا لأنه لم يكن يتطلع إلى صديقه إلاَّ من تحت.

ـ أمن زمن بعيد جاءت ابنتُك لتراك؟

كانت ابنة الحاجب أحد أعضاء فرقة الباليه.

ـ ليس لديها من الوقت ما يسمح لها بالمجيء أسبوعياً، فهي تدرس أيضاً اذهب إلى درسك، يا سيدي.

عندما ذهب سيريوجا إلى غرفته، روى لمربّيه، بدلاً من أن يجلس، أنه يفترض أن تكون الهدية التي حُملت إليه قاطرةً، وسأله:

ـ ما رأيك.

لكن بازيل لوكيتش لم يكن يفكّر إلا في تحضير درس القواعد للاستاذ الذي سيأتي في الساعة الثانية.

وسأل فجأةً وقد استقرّ إلى طاولته، وبين يديه كتاب:

ـ لا، قلْ لي، يا بازيل لوكيتش، هل هناك وسام فوق وسام الكسندر نيفسكي؟ أنت تعلم أن أبـي نال وسام الكسندر نيفسكي.

أجاب بازيل لوكيتش أن هناك وسام القديس فلاديمير[1].

ـ وفوقه؟

---

(١) «وسام القديس فلاديمير»: وسام أنشىء في ١٧٨٢ بأمر كاترين الثانية للمآثر المدنية؛ والدرجة الأولى منه تتألف من شريط أحمر بحاشية سوداء مع رصيعة الوسام.

ـ وسام القديس آندريه؟
ـ وفوق وسام القديس آندريه[1].
ـ لا أدري.
ـ كيف، حتى أنت لا تدري ذلك؟

واستغرق سيريوجا في تفكيره وهو متكىء إلى الطاولة. كانت هذه الأفكار كأشد ما تكون تعقّداً وتنوّعاً. كان يتصورِ أن أباه سينال وسامي القديس فلاديمير والقديس آندره معاً، وأنه سيكون اليوم أكثر تساهلاً في درسه، وأنه سينال، عندما يكبر، جميع الأوسمة حتى التي سيخترعونها فوق القديس آندريه. فما يكادون يخترعونها حتى يستحقها. وسيخترعون أوسمة لاتني تعلو بعضها فوق بعض، وسوف يستحقها جميعاً.

مضى الوقت في هذه الأفكار، وعندما وصل الأستاذُ لم يكن درسا المفعول به والحال محضّرين. لم يستأْ الأستاذُ فحسب بل إنه اغتمّ. وتأثر سيريوجا بغم أستاذه. لم يكن يحسّ إنه مخطىء؛ لم يكن بمقدروه أن يفهم دروسه، مهما يبذلْ من جهد؛ كان يُخيّل إليه أنه يفهم هذه الدروس عندما يشرحها أستاذه، فإذا خلا بنفسه لم يميز بين الحال والمفعول فيه؛ لكنه تأسّ لأنه غمّ أستاذه.

اختار دقيقةً كان الأستاذُ يبحث فيها عن شيء في الكتاب دون أن يقول شيئاً، وسأله فجأةً:

ـ ميشيل ايفانيتش، في أي الأيام عيدُك؟
ـ الأوْلى بك أن تفكّر في عملك، فليس ليوم العيد أهمية عند الكائن العاقل. إنه يومٌ كسائر الأيام، يجب أن يعمل المرءُ فيه.

---

(١) «وسام القديس اندريه»: أعلى وسام في الامبراطورية أنشأه بطرس الأكبر في ١٦٩٨ على شرف الرسول اندريه، الذي كان مبشراً بالإنجيل بين السلتيين واعتبر حامياً لروسيا. وكان الوسام ذو الشريط السماوي لا يمنح إلا للملوك والأمراء الأجانب، ونادراً لأصحاب المقامات الروس.

نظر سيريوجا بإمعان إلى أستاذه، إلى لحيته المتناثرة الشعر، إلى نظارتيه اللتين انزلقتا على أنفه، وتاه في أفكاره العميقة إلى الحد الذي لم يسمع فيه هذه المرة شيئاً مما يشرُحه أستاذُه. وأدرك أن أستاذه لم يكن يفكّر فيما يقوله، أدرك ذلك من اللهجة التي قال فيها ما قاله. وتساءل الصبيّ بحزن دون أن يتمكّن من العثور على الجواب: «لكنْ لمَ يتّفقون جميعاً ليقولوا لي بالطريقة نفسها مثل هذه الأشياء المُملّة والتي لا فائدة منها؟ لِمَ ينبذني؟ لِمَ لا يُحبّني؟

[٢٧]

بعد درس الأستاذ جاء درس الأب. كان سيريوجا جالساً إلى طاولته ينتظره ويعبث بالمدية ويتابع تأملاته. كان أحد مشاغله المفضّلة أن يبحث عن أمه أثناء نزهته. لم يكن يؤمن بالموت على العموم، وبخاصة موت أمه، بالرغم مما قالته له ليديا ايفانوفنا وما أكّده له أبوه: ولذلك ظلّ يبحثُ عنها أثناء نزهاته، بعد أن قيل له إنه ميتة. وكل النساء الرشيقات، السمراوات، القويات قليلاً، كنّ أمه. فإذا شاهدَ واحدة منهن تملّك نفسّه شعورٌ من الحنان العارم إلى حد يختنق معه وتسْتبقُ الدموعُ إلى عينيه. وكان يأمل دائماً أن تأتيه إحدى هؤلاء النسوة وترفع غلالتها، وتُسفر عن وجهها، وتبتسم، وتأخذه بين ذراعيها، فيحسّ عطرها، وعذوبة يدها، ويأخذ بالبكاء من السعادة مثل ذلك المساء الذي ظل فيه مضطجعاً عند قدميها حيث دغدغتْه، وحيث ضحك حتى سالت دموعه، وحيث عضّ يدها البيضاء المُثقلة بالخواتم. وفيما بعد، عندما أخبرته مربيته أن أمه لم تمت وعندما شرح له أبوه وليديا ايفانوفنا أنها ميتة بالنسبة إليه لأنها سيئة (وهو ما لم يمكنه تصديقه لأنه كان يحبّها) ظل يبحث عنها وينتظرها كأن شيئاً لم يكن. ولقد رأى اليوم، في حديقة الصيف سيدةً في غلالة ليلكية، وتطلع إليها وهي تدنو على طول الطريق، وقد ذهبَ قلبُه، آملاً أن تكون هي. لكن هذه السيدة لم تصلْ إليه وتوارت. لقد كان يحسّ اليوم، على نحو أعنف من أي يوم مضى، أنه يفيض حباً لها، وكان

ينتظر أباه وهو يشطب بمديته حافة الطاولة، شاخصاً أمامه، باديّ الشرود، ملتمع العينين، مفكّراً في أمه.

قال له بازيل لوكيتش:

ــ وصلَ أبوك.

نهض سيريوجا بغتة، وأقبل على أبيه، وبعد أن قبّل يده، أمعن النظر فيه، باحثاً في وجهه عن أمارات فرحته بنيل وسام الكسندر نيفسكي.

جلس الكسي الكسندروفتش في مقعده وفتح مجلّد «العهد القديم». ومع أنه قال لابنه عدة مرات: إن على كل مسيحي أن يعرف معرفةً تامة الكتاب المقدّس، فقد كان يرجع، في الغالب إلى العهد القديم، من أجل درسه: لقد لاحظ الصبي ذلك.

وسأل ابنه:

ــ هل سُررتَ بنزهتك؟

قال سيريوجا وقد جلس جانبياً على كرسيّه وأخذ يتمايل، وهو ما مُنع منه:

ــ نعم، تسلّيتُ كثيراً. ورأيتُ ناديا (ناديا هي ابنة أخت ليديا ايفانوفنا التي تكفّلت بتربيتها). قالت لي إنك نلتَ وساماً جديداً.

هل أنت مسرورٌ، يا أبي؟

قال الكسي الكسندروفتش:

ــ أولاً، لا تتمايلْ، أرجوك، وثانياً، إن العمل هو العزيز علينا، لا المكافأة. وأحب أن تفهم ذلك. فإذا عملتَ وتعلّمتَ من أجل أن تحصل على مكافأة بدا لك العملُ شاقاً؛ أما إذا عملت وأنت تحب ما تعمله، وجدتَ مكافأتك في العمل. (تذكّر الكسي الكسندروفتش أنه اضطُرّ، في هذا الصباح، إلى توقيع مائة وثماني عشرة ورقة، وأنه لم يشدّ إزره في هذا العمل القاسي سوى شعورُه بالواجب).

أظلمتْ عينا سيريوجا الملتمعتان بالحنان والمرح أمام نظرة أبيه. وكان الكسي الكسندروفتش يصطنع دائماً هذه اللهجة وهو يخاطب ابنه، وتعلم الصبي أن يمتثل لها. كان أبوه يكلّمه ــ كان هذا انطباعه على الأقل ــ وكأنه يتحدّث مع صبي خيالي لا يجمعه به جامع، كالصبيان الذين يظهرون في الكتب. وكان سيريوجا يبذل وسعه، بحضور أبيه، لكي يُشبه ذلك الصبيّ.

قال له أبوه:

ــ أرجو أن تفهم.

أجاب سيريوجا وهو يلعب دور الصبيّ الخيالي:

ــ نعم، يا أبي.

كان الدرس ينحصر في استظهار بعض آيات الإنجيل وتلاوة الفصول الأولى من العهد القديم. كان سيريوجا حافظاً لدرسه، لكنه استغرق، وهو يتلوه، في تأمل عَظْمةِ أبيه الجبهية التي كانت تشكل زاوية حادة قرب الصدغ، حتى إنه تخبط في التلاوة وخلط بين آيتين تنتهي الأولى بنفس الكلمة التي تبدأ بها الثانية. وكان واضحاً، بالنسبة إلى الكسي الكسندروفتش، أنه لم يكن يفهم ما يقوله. فضايقه ذلك.

قطّب بين حاجبيه واسترسل في شرحٍ سمعَه سيريوجا عدداً من المرات ولم يستطع أن يتذكره لأنه خلا مما يُفْهَم، كالتفريق بين الحال والمفعول فيه. كان سيريوجا ينظر إلى أبيه بوجه خائف وهو لا يفكّر إلا في شيء واحد: أيطلب إليه أبوه ترديدَ ما قاله، كما يفعل في بعض الأحيان؟ هذه الفكرة أرعبتْه إلى الحد الذي لم يعدْ يفهم شيئاً معه. لكن أباه لم يطلب ذلك وانتقل إلى درسه في العهد القديم استطاع سيريوجا أن يروي الأحداث لكنه عندما لزمه تفسير ما تمثّله هذه الأحداث مسبقاً، أنذهل مع أنه كان قد عوقب من أجل هذا الدرس. وعندما بلغ الحديث الشيوخَ الذين سبقوا الطوفان، لم يستطع أن يقول شيئاً: تردّد، وأخذ يشطب

الطاولة بمديته، وتمايل على كرسيّه. لم يكنْ يتذكر سوى «أنوش» الذي رُفع حيّاً إلى السماء. قبل لحظة، كان يتذكّر أسماء آخرين، أما الآن فقد نسيها كلّياً؛ وجزءٌ من نسيانه يعود إلى أن «أنوش» كان شخصيّته المفضلة من كل العهد القديم، وإلى أن رَفْعَ أنوش إلى السماء يرتبط، في ذهنه، بمجموعة من الأفكار التي كانت تستغرقه استغراقاً تاماً وهو شاخصٌ إلى سلسلة ساعة أبيه وإلى زرٍّ في صدرته كاد يخرج من عروته.

لم يكن سيرج يؤمن بالموت الذي كثيراً ما حدّثوه عنه. لم يكن يؤمن أن الناس الذين يحبهم أو هو نفسه يمكنهم أن يموتوا. كان ذلك شيئاً غير ممكن وغير مفهوم كلياً. لكنْ قد قيل له: إن جميع الناس يموتون، واستعلم عدداً من الأشخاص الذين يثق بهم فأيّدوا له هذه الأقوال: أجابته مربيته بهذا المعنى، وإن كان جوابها على مضض. لكنْ بما أن «أنوش» لم يمت، فمعنى ذلك أن جميع الناس لا يموتون. وفكّر سيريوجا: «لِمَ إذنْ لا يستحقّ كل واحد أن يرتفع حيّاً إلى السماء؟» الشريرون، وبعبارة أخرى الذين لا يحبهم سيريوجا، يمكن أن يموتوا، أما الصالحون فيمكن أن يكونوا مثل «ألوش».

ــ حسناً! ومَنْ هم الشيوخ؟

ــ أنوش... أنوش.

قال له أبوه وهو ينهض:

ــ لقد ذكرَته. هذا سيءَ، سيّء جداً. إذا كنتَ لا تبذل جهداً لتتعلم ما هو أشد ضرورة من غيره للمسيحي، فما الذي يثير اهتمامك إذن؟ أنا مستاءٌ منك و «بيير ايفناتييفتش» (كان هذا هو المربّي الرئيسي) مستاءٌ منكَ أيضاً... وأنا مُضطرٌ إلى معاقبتك.

كان أبوه ومعلمه مستاءين كليهما من سيريوجا، والواقع أنه كان قليل الاجتهاد. ومع ذلك، فالقول بأن هذا الولد لم يكن موهوباً غيرُ جائز. على

العكس، لقد كان، في نظر أبيه، يرفض أن يتعلم ما يُلقى عليه. والواقع أنه لم يكن يستطيع أن يدرس. لم يكن يستطيع ذلك لأن نفسه كانت تحتوي على مطالب أكثر إلحاحاً من التي يعرضها عليه أبوه ومرّبيه. وهذه المطالب المتنوّعة كانت تتعارض فيما بينها. ولذلك كان في صراع دائم مع مرّبيه.

كان طفلاً، ابن تسع سنوات. لكنه كان يعرف نفسه، وكانت نفسه عزيزة عليه، وكان يحميها، كما يحمي الجفنُ العينَ، من الذين يريدون أن يلجوها بغير مفتاح الحب. كان مربّوه يَشْكون من أنه يأبى أن يتعلّم في حين أنه كان متعطشاً إلى المعرفة، وإذا كان يتعلم فذلك مع كابيتونيتش، مع مربّيته، مع ناديا، مع بازيل لوكيتش، لا مع أساتذته، فهذا الماء الذي كان ينتظره أبوه ومعلمه، قد تسرّب منذ زمن بعيد إلى أرض أخرى وأخذ يفعل فيها فعله.

منعه أبوه أن يرى ناديا، ابنة أخت ليديا ايفانوفنا، عقاباً له، لكن هذا العقاب انقلب إلى مصلحته. ذلك أن بازيل لوكيتش الذي كان مبتهجاً في هذا اليوم، أراه كيف تُصْنَعُ الطواحين الهوائية. وقضى مساءه يصنع طاحونةً ويحلم بالوسيلة التي تستخدم بها مثل هذه الطاحونة ليحوّم في الهواء؛ أينبغي أن يربط نفسه بها أو يتشبث فقط بجناحيها؟ لم تخطر أُمه بباله طوال المساء، لكنه ما إن أوى إلى فراشه حتى تذكّرها فجأة وصلّى، بطريقته الخاصة، لكي تكفّ أمه عن التخفّي ولكي تجيء إليه في اليوم التالي من أجل عيده.

ــ أتدري، يا بازيل لوكيتش، ماذا طلبتُ فوق ذلك؟

ــ أن يتحسّن عملُك؟

ــ لا.

ــ لُعباً؟

ــ لا، لن تحزر، أمر عجيبٌ لكنه سرٌّ. سأطلعك عليه إذا ما حدث... ألم تحزرّه؟

قال بازيل لوكيتش مبتسماً، وقلّما كان يبتسمُ:

ــ لا، ستقوله لي. نَمْ، سأطفىء الشمعة.

قال سيريوجا وقد أخذ يضحك بفرح:

ــ بدون ضوء، أرى رؤيةً أفضل ما طلبتُه في صلاتي. كدتُ أبوح لك بسرّي.

وعندما حُملتْ الشمعة، أحسّ سيريوجا بحضور أمه. كانت واقفةً بجانبه تغمره بنظرتها المحبّة. لكن الطواحين والمدية جاءت لتختلط بها، فتشوّشَ كلُ شيء... وأغفى.

[٢٨]

نزل فرونسكي وآنا في فندق من أفخم فنادق بطرسبرج. فرونسكي في الطابق الأرضي، وآنا مع الطفلة والمرضع وخادمتها في شقة واسعة من أربع غرف، في الطابق الأول.

قصد فرونسكي، في يوم وصوله بالذات، إلى منزل أخيه. فوجد أمه هناك، وقد جاءت من موسكو لشؤونها. واستقبلته أمه وزوجة أخيه كعادتهما: سألتاه عن رحلته إلى الخارج وحدّثتاه عن معارفهم المشتركين، لكنهما لم تلمّحا ولو مرّة واحدة إلى آنا. وبالمقابل فإن أخاه بادره بالكلام عليها عند زيارته له في اليوم التالي، وأعلمه الكسي صراحةً أنه يعتبر علاقته بآنا كارينين زواجاً، وأن في نيته الحصول على الطلاق الذي يتيح له الزواج منها، لكنه يعتبرها، في هذه الأثناء، زوجة شرعيةً له، ورجاه أن ينقل هذا الكلام إلى أمه وزوجة أخيه.

قال فرونسكي:

ــ لِيُنح عليّ الناسُ باللائمة، فلستُ أبالي، لكن إذا كانت أسرتي ترغب في أن تظل علاقتُها حسنةً بي فمن الضروري أن تكون علاقتها بزوجتي حسنةً أيضاً.

لم يدرِ الأخُ الأكبر، وكان شديد الاحترام لآراء أخيه الأصغر، إن كان الكسي على حقٍّ أم لا ما دام الناسُ لم يبتّوا في هذه المسألة؛ وهو نفسه لم يكن له مأخذٌ عليه فذهب إلى زيارة آنا مع أخيه.

كان فرونسكي يخاطب آنا، في حضور أخيه أو غير أخيه أيّاً كان، بضمير الجمع، ويعاملها كما تُعامَل الصديقة الحميمة لكن آنا كانت تعلم ضمناً أن أخاه مطلّع على علاقاتهما. ولذلك جرى الكلام على مشروع آنا في الذهاب إلى ممتلكات فرونسكي لتعيش فيها.

ارتكب فرونسكي، بالرغم من تجربته بين الناس، خطأً فادحاً، نتيجة للوضع الجديد الذي ألقى نفسه فيه. كان ينبغي له أن يفهم، فيما يبدو، أن المجتمع سيظل مُغلقاً في وجهيهما. على العكس، لقد وُلدتْ في ذهنه تصوّراتٌ مشوّشة أوحتْ إليه أن الأمر كان كذلك في الزمن الماضي، أما الآن فإن رأي المجتمع تغيّر بفضل التقدّم السريع (ولقد غدا هو حديثاً نصيراً لجميع أصناف التقدّم، دون أن يدرك ذلك) وأن مسألة استقبال الناس لآنا وله لم تحلّ بعد. وفكّر: «لا شك أن المجتمع الرسمي لن يستقبلها، لكنّ أقرباءنا يمكن وينبغي لهم أن يفهموا الوضع فهماً مناسباً».

يمكن للمرء أن يظل جالساً عدة ساعات، متصالب الساقين في الوضع ذاته، إذا كان يعلم أنْ لا شيء يمنعه من تغيير وضعه، لكنه إذا علم أنه يجب عليه أن يظل جالساً مطويّ الساقين أصابه التشنّج وسعتْ ساقاه غريزياً إلى الاسترخاء. هذا بالضبط ما عاناه فرونسكي إزاء الناس. ومع أنه كان يعلم في أعماقه أن المجتمعَ مغلقٌ في وجهيهما، فقد ظل يتساءل إن كان المجتمع لم يتغيّر وإذا كان الناس لا يستقبلونهما. لكنه اضطُر بعد قليل إلى أن يرضخ لأحكام الواقع؛ وإذا كان المجتمع قد ظل مفتوحاً له فقد ظل مغلقاً في وجه آنا. وذلك كما هي الحال في لعبة الهر والفأر، فالأيدي المرفوعة له لا تلبث أن تنخفض أمام آنا.

إحدى أوليات النساء التي رآها في مجتمع بطرسبرج كانت ابنة عمه بيتسي.

هتفت بيتسي بفرح حين شاهدته:

ـ جئتَ أخيراً! وآنا؟ ما أعظم سروري! أين نزلتما!؟ أعتقد أن بطرسبرج ستبدو لك شنيعة بعد رحلة ممتعة كرحلتك. إني أتصور شهر العسل الذي قضيتماه في روما. والطلاق؟ هل سوّي كل شيء؟

لاحظ فرونسكي أن حماسة بيتسي فترت منذ أن علمت أن الطلاق لم يتمّ.

قالت:

سيَسْلقني الناس بألسنةٍ حداد، أعلم ذلك، لكني سأذهب لأرى آنا، نعم، سأذهب لا محالة، ألن تبقوا طويلاً؟

وبالفعل، جاءت في اليوم نفسه لتزور آنا؛ لكن لهجتها لم تكن هي نفسها. كان واضحاً أنها تفتخر بجسارتها وتريد من آنا أن تُكبرَ دليلَ الأمانة والمحبّة هذا. لم تبقَ أكثر من عشر دقائق تحدّثتْ فيها عن أخبار اليوم وقالت قبل أن تنصرف:

ـ لم تقولي لي بعدُ متى سيتمُّ الطلاق؟ لنفرضْ أنني تحدّيتُ الآداب العامة، لكن الذين يتصنّعون الأخلاق سيُشيحون عنكما ما لم تتزوجا. والأمر سهلٌ الآن. إنه يحدث. وهكذا، ستسافرين نهار الجمعة؟ من المؤسف أننا لن نتلاقى حتى ذلك الموعد.

كان حرياً بفرونسكي أن يدرك، من لهجة بيتسي، ما ينتظره في المجتمع، لكنه جرّب تجربةً أخرى مع أسرته. لم يكن يرجو خيراً من أمه. كان يعلم أنها فُتنتْ بآنا عند لقائهما الأول، وأنها غدت الآن لا ترحم تلك التي حطّمت حياة ابنها. لكنه كان يعتمد كثيراً على زوجة أخيه فاريا. كان يعتقد أنها لن تغتابهما وأنها ستأتي ببساطة وجرأة لترى آنا، وأنها ستستقبلها.

ومنذ اليوم التالي لوصولهما، توجه فرونسكي إليها وأعرب لها عن رغبته دون لفّ ولا دوران.

قالت له بعد أن أصغتْ إليه حتى النهاية:

ــ أنت تعلم، يا الكسي، كم أحبك، وكم أنا مستعدة لعمل كل شيء في سبيلك. وإذا كنتُ قد صمتُّ فذلك لعلمي أنني لا يمكن أن أنفعك في شيء، لا أنت ولا آنا أركادييفنا، (ولفظت بعناية: «آنا أركادييفنا»). لا تظن أنني أصدر حكمي عليها. أبداً: وربما لو كنتُ محلّها لتصرَفتُ مثلها.

وأضافت وهي تلقي بين الحين والآخر نظرة وجلة على وجهه المتجهّم:

ــ إني لا أتطرّق ولا يمكن أن أتطرّق إلى التفاصيل، لكنْ يجب أن نسمّي الأشياءَ بأسمائها. أنت تريد أن أذهب لأراها وأن أستقبلَها وأن أردّ لها اعتبارها في المجتمع بهذه الطريقة؛ لكنْ يجب أن تعلم أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. إن لي بناتٍ يكبَرنَ وأنا مُضطرةٌ إلى العيش في المجتمع بسبب زوجي. ولنفرضْ أنني ذهبت لزيارة آنا أركادييفنا؛ سوف تَفهم هي أنني أستطيع دعوتها إلى بيتي أو على الأقل إنني يجب أن أتصرف بحيث لا تلاقي الذين ينظرون إلى الأشياء نظرة مختلفة: ستكون هي أولَ مَنْ يُهان بسبب ذلك. لست أستطيع أن أُقيلَها عَثْرَتها...

قاطعها فرونسكي وقد ازداد تجهّماً:

ــ لكني أقدّر أنها لم تعثرْ أكثر من مئات النساء اللواتي تَسْتقبلينهنّ!

ونهض دون أن يقـول كلمة لأنه أدرك أن قرار زوجة أخته قرارٌ لا رجوع عنه.

واستأنفت فاريا وهي تنظر إليه بابتسامة وجلة:

ــ الكسي! لا تغضب عليّ. أرجوك، اعلمْ أن الغلطة ليست غلطتي.

قال لها وهو ما يزال متجهّماً:

ــ لستُ غاضباً عليكِ. لكن ما قلته يؤلمني مرّتين. وأنا آسف لأن ذلك سيحطّم صداقتنا. ولنقلْ إنه لن يحطّمها، لكنه سيُضعفها. واعلمي أن الأمور لا يمكن أن تكون غير ذلك بالنسبة إلي.

قال هذه الكلمات وغادرها.

أدرك فرونسكي أن من العبث القيام بمساعٍ أخرى، وأن عليهما أن يقضيا هذه الأيام في بطرسبرج وكأنهما في مدينة أجنبية، وأن يتحاشيا الاتصال بوسطهما القديم، لكي لا يتعرّضا للمُزعجات وللإهانات التي كانت تجرحه جرحاً شديد العمق. أحد هذه المزعجات الأساسية هو أن اسمه كان مقترناً دائماً باسم الكسي الكسندروفتش. كان من المستحيل أن يدور الحديث على أي شيء دون أن يُعرّج على الكسي الكسندروفتش؛ ولم يكن ممكناً الذهاب إلى أي مكان دون التقائه. كان ذلك على الأقل هو إحساس فرونسكي، كالرجل الذي له اصبع مريضة ويظن أنه يصدم هذه الإصبع الموجوعة بكل شيء.

بدت الإقامة في بطرسبرج شديدة الوطأة على فرونسكي، ولا سيما لما رآه، أثناء هذه الفترة كلها، من غرابة وغموض في طباع آنا. كانت تبدو تارةً مشغوفةً به، وكانت تارة أخرى باردةً، عصبية، لا تُدرَك مراميها. كان هناك شيءٌ يُقضّ مضجعها ولا تبوح به له، وكانت كأنها لا تلاحظ المنغّصات التي سمّمتْ حياة فرونسكي والتي كان ينبغي لها أن تشعر بها شعوراً أشد إيلاماً، لِما أُوتيتْ من حسّ عادي مرهف.

[٢٩]

كان أحد الأهداف التي حدّدتها آنا لنفسها، وهي عائدة إلى روسيا، أن تلتقي ابنها. ومنذ اليوم الذي تركت فيه إيطاليا ظلّتْ فكرة هذا اللقاء تهزّها. وكانت كلما اقتربت من بطرسبرج تعاظمتْ في عينيها فرحةُ هذا الحدث وأهميّته. ولم تتساءل: كيف السبيل إلى ذلك. فقد بدا لها بسيطاً جداً وطبيعياً جداً أن ترى ابنها عندما تكون في المدينة نفسها التي هو فيها؛ لكنها رأتْ فجأة بجلاء، بعد عودتها إلى بطرسبرج، وضعَها الراهن في المجتمع وأدركتْ أن من الصعب عليها تأمين هذا اللقاء.

مضى عليها يومان وهي في بطرسبرج وفكرةُ ابنها لا تفارقها لحظةً، لكنها لم تره بعد. أتذهب رأساً إلى البيت حيث يمكنُ أن تلقى الكسي الكسندروفتش؟ أحسّتْ أنْ لا حقّ لها في ذلك. وقد يرفضون استقبالها، وقد يهينونها. أتكتبُ إلى زوجها، كانت لا تُطيق هذه الفكرة، ولا تستطيع أن تحتفظ بهدوئها إلا إذا كفّتْ عن التفكير في زوجها. أما رؤية ابنها في النزهة فلم يكن ليكفيها. لقد هيّأت نفسها طويلاً لهذا اللقاء، وكان في نفسها الكثير من الأشياء التي ينبغي أن تقولها له، واشتاقت أعظم الاشتياق إلى ضمّه وتقبيله. وكانت مربية سيريوجا العجوز قادرة على مساعدتها وإزجاء النصيحة لها، لكنها لم تكن في منزل الكسي الكسندروفتش، فقضت يومين في التردد والشك.

وعندما علمت آنا بالصداقة الحميمة بين الكسي الكسندروفتش والكونتيسة ليديا إيفانوفنا، قرّرت في اليوم الثالث أن تكتب إليها رسالة كلّفتها جهداً عظيماً، وقالت لها عن قصد: إن السماح لها برؤية ابنها يتوقّف على شهامة زوجها. وكانت تعلم أن زوجها لو اطلع على الرسالة فسوف يلبي لها طلبها، التزاماً منه بدوره، دور الشهامة.

حمل إليها الرسول الذي نقل الرسالةَ أقسى الأجوبة وأبعدها عن توقّعها حين قال لها: إن ليديا إيفانوفنا لم تشأ أن تردّ على رسالتها. لم تحسّ قط بالذل كما أحسّتْ به في هذه اللحظة التي أصعدت فيها الرسول إلى غرفتها، واستمعت إليه وهو يروي بالتفصيل كيف طُلب إليه الانتظار ليُقال له: ليس للرسالة من جواب.

أحست آنا بالإهانة لكنها أدركتْ أن الكونتيسة ليديا إيفانوفنا محقّةٌ من وجهة نظرها. وزاد من شدّة حزنها أنها وحيدة. فلم تستطع ولم تشأ أن تشارك فيه فرونسكي. كانت تعلم أنه وإن كان السبب الرئيسي لشقائها، فسوف يبدو له هذا اللقاء مع ابنها عديم الأهمية. وكانت تعلم أنه لن يقوى أبداً على فهم عمق آلامها:

وسوف يصطنع معها لهجةً بالغة البرودة لا تثير في نفسها سوى الكره. وهذا أشد ما كانت تخشاه في الدنيا، ولذلك أخفتْ عنه كل ما يتعلّق بابنها.

لزمتْ البيتَ طوال النهار باحثةً عن وسيلة ترى فيها ابنها، وقرّرت أخيراً الكتابة إلى زوجها. وكانت قد بدأت رسالتها عندما حُملت إليها رسالة ليديا إيفانوفنا. كان صمتُ الكونتيسة قد هدّأها وأخضعها، لكن رسالتها وما قرأته بين السطور غاظها غيظاً شديداً، وبدا لها هذا الخبثُ مُحنقاً إزاء حنانها المتقّد والمشروع نحو ابنها. حتى إنها ثارت وكفّتْ عن اتهام نفسها.

وأخذت تقول في نفسها: «يا لهذه البرودة، يا لهذا النفاق! كل ما يبغونه هو إهانتي وإيلام ابني! لن أرضخ لهم! أبداً! إنها أسوأ مني. أنا، على الأقل، لا أكذب». وقرّرت من فورها أن تقصد منذ اليوم التالي، وهو عيد ميلاد ابنها، إلى منزل زوجها، وأن ترشوَ الخدم إذا دعت الحاجةُ، على أن ترى ابنها بأي ثمن، وأن تضع حداً للكذب الهائل الذي يحيطون به الصبيَّ التعسَ.

ومضت إلى مخزن للعب، واشترت عدداً منها، ووضعت خطةً كاملة. فسوف تصل في الصباح نحو الساعة الثامنة: سيكون الكسي الكسندروفتش في فراشه حتماً. وسيكون معها مبلغ جاهز من المال للحاجب وللخادم حتى يَدعَاها تدخل، وسوف تقول، دون أن ترفع غلالة وجهها، إنها جاءت تحمل إلى سيريوجا تمنيات إشبينه وأنه قد أوصاها بوضع هذه اللعب قرب سريره. لكنها لم تُعدّ الكلمات التي ستقولها لابنها. وعبثاً شغلت فكرها بها، إذْ لم تجد ما تقوله.

وفي اليوم التالي، في الثامنة صباحاً، نزلت آنا وحدها من العربة ودقت على الجرس عند مدخل درج الضيوف في بيتها القديم.

ألقى كابيتونيتش نظرة خاطفة من النافذة، وهو في سترته وخفّه المطاطي، وشاهد امرأةً أمام الباب محتجبة بغلالة، وقال لمساعده:

ــ اذهبْ وانظرْ ماذا تريد. إنها سيّدة.

ولم يكد مساعده، وهو فتى لا تعرفه آنا، يفتح الباب حتى عبرتْ العتبةَ، وسحبتْ من كمها ورقة بثلاث روبلات ودسّتها بسرعة في يده. وقالت:

ــ سيريوجا. . . سيرج الكسيفتش.

وأرادت أن تمرّ. لكن الخادم أوقفها أمام الباب الزجاجي الثاني، بعد أن ألقى نظرة عجلى على ورقة الروبلات، وسألها:

ــ مَنْ تريدين أن تريْ؟

لم تَسمعْ ولم تجبْ

وعندما لاحظ كابيتونيتش اضطرابَ الغريبة، خرج بذاته من حجرته، وأدخلَ الزائرةَ وسألها عما تريد.

قالت:

ــ جئت أرى سيرج اليكسيفتش من قِبَل الأمير سكورودوموف.

أجاب الحاجب وهو يفحصها بإمعان:

ــ إنه لم ينهض بعد.

لم تكن آنا تظن أن غرفة الانتظار الباقية على حالها، في هذا البيت الذي عاشت فيه تسع سنوات، ستُحدث فيها مثل هذا الأثر. لقد استيقظت في نفسها الذكرياتُ السعيدة والمؤلمة، واحدةً بعد الأخرى. فنسيت، في مدى ثانية، لماذا جاءت إلى هنا.

قال كابيتونيتش وهو يخلع عنها معطفها:

ــ تفضلي وانتظري.

وفي هـذه اللحظـة، عرفها فانحنى انحناءَة شديدةً أمامها دون أن يفوه بكلمة.

وقال لها:

ــ هلا تفضلتِ بالدخول.

أرادتْ أن تقول شيئاً، لكن صوتها لم يسعفْها؛ وبعد نظرة مذنبة، وضارعة إلى الرجل العجوز، دلفتْ إلى الدرج بخطوات سريعة وخفيفة. فانطلق وراءها كابيتونيتش، محاولاً أن يلحق بها، وقد انحنى حتى صار اثنين، وأخذ خفّه يَنْشب في كل درجة:

ــ لعل المربّـي لم يلبس ثيابه بعد. سأعلن قدومَكِ.

ظلت آنا تصعد الدرج العائلي دون أن تفهم ما كان يقوله لها الشيخ.

قال الحاجب وهو يلهث:

ــ من هنا، إذا شئتِ، إلى اليسار. اعذري الفوضى، إنه الآن في القاعة الصغرى القديمة. عفواً، يا صاحبة السيادة، انتظري، سألقي نظرة سريعةً.

وتجاوزها ففتح باباً كبيراً وتوارى. وقفت آنا وانتظرتْ.

قال الحاجب وهو يظهر مرة أخرى على الباب:

ــ لقد استيقظ قبل هنيهة.

في اللحظة التي كان الحاجب يقول فيها ذلك، سمعت آنّا تثاؤباً صبيانياً، فعرفت صوتَ ابنها، ورأته بوضوح كما لو كان أمامها.

قالت:

ــ دعْني، دعْني أدخل، انصرْف!

ودخلت الغرفة. كان السريرُ إلى يمين الباب، وعلى السرير صبـيٌّ بقميص محلول الأزرار، حاني الجسم إلى الأمام. وقد انتهى من تثاؤبه وهو يتمطّى. وفي اللحظة التي كانت شفتاه تنغلقان فيها، رسمتا ابتسامةً وسَنْى، وتهالك الصبـيُّ بدعةٍ وغبطة على وسادته.

همست وهي تدنو منه دون ضوضاء:

ــ سيريوجا.

أثناء انفصالهما، وبفعل فيض الحب الذي أحسّت به في هذه الآونة الأخيرة، تصوّرته دائماً ابن أربع سنوات، وهو السنّ الذي أحبّته فيه أكثر من أي سن آخر. لم يكن الآن كما تركته، لقد كبر ونحف. يا إلـٰهي! ما أنحف وجهه! ما أقصر شعره! ما أطول ذراعيه! كم تغيّر منذ أن تركتْهُ! لكنه كان هو ذاته، بشكل رأسه، بشفتيه، بعنقه الدقيقة وكتفيه العريضتين.

وهمست من جديد في أذن الصبـيّ:

ـ سيريوجا!

نهض مستنداً إلى مرفقه، وأدارَ رأسَه الأشعث يمنةً ويسرة كأنه يبحث عن شخص ما، وفتح عينيه. نظر بضع ثوان نظرةً مستفهمةً إلى أمه الواقفة أمامه، وابتسم ابتسامة الانشداه، وترامى بين ذراعيّ أمه وهو يغلق من جديد جفونه المتثاقلة.

قالت وهي تلهث وتمسك الجسم الصغيرَ الممتلىء بين ذراعيها:

ـ سيريوجا! يا ولدي الحبيب!

قال وهو يضطرب بين ذراعي أمه حتى تحسّ مختلف أجزاء جسمه بضغطهما:

ـ ماما!

أرخى قائمةَ السرير وهو يزال مبتسماً، غافياً، مغلق العينين، ومرّر ذراعيه المدوّرتين حول كتفي أمه، وشدَّ نفسه إليها، وغمرها بهذا العطر الدافىء والعذب للأطفال النائمين، وفرك وجهه بكتفيها وعنقها.

وقال وهو يفتح عينيه:

ـ كنت واثقاً من ذلك. اليوم عيد ميلادي. كنتُ واثقاً من أنك ستأتين. سأنهض في الحال.

قال هذه الكلمات وأغفى.

التهمته آنا بعينيها؛ لقد رأت كم كبر وتغيَّر في غيابها. لقد تعرّفت، بعد لأيٍ، إلى هاتين الساقين العاريتين الطويلتين الآن، إلى هذين الخدين الناحلين، إلى هذا الشعر القصير المجعّد على قذاله الذي طالما قبّلته عليه. كانت تجسُّ هذا الجسد كله وهي عاجزةٌ عن الكلام: ذلك أن العبرات حنقتْها.

قال لها بعد أن استيقظ تماماً:

ــ لماذا تبكين، يا أمي؟

واستأنف بلهجة شاكية:

ــ يا أمي، لماذا تبكين؟

قالت وهي تغصّ بدموعها وتشيح بوجهها:

ــ لن أبكي بعدُ... بكيت من الفرح، فأنا لم أرك منذ زمن بعيد!

انتهى، انتهى الأمر.

وأضافت حين هدأ روعُها بعد صمتٍ:

ــ حان الوقتُ الآن لكي ترتدي ثيابك.

وجلست قرب السرير على كرسي حيث رتَّبتْ ثيابه.

ــ كيف ترتدي ثيابك بدوني؟ كيف...

أرادت أن تكلّمه بفرح وبساطة، لكنها لم تستطعْ وأشاحتْ بوجهها مرةً أخرى.

ــ لم أعد أغتسل بالماء البارد. منعني أبـي من ذلك. ألم تريْ بازيل لو كيتش؟ جلستِ على ثيابـي!

وانفجر سيريوجا ضاحكاً؟ فنظرتْ إليه وابتسمت.

وهتف سيريوجا وهو يرتمي من جديد بين ذراعيها:

ــ أمي، أمي الغالية!

فكأنه لم يدرك بوضوح ما حدث إلا في هذه اللحظة عندما شاهد ابتسامتَها. وقال لها وهو ينزع عنها قبّعتها:

ـ ليس بك حاجة إليها.

وكأنه وجدها كلها، عارية الرأس، فعاد إلى معانقتها.

ـ ماذا ظننتَ بـي؟ ألم تعتقد أنني مت؟

ـ أبداً، لا.

ـ حقاً، يا عزيزي؟

وردّد جملته المفضّلة:

ـ كنتُ واثقاً، كنتُ واثقاً!

وأمسك باليد التي كانت تداعب شعره وأسند راحتها على فمه وغطّاها بالقبل.

[٣٠]

في هذه الأثناء، كان بازيل لو كيتش يتساءل إن كان ينبغي له أن يدخل أو يُعلم الكسي الكسندروفتش: لقد عَلم قبل قليل أن هذه السيّدة هي أم الصبـي التي هجرت زوجَها والتي لم يكن يعرفها لأنه دخل منزل الكسي الكندروفتش بعد ذهابها. وبعد التفكير، صمّم على أن يتقيّد بواجبه تقيّداً دقيقاً وهو أن يُنهض سيرج في ساعة محددة لا أن يتساءل إن كانت التي في غرفة الصبـي أمه أو شخصاً آخر، فارتدى ثيابه واقترب من الباب وفتحه.

لكن مداعبات الأم والولد، وصوتهما وما كانا يقولانه حملاه على تغيير رأيه، فهزّ رأسه وأغلق الباب من جديد. وقال في نفسه وهو يتنحنح ويمسح عينيه: «سأنتظر أيضاً عشر دقائق».

وفي اللحظة نفسها، انتشرت بين الخدم حركةٌ نشطةٌ. إذ علموا جميعاً أن سيّدتهم حضرت، وأن كابيتونيتش تركها تدخل، وأنها الآن في غرفة سيرج، في حين أن سيّدهم سيمر بالغرفة في الساعة التاسعة، على عادته، وأدركوا أن من

الواجب الحيلولة دون لقاء الزوجين، وقد نزل كورني، الخادم، إلى حجرة الحاجب وعندما علم أن كابيتونيتش هو الذي استقبل آنا ورافقها، وبّخه توبيخاً شديداً، لزمَ الحاجبُ الصمتَ العنيد، لكن عندما قال له «كورني» إنه يستحقّ أن يُطرد، وثب كابيتونيتش، وقال لكورني وهو يحرك يديه في وجه كورني:

ـ وأنتَ، أما كنتَ تتركها تدخل؟ أكنتَ تقول لها بعد عشر سنوات من الخدمة التي لم تلقَ فيها سوى المعاملة الحسنة: «تفضّلي بالخروج»!. أنت داهيةٌ في السياسة، أليس كذلك؟ لكنك لا تنسى أن تسرق سيدك وتنهب له معاطف الفرو!

قال كورني باحتقار:

ـ سوقيّ!

والتفت إلى المربية التي كانت تدخل:

ـ احكمي أنت بنفسك، يا ماري إيفيموفنا. لقد تركها تدخل دون أن يخبر أحداً. وقد يخرج الكسي الكسندروفتش بين لحظة وأخرى ليذهب إلى غرفة الصبي

قالت المربية:

ـ آه! يا له من مأزق، يا له من مأزق! أوجدْ وسيلةً لاستبقاء سيدك، يا كورني فاسيليفتش، وسأجري أنا إلى هناك، أثناء هذا الوقت، وأخرجها. آه! يا له من مأزق!

عندما دخلت المربيةُ الغرفة، كان سيريوجا يروي لأمه كيف وقعا، ناديا وهو، حين انزلقا وهما يصعدان ويهبطان في مدينة الألعاب، وانقلبا ثلاث مرات متوالية. كانت آنا تصغي إلى جرس صوته وترى وجهه، وتشاهد تبدّل ملامحه، وتجسّ يده، لكنها لم تكن تعي ما يقول. كانت تفكر في شيء واحد: يجب أن تنصرف، يجب أن تتركه. لقد سمعت وقعَ خطوات بازيل لوكيتش الذي دنا من

الباب وهو يتنحنح، ثم سمعتْ وقع خطوات المربية العجوز، دون أن تقوى على الكلام أو النهوض.

قالت المربية وهي تدنو من آنا وتقبّل كتفيها ويديها:

ــ يا سيدتنا الغالية! أنتِ الفرحُ الذي أرسله اللّٰهُ لصغيرنا. ما تزالين كما كنتِ!

قالت آنا التي تمالكتْ نفسها لحظة:

ــ آه! يا عزيزتي! ما كنتُ أعلم أنك تسكنين في البيت.

ــ لستُ أسكنُ هنا، وأنا أعيش مع ابنتي، وإنما جئتْ لأبلغ سيريوجا تهانيّ، آنا اركاديفنا، يا سيدتي الغالية.

وفجأةً أغربت العجوز في البكاء وأخذت تلثم يد آنا.

كان سيريوجا يمسك أمّه بإحدى يديه وبالأخرى المربية، وهو مبتسم، ملتمع العينين، وقد أخذ يضربُ السجادةَ بقدميه العاريتين الصغيرتين. وملأه حنان المربية العجوز إزاء أمه بنشوةٍ عارمة.

بدأ الصبـي يقول:

ــ يا أمي! إنها تأتي غالباً لتراني وعندما تصل. . .

لكنه توقّف حين لاحظ أن مربيته تهمس بشيء في أذن أمه وأن وجه أمه عبّر عن الذعر وعن شعور قريب من الخجل الذي لا يلائمها.

اقتربت منه، وقالت:

ــ يا عزيزي!

لم تستطع أن تقول «الوداع»، لكنه فهم ذلك من تعبير وجهها. قالت وهي تستخدم إسماً كانت تطلقه عليه وهو صغير:

ــ يا عزيزي الصغير، يا عزيزي الصغير «كوتيك» الن تنساني؟ أنتَ. . .

ولم تستطع أن تنهي الجملة.

كم من كلمة خطرتْ لها فيما بعد وكان يمكن أن تقولها له! كانت الآن عاجزة عن التعبير. لكن سيريوجا فهم كل ما كانت تنوي أن تقوله. بل إنه فهم ما قالته مربيتُه العجوز بصوت خافت. وسمع قولها: «في الساعة التاسعة دائماً»، وأدرك أن الكلام يدور على أبيه، وأن والديه ينبغي ألا يتواجها. أمّا ما لم يدركه فهو الذعر والخجل اللذان رآهما على وجه أمه. لم تكنْ مذنبة، ومع ذلك انتابها الخوفُ من أبيه، والخجلُ. تمنّى أن يلقي عليها سؤالاً يبدّد شكوكه، لكنه لم يجرؤ: رأى أنها تتألم فأشفق عليها. وشدّ نفسه إليها بصمت، ثم قال بصوت منخفض:

ـ لا تذهبي الآن! لن يأتي في الحال.

أبعدتْه أمُّه لترى إن كان يفكّر فيما يقوله، وأدركتْ من تعبير وجهه المرتعب، أنه لَا يقْصد أباه فقط بل بدا كأنما يسألها عمّا ينبغي أن يكون رأيُه فيه فقالت:

ـ سيريوجا، يا حبيبي، يجب أن تحبّه. إنه خيرٌ مني، وأنا مذنبةٌ بحقّه. وعندما تكبر ستحكم.

هتف الطفل بأسًى من خلال دموعه:

ـ ليس هناك من هو خيرٌ منك.

وأمسك بأمه من كتفيها وضمّها إليه بكل قواه، شاداً بذراعيه اللتين ارتجفتا من الجهد.

قالت آنا:

ـ يا صغيري، يا صغيري الحلو!

وطفقتْ تبكي مثله، مثل الطفل.

في هذه اللحظة، فُتح الباب ودخل بازيل لوكيتش، وسُمعَ وقع خطواتٍ قرب الباب الآخر. فهمست العجوز برغبٍ: «لقد جاءَ»، وناولتْ آنا قبعتها.

ارتمى سيريوجا على سريره وأخذ ينتحب ووجههُ بين يديه. فأزاحتهما آنا لتقبّل مرةً أخرى خديه المبلّلين بالدموع، واتّجهت إلى الباب بخطوات سريعة. وكان الكسي الكسندروفتش مقبلاً صوبها، فلما شاهدها وقفَ وحنى رأسه مع أنها قالت قبل هنيهة إنه كان خيراً منها. فقد استحوذ عليها شعور بالاشمئزاز والكره والحسد (بصدد ابنها) من النظرة التي رمته بها ولفّتْ شخصه كله في أدنى تفاصيله. وأسبلتْ غلالتها بحركة سريعة، وحثت خطاها، وخرجت من الغرفة وهي تكاد تركض.

نسيت، من جراء عجلتها، اللعب التي اختارتها أمس بكثير من الحب والحزن: فحملتها معها إلى الفندق.

[٣١]

مع أن آنا رغبت بشوق هذا اللقاء وهيأت نفسها له منذ زمن طويل، فإنها لم تكن تعتقد أنه سيُسبّب لها مثل هذه الانفعالات العنيفة. فعندما عادت إلى جناحها المنعزل، لم تستطيع أن تدرك، أثناء لحظة، لماذا هي هنا. وقالت في نفسها: «نعم، انتهى كل شيء، وهأنذا الآن وحيدةٌ مرة أخرى». وجلست على مقعدٍ قرب المدفأة، دون أن ترفع قبّعتها.

أخذت تفكّر وعيناها شاخصتان إلى رقاص الساعة البرونزي الموضوع على الطاولة بين نافذتين.

دخلتْ عليها خادمتُها الفرنسية التي جاءت بها من الخارج وسألتها إن كانت ترغب في ارتداء ثيابها، فنظرت إليها آنابدهشة وقالت لها:

ــ فيما بعد.

وجاء خادم الفندق يعرض عليها الغذاء، فردّدت:

ــ فيما بعد.

وحملتْ إليها المرضعُ الإيطالية الطفلةَ التي ألبستْها ثيابها قبل هنية. قلبت الطفلة يديها الصغيرتين جاعلة راحتيهما إلى تحت، مبتسمةً بفمها الذي لم تطلع أسنانه بعد، وأخذت ــ كعادتها عندما تشاهد أمها ــ تخبط الهواءَ بهاتين اليدين، كما يحرّك السمك زعانفه، ضاربةً الثنايا المنشاة لتنورتها المقصّبة. كان من المستحيل ألاَّ تبتسم لها آنا وتقبّلها؛ وكان من المستحيل ألاَّ تمد لها إصبعها لتتعلق به وهي تصرخ وتنتفض بكل جسمها؛ وكان من المستحيل ألاَّ تقدّم لها شفتها لتأخذها في فمها بمثابة تقبيل لها. فعلت آنا ذلك كله: أخذت الطفلةَ بين ذراعيها، ورقّصتْها، وقبّلتها على وجنتيها النضرتين ومرفقيها الصغيرتين العاريين؛ لكنها أحسّتْ، عند مرأى هذه الطفلة، إحساساً أشدّ وضوحاً أن الشعور الذي يخالجها إزاءها لم يكن حباً إذا قورن بالشعور الذي يخالجها إزاء سيريوجا. كل شيء في هذه الطفلة كان مليحاً، لكنْ لا شيء من ذلك كان يمسُّ شغاف قلبها. لقد صبَّت على ابنها البكر الذي لم تحبّ أباه جميع طاقات حبها الظمىء؛ ووُلدت الصغيرةُ في أشقّ الظروف ومع ذلك فإنها لم تظفر بواحد من مائة من العناية التي أُغدقتْ على ابنها البكر. وفوق ذلك فالطفلة لم تكن سوى أمل، بينما صار سيريوجا رجلاً تقريباً؛ ذلك أن العواطف والأفكار أخذت تتصارع فيه، وبدأ يفهمها ويحبّها ويحكم عليها. كذلك كانت تفكّر وهي تتذكّر نظراته وأقوالَه. لكنها كانت منفصلةً عنه لا جسدياً فقط بل روحياً أيضاً، انفصالاً لا علاج له!

أعادت الطفلةَ إلى المرضع التي صرفتْها، وفتحت حليةً تحتوي على صورة سيريوجا عندما كان في عمر ابنتها تقريباً. ونهضت ونزعتْ قبْعتها، وتناولتْ عن المنضدة مجموعةَ صور فيها صور سيريوجا في مختلف سنيه. أرادت أن تقارن بين هذه الصور فسحبتها كلها من المجموعة إلاّ واحدةً منها هي أفضلها: كان يمتطي كرسيّاً، في قميص خارجي، مقطّب الحاجبين، مفتر الثغر. كان هذا التعبير أصدق تعبير عن شخصيته. وأرادت أن تنزع زوايا الصورة بيديها الناعمتين الحاذقتين

اللتين تشنّجت أصابعهما العصبية تشنّجاً خاصاً في هذه اللحظة؛ لكن الصورة أخذت تتمزّق ولم تستطع إخراجها. لم يكن معها مقطع للورق، فأخذت صورةً كانت بجانبها (صورة لفرونسكي وهو يلبس قبعة رخوة فوق شعره الطويل، والصورة تصوّرها في روما)، واستخدمتها لتسحب صورة ابنها، قالت وهي تنظر إلى فرونسكي «آه! ها هو ذا»، وتذكّرت فجأة ذاك الذي كان سبباً لآلامها. لم تفكر فيه مرةً واحدة طوال الصباح. لكنها عندما رأت هذا الوجه الحبيب الذي ينطق بالنبل والرجولة والذي تعرُفه جيداً، أحسست بغتةً نحوه بفيضٍ من الحبّ الغامر.

قالت في نفسها فجأةً وقد خامرها شعور من اللوم له، ناسيةً أنها هي نفسها التي كتمتْ عنه كل ما يتعلّق بابنها: «أين هو؟ ولماذا يتركني وحدي مع الآمي؟». وأرسلتْ من يرجوه للصعود رأساً إليها؛ وانتظرتْه منخوبةَ الفؤاد، وهي تتصوّر الكلمات التي ستستعملها لتخبره بكل شيء، وعبارات الحنان التي سيجدها ليعزّيها. ورجع الرسولُ لينبئَها أن لديه ضيفاً، وهو يسألها إن كانت تستطيع استقبال الأمير إياشفين الذي وصل لتوّه إلى بطرسبرج. وفكّرت في نفسها: «إنه لا يأتي وحده، وأنا لم أره منذ عشاء البارحة». وفجأةً، خطرت ببالها خاطرة غريبة: «وإذا كان فد كفَّ عن حبّها؟».

وحين استعرضتْ أحداث الأيام الأخيرة خيّل إليها أن كل شيء يؤيّد هذا الافتراضَ الغريب: فهو لم يتعشَّ البارحة في البيت، وقد أصرّ على أن يسكنا في بطرسبرج شقةً منفصلة، وهو الآن يأتي مع صاحب له وكأنه يخشى الخلوة بها.

«لكن ينبغي أن يقول لي ذلك: ينبغي أن أعلم به. وإذا كان صحيحاً فسوف أعلم ما الذي يترتّب علي فعله». قالت ذلك في نفسها دون أن تقوى على تصور موقفها الذي ستؤول إليه، إذاما تحقّقت من لا مبالاته بها. لقد تأكدت من أنه كفّ عن حبها، فبلغتْ حافة اليأس وأحسّت بتهيج غريب. واستدعت خادمتها ومضت إلى حجرة زينتها. وأسرفت في العناية بهندامها، وكأن فرونسكي الذي غدا خليّ

القلب مدعوٌّ إلى أن يُغرَمَ بها من جديد حين يرى ثوبها وزينة شعرها اللذين يلائمانها أحسن ملاءمة.

لم تكن جاهزةً بعد حين رنّ الجرسُ.

وعندما دخل قاعةَ الاستقبال كانت نظرةُ إياشفين لفرونسكي هي التي التقتها أولاً. كان فرونسكي ينظر إلى صور ابنها التي نسيتها على الطاولة ولم يستعجل في رفع عينيه إليها.

قالت وهي تضع يدها الصغيرة في اليد الضخمة التي مدّها إياشفين وقد تولّاه الارتباك (وهذا ما كان يتعارض تعارضاً غريباً مع قامته الجبّارة ووجهه الخشن):

ــ نحن متعارفان من قبل. التقينا في السباق، في السنة الفائتة.

وقالت وهي تسحب من فرونسكي بحركة رشيقة الصور التي كان يتأملها بينما كانت عيناها ترميانه بنظرة ذات معنى...

هاتِها.

وخاطبت إياشفين بابتسامة لطيفة:

ــ هل كان السباق ناجحاً، في هذا العام؟ أنا رأيتُ السباقَ في روما وفي كوردو. لكنك لا تحبّ الحياة في الخارج. إنني أعرفك وأعرف ذوقك، هذا مع أننا لم نلتقِ إلاّ نادراً.

قال إياشفين وهو يُعضعض شاربه الأيسر:

ــ إني أتألم لذلك، فذوقي سيء في معظم الأحيان.

بعد أن ظل إياشفين بعض الوقت يحادث آنا، سألها وقد رأى فرونسكي ينظر إلى ساعته، إن كنت تنوي البقاء طويلاً في بطرسبرج، وتناول قبعته بعد أن نهض وبسط شخصَه الهائل.

قالت وهي ترمي فرونسكي بنظرة شاردة:

ــ أظن أنني لن أبقى طويلاً.

قال إياشفين وهو يلتفت إلى فرونسكي:

ـ لن نلتقي بعد الآن، إذن؟ أين تتعشى؟

قالت آنا بلهجة حازمة:

ـ تعال وتعشّ عندي. العشاء هنا ليس رائعاً، لكنكما ستلتقيان على الأقل. فمن بين رفاق الكسي في الكتيبة، أنت الشخص الذي يؤثره.

قالت ذلك وبدت كأنها ساخطة على نفسها بسبب اضطرابها، وعلْتها الحمرةُ كما يصيبها في كل مرّة يتراءى وضعُها أمام شخص غريب.

قال إياشفين، وعلى شفتيه ابتسامةٌ أظهرتْ لفرونسكي أن آنا أعجبته كثيراً:

ـ سيسعدني ذلك.

انحنى إياشفين وخرج. وتأخر فرونسكي، فسألته:

ـ ستذهبُ أنتَ أيضاً؟

فأجاب:

ـ لقد تأخرتُ!

وصاح بإياشفين:

ـ اذهبْ، سألحق بك في الحال!

أمسكت بيده ونظرت إليه دون أن تغضّ بصرها، باحثةً عما يمكن أن تقوله لتسْتَبْقيه:

ـ انتظرْ، فلديّ ما أقولُه لك.

وأخذت يده القصيرة وشدّتها على خدها، وقالت:

ـ ألم أخطىء بدعوته إلى العشاء؟

قال وهو يبتسم ابتسامة هادئةً كشفت عن أسنانه المنتظمة، ويلثم يدها:

ـ بل أحسنتِ صنعاً!

قالت وهي تضغط يده بين يديها:

ـ الكسي، ألم تتغيّر إزائي. إنني مرهقةٌ هنا، يا الكسي. فمتى نسافر.

ـ عمّا قريب، عما قريب. لا تستطيعين أن تتصوري ما أثقل الحياة هنا عليّ أيضاً.

قال ذلك ومدّ إليها يده.

قالت بلهجة جريحة:

ـ طيب، امضِ، امضِ!

ونأتْ بعجلة.

[٣٢]

عندما رجع فرونسكي لم تكن آنا في الفندق. وقيل له إن سيّدةً زراتها بعد ذهابه بقليل وأنهما خرجتا معاً. إن هذه الطريقة في التغيّب دون أن تخبر إلى أين تذهب (لم تفعل قط هذا من قبل) وتعبير وجهها المهتاج والغريب في هذا الصباح، وتذكّره لتلك اللهجة العدائية التي انتزعت بها، في حضور إياشفين، صور ابنها من يديه، كل ذلك قاده إلى التفكير. فقرر أن يسألها تفسيراً لسلوكها. وانتظرها في جناحها. لكن آنا لم تعدْ وحدها: وإنما اصطحبت إحدى عمّاتها، وهي عانس طاعنة في السن، الأميرة أوبلونسكي، وكانت هذه هي السيدة التي جاءت صباحاً والتي معها ذهبتْ آنا لشراء بعض الحاجات. تظاهرت آنا بأنها لم تلاحظ ما نطق به وجه فرونسكي من همّ وتساؤل، وعدّدت له بابتهاج مشترياتها. رأى أن تغيّراً قد طرأ عليها: ففي عينيها الملتمعتين، تجلّى الاهتمام المركّز، وهما تحطّان عليه، وفي أحاديثها وحركاتها تراءت تلك الحيوية العصبيّة وتلك الرشاقة اللتان خَلَبتا لبّه في الأوقات الأولى من علاقتهما الحميمة واللتان غدتا تقلقانه وترعبانه الآن.

أُعِدت المائدةُ لأربعة أشخاص. وكان الجميع يوشكون أن ينتقلوا إلى قاعة الطعام عندما وصل توشكييفتش برسالة من الأميرة بيتسي إلى آنا. كانت الأميرة

بيتسي تعتذر لأنها لم تحضرْ لوداعها بسبب توعّكها. لكنها كانت ترجو آنا أن تحضر إلى بيتها بين الساعة السادسة والنصف والساعة التاسعة. رماها فرونسكي بنظرة سريعة ليفهمها أن هذه الساعة إنما اختيرتْ بحيث لا تصادف أحداً. بيد أن آنا بدتْ كأنها لم تلاحظ ذلك.

قالت وهي تبتسم ابتسامة لا تكاد تُلحظ:

ــ إني آسَفُ كثيراً. فأنا على موعد في هذا الوقت بالذات.

ــ ستتألم الأميرة.

ــ وأنا أيضاً.

قال توشكيفيتش:

ــ ستذهبين، من غير شك، لسماع المغنية «لاباتي»[1]؟

ــ «لاباتي»؟... هذه فكرة. سأذهب إذا أمكن أن أجد مقصورة.

فأجاب توشكيفيتش:

ــ سوف أؤمن لك مقصورة.

قالت آنا:

ــ سأكون ممتنّةً جداً، جداً. لكن ألاّ تريد أن تتعشّى معنا؟

هزّ فرونسكي كتفيه هزاً خفيفاً. لم يفهم قطعاً ما كانت تفعله آنا. لماذا جاءَتْ بهذه الأميرة العجوز، لماذا استَبْقتْ توشكيفيتش للعشاء، ثم لماذا أرادت أن ترسله ليستأجر لها مقصورة؟ أيمكنها، في مثل وضعها، أن تذهب إلى الأوبرا يوم الاشتراك، في الحين الذي سيكون فيها جميع من تعرفهم؟ نظر إليها بجدّ، لكنها ردّتْ عليه بهذه النظرة المتحدبة التي تجمع بين السخرية واليأس والتي لم يستطع أن يدرك دلالتها.

(١) «لاباتي»: مغنية إيطالية شهيرة، كثيراً ما جاءت إلى روسيا منذ ١٨٧٣.

أثناء العشاء، كانت آنا مرحةً مرحاً عدوانياً. وبدت كأنها تصطنع الغُنجَ مع توشكييفيتش ومع إياشفين معاً. ولما قاموا عن الطاولة، ذهب توشكييفيتش يبحث عن المقصورة ونزل إياشفين يدخّن مع فرونسكي. وبعد بضع لحظات صعد فرونسكي. وكانت آنا قد لبست ثوباً حريرياً، فاتحاً، مزخرفاً بالمخمل، مقوّر الصدر، طلبتْ أن يُصنَع في باريس؛ وأحاطت بوجهها تخريماتٌ ثمنيةٌ بيضاء أبرزت بخاصةٍ جمالها الباهر.

سألها وهو يحاول جاهداً ألاَّ ينظر إلى وجهها:

ــ أستذهبين حقاً إلى المسرح؟

قالت وقد خَدشَها أنْ يتحاشى نظرتَها:

ــ ولِمَ تسألُني عن ذلك سؤالَ الخائف؟ ولمَ لا أذهب، يا تُرى؟ بدت كأنها لم تفهم قَصْده.

قال وهو يقطّب بين حاجبيه:

ــ بالطبع، ليس هناك أي سبب!

أجابته وهي تتظاهر بأنها لم تشعر باللهجة الساخرة في جوابه، وتضعُ في يدها قفازاً طويلاً معطّراً:

ــ هذا بالضبط ما قلتُه.

قال وهو يحاول إيقاظها، تماماً كما فعل زوجُها قديماً:

ــ آنا، بالله عليك، ما بكِ؟

ــ لم أفهم عمّ تتحدّث.

ــ أتعلمين أنك لا تستطيعين الذهاب إلى هناك.

ــ لماذا؟ لن أكون وحدي. فالأميرة بربارة ذهبت لترتدي ثيابها. وسوف ترافقني.

فهزّ كتفيه، قانطاً، وبدأ يقول:

ـ ألاَّ تعلمين. . .

فردّتْ وهي تصيح تقريباً:

ـ ولا أريد أن أعلم! لا أريد. أنادمةٌ أنا على ما فعلتُ؟ لا، ولا، ولا. ولو كان عليَّ أن أبدأ من جديد لبدأت. الشيءُ الوحيد المهم لنا، لي ولك، هو أن يحبّ كلانا الآخر. أما ما سوى ذلك فلا يدخل في الحساب. لماذا نعيش هنا منفصلين، دون أن يرى أحدنا الآخر؟ لماذا لا أستطيع أن أذهب إلى هناك. إني أحبك، وكل الأشياء سواءٌ علي إذا لم تتغيّرْ أنت.

قالت هذه الجملة بالروسية، وفي عينيها بريق غريب، لم يفهمه.

وأضافت:

ـ لِمَ لا تنظرُ إليّ؟

رفع عينيه إليها، فرأى جمال وجهها وزينتها التي لاءمتها أحسن ملاءمة. لكن هذا الجمال وتلك الأناقة هما بالذات اللذان يغيظانه.

قال لها مرةً أخرى بالفرنسية وفي صوته نبرة من الحنان، وإن كان بارد النظرة:

ـ إن عاطفتي لا يمكن أن تتغيّر، تعلمين ذلك، لكني أرجوك، أتوسّل إليكِ ألاَّ تخرجي.

لم تسمعْ ما قال، لكنها رأت برودةَ نظرته فأجابته بلهجة حانقة:

ـ وأنا، أرجو أن تشرح لي لماذا ينبغي ألاّ أخرج.

ـ لأنه ذلك سيسبّب لكِ. . .

وتردّد.

ـ لست أفهمُ. إن إياشفين لا يثيرُ الشبهةَ والأميرة بربارة لا تقلّ عن غيرها. ها هي ذي.

لأول مرة، خامرَ فرونسكي شعورٌ بالضغينة قريبٌ من العداء، من جرّاء هذا الرفض المتعمّد لفهم موقفه. وقد رسخَ هذا الشعورَ كون فرونسكي لم يستطع أن يشرح لها سبب ضغينته. ولو شاء أن يصارحها بما يفكّر فيه لقالَ لها: «إن الظهور في المسرح بهذا الثوب ومع شخص كالأميرة، ليس اعترافاً بأنك امرأة ضالةٌ فحسب، بل إنه تحدّ للمجتمع، أي اعتزاله إلى الأبد».

لم يكن بوسعه أن يقول لها ذلك. وقال في نفسه «لكن، كيف لم يمكنها أن تفهم ذلك وما الذي يعتمل في نفسها»؟. وأحسّ أن تقديره لها تناقصَ في الحين الذي تعاظَم فيه شعورُه بجمالها.

عاد مهموماً إلى غرفته، وجلس قرب إياشفين الذي كان يشرب مزيجاً من الكونياك والماء الغازي، وساقاه ممدّدتان على كرسي، وطلب الشراب نفسه.

قال إياشفين بعد أن ألقى نظرة خاطفة على وجه صديقه المتجهّم:

ــ قلتَ إذن: إن جواد «لانكوفسكي» «فارهٌ». إنه جواد حسن وأنا أنصحك بشرائه. إن كفله شديد الانحدار، لكـن قوائمه ورأسه... هي خير ما يتمناه المرء.

أجاب فرونسكي:

ــ أظن أني سأشتريه.

كان الحديث عن الجياد يثير اهتمامه، لكنه لم يكن ينسى آنا دقيقة واحدة. كان يصيخ السمع تلقائياً إلى وقع الخطوات في الممرّ وينظر بين الحين والحين إلى الساعة على المدفأة.

وأنبأه أحد الخدم:

ــ تقول لك آنا أركادييفنا إنها ذاهبةٌ إلى المسرح.

قال له سيربوكوفسكوي:

صبّ إياشفين قدحاً صغيراً من الكونياك في كأس الماء الغازي وشربه ثم نهض وهو يزرّر سترته.

قال وهو يبتسم ابتسامة خفيّة تحت شاربيه ويظهر بهذه الابتسامة أنه يدرك سبب ضيق صدر فرونسكي دون أن يعلّق أهميةً على ذلك:

ـ سنذهبُ، إذن؟

أجاب فرونسكي بحزن:

ـ أنا لن أذهب!

ـ أما أنا فقد وعدتُ بالذهاب، ولا بد أن أذهب. وأضاف إياشفين وهو يخرج:

ـ إلى اللقاء. إذا غيّرتَ فكرتَكَ فتعال إلى المقاعد الأمامية في الصالة، وخذْ مقعد كراسنسكي.

ـ لا، فلديّ شغل.

فكّر إياشفين وهو يخرج من الفندق: «هموم الرجل مع زوجته كثيرة، ومع عشيقته أكثر».

بعد أن بقي فرونسكي وحده، نهض وأخذ يمشي جيئةً وذهاباً. قال في نفسه وهو يحاول أن يتصوّر المسرح: «ما هذا اليوم؟ أمسية الاشتراك الرابعة... سيكون أخي هناك مع زوجته، ومن المحتمل أن تكون أمي هناك أيضاً. أي كل بطرسبرج! الآن دخلتْ، وخلعتْ فروها، وها هي ذي عرضةٌ للأنظار جميعاً. توشكييفتش، إياشفين، الأميرة بربارة... وقال بحركة من الغضب: «حسناً! وأنا! أخائفٌ أنا أم أنني أعطيت توشكييفتش حقّ حمايتها؟ هذا غير معقول، غير معقول، أياً كانت الزاوية التي يُنظر منها... ولمَ تدفعُني إلى هذا الموقف؟. قال ذلك وضرب بيده المنضدة التي وضع عليها الماءُ الغازي وقنّينة الكونياك وكاد يوقعها، فأراد أن يلتقطها قبل أن تقع فقلبها، ومن الحنق ضرب الطاولة بقدمه؛ ثم قرع الجرس. وقال لخادمه الذي دخل الغرفة:

ــ إذا أردت أن تبقى في خدمتي فلا تُهمِلْ عملك. ينبغي ألا يحدث ذلك بعد الآن. ارفعْ هذا من وجهي.

أراد الخادم الذي أحس ببراءته أن يبرّىء نفسه، لكن النظرة التي حدجه بها سيّده أفهمتْه أن الصمتَ أوْلى به؛ فاعتذر وجثا على السجادة ليلتقط حطام الكؤوس والقناني.

ــ ليس هذا هو شغلك، ادع الخادم وهيّء لي ثيابـي.

دخل فرونسكي المسرح في الساعة الثامنةوالنصف. كان العرض في أوْجه. نَزَعَ عنه خادم المسرح العجوز معطف الفرو، وبعد أن عرفه دعاه «سيادتك». ثم قال له إنه لا حاجة إلى إعطائه رقماً وما عليه إلا أن يدعو «فيدور». لم يكن في الممرّ المضاء أحدٌ سوى خادم المسرح والخادميْن المكلفين بإدخال الوافدين، والمحمّلين بالفرو وهما يصغيان قرب الباب. ومن الباب وافت أنغام الجوقة وهي تصاحب برفقٍ وبتقطّع صوتَ امرأة تموج بوضوح جملةً موسيقية. وفُتح الباب لحظةً ليسمح بمرور الخادم، فطرقت سمع فرونسكي بجلاءٍ الجملة التي شارفتْ نهايتَها. وما لبث الباب أن أُغلق فغابتْ عنه نهاية الجملة، لكنه أدرك من أصوات التصفيق أن المقطوعة قد انتهت. وعندما دخل الصالة المتوهّجة بأضواء الثريات وقناديل الغاز البرونزية، كان الهُتاف ما يزال مستمراً. وعلى خشبة المسرح، كانت المغنية المكشوفة الكتفين والصدر والمغطاة بالمجوهرات، تحيّي الجمهور وهي تبتسم وتلم، بمساعدة المغنّي الذي كان يمسكها بيدها، باقاتٍ من الزهور قذفتْ بغير مهارة إلى ما فوق حافة خشبة المسرح. واقتربت من سيّد شعرُه لمّاع ومدهون ومفصول بمفرق في وسطه، كان يمد لها شيئاً من فوق حافة المسرح بذراعيه الطويلتين، بينما كان الجمهور في الصالة والمقاصير يضطرب، وينحني إلى الأمام، ويصرخ ويصفّق. وكان رئيس الجوفة على مقرئه يساعد في نقل الهدايا، ويصلحُ وضع عقدته. تقدّم فرونسكي إلى وسط الصالة وأخذ ينظر حوله. كان

اليوم أقل التفاتاً من ذي قبل إلى هذا الجو المألوف بمسرحه، وبضوضائه، وبهذا الجمع المبرقش الذي لا يثير الاهتمام من المشاهدين المتكدّسين في الصالة.

كان هناك في المقاصير السيدات أنفسهن وخلفهنّ الضباط أنفسهم؛ النساءُ المزركشات أنفسهن، البزاتُ الرسمية ذاتها، السُتر الرسمية ذاتها، الجمهور القذر نفسه في المقصورة العليا، ووسط هذا الجمهور كله في المقاصير وفي الصفوف الأولى، لم يكن هناك إلا حوالي أربعين شخصاً «حقيقياً» من المجتمع الراقي. وعلى هذه الواحة انصبّ انتباه فرونسكي في الحال، ومنهم اقترب.

كان الفصل قد انتهى في اللحظة التي دخل فيها، ولذلك قصد إلى الصف الأول، دون أن يلجّ مقصورةَ أخيه، ووقف قرب حافة المسرح إلى جانب سيربوكوفسكوي الذي شاهده من بعيد. وناداه مبتسماً وهو طاوٍ ركبته يضرب الحافة بعقبه.

لم يكن فرونسكي قد رأى آنا بعد؛ وكان يتحاشى النظر إلى الجهة التي كانت فيها. لكنه علم أين كانت من اتّجاه الأنظار. كان ينظر حوله من غير أن يبدو عليه ذلك، لكنه لم يكن يبحث عنها. كان يخشى أسوأ الأشياء. كان يبحث عن الكسي الكسندروفتش. ولحسن الحظ لم يكن حاضراً هذا المساء في المسرح.

قال له سيربوكوفسكوي:

ــ ما أقلّ ما بقي لك من هيئة الضابط. لكأنك دبلوماسي أو فنّان.

قال فرونسكي وهو يبتسم ويخرج منظاره ببطء:

ــ نعم، فعندما عدت إلى البيت لبست ثيابـي المدنيّة.

فأجابه وهو يلمس زخارف بزّته العسكرية:

ــ أعترف أنني أغبطك في ذلك. فعندما أعود من الخارج وأرتدي هذه آسفُ على حريتي.

أقلع سيربوكوفسكوي منذ زمن بعيد عن دفع فرونسكي في مهنته، لكنه ظلّ يحبه كما أحبّه في الماضي وظهر في هذه اللحظة شديد اللطف معه:

ـ من المؤسف أنك وصلتَ متأخراً عن الفصل الأول.

وجّه فرونسكي الذي كان يصغي بأذن شاردة، نظّارته إلى الشرفة الأولى وأجال نظره في المقاصير. وشاهد فجأة رأس آنا مزهواً، مبتسماً، أخّاذ الجمال في إطار التخريمات التي تحيط به، قرب سيدةٍ لفّت على رأسها عصابةً مكوّرة، وشيخٍ قصير أصلع يَطْرف بعينيه وقد بدا عليه الغضب خلف منظاره. كانت في المقصورة الخامسة، وقد انحرفتْ قليلاً وأخذتْ تحدّث إياشفين. ولقد ذكّره مفصلُ عنقها، وكتفاها العريضتان والجميلتان، والإشعاع المتوهج والمكبوت في عينيها ووجهها، ذكّره ذلك كله بها كما رآه في حفلة موسكو الراقصة، لكنه كان يحسّ الآن بجمالها إحساساً مختلفاً. ففي شعوره إزاءها لم يبق فيها شيء خفيَّ تكتنفه الأسرار، ولذلك فإن جمالها، وإن جذبه جذباً أعنف من ذي قبل، بدا له مهيناً تقريباً. لم تكن تنظر باتجاهه. لكن فرونسكي أحسّ أنها رأته.

وعندما حوّل منظاره إلى جهتها مرةً أخرى، لاحظ أن الأميرة بربارة كانت شديدة الحمرة، وأنها تضحك بتكلف، وأنها لاتني تنقّل بصرها نحو المقصورة المجاورة؛ وكانت آنا تضرب بمروحتها المطويّة حافة مقصورتها المخملية الحمراء، محدّقة في نقطة ما، قاصدةً بوضوح ألاّ ترى ما يجري بجنبها. أما إياشفين فقد عبّر وجهُه عمّا يعبّر عنه حين يخسر في القمار. كان يقطّب بين حاجبيه، ويُدخل أكثر فأكثر شاربه الأيسر في فمه، وينظر بمؤخر عينه إلى المقصورة المجاورة.

في هذه المقصورة، إلى يسار مقصورة آنا، كان آل كارتاسوف. كان فرونسكي يعرفهم ويعلم أن آنا كانت على علاقة بهم. كانت السيدة كارتاسوف، وهي امرأة قصيرة وهزيلة، واقفة في مقصورتها، وقد أدارت ظهرها لآنا وطفقت ترتدي معطفها الذي مدّه إليها زوجُها. كان وجهها ممتقعاً وغاضباً وهي تتحدث بهياج. وكان كارتاسوف، وهو رجلٌ ضخمٌ أصلع، يلقي بنظرة طوال الوقت نحو

آنا ويحاول جاهداً أن يهدّىء من ثائرة امرأته. وعندما خرجتْ هده، تريّث الزوج برهةً طويلة، وهو ظاهرُ الرغبة في تحيّتها. لكن آنا التي كانت تحاول تجاهله علانيةً، أشاحتْ بوجهها عنه وأخذت تحادث إياشفين الذي أكبّ عليها برأسه الحليق. وانصرف كارتاسوف دون أن يحيّيها وظلت المقصورة فارغة.

لم يفهم فرونسكي ما الذي حدث بالضبط بين آل كارتاسوف وآنا، لكنه فهم أنّ حادثاً مهيناً لآنا قد حدث. فهمَ ذلك مما رآه ولا سيّما من وجه آنا الذي كان يستجمع آخر قواه ــ كما كان يرى ــ ليتابع الدور الذي اضطلعتْ به حتى النهاية. ولقد أفلحتْ في المحافظة على موقفها، موقف اللامبالاة الكليّة. والذين لم يكونوا يعرفونها، ولم يكونوا يسمعون عبارات الشفقة والسخط والدهشة من صديقاتها القديمات أمام جرأتها على الظهور بين الناس علانيةً بطرحتها المخرّمة وبجمالها، هؤلاء كانوا يُعجبون برباطة جأش هذه المرأة وملاحتها، وما كان يخطر ببالهم أنها تعاني شعور الإنسان الذي يتعرّض للخزي حتى الموت.

أحسّ فرونسكي بقلق لا يطاق عندما علم بأن حادثاً قد وقع، وإن جهل قوامَه بالضبط، فقصد إلى مقصورة أخيه، على أمل أن يطّلع على شيء مما جرى. وبعد أن عبرَ الصالةَ عن قصدٍ في الجهة المقابلة لمقصورة آنا، اصطدم وهو يخرج بعقيده القديم الذي كان يحادث شخصين. وسمع فرونسكي اسمَ كارينين، ولاحظ أن العقيد سارع إلى دعوته بصوت عالٍ وهو يرمي محدّثيه بنظرة لها دلالتها.

قال العقيد:

ــ آه! فرونسكي! متى تأتي إلى الفوج؟ لن ندعك تذهب دون مأدبة. أنت منّا.

قال فرونسكي:

ــ ليس لديَّ وقت، آسف، مرة أخرى.

وصعد الدرج الذي يؤدي إلى مقصورة أخيه وهو يركض.

كانت الكونتيسة العجوز، أم فرونسكي، جالسةً في المقصورة بخصلها الصغيرة ذات اللون الفولاذي. أقبلت عليه إلى الممر فاريا والأميرة الشابة «سوروكين».

يعد أن أوصلت فاريا الأميرةَ سوروكين إلى أمها مدت يدَها إلى أخي زوجها وبدأت تحدّثه في الحال عمّا يعنيه. قلّما رأته في مثل هذا الاضطراب. بدأت تقول:

أرى أن ذلك جبنٌ وحقارة. ولم يكن للسيدة كارتاسوف الحق في أن تفعل ما فعلته. والسيدة كارينين. . .

ــ لكنْ ما الأمر؟ إني لا أدري شيئاً.

ــ كيف، ألم تسمعْ؟

ــ تعرفين جيداً أني آخر من يعلم ذلك.

ــ وهل هناك كائن أخبث من هذه السيدة «كارتاسوف»!

ــ لكنْ ماذا فعلتْ؟

ــ زوجي هو الذي روى لي ما جرى. . . لقد أهانت السيدة كارينين. وجّه زوجها الكلامَ إلى السيدة كارينين من مقصورة إلى أخرى فوبّخته زوجتُه ويبدو أنها جهرتْ بعبارة شائنة وانصرفت.

قالت الأميرة سوروكين وهي تطلّ برأسها من باب مقصورتها:

ــ أمك تناديك، يا كونت.

قالت له أمه بابتسامة ساخرة:

ــ إني أقضي حياتي في انتظارك. أنتَ محتجب.

ورأى ابنُها أنها لم تستطع أن تكبح ابتسامة الفرح.

ــ فأجاب ببرودة:

ــ مرحباً، يا أمي. سآتي لزيارتك.

قالت الأم عندما انصرفت الفتاة:

ــ ألن تذهب لمغازلة السيدة كارينين؟ إن لها جمالاً مثيراً. «لاباتي» تضيعُ أمامها.

قال وهو يقطّب بين حاجبيه:

ــ يا أمي، لقد رجوتك ألا تحدثيني عن ذلك.

ــ إني أقول ما يقولُه جميع الناس.

لم يجب فرونسكي بشيء، وبعد أن خاطب الأميرة سوروكين ببضع كلمات خرج. ولقي أخاه عند عتبة الباب.

قال له أخوه:

ــ آه! الكسي! يا للعار! هذه امرأة حمقاء، هذا كل شيء. . . كنت أنوي أن أذهب إلى مقصورتها. فلنذهبْ معاً.

لم يكن فرونسكي يصغي إليه. ونزل الدرجَ مسرعاً؛ أحسّ أن عليه أنْ يفعل شيئاً، دون أن يعلم ما هو. كان ساخطا لأن آنا ألجأته وألجأت نفسها إلى هذا الموقف الخاطىء، بيد أنه أشفق عليها من جرّاء الآلام التي تكابدها.

نزل إلى الصالة ومضى رأساً إلى مقصورة آنا. كان ستريموف واقفاً أمام المقصورة يحادث آنا. كان يقول:

ــ لم يبق هناك مغنون صادحون. «تحطّمَ القالبُ».

حيّا فرونسكي آنا ووقف ليسلّم على ستريموف.

قالت آنا لفرونسكي وهي ترميه بنظرة هازئة، فيما لاح له:

ــ وصلتَ متأخراً، كما يبدو لي، وفاتتْك أجمل قطعةٍ.

أجابها وهو ينظر إليها بصرامة:

ــ أنا حكَم سيءٌ.

فقالت مبتسمةً:

ــ أنت إذن مثل الأمير إياشفين الذي يرى أن «لاباتي» تعني بشدّة مفرطة.

وأضافت وهي تتناول بيدها الصغيرة الحبيسة في قفّازها الطويل البرنامجَ الذي مدّة إليها فرونسكي، وفجأةً، ارتعشَ في هذه اللحظة وجهُها. فنهضت وتراجعت إلى مؤخر المقصورة.

وحين لاحظ فرونسكي، في بداية الفصل التالي أن مقصورة آنا خالية، غادر القاعة ورجع إلى الفندق رغم احتجاجات المشاهدين الذين كانوا يُصغون بخشوع إلى اللحن البسيط في الأوبرا.

كانت آنا قد عادت، وكانتْ ما تزال ترتدي الثوب الذي كانت ترتديه في المسرح، عندما عاد فرونسكي، وقد جلست على أول مقعد لقيته، قرب الحائط، وهي شاخصة أمامها. رفعتْ عينيها إليه وما لبثت أن عادت إلى وضعها الأول.

قال:

ــ آنّا...

فصاحت وهي تنهض وقد غصّ صوتُها بدموع اليأس والحنق:

ــ أنتَ، أنتَ سببُ كل شيء.

ــ لقد رجوتُكِ، توسلتُ إليك ألا تذهبي إلى المسرح؛ كنت أعلم أنك ستلقين ما تكرهين...

فصرخت:

ــ ما أكره! فظيع! لن أنسى ذلك ما دمتُ حيّةً. قالت لي «إن من المخزي أن تكوني جالسةً بقربي».

فقال:

ــ هذه كلمات امرأة حمقاء، لكن كيف يجوز لكِ أن تخاطري، أن تتحدّي...

ـ أنني أكره هدوءَك. ما كان ينبغي لك أن تقودني إلى ذلك. ولو كنتَ تحبّني...

ـ آنا! ما دَخْلُ الحبّ هنا؟

قالت وهي تنظر إليه نظرة تنطق بالرعب:

ـ نعم، لو كنتَ تحبّني كما أحبّك، لو كنتَ تتألم مثلي...

كان يشفق عليها وكان مع ذلك يحقد عليها. فأكّد لها حبّه لأنه رأى أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتهدئتها، وامتنع عن لومها وإن لامها في قراره نفسه.

استساغت توكيدات الحب هذه، وهي توكيدات بدتْ لفرونسكي شديدة الابتذال حتى إنه خجل من الإعراب عنها، فهدأت شيئاً فشيئاً. وفي اليوم التالي سافرا إلى الريف وهما متصالحان.

* * *

الجزء السادس

[١]

كانت داريا الكسندروفنا تقضي الصيف مع أولادها في بوكروفسكوي، عند أختها، كيتي ليفين. لقد أخذ منزلها في أرغوشوفو يتهدم فأقنعها ليفين وزوجته بأن تأتي لتقيم معها. ووافق ستيڤان أركادييڤتش على هذا الحل كل الموافقة. وكان يقول: إنه يأسف كثيراً لأن عمله يمنعه من قضاء الصيف في الريف مع أسرته، وهو سعادته القصوى، وبقي في موسكو فلم يكن يأتي إلا في فترات متباعدة ليوم أو يومين. وفضلاً عن آل أوبلونسكي والأولاد والمربية، كان آل ليفين يستضيفون أيضاً الأميرة العجوز التي كانت ترى من واجبها أن تساعد ابنتها التي لا تجربة لها والتي هي في حالة «الحمل». ثم إن «فارنكا»، صديقة كيتي في الخارج، وفت بوعدها: وهو أن تزور كيتي عندما تتزوج، وكانت تقيم عند صديقتها. كان هؤلاء جميعاً من أقرباء وأصدقاء زوجة ليفين. مع أنه كان يحبهم جميعاً، فقد كان يأسف قليلاً على عالمه هو، وعاداته التي اكتسحها العنصر الـ«تشرباتزكي» كما كان يدعوهم في أعماقه. لم يكن عنده من قرابته في هذا الصيف سوى سيرج ايفانوفتش، بل إن هذا كان أقرب إلى آل كوزنتيشيف منه إلى آل ليفين بحيث أن روح آل ليفين قد اندحرت كلياً.

في هذا المنزل الذي ظل مقفراً زمناً طويلاً، اجتمع الآن عدد غفير من الناس حتى إن جميع الغرف كانت مشغولة وأن الأميرة العجوز كانت تعمد، في كل الأيام تقريباً، وعندما تجلس للطعام، إلى عد المدعوين، فترسل الثالث عشر، حفيدها أو حفيدتها، إلى المائدة الصغرى ليتناول طعامه عليها. وكانت كيتي التي تقوم

بواجباتها على أدق وجه تجد مشقة كبيرة في تأمين الدجاج والحبش والبط بالعدد الكافي لإشباع شهية ضيوفها التي شحذها الهواء الطلق.

كانت الأسرة تتعشى. فاعتزم أولاد دولي والمربية وفارنكا أن يذهبوا لجني الفطور بيد أن سيرج ايفانوفتش الذي كان الجميع يظهرون الاحترام لعقله وعلمه إلى حد الإجلال، أدهش الحاضرين حين شارك في الحديث عن الفطور.

قال وهو ينظر إلى فارنكا:

خذوني معكم. أحب أكثيراً جني الفطور. وأرى أنه عمل ممتع.

أجابت فارنكا وقد علتها الحمرة:

بكل سرور.

تبادلت كيتي هي ودولي نظرة خاطفة. فهذا العرض الذي يعرضه العالم المرهف العقل سيرج ايفانوفتش ليذهب إلى جمع الفطور مع فارنكا أكد بعض الافتراضات التي كانت تشغل كيتي كثيراً منذ بعض الوقت. وسارعت إلى مخاطبة أمها حتى لا تلحظ نظرتها.

بعد العشاء، جلس سيرج ايفانوفتش مع كأس الشاي قرب نافذة قاعة الاستقبال، وتابع الحديث الذي بدأه مع أخيه، ملقياً بين الحين والحين نظرة إلى الباب الذي سيخرج منه الأولاد. جلس ليفين على مُتكأ النافذة قرب أخيه.

وقفت كيتي بجنب زوجها وقد ظهر عليها أنها تنتظر نهاية الحديث الذي لم يكن يهمها، لتقول له شيئاً ما.

قال سيرج ايفانوفتش وهو يبتسم لكيتي وكان واضحاً أنه لا يعير الحديث كبير اهتمام:

ـ تغيرت كثيراً منذ أن تزوجت، لقد تحسنت، لكنك ما زلت متمسكاً بحبك للمخالفة.

قال ليفين لزوجته وهو يقدّم لها كرسياً وينظر إليها نظرة جادة:

ـ كاتيا، لا يحسن بك أن تقفي.

قال سيرج ايفانوفتش وقد رأى الأولاد يتراكضون إليه:

ـ لكني سأترك صحبتكم.

في المقدمة، جاءت تانيا التي كانت تجري إلى جانبهم بجوربيها المشدودين، وتهز بكل ما في ذراعها من قوة السلة وقبعة سيرج ايفانوفتش.

ركضت بجرأة إليه ومدت إليه قبعته وكأنها تريد أن تضعها على رأسه؛ ولطّفت ابتسامتها الرقيقة والوجلة من حرية حركتها، وأرسلت عيناها الجميلتان الشبيهتان بعيني أبيها بريقاً وهاجاً.

قالت وهي تضع له قبعته بعناية، بعد أن استشفّتْ من ابتسامته أن ذلك مسموحٌ:

ـ فارنكا آتيةٌ.

كانت فارنكا واقفة عند عتبة الباب، مرتدية ثوباً من الهندي الأصفر، وقد غطّت رأسها بخمار أبيض.

قال سيرج إيفانوفتش وهو يفرغ كأسه ويضع في جيبه منديله وعلبة السيجار:

ـ أنا آت، أنا آت، يا بربارة اندريفنا.

وقالت كيتي لزوجها عندما نهض سيرج ايفانوفتش:

ـ ما أروعها، أليس كذلك، فارنكا العزيزة؟ وما أجملها وأنبلَ جمالها!

وصاحت بفارنكا:

ـ فارنكا! اذهبوا إلى غابة الطاحونة، وسنلحق بكم.

قالت الأميرة التي دخلت مسرعة:

ـ أنت تنسين حتماً وضعك. لا يجب أن تصرخي هكذا.

عندما سمعت فارنكا صوت كيتي وتأنيب أمها، دنت من صديقتها بخطوات خفيفة. كانت الحيوية في حركاتها، والحمرة التي صبغت وجهها المنتعش، كان

ذلك كله يظهر أن قد أخذ يجري فيها شيءٌ غير عادي. كانت كيتي تعلم ما ذاك الشيء وتراقبه باهتمام. وإذا كانت قد نادت فارنكا في هذه اللحظة، فلكي تباركها ذهنياً قبل الحدث المهم الذي ينبغي أن يحدث ــ في تصور كيتي ــ بعد العشاء في الغابة.

قالت لها بصوت خافت وهي تعانقها:

ــ فارنكا، سأكون جدّ سعيدة إن حدث ما أريدُ.

قالت فارنكا لليفين وقد اضطربت وتظاهرت بأنها لم تسمع:

ــ أتأتي معنا؟

ــ نعم، لكن حتى البيدر فقط، فسوف أتوقف فيه.

قالت كيتي:

ــ وشُغلك هناك؟

ــ يجب أن أفحص العجلات الجديدة، وأتحقق من الحسابات. وأنت، إلى أين تذهبين؟

ــ إلى الشرفة.

[٢]

اجتمعت النساءُ كلهن على الشرفة. وكن يحببن، على العموم، أن يجلسنْ فيها بعد العشاء، أما هذا اليوم بالذات فقد كان هناك سبب خاص يدعوهن إلى التوجه إليها. ففضلاً عن إعداد اللفافات والصديريات التي كنّ يعكفن عليها جميعاً، عَمَدن اليوم إلى صناعة المربّى بطريقة جديدة تجهلها آغات ميخايلوفنا، دون إضافة الماء. وكيتي هي التي أدخلت هذه الطريقة الجديدة المستعملة في بيت أهلها. وكانت آغات ميخايلوفنا التي عُهدَ إليها بهذا العمل قد أضافت الماء إلى الفريز لأن ذلك كان يُفعل في منزل آل ليفين، ومن ثمّ فهو لا يمكن أن يكون

رديئاً، لكنها فوجئت بجرم العصيان المشهود وأخذت كيتي تصنع اليوم مربى توت العليق على مرأى من الجميع لإقناع آغات ميخايلوفنا بجودة الطريقة الجديدة.

كانت آغات ميخايلوفنا تحرّك بيديها الهزيلتين قدر المربى على موقد صغير وهي كسيرة النفس، بادية الغضب، مشعثة الشعر، مشمرة كميها حتى المرفقين، وكانت تنظر إلى التوت بوجه مكفهر، متمنية من كل قلبها أن يلزق التوت بقعر القدر. وأحست الأميرة أن غضب آغات ميخايلوفنا سيتجه إليها، باعتبارها المسؤولة الرئيسة، فحاولت جاهدة أن تتظاهر بأنها منهمكة وأنها لا تلقي بالاً إلى التوت؛ لكنها كانت تراقب الطبخة بمؤخر عينيها، وهي تتحدث عن أمور شتى.

قالت الأميرة وهي تتابع حديثاً بدأته:

ـ إني أشتري دائماً، أنا نفسي، أثواب خادماتي بسعر زهيد.

وأضافت مخاطبة آغات ميخايلوفنا:

ـ ألم يحن الوقت بعد لنزع الرغوة، يا عزيزتي؟

وقالت وهي تمسك بكيتي:

لا فائدة من فعلك هذا بنفسك، ثم إن الحرارة المفرطة تؤذيك.

قالت دولي:

ـ سأفعل أنا هذا.

ودنتْ من القدر، وأخذت تُحرك الملعقة بحذر في الشراب المزبد؛ ومن وقت إلى آخر كانت تسحب الملعقة وتخلصها من المادة الدبقة التي علقت بها وهي تطبطب على صحن مغطى برغوة صفراء وردية يسيل منها عصير بلون الدم. وقالت في نفسها وهي تفكر في الأولاد: «كم سيلتذون بها مع الشاي»، وتذكرت أنها، عندما كانت صغيرة، كانت تدهش دائماً حين ترى الكبار يأنفون من ألذ شيء: من الرغوة.

بيد أن كيتي عادت إلى الموضوع الذي استأثر باهتمامهن: أفضل الهدايا التي تُقدّم إلى الخدم:

ـ يقول ستيفا أن من الأفضل أن نعطيهم مالاً! لكن. . .

فهتفت بصوت واحد الأميرة وكيتي:

ـ المال! كلا، إنهم يتأثرون عندما نشتري لهم شيئاً.

قالت الأميرة:

ـ أنا، مثلاً، اشتريتُ في السنة الفائتة لماترينا سيمينوفنا ثوباً من «البوبلين».

ـ أذكر أنها ارتدته في عيد ميلادك.

ـ رسمُه رائع وبسيط، وهو يدل على ذوق سليم. ولو لم يكن لها، لاشتهيت أن أصنع لنفسي مثله. من نوع الذي ترتديه فارنكا.

إنه رائع، وهو لا يكلف شيئاً.

قالت دولي وهي تُسيل الشراب من الملعقة:

ـ أظن أنه جاهز الآن.

ـ عندما يتخثر فمعنى ذلك أنه نضج. دعيه يغلي قليلاً على النار الخفيفة، يا آغات ميخايلوفنا.

دمدمت آغات ميخايلوفنا.

آه! من هذا الذباب! ستكون النتيجة هي ذاتها.

قالت كيتي وهي تنظر إلى عصفور دوري حط على حافة الشرفة وأخذ ينقر حبّةً من التوت بعد أن قلبها:

ـ أوه! ما ألطفه! لا تُخوّفيه!

قالت لها أمها:

ـ نعم، لكن لا تقتربي كثيراً من الموقد.

قالت كيتي بالفرنسية، كما يفعلن دائماً عندما يردْن ألا تفهمهنّ آغات ميخايلوفنا.

ــ بمناسبة الكلام على فارنكا، أتعلمين، يا أمي، أنني أنتظر قراراً اليوم. تعرفين ما هو. كم سيفرحني ذلك.

قالت دولي:

ــ ما أبرعها من خطابة! وكم تتصرف بفطنة، ومهارة. . .

ــ لا، قولي لي، يا أمي، ما رأيك في ذلك.

ــ كيف تريدين أن يكون رأيي؟ فهو («هو» يعني سيرج ايفانوفتش) رجلٌ كان بإمكانه أن يطلب خير بنات روسيا للزواج؛ وحتى الآن، فأنا أعرف الكثيرات ممّن يردن الزواج به، مع أنه لم يعد فتياً. . . إنها حسنة جداً، لكن يمكنه. . .

قالت كيتي:

ــ أعلمي، يا أمي، أنني لا أحلم بأفضل من ذلك، لا له ولا لها. أولاً، إنها لطيفة. . .

وطوت إصبعاً من أصابعها.

فأيدتها دولي:

ــ إنها تعجبه كثيراً، هذا مؤكد.

ــ ثم إنه يشغل مركزاً كبيراً في المجتمع حتى إنه لا يحتاج لا إلى الثروة ولا إلى المعارف. إنه يحتاج فقط إلى امرأة صالحة، رائعة، وديعة.

فأضافت دولي:

ــ نعم، يستطيع المرء أن يكون مطمئناً معها:

ــ وأخيراً، يجب أن تحبه. . . وهي تحبه!. . كما سيكون ذلك رائعاً! أنا واثقة أنهما عندما يخرجان من الغابة سيكون كل شيء قد قُرِّر. سأرى ذلك في الحال من عيونهما. كم سيسرني ذلك! ما رأيك، يا دولي؟

قالت لها أمها:

ــ لكن لا تضطربـي. لا حاجة بك إلى الاضطراب.

ــ إني لم أضطرب، يا أمي. يخيل إلى أنه سيطلبها للزواج في هذا اليوم.

قالت دولي مبتسمة، ساهمة، وقد تذكّرت ماضيها مع ستيڤان أركادييڤتش.

ــ آه! ما أغرب الأمر عندما يطلبك الرجل للزواج... هناك حاجزٌ بينكما وفجأة ينهار الحاجز.

قالت كيتي بغتة:

ــ كيف طلبك أبـي للزواج، يا أمي؟

أجابت الأميرة واستضاء وجهها لهذه الذكرى:

ــ لم يجر شيء خارق للعادة، كان الأمر بسيطاً.

ــ نعم، لكن كيف؟ أكنتِ تحبينه قبل أن يُسمح لكِ بالكلام معه؟

كانت كيتي تشعر بمتعة خاصة لأنها استطاعت الآن أن تحدّث أمها ندّاً لندّ عن أخطر الموضوعات في حياة المرأة.

ــ بالتأكيد؛ كان يأتي لزيارتنا في الريف.

ــ لكن، كيف تقرَّر الأمر، يا أمي؟

ــ أتعتقدين أنكن اخترعتن شيئاً جديداً؟ الأمور تجري دائماً بالطريقة نفسها؛ تقرر الأمر بالنظرات، والابتسامات...

فأيدّتها دولي:

ــ ما أحسنَ ما قلتِه، يا أمي! صحيح: بالنظرات والابتسامات...

ــ لكن ما الكلمات التي قالها لكِ؟

ــ وأنتِ، ما الكلمات التي قالها لك كوستيا؟

قالت كيتي:

ــ كتبَ بالحوار... كان شيئاً غير عادي!... كم يبدو لي ذلك بعيداً!

واستغرقت النساءُ الثلاثُ في الأفكار نفسها. وكانت كيتي أول من قطع الصمت. لقد تذكّرت آخر شتاء قبل زواجها وتذكّرت افتتانها بفرونسكي. فقالت وقد عادت إلى هذا الموضوع بتداعي الأفكار:

ــ ليس هناك سوى عائق... هو حب فارنكا الأول...

وأضافت:

ــ كنتُ أنوي أن أحدّث سيرج ايفانوفتش، أن أهيّئه. فهؤلاء الرجال يغارون غيرة كريهة من ماضينا.

قالت دولي:

ــ ليسوا جميعاً كذلك. أنت تحكمين على ذلك من خلال زوجك. إنه ما يزال يتألم من ذكرى فرونسكي. أليس كذلك؟

أجابت كيتي وهي باسمة العينين، ساهمة الوجه:

ــ بلى.

تدّخلت الأميرةُ، وقد أحست أن إشرافها الأمومي هو الذي يُشار إليه بالاتهام:

ــ لكني لا أدري ما الذي يمكن أن يُقلقه من ماضيك. أن يكون فرونسكي قد غازلكِ؟ ذلك يقع للبنات جميعاً.

قالت كيتي وقد علتها الحمرة:

ــ إننا لا نتكلم على ذلك.

فتابعت أمُها:

ــ اسمحي لي، لقد منعتني أنت نفسك من أن أكلّم فرونسكي.

أتذكرين؟

قالت كيتي، ووجهها ينطق بالألم:

ــ آه! يا أمي!

ـ في الوقت الحاضر، لا يمكن كبح جماحكن. . . لكن علاقاتكن لا يمكن أن تتجاوز حداً معيناً. كنت سأحمله على البوح بحبه.

على كل حال، لا ينبغي لك أن تضطربي، يا ملاكي. تذكري ذلك، أرجوك، وابقي هادئة.

ـ لكني هادئةٌ تماماً، يا أمي.

قالت دولي:

ـ ما أسعد كيتي لأن آنا قد اعترضت سبيلها، وما أشقى آنا بذلك!

وتابعت كلامها وقد راعتها فكرتُها هذه:

ـ لقد تبادلتا دوريهما. كانت آنا في منتهى السعادة آنذاك، وكانت كيتي تظن نفسها شقية. الأمر على العكس تماماً، الآن! وكثيراً ما أفكر فيها.

قالت أمها التي لم تستطع أن تنسى أن كيتي تزوجت ليفين لا فرونسكي:

ـ أوتستحقين هذا العناء! أتفكرين في هذه المخلوقة الكريهة، في هذه المرأة التي لا قلب لها!

قالت كيتي وقد نفذ صبرها:

ـ دعيني من ذلك، إني لا أفكر فيه، ولا أريد أن أفكر فيه. . .

ورددت وهي تصيخ السمع إلى خطوات زوجها المألوفة على الشرفة:

ـ ولا أريد أن أفكّر فيه. . .

سألها ليفين حين ظهر على الشرفة:

ـ ما الذي لا تريدين أن تفكري فيه؟

فلم يجبه أحدٌ، ولم يُعد سؤاله.

قال وهو يلفهن بنظرة ممتعضة حين أدرك أنهن لن يتابعن حديثهن أمامه:

ـ آسف لكوني واغلاً على مملكتكن، مملكة النساء.

أحسّ، خلال لحظة، أنه يشاطر آغات ميخايلوفنا شعورها وهي ساخطة على صنع مربى توت العليق بدون ماء وعلى الخضوع لسيطرة آل تشرباتزكي. ومع ذلك، ابتسم واقترب من كيتي، فسألها وهو ينظر إليها وعلى وجهه ذلك التعبير الذي أخذ الجميع يصطنعونه حين يخاطبونها:

ــ مالكِ؟

ــ قالت كيتي وهي تبتسم:

ــ أنا بخير. وعجلاتك؟

ــ إنها تتسع لحمولة أكبر بثلاث مرات من العربات الأخرى. سنذهب لنأتي بالأولاد. أمرتُ أن تهيأ العربة.

قالت الأميرة بلهجة الملامة:

ــ ماذا، تريد أن تأخذ كيتي في عربة ذات مقاعد؟

ــ سنذهب ببطء، يا أميرة.

لم يكن ليفين يدعو الأميرة: «أمي» كما يفعل الأصهار عادة، وكانت هي تتأذى من ذلك. لكنه لم يكن يستطيع أن يفقد العزم على دعوتها: «أمي»، مع حبه واحترامه لها، لأنه اعتقد أنه يمتهن ذكرى أمه،

قالت كيتي:

ــ تعالي معنا، يا أمي.

ــ لا أريد أن أرى طيشكما.

ــ طيب، سأذهب مشياً، فالمشي ينفعني.

نهضت كيتي، واقتربت من زوجها، وأمسكت بيده.

قالت الأميرة:

ــ هذا ينفعك، إذا لم تتجاوزي الحدّ.

قال ليفين وهو يبتسم لآغات ميخايلوفنا ويرغب في إدخال السرور على نفسها:

ــ ما رأيك، يا آغات ميخايلوفنا، هل نضج المربى؟ هل للطريقة الجديدة حسناتها؟

ــ يبدو ذلك، لكنه قد طبخ أكثر من اللازم.

قالت كيتي التي أدركت رأساً نية زوجها وخاطبت العجوز بهذا القصد نفسه:

ــ لن يزيدهُ ذلك إلاَّ حسناً، على الأقل إنه لن يفسد: فقد ذاب الثلج وليس لدينا غرفة للتبريد.

وأضافت وهي تبتسم وتُصلح لها خمارها:

ــ أما موالحك فقد قالت أمي إنها لم تأكل قط ألذ منها.

قالت آغات ميخايلوفنا وهي تلقي عليها نظرة غضبـي:

ــ لا تواسيني، يا سيدتي، ولا يسرني شيء إلاَّ أن أراك «معه» فتأثرت كيتي من طريقتها الخشنة في استخدام الضمير.

ــ تعالي معنا للبحث عن الفطور، سوف تدليننا على أماكنها.

ابتسمت آغات ميخايلوفنا وهزّت رأسها كمن تقول: «سأكون مسرورة لو غضبتُ عليك، لكن ذلك مستحيل».

قالت الأميرة:

ــ اتّبعي نصيحتي: غطي كل وعاء بورقة مدوّرة مبلّلة بالروم، ولن تحتاجي إلى الثلج لتمنعي التعفن.

[٣]

سُرت كيتي سروراً شديداً بمناسبة الاختلاء بزوجها، لأنها لاحظت ظلاً من الحزن يمر على وجهه القويّ التعبير دائماً، عندما صعد إلى الشرفة وسألهن عمّ يتحدثن فلم يجبنه.

عندما تقدما على الطريق المغبرة التي تناثرت عليها السنابل وحبوب الشيلم، وغابا عن الناظر من البيت، اتكأت بقوة أكبر على ذراعه وشدت نفسها إليه. لقد نسي الانطباع المؤلم الذي لم يدم سوى دقيقة، وأحس الآن، وهو وحده معها، وفكرة حملها لا تفارقه لحظة، بسرور جديد عليه، نقي وخال من كل نزعة حسية، سرور بحضور الحبيبة. لم يكن لديه ما يقوله لها، لكنه كان يرغب في سماع جرس صوتها، والشعور بنظرتها التي تغيّرت منذ أن غدت حاملاً. وفي صوتها ونظرتها ظهرت تلك العذوبة والرزانة الخاصتان بأولئك الناس الذين يتركز انتباههم وحبهم في شيء واحد.

قال لها:

ـ ألا تخافين أن تتعبي؟ اتكئي علي أكثر.

ـ لا، أنا جدّ سعيدة بمناسبة الحديث إليك ونحن وحدنا. إني أحبّ أسرتي، لكني اعترف لك بأني آسفة على سهرات الشتاء.

قال لها وهو يشدّ على يدها:

ـ كان ذلك حسناً، آنذاك، لكنه الآن أحسن، كل شيء حسنٌ.

ـ أتدري عمّ كنا نتحدث عند وصولك؟

ـ عن المربي؟

ـ نعم، تحدّثنا أيضاً عن المربي، لكننا تحدّثنا بعد ذلك عن الطريقة التي يتم فيها طلب الزواج.

قال ليفين:

ـ آه!

قال ذلك وهو أكثر انتباهاً لجرس صوتها منه إلى الكلمات التي كانت تقولها، مع مراقبته للطريق التي يسيران عليها الآن في الغابة لكي يجنبها كل عثرة.

ـ وتحدثنا أيضاً عن سيرج ايفانوفتش وعن فارنكا. هل لاحظت؟...

وتابعت:

ـ إني أرغب في ذلك كثيراً. ما رأيك؟

ونظرت إليه في عينيه.

قال ليفين وهو يبتسم:

ـ لا أدري ما الرأي الصحيح فسيرج من هذه الناحية شديد الغرابة، بالنسبة إليّ لقد قلتُ لكِ، أليس كذلك...

ـ نعم، إنه كان مغرماً بتلك الفتاة التي ماتت...

ـ كنتُ ما أزال طفلاً، وسمعتُ بالخبر سماعاً. وأنا أتذكره في تلك الفترة كان فاتناً. ثم لاحظته، بعد ذلك، مع النساء، إنه كيّسٌ وبعض النساء يُعجبنه، لكن المرء يحسّ أنهن لا يوجَدن بالنسبة إليه كنساء.

ـ أما الآن، مع فارنكا... فيلوح لي أن هناك شيئاً...

ـ ربما... لكنْ يجب الاعتراف بأنه رجلٌ غريب الأطوار، مُدهش. إنه لا يحيا إلاّ بالفكر. وله نفس في غاية الصفاء والسمو.

ـ كيف؟ أتريد أن تقول: إن ذلك يغضّ منه؟

ـ لا، لكنه تعود ألاّ يحيا إلاّ بالفكر إلى الحد الذي لا يستطيع معه أن يتصالح مع الواقع، وفارنكا، بالرغم من كل شيء، هي الواقع.

لقد ألف ليفين التعبير عن فكرته بجرأة، دون أن يكلّف نفسه تغليفها بألفاظ دقيقة، لعلمه بأن امرأته تفهم عنه بالإشارة، في لحظات حنانها. والواقع أنها فهمت قصده:

ـ ومع ذلك فليس فيها الواقع نفسه الذي فيَّ أنا. وأنا واثقة من أنه لا يمكن أن يغرم بي وهي أيضاً فكر خالص.

ـ بلى، إنه يحبّك بما أنتِ عليه، ويسرّني دائماً أن أرى ذويَّ يحبّونك...

ـ إنه مليء بالطيبة تجاهك، لكن. . .

وأنهى ليفين كلامه الذي بدأه:

ـ بالطبع، الأمر معه غير الأمر مع نيقولا المسكين. . . لقد شُغفتُما أحدكما بالآخر. . . ولمَ لا أعترف بأني ألوم نفسي أحياناً: سأنتهي بأن أنساه. . . آه! كان رجلاً رهيباً ورائعاً. . .

وقال بعد صمت:

ـ نعم، عمّ كنّا نتحدّث؟

فترجمت فكرة زوجها إلى لغتها وقالت:

ـ أنت ترى أنه لا يمكن أن يحبّ؟

قال ليفن وهو يبتسم:

ـ لا، ليس الأمر كذلك، لكن ليس فيه ذلك الضعف الضروري. . . لقد غبطتُه دائماً، وحتى الآن وأنا سعيد، ما زلت أغبطه.

ـ أتغبطه على أنه لا يستطيع أن يحبّ؟

قال ليفين وهو ما يزال يبتسم:

ـ أغبطُه لأنه خيرٌ مني. إنه لا يحيا لذاته. كل حياته خاضعةٌ للواجب. ولذلك يمكنه أن يكون مطمئناً وراضياً.

قالت كيتي مع ابتسامة مغتصبة وهازئة:

ـ وأنت؟

لم يكن بوسعها أن تعثر على تداعي الأفكار الذي قادها إلى الابتسام، لكن آخر استنتاج لها كان أن زوجها حين يمجد أخاه ويغضّ من نفسه أمامه، لم يكن صادقاً وكانت كيتي تعلم أن نقصان الصدق هذا يأتيه من حبّه لأخيه، ومن تبكيت الضمير الذي يخامره لشعوره بفَرط السعادة، ولا سيما من تَوْقه المستمر إلى أن يُصبح أفضل: كانت تحبّ هذه الاستعدادات ولذلك ابتسمت.

وسألته وهي ما تزال تبتسم:

وأنت؟؟ أنت غيرُ راضٍ؟

إن شكّها في هذه النقطة خلبَ لبّه، فأراد لا شعورياً أن يسوقَها إلى التعبير عن أسباب شكّها، فقال:

ــ أنا سعيد، لكنني غير راضٍ عن نفسي.

ــ وهكذا، يمكن أن تكون غير راضٍ عندما تكون سعيداً؟

ــ كيف أقول لك؟ . . . لست أرغب في شيء، من أعماق قلبي، رغبتي في أن أجنبك العثرات. . .

وقال مقاطعاً نفسه لأنها قامت بحركة مفرطة السرعة وهي تتجاوز غصناً يسدّ الطريق:

ــ آه! ينبغي ألا تثبي هكذا!

وأضاف:

ــ لكنني عندما أقارن نفسي بالآخرين ولا سيّما بأخي، فإني أحسّ بالنقص.

استأنفت كيتي مع الابتسامة ذاتها:

ــ النقص في أي شيء؟ ألست تفكر، أنت أيضاً، في الناس؟ ومزارعك، واستثمارك، وكتابك؟

قال وهو يشدّ على يدها:

ــ لا، وأنا أحسّ بالنقص، ولا سيما الآن: وهذه غلطتُك، لكن الأمر ليس كما قلتِ. إني أفعل ما أفعله باستخفاف ليتني أستطيع أن أحب كل ذلك العمل كما أحبك. . . لكنني أقوم بذلك العمل كما يقوم بمهمة مفروضة.

فسألته كيتي:

ــ ما قولُك إذن بوالدي؟ أهو سيء لأنه لا يفعل شيئاً للمصلحة العامة؟

ـ هو؟ لا، لكن ينبغي أن يكون للمرء بساطة والدك ووضوحه وطيبته: وليس لدي شيء من ذلك. إني لا أفعل شيئاً وأتألم. كل ذلك بسببك. . .

وأضاف وهو يلقي على قامة زوجته نظرة فهمت معناها:

ـ فعندما لم تكوني هنا ولم يكن قد حدث «هذا» بعدُ، كنت أضع قواي كلها في عملي، أما الآن فأنا استحي من ذلك، ولا أقوى على شيء منه، ليس ذاك سوى مهمة مفروضة علي، سوى مظهر خادع. . .

قالت كيتي:

ـ لكن، أتقبل أن تبادل سيرج ايفانوفتش رأساً؟ أتقبل أن تقف نفسك على المصلحة العامة مثله وتقتصر على ذلك؟

قال ليفين:

ـ طبعاً لا، فأنا جدُّ سعيد إني لم أعد أفهم شيئاً.

وأضاف بعد صمت:

ـ وهكذا فأنت تعتقدين أنه سيتقدَّم بطلبه اليوم؟

ـ لستُ متأكدة من ذلك، لكنني أتمناه من كل قلبي. انتظرْ. وانحنت فقطفت من حافة الطريق أقحوانة، وأردفت، وهي تعطيه الزهرة:

ـ خذ عدَّ: سيتقدم بطلبه، لن يتقدم بطلبه. . .

قال ليفين وهو ينتزع الوريقات الضيقة المضلعة، واحدة بعد الأخرى:

ـ سيتقدَّم بطلبه، لن يتقدم بطلبه. . .

قالت كيتي التي تابعت حركاته بانفعال وأمسكت بيده:

ـ لا، لا! انتزعتَ اثنتين منها.

قال ليفين وهو يرفع وريقة شديدة الصغر، لم تبلغ بعد نهاية نموها:

ـ بلى فهذه الوريقة لا تحسب. هذه هي العربة ذات المقاعد. لقد أدركتنا.

صاحت الأميرة:

ـ ألم تتعبي، يا كيتي؟

ـ أبـداً.

ـ اصعدي، إذا شئتِ، فالجياد وديعة، ستسير على مهلٍ، بالطبع.

لكن، لم تكن هناك حاجة للصعود، لأنهم اقتربوا من الهدف، فتابع الجميع الطريق سيراً على الأقدام.

[٤]

كانت فارنكا جذابة جداً بخمارها الأبيض على شعرها الأسود، وقد أحاط بها الأولاد الذين كانت تعنى بهم ببهجة وادعة، وظهر عليها الانفعال من إمكان مكاشفة رجل يعجبها. وكان سيرج ايفانوفتش يسير بجانبها وقد دلهه الإعجاب بها، كان يتذكر، وهو ينظر إليها، كل ما قيل له عنها وكل ما عرفه عنها من أنباء مؤثرة، ويحس بحدة متزايدة أن هذا الشعور الذي يخامره نحوها إنما هو شعور خاص خامره قديماً مرة واحدة فقط أثناء شبابه الأول، وكان الفرح الذي يبعثه فيه حضور الفتاة يتعاظم من دقيقة إلى دقيقة. وحين وضع في سلتها فطراً ضخماً دقيق الساق متهدل الجوانب، وحين لاحظ حمرة وجهها المنفعل الذي بدا عليه الفرح والخوف في آن واحد، اضطرب وابتسم لها ابتسامة قالت الشيء الكثير.

قال في نفسه: «إذا كان الأمر كذلك وجب علي أن أفكر وأن اتخذ قراراً، وألا أنساق كالمراهقين لفتنة اللحظة».

وقال لها:

ـ سأذهب الآن للبحث عن الفطور منفرداً، وإلاَّ فلن يحسّ أحد بما عثرت عليه، وترك حافة الغابة التي كانوا يسيرون فيها على العشب القصير والحريري، بين أشجار البتولة المتناثرة، ودلف إلى الغابة التي كانت أشجار الحور وأجمات البندق فيها تلقي بقعاً رمادية وسوداء بين جذوع البتولة البيضاء. وحين ابتعد نحو

أربعين خطوة ودار حول غيضة من شجيرات المضاض في ذروة ازدهارها بأزهارها الحمراء القاتمة توقف كان الصمت مخيماً من حوله الذباب وحده كان يطن بلا كلل، قرب رؤوس أشجار البتولة التي وقف في ظلها، كأنه خلية النحل، ومن حين إلى آخر كانت تتناهى إليه أصوات الأولاد. وفجأة رن صوت فارنكا الخفيض قريباً منه، على أطراف الغابة، وهي تنادي غريشا، وإذا بابتسامة الفرح تبسط وجه سيرج ايفانوفتش. ولقد شعر بهذه الابتسامة فهز رأسه مستنكراً وأخرج سيجاراً وأشعله. ولم يفلح رأساً في إشعال عود الكبريت على جذع البتولة. كانت الأوراق الطرية للقشرة البيضاء تلتصق بالفوسفور فتنطفىء الشعلة. وأخيراً اشتعل أحد الأعواد وانتشر دخان سيجاره الأرج في سحائب رجراجة أمامه وفوق الدغل، تحت أغصان البتولة المتدلية. واستأنف سيرج ايفانوفتش سيره بخطوات بطيئة، متابعاً بعينه شريط الدخان، ومتأملاً في الحالة التي هو فيها.

فكر في نفسه: «لم لا؟ ليس ما بـي نزوة أو هوى، إنه انجذاب متبادل (استطيع القول إنه «متبادل»). ولسوف يخالف هذا الانجذاب نمط حياتي لو أحسست أنني حدت عن دربـي أو أهملتُ واجبـي... وليس الأمر كذلك. الاعتراض الوحيد هو أنني عندما فقدت ماري أقسمت أن أظل وفياً لذكراها. هذا كل ما أستطيع أن أعارض به عاطفتي... وهذا مهم». قال ذلك في نفسه وهو يحس أن هذا الاعتبار لا يملك أية أهمية بالنسبة إليه شخصياً، لكنه قد يشوه الفكرة التي كونها الناس عنه «وفيما عدا ذلك لن أجد ما يقال على هذه العاطفة مهما فتشت عن المطاعن. ولو كان العقل وحده هو الذي يقود اختياري لما وجدتُ خيراً منها!».

وعبثاً استعرض في ذاكرته النساء والبنات اللواتي عرفهن، إذ لم يجد واحدة منهن تجمع إلى هذا الحد بالذات المحاسن التي يتمنى وجودها في امرأته حين يحاكم بعقله محاكمة باردة. كانت تملك كل ملاحة الشباب ونضارته دون أن تكون

طفلة، وإذا كانت تحبه فعن شعور واع، كما ينبغي أن تحب المرأة: هذه هي النقطة الأولى ثانياً إنها لم تكن مجردة من الميل إلى المجتمع الراقي فحسب لكنها كانت تكره بوضوح هذا المجتمع، وهي تعرفه في الوقت نفسه وتحسن ممارسة العادات التي لا بد منها لشريكة حياتك ـ على حد تفكيره ـ وثالثاً: لقد كانت متدينة لا على طريقة الطفل، بلا تبصر، مثل كيتي، بل إن حياتها كانت ترتكز على قناعات دينية. وحتى في التفاصيل، كان سيرج ايفانوفتش يجد فيها كل ما يتمنى وجوده في المرأة: كانت فقيرة، بلا أسرة، ولن تفرض إذن على زوجها، مثل كيتي، وجود شيء كبير من الأهل وتأثيرهم. على العكس، ستكون مدينة في كل شيء لزوجها، وهو ما تمناه دائماً في حياته الزوجية المقبلة، وهذه الفتاة التي تجمع كل هذه المحاسن كانت تحبه. ومهما يكن طفيفاً ذلك الحب فلا يسعه إلّا أن يلاحظه وكان يحبها. الاعتبار الوحيد المزعج كان عمره. لكنه كان من سلالة قوية البنيان، ولم يكن في رأسه شعرة بيضاء، ولم يكن أحد يعطيه أربعين عاماً، وتذكر، من جهة أخرى: أن فارنكا قالت ذات يوم: إن الناس في روسيا وحدها يظنون أنهم صاروا شيوخاً في سن الخمسين، وأن الرجل في فرنسا يعتبر نفسه في شرخ الشباب وهو ابن خمسين ويعتبر نفسه شاباً فتياً وهو في الأربعين وعلام يدل عدد السنين إذا كان يحس بنفسه فتيّ القلب كما كان قبل عشرين سنة؟ أليس شباباً ذلك الشعور الذي خالجه الآن، وهو عائد إلى تخوم الغابة بطريق أخرى، حين شاهد في الضياء الباهر لأشعة الشمس المائلة شخص فارنكا الرشيق في ثوبها الأصفر وسلتها، متجاوزة بخطوة خفيفة جذع بتولة عتيقة، وانصهر هذا الانطباع مع مشهد حقل الشوفان المصفر، المغمور بأشعة الشمس المائلة، الذي أذهله بجماله، ومن وراء الحقل مع مشهد غابة عتيقة، مبقعة بالصفرة، غائبة في زرقة الآفاق البعيدة؟ انقبض قلبه من الفرح، واستبد به شعور من الحنان. أحس أن قراره قد اتخذ. أما فارنكا التي انحنت بحركة رشيقة

لتجني أحد الفطور فقد نهضت واستدارت. عند ذاك رمى سيرج ايفانوفتش سيجاره واتجه إليها بخطوات ثابتة.

[٥]

«يا بربارة اندريفنا، عندما كنت ما أزال شاباً، كونتُ لنفسي مثلاً أعلى عن المرأة التي سوف أحبها والتي سأسعد بأن تكون رفيقة لي. لقد عشت سنوات طويلة، وهأنذا أعثر الآن فيك على ما كنت أبحث عنه إني أحبك وأعرض عليك الزواج بـي».

هذا ما كان يقوله سيرج ايفانوفتش في نفسه وهو على عشر خطوات من فارنكا، وكانت فارنكا جاثية في العشب تحمي الفطور من غريشا، وتدعو ماشا الصغيرة، بصوتها الحلو ذي الجرس الخفيض:

ــ من هنا، من هنا، يا أولاد! ها هنا عدد كبير من الفطور! عندما شاهدت سيرج ايفانوفتش يقترب لم تنهض وظلت في وضعها نفسه، لكن كل شيء كان ينبىء كوزنيتشيف بأنها أحست باقترابه وخامرها الفرح.

سألته وهي تدير إليه وجهها الجميل الذي استنار بابتسامة وادعة:

ــ هل وجدتَ شيئاً؟

قال سيرج ايفانوفتش:

ــ لا شيء، وأنتِ؟

لم تجبه بشيء، وظلت مشغولة بالأولاد الذين أحاطوا بها.

قالت وهي تدل ماشا على فطر صغير برز من خلال كومة من الأعشاب الجافة دخلت قشة منها في قبعة الفطر الوردية والطرية:

ــ بقي فطرٌ هنا، بجانب الغضن.

نهضت فارنكا عندما جاءتها ماشا بالفطر الذي قطعته إلى قسمين، وأضافت وهي تلحق بسيرج ايفانوفتش:

ـ إن هذا يذكرني بطفولتي.

سارا بضع خطوات بصمت. رأت فارنكا أنه يرغب في الكلام، واستشفت الموضوع، فخارت قواها من الفرح والخوف. ومضيا بعيداً جداً بحيث لا يسمعهما أحد، لكنه لم يجمع أمره على الكلام. وآثرت فارنكا الصمت، فسوف يكون أسهل عليهما، أن يعربا عما يريدان أن يقولاه أحدهما للآخر بعد الصمت، منه بعد الحديث عن الفطور، لكنها قالت، على حين غرة وبالرغم من إرادتها:

ـ وإذن فأنت لم تعثر على شيء؟ على كل حال، الفطور أقل في وسط الغابة.

تنهد سيرج ايفانوفتش ولم يجب بشيء. لقد آذاه أن تعود بالحديث إلى الفطور، وأراد أن يرجع بها إلى الكلمات الأولى التي قالتها عن طفولتها، لكنه، بعد أن صمت لحظة، أبدى، بالرغم منه تقريباً، ملاحظة تتصل بجملتها الأخيرة:

ـ سمعت أننا نعثر على الفطور الكبيرة بخاصة عند حافة الغابة، لكني لا أستطيع تمييز الفطور بعضها من بعض.

مرت بضع دقائق أيضاً: لقد نأيا عن الأولاد وأصبحا وحدهما. وكان قلب فارنكا يدق بقوة شديدة حتى إنها كانت تسمع دقاته، وأحست أنها تحمر وتشحب ثم تحمر من جديد.

لأنْ تصبح امرأة رجل مثل كوزنيتشيف بعد حالتها مع السيدة «ستاهل»، بدا لها كأنه السعادة القصوى. ثم إنها شبه متأكدة من أنها تحبه. وسوف يتقرر ذلك في هذه اللحظة. لاح لها ذلك غريباً. لقد خافت مما ستقوله ومما لن تقوله في آن واحد.

يجب أن نتكاشف الآن أو لا نتكاشف أبداً: هذا ما كان يحس به سيرج ايفانوفتش. كان كل شيء: نظرتها، واحمرارها، وطرفها الغضيض، يظهر له انتظارها المؤلم. رأى سيرج ايفانوفتش ذلك فأشفق عليها. وأحس أن الامتناع عن

الكلام إهانة لها. فردد في ذهنه جميع الحجج التي تؤيد قراره، وردد الكلمات التي سيستخدمها للتقدم بطلبه؛ لكنه، بدلاً من ذلك كله، وبمداورة غير متوقعة من خياله، سألها:

ـ ما الفرق بين فطر الكمأة والفطر العادي؟

ارتعشت شفتا فارنكا عندما أجابت:

ـ قبعتهما واحدة وساقاهما مختلفان.

وما أن قيلت هذه الكلمات حتى أدركا كلاهما أن الأمر قد انتهى وأن ما كان ينبغي أن يقال لن يقال؛ وسكن انفعالهما الذي بلغ ذروته شيئاً فشيئاً.

قال سيرج ايفانوفتش بهدوء:

ـ ساق الفطر الأسمر يذكر بلحية عمرها يومان.

فأجابت فارنكا وهي تبتسم:

ـ نعم، هذا صحيح.

اتجها غريزياً وجهة أخرى، واقتربا من الأولاد. كانت فارنكا مغتمة وخجلة لكنها كانت تشعر، في الوقت نفسه، بالعزاء.

بينما كان سيرج ايفانوفتش عائداً إلى البيت، استعرض جميع حججه فاكتشف أن محاكمته كانت خاطئة. لم يكن بوسعه أن يتنكر لذكرى ماري.

صرح ليفين بتبرم وهو يقف أمام كيتي ليحميها من عصبة الأولاد الذين هرعوا إليها وهم يتصايحون من الفرح:

ـ مهلاً، يا أولاد، مهلاً.

وبعد الأولاد، خرج سيرج ايفانوفتش وفارنكا من الغابة. لم تكن كيتي بحاجة إلى أن تستفهم صديقتها: لقد أدركت، من تعبيرهما الهادىء. والمرتبك، أن خططها قد فشلت.

سألها زوجها وهما عائدان:

ـ ما النتيجة؟

قالت كيتي بلهجة وابتسامة تذكران بأبيها الذي كان يطيب لليفين أن يلقاه كثيراً فيها:

ـ لم تنجح الخطة.

ـ كيف؟

قالت كيتي وهي تمسك بيد زوجها.

ـ هكذا.

ورفعت يده إلى شفتيها ولامست بها فمها المغلق وأضافت:

ـ هكذا تقبل يد الأسقف.

فقال وهو يضحك:

ـ مع من لم تنجح؟

ـ مع الاثنين كليهما. هكذا ينبغي أن ينصرفا...

ـ انتبهي، فهناك فلاحون قادمون...

ـ لا، لم يروا شيئاً.

[٦]

بينما كان الأولاد يتناولون شايهم، كان الأشخاص الكبار مجتمعين على الشرفة يثرثرون، كأن لم يكن شيء. بيد أنهم كانوا يعلمون جميعاً علم اليقين، ولا سيما سيرج ايفانوفتش وفارنكا، أنه قد حدث حادث شديد الأهمية وإن كان سلبياً. كانا يشعران كلاهما بشعور شبيه بشعور طالب رسب في الامتحان وأجبر على البقاء في صفه أو طرد نهائياً من مدرسته. وكان جميع الحاضرين يتحدثون فيما بينهم بحيوية حول شتى الموضوعات، وقد استشفوا هم أيضاً أنه قد جرى شيءٌ ما. وأحس ليفين وكيتي هذا المساء بسعادة وحب بالغين، وخجلا من هذه السعادة التي

تحتوي في ذاتها على تلميح لا يستسيغه الذين تاقوا إلى مثل هذه السعادة دون أن يبلغوها.

قالت الأميرة العجوز:

ـ تذكروا ما أقوله لكم: لن يأتي الكسندر.

كانوا ينتظرون وصول ستيڤان أركادييڤتش هذا المساء، كما أن الأمير العجوز كتب أنه ربما أتى.

وتابعت الأميرة:

ـ وأنا أعرف لماذا، فهو يقول إنه ينبغي أن يترك العروسان وحدهما في الأوقات الأولى.

قالت كيتي:

ـ نعم، إن أبـي يهجرنا، ونحن لم نعد نراه أبداً. ثم إننا لم نعد عروسين، بل نحن زوجان قديمان.

قالت الأميرة مع تنهيدة كئيبة:

ـ إذا لم يأت فلا بد من أن أترككم، يا أولاد.

فهتفت بنتاها معاً.

ـ ماذا تقولين، يا أمي؟

ـ فكري قليلاً في مدى الضجر الذي سيصيبه! الآن، تعلمين... وفجأة أخذ صوت الأميرة العجوز يتهدج، فصمتت بنتاها وتبادلتا نظرة خاطفة. كانتا تقولان بهذه النظرة: «إن أمي تخلق لنفسها دائماً موضوعات للحزن». وغاب عنهما أنها، وإن كانت سعيدة بقرب ابنتها لاعتقادها بأنها ضرورية لها، لم تكن تفكر في نفسها وفي زوجها إلا بحزن لا حد له منذ أن زوجا آخر بناتهما ومنذ أن أقفر العش العائلي.

سألت كيتي الخادمة العجوز التي كانت تقف أمامها وقد بدا عليها الاستغراب، وتكلفت الوقار:

ـ أتحتاجين إلى شيء، آغات ميخايلوفنا؟

ـ جئت بصدد العشاء.

ممتاز. اذهبي وأمري بتهيئته، وأنا سأستمع إلى درس غريشا. فهو لم يفعل شيئاً اليوم.

قال ليفين وهو ينهض فجأة.

ـ الدرس علي! دعي ذلك. وأنا ذاهب.

كان على غريشا الذي دخل المعهد أن يكتب بعض وظائف العطلة. وكانت داريا الكسندروفنا التي تعلمت اللاتينية مع ابنها قد اتخذت لنفسها قاعدة منذ وصولها إلى منزل آل ليفين، وهي أن تراجع معه، ولو مرة في اليوم، أصعب دروس الحساب واللاتينية. لقد عرض ليفين أن يحل محلها» لكن دولي التي شهدت مراجعته مرة لاحظت أن ليفين لا يتبع طريقة مدرس غريشا. في موسكو. فقالت له بوضوح، وهي مرتبكة وحريصة على ألا تجرحه، أن من الواجب الرجوع إلى الكتاب كما يفعل المدرس وأنها أقدر على ذلك. وامتعض ليفين بسبب ذلك من ستيڤان أركادييڤتش الذي ترك لزوجته كلياً مهمة الإشراف على تعليم أولادها. مع أنها لا تفقه شيئاً من ذلك، كما امتعض من المدرسين الذين يعلمونهم هذا التعليم السيء؛ بيد أنه وعد أخت زوجته بالامتثال لرغباتها. وظل يعنى بغريشا مع الرجوع إلى الكتاب هذه المرة، لكنه كان يفعل ذلك على مضض، وينسى في الغالب ساعة الدرس. وهذا ما جرى اليوم.

قال لها:

ـ سأذهب إليه، يا دولي، فابقي. وسنسير وفق نظام الكتاب المدرسي. لكن متى جاء ستيفا إلى هنا فسوف نذهب إلى الصيد، وسوف نودّع الدروس آنذاك.

وذهب ليفين ليلقى غريشا.

كما أن فارنكا استبقت كيتي أيضاً. لقد استطاعت أن تكون نافعة حتى في بيت سعيد. حسن الترتيب مثل بيت آل ليفين. قالت لها:

ــ سآمر بإعداد العشاء، فابقي مطمئنة. ولحقت بآغات ميخايلوفنا.

قالت كيتي:

ــ شكراً، لكن من المؤكد أنهم لم يجدوا دجاجاً، ولا بد أن يأخذوا من دجاجنا.

وتوارت فارنكا بصحبة الخادمة العجوز.

قالت الأميرة:

ــ يا لها من فتاة فاتنة.

ــ إنها ليست فاتنة، يا أمي، إنها الفتنة بعينها.

قال سيرج ايفانوفتش وهو ظاهر الحرص على ألا يمد الحديث عن فارنكا.

ــ إذن أنتم تنتظرون ستيڤان أركادييڤتش اليوم؟

وأضاف مع ابتسامة ناعمة:

ــ من الصعب أن نجد عديلين متباينين مثلكما. أحدكما يقظ، يعيش في المجتمع كما يعيش السمك في الماء، والآخر، كوستيا، حرك، حساس لكل شيء، لكنه يسير إلى التلف أو يتخبط في المجتمع على غير هدى كالسمك خارج الماء.

قالت الأميرة مخاطبة سيرج ايفانوفتش:

ــ نعم، إنه طائش جداً. كنت أنوي بالضبط أن أطلب منك إفهامه أنها (وأشارت إلى كيتي) لا تستطيع أن تبقى هنا، ولا بد لها من الذهاب إلى موسكو. وهو يقول إنه سيأتي بطبيب. . .

قالت كيتي وقد ارتبكت حين رأت أمها تختار سيرج إيفانوفتش حكماً في هذه القضية:

ــ سيفعل كل ما تريدين، يا أمي.

وأثناء حديثهما سمعت حمحمة جياد وضوضاء عجلات على الحصى.

لم يتسن لدولي أن تستقبل زوجها إلا في الطابق الأرضي. ومن نافذة الحجرة التي يدرس فيها غريشا أطل ليفين جاراً معه تلميذه. صاح ليفين تحت الشرفة:

ــ هذا ستيفا!

وأضاف وقد أخذ يركض كالصبي لملاقاة العربة:

ــ لقد انتهينا، يا دولي، لا تقلقي!

وتلجلج غريشا وهو يثب في الممر ويردد أسماء الإشارة باللاتينية. صرخ ليفين وهو يقف في أول الممر:

ــ معه شخص؛ لا شك أنه عمي. كيتي لا تنزلي من السلم الصعب، دوري الدورة!

لكن ليفين أخطأ حين ظن الشخص الجالس في العربة عمه الأمير العجوز. لقد رأى قرب ستيڤان أركادييڤتش، عندما اقترب، فتى جميلاً، قوياً بقبعة ايكوسية لها شريطان من الخلف، لا الأمير. كان الفتى هو «فاسيا فيسلوفسكي» من أبناء عم آل تشرباتزكي، وهو فتى لامع في مجتمع بطرسبرج وموسكو، «فتى ساحر وصياد مشغوف بالصيد»، كما قدمه ستيڤان أركادييڤتش.

لم يضطرب فيسلوفسكي من الخيبة التي سببها إذ قدم مكان الأمير، وسلم بمرح على ليفين وذكره بأنهما اجتمعا من قبل، وحمل غريشا بين يديه من فوق كلب ستيڤان أركادييڤتش ــ وهو كلب صيد انكليزي قصير الشعر ــ وأجلسه في العربة.

لم يصعد ليفين لكنه تبعهم. لقد اعتاظ قليلاً حين رأى فاسيا فيسلوفسكي الذي كان برأيه زائداً عن اللزوم، يصل مكان الأمير العجوز الذي أخذ يتزايد حبه له. وبدا الضيف أثقل على نفسه، عندما اقترب ليفين من درج المدخل حيث تجمع جمهور مبتهج من الكبار والصغار، ورأى فيسلوفسكي يقبل بأناقة يد كيتي.

قال فاسيا فيسلوفسكي وهو يشد مجدداً على يد ليفين بقوة:

ـ نحن ابنا عمومة، زوجتك وأنا، وبيننا معرفة قديمة.

أما ستيڤان أركادييڤتش فلم يكد يتسنى له أن يسلم على الحاضرين حتى أخذ يكلم الجميع دفعة واحدة. والتفت إلى ليفين أولاً:

ـ قل لي، أعندكم صيد؟ لقد رسمنا، هو وأنا، أشد الخطط فتكاً. . .

كلا، يا أمي، لم يكونوا قد وصلوا إلى موسكو في هذه الفترة. . . آه! تانيا، أهذا أنت! . . . اذهب وابحث عن ذلك في مؤخرة العربة، أرجوك. . .

وقال لزوجته وهو يقبل يدها مرة أخرى ويستبقيها في يده مداعباً لها:

ـ لقد تجدد شبابك، يا صغيرتي دولي!

بيد أن ليفين الذي كان مبتهجاً قبل لحظة، أخذ ينظر إلى جميع الناس وهو ظاهر العبوس. بدا له كل شيء كريهاً.

وخطر بباله وهو يرى مظاهر حنان ستيڤان أركادييڤتش نحو زوجته: «مَنْ قبَل أمس بهاتين الشفتين؟». ونظر إلى دولي فساءَه منظرها أيضاً. وقال في نفسه: «لكنها لم تعد تؤمن بحبه. فلماذا سُرتْ هذا السرور؟ هذا مُنفِّر!

ونقل عينيه إلى الأميرة التي كانت جد مليحة قبل دقيقة، فبدت له جارحة طريقتها في استقبال فاسيا بشريطيه، وكأنها في بيتها.

وبدا له سيرج ايفانوفتش ذاته الذي خرج إلى مدخل الدرج، لا يُطاق بهذه الملاطفة الزائفة التي أظهرها لستيڤان أركادييڤتش، في الحين الذي كان ليفين يعلم فيه أن أخاه لا يحب ولا يقدر ستيڤان أركادييڤتش أوبلوتسكي.

واشمأز من فارنكا وهي تتصنع مظهر التقوى عندما قدم إليها هذا السيد في حين أنها لم تكن تفكر إلا في الزواج.

وأخيراً بلغ سخطه أقصاه عندما رأى كيتي تصطنع اللهجة المرحة لهذا السيد الذي بدا كمن يعتبر قدومه مسعداً له وللجميع، وشقت عليه بخاصة هذه الابتسامة ذات المعنى التي ردت بها على ابتسامته.

دخلوا البيت جميعاً، في ضجيج الأصوات؛ لكن ما أن استقر الجميع في أماكنهم، حتى انسل ليفين خارجاً.

رأت كيتي أن زوجها منزعج، فأرادت أن تكلمه على انفراد، لكنه عجل في الابتعاد قائلاً: إن هناك حاجة إليه في المكتب. منذ زمن طويل لم تبدُ له أعماله أشد أهمية مما هي عليه اليوم. وفكر في نفسه: «هم في عيد دائم أما أنا فإن عندي أعمالاً ملحة لا نستطيع العيش بدونها».

[٧]

لم يعد ليفين إلا عندما أرسلوا يطلبونه إلى العشاء. وعلى سطح الدرج كانت كيتي وآغات ميخايلوفنا تتشاوران بشأن المشروبات.

ــ لمَ كلّ هذه الجلبة؟ قدمي نبيذاً عادياً.

ــ لا، ستيفا لا يشرب خمراً عادياً. . . كوستيا، انتظر، ما بكَ؟

قالت ذلك وهي تستعجل لتلحق به؛ لكنه اتجه بخطوات واسعة إلى غرفة الطعام، دون أن ينتظرها، وما لبث أن شارك في حديث محتدم أداره فاسيا فيسلوفسكي وستيڤان أركادييڤتش.

قال ستيڤان أركادييڤتش:

ــ إذن، سنذهب إلى الصيد غداً؟

وقال فيسلوفسكي الذي غير كرسيه وجلس طاوياً تحته إحدى ساقيه الضخمتين:

ــ أوه! نعم، أرجوك.

تأمل ليفين بإمعان ساق ضيفه فيسلوفسكي، وقال له بذلك اللطف المتكلف الذي تعرفه كيتي جيداً والذي لا يناسبه أبداً:

ــ بكل رضا، هل طلعتم إلى الصيد، هذه السنة. لا أدري إن كنا سنجد دجاج الأرض، لكن هناك الكثير من طير الشنقب. ولا بد من الذهاب في وقت مبكر، أليس هذا منهكاً لكما؟ ألست متعباً، يا ستيفا؟

ــ أنا؟ أنا لا أعرف ما التعب. فلنهجر النومَ، إذا شئت، ولنخرج إلى التنزه!

فأيده فيلسوفسكي:

ــ وهو كذلك، لنهجر النوم! فكرةٌ ممتازةٌ!

قالت دولي بتلك السخرية الخفية التي أخذت تصطنعها دائماً في علاقاتها به:

ــ أوه! نحن قانعون أنك قادرٌ على البقاء واقفاً طوال الليل وعلى منع الآخرين من النوم، أما أنا فقد حان الوقت لأن آوي إلى غرفتي، ولن أتعشى.

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو يقوم ليجلس بجانبها على المائدة الكبرى حيث قدم الطعامُ:

ــ لا، انتظري قليلاً، يا صغيرتي دولي. فما زال لدي أشياء كثيرة يجب أن أقصها عليك.

ــ لا شيء مهم، من دون شك.

ــ بلى، أتعلمين أن فيسلوفسكي ذهب لرؤية آنا وفرونسكي؟ وسيعود إليهما؟ هما على سبعين فرسخاً فقط، من هنا. سأذهب لأراها. بكل تأكيد. تعال يا فيسلوفسكي.

اقترب فاسيا من السيدات وجلس بجانب كيتي.

قالت له داريا الكسندروفنا:

ـ آه! أخبرني، أرجوك، هل ذهبت لزيارتها؟ كيف حالها؟ ظل ليفين في الطرف الآخر من المائدة، ورأى، دون أن يكف عن الحديث مع الأميرة وفارنكا، أن حديثاً نشطاً وسرياً يجري بين ستيڤان أركادييڤتش ودولي وكيتي وفيسلوفسكي. وأكثر من ذلك، لقد لاحظ على وجه امرأته تعبيراً عن شعور جدي، بينما كانت عيناها مثبتتان في ذلك الوجه الجميل لفيسلوفسكي الذي كان يروي لها شيئاً بحيوية.

كان فاسيا يقول وهو يتحدث عن آنا وفرونسكي.

ـ الحياة حلوة في منزلهما. بالطبع، ليس لي أن أحكم، لكن المرء يحس في بيتهما أنه بين أهله.

ـ وماذا ينويان أن يفعلا؟

ـ أظنهما يريدان أن يقضيا الشتاء في موسكو.

سأل ستيڤان أركادييڤتش فاسيا:

ـ كم يكون جميلاً لو ذهبنا معاً لزيارتهما! متى تذهب؟

ـ سأقضي شهر تموز عندهما.

وقال ستيڤان أركادييڤتش وهو يلتفت إلى امرأته:

ـ وأنتِ، هل تذهبين؟

قالت دولي:

ـ كنتُ أنوي الذهاب منذ زمن طويل. سأذهب بدون شك. إنني أرثي لها وأنا أعرفها جيداً. إنها امرأة ساحرة. سأذهب إليها بعد سفرك. فهذا أفضل، وبذلك لا أضايق أحداً.

قال ستيڤان أركادييڤتش:

ـ ممتاز، وأنتِ، يا كيتي؟

فقالت كيتي التي علتها الحمرة، وألقت على زوجها نظرة سريعة:

ــ أنا؟ ولماذا أذهب إلى هناك؟

ــ سألها فيسلوفسكي:

ــ أتعرفين آنا أركادييفنا؟ إنها امرأة خلابة.

فأجابتها وقد ازدادت حمرة وجهها:

ــ نعم.

ونهضت ومضت إلى قرب زوجها، وقالت له:

ــ إذن، ستذهب غداً إلى الصيد.

أثناء هذه الدقائق القليلة، ولا سيما عندما رأى ليفين امرأته تعلوها الحمرة وهي تتحدث مع فيسلوفسكي، ما انفكت غيرته تتعاظم. وأضفى على كلماتها معنى خاصاً. ومهما بدا له غريباً فيما بعد التفكير في هذا الموضوع فقد تبين له بوضوح، في هذه اللحظة أنها إذا كانت تسأله إن كان سيذهب إلى الصيد فلكي تعلم فقط إن كان سيسر فاسيا فيسلوفسكي الذي كانت مغرمة به.

أجابها بصوت متكلف ترك في أذنها رنيناً مزعجاً:

ــ نعم، سأذهب إلى الصيد.

قالت كيتي:

ــ الأفضل أن تبقوا غداً. فلم تر دولي زوجها أبداً، وستذهبون بعد غد.

فترجم ليفين كلماتها على النحو التالي: «لا تفرقني عنه. لا فرق عندي إن ذهبت أنت، لكن دعني استمتع بصحبة هذا الشاب الفاتن، الجميل».

أجاب ليفين ببشاشة خاصة:

ــ آه! إذا شئتِ فسنبقى غداً.

في هذه الأثناء، نهض فاسيا الذي لم يتوهم الآلام التي يسببها وجوده على المائدة أن نهضت بعد كيتي، وسار في أثرها وهو يلاحقها بنظرته المداعبة.

رأى ليفين هذه النظرة فامتقع وجهه، وظل دقيقة لا يستطيع فيها التقاط أنفاسه. وقال في نفسه وهو يغلي من السخط: «كيف يسمح لنفسه أن ينظر هذه النظرة إلى امرأتي»!

قال فاسيا الذي عاد إلى الجلوس وهو يطوي ساقه، على عادته:

ــ إذن سنذهب غداً؟ أوه؟ أوه! نعم، أرجوك.

لم تعرف غيرة ليفين حدوداً. رأى نفسه في موقف الزوج المخدوع الذي لا تحتاج إليه زوجته وعشيقها فيه إلا من أجل راحتهما ومتعتهما... وبالرغم من ذلك، سأل فاسيا بلطف عن صيده، وعما إذا كان معه جزمة وبندقية، ووافق أن يطلع معه إلى الصيد، في اليوم التالي.

ولحسن الحظ وضعت الأميرة العجوز حداً لعذاب ليفين، حين نهضت ونصحت ابنتها أن تأوي إلى فراشها. لكن ذلك كان سبباً جديداً لإيلامه أيضاً. فعندما ودع فاسيا ربة البيت، أراد أن يقبل يدها من جديد، لكن كيتي احمرت وسحبت يدها منه قائلة له بوقاحة بريئة لامتها أمها عليها فيما بعد:

ــ إن هذا غير مقبول عندنا.

كانت مذنبة، في عيني ليفين، لأنها سمحت له بهذه الدالة، وزادت ذنبها خطورة حين أظهرت برعونة أن هذه التصرفات لا تعجبها.

قال ستيڤان اركادييڤتش الذي غدا، بعد عدة كؤوس من الخمر تناولها أثناء العشاء، أكثر الناس رقة وسحراً:

ــ ما أسخف فكرة النوم، في مثل هذا الوقت!

وقال وهو يري كيتي القمر خلف أشجار الزيزفون:

ــ انظري، يا كيتي، ما أجمله! فيسلوفسكي، هذا أوان الغناء تحت نافذة المحبوبة. أتعلمين أن له صوتاً جميلاً؛ غنينا معاً في الطريق. لقد حمل معه أغنيتين جديدتين. يستطيع أن يغنيهما مع بربارة اندريفنا.

عندما أوى كل واحد إلى فراشه، كان ستيڤان اركادييڤتش ما يزال يتشمى في الممر مع فيسلوفسكي، وسُمعا وهما يدندنان بالأغنية الجديدة.

كان ليفين جالساً على مقعده في غرفة زوجته، يصغي إلى هذه الأصوات، مقطب الحاجبين، ويواجه بصمته العنيد كيتي التي كانت تسأله عما به؛ لكن عندما سألته أخيراً بابتسامة وجلة إن كان قد رأى في فيسلوفسكي شيئاً لم يعجبه، انفجر وقال لها كل ما في قلبه؛ وكانت كلماته ذاتها تهينه ولاتني تلهب غيظه.

كان واقفاً أمام امرأته، وفي عينيه ضياءٌ رهيب، مقطب الحاجبين، ضاغطاً بيديه صدره وكأنه يحفز قواه كافة لكي يتمالك نفسه. ولو لم يعبر وجهه عن الألم الذي أثر فيها لبدا مكفهراً بل وشرساً. وكانت وجنتاه ترتجفان وصوته يتكسر:

ـ صدقيني أنني لا أشعر بالغيرة؛ فهذه الكلمة بشعة. لا يمكن أن أشعر بالغيرة ولا أن أصدق... لا أستطيع أن أقول لك ما يخامرني، لكنه شيء فظيع... لا أشعر بالغيرة، لكن بالإهانة، بالمذلة عندما يجرؤ إنسان على التفكير، عندما يجرؤ على النظر إليك بهاتين العينين...

قالت كيتي وهي تحاول جاهدة أن تتذكر بأقصى الدقة جميع التصرفات في هذه السهرة:

ـ لكنْ، بأي عينين؟

كانت ترى، في الحقيقة، أن فيسلوفسكي تجاوز الحد حين لحق بها إلى الطرف الآخر من الطاولة، لكنها لم تكن تجرؤ أن تصارح نفسها بذلك، فكيف تصارح به زوجها وتزيد من آلامه؛ قالت له:

ـ ما الذي يمكن أن يجذب الآخرين فيّ، وأنا في هذه الحالة؟

فصاح وهو يمسك رأسه بكلتا يديه:

ـ آه! ما كان ينبغي أن تقولي هذا!... وهكذا، لو كنتِ جذابة...

فقالت له وهي تنظر إليه بعطف:

ــ كلا، يا كوستيا، انتظر قليلاً، اصغ! كيف يجوز لك أن تفكر هذا التفكير! في حين لا يوجد أحدٌ في نظري سواك، لا أحد! أتريد ألا أرى أحداً بعد الآن؟

في اللحظة الأولى، جرحتها غيرة زوجها، ووجدت عليه لأنه يمنعها من أبرأ التسليات؛ أما الآن فهي تضحي بكل شيء عن رضاً من أجل راحته، لكي تخلصه من الألم الذي يعانيه.

وأردف بصوت خافت وبلهجة يائسة:

ــ افهمي ما في موقفي من بشاعة ومضحكات. فهو ضيفي، وفيما عدا رفعه للكلفة وطريقته في الجلوس على إحدى ساقيه، فلم يأتِ شيئاً غير لائق ألومه عليه. إنه يظن أن هذا هو خير أسلوب، ولذلك يجب أن أكون لطيفاً معه.

قالت كيتي وهي سعيدة، في أعماقها، بعنف هذا الحب الذي عبر عن نفسه بالغيرة، في هذه اللحظة:

ــ دعَك من هذا، كوستيا، إنك تبالغ.

ــ أرهب ما في الأمر أنك عندي الآن، كما كنتِ دائماً، شيء مقدس، وأننا سعيدان جداً، سعيدان في غاية السعادة، وأن هذا النذل يأتي على حين غرة... على كل حال، إنه ليس نذلاً، وليس لي الحق في إهانته. إني لا أهتم به. لكن سعادتي وسعادتك لا يجب أن تتعرضا للخطر...

قالت كيتي:

ــ اصغ، إنني أعرف من أين جاء ذلك كله.

ــ من أين، قولي لي؟

ــ رأيت سحنة وجهك عندما تحدّثنا أثناء العشاء.

فاقر ليفين قلقاً.

ــ صحيح، صحيح.

روت له ماذا تحدثوا. ولقد ضاق صدرها من الانفعال وهي تقص عليه قصتها. صمت ليفين تم تفحص وجهها الشاحب والخائف. وفجأة أمسك رأسه بيديه:

ـ كاتيا، إنني أعذبك! اغفري لي، يا صديقتي! إن هذا لمن الجنون! أنا المذنب الوحيد. أيجوز أن نعذب أنفسنا بمثل هذه الحماقات!

ـ أنك لتحزنني...

ـ أنا؟ لست سوى مجنون!... لكن ليس لي الحق في إيلامك. إنه لشيء رهيب أن نفكر في أن أي إنسان قد يدمر سعادتنا.

ـ أصحيح أن سلوكه كان جارحاً...

قال ليفين وهو يقبل يدها:

ـ لا، لا. سأستبقيه كل الصيف، وسأغمره بالملاطفة سترين. غداً... آه! صحيح، غداً سنذهب إلى الصيد.

[٨]

في اليوم التالي، لم تكن النساء قد نهضن بعد حين كانت عربتا الصيد: عربة ذات مقاعد وعربة بأربع عجلات، جاهزتين تنتظران أمام درج المدخل. أما «لاسكا» التي فهمت في الحال أنهم سيطلعون إلى الصيد فقد اتخذت مكانها قرب الحوذي على العربة ذات المقاعد بعد أن وثبت وعوت كما يحلو لها؛ كانت مضطربة تلقي نظرات مستنكرة على الباب الذي تأخر الصيادون عن الظهور فيه. كان أول الخارجين فاسيا فيسلوفسكي، وكان محتذياً جزمة جديدة، طويلة تصل إلى نصف فخذه، ومرتدياً سترة خضراء مشدودة على جسمه بحزام الخرطوش الجلدي الجديد، الطيب الرائحة. وكان يضع على رأسه قبعته ذات الشريطين ويحمل بيده بندقيته الانكليزية الجديدة بدون حمالة وبدون جعبة. وثبت «لاسكا»

عليه، واحتفت به، وسألته، على طريقتها، إن كان الآخرون سيخرجون قريباً، لكنها، حين لم تتلق جواباً، عادت إلى مركز انتظارها واستقرت فيه خافضة الرأس ناصبة أذنيها. وأخيراً فُتح الباب وهو يصر ليمر منه «كراك»، كلب الترصد الانكليزي الأبيض المبقع ببقع حمراء الذي كان يثب ويدور على نفسه في الفضاء، ثم ليمر منه صاحبه ستيڤان اركادييڤتش، وبندقيته بيده، وسيجاره في فمه.

انتهر برفق الكلب الذي حط قائمتيه على بطنه وصدره، وتشبث بجعبته:

ــ مهلاً، مهلاً، «كراك»!

كان يحتذي جزمةً رخوة فوق عصابة من نسيج الكتان، ويرتدي بنطالاً ممزقاً، ومعطفاً قصيراً، وقبعة منقوبة. لكن بندقيته كانت تحفة من أحدث طراز، وجعبته وحزام خرطوشه من الصنف الأول وإن كانا باليين.

لم يدرك فاسيا فيسلوفسكي من قبل أن أناقة الصياد الحقيقية تقوم على ارتدائه الملابس الرثة، مع امتلاكه عتاداً لا غبار عليه. لقد أدرك ذلك في هذا اليوم عندما رأى ستيڤان اركادييڤتش متألقاً في أطماره، وقد ظهر بمظهر السيد العظيم، المرح والمنعم، فقرر أنه سيتجهز مثله في المرة القادمة التي سيذهب فيها إلى الصيد. وسأله:

ــ ومضيفنا؟

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يبتسم:

ــ امرأته شابة.

ــ وفاتنة!

ــ لقد ارتدى ملابسه. فلا شك أنه عاد إليها.

أصاب ستيڤان أركادييڤتش. ذلك أن ليفين عاد وصعد إلى غرفة زوجته ليسألها مرة أخرى إن كانت تغفر له حماقة البارحة، وليرجوها بحق السماء أن تكون حذرة. ينبغي لها، على الخصوص، أن تكون بعيدة عن الأولاد، حتى

لا يدفعوها. ثم كان لا بد له من تلقي تأكيدها بأنها لن تحقد عليه لغيابه مدة يومين، ومن الطلب إليها أن ترسل في صباح غد رسولاً على جواد يحمل بطاقة، ولو من كلمتين، تخبره فيها عن صحتها.

كان يؤلم كيتي، كما هي حالها دائماً، فراقها لزوجها؛ لكنها عندما رأت نشاط ليفين الذي بدا أطول وأقوى بجزمة الصيد، وبقميصه الخارجي الأبيض، ورأت هذا النوع من الإشعاع الذي لا تفهمه والذي أضفاه عليه اندفاعه إلى الصيد، نسيت حزنها وودعته بفرح.

قال وهو يهرع إلى درج المدخل:

ـ المعذرة، يا سادة! هل وضع الغداء في العربة؟ لمَ ربط الجواد الكميت إلى اليمين؟ لا بأس، لا أهمية لذلك. «لاسكا»، هيا، نامي!

وقال لراعي البقر الذي جاء يسأله عن العجول:

ـ ضعها مع الثيران الفتية. المعذرة. وهذا لص آخر يصل.

ووثب ليفين من العربة ذات المقاعد التي كان قد جلس عليها ليلحق بمتعهد نجار كان يسير نحو درج المدخل وقياسه بيده:

ـ لم تأتِ أمس إلى المكتب، وستؤخرني الآن. ما الأمر؟

ـ مُرني بصنع دوّار آخل للسلم. يجب إضافة ثلاثة درجات. وهكذا يصير السلم في المستوى المطلوب تماماً، وسيكون أقل انحداراً.

أجاب ليفين بتبرم:

ـ كان ينبغي أن تصغي إلي. لقد امرتك أن نعتني بحافات الدرج. لا سبيل إلى إصلاحها الآن. فاعمل سلماً جديداً، كما قلتُ لك.

في الجناح الذي هو قيد البناء، أتلف المتعهد السلم حين فصل الأقواس وحدها دون أن يحسب أبعاد بئر السلم، بحيث أن الدرجات كانت شديدة الانحدار. وهو الآن يريد أن يحتفظ بالسلم ويضيف إليه ثلاث درجات.

ـ سيكون ذلك أفضل.

ـ لكن إلى أين ستفضي بدرجاتك الثلاث؟

قال النجار وهو يبتسم ابتسامة مزدرية:

ـ سيكون السلم بمستوى الأرض.

وأضاف بحركة مقنعة:

ـ سوف يبدأ من الأسفل ويصعد برفق ليصل إلى المكان المطلوب.

ـ لكن الدرجات الثلاث ستزيد من علوه... فإلى أين سيصل؟ فردد النجار بعناد:

ـ بما أنه سيبدأ من الأسفل، فسوف يصل إلى المستوى المطلوب.

ـ نعم، في الجدار، تحت السقف!

ـ بل بما أنه سيبدأ من الأسفل فسوف يصعد برفق لينتهي في المكان المطلوب...

أخرج ليفين سيخ البندقية وأخذ يرسم له سلماً على تراب الطريق.

ـ فهمت؟

قال النجار الذي استضاءت نظرته، لقد فهم أخيراً:

ـ بأمرك. لا بد من صنع سلم آخر، إذن؟

فصاح ليفين وهو يجلس في العربة ذات المقاعد:

ـ أفعلْ كما قلتُ لك. امضوا! امسك الكلبين، يا فيليب!

شعر ليفين الآن وهو يترك خلفه جميع الهموم المنزلية بشعور من الفرح بالحياة والانتظار، شعور بلغ من العنف حداً لم يشته معه الكلام. وفوق ذلك، كان مفعماً بذلك الانفعال الكثيف الذي يخامر كل صياد وهو يقترب من موضع الصيد. المسائل الوحيدة التي أخذت تشغله الآن، هي أن يعلم إن كانوا سيجدون صيداً في مستنقعات كولبنسكوي، وإن كانت «لاسكا» تحتمل المقارنة مع «كراك»، وإن كان

سيحسن هو القيام بدوره اليوم، على أن يكون في المستوى اللائق أمام هذا الغريب، وعلى ألا يسبقه أوبلونسكي! هذه هي الأفكار التي تواردت عليه.

كان أوبلونسكي يشعر بالشعور نفسه ولا يجد ميلاً إلى الكلام. فاسيا فيسلوفسكي هـو وحده الذي أخذ يتكلم بدون انقطاع. لقد استحى ليفين الآن، وهو يسمعه، حين تذكر إلى أي حد كان ظالماً له البارحة. كان فاسيا، في الحقيقة، فتى ممتازاً، بسيطاً، ودوداً، ومليئاً بالاندفاع ولو أن ليفين عرفه قبل زواجه لصادقه. كـان طيشه واستهتاره وتأنقه في ملبسه، كـان ذلـك كله يصدم ليفين قليلاً. فكأنما كان ينسب لنفسه أهمية عظمى لأن له أظافر طويلة، وقبعة ايكوسية، وأشياء أخرى مشابهة؛ لكن مودته وتصرفاته الأنيقة كانت تنسي ذلك. وكان يعجب ليفين بتربيته الممتازة، ولهجته الانكليزية والفرنسية السليمة، ولأنه من وسطه.

أُعجب فاسيا بالجواد الأيسر وهو جواد من الدون. ولم يكف عن التعجب أمام هذا الجواد، ويقول:

ــ ما أروع الخبّ على مثل هذا الجواد في السهوب! ألا ترى ذلك؟

لقد كوّن عن الجري في السهوب صورة متوحشة وشاعرية لا تتوافق مع شيء؛ لكن سذاجته، مضافة إلى جماله وابتسامته ورشاقة حركاته، كانت ساحرة. أكان ذلك لأنه جذاب أم لأن ليفين كان يحاول جاهداً ألا يرى فيه سوى المحاسن ليكفّر عن غلطة البارحة؟ لكن من المؤكد أن ليفين كان يشعر بالراحة وهو في صحبة هذا الفتى.

بعد ثلاثة فراسخ، فطن فيسلوفسكي فجأة لغياب علبة سيجاره ومحفظته. ولم يكن يعلم إن كان قد أضاعهما أو إن كان قد نسيهما على طاولة غرفته. كان في المحفظة ثلاثمائة وسبعون روبلاً. ولذلك لم يكن من الجائز تركه مرمياً.

قال وهو يستعد للنزول من العربة:

ـ أتعلم، يا ليفين، سأجري إلى المنزل على الجواد الأيسر! سيكون ذلك ممتعاً! ما رأيك؟

أجاب ليفين وقد قدر أن وزن فاسيا لا يقل عن خمسة وتسعين كيلو غراماً:

ـ كلا، لماذا؟ سأرسل الحوذي.

مضى الحوذي على أحد الجياد وساق ليفين نفسه العربة بالجوادين الباقيين.

[٩]

قال ستيڤان أركادييڤتش:

ـ حسناً! قلْ لنا ما خطة حملتك؟ اشرحها لنا بالتفصيل.

ـ خطتي هي التالية: سنذهب الآن إلى غفوز دييفو. ففي هذه الجهة من القرية مستنقع يكثر فيه دجاج الأرض، وفي الجهة الأخرى مستنقع رائع أيضاً يكثر فيه الشنقب ويرتاده دجاج الأرض أيضاً. الجوحار، وسنصل عند المساء (المستنقع على عشرين فرسخاً) ونبدأ صيدنا في الليل؛ سوف ننام هناك وغداً سنصل إلى المستنقعات الكبرى.

ـ وفي الطريق، أليس هناك شيء؟

ـ بلى، لكن ذلك يؤخرنا، والجو مفرط الحرارة. هناك موضعان مدهشان لكننا قد لا نجد شيئاً فيهما.

كان ليفين يشتهي أن يقصد إلى هذين الموضعين لكنهما كانا بجوار منزله، وهو يستطيع أن يذهب إليهما بسهولة، ومن جهة أخرى فإن المساحة فيهما محدودة تضيق بثلاثة بنادق، ولذلك فقد شوه الحقيقة حين زعم أنهم قد لا يجدون فيهما شيئاً. أراد ليفين أن يتابع طريقه لكن عين ستيڤان أركادييڤتش المتمرسة تبينت في الحال المستنقع الصغير المرئي في الطريق، فقال وهو يشير إلى المكان:

ـ ألا ننزل؟

ورجاه فيسلوفسكي بدوره:

ـ أوه! بلى، ليفين، أرجوك! هذا رائع!

ولم يستطع ليفين أن يرفض.

لم يكادوا يتوقفون حتى أسرع الكلبان، وأحدهما وراء الآخر، إلى المستنقع:

ـ «كراك»! «لاسكا»!

وعاد الكلبان.

قال ليفين وهو يرجو ألا يجد سوى الزقزاق؛ وقد طيَّر الكلبان بعضاً منها كانت تُطلق صرخات شاكية فوق المستنقعات وهي تتهادى في طيرانها.

ـ المكان يضيق بنا الثلاثة. أنا أنتظركم هنا.

نادى فيسلوفسكي:

ـ لا، تعال معنا، يا ليفين.

ـ أؤكد لكم أن المكان يضيق لنا. «لاسكا» إلى هنا! لاسكا! يكفيكم كلب واحدٌ، فيما أظن؟

ظل ليفين قرب العربة ذات المقاعد، وأتبع الصيادين عينيه بشيء من الحسد. لقد جابا المستنقع فلم يجدا سوى دجاج الماء والزقزاق. واصطاد فاسيا زقزاقاً.

قال ليفين:

ـ أرأيتما؟ أضعنا الوقت، وهذا كل شيء.

قال فاسيا فيسلوفسكي الذي كان يصعد العربة بتثاقل، متعثراً ببندقيته وزقزاقه:

ـ لا، كان ذلك مسلياً جداً. أرأيت كيف أنزلته؟ ألن نصل بعد قليل؟

انطلقت الجياد بعنف، واصطدم رأس ليفين بقصبة البندقية ودوى صوتُ طلق ناري. حدثَ الدوي قبل اصطدام رأسه؛ هذا، على الأقل، انطباعُ ليفين. والواقع أن فاسيا فيسلوفسكي، حين أراد أن يُفرغ بندقيته، ضغط أحد الزنادين وهو يمسك ديك الزناد الآخر. وغابت الطلقةُ في الأرض دون أن تؤذي أحداً. هز ستيڤان أركادييڤتش رأسه وضحك من فيسلوفسكي ضحكة قصيرة مستنكرة. لكن ليفين لم يجرؤ على توبيخه، خوفاً من أن يقال: إن الخطر الذي لامسه والتورم الذي أصابه في جبهته هما اللذان دفعاه إلى اللوم، ثم إن فيسلوفسكي أظهر اغتمامه بصدق وضحك من كل قلبه بعد الذعر الذي أصابه حتى كان من المستحيل عدم مجاراته في ضحكة الصاخب.

عندما وصلا إلى قرب مستنقع أوسع يحتاج استكشافه إلى وقت أطول، ناشد ليفين رفيقيه ألا ينزلا. لكن فيسلوفسكي عاد إلى توسله. فبقي ليفين قرب العربتين، باعتباره رب البيت المضيف، لأن المستنقع يضيق بهم جميعاً.

انطلقت «كراك» رأساً إلى المكان، وتبعه فاسيا فيسلوفسكي.

ولم يتسنَّ لستيڤان اركادييڤتش أن يلحق به حتى طار شنقب كبير، فأخطأه فيسلوفسكي وحطّ الطائر بين العشب العالي في أحد المروج. كانت الطريدة لفيسلوفسكي. عثر عليها كراك، ووقف متربصاً، فقتلها فيسلوفسكي وعاد إلى العربة. قال لليفين:

ــ جاء دورك، وسأبقى مع الجياد.

أخذ ليفين يحسد رفيقه. سلم المقود فيسلوفسكي وتوجه إلى المستنقع.

أما لاسكا التي كانت تعوي منذ وقت غير قصير على نحو مثير للرثاء لتشكو حظها الجائر فقد وثبت نحو جزيرة صغيرة واعدة كان صاحبها يعرفها ولم يكتشفها «كراك» بعد.

صاح ستيڤان اركادييڤتش:

ـ ألا تحتجزها؟

أجاب ليفين مغتبطاً بفرح كلبته وحاثا خطاه وراءها:

ـ إنها لن تطير الطيور.

أخذت لاسكا تجدّ في الطلب وهي تقترب من الجزيرة التي ألفتها. ولم يصرف انتباهها طائر صغير من طيور المستنقعات إلا للحظة. لقد طافت بأطراف الجزيرة، وبدأت جولة ثانية، ثم ارتعشت فجأة وتجمدت.

صاح ليفين:

ـ ستيفا! تعال، تعال.

وأحس أن قلبه بدأ يخفق بعنف وأن جميع الأصوات فقدت معنى المسافة وجاءت تقرع أذنه بغير انتظام وبشدة خاصة، وكأن درقةً قد نزعت فجأة من سمعه المرهف. حَسبَ خطوات أوبلونسكي وقع حوافر الجياد البعيد، والصوت الرخو لمدرةٍ متفتتة من جذورها تحت قدميه طيران شنقب؛ وسمع خلفه أيضاً، على مقربة منه، نوعاً من الاصطفاق الذي لم يفهم مصدره.

كان يتقدّم خلف كلبته مختاراً الأمكنة التي تطؤها. وصاح بها:

ـ هاته!

طار شنقبٌ من تحت قدمي الكلبة، فسدد ببندقيته، وفي اللحظة ذاتها التي كان يصوب فيها سمع صوت ذلك الاصطفاق وقد غدا أوْضح وأقرب، وانضاف إلى ذلك صوت فيسلوفسكي الذي كان يصرخ بقوة غريبة. رأى ليفين أن تصويبه كان متأخراً جداً عن الطائر ومع ذلك فقد أطلق النار.

استدار ليفين، وهو متأكد من أنه أخطأ هدفه، فرأى العربة ذات المقاعد والجياد، لا على الطريق بل في المستنقع. ذلك أن فيسلوفسكي رغبة منه في مشاهدة الصيد قد دلف إلى المستنقع فغاصت الجياد في الوحل.

همهم ليفين بينه وبين نفسه وهو يعود إلى العربة الغائصة في الوحل:

ــ لعنة الله عليه!

ثم سأله بجفاف:

ــ لماذا تبعتَنا؟

ونادى الحوذي وتهيأ لتخليص الخيل.

كان ليفين هائجاً لأنه أُزعج في اللحظة التي كان يُطلق النارَ فيها، ولأن الجياد تُركت لتغوص في الوحل، ولا سيما لأن ستيڤان اركادييڤتش وفيسلوفسكي عاجزان عن مساعدتهما، هو وحوذيه، على فك الجياد وتخليصها من الوحل، إذ ليس لأي منهما أدنى فكرة عن قرن الجياد. كان ليفين يعمل بصمت مع حوذيّه، دون أن يردّ بكلمة على فيسلوفسكي الذي أخذ يؤكد له أن الأرض كانت جافة تماماً في هذا الموضع. لكنه عندما رأى فيسلوفسكي، بعد أن حمي بالعمل، يشدّ العربة ذات المقاعد بحمية عظيمة حتى إنه انتزع منها واقية الوحل، لام ليفين نفسه على ما بدر عنه من جفاء مفرط إزاء فيسلوفسكي بتأثير عاطفة البارحة، وحاول جاهداً أن يُخفّف جفاءه بما يُظهره من إيناس زائد. فلما أعيدتْ الأمور إلى ما كانت عليه وبلغت العربتان الطريق، أمر ليفين بإخراج الغداء.

قال فيسلوفسكي الذي عادت إليه جراءتُه وهو يلتهم دجاجة ثانية:

ــ إذا قويت الشهية استراحَ الضميرُ! هذه الدجاجة ستنزل إلى أعماق جزمتي!

وأجاب دون أن يرخي المقود عندما طلب منه ليفين أن يعطي مكانه للحوذي:

ــ الآن انتهت مصائبنا؛ سيسير كل شيء على ما يرام. وعقاباً لي على غلطتي، أرى نفسي مكرهاً على أن أجلس في مقعد الحوذي. ما رأيك؟ بلى،

بلى، أنا «اوثوميدون»[1] سترون كيف سأحسن السوق بكم! نعم، يجب أن أكفر عن غلطتي، وأنا مستقر على مقعدي.

قال ذلك وانطلق.

كان ليفين يخشى أن يتعب الجياد، ولا سيما الكميت على اليسار الذي لم يمسك مقوده جيداً؛ لكنه استسلم لابتهاج فيسلوفسكي: لقد غنّى له طوال الطريق الأغاني، وقص عليه القصص، وقلد انكليزياً يقود أربعة جياد بيد واحدة؛ وبلغوا مستنقع «تمفوزديفو» وهم في أعظم حال من الفرح.

[١٠]

قاد فاسيا الجياد بسرعة كبيرة حتى إنهم بلغوا المستنقع قبل اشتداد الحر.

تساءل ليفين تلقائياً، وهم يقتربون من الهدف الرئيسي لرحلتهم، كيف يستطيع أن يتخلص من فيسلوفسكي. وبدت على ستيڤان اركادييڤتش الرغبة ذاتها ورأى ليفين على وجهه أمارات الهمّ يظهرها كل صياد قبل البدء بالصيد، مقترنة بأمارات المكر البريء الذي كان خاصاً به.

قال ستيڤان اركادييڤتش وهو يشير إلى طائرين كبيرين يحومان فوق القصب:

ــ ما رأيكما، أننزل هنا؟ المكان ملائم. فأنا أرى بزاة، وحيث توجد البزاة يوجد الصيد.

قال ليفين وقد بدا عليه الانشغال وهو يسحب جزمته ويتحقق من مكبسي البندقية:

ــ أترينا، أتريان هذا القصب؟

(١) «أوثوميدون»: شخصية من الالياذة؛ وهو الذي قاد عربة «اخيل». وقد غدا اسمه رمزاً لكل حوذي بارع، وبهذا المعنى استعمله الشاعر «بوشكين». =

وأشار إلى جزيرة صغيرة من خضرة أشد دكنة في المرج الواسع الذي حصد نصفه والذي يمتد على الضفة اليمنى من الساقية:

ـ المستنقع يبدأ هناك، أمامنا بالضبط، هناك حيث الخضرة أوضح. ثم يمتد إلى اليمين، هناك حيث تتجه الجياد. وهناك نجد الشنقب الكبير؛ ثم يدور حول القصب حتى تلك الأيكة من شجر المغاث، وحتى الطاحونة. وها هي هناك عند منعطف الساقية. إنها أحسن موضع للصيد. قتلت فيها مرة سبعة عشر شنقباً. سوف نستعد وسنلتقي في الطاحونة.

وسأل ستيڤان اركادييڤتش:

ـ من يذهب إلى اليمين، ومن يذهب إلى الشمال؟

وأضاف وهو يتكلف اللامبالاة.

ـ المكان في الجهة اليمنى أوسع، فاذهبا فيه كلاكما، وسأذهب أنا إلى اليسار.

فأيده فيسلوفسكي:

ـ ممتاز! سنستكشفه نحن. هيا، هيا!

اضطر ليفين إلى القبول وافترقا.

ما إن دلفوا إلى المستنقع حتى جد الكلبان في البحث عن الطريدة، وأخذا يشتمان التراب السبخي. وكان ليفين يعرف هذه المشية الحذرة والمترددة من لاسكا: كان يعرف المكان أيضاً ويتوقع أن يرى رفاً من طيور الشنقب.

قال بصوت مخنوق لرفيقه الذي كان يتخبط في الماء خلفه:

ـ فيسلوفسكي، ابق بجنبـي!

ذلك إن اتجاه بندقية فيسلوفسكي بعد الحادث المزعج الذي وقع قبل قليل أخذ يقلق ليفين.

ـ لا، لا أريد أن أضايقك، لا تهتم بـي.

لكن ليفين تذكر كلمات كيتي عندما ودعته: «احذروا من أن تطلقوا النار بعضكم على بعض»! كان الكلبان ما يزالان يمشيان وكل منهما يتحاشى الآخر وأنفه في الأرض. كان انتباه ليفين مشدوداً بحيث خيّل إليه أن صوت الامتصاص الذي أحدثه كعبه وهو ينفلت من الوحل صراخ شنقب! فأمسك في الحال بعقب البندقية.

وسمع قرب أذنه: «بوم! بوم»! . لقد أطلق فاسيا النار على سرب من البط وصل إلى ما فوق المستنقع مقبلاً على الصيادين، لكنه كان أبعد من مرمى البندقية. لم يتسن لليفين أن يلتفت حتى طار شنقب، وثان وثالث وثمانية أخرى أيضاً.

أصاب ستيڤان اركادييڤتش واحداً في اللحظة التي بدأ فيها يتعرج في طيرانه وسقط الطائر كمدرة من التراب على الأرض المتحركة. وأتبعه طائراً آخر، دون أن يستعجل، وكان الطائر يطير على وجه القصب فسقط عندما سُمع صوت الطلقة؛ وشوهد وهو يقفز خلف الأسل المقطوع محركاً جناحاً سليماً، أبيض من الداخل.

لم يوفق ليفين مثله: رمى عن كثب أول شنقب فأخطأه؛ وأراد أن يصيبه وهو يرتفع، لكن شنقباً آخر طار في هذه اللحظة بالذات وحول انتباهه، فأخطأه مرة أخرى.

وبينما كانوا يعبئون بنادقهم من جديد انطلق شنقب. أرسل فيسلوفسكي الذي كان قد عبأ بندقيته طلقتين في الماء. ورفع ستيڤان أركادييڤتش طريدته ونظر إلى ليفين بعينين لامعتين. وقال:

ــ والآن، لنفترق.

ومضى في جهته، وهو يعرج قليلاً من ساقه اليسرى، متأهباً ببندقيته، صافراً لكلبه. ومضى ليفين وفيسلوفسكي في الجهة الأخرى.

كان ليفين إذا أخطأ في طلقاته الأولى فقد رباطة جأشه وغضب وازداد خطؤه. وهذا ما أصابه اليوم. كان هناك الكثير من الشنقب الذي كان يطير من تحت أنف الكلبة، ومن بين أقدام الصيادين.

وكان ليفين قادراً على تدارك الخطأ. لكنه كان كلما أطلق النار غشيه الخجل أمام فيسلوفسكي الذي كان يطلق النار يمنة ويسرة دون أن يقتل شيئاً لكن دون أن يضطرب من جراء ذلك. كان ليفين يسرع، ويفقد صبره، ويزداد اغتياظه، وانتهى بأن صار يطلق النار كما يتفق له. وكأن لاسكا فهمت ذلك، فأخذت تبحث بتكاسل وتنظر إلى الصيادين حائرة أو عاتبة. كانت الطلقات تتابع دون انقطاع. وكان الدخان يحيط بالصيادين لكن الجعبة الواسعة لم تحتو إلا على ثلاثة شناقب هزيلة، قتل فوسلوفسكي واحداً منها وشارك ليفين في قتل الآخر. وفي هذه الأثناء، كانت تدوي في الجانب الآخر من المستنقع، أصوات الطلقات النارية المتباعدة، لكنها كانت تصيب جميعها من دون شك، لأن صوت ستيڤان اركادييڤتش كان يسمع بعد كل طلقة وهو يصيح:

ــ «كراك»، هاتها!

زاد ذلك في غيظ ليفين. وكانت الشناقب لاتني تتطاير فوق القصب. ومن كل الجهات دوت أصوات الاصطفاق على مستوى الأرض، والصرخات الجشاء في القضاء؛ وكانت الطيور تأتي لتحط أمام الصيادين، بعد أن تطير فوق رؤوسهم. وكانت عشرات البزاة تسبح في الفضاء الآن فوق المستنقع وهي تصرخ صراخاً حاداً.

بعد أن جاب ليفين وفيسلوفسكي الشطر الأكبر من المستنقع، بلغا مرجاً تملكه عدة أسر من الفلاحين، وقد قسم إلى عدة رقع تنطلق من القصب. كان نصف هذه الرقع محصوداً؛ والنصف الآخر قد ديس في بعض الأمكنة.

كان هناك قليل من الأمل في أن يجدوا صيداً حيث حصد العشب، لكن

ليفين كان قد وعد ستيفان اركاديفتش بأن يلاقيه، ولذلك دلف إلى المرج مع رفيقه.

صرخ بهما أحد الفلاحين وكان جالساً قرب عربة:

ــ هيه! أيها الصيادان! ميلا واشربا جرعة!

التفت ليفين.

صاح به فلاح ملتح بادي البشاشة، محمر الوجه، وهو يكشف عن أسنانه البيضاء ويرفع زجاجة ضاربة إلى الخضرة:

ــ تعال، ولا تخف!

سأل فيسلوفسكي:

ــ ماذا يقولان؟

ــ إنهما يدعواننا إلى شرب الفودكا. فلا شك أنهما قد انتهيا من اقتسام المرج. سوف أقبل بكل رضا.

قال ذلك بشيء من المكر، آملاً أن يغري فيسلوفسكي بأن يعرج على الفلاحين.

ــ لكن لماذا يدعواننا؟

ــ لأنهما مبتهجان. ينبغي أن تذهب. فسوف تجد ذلك ممتعاً.

ــ لنذهب، فهذا طريف.

وصاح به ليفين:

ــ اذهب اذهب، ومن السهل عليك أن تعثر على طريق الطاحونة.

وعندما التفت رأى بسرور فيسلوفسكي وهو ينأى منحنياً أشد انحناء، متعثراً لدى كل خطوة بقدميه المتعبتين، ممسكاً بندقيته بيده الممدودة.

صاح فلاح بليفين:

ــ تعال أنت أيضاً، وكل معنا لقمة من الفطائر.

كان بود ليفين لو شرب كأساً من الفودكا ولو أكل قطعة من الخبز. كان منهكاً يصدم إحدى رجليه بالأخرى ويسحبها بمشقة من الأرض الموحلة؛ وتردد لحظة. لكن «لاسكا» وقفت متربصة. فغاب تعبه كله في طرفة عين وأدركها بخطوات رشيقة. طار شنقب من تحت قدميه فرماه وقتله، وظلت الكلبة متربصة، وطار شنقب آخر من تحت أنفها، رماه ليفين، لكن يومه كان مشؤوماً، فأخطأه، وعندما أراد أن يبحث عن الطائر الذي قتله لم يجده. فتش القصب كله فلم يجده. ولم تصدق «لاسكا» أنه قتله وعندما أرسلها في طلبه تظاهرت بالبحث عن الطريدة تظاهراً.

وإذن فقد لزم سوء الحظ ليفين، حتى في غياب فاسيا الذي جعله ليفين مسؤولاً عـن فشله. فبـالرغم من وفرة الطير إلا أنه عجز عن أن يصيب واحداً منه.

كـانت أشعة الشمس المائلة ما تزال شديدة الحرارة. ولزقت بجسمه ثيابه التي بللها العرق؛ وامتلأت جزمته اليسرى بالماء وصدر عنها وهو يمشي صوت شبيه بالازدراد؛ وسـال العرق بقطرات كبيرة على وجهه الذي سوده البارود؛ وأحس بالمرارة في فمه، وبرائحة البارود والوحل في منخريه، وباصطفاق الشنقب في أذنيه؛ وكان لا بد له من أن يتحاشى لمس أنبوبـي البندقية اللذين أصبحا محرقين؛ ودق قلبه دقات متسارعة، وارتجفت يداه من الانفعال، وتعثرت قدماه المتعبتان واصطدمتا بالمدر الترابـي الموحل؛ لكنه ظل يمشي ويرمي. وأخيراً، وبعد طلقة كابية أدعى إلى الخجل مما سبقها، رمى بندقيته وقبعته أرضاً. وقال في نفسه:

«مالي، ينبغي أن أتمالك نفسي»!، والتقط بندقيته وقبعته، ونادى لاسكا، وخرج من المستنقع. وعندما صار في الأرض اليابسة جلس على أكمة، ونزع جزمته وأفرغ الماء منها، ثم عاد إلى المستنقع وشرب بجرعات طويلة الماء الذي

له طعم الصدأ، وبل بالماء أنبوبي البندقية الملتهبتين كما بلل وجهه ويديه. فلما تبرّد عاد إلى الموضع الذي حط فيه الشنقب وقد عقد العزم ألا يغضب بعد الآن أراد أن يكون هادئاً، لكن شيئاً لم يتغير؛ ذلك أن إصبعه ضغطت الزناد قبل أن يسدد. كان كل شيء يسير من سيء إلى أسوأ.

لم يكن في جعبته سوى خمسة شناقب عندما خرج من المستنقع ليتجه إلى حرجة المغاث حيث ينبغي أن يلاقي ستيڤان اركادييڤتش.

قبل أن يرى عديله أبصر كلبه «كراك». لقد وثب من تحت أرومة شجرة مقطوعة، وهو مغطى بالوحل الأسود النتن، وجاء ليشتم لاسكا وقد ظهر بمظهر المنتصر. ومن خلف كراك، بدا، في ظل شجرة، شخص ستيڤان اركادييڤتش الجميل، مقبلاً على ليفين وهو محمر، مبلل الوجه بالعرق، محلول أزرار القبة، وهو ما يزال يعرج عرجاً خفيفاً.

قال وهو يبتسم بمرح:

ــ ما أخبارك؟ إنك لم تنقطع عن إطلاق النار.

سأله ليفين:

ــ وأنت.

لكن هذا السؤال كان بلا معنى لأنه رأى جعبته ملأى.

ــ أنا، لا بأس.

صاد أربعة عشر شنقباً.

قال ستيڤان اركادييڤتش ليخفف من وطأة انتصاره:

ــ هذا المستنقع نعمة كبرى! لا شك أن فيسلوفسكي ضايقك. ليس سهلاً أن يصيد صيادان بكلب واحد.

[١١]

عندما وصل ليفين وستيڤان اركاديڤتش إلى كوخ الفلاح الذي كان ليفين يتوقف عنده دائماً، وجدا فيسلوفسكي فيه. كان جالساً وسط الكوخ الخشبي، متمسكاً بالمقعد بينما أخذ جندي، هو أخو المضيفة، يسحب له جزمته المغطاة بالوحل، وكان يضحك ضحكه المعدي.

ـ وصلت قبل قليل. كانوا رائعين. تصوروا أنهم قدموا إلي الشراب والطعام! ويا له من خبز، إنه أعجوبة! والفودكا، لم أشرب قط أطيب منها! وأبو أن يأخذوا شيئاً. كانوا يقولون لي طوال الوقت: «لا ينبغي أن يكون المرء شحيحاً».

قال الجندي الذي أفلح أخيراً في أن يسحب له جزمة مبللة بالماء وجورباً أسود من الوحل:

ـ كيف تريد أن يقبلوا منك مالك؟ لقد دعوك، أليس كذلك؟ ولم تكن الفودكا التي شربتها للبيع.

بالرغم من قذارة الكوخ الذي وسخته جزمات الصيادين وقوائم الكلبين المبللة، وبالرغم من رائحة المستنقع والبارود التي امتلأ بها، ومن عدم وجود السكاكين والشوكات، فإن صيادينا شربوا الكثير من كؤوس الشاي وتعشوا بشهية لا تعرف إلا في الصيد. وبعد أن اغتسلوا ونظفوا أنفسهم أووا إلى مستودع للحصيد نظف من أجلهم وهيأ لهم الحوذي فيه فرشاً على الحشيش اليابس.

مع أن الظلام قد حل إلا أن الصيادين لم ينم أحدٌ منهم.

بعد أن تذبذب الحديث بين الذكريات وحكايات الصيد، استقر على موضوع كان يهمهم جميعاً. فبينما كان فيسلوفسكي يعرب عن حماسته بمناسبة كل شيء: التوقف، رائحة الحشيش، العربة المكسورة (بدت له مكسورة لأن مقدمتها سحبت)، لطف الفلاحين الذين سقوه الفودكا، الكلبين اللذين نام كل منهما عند

قدمي سيده، حكى أوبلونسكي لهم عن رحلة صيد شارك فيها في السنة الفائتة عند شخص يدعى «مالتوس».

وكان مالتوس ثرياً حديث العهد بالثراء، جمع ثروته في السكك الحديدية. ووصف ستيڤان أركادييڤتش المستنقع الذي اشتراه هذا الرجل في اقليم «تفير» والذي كان يحميه، والعربات التي نقلت الصيادين والعربات التي نقلت الكلاب، والخيمة التي نصبت على ضفاف المستنقع لتناول الغداء.

قال ليفين وهو ينهض عن فراش الحشيش:

ـ لستُ أفهمك. كيف لا يكون هؤلاء الناس كريهين؟ أفهمُ أن يكون الغداء في «شاتولافيت» ممتعاً، أما هذا الترف أفلا تأباه نفسك؟ جميع هؤلاء الناس، شأنهم شأن مزارعينا القدماء الذين يتاجرون بماء الحياة[1]، يربحون المال على نحو يستحقون معه الاحتقار العام الذي يهزؤون منه، ثم يستردون سمعتهم بهذا المال الذي كسبوه كسباً غير شريف.

فأيده فاسيا فيسلوفسكي:

ـ هذا صحيح تماماً! صحيح تماماً! إن أوبلونسكي يقبل هذه الدعوات عن طيبة قلب، لكن الآخرين يقولون بعد ذلك: بما أن أوبلونسكي ذهب إلى هناك...

ـ لا، أبداً... (أحس ليفين أن أوبلونسكي ابتسم وهو يقول ذلك). ولست أظن هذا الرجل أقل استقامة من أي نبيل أو تاجر مثر. فجميعهم مدينون بوضعهم إلى عملهم وذكائهم.

ـ نعم، لكن أي عمل هو هذا العمل؟ أهو عمل أن ينال المرء امتيازاً وأن يبيعه؟

(١) «يتاجرون بماء الحياة»: كان بيع «ماء الحياة» قبل ١٨٤٦ ممنوحاً لمزارعين عموميين يثرون منه ثراء فاحشاً.

ـ لا شك في ذلك. بمعنى أنه لو لم يكن هو ولو لم يكن أمثاله هنا لما كانت لنا تلك السكك الحديدية.

ـ ليس هذا عمل الفلاح ولا العالم.

ـ لنقبل بذلك، لكنه عمل بمعنى أن نشاطه يؤدي إلى نتيجة هي: السكك الحديدية. لكنك ترى أن السكك الحديدية غير مجدية.

ـ لا، هذه مسألة أخرى، أنا مستعدٌ للاعتراف بجدواها. لكن كل كسب لا يتناسب مع العمل المبذول كسبٌ غير شريف.

ـ ومن يحدد هذا التناسب؟

قال ليفين وقد أحس أنه لن يستطيع أن يرسم حداً دقيقاً بين ما هو شريف وما ليس شريفاً:

ـ عنيت كل ربح كسبه صاحبه كسباً غير شريف، بالحيلة.

وتابع قائلاً:

ـ أرباح المصارف مثلاً. ذلك هو السوء: كسب ثروات فاحشة بدون عمل. هذا مثل زمن المزارع، المظاهر وحدها تغيرت. «مات الملك، عاش الملك!». لم نكد نلغي المزارع حتى ظهرت السكك الحديدية والمصارف: هذا أيضاً ربح بدون عمل.

قال ستيڤان أركادييڤتش:

ـ نعم، كل ذلك قد يكون صحيحاً وذكياً. . .

وصاح بكلبه الذي كان يحك نفسه ويتقلب على القش:

ـ «كراك»! انبطح.

كان أوبلونسكي بادي القناعة بصحة وجهة نظره. ولذلك كان يتكلم برزانة ودون استعجال:

ـ لكنك لم ترسم حداً واضحاً بين العمل الشريف والعمل غير الشريف، وإذا كنت أتلقى مرتباً أعلى من مرتب رئيس مكتبي الذي يتقن عمله خيراً مني فهل هذا غير شريف؟

ـ لا أدري.

ـ حسناً! أحب أن أقول لك: إنك عندما تتلقى خمسة آلاف روبل مثلاً مقابل عمل لا ينال منه فلاحنا، مهما يبذل من جهد، سوى خمسين، فذلك غير شريف، وهو شبيه بحالي عندما أربح أكثر من رئيس مكتبي، وبحال مالتوس عندما يربح من العامل في سكة الحديد. وبالمقابل، فأنا أرى من المجتمع موقفاً معادياً لهؤلاء الناس لا يستند لي شيء، يلوح لي أنه الحسد...

قال فيسلوفسكي:

ـ لا، ذلك غير صحيح: لا يمكن أن نحسدهم: ففي هذا النوع من الأعمال شيء من القذارة.

فرد ليفين:

ـ اسمح لي، أنت تقول إن من الظلم أن أربح خمسة آلاف روبل حين لا يربح الفلاح سوى خمسين: هذا صحيح. وهو ظلم لم يغب عن بالي، لكن...

قال فاسيا فيسلوفسكي وفي كلامه نبرة من الصدق زاد من وقعها أن هذه هي المرة الأولى في حياته التي يفكر فيها، كما يبدو، في هذه المسائل:

ـ هذا صحيح! لماذا نأكل ونشرب ونظل بلا عمل في حين يعمل هو بلا كلل؟

قال ستيڤان أركادييڤتش الذي كأنما طاب له أن يكايد ليفين:

ـ نعم، أنت تدرك ذلك، لكنك لا تهب الفلاح أرضك.

لقد نشأت بين العديلين، في هذه الآونة الأخيرة، عداوة خبيثة: فمنذ أن صارا عديلين، حرص كل منهما على أن يظهر أنه قد نظم حياته خيراً من الآخر،

وعبرت هذه العداوة عن نفسها الآن في هذا الحديث الذي أخذ يتجه وجهة شخصية.

فأجاب ليفين:

ــ لم يطلب إليَّ أحد ذلك. وحتى لو أردت ذلك لما استطعت أن أعطي أرضي. لا أدري لمن أهبها؟

ــ لهذا الفلاح. فهو لن يرفض.

ــ لكن، ما السبيل إلى ذلك؟ أأذهب معه لإبرام عقد التملك؟

ــ لا أدري، لكنك إذا كنت مقتنعاً بأن ليس لك الحق. . .

ــ لست مقتنعاً البتة. على العكس، أحس أن ليس من حقي أن أهب أملاكي، لأن علي واجبات تجاه أرضي، وتجاه عائلتي. . .

ــ عفواً، إذا كنت تعتقد أن هذا التفاوت ظالم فلماذا لا تتصرف على هذا الأساس؟

ــ هذا ما أفعله، لكن سلبياً، بمعنى أنني أحاول جاهداً ألا أزيد هذا التفاوت بين الفلاح وبيني.

ــ عفواً، لكن في هذا مفارقة.

وأيده فيسلوفسكي:

ــ نعم، هذا تفسير سفسطائي.

وقال للفلاح الذي دخل المستودع فجعل الباب يصر:

ــ هيه! أيها المضيف، ألم تنم بعد؟

ــ لا، أين أنا من النوم! كنت أعتقد أنكم قد نمتم، ثم سمعتكم تتحدثون. أنا بحاجة إلى كلاب.

وأضاف بحذر وهو يضع قدميه العاريتين الواحدة أمام الأخرى:

ــ لن يعضّني؟

ـ وأين ستنام؟

ـ سوف نبقي الخيول في المرعى.

قال فيسلوفسكي وهو ينظر من إطار الباب إلى ركن من الكوخ.

ـ آه! يا لهذا الليل! واصغوا إلى أصوات النساء، ما أجملها!

من يعني؟

ـ البنات اللواتي بجنبنا.

ـ تعالوا نقم بجولة هناك! فلن نستطيع النوم أبداً. تعال، يا أوبلونسكي...

فأجاب أوبلونسكي:

ـ ليتنا نستطيع البقاء هنا على الفراش والذهاب إلى هناك في آن واحد! فنحن مرتاحون هنا.

قال فيسلوفسكي وهو ينهض ويحتذي جزمته على عجل:

ـ إذن، سأذهب وحدي. فإذا كان ذلك مسلياً ناديتكم لقد أطعمتموني من صيدكم، ولن أنساكم.

قال أوبلونسكي عندما انصرف فيسلوفسكي وأغلق الفلاح الباب وراءه:

ـ إنه فتى لطيف، أليس كذلك؟

أجاب ليفين:

ـ نعم.

وكان ما يزال يفكر في حديثهم. لقد خيل إليه أنه عبر بأقصى ما يستطيع من وضوح عن أفكاره وعواطفه، بيد أن رفيقيه، وهما رجلان ذكيان وصادقان، قالا بصوت واحد: إنه كان يغتذي بالسفسطائيات. فأثار ذلك اضطرابه.

ـ نعم، يا صديقي. أحد أمرين: إما أن نقر بأن التنظيم الحالي للمجتمع عادل، وحينئذٍ ينبغي الدفاع عن حقوقنا، وإما أن نعترف بأننا نتمتع بامتيازات جائرة وأننا نستغلها بكل سرور: وهذا ما أفعله أنا.

ـ لا، لو كان ذلك جائزاً لما استطعت أن تتمتع بهذه الخيرات وأنت مسرور. أنا على الأقل، لا أستطيع ذلك. أنا بأشد الحاجة إلى الإحساس بأني غير مذنب.

قال ستيڤان أركادييڤتش، وقد بدا عليه التعب من توتر ذهنه:

ـ في الواقع، ليتنا نقوم بجولة! إننا لا ننام، إذن، فلنذهب!

لم يحب ليفين. وفكر فيما قال أثناء الحديث: إنه لم يكن يتصرف وفقاً لقناعاته إلا بالمعنى السلبي. وتساءل:

«أيمكن ألا نكون عادلين إلا سلبياً».

قال وهو ينهض:

ـ ما أقوى رائحة العشب الغض! أحس أنني لن أستطيع النوم. يبدو فاسيا كمن يتسلى. أتسمع صوته، وقهقهاته؟ هيا إلى هناك؟

أجاب ليفين:

ـ أنا، سأبقى.

قال ستيڤان أركادييڤتش وهو يبحث عن قبعته في العتمة:

ـ أعن مبدأ، أيضاً؟

ـ لا، لكن ماذا سأفعل هناك؟

قال ستيڤان أركادييڤتش الذي عثر على قبعته ونهض:

ـ أتدري أنك مقبل على متاعب.

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ إني أرى أي موقف تقفه إزاء زوجتك. لقد سمعتكما تناقشان مسألة في غاية الأهمية وهي: أتستطيع أم لا تستطيع أن تغيب يومين لتذهب إلى الصيد. هذا رائع من حيث دلالته على الحب البريء. لكنه لن يدوم طول العمر. ينبغي للرجل أن يكون مستقلاً: إن له مصالحه. الرجل ينبغي أن يكون رجولياً.

قال ذلك وهو يفتح الباب فسأله ليفين:

ـ أي أن يذهب ليغازل بنات المزارع؟

ـ ولم لا ، إن كان ذلك يسليه؟ وليس هذا بالأمر الخطير. إنه لا يزيد في شفاء امرأتي وهو يزيد في إمتاعي. المهم هو أن تحترم مذبح الزوجية. ينبغي ألا يجري شيء في البيت. لكن لا يجوز أن نظل مكتوفي الأيدي.

قال ليفين يجفاف وهو ينقلب على جنبه:

ربما. يجب أن أنهض مبكراً، غداً. سأذهب مع الفجر ولن أوقظ أحداً.

صاح صوت فيسلوفسكي الذي عاد.

ـ أسرعا، يا صاحبي! إنها رائعة! أنا اكتشفتها. إنها رائعة، ألمانية حقيقية، وقد غدونا صديقين حقيقيين. في الحقيقة، إنها رائعة.

وقال هذه الجملة الأخيرة بلهجة الموافقة، كأن تلك الفتاة الرائعة قد خلقت لأجله وكأنه يغتبط ممن هيأ له هذه المفاجأة.

تظاهر ليفين بالنوم، وخرج أوبلونسكي من المستودع، بعد أن احتذى خفيه، وأشعل سيجاراً. وما لبث أن خبا صوتهما.

مكث ليفين طويلاً قبل أن يستطيع النوم. لقد سمع جياده وهي تلوك كلأها، وسمع مضيفه يذهب هو وابنه إلى المرعى، وبعد ذلك سمع الجندي يستقر في زاوية من المستودع مع ابن أخته، ابن صاحب البيت، وسمع الولد ينبىء خاله بالأثر الذي تركه الكلبان في نفسه، وقد ظنهما وحشين هائلين ومرعبين، ثم إن الصبـي سأل: بمن سيمسك هذان الكلبان، فبين له الجندي بصوت مبحوح ينم على النعاس أن الصيادين سيذهبون غداً إلى المستنقع وسيطلقون طلقات نارية من بنادقهم؛ ولكي يتخلص أخيراً من أسئلة الصبـي، قال له: نم «فاسكا»، نم، وإلا فحذار! وبعد لحظة أخذ يشخر وغرق كل شيء في الصمت، ولم تكن تسمع سوى حمحمة الجياد وصرخات الشنقب القصيرة. وردد ليفين على نفسه: «ألا يمكن أن

نكون عادلين إلا سلبياً؟ وبعد؟ الذنب ليس ذنبي». وعاد إلى التفكير في نهار الغد.

«غداً، سأذهب مبكراً وسآخذ على نفسي ألا أهتاج. فالشنقب كثير، وهناك أيضاً شنقب كبير. وعندما سأعود سأجد كلمة من كيتي. ربما كان «ستيفا» محقاً. فأنا مفرط الضعف، وأنا أسمح لها بالسيطرة علي... لكن ما العمل؟ هذا أيضاً جانب سلبي!».

وخلال نومه سمع ضحكات فيسلوفسكي وستيڤان أركادييڤتش وأحاديثهما الفرحة. وفتح عينيه لحظة، فرأى القمر مشرقاً وهما واقفان على عتبة الباب يتحدثان، وقد غمرهما القمر بنوره. كان ستيڤان أركادييڤتش يتحدث عن بنت شبهها ببندقة لم تكد تخرج من قشرتها، وكان فيسلوفسكي يكرر، وهو يضحك ضحكة المعدي، جملة لعل أحد الفلاحين قد قالها له: «أولى بك أن تسعى إلى الحصول على فتاة لك». فقال لهما ليفين من خلال نومه:

ـ غداً، يا سادة، منذ أن يبزغ الفجر!... ثم أغفى.

[١٢]

استيقظ ليفين مع أول أضواء الفجر، وحاول أن يوقظ رفيقيه. كان فاسيا مضطجعاً على بطنه، وإحدى ساقيه مشدودة بجوربها، ينام نوماً عميقاً بحيث تعذر أن يحصل منه على جواب. وحتى لاسكا نفسها التي كانت تنام متكورة على جانب العشب اليابس، نهضت على مضض ومطت بتكاسل كلاً من قائمتيها الخلفيتين. بعد أن احتذى ليفين جزمته، تناول بندقيته، وفتح بحذر الباب الذي يصر، وخرج. كان الحوذيان غافيين قرب العربتين، وكانت الجياد غافية إلا واحداً منها كان يلوك شوفانه ويبعثره في معلفه. كان الضوء ما يزال أغبشاً.

قالت المضيفة العجوز، التي خرجت من الكوخ، لليفين بلهجة ودية وكأنها تخاطب أحد معارفها القدماء:

لِمَ نهضتَ مبكراً هذا التبكير، يا عزيزي؟

ــ أنا ذاهب إلى الصيد، يا عزيزتي أهذا هو الطريق الذي يؤدي إلى المستنقع؟

ــ امض من خلف المستودع على خط مستقيم؛ ستمر ببيدرنا المسور، ثم بحقل القنب، وهناك ستجد الدرب.

ووضعت العجوز بحذر قدميها العاريتين الملوحتين على الأرض، ورافقت ليفين، وفتحت له حاجز البيدر المسور.

ــ امض من هنا على خط مستقيم وستصل مباشرة إلى المستنقع. فمن هنا ساق أبناؤنا الماشية أمس مساء.

كانت لاسكا تركض بفرح على الدرب! وكان ليفين يتبعها بخطوات خفيفة وسريعة وهو يتفحص السماء في كل لحظة. كان يود ألا تطلع الشمس قبل أن يصل إلى المستنقع. لكن الشمس لن تتأخر حتى تشرق. وأخذ القمر الذي كان مضيئاً عند خروجه يصطبغ بلون فضي؛ أما نجمة الصبح التي كانت بارزة قبل لحظة فصار يصعب العثور عليها؛ واتضحت حواشي البقع التي لم تكن متميزة في الحقول البعيدة: كانت تلك البقع أكداساً من الشيلم. وأخذ الندى الذي لم يكن ليرى لولا أشعة الشمس يبلل قدمي ليفين وقميصه الخارجي في القنب الذي انتشرت رائحته، وعلا حتى تجاوز قامة الإنسان، وقُطعت سوقه الفحلة. في صمت الصباح الشفاف، كان المرء يحس بأدنى نأمة. مرت نحلة قرب أذن ليفين في صفير كصفير الرصاص. فأمعن النظر وشاهد نحلة ثانية، ثم ثالثة. كان النحل يطير من فوق غطاء المنحلة ويتوارى باتجاه المستنقع، فوق حقل القنب. كان الدرب يفضي مباشرة إلى المستنقع. وكان ليفين يستشف وجوده من خلال الأبخرة المتصاعدة كثيفة هنا، خفيفة هناك، وكانت أجمات القصب والصفصاف تتهادى في هذا الضباب كأنها جزر صغيرة. وعند مدخل المستنقع، على حافة الدرب، نام الصبية

والفلاحون الذين قاموا بحراسة الليل، متدثرين بمعاطفهم. وغير بعيد عنهم، كانت ترعى ثلاثة جياد مقيدة. وكان أحدها يخشخش سلسلة قيده. أما «لاسكا» فكانت تسير بجانب سيدها، وهي تنظر إلى كل الجهات، وقد نفذ صبرها، لتضرب في عرض الأرض. وعندما تجاوز ليفين الفلاحين النائمين وأحس بالأرض رخوة تحت قدميه، تحقق من مكبسيه وأطلق الكلبة.

وشاهدها أحد الجياد، وهو مهر جميل أسمر ابن ثلاث سنوات، فأخذ يركض ونخر وهو يرفع ذيله، وخافت المهار الأخرى فخرجت من الماء وهي تتخبط في الماء وتسحب حوافرها من الوحل الكثيف بصوت شبيه بالاصطفاق. توقفت لاسكا وألقت على الجياد نظرة ساخرة، وعلى سيدها نظرة مستفهمة. فداعبها ليفين وصفر صفيراً خفيفاً، وهو إشارة لها بأنها يمكن أن تبدأ بحثها.

انطلقت لاسكا على الأرض المتحركة وقد بدا عليها الفرح والانشغال. عندما دخلت لاسكا المستنقع ميزت مباشرة بين جميع الروائح المعهودة: الجذور، وأعشاب المستنقع، وتفتحات الأزهار الحديدية، وبين الروائح الغريبة مثل روث الجواد ورائحة الطير، وهي عطر خاص كان يدخل الاضطراب على نفسها أكثر من أي شيء آخر. كانت هذه الرائحة قوية جداً، هنا وهناك، على الطحلب أو الأعشاب الأخرى، لكن لم يكن ممكناً الكشف عن الجهة التي تقوى فيها هذه الرائحة أو تضعف. وللعثور على الجهة لا بد من تحسس الطريدة بكل الاتجاهات. كانت لاسكا لا تشعر بحركة قوائمها، وهي تجري جرياً موزوناً بحيث تستطيع أن تتوقف بعد كل وثبة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، تجري نحو اليمين سابقة النسيم الذي يسبق الفجر والذي يهب من المشرق، ثم تقف في وجه الريح. حتى إذا تنشقت الهواء بمنخريها الواسعين أحست في الحال أنها ليست بإزاء اتجاه الطريدة فقط، بل بإزاء الطريدة ذاتها وبإزاء وفرة عظيمة منها. فتتباطأ في جريها. كان «الطير هنا»، لكن أين بالضبط، لم تستطيع بعد تحديد ذلك. ولمعرفة الموضع

بالذات أخذت تسير في خط متعرج عندما دوى فجأة صوت سيدها وحول انتباهها. قال لها وهو يشير إلى وجهة أخرى:

ـ «لاسكا»، من هنا!

توقفت لحظة كأنها تسأله إن لم يكن الأفضل أن تستمر. لكنه كرر أمره بصوت غاضب مشيراً إلى تلعة لا يستطيع أن يرى فيها شيئاً. فأطاعته، وتظاهرت بالبحث لكي تسره، وصعدت التلعة، ثم عادت إلى المكان الأول، وما لبثت أن شمت رائحة الطريدة. أصبحت تعرف ماذا ينبغي لها أن تفعل الآن حين لم يعد سيدها يزعجها؛ ودون أن تنظر إلى قوائمها وهي تتعثر حانقة بالمدر العالي، أو تسقط في الماء ثم لا تلبث أن تنتصب على قوائمها القوية والمرنة، بدأت دائرة ستكشف لها عن كل شيء. كانت رائحة طيور الشنقب توافيها وهي تزداد شدة ووضوحاً، وبدا لها جلياً أن أحدها لا بد أن يكون هنا، خلف التلعة، على خمسة أقدام أمامها: فوقفت متربصة وتجمد جسدها كله. لم يكن بوسعها أن ترى شيئاً أمامها، وهي على هذه القوائم المنخفضة، لكنها كانت تعلم من الرائحة «أنه» على بعد لا يزيد عن خمسة أقدام. ظلت بلا حراك، وقد ازداد شعورها بوجود الطائر، ملتذة بهذا الانتظار. وكان ذيلها المشدود لا يرتجف إلا في طرفه، وكان فمها مفتوحاً قليلاً، وأذناها منتصبتين نصفياً. وقد انقلبت إحدى أذنيها أثناء جريها. كانت تتنفس بثقل لكن بحذر وتنظر إلى سيدها خلفها، وهي لا تكاد تحرك رأسها. ويقترب سيدها، بهذا الوجه الذي تعرفه جيداً وبهاتين العينين المرعبتين دائماً، وهو يتعثر بالأرض الوعرة. ويبدو للاسكا أنه يمشي مشية بالغة البطء. والحقيقة أنه كان يركض.

وحين يرى ليفين «لاسكا» تشد نفسها إلى الأرض وهي تفلح التراب بقائمتيها الخلفيتين، وتفتح فاها، يدرك أنها اكتشفت شنقباً كبيراً ويمضي إليها وهو يرجو الله ألا يخطىء في طلقته الأولى. فإذا صار بمحاذاتها نظر من أعلى قامته فرأى ما لم

تستطيع سوى شمه. رأى بين مدرتين من الأرض، على ستة أقدام شنقباً كبيراً. أدار الشنقب رأسه مترصداً. ثم لم يكد يفتح جناحيه حتى طواهما، ورعش ذيله بخرق، وتوارى بين تضاريس الأرض.

صاح ليفين وهو يدفع كلبته بقدمه:

ــ هاته! هاته!

وكأن لاسكا قد فكرت: «لا أستطيع أن أتحرك إلى أين سأذهب؟ من هنا أستطيع أن أشمه لكني لو تقدمت لما استطعت أن أعرف أين صار ولا ما هو» لكن ها إن سيدها يدفعها بركبته ويكرر همسه، وهو منفعل:

ــ هاته، يا صغيرتي «لاسكا»، هاته!

وقالت لاسكا في نفسها: «بما أنه يرغب في ذلك فسأفعل، لكني لا أضمن نفسي» واندفعت إلى الأمام، لم تعد تشم شيئاً الآن: كانت ترى وتسمع دون أن تفهم شيئاً.

على عشر خطوات من موضعها القديم طار شنقب وهو ينق نقيقاً غليظاً ويصفق بجناحيه هذا التصفيق الرنان الخاص بالشنقب الكبير. وما إن طلعت الطلقة حتى سقط على الأرض الرخوة والرطبة، ببطنه الأبيض أولاً: ولم ينتظر الشنقب الثاني طويلاً، فقد طار من خلف ليفين دون مساعدة الكلبة.

عندما التفت ليفين كان الطائر قد ابتعد. لكن طلقته أصابته، وبعد أن قطع الطائر نحو عشرين قدماً صعد عمودياً سقط على ظهره في موضع جاف.

فكر ليفين وهو يدس في جعبته الطائرين الساخنين والسمينين: «سيكون الأمر جدياً، هذه المرة! ما رأيك، يا«لاسكا»، ستمشي الحال؟»

عندما استأنف ليفين سيره، بعد أن عبأ بندقيته من جديد، كانت الشمس قد تخطت الأفق، وإن كانت ما تزال محتجبة خلف السحب. ولم يعد القمر الذي فقد بهاءه الآن سوى غيمة صغيرة بيضاء في السماء، وغابت النجوم فما عادت ترى

نجمة. وعكست المناقع الآن أضواء مذهبة، وكانت فضية من قبل بفعل الندى. واكتست براعم الأزهار الحديدية على سطح الماء لوناً عنبرياً. وتحول العشب من الألوان الزرقاء إلى اللون الأخضر الضارب إلى الصفرة. وأخذت طيور المستنقعات تضطرب حول الأدغال المتلألئة بالندى والتي كانت تلقي ظلالها المتطاولة على ضفة الساقية وحط باز مستيقظ على أعلى كدس، وأخذ يدير رأسه في هذه الجهة وفي تلك وهو يتأمل المستنقع وقد بدا عليه الاستياء، وكانت الغربان تطير في الحقول، وساق صبي حاف الجياد نحو شيخ رمى معطفه وأخذ يحك جسمه. ورسم دخان البندقية مساحب بيضاء على أرضية الأعشاب الخضراء.

هرع أحد الصبية إلى ليفين وصاح:

ــ كان هنا بط أمس، يا عم!

ولحق به مسافة غير قليلة.

لقد سر ليفين سروراً شديداً حين قتل ثلاثة شناقب الواحد تلو الآخر أمام هذا الصبي الذي كان يظهر انشراحه.

[١٣]

إن التقليد الذي يؤكد أن الصياد إذا نجح في طلقته الأولى كان صيده مثمراً قد أثبت صحته.

عاد ليفين إلى الاستراحة متعباً، جائعاً، سعيداً، بعد أن جاب نحو ثلاثين فرسخاً، ومعه تسعة عشر شنقباً وبطة علقها بزناره لأنها لم تدخل في الجعبة، أما صديقاه اللذان استيقظا منذ وقت طويل فقد تناولا الطعام أخيراً بدونه لأنهما ماتا من الجوع.

قال ليفين وهو يعد للمرة الثانية طيور الشنقب الكبيرة والعادية التي تقلصت وتغطت بالدم المتجمد ومال رأسها الصغير جانباً وفقدت طلعتها البهية التي كانت لها أثناء طيرانها:

ـ انتظرا، انتظرا، أنا واثق أن عددها تسعة عشر.

كان العدد صحيحاً وسر ليفين بما بان على ستيڤان اركادييڤتش من حسد، ومن جهة أخرى، فقد فرح حين وجد في الكوخ الرسول الذي أرسلت كيتي معه الرسالة:

«إني في أحسن حال، وأنا منشرحة الصدر، إذا كنت تعاني القلق بصددي، فبوسعك أن تكون أكثر اطمئناناً من ذي قبل. إن عندي هيئة جديدة للحراسة هي: ماريا فلاسييفنا (كانت هذه هي القابلة، وكانت شخصية جديدة وذات شأن في حياة ليفين الزوجية). جاءت لتفحصني، ووجدتني في صحة تامة وسنستبقيها حتى عودتك. الجميع بخير، لذلك لا تستعجل، أرجوك، وإذا كان الصيد مؤاتياً، فتأخر يوماً».

هاتان الفرصتان: الصيد الموفق، والرسالة، كانا عظيمين إلى الحد الذي لم يلتفت معه ليفين إلى مضايقتين صغيرتين طرأتا بعد الصيد. أولاً إن الجواد الكميت الذي سيق أمس، في الواقع، بسرعة مفرطة، قد رفض أن يأكل وبدا مهدود القوى.

وقال الحوذي: إنه ملتهب الحوافر.

قال ليفين:

ـ لقد انهكته أمس، يا قسطنطين دميتريتش. ليس ذلك مدهشاً، عشر فراسخ بمثل هذه السرعة!

أما المضايقة الثانية التي كدرت مزاجه في البداية ثم ضحك كثيراً منها فيما بعد فهي أنه لم يجد شيئاً من الزاد الذي منحته كيتي بوفرة عظيمة حتى كأنه يكفي لثمانية أيام، فعندما عاد من الصيد متعباً، جائعاً حلم، على الخصوص، بالفطائر الصغيرة، وأحس، وهو يقترب من الكوخ، بطعمها ورائحتها في حلقه، كما تشم «لاسكا» الطريدة، وسرعان ما أمر «فيليب» بتقديمها له.

بيد أنه لم يجد أثراً للفطائر ولا للدجاج!

قال ستيفان اركادييفتش وهو يشير إلى فاسيا فيسلوفسكي ويضحك:

ـ أية شهية هي شهيته! لست أشكو نقص الشهية لكن شهيته عجيبة...

قال ليفين وهو ينظر إلى فيسلوفسكي بتجهم:

ـ لا بأس! هات إذن، قطعة من لحم البقر، يا فيليب.

أجاب فيليب:

ـ لم يبق منه شيء، ولقد رمينا العظام للكلب.

تكدر ليفين إلى حد كبير حتى أنه قال بلهجة حزينة:

ـ كان بإمكانكم أن تتركوا لي شيئاً ما!

واشتهى أن يبكي.

ثم قال بصوت مرتجف، وهو يحاول جاهداً ألا ينظر إلى فاسيا:

ـ أفرغ الطيور واحشها بالقراص. وحاول أن تجد لي شيئاً من الحليب على الأقل.

ما إن شبع من الحليب حتى خامره الندم على ما أظهر من مشاعر الخيبة أمام رجل غريب، وأخذ يضحك من الغضب الذي ابتعثه جوعه الشديد.

وفي المساء، ذهبوا إلى الصيد أيضاً، فقتل فيسلوفسكي بعض الطيور، ورجعوا في الليل.

كان الإياب بهيجاً كالذهاب. كان فيسلوفسكي يغني تارة، وتارة أخرى يحكي بتلذذ عن استراحته عند الفلاحين الذين قدموا له الفودكا وقالوا له: «يجب ألاَّ يكون المرء شحيحاً»، أو يروي قصة مغامراته الليلية التي يدخل فيها البندق، وفتاة المزرعة، وفلاحٌ قال له بعد أن سأله إن كان متزوجاً: «بدلاً من أن تأتي لتتطلع إلى النساء، يجدر بك أن تحاول البحث عن واحدة لك». هذه الكلمات ابهجت فيسلوفسكي على نحو خاص.

ـ على الإجمال، أنا مغتبط بهذه الرحلة، وأنت، ليفين؟

ـ وأنا أيضاً.

قال ليفين ذلك بصدق، وكان سعيداً جداً لا لأنه لم يعد يشعر بشعور العداء الذي أحسّ به في البيت إزاء فيسلوفسكي فحسب بل لأنه أخذ يحسّ، بأخلص مشاعر الود نحوه.

[١٤]

في الساعة العاشرة من اليوم التالي جاء ليفين الذي تفقد ممتلكاته ودق باب الغرفة التي قضى فيها فاسيا الليل.

صاح به فيسلوفسكي:

ـ ادخل!

وقال وهو يبتسم:

ـ اعذرني، فأنا أنهي اغتسالي.

كان يقف أمامه وهو لا يرتدي سوى قميص.

ـ لا تتحرج، أرجوك. هل نمت نوماً مريحاً؟

وجلس ليفين قرب النافذة.

ـ نمت كالميت هل الطقس مؤات للصيد اليوم؟

ـ ماذا تشرب: شاياً أو قهوة.

ـ لا هذه ولا ذاك. إني أتناول وجبة كاملة، وأنا استحي من ذلك... نهضت السيدات، فيما أعتقد، ما ألطف القيام بجولة! ستريني جيادك.

بعد نزهة في البستان، وزيارة للإسطبل، وبعض التمارين على العارضتين المتوازيتين، عاد ليفين إلى المنزل وقصد إلى صالة الاستقبال بصحبة ضيفه.

قال فيسلوفسكي وهو يقترب من كيتي الجالسة قرب السماور:

ـ كان الصيد بديعاً، وأنا أحملُ عنه طائفة من الانطباعات. إنه لمؤسف حقاً أن تُحرم السيدات من هذه المتع!

قال ليفين في نفسه:

لا بد له من أن يقول بضع كلمات لربة المنزل.

ورأى ظلاً خاصاً في الابتسامة وفي الهيئة المنتصرة اللتين خاطب بهما كيتي...

كانت الأميرة، جالسة في الجهة الأخرى من المائدة مع ماري فلاسييفنا وستيڤان اركادييڤتش، فنادت ليفين إليها وشرعت في الحديث معه بصدد إقامتهما في موسكو هو وكيتي من أجل الولادة، وبصدد تهيئة مسكنهما. كانت هذه الاستعدادات، في مرحلة الزواج، تبدو كريهة على نفس ليفين: كانت تسيء بتفاهتها إلى عظمة ما كان في سبيله إلى التمام، وبدت هذه الاستعدادات من أجل الولادة المقبلة التي كانوا يعدون تاريخها على الأصابع، جارحة أكثر من تلك كان يحاول جاهداً ألاَّ يسمع إلى هذه الأحاديث عن أحسن الطرق للف الوليد، وألاَّ يرى هذه اللفائف الغريبة المسرودة التي لا تنتهي، ولا هذه المثلثات من القماش التي تعلق عليها دولي أهمية خاصة، إلخ... إن ولادة صبي (كان مقتنعاً أنه سيكون صبي) وعُد بها، وإن لم يؤمن بها بعد لفرط ما بدت له خارقة، كانت كأنها مستحيلة، وكأنها حدث محفوف بخفايا الأسرار حتى إن هذه المعرفة المتخيلة لما سيقع، وهذه الاستعدادات المتعلقة، فيما يظهر، بحدث عادي، قد بدت مذلة ومثيرة.

لكن الأميرة لم تكن تفهم حالته الروحية وعزت نفوره من الانشغال بهذه الموضوعات والحديث عنها إلى الخفة واللامبالاة، ولذلك لم تكن تدعه يستريح. لقد كلفت ستيڤان اركادييڤتش أن يبحث لهما عن منزل، وها هي تشير إلى ليفين ليأتي إليها.

قال لها:

ـ لا أدري شيئاً، يا أميرة، أفعلي كما تشائين.

ـ يجب أن تحدد موعد سفرك.

ـ إني أجهل ذلك حقاً كل ما أعلمه هو أن ملايين الأطفال يولدون خارج موسكو وبدون طبيب... لمَ إذن...

ـ إذا كان الأمر كذلك...

ـ ليكن كما تريد كيتي.

ـ لا ينبغي أن نحدث كيتي عن ذلك! أتريد أن أخوفها؟

لا تنس أن «ناتالي غوليتزين» ماتت في الربيع الماضي لعدم وجود مولد.

فقال وهو بادي الاغتمام:

ـ سأفعل ما تأمرين به.

أخذت الأميرة تحدثه، لكنه لم يكن يصغي إليها، ومع أن هذا الحديث جدير بأن يهده، إلاَّ أنه ليس هو الذي أحزنه، وإنما ما كان يراه قرب السماور. وفكر وهو يلقي بين الحين والحين نظرة على فاسيا الذي انحنى فوق كيتي وأخذ يحدثها من خلال ابتسامته الجميلة، ثم على امرأته التي علتها الحمرة وبدا عليها التأثر: «لا، هذا لا يطاق».

كان في وضع «فاسيا» شيء من عدم الحشمة، وكذلك في نظرته وابتسامته. بل إن ليفين رأى وضع كيتي ونظرتها غير لائقين، ومرة أخرى، أظلمت الدنيا في عينيه، وأحسّ بنفسه، مثل أمس، وبدون أدنى انتقال، مقذوفاً به من قمة السعادة والسكينة والكرامة إلى حضيض اليأس والخبث والذل. لقد بدا له العالم كله غير محتمل.

قال لها وهو ما يزال ينظر إلى ذلك الموضع:

ـ افعلي ما تشائين، يا أميرة.

قال له ستيڤان اركاديڤتش بلهجة مازحة، ملمحاً لا إلى أحاديث الأميرة فقط بل وأيضاً إلى سبب اضطراب ليفين الذي استشفه:

ــ يوم لك ويوم عليك... كم تأخرت حتى نزلت اليوم، يا دولي!

نهض الجميع ليحيوا داريا الكسندروفنا. ونهض فاسيا لمدة لحظة فقط وحياها تحية لا تكاد تلحظ، في شيء من عدم اللباقة الخاص بشباب اليوم، ثم استأنف وهو يضحك الحديث الذي بدأه.

قالت دولي:

ــ لم تترك لي ماشا لحظة أستريح فيها، إنها لم تكد تنام البارحة، وقد أصبحت متقلبة الأطوار.

أما الحديث الذي بدأ بين فاسيا وكيتي فكان نفس موضوع أول البارحة: كانا يتحدثان عن آنا ويتساءلان إذا كان يجوز أن يوضع الحب فوق المواضعات الاجتماعية. وكان هذا الحديث يرعب كيتي ويقلقها بموضوعه ذاته، وباللهجة التي يستخدمها فيسلوفسكي، ولا سيما بالأثر الذي كانت تعلم مسبقاً أنه سيحدثه في زوجها لكنها كانت أكثر بساطة وبراءة من أن تعرف كيف تقطع هذا الحديث بل من أن تخفي هذا السرور السطحي الذي سببته بوادر اهتمام هذا الشاب بها. كانت تريد أن تضع حداً لهذه الأحاديث لكنها لم تعرف ما السبيل إلى ذلك. كانت تعلم أن كل ما ستفعله سيؤوله زوجها تأويلاً سيئاً. وبالفعل، فعندما سألت دولي عما أصاب ماشا، وأخذ فاسيا ينظر إلى دولي بلا مبالاة منتظراً انتهاء هذا الحديث الثقيل على نفسه، بدا سؤالها في نظر ليفين خالياً من العفوية ومثيراً بما فيه من نفاق.

سألت دولي:

ــ هل سنذهب اليوم للبحث عن الفطور؟

قالت كيتي وقد علتها الحمرة:

ـ أوه! نعم، سأذهب معكم

وأرادت أن تسأل فاسيا علـى سبيل المجاملة إن كان سيأتي، لكنها لم تجرؤ.

وقالت لزوجها بلهجة المذنبة عندما مر أمامها بخطوات ثابتة:

ـ إلى أين تذهب، يا كوستيا؟

لقد ثبتت هيئتها المرتبكة جميع شكوك ليفين.

فأجابها دون أن ينظر إليها:

ـ وصل ميكانيكي أثناء غيابـي، ولم أره بعد.

ونزل لكنه لم يكد يخرج من مكتبه حتى سمع خطوتها المعهودة وهي تنزل بسرعة متهورة.

سألها بجفاف:

ـ ماذا تريدين؟ نحن مشغولان.

قالت وهي تلتفت إلى الميكانيكي الألماني:

ـ اعذرني، فسوف أقول بعض الكلمات لزوجي.

أراد الألماني أن ينسحب، لكن ليفين قال له:

ـ لا تزعج نفسك.

سأله الرجل:

ـ موعد القطار في الساعة الثالثة، أعتقد؟ ولا أريد أن يفوتني.

لم يجبه ليفين وخرج مع زوجته، وقال لها بالفرنسية:

ـ مابك؟ ماذا تريدين أن تقولي لي؟

لم يكن ينظر إليها في وجهها ولم يشأ أن يرى أنها، بسبب من حالتها، أخذت ترتجف بكل أعضائها، وقد بدت مهدودة وجديرة بالرثاء.

فأجابته:

ـ إني. . . إني أردت أن أقول لك أن العيش غير ممكن على هذا النحو. . . وأن هذا عذاب. . .

فرد عليها بلهجة غاضبة:

ـ في غرفة الخدمة ناس، فلا تفضحينا.

ـ إذن تعال من هنا.

كانا يقفان في غرفة الانتظار. كانت كيتي تريد أن تنتقل إلى الغرفة المجاورة لكن الإنكليزية كانت تعطي تانيا درساً.

ـ فلنذهب إلى الحديقة.

في الحديقة، اصطدما بفلاح كان يمشط الممرات. كانا يتقدمان بخطوات سريعة، دون أن يخطر ببالهما أن هذا الرجل قد رأى وجهيهما المقلوبين، وأنهما يبدوان كمن يهربان أمام المصيبة. كانا يتقدمان وهما يحسان أن بدَّ لهما من المكاشفة، من أن يرد كل منهما الآخر عن ضلاله، من أن يبقيا وحدهما بضع دقائق ويتخلصا من همهما.

ـ لا يمكن العيش هكذا! إنه عذاب! إني أتألم، وأنت تتألم. ولماذا؟

قالت ذلك عندما بلغا مقعداً منعزلاً في ركن من ممر الزيزفون. فقال لها وهو يتخذ أمامها مرة أخرى الوضع الذي اتخذه في ذلك اليوم، وقبضتاه مشدودتان إلى صدره:

ـ قولي لي فقط هذا الشيء: ألم يكن في تصرفاته ما لا يليق، ما هو كريه، ما هو مذل؟

أجابت بصوت متهدج:

ـ نعم، لكنك تعلم جيداً أنني غير مذنبة! كنت أود، على الفور، أن أقابله بالأسلوب الذي يليق به، لكن هؤلاء الناس. . .

وقالت وهي تختنق وسط النحيب الذي هز جسدها المثقل:

ـ لماذا جاء؟ كنا سعيدين جداً!

دهش البستاني عندما رآهما يعودان من أمامه بوجهين وادعين ومشرقين، مع أنهما لم يكونا بحاجة إلى الهرب إذ لم يلحق بهما أحدٌ، وأنهما لم يستطيعا أن يكتشفا على هذا المقعد ما يبعث على هذه السعادة البالغة.

[١٥]

بعد أن أوصل ليفين امرأته إلى حجرتها، مضى إلى شقة دولي. كانت داريا الكسندروفنا مضطربة أيضاً في هذا اليوم. كانت تروح وتجيء في الغرفة وتتكلم بغضب إلى إحدى بناتها الصغار، وكانت واقفة تبكي في ركن من الحجرة.

ـ ستبقين في هذا الركن طوال النهار، وستتعشين وحدك، ولن تري لعبة من لعبك، ولن أسمح بتفصيل ثوب جديد لك.

كانت تقول ذلك وهي لا تعلم أي عقاب تخترع.

وقالت لليفين وهي تلتفت إليه:

ـ آه! إنها طفلة رديئة! من أين جاءتها هذه الغرائز الشريرة؟

قال ليفين بشيء من اللامبالاة:

ـ هدئي نفسك، وماذا فعلت؟

كان يريد أن يسألها النصيحة وأسف لأنه لم يأت في الوقت المناسب.

ـ وذهبت مع غريشا لقطف توت العليق وهناك... لا أستطيع حتى أن أقول ماذا فعلت. كم أنا آسفة على الآنسة ايليوت. أما هذه فلا تلتفتُ إلى شيء... تصور أن الصغيرة...

وروت داريا الكسندروفنا إساءات ماشا.

قال ليفين مهدئاً:

ـ هذا لا يدل على شيء، وليس من الغرائز الشريرة، في شيء.

إنه مجرد شيطنة.

وسألته دولي:

ــ أنت، لا تبدو مطمئناً؟ لماذا جئت؟ وماذا يجري هناك؟

أحس ليفين، من اللهجة التي طرح بها السؤال، أن من السهل عليه قول ما كان ينوي أن يقوله.

ــ لم أكن هناك. كنت وحدي مع كيتي في الحديقة. هذه هي المرة الثانية التي نتخاصم فيها منذ أن.... وصل ستيفا.

فنظرت إليه دولي بعينين ذكيتين متفهمتين.

ــ قولي لي بكل صدق، أليس... لا أقول لكيتي بل لهذا للسيد...

تصرفٌ يشق على الزوج، لا يشق فحسب بلى إنه غير محتمل، ومهينٌ له.

ــ لا أدري كيف أقول لك؟...

وقالت لماشا التي تحركت لتستدير حين رأت ابتسامة خفية على وجه أمها:

ــ هلا بقيت في الركن!

أضافت:

ــ في المجتمع الراقي، يبدو كأنما يتصرف كما يتصرف جميع الشباب. إنه يغازلُ امرأة شابة وجميلة، والزوج ابن تلك الطبقة الراقية لا يجد في ذلك إلا ما يرضي غروره:

قال ليفين وهو بادي التجهم:

ــ نعم، نعم، لكن هل لاحظت ذلك؟

ــ لم ألاحظ أنا وحدي، بل ستيفا أيضاً. لقد قال لي بعد الشاي: «أعتقد أن فيسلوفسكي يغازل كيتي قليلاً».

قال ليفين:

ــ ممتاز. لقد اطمأنت نفسي. سأطرده.

صاحت دولي مذعورة:

ــ ماذا أصابك، أأنت مجنون؟

وأضافت وهي تضحك:

ــ دع ذلك، كوستيا، وعد إلى رشدك.

وقالت لماشا:

ــ طيب، تستطيعين أن تذهبي وتلقي «فاني» وأردفت مخاطبة ليفين:

ــ سأكلم ستيفا، إذا شئت. فسيذهب به. يمكن أن يقال له إنك تنتظر ضيوفاً. خلاصة القول إنه لا يلائم نمط بيننا. . .

ــ لا، لا، سأتعهد أنا بذلك.

ــ لكن لا ينبغي أن تتخاصم وإياه؟

قال ليفين وعيناه تبرقان:

ــ أبداً، سيسليني ذلك كثيراً.

وقال وهو يشير إلى المذنبة الصغيرة التي لم تذهب لتلتقي «فإني»:

ــ هيا، اصفحي عنها، يا دولي!

ظلت البنت واقفة قبالة أمها، بادية التردد، ملقية عليها نظرات من تحت، ومنتظرة أن تتطلع أمها إليها.

ألقت الأم عليها نظرة سريعة. فأخذت تنتحب وخبأت وجهها في تنورة أمها. فوضعت دولي على رأسها يدها الناعمة والناحلة.

وفكر ليفين: «ما الجامع المشترك بين هذه الطفلة وبيننا؟» ومضى يبحث عن فيسلوفسكي.

عندما اجتاز غرفة الانتظار، أمر بإعداد العربة للتوجه إلى المحطة.

فأجاب الخادم:

ــ انكسر أحد النوابط أمس.

ــ إذن أعدوا المركبة القديمة، لكن بسرعة أين الضيف؟

ــ في غرفته.

عندما دخل ليفين، كان فاسيا قد انتهى من حل أمتعته، وتنظيم أغانيه الجديدة، وكان يجرب لفافتين من أجل امتطاء الجواد.

أكان لوجه ليفين ذلك التعبير الخاص، أم أن فاسيا قد أدرك أن ذلك القليل من الغزل لم يكن في محله، في هذه الأسرة؟ فالواقع أنه أحس بالارتباك (على قدر ما يمكن لرجل من الطبقة الراقية أن يحس به) عند ظهور ليفين.

ــ أتمتطي الجواد بلفافتين؟

قال فاسيا وهو يضع ساقه الضخمة على الكرسي منهياً تزرير لفافتيه وعلى وجهه ابتسامة لطيفة:

ــ نعم، فهذا أنظف بكثير.

ــ لا شك أنه كان فتى طيباً. ولقد خالج ليفين الإشفاق والندم عندما رأى الوجل في نظرة فاسيا.

كان على الطاولة قضيب كسروه في الصباح أثناء تمارينهم الرياضية، وهم يحاولون تركيب العارضتين المتوازيتين اللتين انتفختا بفعل الرطوبة. تناول ليفين قطعة القضيب هذه وأخذ يكسر طرفها المشقوق، دون أن يعرف كيف يطرق موضوعه.

ــ كنت أود. . .

وصمت، لكنه تذكر فجأة كيتي وكل ما جرى، فنظر إليه بعزم في عينيه، وأنهى كلامه:

ــ لقد أمرت بربط الجياد من أجلك.

فقال فاسيا بدهشة:

ــ كيف؟ للذهاب إلى أين؟

قال ليفين وهو عابس وقد أخذ يقشر طرف القضيب:

ــ كلي تقودك إلى المحطة.

ــ هل تعزم على السفر؟ هل حدث شيء؟

قال ليفين بعد أن فتت بين أصابعه القوية قطعة الخشب المكسرة.

ــ ما حدث هو أنني أنتظر ضيوفاً. على كل حال، إني لا أنتظر ضيوفاً ولم يحدث شيء. لكني أرجوك أن تنصرف. وفسر وقاحتي كما يحلو لك.

انتصب فاسيا وقال بوقار:

ــ أنت الذي أرجوه أن يفسر لي ذلك...

لقد فهم أخيراً.

وأردف ليفين بصوت بهيم، مباعداً بين المقاطع، ومحاولاً أن يخفي ارتجاف وجنتيه:

ــ لا أستطيع ذلك. ويجدر بك ألا تطرح علي أسئلة.

ونظراً لأن طرف القضيب المتشظي قد تنسل، فقد أقبل على الطرف الضخم، وكسر القضيب قسمين والتقط بعناية الجزء الذي وقع.

إن هاتين اليدين المتشنجتين، وهذه العضلات التي تعرفها هذا الصباح حتى في التمارين الرياضية، وهاتين العينين الملتمعتين، وهذا الصوت المخنوق، وهاتين الوجنتين المرتجفتين، إن ذلك كله أقنع فاسيا أكثر من الكلمات. فانحنى وهو يهز كتفيه بابتسامة مستخفة.

ــ أأستطيع أن أرى أوبلونسكي؟

لم يغتظ ليفين من هزه كتفيه ومن ابتسامته. وفكر: «لم يبق له ما يفعله غير ذلك».

ــ سأرسله إليك في الحال.

قال ستيفان أركادييفتش عندما لحق بليفين في الحديقة، بعد أن أنبأه صديقه بطرده.

ــ ما هذه الحماقة! لكن هذا مضحك! ما الذي حملك على ذلك؟ هذا مضحك للغاية! إذن، لأن شاباً. . .

لكن الدافع الذي حمل ليفين على ذلك ما يزال قائماً في نفسه، لذلك فقد امتقع عندما أراد ستيفان أركادييفتش أن ينطلق في إيضاحاته، وعجل فقاطعه:

ــ أرجوك لا تعطني إيضاحاً! لا أستطيع أن أتصرف على نحو آخر! أنا متألم لك وله. لكني أعتقد أنه سيتعزى عن ذلك بسهولة وحضوره يؤذينا. امرأتي وأنا.

ــ لكن هذه إهانة! ثم إن هذا مضحك!

ــ هذه إهانة لي أيضاً! وأنا لم أستحقها، ولا داعي لأن أتألم!

ــ آه! ما كنت أنتظر ذلك منك! يمكن للمرء أن يكون غيوراً، أما إلى هذا الحد فهذا مضحك للغاية!

انثنى ليفين عنه بسرعة ودلف إلى الممر حيث بقي يتمشى جيئة وذهاباً، وما لبث أن سمع صرير العربة القديمة ورأى من خلال الأشجار فاسيا جالساً على طبقة من القش (لسوء الحظ لم يكن في هذه العربة مقعد) يمر في الممر. واضعاً على رأسه قبعته الايكوسية، وهو يهتز لدى كل رجة.

فكر ليفين وهو يرى خادماً يخرج راكضاً ليوقف العربة: «ما الأمر». كان ذلك الرجل هو الميكانيكي الألماني الذي نسيه ليفين تماماً. قال هذا الرجل شيئاً لفيسلوفسكي وهو ينحني مراراً ثم صعد إلى العربة وابتعدا معاً.

استاء ستيفان أركادييفتش والأميرة من سلوك ليفين. وأحس هو نفسه لا بأنه مضحك إلى أعلى حد فقط بل وأيضاً بأنه مذنب وأنه في وضع مخز؛ لكنه حين فكر في الألم الذي عانته امرأته وعاناه هو أيضاً تساءل كيف سيتصرف في المرة القادمة، وأجاب نفسه بأنه سيتصرف تماماً كما تصرف الآن.

بالرغم من هذه الأحداث كلها، فإن الجميع، ما عدا الأميرة التي لم تصفح عن ليفين، كانوا فرحين ومنشرحين مثل الأطفال بعد العقاب، أو مثل الأشخاص الكبار بعد استقبال رسمي شاق. وفي المساء، عندما انصرفت الأميرة، تحدث الحاضرون عن طرد فيسلوفسكي كما يتحدثون عن حدث بعيد. واستطاعت دولي التي ورثت عن أبيها موهبة الفكاهة، أن تضحك فارنكا حتى تغرب في الضحك، عندما روت لها لثالث مرة ولرابع مرة، رواية جديدة في كل مرة، أنها كانت تستعد لأن تعلق عقدة من الأشرطة الجديدة على شرف ضيفهم وأنها دخلت القاعة عندما سمعت فجأة صرير العربة. ومن كان فيها؟ فاسيا نفسه بقبعته الايكوسية وأغانيه الغرامية ولفافتيه، وهو يجلس على كومة من القش!

ـ كان يمكنك على الأقل أن تربط له العربة الجديدة! كلا!... ثم أسمع: «قف!». وأعتقد أنهم قد أشفقوا عليه، وأنظر: فإذا بهم يحلون ألمانيا ضخماً بجانبه، ثم يذهبون به... وهكذا ذهبت الأشرطة هدراً!

[١٦]

نفذت داريا الكسندروفنا مشروعها وذهبت لترى آنا. لقد خشيت كثيراً أن تغم أختها أو تزعج زوج أختها. كانت تدرك أن لآل ليفين الحق في أن يأبوا التقارب مع فرونسكي لكنها كانت ترى من واجبها أن تذهب لزيارة آنا وأن تبرهن لها أن عواطفها لا يمكن أن تتغير رغم تبدل وضعها.

ولكي لا تقيد نفسها بآل ليفين، أرسلت تستأجر جياداً من القرية، لكن ليفين، حين علم، جاء ووبخها. قال لها:

ـ لماذا تعتقدين أنك تزعجينني بالذهاب إلى هناك؟ لو كان ذلك صحيحاً، لازداد غضبي حين أراك تستخدمين جياداً غير جيادي، وأنت لم تقولي لي قط أنك عاقدة العزم على الذهاب إلى هناك. وإذا استأجرت جياداً من القرية فإن ذلك

سيغمني أولاً، وثانياً إنها لن توصلك إلى هناك، إن عندي جياداً، فخذيها إذا شئت ألا تجرحيني.

اضطرّتْ داريا الكسندروفنا أن تقبل، وفي اليوم المحدد أمر ليفين بإعداد عربة ذات أربعة جياد وأبدال غير أنيقة من خيل الركوب لكنها قادرة على أن توصل داريا الكسندروفنا إلى غايتها في يوم واحد. في هذا الوقت، كانت الحاجة ماسة إلى الجياد من أجل الأميرة التي ستنصرف ومن أجل القابلة، ولقد أحرج ذلك ليفين لكن واجبات الضيافة كانت تمنعه من أن يترك داريا الكسندروفنا تستأجر جياداً، وفضلاً عن ذلك فإنه كان يعلم أن العشرين روبلاً التي ستدفعها دولي أجرة لهذا الرحلة كانت ضرورية لها. لأن ليفين وزوجته كانا معنيين بالهموم المالية لداريا الكسندروفنا التي كانت رفيقة الحال، عنايتهما بهمومهما المالية ذاتها.

انطلقت داريا الكسندروفنا، بناءً على نصيحة ليفين، قبل الفجر. كانت الطريق حسنة، والعربة مريحة، والجياد تخب بفرح، وكان على المقعد، إلى جانب الحوذي، المحاسب الذي أرسله ليفين، لمزيد من الاطمئنان، عوضاً عن الخادم المرافق. وأغفت داريا الكسندروفنا ولم تستفق إلا عندما اقتربوا من النزل الذي ستبدل فيه الجياد.

بعد أن تناولت داريا الكسندروفنا الشاي عند الفلاح الموسر نفسه الذي توقف عنده ليفين عندما قصد إلى منزل سفياجسكي، وبعد أن تحدثت مع النساء عن الأولاد وسمعت الشيخ يثني على الكونت فرونسكي ثناءً عظيماً، استأنفت سيرها في الساعة العاشرة. لقد كانت في البيت مستغرقة في شؤون أولادها، فلم يتسن لها قط أن تفكر. أما خلال هذا السفر الذي مضى عليه أربع ساعات فإن جميع أفكارها المكبوتة انهالت على ذهنها، وفكرت في حياتها كما لم تفكر قط من قبل، وتأملتها من وجوهها كافة. وكانت هذه الأفكار تدهشها هي نفسها. مر ببالها أولادها قبل أي شيء آخر، وكانت قلقة بشأنهم، مع أن الأميرة وكيتي بخاصة،

(وكانت تبني جل رجائها عليها) وعدا بالإشراف عليهم. «بشرط ألا تعود ماشا إلى حماقاتها، وألا تصاب غريشا بلبطة أحد الجياد، وألا تصاب ليلي بعسر الهضم». ثم ما لبثت مشكلات الحاضر أن أخلت مكانها لمشكلات المستقبل القريب. قالت في نفسها: إنه يلزمها تغيير شقتها وتبديل أثاث قاعة الاستقبال وصنع فرو لابنتها الكبرى. ثم مثلت أمامها قضايا المستقبل الأبعد، كيف تسيّر أولادها كلًّا في دربه وقالت في نفسها: «والأمر سهل مع البنات، أما الأولاد؟».

«إنني أهتم، في هذا الوقت، بغريشا، وهذا حسن جداً. لكن ذلك ما كان إلا لأن لدي فراغاً في هذه الفترة، وأنني لست حاملاً. لا جدوى من الاعتماد على ستيفا، طبعاً. وإذا تيسر لي خدم صالحون استطعت أن أخلص الأولاد من هذا المأزق. وإذا حملت مرة أخرى. . .» وقالت في نفسها: كم كان غير صحيح أن يقال: إن لعنة حلت بالمرأة وهي: أن تلد في الألم وفكرت وهي تتذكر آخر حمل لها وموت هذا الطفل الأخير: «الولادة ليست شيئاً، أما الحمل فهذا أرهب ما في الأمر». وتذكرت حديثها مع امرأة شابة في النزل، عندما سألتها إن كان عندها أطفال، فأجابتها تلك الفلاحة:

ــ كان عندي طفلة صغيرة، لكن الله خلصني منها، وقد دفناها أثناء الصوم الكبير.

فسألتها داريا الكسندروفنا:

ــ وهل تأسفت كثيراً عليها؟

ــ الواقع لا . وللشيخ أحفاد كثيرون مثلها. الولد هَمّ على أهله أنه لا يبقي لهم وقتاً للعمل أو لأي شيء آخر. هو عقبة تعرقلنا لا غير.

بدا هذا الجواب بغيضاً على داريا الكسندروفنا بالرغم من ذلك السحر البريء الذي اتسمت به تلك المرأة، لكن هذه الكلمات عادت إلى ذاكرتها تلقائياً الآن. لقد كانت هذه الأحاديث الوقحة تحتوي على شيء من الحقيقة.

فكرت داريا الكسندروفنا وهي تستعرض سنوات الزواج الخمس عشرة، «كانت هذه السنوات، على الإجمال: حملاً وغثياناً وتبلداً ولا مبالاة بكل شيء، وبشاعة مستمرة على الخصوص. إن كيتي ذاتها، مع ما هي عليه من شباب وسحر، قد غاض جمالها، أما أنا فإنني أغدو، أثناء الحمل، شنيعة، وأنا أعلم ذلك. الولادة. والألم، وعذاب الدقيقة الأخيرة... ثم الإرضاع، وليالي السهاد، وهذه الآلام المبرحة...».

ارتعشت داريا الكسندروفنا لمجرد أن تذكرت شقوق الثدي التي كانت تتألم منها مع كل ولد. «وتأتي بعد ذلك أمراض الأولاد، والقلق المستمر؛ ثم التربية، والميول الشريرة (تذكرت خطيئة ماشا الصغيرة في شجرة توت العليق). والدراسة، واللاتينية: كل ذلك شديد الغموض والصعوبة. وأسوأ الأشياء موت الأطفال». ومرة أخرى طافت بخيالها الذكرى القاسية لوليدها الأخير الذي اختطفه الموت بالخناق، وذكرى دفنه، واللامبالاة العامة حول النعش الصغير الوردي، وألمها المفرد أمام ذلك الجبين الأبيض الصغير بصدغيه الجعدين، وذلك الفم الصغير المفترّ، المدهوش، اللذين لمحتهما لآخر مرة عندما أغلق غطاء التابوت المزين بصليب مزركش.

«ولمَ ذلك كله؟ وما الغاية التي سيفضي إليها؟ إني لا أجد دقيقة أرتاح فيها: فأنا حامل تارة، ومرضع تارة أخرى، وأنا في جميع الأحوال شكسة، منهكة، كريهة على من حولي وعلى زوجي، كل ذلك لإنجاب أولاد تعسين، سيئي التربية، فقراء. لست أدري ماذا كنا سنفعل لو لم نقض الصيف عند آل ليفين. لا شك أن كيتي وكوستيا قد بلغا حداً من الرقة لم نتضايق منه، لكن ذلك لا يمكن أن يدوم وإذا صار لهما أولاد فلن يمكنهما مساعدتنا. وهما منذ الآن غير واسعي الثراء. ثم إن أبـي الذي لم يحتفظ بشيء لنفسه لا يمكن أن يساعدني.

وإذن فأنا لا أستطيع أن أربي أولادي، ولا بد لي من اللجوء إلى الآخرين،

وهذا مُذلٌ. ولنسلّم بأن كل شيء يسير على ما يرام، وأنني لن أفقد أولادي، وأنني تدبرت شؤون تربيتهم بطريقة ما. إن أفضل ما أرتجيه هو ألا يتجهوا وجهة سيئة. وكم نعاني من آلام ونكابد من مشقات حتى نصل إلى هنا!... لقد ضاعت حياتي!». وتذكرت ما قالته لها المرأة الشابة، فأحنقتها هذه الذكرى من جديد؛ لكنها اعترفت بأن في كلماتها شيئاً من الحقيقة القاسية.

سألت المحاسب لكي تنصرف عن الأفكار التي أخذت تخيفها:

ـ أما نزال بعيدين، يا ميشيل؟

ـ يبدو أن هناك سبعة فراسخ أيضاً وراء القرية هناك.

بعد أن اجتازت العربة القرية، دلفت إلى جسر صغير كان يمر عليه في هذه اللحظة جمهور من النساء كن يتحدثن بمرح، وعلى ظهورهن رزمهن المحزومة. وقفن ليتطلعن إلى العربة وهي تمر بأعين فضولية. كل هذه الوجوه التي التفتت إليها بدت سليمة، مليئة بالحياة، فغاظتها بالحياة والفرح اللذين تجليا فيها. وتابعت داريا الكسندروفنا تفكيرها بعد أن تجاوزوا الفلاحات، وتسلقوا طريقاً صاعداً، وأخذ خبب الجياد يهدهدها مرة أخرى هدهدة عذبة على النوابض المرنة القديمة. «وأنا انفلتّ قبل قليل من هذا العالم الذي يقتلني، وكأنني انفلت من سجن: الآن فقط استطعت أن أعود إلى نفسي للحظة قصيرة. كلهن: هؤلاء النسوة، وأختي ناتالي، وفارنكا، وآنا التي أنا ذاهبةٌ إليها، يعرفن ما الحياة، كلهن ما عداي...».

«إنهم يحملون على آنا، لماذا؟ ألأنا خيرٌ منها؟ أنا، على الأقل، لي زوج أحبه. لا كما أريد، لكني أحبه. بينما لا تحب آنا زوجها. وفيم هي مذنبة؟ إنها ترغب في أن تحيا. الله هو الذي زرع هذه الرغبة في نفوسنا. ربما كنت سأتصرف مثلها. وإني لأتساءل إن كنت قد أحسنت صنعاً حين أصغيت إليها في تلك الفترة الكريهة التي جاءت فيها لتراني في موسكو. كان جديراً بـي أن أهجر زوجي آنذاك

وأن أبدأ منذ البداية. كنت أستطيع أن أحب وأن أكون محبوبة. وهل حالي أفضل الآن! إني لا أقدر زوجي، أنا بحاجة إليه وأنا أتحمله. أهذا أفضل؟ كنت أستطيع آنذاك أن أُعْجِبَ، كان ما يزال لي جمالي». كذلك كانت تفكر داريا الكسندروفنا، واشتهت أن تنظر في المرآة. وكان في حقيبتها مرآة صغيرة للسفر، فراودتها نفسها في أن تخرجها؛ لكنها بعد أن رأت ظهر السائق، والمحاسب المهتز على مقعده، أحست أنها ستستحي لو التفت أحدهما إلى الوراء، فامتنعت عن إخراجها.

لكنها كانت تفكر، حتى لو لم تنظر إلى مرآتها، في أن الأوان لم يفت بعد؟ وتذكرت سيرج ايفانوفتش الذي كان شديد اللطف معها، وصديق ستيفا، توروفتسين الطيب الذي ساعدها على العناية بأولادها عندما أصيبوا بالحمى القرمزية، والذي كان مغرماً بها. وكان هناك شاب رأى، بحسب ما روى لها زوجها مازحاً، أنها أجمل من أختيها. وتوافدت إلى ذهنها أشد القصص هياماً واستحالة. «أحسنت آنا صنعاً، ولست أنا التي سترميها بحجر، إنها سعيدة، وهي تُسعد رجلاً آخر، وهي لم تتبلد مثلي، ولا شك أنها ما تزال غضة، خفيفة الروح، منفتحة، كما كانت من قبل». وداعبت شفتي داريا الكسندروفنا، ابتسامة ماكرة وهي تبني قصة موازية لقصة آنا، شبيهة بها مع رجل من نسيج خيالها، يهيم حباً بها، وهي تعترف بكل شيء لزوجها كما اعترفت آنا. أما دهشة زوجها وارتباكه عند سماع هذا النبأ فيحملانها على الابتسام.

ظلّت مستغربة في أحلام اليقظة هذه حتى وصلت إلى ملتقى طرق، إلى الطريق الذي يوصل إلى «فوزد فيجنسكوي».

[١٧]

أوقف الحوذي جياده وألقى نظرة سريعة إلى اليمين، نحو حقل من الشيلم جلس فيه فلاحون بقرب عربة. أراد المحاسب أن يقفز عن مقعده، لكنه غير رأيه

وصاح بلهجة الأمر الحاسم مشيراً إلى أحد الفلاحين أن يقترب. لقد هدأ الآن، بعد أن توقفوا، النسيم الذي كان يهب عليهم أثناء سيرهم؛ وجاءت النعرات بأعداد كبيرة لتلتصق بظهور الحياة التي غطاها العرق والتي كانت تحاول التخلص منها. وتوقف فجأة الصوت المعدني لمنجل كان الحاصد يضرب به قرب العربة. نهض أحد الفلاحين ودنا من العربة.

صاح المحاسب بلهجة فظة مخاطباً الفلاح الذي كان يتقدم ببطء، حافي القدمين، على الأرض الوعرة والجافة:

ــ مالك لا تتحرك، هل نبتت لك جذور في الأرض! أتريد أن تأتي، نعم أم لا؟

حث الرجل خطاه، وكان شيخاً جعد الشعر الذي ثبته برباط من قشر الشجر، محدودب الظهر، مسوداً من العرق، وأدرك العربة، وتشبّثت يده الملوَّحة بواقية الوحل، وردد قائلاً:

ــ تريد فوزد فيجنسكوي، منزل الأسياد؟ منزل الكونت؟ ليس عليك إلاَّ أن تصعد هذا المرتفع. ثم تنعطف إلى اليسار. وستلقى الممر، وهناك بيته. من تريد أن ترى؟ الكونت نفسه:

قالت داريا الكسندروفنا دون تدقيق، لأنها لم تعلم كيف تستخبر هذا الفلاح عن آنا:

ــ أهم في بيتهم، يا صاحبي؟

قال الرجل وهو يتمايل من قدم إلى أخرى وقد انطبع التراب بأثر باطن قدميه مع الأصابع الخمس.

ــ أظن أنهم هنا.

وردّد وهو ظاهر الحرص على أن يستفيض في الحديث عنهم:

ـ أظن أنهم هنا. البارحة بالذات كان عندهم ضيوف. إنهم يستقبلون كثيراً من الناس...

والتفتت إلى فتى جالس قرب العربة كان يصرخ بشيء له:

ـ ماذا تريد؟

واستأنف كلامه:

آه! نعم، صحيح! لقد مروا من هنا على ظهور الجياد، وكانوا ذاهبين إلى رؤية الحصادة. ولا بد أنهم عادوا الآن، وأنتم من أين تأتون؟

قال الحوذي وهو يعود إلى مقعده:

ـ من بعيد... إذن، فهم غير بعيدين من هنا؟

قال وهو يطبطب بيده على الواقية من الوحل:

ـ بما أنني أقول لك أنك وصلت. فما أن تقطع السفح... دنا منه فلاحٌ، قصير وسمين، وسأل، بدوره:

ـ هل سيكون هناك عمل لإدخال الحصاد؟

ـ لست أدري، يا صاحبي.

قال الفلاح الذي بدا عليه أنه ترك المسافرين يذهبون بالرغم منه لأنه كان يود لو يحدثهم قليلاً:

ـ هكذا، فهمت، انعطف إلى اليسار تصل رأساً.

حث الحوذي جياده لكنه لم يكد يدخل في المنعطف حتى ناداه الفلاح وصوت آخر:

ـ قف، يا صاحبي، قف!

فوقف الحوذي. وصرخ الفلاح:

ـ ها هم! هناك.

وتابع وهو يشير إلى أربعة فرسان يقتربون على الطريق ومعهم عربة ذات مقاعد:

ــ إنهم جماعة كبيرة.

وكانت الجماعة فرونسكي وفارس من فرسان السباق، وآنا وفيسلوفسكي على الجياد، ثم الأميرة بربارة وسفياجسكي على العربة ذات المقاعد. وكانوا قد ذهبوا ليروا كيف تعمل الحصادات التي أدخلت حديثاً إلى أملاك فرونسكي.

عندما توقفت العربة، سار الفرسان الهوينا. جاءت آنا في المقدمة مع فيسلوفسكي. كانت تتقدم ببطء على جواد انكليزي صغير، قصير الذيل، مقصوص العرف. ولقد راع دولي رأسها الجميل المغطى بقبعة عالية تفلت منها شعرها الأسود، وكتفاها المدوران، وقامتها المشدودة بلباس الفرسان الأسود، وهيئتها الهادئة والرشيقة.

بدا لها، في اللحظة الأولى، من غير اللائق أن تمتطي آنا جواداً. فالفروسية بالنسبة إلى المرأة ترتبط، في ذهن داريا الكسندروفنا، بفكرة الغنج الطائش الذي لا يتفق ووضع آنا؛ لكنها عندما رأتها عن كثب، تبدّد عداؤها للفروسية. وبالرغم من أناقة آنا، كان كل شيء بالغ البساطة والهدوء والوقار في وضعيتها وثيابها وحركاتها بحيث بدا كل شيء أقرب ما يكون إلى الطبع.

وإلى جانب آنا، جاء فاسيا فيسلوفسكي، على جواد أشهب جامح، وساقاه الربلتان ممدودتان إلى الإمام، وكأنه شديد الاعتزار بنفسه، وعلى رأسه قبعة أيكوسية ذات شريطين خفاقين، ولم تستطع داريا الكسندروفنا أن تكبت ابتسامة ماكرة عندما تعرفته، وكان فرونسكي يتبعها، ويمتطي جواداً أصيلاً كميتاً مائلاً إلى السمرة قد اهتاج وهو يخب من غير شك. وكان يكبحه وهو يشد لجامه.

وخلفه جاء رجل قصير بلباس فرسان السباق؛ أما سفياجسكي والأميرة فقد كانا يلحقان بالفرسان في عربة جديدة ذات مقاعد يجرها حصان أسود قوي.

استضاء فجأة وجه آنا بابتسامة مشرقة عندما تعرفت إلى دولي في ذلك الشخص الصغير القابع في ركن العربة القديمة. أطلقت صرخة وارتعشت وحثت جوادها؛ فلما صارت بحذاء العربة، وثبت عن جوادها دون مساعدة أحد، وأقبلت على دولي راكضة، وهي ترفع ثيابها. وقالت وهي تضغط وجهها على وجه دولي تارة، وتبعدها عنها تارة أخرى لتتأملها والابتسامة على شفتيها:

ـ كان صحيحاً ما بدا لي، لكني ما كنت أجرؤ على أن أصدق عيني. ما أشد فرحي! لا تستطيعين أن تتصوري ما تسببينه من ابتهاج. وقالت وهي تلتفت إلى فرونسكي الذي ترجل لينضم إليهما:

ـ انظر، الكسي، ما أعظم سعادتي!

دنا فرونسكي من دولي وهو يرفع قبعته العالية الرمادية، وقال وهو يشدد على كل كلمة من الكلمات التي يقولها، كاشفاً عن أسنانه السليمة والبيضاء:

ـ لا تستطيعين أن تتصوري مقدار الفرح الذي تبعثه زيارتك فينا.

رفع فاسيا فيسلوفسكي قبعته دون أن يترجل، وحيا القادمة الجديدة وهو يهزها بسرور فوق رأسه.

قالت آنا جواباً عن نظرة دولي المستفهمة عندما صارت العربة ذات المقاعد على مقربة منهما:

ـ هذه هي الأميرة بربارة.

قالت دولي:

آه!

وعبر وجهها عن الامتعاض.

كانت الأميرة بربارة إحدى عمات زوجها؛ وقد عرفتها منذ زمن بعيد ولم تكن لها احتراماً. وكانت تعلم أن الأميرة بربارة قضت حياتها كلها عالة على الأقارب الأثرياء؛ وكونها تعيش الآن في منزل فرونسكي، وهو لا يخصها، جرح

دولي من أجل عائلة زوجها. لاحظت آنا تعبير وجهها، فاضطربت واحمرت، وفلت ذيل ثوب الفروسية من يدها وتعثرت قدماها به.

جاءت داريا الكسندروفنا إلى العربة ذات المقاعد وحيّت الأميرة ببرودة. وكانت تعرف سفياجسكي أيضاً، فسألها عن أحوال صديقه الغريب الأطوار وزوجته الشابة، وبعد أن ألقى نظرة سريعة على العربة القديمة غير المتجانسة وعلى واقيتها المرقعة، عرض على السيدتين أن تصعدا إلى العربة ذات المقاعد، وقال:

ـ أنا سأذهب في تلك العربة. الجواد هادىء والأميرة تحسن القيادة.

قالت آنا التي دنت منهما:

ـ لا، أبقيا كما كنتما. وسنذهب في عربة دولي.

وأمسكت بذراع دولي وقادتها إلى العربة.

بهرت داريا الكسندروفنا بالعربة الأنيقة والجياد الجميلة والناس المتألقين الذي أحاطوا بها. لكن الذي راعها على وجه الخصوص هو التحول الذي طرأ على عزيزتها آنا التي كانت تعرفها جيداً. إن امرأة غيرها أقل تنبهاً منها، لم تعرف آنا من قبل ولم تقلّب في رأسها تلك الأفكار التي قلبتها داريا الكسندروفنا أثناء سفرها، ما كانت لتلاحظ شيئاً خاصاً لدى آنا، لقد فتنت دولي بهذا الجمال الخاطف الذي لا يشاهد لدى النساء إلاّ في لحظات الحب والذي رأته الآن على وجه آنا. كان كل شيء في وجهها: وضوح الغمازات في وجنتيها وذقنها، طية الشفتين، الابتسامة التي كانت كأنها تحوم حول قسماتها، بريق عينيها، رشاقة حركاتها وحيويتها، امتلاء جرس صوتها، وحتى لهجتها الناترة التي أجابت بها فيسلوفسكي الذي استأذنها في امتطاء جوادها الانكليزي ليعلمها الجري بالرجل اليمنى، كل ذلك كان بالغ الفتنة، وكانت آنا كأنما تشعر به وتجد مسرة به.

عندما صعدتا إلى العربة أحست المرأتان فجأة بالضيق. لم ترتح آنا للنظرة المتمعنة والمتسائلة التي حدجتها بها دولي. وكانت دولي من جهتها خجلة، بعد

ملاحظة سفياجسكي، بالعربة العتيقة المغبرة التي جلست فيها آنا معها. وخالج الحوذي المحاسب الشعور نفسه. وكان المحاسب شديد التلطف مع السيدتين ليخفي اضطرابه، أما الحوذي فكان مكفهر الوجه، لقد أخذ على نفسه ألَّا يغترّ بهذا البريق الخادع. وابتسم ابتسامة ساخرة لذلك الجواد الأدهم، وقرر في نفسه أن مثل هذا الحصان الذي يقود عربة ذات مقاعد صالح فقط للتنزه، لكنه لا يستطيع أن يقطع أربعين فرسخاً في حر الصيف.

وقف جميع الفلاحين الذي أحاطوا بالعربة، وأخذوا يتأملون هذا اللقاء بفضول ويبدون عليه ملاحظاتهم.

قال الشيخ ذو الشعر الجعد الذي ثبته بلحاء الشجر:

ــ إنهم مسرورون، فهم لم يتلاقوا منذ زمن طويل.

ــ قل لي، يا عم جيراسيم، أليس الجواد الأدهم ملائماً لإدخال الأكداس، كان سينتهي منها بسرعة!

قال أحدهم وهو يشير إلى فاسيا فيسلوفسكي الذي استقر على سرج السيدة:

ــ أوه! انظر إلى هذه ببنطال الفارس، أهي امرأة؟

ــ كلا، هذا رجل. أرأيت كيف امتطى الجواد بخفة!

ــ هيا، يا شباب أهذا وقت الاستراحة؟

قال الشيخ وهو يلقي بمؤخرة عينه نظرة نحو الشمس:

ــ حان وقت العمل! تجاوزنا الظهر. خذوا مناجلكم وهيا إلى العمل.

[١٨]

نظرت آنا إلى وجه دولي المهزول والمتعب الذي أبرز الغبار تجاعيده، وأرادت أن تقول لها ما فكرت فيه، وهو أنها هزلت؛ لكنها تذكرت أنها هي نفسها ازدادت جمالاً وأن نظرة دولي كانت تنبئها بذلك، فتنهدت وجعلت الحديث عنها هي نفسها.

قالت وهي تنظر إلى دولي بابتسامة وجلة ومستفهمة:

ــ إنكِ تنظرين إلي وتتساءلين إذا كنت أستطيع أن أكـون سعيدة في وضعي؟ إني لأخجل من الاعتراف بذلك لكني... لكني سعيدة على نحو لا يغتفر. إن فيما أصابني شيئاً من السحر؛ أصابني ما يصيب المرء الذي يستيقظ من كابوس مرعب ويحس أن أسباب الرعب قد زالت. لقد استيقظت. لقد عشت بعد تلك الفترة الفظيعة. وأنا الآن، ولا سيما منذ أن صرنا هنا، سعيدة أعظم السعادة!

قالت دولي، وهي تبتسم، بلهجة أشد برودة مما أرادت:

ــ أنا مغتبطة بذلك! أنا سعيدة به. لماذا تكتبـي إلي؟

ــ لماذا؟... لأنني لم أجرؤ... أتنسين وضعي؟

ــ ألم تجرئي على الكتابة إليّ! لو كنت تعلمين... كم أقدر...

أرادت داريا الكسندروفنا أن تصارحها بأفكار الصباح، لكن ذلك بدا لها في غير محله. وسألتها، وهي حريصة أن تغير الحديث، وأشارت إلى سطوح خضراء وحمراء كانت تتراءى وراء أسيجة حية من أشجار السنط والليلك:

ــ على كل حال، سنتحدث عن ذلك فيما بعد. ما هذه الأبنية؟ كأنها مدينة صغيرة.

لكن آنا لم تجبها، وسألتها:

ــ لا، لا، ما رأيك في وضعي؟

شرعت داريا الكسندروفنا تقول:

ــ أقدّرُ...

في هذه اللحظة مرّ بقربهما فاسيا فيسلوفسكي وقد أطلق العنان للحصان الانكليزي، وأخذ يعلو ويهبط بإيقاع على الجلد المدبوغ للسرج النسائي. وصاح:

ــ كيف الحال، آنا اركادييفنا؟

لكن آنا لم توله انتباهاً. بيد أن داريا الكسندروفنا أحست مرة أخرى أن من العسير أن تبدأ ذلك الحديث الطويل في العربة، ولذلك اختصرت الفكرة:

ـ إني لا أقدر شيئاً. لقد أحببتك دائماً، وعندما نحبّ إنساناً فإنما نحبه كله، كما هو، لا كما نريد أن يكون.

انصرفت آنا بنظرتها عن وجه صديقتها، وغمزت بعينيها (وهي عادة جديدة لم تعهدها دولي فيها من قبل) وأخذت تفكر، وهي تحرص على أن تفهم فهماً تاماً معنى كلماتها. ثم نظرت إلى دولي بعد أن بدا عليها أنها فهمتها كما يطيب لها أن تفهمها. وقالت لها:

ـ إن كان ضميرك يؤنبك على بعض زلاتك. فسوف تغفر لك بسبب زيارتك وهذه الكلمات.

ورأت دولي الدموع تترقرق في عينيها. فشدت على يد آنا دون أن تنبس بكلمة. ورددت بعد دقيقة صمت:

ـ لم تقولي لي ما هذه الأبنية؟ فما أكثرها!

أجابت آنا:

ـ هذه بيوت الخدم، ومرابط الخيل والاصطبلات. الحديقة تبدأ من هنا، كل ذلك كان مهجوراً، لكن الكسي استصلحه. إنه يحب كثيراً هذه الأملاك، ولقد دهشت دهشة عظيمة حين رأيته يشغف بالاستثمار الزراعي. إنه غني بمواهبه. فهو يجيد كل ما يباشره. وهو يقبل بشغف على ما يفعله ولا يمل. لقد أصبح مقتصداً، وملاكاً ممتازاً، بل وبخيلاً. . . لكن في استثماره فقط، لأنه ينفق دون حساب عشرات آلاف الروبلات.

قالت ذلك بابتسامة مشرقة هي ابتسامة النساء اللواتي يتحدثن عن بعض السمات الخلقية في الرجل الذي يحببنه. وأضافت:

ـ أترين هذا المبنى الكبير؟ إنه مستشفى جديد. أنه سيكلف أكثر من مائة ألف روبل. هذه هي فكرته المفضلة في الوقت الراهن. هل تعلمين من أين جاءته هذه الفكرة؟ طلب إليه بعض الفلاحين أن يتنازل لهم عن مرج له بسعر زهيد؛ فرفض ولمته على بخله. بالطبع ليس هذا هو السبب الوحيد وإنما هناك جملة أسباب؛ لقد شرع في هذا المستشفى ليظهر أنه يمكن أن يكون كريماً، أتفهمين؟ تلك حقارة إذا شئت، لكن حبي له يزداد بسببها. والآن سترين البيت؛ إنه من عهد جديد، ولم يغير شيئاً في ظاهره.

قالت دولي وهي تتأمل بإعجاب بيتاً ذا أعمدة يبرز في خضرة أشجار قديمة:

ـ ما أجمل هذا البيت!

ـ أرأيت؟ والمنظر بديع من الطابق الأول.

دخلتا باحة مفروشة بالحصى ومزينة برياض الأزهار سورها بستانيان بإطار من الحجارة المنخورة، ووقفنا أمام درج المدخل المغطى.

قالت آنا وقد رأت جياد الركوب تساق إلى الاصطبل:

ـ آه! لقد وصلوا! ما أجمل هذا الجواد أليس كذلك؟ إنه جواد انكليزي وهو جوادي المفضل. ائتني به وأعطني شيئاً من السكر.

وسألت خادمين بلباسهما الرسمي هرعا إلى لقائهما:

ـ أين الكونت؟

وأضافت وهي تشاهد فرونسكي وفيسلوفسكي يقبلان عليهما:

ـ ها هما، هناك!

قال فرونسكي لآنا بالفرنسية:

ـ أين ستنزلين الأميرة؟

ودون أن ينتظر الجواب، حيا الأميرة من جديد، وقبل يدها هذه المرة. وأضاف:

ــ في الغرفة الكبرى ذات الشرفة، ربما؟

قالت آنا وهي تطعم جوادها المفضل سكراً حمله الخادم إليها:

ــ أوه! لا، هذه شديدة البعد! بل في غرفة الزاوية، نستطيع فيها أن ترى إحدانا الأخرى أكثر. هيا بنا إليها.

وقالت لفيسلوفسكي الذي كان يتقدّم على درج المدخل:

ــ أنت تنسى واجبك.

فأجاب وهو يبتسم ويدس أصابعه في جيب صدرته:

ــ عفواً، فجيوبي ملأى به.

وأردفت وهي تجفف بمنديلها يدها التي بللها الجواد وهو يتناول السكر:

ــ لكنك جئت بعد فوات الأوان.

والتفتت آنا إلى دولي وقالت:

ــ هل تنوين البقاء طويلاً؟ يوماً واحداً؟ هذا غير ممكن!

قالت دولي وقد ارتبكت حين أخرجت حقيبة سفرها المتواضعة من المركبة وحين أحست أن وجهها لا بد أن يكون مغطى بالغبار:

ــ وعدت بذلك، والأولاد...

ــ لا، دولي يا عزيزتي... لكن سترى. هيا، هيا!

وقادتها آنا إلى غرفتها

لم تكن هذه الغرفة فخمة كالتي عرضها فرونسكي، واعتذرت آنا لذلك، لكنها كانت أفخم من كل الغرف التي سكنتها دولي من قبل، وقد ذكّرتها بأجمل الفنادق في الخارج.

قالت آنا التي جلست لحظة بجنب دولي وهي بلباس الفرسان:

آه! ما أسعدني بك، يا عزيزتي! حدثيني عن ذويك. رأيت ستيفا وهو

مستعجل. لكنه لا يحسن الكلام على الأولاد. كيف صارت تانيا، طفلتي المفضلة؟ لا شك أنها غدت بنتاً كبيرة الآن؟

أجابت دولي بإيجار وهي مدهوشة لأنها تكلمت على أولادها بهذه البرودة:

ــ نعم لقد كبرت كثيراً.

وأضافت:

ــ نحن مسرورون جداً في منزل آل ليفين.

قالت آنا:

ــ لو قد علمت أنك لا تحتقرينني لكان ينبغي أن تأتوا جميعاً إلى هنا.

وأضافت وهي تحمر فجأة:

ــ ستيفا صديق قديم لألكسي.

أجابت دولي وهي مرتبكة:

ــ نعم، لكننا مسرورون جداً هناك.

ــ صحيح، فالفرح يحملني على قول هذه الحماقات. ما أسعدني برؤيتك، يا صديقتي!

قالت ذلك وعانقت زوجة أخيها. وأضافت:

ــ لم تقولي لي بعد ما رأيك فيَّ وأحب أن أعلم كل شيء. لكنني مسرورة لأنك ترينني كما أنا. وأود على الخصوص ألا يعتقد أحدٌ أنني أحب التدليل على شيء ما. لست أريد التدليل على شيء، وإنما أريد أن أعيش، دون أن أسيء إلى أحد إلا إلى نفسي. وهذا من حقي، أليس كذلك؟ على كل حال، هذه قصة طويلة، وسنتحدث عن ذلك كله على مهل. سأبدّل ثيابي، وسأرسل لك الخادمة.

[١٩]

مرة واحدة فقط، فحصت داريا الكسندروفنا غرفتها كربة بيت. فكل ما رأته وهي تقترب من هذا المسكن وتعبره، كان يحمل أمارات الثراء والأناقة وهذا الترف الأوروبـي الحديث الذي عرفته من خلال الروايات الانجليزية، وهي لم تر قط في ريف روسيا شيئاً شبيهاً بهذا. كان كل شيء جديداً بدءاً من الورق الفرنسي المصور حتى السجاد الذي يغطي الأرض. وكان السرير على نوابض، مع لحاف صغير، ومخدة غريبة ووسائد صغيرة مغطاة بوجوه من الحرير الطبيعي. وكانت طاولة الزينة من المرمر، أما الكرسي الطويل والمناضد والساعة الجدارية البرونزية والستائر والسجوف فكانت كلها جديدة وثمينة.

وكانت الخادمة الأنيقة التي جاءت تعرض خدماتها والتي بدت أقرب إلى الزي العصري من دولي بزينة رأسها وثوبها، جديدة وباهظة الثمن مثل سائر ما في الغرفة. وقد فتنت داريا الكسندروفنا بأدبها ومجاملتها لكنها كانت تضيق صدراً بصحبتها؛ وكانت تستحي أمامها من قميص النوم المرتق الذي حملته معها خطأً. كانت حمرة الخجل تعلوها من هذه الرقع ومن ذلك الرتق، وكانت فخورة بذلك في بيتها. كان من الواضح، في البيت أن ستة قمصان تحتاج إلى أربعة وعشرين ذراعاً من القماش القطني الهندي بخمسة وستين كوبيكاً، أي ما مجموعه خمسة عشر روبلاً ونيف، ما عدا التفصيل والزخرفة، وهو مبلغ توفره. لكنها أحست أمام هذه الخادمة بالارتباك إن لم يكن بالذل.

شعرت داريا الكسندروفنا بالتخفف عندما دخلت إلى الغرفة آنوشكا التي عرفتها منذ زمن بعيد. لقد استُدعيت الخادمة الفرنسية إلى غرفة معلمتها وظلت آنوشكا مع داريا الكسندروفنا.

بدا على آنوشكا اغتباطها بقدوم دولي فاستفاضت في الكلام. ولاحظت دولي أنها ترغب في الإعراب عن رأيها حول وضع سيدتها، ولا سيما عن الحب

والإخلاص اللذين يظهرهما الكونت لآنا أركادييفنا، لكن دولي كانت توقفها بفطنة منذ أن تتطرق إلى هذا الموضوع.

ـ لقد ربتني آنا أركادييفنا، وهي أعز عليّ من كل شيء، ليس لنا الحق في الحكم، أليس كذلك؟ ويبدو عليها أنها تحبه كثيراً...

فتقاطعها داريا الكسندروفنا:

ـ إذن ستغسلين لي هذا، أرجوك، إن أمكن.

ـ حاضر، يا سيدتي. إن عندنا هنا غسالتين، والغسيل إنما يغسل على الآلة. إن الكونت يشرف بنفسه على كل شيء. وزوج كهذا الزوج...

سُرَّت دولي عندما دخلت آنا ووضعت بذلك حداً لثرثرة آنوشكا.

كانت آنا لابسة ثوباً بسيطاً جداً من «الباتستة». فحصت دولي هذه الزينة بإمعان. وكانت تعلم ما تعنيه وما تكلفه هذه البساطة.

قالت آنا مشيرة إلى آنوشكا:

ـ إنها صديقة قديمة.

لم تظهر آنا أي ضيق، وبدت جدّ طبيعية وجدّ هادئة. ورأت دولي أنها قد تمالكت نفسها بعد الانفعال الذي أحدثه فيها قدومها، وأنها اصطنعت هذه اللهجة السطحية واللامبالية التي تغلف باب الحجرة التي تحتوي على عواطفها وأفكارها الحميمة.

سألتها دولي:

ـ كيف حال ابنتك، آنا؟

ـ آني؟ إنها بصحة جيدة. لقد ازدادت حسناً. أتريدين أن تريها؟ تعالي، سأريك إياها. عندنا مرضع إيطالية؛ وهي امرأة طيبة، لكنها غبية جداً! كنا نرغب في صرفها، لكن الصغيرة تعودت عليها، فاستبقيناها.

أرادت دولي أن تسألها عن كنية الطفلة:

ـ كيف تدبرتِ الأمرَ. . .

لكنها لاحظت أن وجه آنا ما لبث أن تجهم فغيرت السؤال:

ـ وهل فطمتها منذ الآن؟

لكن آنا فهمت، وقالت:

ـ ليس هذا ما كنت تنوين أن تسألي عنه؟ كنت تلمحين إلى كنيتها، أليس كذلك. ليس لها من اسم.

وأردفت وهي تغضن عينيها بحيث لم يبق منها سوى رموشها المضمومة:

ـ عنيت أنها ستسمى. . . كارينين. على كل حال (وهنا استضاء وجهها فجأة) سنتكلم على ذلك فيما بعد. تعالي، سأريك إياها. إنها لطيفة جداً. لقد أخذت تحبو.

في غرفة الأطفال، ازدادت دهشتها بهذا الترف الذي راعها في البيت كله. كان فيها عربات صغيرة طلبت من انكلترا، وأجهزة تعلم المشي، وأريكة مصنوعة بشكل طاولة البليار يستطيع أن يتنقل فيها الطفل وهو يحبو، وأراجيح ومغطساً جديداً غريب الشكل. كان ذلك كله إنكليزياً، متيناً، من الصنف الممتاز، الباهظ الثمن، كما هو واضح. وكانت الغرفة واسعة، عالية السقف جداً ومضيئة جداً.

عندما دخلتا كانت الطفلة جالسة بقميصها في مقعد صغير أمام الطاولة، تأكل حساء فاض على صدرها كله. وكانت تطعمها وتتناول طعامها معها خادمة روسية مخصصة للحضانة. ولم تكن المرضع ولا المربية في الغرفة؛ وإنما كانتا في الغرفة المجاورة تتحدثان بلغة فرنسية منكرة، وهي اللغة الوحيدة التي تستطيعان التفاهم بها.

دخلت المربية الانكليزية على عجل وهي تهز خصلات شعرها، وكانت امرأة مديدة القامة، أنيقة، كريهة الوجه، مريضة السحنة، وأخذت تعتذر على الفور، مع

أن آنا لم تلمها على شيء. وكانت الانكليزية تجيب مرات وبسرعة عن كل كلمة تقولها آنا: «نعم يا سيدتي».

فَتَنتْ الصغيرة داريا الكسندروفنا بلونها المتوهج، وسواد حاجبيها وشعرها، وجسدها الصغير، المتين، الأحمر، بالرغم من الهيئة الصارمة التي تفرست بها في القادمة الجديدة؛ بل إن دولي حسدتها على حسن وجهها. وأعجبت كثيراً بطريقة الصغيرة في الحبو أيضاً. فلم يحب أي من أولادها مثل هذا الحبو. وكانت الصغيرة بالغة الملاحة وهي مجلسة على السجادة وقد شُمر ثوبها الصغير. كانت كالحيوان الصغير، تنظر إلى الناس بعينيها السوداوين الملتمعتين، وهي ظاهرة الرضا عن إعجاب الناس بها. كانت تباعد بين ساقيها وهي تبتسم، وتستند بقوة على يديها، وتقدم بسرعة مؤخرة جسدها، ثم تدفع مرة أخرى بيديها إلى الأمام.

لكن جو الحضانة ولا سيما الانكليزية لم يعجبا داريا الكسندروفنا أبداً. وقالت في نفسها: إن آنا لم تستبق هذه المرأة الكريهة وغير الجديرة بالاحترام بالقرب من صغيرتها، مع معرفتها بالناس، إلا لأن أي شخص لائق سيرفض الخدمة في مثل هذه الأسرة غير الشرعية. وأكثر من ذلك، لقد أدركت دولي من بضع كلمات أن آنا والمرضع والمربيات كن غريبات الواحدة عن الأخرى، وأن زيارة آنا كانت حدثاً غير مألوفٍ. ولم تستطع آنا أن تعثر على لعبة كانت تبحث عنها للطفلة.

وأخيراً، فعندما سألتها كم عدد أسنان ابنتها، أخطأت آنا (ودهشت دولي من جراء ذلك): كانت تجهل أن للصغيرة سنَّيْن جديدين.

قالت آنا وهي تخرج من الحضانة وترفع ذيل ثوبها لكي لا يعلق باللعب التي كانت ملقاة أمام الباب:

ــ هذا يشق عليَّ أحياناً، فأحس أنني زائدة عن اللزوم هنا. كان الأمر مختلفاً مع البكر!.

قالت داريا الكسندروفنا بوجل:

ــ كنت سأصدق العكس. . .

فاستأنفت آنا وهي تغمز بعينيها وكأنها تحدّق إلى نقطة في مكان بعيد:

ــ أوه! لا. أتعلمين أني رأيت سيريوجا ثانية. على كل حال، سوف نتحدث عن ذلك. لا تستطيعين أن تتصوري، أنا كامرأة تموت من الجوع، وتُقدَّم لها وليمة، فلا تعلم من أين تبدأ. والوليمة إنما هي أنت والأحاديث التي ستدور معك، في الحين الذي لا أجرؤ فيه على الكلام مع أحد. ولست أدري بأيها أبدأ. لكني لن أعفيك من شيء. يجب أن أقول لك كل ما في قلبي. نعم، يجب أن أُعطيك لمحة عن الناس الذين ستلتقينهم عندنا. وأبدأ بالسيدات. الأميرة بربارة. أنت تعرفينها، وأنا أعلم رأيك فيها ورأي ستيفا. ستيفا يقول إن هدف حياته الوحيد هو أن يبرهن على تفوقه على عمتنا كاترين بافلوفنا؛ هذا صحيح تماماً؛ لكنها طيبة، وأنا شديدة الامتنان لها. جاءت لحظةٌ في بطرسبرج كنت فيها بحاجة ماسة إلى مصاحبة، فقبلت أن تكون تلك المصاحبة. أؤكد لك أنها طيبة القلب. لقد خففت كثيراً من وضعي. أرى أنك لا تدركين كم كان وضعي مؤلماً. . . هناك، في بطرسبرج. أنا سعيدة ومطمئنة تماماً، هنا. وسنعود إلى ذلك، وأكمل تعدادي. وهناك سفياجسكي، نقيب النبلاء في المقاطعة، وهو رجل لائق جاء يطلب خدمة من الكسي. واعلمي أن الكسي، مع ثروته الآن بعد أن استقر بنا المطاف في الريف، يمكن أن يكون له نفوذ عظيم. ثم هناك توشكيفتش، وقد رأيته، أنه المتيم ببيتسي. لقد جاء إلينا الآن بعد أن استبعدته. وهو، كما يقول الكسي، أحد هؤلاء الرجال الظريفين جداً إذا نظر إليه كما يجب أن يبدو، ثم إنه رجل لائق، كما تقول الأميرة بربارة. أما فيسلوفسكي. . . فأنت تعرفينه. . .

وقالت وقد طافت بشفتيها ابتسامة ماكرة:

ـ إنه فتى لطيف جداً. ما هذه القصة الغريبة بينه وبين ليفين؟ لقد حدّث فيسلوفسكي بها الكسي، لكننا لم نصدق كلمة واحدة منها. إنه لطيف جداً وساذج (قالت ذلك بالابتسامة نفسها).

الرجال بحاجة إلى تسليات والكسي لا يستطيع أن يستغني عن الجمهور، ولذاك فأنا حريصة على هؤلاء الناس جميعاً. يجب أن تكون حياتنا بهيجة ومليئة بالحركة، وألا يتمنى الكسي عمل شيء آخر. وسترين أيضاً وكيلنا. إنه ألماني، رجلٌ طيب يتقن عمله، والكسي يقدره كثيراً. ثم، هناك الطبيب الشاب، وهو ليس عدمياً لكنه يأكل بسكينه. . . على كل حال إنه طبيب ممتاز، وهناك المهندس. . كل ذلك بلاط صغير.

[٢٠]

قالت آنا وهي تصل مع داريا الكسندروفنا إلى الشرفة الكبرى حيث كانت الأميرة بربارة جالسة في الظل، خلف نول، تطرز وجه مقعد للكونت الكسي كيريلوفتش:

ـ يا أميرة، ها هي ذي دولي التي كنت تشتاقين إلى رؤيتها. وهي تقول إنها لا تريد أن تتناول شيئاً قبل العشاء، لكن دعيها تتناول شيئاً، سأذهب للبحث عن الكسي وسآتي بهم جميعاً إليكما.

استقبلت الأميرة بربارة «دولي» بلطف وبشيء من التعطّف وأخذت على الفور تشرح لها أنها أقامت في منزل آنا لأنها فضلتها دائماً على أختها كاترين بافلوفنا التي ربت آنا، وأنها ترى من واجبها الآن وقد هجر الجميع آنا، أن تهب إلى نجدتها في هذه المرحلة الانتقالية البالغة الصعوبة.

ـ فعندما يوافق زوجها على الطلاق سأعود إلى عزلتي، أما الآن فأنا أستطيع أن أكون نافعة لها، وأنا أقوم بواجبي مهما يكن شاقاً، ولا أفعل ما يفعله

الآخرون. ما ألطفك، وكم أحسنتِ صنعاً بمجيئك! إنهما يعيشان كزوجين متحابين؛ ولله وحده الحق في الحكم عليهما، لا لنا. وهل بيريوزوفسكي والسيدة آفينييف... ونيكاندروف. وفاسيلييف والسيدة مامونوفا، وليزنيبتونوف... لم يقل عنهم أحدٌ شيئاً قط! وانتهى الناس جميعاً بأن استقبلوهم. ثم إن المنزل جميل جداً ولائق جداً، على الطراز الانكليزي تماماً. والناس هنا يجتمعون على الفطور صباحاً ثم يفترقون، ويفعل كل واحد ما يشاء حتى العشاء، في الساعة السابعة. أحْسنَ صنعاً ستيفا بأن أرسلك. يجب أن تظل علاقته حسنة بهما. أتعلمين أن الكونت يستطيع أن يفعل كل شيء بواسطة أمه وأخيه. إنهما واسعا البر والإحسان. ألم يحدثك عن مستشفاه؟ سيكون مثيراً للإعجاب. كل شيء فيه من باريس.

انقطع حديثهما بمقدم آنا التي وجدت الرجال في غرفة البليار وعادت معهم إلى الشرفة. كان ما يزال في الوقت فسحة حتى موعد العشاء؛ وكان النهار بديعاً، ولذلك أقترح الحاضرون سبلاً شتى لقضاء الساعتين الباقيتين. كان هناك سبل كثيرة لتزجية الوقت في «فوز فيجنسكوي»، وكلها مختلفة أشد اختلاف عن التي تستخدم في «بوكر وفسكوي».

عرض فيسلوفسكي وهو يبتسم ابتسامته اللطيفة:

ــ لعبة بكرة المضرب. سنصبح شريكين مرة أخرى، يا آنا أركادييفنا.

قال فرونسكي:

ــ لا، فالحر شديد؛ ولنذهب، بالأحرى، إلى التنزّه في الحديقة، ولنقم بجولة في القارب لنري داريا الكسندروفنا المشاهد الطبيعية.

قال سفياجسكي:

ــ أوافق على كل شيء.

قالت آنا:

ـ أعتقد أن دولي تفضل أن تتنزه، أليس كذلك؟ وبعد ذلك سنذهب في القارب.

وهكذا كان. فذهب فيسلوفسكي وتوشكيفتش إلى حجرة الحمام، ووعدا بأن ينتظراهم هناك وأن يُعدّا القارب.

مضوا في الطريق اثنين اثنين، آنا مع سفياجسكي، ودولي مع فرونسكي. وكانت دولي متخوفة من هذا الوسط الجديد كل الجدة الذي ألْقت نفسها فيه. فمن الناحية المجردة والنظرية لم تكن تبرر سلوك آنا فحسب بل إنها كانت توافقها على هذا السلوك أيضاً. كانت لا تعذرها على حبها المذنب فحسب بل كانت تحسدها عليه، كما يقع في الغالب للنساء المحصنات اللواتي ضقن ذراعاً برتابة حياتهن الفاضلة. وفوق ذلك، كانت تحب آنا حباً ممزوجاً بالحنان. لكن الواقع أنها عندما رأتها في هذا الوسط من الناس الغرباء عنها، مع هذا الظرف الجديد عليها أحسّت بالانقباض. كانت تكره بخاصة أن ترى الأميرة بربارة تغفر كل شيءٍ لهؤلاء الناس طلباً للرفاهية التي يوفرونها لها.

كانت دولي توافق على سلوك آنا، إجمالاً ومبدئياً، لكن كان يشق عليها أن تتحمل حضور الرجل الذي أضلها عن سواء السبيل. وفضلاً عن ذلك فإن فرونسكي لم يعجبها قط. كانت تراه شديد التكبّر ولا ترى فيه شيئاً يمكنه أن يفتخر به سوى ثروته. لكنه هنا، في بيته، كان يفرض هيبته عليها، بالرغم من إرادتها، أكثر من ذي قبل، وكانت تحس بالضيق وهي إلى جنبه. شعرت أمامه بشعور شبيه بالشعور الذي خامرها أمام الخادمة بصدد قميص نومها. فكما أحست أمامها بأنها مرتبكة على الأقل إن لم تكن خجلة من جراء رتق قميصها، فكذلك كانت أمامه مرتبكة باستمرار على الأقل إن لم تكن خجلة، من جراء شخصها.

كانت تبحث، وهي مضطربة، عن موضوع للحديث. ومع أنها كانت تقدّر أن فرونسكي يكره الثناء بسبب من كبريائه، إلا أنها قالت له، وهي لا تعلم كيف تبدأ الحديث معه، إنها تجد مسكنه جميلاً جداً. فقال:

ـ نعم، إنه بناء جميل، من الطراز العتيق الجميل.

ـ أعجبتني كثيراً الباحة الرئيسية: أهي قديمة؟

قال وقد أشرق وجهه بالفرح:

ـ أوه لا! ليتك رأيتها في الربيع!

واسترعى انتباه دولي، على نحو خفي أولاً، ثم وهو يتحمّس شيئاً فشيئاً، إلى مختلف التحسينات التي أجراها في البيت وفي الحديقة. كان واضحاً أنه، بعد أن أتعب نفسه في تزيين مسكنه، كان يشعر بالحاجة إلى أن يفتخر بذلك أمام القادمة الجديدة، وأنه كان مغتبطاً من إطراء داريا الكسندروفنا.

قالت لها وهو ينظر في وجهها ليقتنع بأن ذاك لن يضجرها أبداً:

ـ إن لم تكوني متعبة فنحن نستطيع أن نذهب ونلقي نظرة على المستشفى. فهو غير بعيد، تعالي.

وأضاف:

ـ أتأتين، يا آنا؟

قالت وهي تلتفت إلى سفياجسكي:

ـ نعم، أليس كذلك؟ لكن يجب ألا نترك المسكين فيسلوفسكي وتوشكييفتش يتعذبان هناك في القارب. ينبغي أن ننبئهم بذلك.

وأضافت وهي تلتفت إلى دولي وتبتسم تلك الابتسامة المقصودة والماكرة التي ابتسمتها وهي تتحدث عن المستشفى:

ـ إنه صرح سيتركه هنا.

قال سفياجسكي:

ـ هذا صحيح، إنه عمل رئيسي.

وما لبث أن أضاف ملاحظة ناقدة لكي لا يبدو عليه أنه يتملق فرونسكي.

ـ بيد أنني أدهش، يا كونت، من أنك، وأنت تفعل كثيراً الشعب من الناحية الصحية، غير مبالٍ بالمدارس.

قال فرونسكي:

ـ المدارس أصبحت شائعة جداً! ثم إنني شغفت بذلك.

وقال وهو يلتفت إلى داريا الكسندروفنا ويريها ممراً جانبياً:

ـ من هنا.

فتحت السيدات مظلاتهن وسرنَ في الممر. وبعد عدة منعطفات، عندما خرجن من كوة الحديقة، رأت داريا الكسندروفنا أمامها على ربوة من الأرض بناء ضخماً بالقرميد الأحمر، معقد الهندسة، ومنتهياً تقريباً. وكان السطح المصنوع من الصفائح المعدنية يرسل ضياء يخطف الأبصار تحت الشمس. وغير بعيد منه، ارتفع هيكل بناء تحيط به الصقالات؛ كان العمل بوزراتهم يضعون القرميد ويمدون فوقه طبقة من الملاط يسوونها بالزاوية.

قال سفياجسكي:

ـ ما أسرع ما يسير العمل عندك! عندما جئت آخر مرة لم يكن للبناء سقف.

قالت آنا:

ـ سيكون كل شيء تاماً في الخريف. وقد أنجز الداخل تقريباً.

قال فرونسكي ذلك واعتذر من السيدتين حين شاهد المهندس يقبل عليه بمعطفه القصير، ومضى صوبه.

دار دورة ليتفادى الحفرة التي كان العمال يأخذون منها الكلس ووصل إلى المهندس الذي أخذ يكلمه بحيوية.

أجاب آنا التي سألته عن موضوع الحديث:

ـ ما تزال الواجهة شديدة الانخفاض.

قالت آنا:

ـ لقد أوصيت بإعلاء الأسس.

قال المهندس:

ـ لا شك أن ذلك أفضل، لكن الأوان قد فات الآن.

أجابت آنا «سفياجسكي» الذي دهش من معرفتها بالهندسة:

ـ نعم، إني أهتم بذلك كثيراً. يجب أن يكون البناء الجديد منسجماً مع بناء المستشفى. بيد أنهم تخيلوه بعد بناء المستشفى وبدأوا به بدون مخطط.

بعد أن أنهى فرونسكي حديثه مع المهندس رجع إلى قرب السيدتين وقادهما إلى الداخل.

لم يكن الإفريز الخارجي محفوراً بعد، وكان العمال يدهنون الطابق الأرضي، لكن الطابق الأول كان منتهياً تقريباً. وبعد أن صعدوا بدرج معدني عريض إلى سطح الدرج، دخلوا الغرفة الأولى الكبيرة. كانت الجدارن مغطاة بالجص الذي يحاكي المرمر، وقد ثُبّتت النوافذ الضخمة وهي من قطعة واحدة؛ أرض الغرفة وحدها هي التي لم تكن منتهية بعد، وقد أُوقف النجارون الذين كانوا ينجرون مربعاً من الخشب ورفعوا الأشرطة التي ردوا بها شعورهم قبل أن يحيوا الزائرين.

قال فرونسكي:

ـ هذه صالة الاستقبال. لن يكون هنا سوى مقرأ وطاولة وخزانة.

قالت آنا وهي تجرب الدهان بطرف اصبعها.

ـ تعالي من هنا ـ لا تقتربي من النافذة. الكسي، الدهان قد جف.

ومن قاعة الاستقبال، انتقلوا إلى الممر. أراهم فرونسكي هنا نظاماً جديداً للتهوية. ثم أراهم مغاطس من المرمر، وأسرّة بنوابض غير عادية. وبعد ذلك، زار معهم جميع الغرف غرفة بعد غرفة، وغرفة المؤنة، وغرفة الغسل، وأراهم

المدافىء بتركيبها الجديد، والنقالات التي لا تحدث صوتاً، وكثيراً من الأشياء الأخـــرى. وكـــان سفيـاجسكـي ينتقـد كـــل شـــيء كـرجـل مطلـع علـى آخـر الاصطلاحات.

وكانت دولي تعجب بكل ما لم تره حتى الآن، وتطرح، رغبة منها في المعرفة أسئلة دقيقة تدخل السرور على نفس فرونسكي.

قال سفياجسكي:

ـ نعم، أعتقد أن هذا هو المستشفى الوحيد في روسيا المقام على نحو عقلاني تماماً.

واستفهمت دولي:

ـ ألن يكون لديكم صالة للتوليد؟ إن هذه الصالة عظيمة الفائدة في الريف. فغالباً...

قاطعها فرونسكي بالرغم من أدبه الجم وقال:

ـ ليست هذه داراً للتوليد، وإنما هذا مستشفى لمعالجة جميع الأمراض، ما عدا الأمراض المعدية. خذي، انظري إلى هذه...

ودفع نحو داريا الكسندروفنا مقعداً طلب حديثاً للناقهين وجلس فيه ومشاه وقال:

ـ انظري. إن المريض الذي لا يستطيع أن يمشي لأنه ما يزال شديد الضعف أو لأنه يشكو من ساقيه يمكنه أن يسير فيه إن كان بحاجة إلى الهواء.

كانت داريا الكسندروفنا تهتم بكل شيء، وكل شيء كان يفتنها، ولا سيما فرونسكي بحماسته البريئة. وكانت تقول في نفسها بين الحين والآخر: «نعم، إنه لرجل ساحر وطيب»، دون أن تصغي إليه، وإنما كانت تنظر إليه محاولة جهدها أن تستشف تعبير وجهه وأن تنتقل بفكرها إلى آنا. لقد أعجبها كثيراً وهو يظهر هذه الحيوية، وأدركت لماذا أمكن لآنا أن تهيم به.

قال فرونسكي لآنا التي اقترحت عليه أن يقصدوا إلى مربط الخيل حيث يريد سفياجسكي أن يرى جواده الجديد:

ــ لا، أعتقد أن الأميرة متعبة وأن الجياد لإتهمها. اذهبا أنتما، أما أنا فأصطحب الأميرة إلى البيت.

والتفت إلى دولي وأضاف:

ــ وسنتحدث قليلاً، إن كان هذا يسرك؟

قالت داريا الكسندروفنا بدهشة:

ــ لست أفقه شيئاً في الجياد، ولذلك فأنا أقبل بكل رضا.

لقد رأت من وجه فرونسكي أنه سيطلب منها شيئاً، ولم يخطىء ظنها. فما أن اجتاز باب الحديقة الصغير حتى نظر إلى الجهة التي ذهبت فيها آنا، وحين تأكد أنها لا تستطيع سماعها بدأ حديثه، وقال وهو ينظر بعينين ضاحكتين:

ــ لقد حزرت أنني أرغب في محادثتك. ولست مخطئاً في اعتقادي بأنك صديقة لآنا.

ورفع قبعته، وتناول منديله، ومسح به رأسه الذي أخذ يتعرى، لم تجب داريا الكسندروفنا بشيء واكتفت بأن رمته بنظرة مروعة. فعندما بقيت وحدها معه أحست فجأة بالقلق: لقد خوفها بعينيه الضاحكتين وتعبير وجهه الصارم.

طافت بذهنها مختلف الافتراضات فيما يتصل بالموضوع الذي سيطرقه: «سيطلب مني أن آتي مع الأولاد لأقيم عندهم، وعلي أن أرفض؛ أو أنه يريد أن أكون حلقة لآنا في موسكو... إلاَّ إذا دار الكلام على فيسلوفسكي وعلاقاته بآنا؟ أو أنه يريد أن يحدثني عن كيتي التي يشعر أنه مذنب نحوها؟» لم تفكر إلاَّ بالاحتمالات المزعجة ولم تتنبأ البتة بما ينوي أن يقوله لها.

قال لها:

ـ إن لك تأثيراً عظيماً في آنا، وهي شديدة التعلق بك، فساعديني.

ألقت داريا الكسندروفنا نظرة مستفهمة ووجلة على وجهه الصارم الذي تراقصت عليه ظلال الزيزفون وانتظرت ما سيقوله: لكنه ظل يمشي قربها بصمت، وهو يضرب الحصى بعصاه.

وسألها وهو يلتفت إليها:

ـ إذا كنت جئتِ لترينا، أنت المرأة الوحيدة بين جميع أصدقاء آنا (لا أعد الأميرة بربارة)، فأنا أقدّر أنك فعلتِ ذلك لا لأنك ترين وضعنا طبيعياً، بل لأنك تدركين كم هو شاق هذا الوضع، إنك ما تزالين تحبين آنا وتتمنين أن تساعديها. هل حزرت؟

أجابت داريا الكسندروفنا وهي تغلق مظلتها:

ـ نعم، لكن...

فقاطعها:

ـ لا...

وتوقف على نحو غير إرادي، دون أن يمر بباله أنه يحرج محدثته، بحيث اضطرت هي إلى التوقف. ثم أردف:

ـ لا أحد يشعر شعوراً أشد مني بوضع آنا المؤلم. وأنت ستدركين ذلك لو تكرمت واعتبرتني رجلاً شهماً. وأنا المسؤول عن هذا الوضع، ولذلك فهو يؤلمني قبل غيري.

قالت داريا الكسندروفنا وقد أعجبت رغماً عنها بالصدق والعزم اللذين ضمنهما كلامه.

ـ أدرك ذلك. لكني أخشى أن تكون مبالغاً، وبالذات لأنك تحس بمسؤوليتك. وأعترف أن وضعها في المجتمع شاق.

فقال بسرعة وهو يقطب بين حاجبيه بوجه متجهم:

ـ في المجتمع، إنه لجحيم! لا يستطيع أحد أن يتصور عذاباً نفسياً أسوأ من العذاب الذي قاسته في بطرسبرج أثناء هذين الاسبوعين... أرجوك أن تصدقي ذلك.

ـ نعم، لكن ما دمتما آنا... وأنت، لا تحتاجان هنا إلى المجتمع...

فهتف بازدراء:

ـ المجتمع! وكيف يمكنني أن أحتاج إلى المجتمع؟

ـ حتى هذه اللحظة... وربما دائماً، ستكونان سعيدين ومطمئنين. وقد رأيت أن آنا سعيدة، سعيدة كل السعادة، لقد تسنى لها أن تصارحني بذلك.

قالت ذلك وهي تبتسم؛ وبالرغم منها، تساءلت وهي تقول ذلك إن كانت آنا سعيد حقاً.

بدأ فرونسكي كمن لا يخامره الشك في ذلك. فقال:

ـ نعم، نعم. وأنا أعلم أنها عادت إلى الحياة بعد كل آلامها؛ إنها سعيدة، سعيدة من الحاضر. لكنني... أخشى ما ينتظرنا... المعذرة، هل تحبين المشي؟

ـ لا، لا فرق عندي.

ـ إذن، فلنجلس هنا.

جلست داريا الكسندروفنا على مقعد في ركن من الممر. وظل واقفاً أمامها. وردد:

ـ أرى أنها سعيدة.

فأحست دولي بشكوكها تتأكد. وأضاف وهو ينتقل من الروسية إلى الفرنسية.

ـ لكن هل يمكن أن يستمر هذا؟ أن نكون قد أحسنا أو أسأنا التصرف، تلك مسألة أخرى؛ لكن قد قضي الأمر ونحن مرتبطان مدى العمر. لقد جمعتنا أقدس الروابط: روابط الحب. ولنا ولد، ويمكن أن يأتينا غيره. لكن القانون

وكـل الاحتمالات تنذر بآلاف التعقيدات الـتي لا تـراهـا آنا ولا تـريـد أن تـراها بعد كل تلك الآلام والمحن التي عرفتها. وهذا مفهوم. أما أنا فلا يسعني إلاَّ أن أرى. فابنتي بحسب القانون ليست ابنتي وإنما هي ابنة كارينين. وهذا الكذب يثيرني!

قال هذا بحركة قوية من الاستنكار ونظر إلى داريا الكسندروفنا بوجه حزين ومستفهم.

لم تجب بشيء واكتفت بالنظر إليه. وتابع:

ــ قد يولد لي ولد غداً، وسيكون، في نظر القانون، ابن كارينين، ولن يرث اسمي ولا مالي. ومهما نكن سعداء، ومهما ننجب من أولاد، فلن يكن بينهم وبيني صلة. وسيكونون أبناء كارينين. أنت تدركين مدى ما في هذا الوضع من فظاعة. حاولت أن أكلم آنا في ذلك، إن هذا يثيرها. إنها لم تفهم، وأنا لا أستطيع أن أقول كل شيء لها. والآن انظري إلى الأشياء من زواية أخرى. أنا سعيد، سعيد بحبها، لكن ينبغي أن يكون لي شغل. لقد وجدت هذا الشغل، وأنا فخور به، وأقدر أنه أنبل من نشاطات رفاقي القدماء في البلاط أو الجيش. ولن أقبل أبداً بمبادلتهم به. أنا أشتغل هنا، في هذا المكان، وأنا سعيد، راضٍ، ولسنا نحتاج إلى شيء آخر.

أحب هذا النشاط. وليس هذا هو السبيل الوحيد المتبقي، على العكس...

لاحظت داريا الكسندروفنا أنه تشوش في هذه اللحظة من إيضاحه. لم تدرك جيداً معنى هذا الاستطراد، لكنها أحست أنه عندما بدأ بالكلام الآن على استعداداته الذاتية الصميمة التي لا يستطيع أن يحدث آنا عنها فقد بدأ يقول كل شيء، وأن مشكلة نشاطه في الريف تدخل في حلقة مشاغله الذاتية الصميمة، شأنها شأن علاقاته بآنا.

وتابع وهو يتمالك نفسه:

ـ أهم شيء عندي، وأنا أعمل، هو يقيني بأن ما أفعله لن يموت معي، وأن سيكون لي وارثون. . . وهو ما ليس عندي. تصوري وضع رجل يعرف مسبقاً أن الأولاد الذين أنجبهم من المرأة التي يحبها لن يكونوا له بل سيكونون لرجل آخر يكرههم ولا يريد أن يعرفهم. هذا مروع!

وصمت، وقد ظهر عليه التأثر الشديد.

سألت داريا الكسندروفنا:

ـ نعم، بدون شك، إنني أدرك ذلك. لكن ماذا بوسع آنا أن تفعل؟

قال وهو يسيطر على نفسه بمشقة:

ـ إن هذا يقودني إلى الغاية من حديثنا. إن بوسع آنا أن تفعل شيئاً، وهذا يتوقف عليها. . . فحتى لو طلبت إلى الأمبراطور تثبيت نسب أولادي، فلا بد من الطلاق لي. وهذا يتوقف على آنا. لقد وافق زوجها على الطلاق، وكان زوجك على وشك أن يسوي كل شيء. يكفي أن تكتب إليه. لقد قال حينذاك: إنها إن أعربت عن رغبتها في الطلاق فلن يرد لها هذا الطلب.

وأضاف وقد بدا عليه التجهم:

ولا شك أن تلك قساوة من قساوات المنافقين التي لا يقدر عليها إلاّ من لا قلب له. إنه يعلم مدى الألم الذي ستدفعه آنا ثمناً للتذكير بوجودها؛ وهو إذ يعلم ذلك يطلب منها رسالة. وأنا أفهم أن يكون ذلك كريهاً عليها. لكن، أمام مثل تلك البواعث الخطيرة، يجب تجاوز هذه الرقة في الشعور. ذلك أن سعادة آنا وأولادها، ووجودهم في خطر.

وقال بهيئة المهدّد:

ـ إني لا أتحدث عن نفسي وإن شق علي ذلك، وإن شق كثيرة. ولذلك فأنا أتعلق بك، يا أميرة، تعلقاً لا حياء فيه، باعتبارك آخر أمل للنجاة. فساعديني على إقناعها بالكتابة إليه وبطلب الطلاق.

قالت داريا الكسندروفنا وقد بدا عليها التفكير، وهي تتذكر آخر مقابلة بينها وبين الكسي الكسندروفتش:

ــ بكل تأكيد.

وردّدت هذه الكلمة بلهجة حازمة وهي تفكر في آنا. وأردف:

ــ استخدمي تأثيرك فيها، واحمليها على الكتابة إليه. لا أريد أن أكلمها في ذلك. وهذا، على كل حال، مستحيل تقريباً.

قالت داريا الكسندروفنا:

ــ طيب، سأكلمها في ذلك. لكن ما رأيها هي في ذلك؟

وتذكرت فجأة ودون سبب محدد تلك العادة الغريبة التي تعودتها آنا وهي أن تغمز بعينيها. وتذكرت أن آنا كانت تغمز بعينيها عندما يمس الحديث موضوعات تتصل بحياتها الداخلية الحميمة. وقالت دولي في نفسها: «كأنها تغمز بعينيها لكي لا ترى كل شيء».

وأجابت داريا الكسندروفنا على أمارات الامتنان التي عبر عنها وجه فرونسكي:

ــ نعم، سأكلمها، لا بد من هذا، من أجلي ومن أجلها. ثم نهضا وعادا.

[٢٢]

عندما عادت آنا، نظرت إلى دولي بتمعن كأنها تريد أن تسألها عن موضوع الحديث بينها وبين فرونسكي، لكنها لم تطرح عليها سؤالاً. وقالت:

ــ أظن وقت العشاء قد حان. ونحن لم تر إحدانا الأخرى بعد. وأنا أعتمد على هذا المساء. يجب أن أغير ثيابي. وأنت أيضاً، على ما أعتقد. لقد وسخنا ثيابنا حين زرنا ورشة العمل.

دخلت دولي غرفتها، وبدا لها وضعها مضحكاً. فهي لا تستطيع أن تبدل ثيابها لأنها ارتدت أجمل أثوابها؛ ولكن، لكي تظهر، على نحو من الأنحاء، استعدادها للعشاء، طلبت من الخادمة أن تنظف لها ثوبها، وغيرت ردنيه وعقدة الشريط، ووضعت منديلاً مخرماً على شعرها.

قالت وهي تبتسم لآنا التي جاءت تطلبها وهي ترتدي ثوبها الثالث، وهو كغيره في غاية البساطة:

ـ هذا كل ما استطعت أن أفعله.

قالت آنا وكأنها تريد أن تعتذر عن أناقتها:

ـ نعم، نحن شكليون جداً هنا. الكسي مغتبط بقدومك، ولم أره قط في مثل هذا السرور. إنه مغرم بك. ألم تتعبي كثيراً؟

لم يتسن لهما أن تتحدثا قبل العشاء. وعندما دخلا الصالة وجدا الأميرة بربارة والرجال بالسترة الرسمية. كان المهندس باللباس الرسمي. فقدم فرونسكي لدولي الطبيب والوكيل. وكان قد قدم لها المهندس في المستشفى.

تقدم رئيس الخدم، وهو رجل جسيم ذو وجه مدور، أجرد ولماع، يضع ربطة بيضاء منشاة، وأعلن أن العشاء جاهز. فنهضت النسوة. رجا فرونسكي ضيفه سفياجسكي أن يقدم ذراعه لآنا أركادييفنا، وتقدم هو نحو دولي. ومد فيسلوفسكي ذراعه قبل توشكييفتش إلى الأميرة بربارة، بحيث أن توشكيفتش مشى وحده كالوكيل والطبيب.

كان العشاء وقاعة الطعام والأواني والخدمة والخمور والأطعمة، كان كل ذلك منسجماً مع الجو العام للترف الجديد في البيت، بل إنه كان يبدو أكثر فخامة وجدة. وكانت داريا الكسندروفنا تلاحظ كل شيء، باعتبارها ربة بيت. وتدون في ذهنها كل التفاصيل، مع أنها لا تطمح أن تقارن شيئاً مما رأته بمنزلها (كان كل شيء أكثر ترفاً مما في منزلها) من أشرف على ذلك كله. إن أصحاب البيوتات

الرفيعي التهذيب يحبون أن يوهموا ضيوفهم أن كل شيء يتم عندهم دون أي جهد، وكأنه يتم من ذاته إن صح التعبير. إن فيسلوفسكي وزوجها وسفياجسكي والكثير من معارفها من الرجال يقعون في هذا الفخ. أما داريا الكسندروفنا فكانت تعلم أن حساء الصباح نفسه لا يُعطى للأطفال بدون إشراف، وأن إدارة للمنزل بهذا التعقيد وذلك الإتقان تتطلب عناية مستمرة. لقد أدركت داريا الكسندروفنا من النظرة التي لف بها الكسي كيريلوفتش المائدة، ومن إيماءة رأسه إلى رئيس الخدم، ومن اختياره لما ينبغي أن تتناوله بين الثريدة الباردة بالسمك والحساء الدسم، أن كل شيء كان يصنع بأمر المضيف ذاته. ولم يكن هذا يتوقف على آنا مثلاً أكثر من فيسلوفسكي. إن آنا وسفياجسكي والأميرة وفيسلوفسكي كانوا، بالطريقة نفسها؛ مدعوين يستمتعون فرحين بما أعد لهم.

اكتفت آنا بإدارة الحديث. وهذه المهمة الشديدة الصعوبة، بالنسبة إلى ربة البيت، على مائدة قليلة العدد جلس إليها ناسٌ من عالم آخر مثل المهندس والوكيل اللذين كانا يحاولان جاهدين ألاَّ يرتعبا أمام هذا البذخ الذي لم يعهداه واللذين كانا عاجزين عن المشاركة الطويلة في الحديث العام، هذه المهمة أدتها آنا ببساطها ولباقتها المعتادتين، بل وبسرور، كما لاحظت داريا الكسندروفنا.

جرى الحديث أولاً عن النزهة التي قام بها توشكييفتش وفيسلوفسكي في القارب، وأراد توشكييفتش أن يستفيض في الكلام على آخر سباق لقارب نادي بطرسبرج. لكن آنا انتظرت توقفه وخاطبت على الفور المهندس لتخرجه من صمته.

قالت وهي تتحدث عن سفياجسكي:

ـــ لقد دهش نيقولا إيفانيتش من تقدّم البناء الجديد منذ آخر مرة جاء فيها؛ لكنني أذهب إلى هناك كل يوم، وفي كل يوم أدهش من سرعة العمل.

قال المهندس وهو يبتسم، وكان رجلاً متأدباً، هادئاً، شديد الشعور بكرامته:

ــ من المفرح العمل مع سيادته. ليس الحال هنا كما هي الحال مع سلطات عاصمة المقاطعة. هناك قد يسودون رزمة كاملة من الورق، بينما يمكننا أن نتفق مع الكونت بثلاث كلمات.

قال سفياجسكي وهو يبتسم:

ــ تلك هي الطرائق الأمريكية.

ــ نعم، لكنهم يحسنون البناء هناك أيضاً. . .

واتجه الحديث نحو تعسف السلطة في الولايات المتحدة، لكن آنا ساقت الحديث إلى موضوع آخر لتحمل الوكيل على الكلام.

وقالت وهي تلتفت إلى داريا الكسندروفنا:

ــ هل رأيت حصادات من قبل؟ كنا ذاهبين لنرى واحدة منها عندما لقيناكم. كانت هذه أول مرة، بالنسبة إليّ.

سألت دولي:

ــ وكيف تعمل؟

ــ كالمقصات بالضبط. وهناك لوح وعدد من المقصات الصغيرة. هكذا.

وأخذت آنا سكينها وشوكتها بيديها البيضاوين الجميلتين المغطاتين بالخواتم وبدأت برهنتها. كانت ترى بوضوح أن الحاضرين لم يفهموا شيئاً مما تقول؛ لكنها تابعت كلامها لعلمها أن لها صوتاً عذباً وأن يديها جميلتان.

قال فيسلوفسكي مازحاً، ولم يكن يرفع عينيه عنها:

ــ إنها مُدىً، على الأصح.

ابتسمت آنا ابتسامة ناعمة، لكنها لم تجبه.

قالت وهي تلتفت إلى الوكيل:

ـ أليس صحيحاً أنها تشبه المقصات، يا كارل فيدروفتش؟

أجاب الألماني:

ـ أوه! نعم، إنها بسيطة جداً.

وأخذ يشرح تركيب الآلة.

قال سفياجسكي:

ـ من المؤسف أنها لا تربط الحزم رأيت واحدة في معرض فيينا تربط الحزم بسلك من الحديد. إنها أربح.

انطلق الألماني في الحديث وخاطب فرونسكي بالألمانية.

ـ الأمر ليس واحداً دائماً، يجب أن نحسب سعر السلك الحديدي.

من السهل حساب ذلك، يا صاحب السيادة.

ومد الألماني يده إلى جيبه حيث كان يحتفظ دائماً بقلم ومفكرة يسجل عليها كل شيء، لكن نظرة فرونسكي الجامدة أوقفته.

فختم كلامه قائلاً بالألمانية:

ـ هذا شديد التعقيد، وهو يسبب كثيراً من الإرباك، فرد عليه فاسيا فيسلوفسكي بالألمانية ليكايد الألماني:

ـ عندما نطلب المداخيل فيجب أن نتحمل الإرباكات.

وأردف وهو يلتفت إلى آنا وعلى فمه الابتسامة ذاتها:

ـ إنني أعبد الألمانية.

قالت له بلهجة نصفها مازح ونصفها صارم:

ـ انتهِ. كنا نظن أننا سنلقاك في الحقول.

وقالت للطبيب، وهو رجل معتل الهيئة:

ـ بازيل سيمينيتش، هل ذهبت إلى هناك؟

أجاب الطبيب بلهجة أرادت أن تكون مازحة فإذا بها في الواقع كئيبة:

ـ نعم، لكني. تبخرت.

ـ إذن، لقد قمت بتمارين كثيرة.

ـ نعم، كان ذلك رائعاً.

ـ وكيف حال العجوز المريضة؟ أرجو ألاَّ يكون ما بها هو الحمّى التيفيّة؟

ـ لا، ليست الحمى التيفية بالذات، لكنها ليست في وضع أفضل بسبب ذلك.

قالت آنا:

ـ يا للأسف!

وإذا أدت، بهذه الطريقة، واجبات المجاملة نحو المترددين على المنزل، التفتت إلى أصدقائها.

قال لها سفياجسكي مازحاً:

ـ سيكون من الصعب، بالرغم من كل شيء، تركيب آلة بناء على تعليماتك.

قالت آنا وهي تبتسم:

ـ لا، ولمَ ذاك يا ترى؟

وكانت ابتسامتها تدل على يقينها بأن في إيضاحها لعمل الآلة شيئاً فاتناً لم يفت سفياجسكي. وسمة الغنج الجديدة هذه أثارت، على نحو مرعب، دهشة دولي.

قال توشكييفتش:

ـ وبالمقابل فإن معرفة آنا اركادييفنا بالهندسة مدهشة،

قال فيسلوفسكي:

ـ لا شك عندي في ذلك. لقد سمعتُ أمس آنا اركادييفنا تتحدث عن وطائد الأعمدة، وعن جبهيات الأبنية، أليس هذا صحيحاً؟ قالت آنا:

ــ ليس في ذلك ما يدهش عندما نسمع هذه الكلمات كل يوم. أنا واثقة من أنك لا تعرف بأي المواد يُبنى البيتُ؟

رأت داريا الكسندروفنا أن آنا كانت مستاءة من اللهجة المرحة التي قامت بينها وبين فيسلوفسكي، وإن انساقت إليها بالرغم منها.

لم يتصرف فرونسكي، في هذه المناسبة، مثل ليفين، والظاهر أنه لم يولِ ثرثرة فيسلوفسكي أية أهمية، بل إنه شجع هذه الدعابة.

ــ نعم، قلْ لنا كيف نربط الأحجار، يا فيسلوفسكي؟

ــ بالأسمنت، من غير شك.

ــ مرحى! لكنْ ما الأسمنت؟

أجاب فيسلوفسكي جواباً أثار الضحك العام، الصاخب:

ــ إنه نوع من المعجون. . . بل من الملاط.

لم ينصب الحديث بين المدعوين، باستثناء الطبيب والمهندس والوكيل الذين غرقوا في صمت كئيب: كان الحديث يمس هذا الشخص مساً رفيقاً تارة، ويتوقف عند ذاك تارة أخرى، وفي إحدى اللحظات جُرحت داريا الكسندروفنا وغضبت غضباً شديداً حتى إن الحمرة صبغت وجهها وأنها تساءلت بعد ذاك إن كان قد بدر عنها ما لا يليق قوله. وكان سفياجسكي قد بدأ الكلام على ليفين وروى أن له أفكاراً غريبة وأنه يعتقد أن إدخال الآلات إلى روسيا عمل مشؤوم بكل بساطة.

قال فرونسكي وهو يبتسم:

ــ لم أحظ بمعرفة هذا السيد ليفين. لكن الأرجح أنه لم يرقط هذه الآلات التي يستنكرها. وإذا كان قد رأى أوجرب بعضاً منها، فلا شك أنها روسية لا أجنبية. وما وجهة نظره، إذن؟

قال فيسلوفسكي وهو يبتسم ويلتفت إلى آنا:

ــ إنه يرى الأشياء من وجهة نظر تركية.

قالت دولي وقد تضرجت:

ـ لا أستطيع أن أدافع عن آرائه، لكني أستطيع القول إنه رجل متعلم جداً، ولو كان هنا لعرف كيف يجيبكم، أما أنا فلا أعرف.

قال سفياجسكي وهو يبتسم ابتسامة تنم على الحنو:

ـ إني أحبه حباً جماً، ونحن صديقان حميمان لكن عفواً، إن به مساً خفيفاً، مثلاً هو يؤكد أن الحكم الذاتي وقضاء الصلح لا فائدة منهما ويأبى أن يشارك فيهما.

قال فرونسكي وهو يصب ماءً مثلجاً في كأس لطيف القاعدة:

ـ هذه لامبالاتنا الروسية: رفض الاعتراف بالواجبات التي تفرضها علينا حقوقنا ثم إنكار الواجبات.

قالت داريا الكسندروفنا وقد غاظتها لهجة فرونسكي المتعالية:

ـ لا أعرف رجلاً أدق منه في القيام بواجباته.

استأنف فرونسكي كلامه وكأنما لدغه هذا الحديث:

ـ من جهتي، تروني أنني ممتن للشرف الذي أُوليته بفضل إيفانيتش (وأشار إلى سفياجسكي) حين انتُخِبتُ قاضياً فخرياً للصلح.

وأنا أقدر أن واجب الذهاب إلى المحكمة ومحاكمة فلاح سرق جواداً يوازي في أهميته عندي كل ما يمكنني أن أفعله. وإذا ما انتخبت إلى الجمعية الإقليمية فسأعد ذلك شرفاً. هذه هي الطريقة الوحيدة لوفاء الدين الذي أدين به للمجتمع من أجل المنافع التي أتمتع بها بصفتي ملاكاً. ولسوء الحظ، فإننا لا ندرك الأهمية التي يجب أن تكون للملاكين الكبار في الدولة.

بدا غريباً جداً لداريا الكسندروفنا أن تراه واثقاً هذه الثقة من نفسه، تحت سقفه نفسه، وعلى مائدته. وتذكرت أن ليفين الذي يحمل آراء مناقضة، كان

حاسماً مثله في أحكامه عندما كان في بيته، وعلى مائدته، لكنها كانت تحب ليفين، ولذلك فقد كانت بجانبه.

قال سفياجسكي:

ـ إذن نستطيع الاعتماد عليك في الجمعية القادمة، يا كونت؟ ولكي تكون هناك في الثامن من الشهر فينبغي أن تذهب قبل هذا التاريخ، وليتك تشرفني بالتوقف عندي . . .

قالت آنا:

أنا أميل إلى رأي زوج أختك . . .

وأضافت وهي تبتسم:

ـ لكن لدوافع مختلفة. أخشى أن تغدو واجباتنا الاجتماعية، في هذه الآونة الأخيرة، فوق طاقتنا فنحن نصطدم أينما ذهبنا بالمندوبين الاجتماعيين كما كنا نصطدم بالموظفين. إن الكسي يقيم هنا منذ ستة أشهر وقد صار عضواً في خمس مؤسسات أو ست مؤسسات مختلفة: فهو قيم وقاض ونائب ومحلف. وعلى هذا المنوال سيقضي وقته كله فيها. وأنا أخاف أن تكون هذه الوظائف العديدة إسمية خالصة.

وقالت وهي تلتفت نحو سفياجسكي:

ـ كم جمعية أنت عضو فيها، يا نيقولا ايفانيتش. ما يقرب من عشرين، على ما يبدو لي؟

كانت آنا تحكي بلهجة رشيقة، لكن حنقها برز فيما تقول. وقد تبينت داريا الكسندروفنا ذلك على الفور، وكانت تلاحظ آنا وفرونسكي بإمعان، كما لاحظت أيضاً أن وجه فرونسكي قد اتخذ، أثناء هذا الحديث، تعبيراً رصيناً وعنيداً. وعندما سارعت الأميرة بربارة إلى الحديث عن الأصدقاء في بطرسبرج، رغبة منها في تغيير الحديث، وتذكرت دولي ما حدثها به فرونسكي في الحديقة، حديثاً في غير محله،

عن نشاطه، أدركت أن هناك خلافاً صميماً بين آنا وفرونسكي يرتبط بمشكلة هذا النشاط الاجتماعي.

كان العشاء والخمور والخدمة، كان ذلك كله رائعاً، لكن كل شيء جرى كما يجري في الولائم الرسمية والسهرات الراقصة التي فقدت دولي عادتها: التوتر نفسه وغياب الطابع الشخصي ذاته، مع أن اليوم كان يوماً عادياً، وأنهم كانوا في حلقة صغيرة، ولذلك كان الأثر الذي استقر في نفس دولي مكدراً.

[٢٣]

بعد العشاء، ذهبوا إلى الشرفة. ثم لعبوا بكرة المضرب. توزع اللاعبون الذين انقسموا فريقين في الحلبة التي سويت ودحلت بعناية، على جانبي الشبكة الممدودة المشدودة على عمودين مذهبين. حاولت داريا الكسندروفنا أن تتدرب على اللعب لكنها لم تفهم شيئاً من أصول اللعبة أثناء مدة طويلة. فلما أخذت تفهمها كان التعبُ قد بلغ منها مبلغاً دفعها إلى ترك اللعب والجلوس قرب الأميرة بربارة، والاكتفاء بالنظر إلى اللاعبين. وكان شريكها توشكيفتش قد ترك اللعب أيضاً، لكن الآخرين ظلوا يلعبون طويلاً. كان سفياجسكي وفرونسكي يلعبان كلاهما لعباً رائعاً وبكثير من الجد. كانا يلاحقان الكرة التي ترمى إليهما بعين ثاقبة، ويركضان إليها دون عجلة ولا إبطاء، وينتظران أن تثب ويردانها إلى الجهة الأخرى من الشبكة بضربة مضرب دقيقة. وكان فيسلوفسكي أردأهم لعباً. كان شديد العصبية لكنه كان بالمقابل يبعث الحيوية في اللاعبين بمرحه. لم يكن يتوقف عن الضحك والصياح. لقد نزع سترته الرسمية مثل بقية الرجال، بعد اسئذان السيدات ليظل بالقميص وحده، وكان شخصه الجميل، ووجهه النضر الذي يتقطر عرقاً، وحركاته المتقطعة تنطبع في الذاكرة.

عندما أوتْ داريا الكسندروفنا إلى فراشها هذه الليلة، كانت ترى، كلما أغمضت عينيها، فاسيا فيسلوفسكي يغير من أحد أطراف الحلبة إلى طرفها الآخر.

أصاب الضجر داريا الكسندروفنا، أثناء اللعب. إن هذا الحديث المتصنع الذي استمر بين فيسلوفسكي وآنا، وهذا التكلف الذي يفتعله الكبار وهم يعكفون على لعب الصغار، إن ذلك قد ساءها. لكنها انضمت إلى اللاعبين من جديد، وتظاهرت بالإستمتاع، وذلك لكي لا تزعج الآخرين ولكي تقضي الوقت. خيل إليها، طوال النهار، أنها تمثل مسرحية مع ممثلين أفضل منها، وأنها تسيء إليهم برداءة تمثيلها.

جاءت وفي نيتها أن تظل يومين عند آنا إذا طابت لها الإقامة لكنها قررت، في المساء نفسه، أثناء اللعب، أن تسافر في اليوم التالي.

فتلك الهموم الأمومية المضنية التي كرهتها كرهاً شديداً أثناء سفرها بدت لها واقعة في عالم آخر، وأخذت تجذبها من جديد بعد يوم من الغياب.

وحين عادت وحدها في المساء، بعد الشاي وبعد نزهة في القارب إلى غرفتها، وخلعت ثوبها وجلست لترتب شعرها القليل قبل النوم، شعرت براحة عظيمة.

لقد كانت تكره حتى التفكير في أن آنا ستصل بين لحظة وأخرى كانت ترغب في البقاء وحيدة مع أفكارها.

كانت دولي توشك أن تضطجع في سريرها عندما دخلت آنا بثياب الليل.

أثناء النهار ساقت آنا الحديث إلى موضوعاتها الحميمة، لكنها كانت تقف كل مرة، بعد بضع كلمات، وتقول في نفسها: «سنتحدث عن ذلك كله، فيما بعد ونحن منفردتان».

ها هما الآن منفردتان، وآنا لا تعلم ما تقوله. كانت جالسة قرب النافذة تستعرض في ذاكرتها ذخيرة دفقها القلبي الصميم التي بدت لها كأنها لا تنضب، فلا تجد شيئاً. وخيل إليها أن كل شيء قد قيل.

قالت وهي تتنهد تنهداً عميقاً، وتنظر إلى دولي بوجه مذنب:

ــ كيف حال كيتي. قولي لي الحقيقة، يا دولي: أليست حاقدة علي؟

قالت داريا الكسندروفنا وهي تبتسم:

ـ حاقدة عليك؟ أوه! لا.

ـ لكنها تكرهني، تحتقرني...

ـ لا! لكنك تعلمين أن ذلك لا يغتفر.

قالت آنا وهي تشيح عنها بوجهها وتلتفت من النافذة:

ـ نعم، نعم لكني لم أكن مذنبة، ومن المذنب؟ ما معنى ذلك؟ وهل يمكن أن تكون الأمور غير ذلك؟ ما رأيك في ذلك؟ أيمكن ألاَّتكوني زوجة ستيفا؟

ـ الحقيقة أني لا أدري شيئاً، لكن، قولي لي...

ـ نعم، نعم، لكننا لم ننته من كيتي. أهي سعيدة، يبدو أنه فتى رائع..

ـ هذا أقل ما يقال فيه. ولا أعرف رجلاً خيراً منه.

فرددت:

ـ آه! ما أعظم سروري بذلك! أنا مغتبطة بذلك! أقل ما يقال فيه أنه فتى رائع.

ابتسمت دولي:

ـ حدثيني عنك. فهناك أشياء كثيرة يجب أن نحكيها. لقد تحادثت أنا و...

ولم تدر دولي كيف تدعوه. كانت تتضايق من تسميته «الكونت» كانت تتضايق من تسميته «الكسي كيريلوفتش».

قالت آنا:

ـ الكسي. أعرف أنكما تحادثتما. لكني كنت أود أن أسألك بصراحة عن رأيك فيّ، في حياتي؟

ـ كيف أشرح لك ذلك فجأة ودون إعداد؟ الحقيقة أني لا أدري.

ـ بلى، قولي لي مع ذلك... أنت ترين ما حياتي. لا تنسي أنك ترينا في

الصيف، وأننا لم نكن وحدنا عندما وصلت. . . لكننا أقمنا هنا منذ بداية الربيع، عشنا وحدنا تماماً، وسنعود إلى وحدتنا ولست أتوق إلى شيء آخر. لكن، لا يغرب عن بالك أنني أظل وحدي أحياناً هنا، بدونه، وأن ذلك سيتكرر. . . كل شيء يحملني على الاعتقاد بأن ذلك سيتكرر كثيراً، وأنه سيقضي نصف وقته خارج البيت.

قالت ذلك ونهضت لتجلس في موضع أقرب إلى دولي، وقالت وهي تنبه دولي التي أرادت أن تجيب:

ــ ومن المؤكد أنني لا أريد أن أستبقيه بالقوة، ليس ذلك وارداً الآن، جاء دور السباق، وجياده تشارك فيه، وهو يحضره، إن ذلك يسعدني، لكن فكري فيما يصيبني، وتصوري حالتي. . . على كل حال، ما جدوى الكلام على ذلك؟

وابتسمت ثم سألتها:

ــ عمّ تحدثتما، يا ترى؟

ــ تحدثنا عن موضع كنت أود أن أتطرق إليه بالذات معك، ولذلك يسهل علي أن أصير محامية عنه، عن سبل. . . (وترددت داريا الكسندروفنا) إسباغ الصفة الشرعية على الزواج، وتحسين وضعك. . . أنت تعلمين كيف أرى الأشياء. . . لكن، بالرغم من كل شيء، الأفضل أن تتزوجي، إن أمكن.

قال آنا:

ــ الطلاق إذن؟ أتعلمين أن المرأة الوحيدة التي زارتني في بطرسبرج هي بيتسي تفيرسكوي؟ أنت تعرفينها، على ما أعتقد؟ في الحقيقة، إنها أسقط امرأة يمكن أن توجد. كان لها مع توشكيفتش علاقة، وكانت تخدع زوجها بأحط الطرق قالت لي أنها لا تريد أن تراني وأن وضعي شاذ لا تظني أنني أقارن. . . فأنا أعرفك، يا صديقتي.

لكن هذه الذكرى تعودني بالرغم مني.

ورددت:

ـ إذن، ماذا قال لك؟

ـ إنه يتألم لك وله، لعلك تقولين إن هذا من الأنانية. لكنها أنانية نبيلة جداً ومشروعة جداً. إنه يرغب أولاً في أن يقر شرعياً نسب ابنته، وأن يصبح زوجك، أن يكون له حقوق عليك.

فقاطعتها آنا بوجه مكفهر:

ـ أية امرأة أشد خضوعاً للعبودية مني، في مثل وضعي؟

ـ وهو يريد، على الخصوص... إلاَّ تتألمي.

ـ هذا مستحيل. ثم ماذا؟

ـ ثم إنه يرغب، ورغبته مشروعة جداً، أن يكون لأولاده كنية.

قالت آنا وهي تغمض عينيها نصف إغماضة، ودون أن تنظر إلى دولي:

ـ أي أولاد؟

ـ «آني» والأولاد الذين سيأتون...

ـ يستطيع أن يكون مطمئناً بهذا الصدد: فلن أنجب أولاداً آخرين بعد الآن.

ـ كيف يمكنك أن تقولي هذا؟

ـ لن انجب أولاداً، لأنني لا أريد أن أنجب. ابتسمت آنا بالرغم من انفعالها حين لاحظت على وجه دولي أمارات الفضول الساذج والدهشة والرعب. وأضافت:

ـ قال لي الطبيب، بعد مرضي...

قالت دولي وهي تحملق فيها:

ـ هذا مستحيل!

لقد كان ذلك عندها اكتشافاً من هذه الاكتشافات العظيمة العواقب والنتائج

حتى إنه لم يسعها إلاَّ أن تحس في أول لحظة بأنها لا ترى مدى أهميتها وأنها ينبغي لها التفكير فيها طويلاً.

هذا الاكتشاف الذي فسر لها فجأة (وهو ما لم تستطع أن تفهمه قط) لم لا تنجب بعض الأسر سوى ولد أو ولدين، قد ولد فيها كثيراً من الأفكار والخواطر والمشاعر المتناقضة بحيث لم تجد ما تقوله واكتفت بأن حدجت آنا بعينين واسعتين ومدهوشتين. هذا هو بالذات ما حلمت به، لكنها إذ علمت الآن أن ذلك ممكن خافت. أحست أن هذا حل مفرط البساطة لمشكلة مفرطة التعقيد.

فاكتفت بالقول بعد صمت:

ــ أليس ذلك لا أخلاقياً.

ــ لماذا؟ لا يغرب عن بالك أنني ينبغي أن أختار فإما أن أكون حاملاً أي مريضة، وإما أن أكون صديقة زوجي أو رفيقته، لأننا نعيش كما لو كان زوجي.

قالت ذلك بلهجة سطحية وتافهة، على نحو لا إداري.

فردت داريا الكسندروفنا التي تعرفت حججها الخاصة فيما تقوله، لكنها لم تجد لها قوة الإقناع نفسها:

ــ نعم، نعم.

قالت آنا وكأنها تنبأت بفكرتها:

ــ بالنسبة إليك وإلى غيرك، يمكن أن يكون هناك شك، أما أنا... فافهمي أنني لست امرأة له إلاَّ بمقدار ما يحبني. وكيف أصون حبه؟ هكذا؟

وحركت يديها البيضاوين بحركة أمام زنارها.

ازدحمت الأفكار والذكريات في ذهن داريا الكسندروفنا بسرعة قصوى، كما يحدث غالباً في لحظات الانفعال. وفكرت في نفسها: «إني لم أستطع أن أحافظ على ستيفا، لكن أول امرأة خدعني من أجلها لم تحافظ عليه أيضاً، مع أنها كانت مرحة وجميلة، لقد تركها ليعلق بأخرى، فهل ستحافظ آنا على فرونسكي بهذه

الطريقة؟ سوف يجد زينات وطرائق أكثر إغراء، مهما يكن بحثه عنها قليلاً. فمهما تكن ذراعاها العاريتان بيضاوين وجميلتين، ومهما تكن قامتها أنيقة، ومهما يكن فاتناً وجهها الذي يفيض بالحيوية والذي يحيط به شعرها الأسود، فسوف يجد خيراً منها، شأنه شأن زوجي العزيز، الساقط، الجدير، بالرثاء.

لم تجب دولي بشيء، واكتفت بالتنهد. لاحظت آنا هذا التنهد الذي يعبر عن الاستنكار وتابعت حديثها. كانت لديها أيضاً حجج قوية إلى الحد الذي لا يمكن الرد عليها:

ـ أنت تقولين إن هذا شر؟ لكن لا بد من المحاكمة، أنت تنسين وضعي، كيف يجوز أن أرغب في إنجاب الأولاد؟ لا أقصد الألم، فأنا لا أخافه. لكن تصوري كيف سيكون أولادي! أشقياء يحملون إسماً غير إسم أبيهم، إن ولادتهم ذاتها ستضطرهم إلى الخجل من أمهم وأبيهم ووجودهم.

ـ من أجل هذا بالذات كان الطلاق ضرورياً.

لكن آنا لم تكن تصغي إليها، كانت تريد أن تعرض حججها حتى النهاية، وهي حجج طالما أقنعت بها نفسها.

ـ ما فائدة العقل الذي أعطيته إذا لم أستخدمه لأتحاشى إنجاب الأشقياء؟

نظرت إلى دولي واستأنفت دون أن تنتظر جوابها:

ـ سأشعر أبداً بالذنب تجاه هؤلاء الأولاد المنكودي الحظ. فإذا لم يوجدوا تفادوا الشقاء، على الأقل. بينما لو كانوا أشقياء لكنت أنا المسؤولة الوحيدة.

هذه هي بالذات الحجج التي تصورتها داريا الكسندروفنا، لكنها كانت تصغي إليها دون أن تفهمها. وقالت في نفسها: «كيف يمكن أن نكون مذنبين تجاه كائنات غير موجودة»، وفجأة مرت بخاطرها فكرة: أكان من الأفضل ألاّ يوجد «غريشا»، ابنها المفضل؟ بدا لها ذلك غريباً جداً وسخيفاً جداً، حتى إنها هزت رأسها لتبدد هذا الحشد من الأفكار المجنونة والعاصفة، وقالت وقد بدا عليها الاشمئزاز:

ـ بلى، أعتقد أن هذا شر.

أضافت آنا، وكأنها أحست، بالرغم من قوة حججها وتهافت حجج زوجة أخيها، أن ذلك شر:

ـ لا تنسي من أنتِ ومَنْ أنا... ثم لا تنسي أنني لست في الوضع الذي أنت فيه، المسألة، بالنسبة إليك، هي أن تعلمي إن كنتِ ترغبين في الكف عن إنجاب الأولاد، أما بالنسبة إليّ، فهي إن كنت أرغب في الإنجاب. وبينهما فرق كبير. فأنت تدركين أنني لا أستطيع أن أرغب في ذلك وأنا في وضعي هذا.

لم ترد داريا الكسندروفنا عليها. وأحست فجأة أنها بعيدة جداً عن آنا، وأن هناك مسائل لن تتفقا عليها أبداً، وأن من الأفضل ألاّ تتطرق إليها.

[٢٤]

قالت دولي:

ـ هذا أدعى لأن تصححي أوضاعك، إن أمكن ذلك.

قالت آنا بصوت تغير فجأة وغدا خافتاً وحزيناً:

ـ نعم، إن أمكن ذلك.

ـ هل الطلاق مستحيل. قيل لي أن زوجك يوافق عليه.

ـ دولي، أفضل ألا أتكلم على ذلك.

فسارعت داريا الكسندروفنا إلى القول عندما رأت على وجهها أمارات الألم:

ـ حسناً، لنكف عن الكلام على ذلك. لكن يبدو لي أنك تبالغين في نظرتك المأساوية.

ـ أنا؟ أبداً، لا. فأنا مسرورة تماماً وراضية. لقد رأيتِ: إنني أثير الأهواء. فيسلوفسكي...

ـ نعم الحقيقة أن لهجة فيسلوفسكي لم تعجبني.

قالت داريا الكسندروفنا ذلك وهي راغبة في تغيير الحديث.

قالت آنا:

ـ ولم ذاك؟ إن هذا يدغدغ حب الكسي لذاته، لا أكثر؟ فيسلوفسكي مراهق، وأنا قابضة عليه بين يدي أفعل به ما أشاء إنه مثل ابنك غريشا... يا دولي!

وأردفت وهي تغير فجأة لهجتها:

ـ أنت تقولين إنني أنظر إلى الأشياء نظرة مأساوية. لا تستطيعين أن تفهمي. الأمر أفظع مما تتصورين. وأنا أحاول جاهدة ألا أرى...

ـ ومع ذلك يجب أن تفعلي كل ما في وسعك أن تفعليه.

ـ لكن ما الذي بوسعي أن أفعله؟ لا شيء. أنت تقولين إنني يجب أن أتزوج الكسي، وأنني لا أفكر في ذلك.

ورددت: «لا أفكر في ذلك». وعلت الحمرة وجهها، ونهضت، وانتصبت، وتنهدت تنهداً عميقاً وأخذت تذرع الغرفة بخطوات خفيفة، وهي تقف بين الحين والآخر. وأردفت:

ـ لا أفكر في ذلك الأمر؟ لا يمر يوم ولا ساعة أنقطع فيهما عن التفكير فيه، ولا ألوم نفسي على التفكير فيه... لأن هذه الفكرة يمكن أن تجعلني مجنونة... تجعلني مجنونة. وكلما راودتني تلك الفكرة امتنع علي النوم بدون مورفين. يكفي. ولنتكلم بهدوء. إنكم تنصحونني بالطلاق. أولاً، «هو» لن يوافق عليه. فهو الآن خاضع لتأثير الكونتيسة ليديا إيفانوفنا.

كانت داريا الكسندروفنا معتدلة في جلستها على كرسيها، تتابع بنظرة رؤوفة آنا وهي تذرع الغرفة، فقالت لها بصوت وديع.

ـ يجب أن تحاولي.

قالت آنا وقد بدا عليها أنها تعرب عن فكرة طالما رددتها على نفسها وحفظتها عن ظهر قلب:

ــ لنسلم بذلك. أتعرفين ماذا يعني ذلك. ذلك يعني أنني أعترف بذنبي تجاهه، وإن كنت أكرهه، وأن عليّ أن أذلّ نفسي من أجل الكتابة إليه... لكن لنفرض أنني حملت نفسي على ذلك. فإما أن أتلقى جواباً مهيناً، وإما أن أحصل على موافقته. ولنفرض أنني نلت موافقته...

كانت آنا، في هذه اللحظة، في الطرف الآخر من الغرفة وقد وقفت لتصلح الستار وتابعت:

ــ ... نلت موافقته... و... وابني؟ لن يعيدوه إليّ. سيكبر وهو يحتقرني في منزل أبيه الذي هجرته. اعلمي إذن أنني أحب هذين المخلوقين: سيريوجا والكسي حباً متساوياً، لكني أحب الاثنين أكثر من حبي لنفسي.

تقدمت إلى وسط الغرفة ووقفت أمام دولي، وهي تضغط يديها على صدرها. كانت تبدو مهيبة حقاً في مئزرها. لقد حنت رأسها ونظرت خفية بعينيها المبللتين والبراقتين إلى دولي النحيفة، الهزيلة في قميص نومها المرتق وفي قبعة الليل، هي ترتجف بجسدها كله من الانفعال. واستأنفت آنا كلامها:

ــ لا أحب سوى هذين الكائنين في العالم، وكل منهما يستبعد الآخر. لست أستطيع أن أجمع بينهما، مع أن هذه هي أمنيتي الوحيدة. وإذا لم أفلح في ذلك، فلست أبالي بشيء. لست أبالي بشيء. وسوف ينتهي الأمر على نحو أو على آخر، ولذلك لا أستطيع ولا أريد أن أتحدّث عن ذلك ــ لا تلوميني، ولا تنتقديني. أنت أنقى من أن تدركي مدى ألمي.

دنت من دولي، وجلست بجانبها، وأمسكت بيدها وهي تنظر إليها بوجه مذنب:

ــ ما رأيك في ذلك؟ ما رأيك فيَّ. لا تحتقريني. لا أستحق الاحتقار. أنا

تعسة، على وجه الخصوص. إذا كان هناك امرأة تعسة فهي أنا حقاً.

قالت ذلك وأشاحت بوجهها وأجهشت بالبكاء.

بعد أن بقيت دولي وحدها، صلت ونامت. لقد رثت لآنا من كل قلبها وهي تحدثها؛ لكنها لم تستطع الآن أن تحمل نفسها على التفكير فيها. لقد حضر إلى ذاكرتها بيتها وأولادها بجاذبية وإشعاع جديدين. لقد بدا لها عالمها الآن ثميناً، مفعماً بالسحر إلى الحد الذي لم تشأ معه أن تبقى بعيدة عنه أكثر من يوم واحد، ولذلك قررت أن تعود في اليوم التالي، بدون أدنى شك.

رجعت آنا، في هذه الأثناء، إلى الصالة الصغرى. وتناولت هنا كأساً صبت فيه قطرات من دواء يحتوي أساساً على المورفين، وبعد أن شربتها ظلت بضع لحظات جامدة، وتوجهت إلى غرفة النوم وهي هادئة النفس، مطمئنة البال.

عندما دخلت، نظر إليها فرونسكي بانتباه. كان يبحث عن آثار الحديث الذي لا بد أنه انعقد بينها وبين دولي، بما أنها ظلت هذه المدة الطويلة في غرفتها. لكنه لم يرَ في تعبير وجهها، وهو تعبير مغلق ينطوي على الحماسة والكبت معاً، غير هذا الجمال الذي خضع دائماً لسحره، بالرغم من العادة، وغير الشعور بهذا الجمال، وحرصها على التأثير فيه. لم يشأ أن يسألها عم تحدثتا، لكنه كان يرجو أن تبدأ هي بالكلام. بيد أنها اقتصرت على القول:

ــ أنا مسرورة لأن دولي أعجبتك. لأنها تعجبك. أليس كذلك؟

ــ إنني أعرفها منذ زمن بعيد. إنها امرأة ممتازة، لكنها مبتذلة إلى أقصى حدود الابتذال. وبالرغم من كل شيء، أنا مغتبط بقدومها.

تناول يد آنا وثبت في وجهها نظرة مستفهمة.

أوّلت هذه النظرة تأويلاً مختلفاً وأجابته بابتسامة.

في اليوم التالي، تأهبت دولي للسفر، بالرغم من إلحاح مضيفيها. وجاء حوذي ليفين، وهو مقطب، واثق الهيئة، بمعطفه البالي، وبقبعته التي تذكر، على

نحو مبهم، بحوذيي مركبات البريد، جاء بالعربة ذات الواقية المرقعة والجياد غير المتجانسة إلى الممر المفروش بالرمل الذي يقوده إلى مدخل الدرج المغطى.

كان وداع داريا الكسندروفنا للأميرة بربارة وللرجال ثقيلاً على نفسها. فبعد أن قضت يوماً معهم أحست كما أحس مضيفاها بأنهم لم يتوافقوا وبأن افتراقهم أولى بهم. آنا وحدها كانت حزينة. كانت تعلم أنه لن يأتي أحدٌ، بعد سفر دولي، ليوقظ تلك المشاعر التي حركها هذا اللقاء في نفسها. كانت هذه المشاعر مؤلمة؛ لكنها كانت تعلم أنها الشطر الأفضل من نفسها، وأن هذا الشطر من نفسها ستكتسحه بعد قليل الحياة التي تحياها.

عندما بلغت داريا الكسندروفنا السهل، خالجها شعور لطيف من التخفّف. كانت تريد أن تسأل مصاحبيها إن كانا قد سرّا عند فرونسكي لكن الحوذي فيليب بدأ الكلام:

ــ إذا عددنا الأثرياء فإنهم أثرياء حقاً، لكنهم لم يعطوني جملة وتفصيلاً سوى ثلاثة مكاييل من الشوفان. وقد التهمت الجياد المسكينة كل ذلك قبل صياح الديكة، ثلاثة مكاييل، ليست شيئاً! إنها لا تكفي إلا لفتح الشهية! ونحن ندفع بالشوفان عند التبديل خمسة وأربعين كوبيكاً. أما عندنا فلا يخضع للكيل الشوفان الذي يقدم لجياد الزائرين. أنا مطمئن إلى ذلك!

فأيده المحاسب:

ــ نعم، والسيد هنا حريص.

سألته دولي:

والجياد، هل وجدتها جميلة؟

ــ آه! الجياد جميلة، نعم، وليس عندي ما يقال عليها. والغذاء كان حسناً أيضاً. ومع ذلك، لم أحس بالراحة، يا داريا الكسندروفنا.

والتفت إليها بوجهه الجميل والنبيل وأضاف:

ـ لست أدري إن كان رأيك مثل رأيي.

ـ نعم، وأنا لم أشعر بالراحة. قل لي، هل نصل قبل الليل؟

ـ سنفعل كل ما في وسعنا.

وجدت داريا الكسندروفنا أولادها في صحة تامة وأعظم سحراً من أي وقت مضى. ووصفت بحيوية رحلتها، والاستقبال الذي خصوها به، والترف، وأناقة آل فرونسكي، ولهوهم، ولم تسمح لأحد بإبداء أي نقد.

قالت بصدق، هذه المرة، ناسيةً ذلك الإحساس الغامض بالامتعاض والضيق الذي أحست به هناك:

ـ ينبغي أن نعرف فرونسكي وآنا لندرك إلى أي حد هما ساحران ورقيقان. وأنا الآن أفضل التعرُّف بهما.

[٢٥]

قضى فرونسكي وآنا الصيف وشطراً من الخريف في الريف، في الشروط نفسها دون أن يتخذا تدبيراً بشأن الطلاق. لقد قررا ألا يغادرا منزلهما؛ لكنهما أحسا كلاهما، بعد أن عاشا وحدهما زمناً طويلاً، ولا سيما في الخريف بعد سفر مدعويهما، أنهما لا يستطيعان تحمل هذه الحياة وأن من اللازم تغييرها.

كانا يبدوان كأنهما لا يستطيعان أن يشتهيا حياة أفضل: لقد توافرت لهما الثروة والصحة والبنتُ، وكان لكل منهما مشاغله. وظلت آنا، حتى أثناء غياب زوجها، تحسن العناية بنفسها، وتقرأ الكتب العصرية: الروايات والكتب الجادة. وكانت تستجلب الكتب التي تمدح في الجرائد والمجلات الأجنبية وتتلقاها وتقرؤها بانتباه لا نوليه القراءة إلا في العزلة. وفضلاً عن ذلك، كانت تطالع في الكتب والمجلات الاختصاصية جميع الموضوعات التي تهم فرونسكي، وكان يستشيرها غالباً في مسائل الزراعة والهندسة بل وتربية الخيل أو الرياضة. وأدهشته

بمعارفها وذاكرتها فشك فيها أولاً وسألها عن المراجع: لكنها وجدت في تلك المراجع المقاطع المطلوبة ودلته عليها.

كان إعداد المستشفى يعنيها أيضاً. لم تكن تشرف عليه فحسب، لكنها كانت تساعد بنفسها وتعثر على ترتيبات أخرى. وكان همها الأكبر، بالرغم منها، هي نفسها، بمقدار ما هي عزيزة على فرونسكي، وبمقدار ما تستطيع أن تقوم مقام كل ما هجره. وكان فرونسكي يقدر هذه الرغبة لا في أن تعجبه بل في أن تخدمه، وهي الرغبة التي غدت هدف حياتها الوحيد، لكن أواصر الحب هذه التي كانت تحاول أن تغمره بها كانت عبئاً عليه. وكان كلما مر الوقت ورأى نفسه مغموراً بهذه الأواصر، ازداد شوقاً لا إلى الإفلات منها، بل إلى التحقق من أن كانت هذه الأواصر لا تقيد حريته، ولولا هذه الرغبة المتعاظمة أبداً في أن يحس بحريته، وفي تفادي المشاحنات كلما توجه إلى عاصمة الإقليم لحضور اجتماع أو لمشاهدة السباق لكان فرونسكي راضياً كل الرضا عن حياته. إن الدور الذي اختاره، وهو دور أحد الأثرياء الملاكين الذين ينبغي أن يكونوا نواة الارستقراطية الروسية لم يكن يلائم ذوقه تماماً فحسب بل غدا يوفر له، الآن بعد أن عاش في الريف ستة أشهر على هذا النحو، مسرات تنمو باطراد. وكانت أعماله التي أخذت تستغرقه شيئاً فشيئاً تسير سيراً حسناً. وبالرغم من المبالغ الهائلة التي أنفقها على المستشفى والآلات والماشية التي طلبها من سويسرا، ومن مشتريات أخرى، كان مقتنعاً بأنه لم يزعزع ثروته بل إنه وطدها. وعندما كان الأمر يمس عائداته، من مثل بيع الأخشاب، والحبوب، والصوف، أو تأجير الأرض، فقد كان صلباً كالصخرة يعرف كيف يحافظ على أسعاره. وفي الزراعة، كان يقتصر على أبسط الطرق وأقلها مجازفة، ويتسم بالحذر والتوفير في أصغر التفاصيل. وبالرغم من حيلة وكيله الألماني ومهارة هذا الوكيل الذي كان يحاول أن يجره وهو يصور له المشتريات الجديدة وكأنها توفير قادر على تحقيق أرباح مباشرة، فإن الحيلة لم

تكن لتنطلي عليه. كان يصغي إلى وكيله حتى النهاية، ويسأله ولا يأخذ برأيه إلا إذا كان المشروع المقصود جديداً كل الجدة في روسيا، وقادراً على أن يترك أثراً عميقاً فيمن حوله. لم يكن يعقد العزم على إنفاق المبالغ الكبيرة إلا إذا توافر لديه الفائض، فإذا أنفق مثل هذه المبالغ تحقق من أدنى التفاصيل، حرصاً منه على أن يحصل، في مقابل ماله، على أفضل النتائج، وبهذه الطريقة، كان ينمي ثروته بدلاً من أن يبددها.

في تشرين، كان يجري انتخاب نقباء الطبقة النبيلة في مقاطعة كاشين حيث توجد أراضي فرونسكي، وسفياجسكي، وكوزبنيشيف، وأوبلونسكي، وقسم صغير من أراضي ليفين.

كانت هذه الانتخابات تجتذب انتباه المجتمع بسبب من الظروف ومن الشخصيات التي تشارك فيها. كان الناس يتحدثون كثيراً عنها ويستعدون لها. وكان الكثير من الناس ممن يسكنون موسكو وبطرسبرج والخرج، وممن لم يحضروا الانتخابات قط، يتجهون إلى عاصمة المقاطعة.

وعد فرونسكي، منذ زمن بعيد، سفياجسكي أن يكون حاضراً.

وقبل ذلك بوقت قليل، مر سفياجسكي الذي كان يزور «فوزفيجنسكوي» غالباً، ليرى فرونسكي.

والبارحة بالذات، تخاصم فرونسكي وآنا بشأن هذه الرحلة. كانا في هذه الفترة في الخريف التي هي أجلب الفترات للضجر في الريف، وقد أعلن فرونسكي سفره لآنا، وهو يستعد للنزاع، بلهجة باردة وصارمة لم يصطنعها من قبل في حديثه معها. وشد ما كانت دهشته عندما تلقت آنا النبأ بهدوء شديد، وسألته فقط عن موعد عودته. ونظر إليها بانتباه دون أن يفهم تلك السكينة النفسية. فردت على نظرته بابتسامة. كان يعرف قدرة آنا على الانكفاء على نفسها ويعلم أنها لا تستخدمها إلا إذا اتخذت قراراً لا تريد أن تُطلعه عليه. كان يخشى هذه الحالة؛

لكنه كان شديد الحرص على أن يتفادى مشاحنتها حتى لقد أظهر الاعتقاد بأنها صارت أقرب إلى المعقول (بل إنه اعتقد ذلك جزئياً)

ـ أرجو ألا ينتابك الملل.

قالت آنا:

ـ وأنا أيضاً. تلقيت البارحة صندوقاً من الكتب، من عند «غوتييه»[1]. لا، لن يصيبني الملل.

فكر في نفسه: «هذه لهجةٌ تريد أن تصطنعها. هذا أفضل. وإلا لظلت على لهجتها القديمة».

وسافر هكذا، دون أن يسألها إيضاحاً. كانت هذه أول مرة منذ بدء علاقتهما، يتركها فيها دون أن يتفاهما بعمق. كان هذا يقلقه من جهة، ومن جهة أخرى كان يراه أفضل. وقال في نفسه: «سيظل بيننا، في البداية كما هي الحال الآن، شيء من التشوّش، شيء لا يفصح عنه، ثم سوف تتعوده. على كل حال، أنا مستعد للتضحية بكل شيء من أجلها، ما عدا استقلالي».

[٢٦]

في أيلول، توجه ليفين إلى موسكو من أجل الولادة المنتظرة. ومضى عليه شهر فيها وهو يعيش في فراغ حتى جاء أخوه سيرج إيفانوفتش الذي كانت له ملكية في مقاطعة كاشتين والذي كان يهتم اهتماماً كبيراً بالانتخابات المقبلة، واستعد للسفر إلى هناك، فدعا أخاه الذي كان يملك أرضاً في منطقة «سيليزبنيف» إلى مصاحبته. وكان على ليفين، فوق ذلك، أن يسوي لأخته التي تعيش في الخارج قضية وصاية واستيفاء ملحة.

---

(١) من عند غوتييه: مكتبة فرنسية كبيرة في موسكو أسست سنة ١٧٩٩.

تردد ليفين، لكن كيتي التي رأت أنه أخذ يضجر في موسكو والتي نصحته بالذهاب أوصت له خفية على بزة من بزات النبلاء كلفت أربعة وثمانين روبلاً. هذه النفقة أقنعته بالذهاب، فقصد إلى كاشين.

مرت على ليفين خمسة أيام في كاشين وهو يتردد يومياً على الاجتماعات ويقوم بمساع من أجل قضيتي أخته اللتين لم تسويا. كان نقباء الأشراف جميعهم مشغولين بالانتخابات ولم يكن بالإمكان تسوية أبسط مسألة متعلقة بمجلس الوصاية. وأما المسألة الثانية وهي مسألة استيفاء الإتاوة التي يدفعها الفلاحون في مقابل تنازل الملاك عن أرضه عند إلغاء القنانة، فقد اصطدمت أيضاً بعقبات. وبعد مساع طويلة لرفع الحجز، كان المال جاهزاً للدفع، لكن كاتب العدل، وهو رجلٌ شديد المجاملة، لم يكن بوسعه أن يسلم سنداً على الخزينة لأن توقيع الرئيس كان ضرورياً ولأن الرئيس، وإن لم يتخل عن مهماته، كان في الدورة. كل هذه الإرباكات، والروحات والجيئات، والأحاديث مع ناس طيبين أدركوا جيداً ما في وضع هذا المُراجع من مضايقات ولم يستطيعوا أن يمدوا له يد المساعدة، كل هذا التوتر الذي لا يفضي إلى نتيجة ولد في ليفين شعوراً معذباً شبيهاً بذلك العجز المحنق الذي يصيبنا في الحلم عندما نود أن نستخدم قوتنا الجسدية. كان يحس بذلك في الغالب وهو يتحدث مع معتمده. وكان هذا المعتمد رجلاً ممتازاً بدا عليه أن يبذل وسعه ويستخدم كل إمكانات ذكائه ليخلص ليفين من ورطته. كان يقول له: «جرب هذه الوسيلة، إذهب إلى هذا المكان أو ذاك»، ويبني المعتمد خطة كاملة ليدرس الصعوبة التي تتعثر بها القضية. لكنه لا يلبث أن يضيف: «لن ينفعك ذلك في شيء، لكن حاول دائماً». ويحاول ليفين، ويقوم بزيارة جديدة. وكان الجميع طيبين ولطيفين، لكن العقبة التي يحاول تفاديها لا تلبث أن تبرز من جديد لتسد طريقه. أنكد ما في الأمر أن ليفين لم يستطع أن يدرك من كان يصارع، ومن المنتفع إن لم تنجح مساعيه.

وهذا ما لم يكن يبدو على أحد أنه يدركه؛ كان معتمده يجهل ذلك كما كان يجهله الآخرون. ولو أن ليفين استطاع أن يدرك ذلك، كما يدرك المرء أنه لا يستطيع الاقتراب من شباك التذاكر في المحطة إلا بدوره، لما أحس بالمضايقة؛ لكن لم يستطع أحد أن يفسر له وجود العقبات التي يصادفها.

تغير ليفين كثيراً بعد زواجه؛ لقد غدا صبوراً، وإذا لم يكن يفهم لما رُتب كل شيء على هذا النحو، فقد كان يقول في نفسه: إنه لا يستطيع أن يحكم دون أن يفهم كل شيء، وأن ذلك ضروري، فيحاول جاهداً ألا يثور.

وكـان يحاول الآن أيضاً وهو يحضر الانتخابات ويشارك فيها ألا يصدر نقداً، وألا يخاصم أحداً، وأن يفهم قدر الإمكان هذا الحدث الذي عكف عليه بكثير من الجد والحماسة كثير من الرجال الشرفاء الجديرين بالتقدير والاحترام. لقد اكتشف ليفين في الحياة، منذ أن تزوج، كثيراً من الجوانب الجادة التي كان يعدها من قبل تافهة بسبب طيشه، وأخذ يفتش عن المعنى الجدي لهذه الانتخابات.

كان سيرج إيفانوفتش يشرح له معنى هذه الثورة المزعومة ومداها. إن نقيب الأشراف في هذه المقاطعة التي تركزت بين يديه، بحكم القانون، الكثير من المؤسسات الهامة بما فيها الوصايات (وهي نفسها التي سببت لليفين ذلك الإزعاج)، والمبالغ الهائلة، والمعاهد، والتعليم العام، والإدارة الاقليمية، إن نقيب الأشراف «سنتيكوف»، كان نبيلاً من أسرة عريفة بدد ثروة ضخمة، وكان شهماً، شريفاً بين أقرانه، لكنه كان غريباً كل الغرابة عن مقتضيات العصر. كان يتصدى، في جميع المسائل، للدفاع عن الطبقة النبيلة، ويعارض بصراحة انتشار التعليم العام، ويعطي المجالس المحلية التي ينبغي أن تكون لها أهمية عظيمة طابعاً طبقياً. كان يجب أن يحل محله شابٌ نشيطٌ، ابن عصره، جديد كل الجدة، يقوم بمهمته على نحو يستخلص فيه من الحقوق الممنوحة للطبقة النبيلة، لا من حيث

هي طبقة نبيلة بل من حيث هي عنصر من عناصر المجالس المحلية، كل ما يمكن استخلاصه لمصلحة «الحكومة الذاتية». ففي مقاطعة «كاشين» الغنية، التي كانت تتقدم غيرها دائماً، تجمعت الكثير من القوى بحيث أن عملاً مناسباً يباشر به هنا يمكن أن يكون قدوة تقتدي بها مقاطعات روسيا جميعاً. ولذلك كان للدورة الحاضرة أهمية كبيرة. وكان من المتوقع أن يأتي محل سنتيكوف أوسفياجسكي أو حتى نيفييدوفسكي أستاذ قديم، ورجل مرموق الذكاء، وصديق كبير من أصدقاء سيرج إيفانوفتش.

افتتح الحاكم الدورة بخطاب دعا فيه النبلاء إلى اختيار أصحاب الرتب لا بحسب المودات بل بحسب الجدارة، ومن أجل خير الوطن؛ وأضاف أنه يأمل أن يتمم أشراف كاشين واجباتهم بأمانة ودقة كما فعلوا في الانتخابات السابقة ليسوغوا ثقة مليكهم.

عندما أنهى الحاكم خطابه، ترك القاعة، وتبعه الأشراف وقد ضجوا وهاجوا، بل وتحمسوا، وأحاطوا به وهو يرتدي معطف الفرو ويتحدث حديثاً ودياً مع نقيب الأشراف. أما ليفين الذي كان لا يحب أن يفوته شيء فقد اختلط بالجمهور وسمع الحاكم يقول: «أرجو أن تنقل إلى ماري ايفانوفنا اعتذارات زوجتي، لكنها ستزور مستشفى للمجانين». وعند ذلك ارتدى الأشراف معاطفهم بمرح وتوجهوا إلى الكنيسة. وهناك، رفع ليفين يده مع الآخرين وكرر كلمات رئيس الأساقفة، وأقسم بالأيمان المغلظة أن يستجيب لآمال الحكومة. كان ليفين شديد التأثر بالقداس الديني، فعندما نطق بهذه الكلمات: «إني أقبل الصليب» والتفت ليرى هذا الجمهور من الرجال الكبار والشباب وهم يلفظون هذه الكلمات أحس بالانفعال.

في اليوم التالي، والذي تلاه، شغل المجتمعون بالميزانية وبمعهد الفتيات، وهما مسألتان لا تنطويان، برأي سيرج ايفانوفتش، على أية أهمية لذلك لم

يحضرهما ليفين الذي شغل بمساعيه. في اليوم الرابع، جرى التحقق من حسابات المقاطعة. ولأول مرة وقع صدام بين الحزب الجديد والحزب القديم. فاللجنة المكلفة بالتحقيق في المبالغ أعلنت للجمعية أن كل شيء كان حسب الأصول. ووقف نقيب الأشراف وشكر الجمعية للثقة التي منحته إياها، وذرف بعض الدموع. فصفق له الأشراف وشدوا على يده. لكن أحد أعضاء حزب سيرج إيفانوفتش صرح، في هذه اللحظة، أنه سمع أن اللجنة لم تباشر التحقيق، مقدرة أن في ذلك إهانة لنقيب الأشراف. وأيد أحد أعضاء الجمعية بتهور هذه الأقوال. حينذاك وقف سيد قصير، شابٌ في الظاهر لكنه لاذع التهكم وعرض بأن نقيب الأشراف كان سيسر من غير شك لو قدم حساباً عن إدارته، لكن رقة اللجنة المرهفة حرمته هذه المتعة النفسية. عند ذاك سحب المحققون تصريحهم، وبدأ سيرج إيفانوفتش يبرهن على أنه يجب أن يعلن للجمعية أحد شيئين: إما أن تكون الحسابات قد حقق فيها، وإما أنها لم يحقق فيها، واستفاض في الكلام على هذا البرهان ذي الحدين. وتصدى للرد على سيرج ايفانوفتش محدث جذاب الحديث من الحزب المضاد. وبعد ذلك تكلم سفياجسكي، ثم جاء دور السيد المتهكم مرة أخرى، دام النقاش طويلاً ولم يتيسر الانتهاء منه. وزاد من دهشة ليفين إزاء هذا النقاش الطويل لهذه المسألة، أنه عندما سأل سيرج ايفانوفتش إن كان يتهم «سنتيكوف» بالتبذير، أجابه:

ـ أود! لا. إنه رجل شريف. لكن ينبغي أن نزعزع هذه الطريقة العتيقة في إدارة شؤون الحكم.

في اليوم الخامس، جرت انتخابات نقباء المناطق. كان ذلك اليوم عاصفاً جداً في بعض المناطق. وفي منطقة «سليزنييف» تمَّ انتخاب سفياجسكي بالإجماع وأقام مأدبة عشاء في اليوم نفسه.

حُدد موعد انتخابات نقيب المقاطعة في اليوم السادس. كانت القاعات غاصة بالأشراف الذين ارتدوا بزات شتى. وقد وصل الكثير منهم في هذا اليوم بالذات. وتلاقى الآن أصدقاء لم يروا بعضهم بعضاً منذ زمن بعيد، جاء أحدهم من القرم وجاء آخر من بطرسبرج، وجاء الثالث من الخارج. وقرب طاولة الحاكم، تحت صورة الامبراطور، كانت المناقشات تسير سيراً حسناً.

كان الأشراف في القاعة الكبرى والقاعة الصغرى يتجمعون في معسكرين، وكانت النظرات المعادية، الحذرة، والصمت المفاجيء عندما يمر الخصم، والهمس في أركان القاعتين وحتى في الممر، كان ذلك كله يُظهر أن كلا من الطرفين يخبيء أسراراً عن الآخر. كان الأشراف ينقسمون في الظاهر انقساماً جلياً إلى طائفتين: القدامى والجدد. كان القدامى في معظمهم إما في بزات مزررة انقضى عهدها مع السيف والقبعة، وإما في بزات الفرسان والبحرية والمشاة. وكانت بزات الأشراف القدماء مفصلة بحسب الزي القديم، منفوخة عند الكتفين، قصيرة القياس، ضيقة كما لو أن لابسيها قد كبروا فيها. أما الشباب فكانوا يرتدون بزات محلولة الأزرار، طويلة، عريضة الكتفين، مع صدرات بيضاء، أو يلبسون لباساً ذا قبة سوداء مزينة بأوراق الغار، هو لباس وزارة العدل. وكان بعض الشباب يرتدون لباس البلاط الذي ألقى هنا وهناك شيئاً من البهجة على الجمعية.

لكن هذا التقسيم إلى شباب وشيوخ لم يكن يتطابق مع التقسيم إلى حزبين. لقد لاحظ ليفين أن بعضاً من الشباب ينتمون إلى الحزب القديم، وبالمقابل فإن بعض الأشراف الطاعنين في السن كانوا يكلمون سفياجسكي بصوت خافت، وكان ظاهراً أنهم من زعماء الحزب الجديد المتحمسين.

كان ليفين في القاعة الصغرى حيث كان الحاضرون يدخنون ويتناولون المقبلات، وكان يجلس إلى جانب طائفة من أصدقائه. كان يصيخ السمع إلى ما

يقـال، ويستنفر عبثاً قوى فكرة ليفهم ما يجري. وكان سيرج ايفانوفتش المركز الذي يتجمع حوله الآخرون. وكان يصغي في هذه اللحظة إلى سفياجسكي وكليوستوف ونقيب منطقة أخرى ينتمي إلى حزبهم. لم يكن من رأي «كيلوستوف» أن يرجو سنتيكوف باسم المنطقة لكي يقدم ترشيحه. وكان سفياجسكي يحاول أن يقنعه بذلك، وكان سيرج ايفانوفتش موافقاً على هذه الخطة. ولم يفهم ليفين لماذا ينوي الحزب الخصم أن يطلب من النقيب الذي يطمح في استبعاده أن يقدم ترشيحه.

دنا منهم ستيفان أركادييفتش الذي انتهى من شرب كأس ومن تناول بعض المقبلات وهو يمسح فمه بمنديل من الباتيستا المعطر، وقد ارتدى بزة حاجب الامبراطور.

قال وهو يملس سالفيه:

ــ نحن نحتل الموقع، سيرج ايفانوفتش!

وبعد أن استمع إلى الحديث أيد سفياجسكي، وقال:

ــ تكفي منطقة واحدة، ومنطقة سفياجسكي تنتمي إلى المعارضة بصراحة بالغة.

فهم الجميع ما عدا ليفين.

وأضاف وهو يلتفت إلى ليفين ويمسك بيده:

ــ وأنت أيضاً، يا كوستيا، كأنك تتذوق ذلك؟

كان ليفين سيسر لو تذوق ذلك، لكنه لم يكن يفهم ما يجري.

وبعد أن نأى خطوات أعرب لستيفان أركادييفتش عن حيرته.

قال ستيفان أركادييفتش باللاتينية:

يا للبساطة المقدسة!

وشرح لليفين القضية في بضع كلمات.

إذا كانت جميع المناطق تطالب بترشيح سنتيكوف، كما كانت الحال في الانتخابات السابقة، فسوف ينجح في الاقتراع. وذلك ما ينبغي تفاديه. وفي هذه المرة اتفقت ثماني مناطق على المطالبة بسنتيكوف، وإذا امتنعت اثنتان منها فقد يسحب ترشيحه. وحينذاك قد يختار الحزب القديم نقيباً آخر أشد خطراً بين أفراده وينهار الائتلاف. بينما لو امتنعت منطقة سفياجسكي لرشّح سنتيكوف نفسه مع ذلك، ولانتقل جزء من الأصوات إليه: وفي هذه الحالة سيمنح الحزب الخصم المبلبل بعض أصواته لمرشح المعارضة حين يتقدم هذا المرشح للانتخاب.

لم يفهم ليفين إلا نصف فهم، وأراد أن يطرح بعض الأسئلة، عندما أخذ الجميع فجأة يتكلمون معاً واتجهوا إلى القاعة الكبرى:

«ماذا جرى؟ ماذا؟ مَنْ هذا؟» ــ «سلطة يحققون فيها؟ مَنْ المقصود؟» ــ «نعم، هذا رفض». ــ «كلا». ــ «فليروف هو الذي لم يقبلوا به». ــ «لماذا، لأنه كان غرضاً للتحقيق؟» ــ «على هذا الأساس، لن يقبلوا أحداً». ــ «هذا عمل دنيء». ــ «هذا هو القانون».

سمع ليفين هذا الكلام آتياً من مختلف الجهات، واختلط بجميع الذين كانوا يستعجلون، خشية أن يفوته الحادث، واتجه إلى القاعة الكبرى. وزحمه الجمهور فدنا من طاولة الشرف التي كان يتناقش حولها نقيب الأشراف سفياجسكي وشخصيات أخرى مرموقة.

[٢٨]

كان ليفين بعيداً جداً. وكان بجانبه شخص أجش الأنفاس، وآخر له حذاء يطقطق، فمنعاه من أن يسمع بوضوح. سمع فقط صوتاً آتياً من النقيب، ثم صراخ السيد المتهكم، ثم صوت سفياجسكي. كانوا يتناقشون، بحسب ما فهم. حول معنى المادة القانونية والكلمات «كان غرضاً للتحقيق».

فسح الجمهور الطريق ليمر سيرج ايفانوفتش. وبعد أن استمع إلى آخر ما

تكلم به السيدُ المتهجم قال: إن الرجوع إلى نص القانون ادعى إلى الثقة، فيما يبدو له، وطلب إلى أحد أمناء السر أن يبحث عن تلك المادة. وكانت تنص على أنه في حالة اختلاف الآراء ينبغي أخذ الأصوات.

قرأ سيرج ايفانوفتش المادة وشرع يشرح معناها، لكن ملاكاً قطع عليه الكلام حينئذٍ. وكان رجلاً طويلاً، ضخماً، مقوس الظهر قليلاً، ذا شاربين مصبوغين، وبزة ضيقة تشد قبتها قذاله. دنا من الطاولة، وضربها بخاتمه، وصرخ بصوت قوي:

ـ إلى الأصوات! إلى الأصوات! لا نقاش!

ارتفعت بعض الأصوات فجأة وأخذ النبيل ذو الخاتم الذي تزايد هياجه، يصرخ بقوة آخذة في الشدة. لكن كان من المستحيل تمييز ما يقول.

كان يطالب بما يطالب به سيرج ايفانوفتش؛ لكن الظاهر أنه كان يكرهه كما كان يكره كل حزبه، وانتقل هذا الكره إلى الحزب الخصم وأثار فيه الحنق نفسه وإن عبر عنه بأشكال أكثر حشمة. وتعالت الصرخات؛ وحدث تشوش عظيم حمل نقيب الأشراف على طلب الصمت.

«إلى الأصوات! إلى الأصوات! سيفهمني جميع الأشراف». ـ «سنريق دمنا. . .» ـ «ثقة المليك. . .» ـ «لا تصغوا إلى النقيب، فليس له أن يأمرنا. . .» ـ «ليست هذه هي المسألة. . .» ـ «إلى صناديق الاقتراع. . .» ـ «هذه فضيحة».

ارتفع الزعيق من كل جانب. وكان يعبر عن حقد شديد. لم يفهم ليفين ما الذي يحدث، ودهش لهذه الأهواء التي أثارتها قضية «فليروف». ونسي القياس الذي يقضي بأن يهزم نقيب المقاطعة من أجل المصلحة العامة، كما شرح له ذلك سيرج ايفانوفتش فيما بعد، ولكي يهزم كان لا بد من أغلبية الأصوات، وللحصول على هذه الأغلبية كان يجب منح «فليروف» حق التصويت؛ ومن أجل إثبات حق فليروف، كان يجب تفسير المادة القانونية بالمعنى المناسب. وختم سيرج ايفانوفتش كلامه.

ـ وهكذا يستطيع صوت واحد أن ينقل الأغلبية من جانب إلى جانب. فإذا شئنا أن نخدم المصلحة العامة وجب علينا أن نكون جديين وأن نتحلى بروح المثابرة. لكن ليفين نسي ذلك، وشق عليه أن يرى هؤلاء الناس الطيبين الذين يقدرهم في مثل هذه الحالة من الحنق والهياج. ولكي يتخلص من هذا الإحساس المزعج، توجه؛ دون أن ينتظر نهاية المناقشة، إلى القاعة الصغرى التي لم يكن فيها سوى خدم المقصف. وعندما رآهم ليفين يجففون الأواني ويرتبون الصحون والكؤوس بأوجه هادئة، أحس بشعور غير متوقع من الراحة وكأنه خرج إلى الهواء الطلق من غرفة منتنة. وأخذ يتمشى طولاً وعرضاً وهو ينظر إلى الخدم بابتهاج. وأعجب بخادم رمادي السالفين، مليء بالازدراء لمناكدات رفاقه الشباب، وهو يعلمهم كيف يطوون المناشف.

وأوشك أن يخاطبه، لولا أن حول انتباهه أمين سر مكتب الوصايات، وهو شيخ قصير متخصص بمعرفة أشراف المقاطعة بأسمائهم وكناهم. قال له:

ـ عفواً، يا قسطنطين دميتريتش، أخوك يبحث عنك. سيتم التصويت.

رجع ليفين إلى القاعة الكبرى، وتلقى بطاقة الاقتراع، ودنا، في إثر أخيه سيرج ايفانوفتش، من الطاولة التي استقر بقربها سفياجسكي، بهيئته الساخرة، المتوقرة، وهو ينفخ على لحيته التي جمعها بيده. وضع سيرج ايفانوفتش بطاقته في الصندوق، وتنحّى قليلاً ليسمح بمرور أخيه. اقترب ليفين بدوره، لكنه كان قد نسي موضوع التصويت، فارتبك، والتفت إلى سيرج إيفانوفتش وسأله أين ينبغي أن يضع بطاقته. لقد تكلم بصوت خافت وكان الناس يتحدثون حوله، ولذلك كان يأمل ألا يسمعه أحد. لكن الذين كانوا يتكلمون سكتوا، وسمعوا السؤال غير اللائق. قطب سيرج ايفانوفتش بين حاجبيه، وقال بصرامة:

ـ هذه قضية قناعة.

ابتسم بعضهم. احمر ليفين، وأسرع فدس تحت الغطاء يده اليمنى التي تمسك بالبطاقة ووضع البطاقة في الجهة اليمنى. حينذاك تذكر أنه ينبغي أن يخفي يده اليسرى أيضاً، فسارع ودسها تحت الغطاء، لكن الوقت كان متأخراً. فأخذ ارتباكه يشتد وانسحب على عجل إلى الصفوف الخلفية.

أعلن أمين السر:

ـ مائة وستة وعشرون صوتاً موافقاً! ثمانية وتسعون صوتاً معارضاً!

ثم سمعت ضحكات: ذلك أنهم وجدوا في الصندوق زراً وجوزتين.

لقد قبل فليروف وانتصر الحزب الجديد.

لكن الحزب القديم لم يسلم بأنه غلب. وسمع ليفين النبلاء يرجون سنتيكوف أن يتقدم للانتخاب ورأى جمهور النبلاء يحيطون بالنقيب الذي كان يقول شيئاً. فاقترب منه. كان سنتيكوف يتحدث، وهو يجيب النبلاء، عن الثقة والمحبة اللتين أبدوهما له واللتين لا يستحقهما، لأن ميزته الوحيدة هي إخلاصه للطبقة النبيلة التي كرس لها اثنتي عشرة سنة من حياته. وكرر، عدة مرات: «خدمت العقيدة والحقيقة، بقدر ما تسمح لي قواي. إني أقدركم وأشكركم»، وفجأة توقف بعد أن غصَّ بالعبرات، وترك القاعة. هل استدرت هذه الدموع شعوره بالظلم الذي ارتكب بحقه، أو بحبه للطبقة النبيلة، أو بصعوبة موقفه وقد أحس بالأعداء يكتنفونه؟ والشيء المؤكد هو أن انفعاله انتقل إلى من حوله. فتأثر معظم الحاضرين. وخامر ليفين شيء من الحنان إزاءه.

عند عتبة الباب اصطدم نقيب الأشراف بليفين، وقال عندما عرف ليفين:

ـ عفواً، أعذرني.

وابتسم بوجل، فأحس ليفين بأنه ينوي أن يقول شيئاً لكن الانفعال منعه من ذلك. إن تعبير وجهه وشخصه كله، وهو يهم بالخروج، في بزته المغطاة بالأوسمة

وبنطاله الأبيض المزين بشرائط، إن ذلك كله ذكر ليفين بالوحش المطارد. ولقد أثر ذلك التعبير الذي ارتسم على وجه نقيب الأشراف تأثيراً كبيراً في نفس ليفين ولا سيما أنه ذهب البارحة إلى منزله من أجل قضية الوصاية فرآه والوقار يغمره، وقار الرجل الطيب القلب، ورب العائلة الرحيم، في مسكن فسيح قديم الأثاث، وحوله خدم متقدمون في السن، في لباس مهمل وإن نمت حركاتهم على الاحترام، ورأى امرأة سمحة، بدينة، بقبعة مخرمة وشال تركي، تغمر بمظاهر الحنان صبية جميلة هي حفيدتها، وفتى أنيق الهيئة قبل يد والده القوية عند عودته من المعهد؛ إن تصرفات رب المنزل المهيبة، وبشاشته، أيقظت في نفس ليفين الاحترام والمودة ولذلك أخذته الشفقة بهذا الشيخ الآن، وأراد أن يقول له شيئاً لطيفاً:

ـ أرجو أن تظل على رأسنا.

قال النقيب وهو يلتفت كالخائف:

ـ لا أدري. فأنا طاعن في السن، ومتعب. وهناك من هم أجدر وأصغر سناً مني. فليحلوا محلي.

وتوارى النقيب من باب جانبي.

اقتربت الدقيقة الرسمية. كان لا بد من الشروع في الانتخابات دون تأخر. وكان زعماء الحزبين يعدون على أصابعهم المناصرين والمعارضين.

إن الجدال الذي جرى بصدد «فليروف» أكسب الحزب الجديد صوته، وأربحه شيئاً من الوقت: فقد أمكن المجيء بثلاثة نبلاء حرمتهم مكائد الحزب القديم إمكان المشاركة في الانتخابات. اثنان من هؤلاء كانا يميلان إلى الشراب قد أسكرهما عملاء سنتيكوف أما الثالث فقد أخفوا بزته.

لقد تسنى للحزب الجديد، حين علم بذلك، أن يرسل بزة، أثناء النقاش وأن يأتي بأحد النائبين الثملين.

قال النائب الذي ذهب ليأتي به:

ـ جئتك بواحد منهما، لقد صببت على رأسه سطلاً من الماء. صار يمكنه الوقوف على رجليه.

سأله سفياجسكي وهو يهز رأسه:

ـ وهو لن يقع؟

ـ لا، مشت الحال بشرط ألا يسقوه شيئاً. لكني قلت للمسؤول عن الحانة ألا يقدموا له شيئاً مهما تكن الذريعة.

[٢٩]

كانت القاعة التي يدخن الحاضرون ويتناولون المقبلات فيها غاصة بالناس. وكان الاهتياج الديني يتزايد والقلق يقرأ على جميع الوجوه. وكان أكثر الناس انفعالاً زعماء الحزبين الذين يعرفون العدد الدقيق للناخبين. لقد كانوا يستعدون للمعركة الوشيكة الوقوع. أما الآخرون فمع أنهم كانوا على استعداد للنزال، إلا أنهم كانوا يبحثون عما يلهيهم، كالجنود عشية المعركة. كان بعضهم يأكلون وقوفاً أو جلوساً إلى الطاولة، وكان الآخرون يروحون ويجيئون وهم يدخنون ويتحدثون مع الأصدقاء الذين لقوهم بعد فراق طويل.

لم يكن ليفين جائعاً، ولم يكن يدخن، ولم يجد ما يغريه بالانضمام إلى أصدقائه، أي إلى سيرج ايفانوفتش، وستيفان أركادييفتش، وسفياجسكي، وغيرهم، لأن فرونسكي كان بينهم يتحدث بحماسة، وهو في بزة حامل سلاح الامبراطور. ولقد شاهده ليفين البارحة وتحاشاه بعناية لأنه لم يكن يرغب في التقائه. دنا من النافذة وجلس. وأخذ يفحص الجماعات ويصيخ السمع إلى ما يقال حوله. وخامرته الكآبة حين تبين أنهم متحمسون، مهمومون جميعاً، ما عدا شيخاً قصيراً، ادرد، يُتأتىء، في بزة ضابط البحرية، كان خالي البال، غير مكترث مثله.

قال نبيلٌ ريفي معتدل القامة، حاني الظهر، قد تدلى شعره المدهن على ياقة بزته المطرزة، وهو يطفطق بعقبـي جزمته الجديدة التي أراد أن يتباهى بها في يوم الانتخابات:

ــ يا له من نذل! مع أني أنبته، لكن تأنيبـي ذهب أدراج الرياح! إذ لم تكفه ثلاث سنوات ليتم استعداده!

ورمى ليفين بنظرة غاضبة وأشاح بوجهه عنه.

أجابه محدثه، وهو رجل قصير القامة، بصوت نحيف:

ــ نعم، هذا صحيح، فالقضية حقيرة.

في إثر هؤلاء أقبل جمهور يحيط بجنرال ضخم. وكان واضحاً أنهم يبحثون عن ركن يتحدثون فيه دون أن يسمعهم أحد.

ــ كيف يجرؤ أن يقول إنني أمرتُ باختلاس بنطاله! لقد باعه ليشرب. فيما أعتقد. إنني أبصق عليه وعلى أمارته. لكنه لا يتجرأ على أن يصرح بذلك، إنها حقارة!

وفي جماعة أخرى، كانوا يقولون:

ــ لكن اسمحوا لي! إنهم يستندون إلى القانون: ينبغي أن تكون المرأة مسجلة في سجل النبلاء.

ــ إني لا أبالي بالقانون! وأنا أتكلم بحسب رأيـي. فلسنا بالنبلاء اعتباطاً. وإذا كنت نبيلاً فيجب أن توضع الثقة بي.

ــ تعال وتناول شيئاً من الشمبانيا الفاخرة، يا صاحب السيادة.

وكانت جماعة أخرى تتبع نبيلاً يصرخ بأعلى صوته: وكان أحد الرجال الثلاثة الذين أسكروا.

قال صوتٌ متكلف اللطف، وهو صوت ملاك ذي شاربين رماديين، يرتدي بزة عقيد في هيئة الأركان القديمة:

ـ لقد نصحت ماريا سيمينوفنا دائماً بأن تؤجر أرضها، لأنها لا تنتفع منها.

كان هذا الرجل هو الشخص الذي كان ليفين قد لقيه عند سفياجسكي فعرفه على الفور وتلاقت نظراتهما وحيا كل منهما الآخر.

ـ يسعدني أن التقيك. بالتأكيد! إني أذكر تماماً! السنة الفائتة. عند نيقولا ايفانوفتش.

سأله ليفين:

ـ كيف تسير استثمارك؟

أجاب الآخر بابتسامة تنم على الإذعان وبوجه هادىء ومقتنع، كأن الأمور لا يمكن أن تكون على غير ما كانت عليه.

ـ إنه يسير من سيء إلى أسوأ. وأنت، أية مصادفة حملتك على المجازفة في مقاطعتنا؟ أجئت لتشارك في «انقلابنا» (قال ذلك بعزم وبفرنسية رديئة اللهجة). كل روسيا تواعدت على المجيء إلى هنا. وبين الوافدين حجاب للامبراطور ولعل بينهم وزراء.

وأشار إلى شخص ستيفان أركادييفتش المهيب الذي كان يتمشى بجانب جنرال في بنطال أبيض[1] وفي بزة حاجب الامبراطور.

قال ليفين:

ـ ينبغي أن أعترف لك بأنني لا أفهم جيداً معنى هذه الانتخابات. نظر إليه الملاّك:

ـ لكن ليس فيها ما يحتاج إلى الفهم، ولا معنى لها. إنها مؤسسة بالية لا تمد حركتها إلا بقوة العطالة. انظر إلى البزات، إنها بليغة الدلالة: نحن بإزاء جمعية قضاة للصلح، وأعضاء دائمين، . . . لا جمعية نبلاء.

---

(١) بنطال أبيض: كان البنطال الأبيض ذو الشريط المذهب جزءاً من لباس الاحتفالات الذي يرتديه حجاب الامبراطور أو غيرهم من أصحاب المقامات في البلاط.

سأله ليفين:

ــ إذن لماذا جئت؟

ــ بحكم العادة، لا غير. ثم إن علينا أن نحافظ على علاقتنا، القضية، في الواقع، نوع من الإلزام المعنوي. كما أن لي، في الحقيقة، مصلحة. فصهري يرغب في أن يرشح نفسه كعضو دائم: ليس لأسرته ثروة، وتجب مساعدته. وهؤلاء السادة لماذا يأتون.

قال ذلك وأشار إلى المستجوب المتهكم الذي شارك في النقاش.

ــ جيلٌ جديدٌ من النبلاء.

ــ جديدٌ ربما، أمل نبيلٌ فلا. هؤلاء أصحاب ملكيات، أما نحن فملاكو أراض. إنهم يهاجمون أنفسهم من حيث هم نبلاء.

ــ لكنك قلت إنها مؤسسة بالية.

ــ صحيح، صحيح، لكن يمكنهم مع ذلك أن يكونوا أكثر احتراماً لنا، أو لسنتيكوف على الأقل... لعلنا لا نساوي شيئاً كبيراً لكننا قضينا ألف عام ونحن نكبر. لو كان عليك أن تقيم رياضاً للزهور أمام بيتك، وكان لديك فيها شجرة معمرة... فأنت لن تقطع هذه الشجرة العتيقة والملتوية من أجل مساكبك، بل إنك ستخطط لتلك الرياض بحيث تستفيد من هذه الشجرة.

وقال وهو يخفض صوته بحذر:

ــ لأن مثل هذه الشجرة لا تنمو في سنة واحدة.

وما لبث أن غير الحديث:

ــ وأنت، كيف حال ممتلكاتك؟

ــ ليست على ما يرام. إنها لا تعطي أكثر من خمسة بالمائة.

ــ هذا من غير أن تحسب جهدك. فلا شك أن جهدك يساوي شيئاً، أليس كذلك؟ أقول ذلك وأنا أقصد نفسي. فقبل أن أنسحب إلى أراضي، كنت أقبض

مرتباً قدره ثلاثة آلاف روبل. وأنا أشتغل الآن أكثر، وأحصل مثلك على خمسة بالمائة، هذا عندما تسير الأمور سيراً حسناً. أما جهدي فلا حساب له.

ـ لماذا إذن تتمسك بذلك، إذا كنت في عجز؟

ـ آه! لكن ماذا تريد أن أفعل؟ إنها العادة، والمرء يحس أنه مجبر على هذا.

وأضاف، وقد فاضت قريحته، وهو يتكىء على النافذة:

ـ وأكثر من ذلك أن ابني لا يميل إلى الاستثمار. إنه لا يعنى بغير العلم، بحيث إني لن أجد أحداً يخلفني. ومع ذلك فأنا مستمر. وقد انتهيت من غرس بستان.

قال ليفين:

ـ نعم، هذا صحيح تماماً، يخيل إلي أنني لن أستفيد من ممتلكاتي ومع ذلك فأنا مستمر. إنه ضرب من الواجب تحس به تجاه الأرض.

وتابع الملاّك:

ـ اسمع: إن جاري تاجر. لقد جاء يزورني فقمنا بجولة في أراضي. أتعلم ماذا قال لي: «ستيفان فاسيليفتش، كل شيء منظم عندك ما عدا هذه الحديقة المهملة». مع أنني أعتني بحديقتي. «لو كنت مكانك لقطعت أشجار الزيزفون وهي في عنفوان تفتحها، إن عندك هنا نحو ألف منها، ومن كل واحدة تستطيع أن تضع عارضتين صالحتين للبناء. ولهذا ثمنه اليوم. نعم لو كنت مكانك، لصنعت منها خشباً للبناء.

وأضاف ليفين مبتسماً وطالما اصطدم بمثل هذه المحاكمة:

ـ وبهذا المال سيشتري ماشية أو أرضاً بسعر بخس يؤجرها للفلاحين ويثري منها. أما أنت وأنا فنحن لا هم لنا سوى المحافظة على أملاكنا وتوريثها لأبنائنا.

قال الملاّك:

ــ أنت متزوج، فيما أعتقد؟

أجاب ليفين باعتزاز:

ــ نعم.

واستأنف:

ــ نعم، إن هاهنا شيئاً غريباً، إننا نعيش دون أن نتنبأ بالمستقبل، كأننا مكلفون بالإشراف على النار المقدسة، مثل عذارى روما القديمة.

ضحك الملاّك ضحكة خرساء تحت شاربيه الأبيضين.

ــ والبعض أيضاً، مثل صديقنا نيقولا ايفانوفتش أو الكونت فرونسكي الذي جاء ليستقر في أراضيه، يرغبون في أن يديروا استثماراً زراعياً، لكن ذلك لم يؤد حتى الآن إلا إلى التهام رأسمالهم.

قال ليفين وهو يعود إلى فكرة أذهلته:

ــ لكن لماذا لا نفعل مثلما يفعل التجار؟ لماذا لا نقطع أشجارنا لنصنع منها عوارض للبناء؟

ــ لنصون النار المقدسة،كما قلت. على كل حال، ليس هذا من عمل النبيل، إن عملنا نحن لا يتم هنا، في الانتخابات، لكن هناك في أرضنا. إن لنا غريزة طبقية عما ينبغي وعما لا ينبغي فعله. وكذلك للفلاحين غريزتهم الطبقية، وأنا ألاحظ ذلك، على كل حال. بين وقت وآخر: فالفلاح النشيط يستأجر من الأرض أقصى ما يمكن، وحتى لو كانت الأرض رديئة، إنه يحرث كل شيء. وليس ذلك عن حساب محسوب، لأنه، في الغالب، يخسر فيها.

قال ليفين:

ــ مثلنا نحن.

وأضاف وهو يرى سفياجسكي يقترب:

ــ كنت سعيداً جداً بلقائك.

قال الملاّك:

ـ لم نلتق منذ أن تعارفنا عندك، وقد وجدنا كثيراً من النقاط المشتركة.

قال سفياجسكي وهو يبتسم:

ـ أراهن، أنكم طعنتم على نظام الأشياء الجديد.

ـ ربما.

ـ لا بدّ لنا من أن نسري الهم عن أنفسنا.

[٣٠]

أمسك سفياجسكي ليفين من ذراعه وجره نحو زمرة من أصدقائه.

كان من المستحيل، هذه المرة، تحاشي فرونسكي. كان مع ستيفان أركاديفتش وسيرج ايفانوفتش ينظر باتجاه ليفين.

قال وهو يمد يده إلى ليفين:

ـ تسعدني رؤيتك. يلوح لي أنني قد حظيت بلقائك... في منزل الأميرة تشرباتزكي.

فقال ليفين:

ـ نعم، إنني أذكر جيداً لقاءنا.

تضرج وجهه وما لبث أن التفت إلى أخيه وخاطبه.

ابتسم فرونسكي ابتسامة خفيفة واستأنف نقاشه مع سفياجسكي.

كان ظاهراً أنه لا يرغب في مباشرة الحديث مع ليفين. لكن ليفين كان يلقي، وهو يحدث أخاه، نظرات خاطفة على فرونسكي، ويتساءل عمّا يمكن أن يقوله له ليصلح فظاظته.

سأل وهو يلتفت إلى سفياجسكي وفرونسكي:

ـ أين صرتما؟

أجاب سفياجسكي:

ـ ما زلنا نتحدث عن سنتيكوف.

ـ حسناً! هل سيتقدم، نعم أم لا؟

قال فرونسكي:

ـ لا هذا ولا ذاك، في الحقيقة.

سأل ليفين وهو يلقي بين الحين والآخر نظرة على فرونسكي:

ـ وإذا تنازل، فمن الذي سيتقدم مكانه؟

قال سفياجسكي:

ـ من شاء ذلك.

سأل ليفين:

ـ أنت؟

قال سفياجسكي وهو يرتبك ويلقي نظرة قلقة على السيد المتهكم الذي كان يقف بجانب سيرج ايفانوفتش:

ـ أنا أبعد الناس عن هذا.

فقال ليفين وقد أحس أنه ضل السبيل.

ـ ومن إذن؟ نيفييدوفسكي؟

فأجاب السيد المتهكم:

ـ أبداً، لا:

كان هذا السيد هو نيفييدوفسكي بعينه. فقدم له سفياجسكي ليفين.

قال ستيفان أركادييفتش وهو يغمز فرونسكي بعينه:

ـ كأن ذلك يستثيرك، أنت أيضاً. هذا شبيه بالسباق ويمكن للرهان أن يدخل فيه.

قال فرونسكي وهو يقطب بين حاجبيه ويقلص وجنتيه القويتين:

ـ نعم، هذا آسر للقلوب. فما أن نبدأ به حتى نود أن نمضي فيه حتى النهاية. إنه الصراع.

ـ ما أبرع خطط سفياجسكي! كل شيء يغدو معه واضحاً!

ـ قال فرونسكي وقد بدا عليه الشرود:

ـ أوه! صحيح.

وران صمت نظر فيه فرونسكي إلى ليفين (كان لا بد من أن يحط عينيه على جهة ما)، إلى قدميه وبزته ووجهه، وحين لاحظ نظرة ليفين الكئيبة مثبتة فيه، سأله ليقول شيئاً:

ـ كيف جرى أنك تسكن الريف طوال السنة ولا تصير قاضياً للصلح؟ إنك لا تلبس بزة قاضي الصلح.

أجاب ليفين وهو عابس الوجه، وكان، طوال هذا الوقت ينتظر مناسبة يكلم فيها فرونسكي ليخفف من خشونته التي بدرت منه قبل هنيهة:

ـ لأنني أقدر أن قضاء الصلح مؤسسة سخيفة.

قال فرونسكي بدهشة هادئة:

ـ على العكس، أنا لا أرى ذلك.

فقاطعه ليفين:

ـ هذا القضاء لعبة. لسنا بحاجة إلى قضاء الصلح. فخلال ثماني سنوات لم أقم دعوى واحدة. وعندما أقمت دعوى كان الحكم فيها منافياً للعقل، إن قاضي الصلح على أربعين فرسخاً من أراضي. ومن أجل قضية تكلفني روبلين، علي أن أرسل معتمداً يكلفني خمسة عشر.

وروى أن فلاحاً سرق طحيناً عند طحان، وأن الطحان عندما لام الفلاح على ذلك، أقام عليه الفلاح الدعوى بالافتراء. كان ما يقوله ليفين غباء، لا يناسب المقام، وقد أدرك ذلك بنفسه وهو يتكلم.

قال ستيفان أركادييفتش وهو يبتسم أعذب ابتساماته:

ـ يا له من رجل غريب الأطوار! ليتنا نذهب إلى القاعة الكبرى؟ يبدو لي أنهم قد شرعوا بالتصويت.

وافترقوا.

قال سيرج ايفانوفتش الذي لاحظ فورة أخيه الرعناء:

ـ لست أفهم كيف يمكن أن يكون المرء محروماً إلى هذا الحد من الحصافة السياسية. وهذا ما ينقصنا نحن الروس. فالمارشال خصمنا وأنت تلاطفه وتطلب إليه أن يتقدم بترشيحه. أما الكونت فرونسكي... فلا أقبل أن أكون صديقاً له، لكنه في جانبنا، فلماذا تحوله إلى عدو؟ وبعد ذلك، أنت تسأل نيفيدوفسكي هل سيتقدم. هذا لا يجوز.

أجاب ليفين وقد بدا عليه الكمود:

ـ آه! لست أفقه شيئاً من ذلك! كل ذلك، إنما هو حماقة.

ـ أنت تقول إنه حماقة، لكنك عندما تتدخل فيها فأنت تفسد كل شيء.

صمت ليفين وتوجها كلاهما إلى القاعة الكبرى.

مع أن نقيب المقاطعة أحس بمناورة في الجو، وأن بعض الأشراف امتنعوا عن مطالبته بترشيح نفسه، إلا أنه تقدم بترشيحه. خيم الصمت على القاعة وأعلن أمين السر بصوت مرتفع ومفهوم أن قائد الحرس المتقاعد ميشيل ستيبانوفتش سنتيكوف يتقدم لانتخابات نقيب أشراف المقاطعة.

ترك نقباء المناطق طاولاتهم ليجلسوا على طاولة الشرف التي وضعت عليها الصحون الملأى ببطاقات الاقتراع، وبدأت الانتخابات.

همس ستيفان أركادييفتش إلى ليفين عندما اقتربا من الطاولة:

ـ إلى اليمين!

لكن ليفين نسي الإيضاحات التي قدمت إليه وخشي أن يكون ستيفان أركاديفتش قد ارتكب خطأ حين قال له: إلى اليمين. إليس سنتيكوف عدواً؟ كان يمسك البطاقة بيده اليمنى، وهو يتقدم إلى الصندوق لكنه قال في نفسه: إنه خطأ، وفي آخر لحظة نقل البطاقة إلى يده اليسرى. وكان يقف بجنب الصندوق عارف خبير بالأمور يكتشف من مجرد حركة المرفق أن وضع المقترع بطاقته، فلما رأى ليفين يضع بطاقته قطب بين حاجبيه وبدا عليه الاستياء. لم يكن بحاجة، هذه المرة، إلى استخدام ذكائه.

صمت الجميع وسُمع صوت عد أوراق الاقتراع وبعد ذلك أعلن صوتٌ مفردٌ عدد الأصوات الموافقة والمعارضة. لقد انتخب النقيب بأغلبية عظمى. وحدثت ضوضاء، وهرع الناس إلى الباب، دخل سنتيكوف وأحاط به النبلاء ليهنئوه.

سأل ليفين أخاه سيرج ايفانوفتش:

ــ وإذن، فقد انتهى الأمر الآن!؟

أجاب سفياجسكي الذي ابتسم، عن سيرج ايفانوفتش:

ــ بل إن هذه هي البداية. ذلك أن نائبه يمكن أن يحصل على عدد أكبر من الأصوات.

كان قد نسي ليفين كلياً هذه المناورة. وتذكر في هذه اللحظة أن هاهنا دهاء، وأعياه أن يتذكر أين يكمن هذا الدهاء، فانتابته الكآبة وشعر بالحاجة إلى الإفلات من هذا الجمهور.

وبما أنه لم ينتبه إليه أحد، وأنه شعر بعدم جدواه، اتجه دون أن يلحظه أحد إلى القاعة الصغرى حيث المقصف، وأحس بعزاء كبير حين رأى الخدم. وعرض عليه الخادم العجوز أن يتناول شيئاً فقبل ليفين. وبعد أن طلب ليفين كبيبة بالفاصولياء واستخبر الخدم عن معلميهم القدماء، لم يشأ أن يعود إلى القاعة الكبرى حيث أحس بالضيق، فصعد إلى الأروقة.

كانت ملأى بالسيدات المتزينات اللواتي انحنين من فوق الحاجز، حرصاً منهن على أن يضعن كلمة مما يقال في القاعة. وكان في صحبتهن محامون متأنقون في لباسهم، وأساتذة معاهد بنظاراتهم، وضباط. كان الكلام يجري، في كل مطرح عن الانتخابات: كان يقال إن النقيب قد استنفد قواه، وأن النقاش كان مثيراً. وسمع ليفين جماعة تمدح أخاه. وقالت سيدة لمحام:

ـ ما أسعدني لأني سمعت كوزنيتشيف! هذا يستحق أن نستغني عن العشاء! يا للروعة! وكم كان واضحاً ومفهوماً كل ما قاله! لا يشبهه سوى «مايدال»، بل هو دونه بلاغة.

وجد ليفين مكاناً شاغراً قرب الحاجز فانحنى ليرى ويسمع.

كان جميع النبلاء الذين تجمعوا بحسب مناطقهم يجلسون خلف حواجز صغيرة، وفي وسط القاعة أخذ رجل لابس بزة رسمية يعلن وهو ينفخ صوته النحيف:

ـ القائد في المرتبة الثانية أوجين ايفانوفيتش آبوكتين مرشح لمنصب نقيب أشراف المقاطعة!

فخيم الصمت وسمع صوت شيخ دقيق:

ـ إنه يرفض.

وصاح صوت آخر:

ـ مستشار البلاط «بطرس بيتروفتش بوهل» مرشح...

فزعق صوت شاب، حاد.

ـ إنه يرفض.

واستمرت تلاوة الأسماء فاستمر الجواب: «إنه يرفض». استمر ذلك نحو ساعة. كان ليفين متكئاً على الحاجز ينظر ويسمع. في البداية دهش وأراد أن يفهم ما الذي يعنيه ذلك كله، لكنه اقتنع بأنه لن يستطيع أن يفهم شيئاً، فبدأ الضجر ينتابه. وحين تذكر بعد ذلك ما رآه على جميع الوجوه من انفعال وحقد، تملكه

الحزن: قرر أن ينزل ونزل. وعلى سطح الدرج صادف طالباً يتمشى، وهو كئيب الوجه، غائر العينين. وفي الدرج لقيته امرأة تصعد بسرعة وهي تستند على عقبيها وعلى نائب حرك:

قال النائب في اللحظة التي تنحى فيها ليفين ليسمح بمرور السيدة:

ــ لقد قلت لك إننا سنصل في الوقت المناسب.

بلغ ليفين البهو وأخرج رقم حجرة الثياب عندما لحق به أمين السر:

ــ هلا تفضلت، يا قسطنطين دميتريتش، فقد بدأت التصويت.

قدم نيفييدوفسكي ترشيحه، وكان يتأبى قبل قليل.

دنا ليفين من باب القاعة الكبرى فوجده مغلقاً.

قرع أمين السر الباب: فتح الباب واندفع منه ملاكان قد علتهما حمرة شديدة، ودفعا ليفين.

قال أحدهما:

ــ لقد بلغ بـي الإرهاق غايته!

وبعدهما انسل من خلف المصراع وجه نقيب الأشراف. هذا الوجه المنهوك، القلق، كان مرعباً.

صرخ بالحارس:

ــ أمرتك ألا تدع أحد يخرج!

ــ إنما فتحته لإدخال أحد النبلاء، يا صاحب السيادة.

ــ يا إلـٰهي!

قال النقيب ذلك وهو يتنهد، وعاد إلى قرب الطاولة، في وسط القاعة، جاراً قدمه، خافضاً رأسه.

انتصر نيفييدوفسكي كما كان مقدراً، وأصبح نقيباً لأشراف المقاطعة. ابتهج بعضهم وسر واغتبط، واستاء آخرون واغتمّوا. وقد بلغ الأسى بسنتيكوف أقصاه

ولم يستطع أن يخفي ذلك. وعندما ترك نيفييدوفسكي القاعة. أحاط به الجمهور المتحمس وتبعه، كما تبع الحاكم في أول يوم، عندما افتتح الدورة، وكما تبع سنتيكوف عندما انتخب.

[٣١]

تناول النقيب المنتخب حديثاً وعدد كبير من أعضاء الفريق المنتصر عشاءهم في هذا اليوم بالذات عند فرونسكي.

جاء فرونسكي إلى الانتخابات لأنه ضجر في الريف ولأنه أحب أن يؤكد استقلاله إزاء آنا، ولكي يسند سفياجسكي، في الانتخابات، شكراً له على المساعي التي بذلها من أجله في انتخابات المجالس المحلية، ولا سيما ليؤدي بدقة واجباته الناجمة عن وضعه الذي اختاره، وضع الملاّك النبيل. لكنه لم يكن يتوقع البتة أن تشغله وتثير اهتمامه قضية الانتخابات إلى هذا الحد، ولا أن يحسن القيام بدوره إلى هذا الحد. كان جديداً تماماً في هذه الدائرة، لكنه أحرز نجاحاً كبيراً، ولم يكن مخطئاً حين قدر أنه حظي بشيء من النفوذ بين النبلاء. وكان مرد هذا النفوذ إلى ثروته، واسمه، والمسكن الجميل الذي يشغله في المدينة والذي تنازل له عنه في المدينة صديقه القديم، «شيركوف»، وهو متمول أسس في كاشين مصرفاً مزدهراً؛ وإلى الطباخ الممتاز الذي جاء به فرونسكي من الريف؛ وإلى صداقته مع الحاكم، وهو رفيقه، بل ومحميّه؛ وعلى الخصوص إلى أساليبه البسيطة في التعامل مع الجميع التي سرعان ما ألغت أسطورة كبريائه المزعومة. كان يحس أن جميع الناس الذين تعرّف بهم غدوا الآن من جملة أنصاره، ما عدا هذا المخبول الذي تزوج كيتي تشرباتزكي والذي صبّ عليه بغضب، ومن غير سبب معقول، طائفة من الحماقات التي لا معنى لها. لقد رأى بوضوح، كما رأى الآخرون، أنه أسهم كثيراً في نجاح نيفييدوفسكي، وخالجه، إزاء النقيب الجديد، شعور لذيذ بالنصر. لقد خلبت لبه هذه الانتخابات حتى قال في نفسه: إنه قد يتقدم إليها في

ظرف ثلاثة أعوام إن تزوج. وذلك كما أصابه قديماً حين ربح جائزة السباق بفضل أحد الفرسان فاشتهى أن يكون هو الفارس الذي يشارك في السباق.

في هذه اللحظة، كان فرونسكي يحتفل بانتصار ذلك الفارس. لقد تصدر المائدة: وإلى يمينه جلس الحاكم الشاب، وهو جنرال من تبع الامبراطور، كان، بالنسبة إلى الجميع، سيد المقاطعة: فهو الذي دشن رسمياً الانتخابات بخطبة، وكان الناس يظهرون له الاحترام، والتذلل؛ أما بالنسبة إلى فرونسكي فكان «فاسلوف كاتكا»، كما كان يلقب في الكلية العسكرية، وكان يرتبك أمام فرونسكي الذي يحاول جاهداً أن يهيء له أسباب الراحة. وإلى يساره جلس نيفييدوفسكي بوجهه المراهق، المتهكم، الرصين. وكان فرونسكي معه بسيطاً، مظهراً للاحترام.

تحمل سفياجسكي فشله بمرح. بل إن ذلك لم يكن فشلاً عنده، كما قال بنفسه وهو يشرب نخب نيفييدوفسكي: فلا شيء أدعى إلى السعادة من أن ينتخب نقيب من الاتجاه الجديد الذي ينبغي أن تسير فيه الطبقة النبيلة. ولذلك فكل ما هو شريف ينبغي أن يبتهج بهذا النجاح ويحتفل به.

كان ستيفان اركادييفتش مغتبطاً باستمتاعه بالوقت وبفرح الناس. وأثناء العشاء الذي كان رائعاً، نبش الحاضرون جميع فصول الانتخابات. فقلد سفياجسكي تقليداً مضحكاً الخطبة المتباكية التي ألقاها النقيب السابق، ولاحظ وهو يلتفت إلى نيفييدوفسكي أن «سيادته» لا بد أن يختار للتحقيق في أموال الخزينة حججاً أكثر تعقيداً من الدموع. وروى مدعوٌ قارص اللسان أن سنتيكوف كان قد استخدم خدماً بالبنطال القصير من أجل السهرة الراقصة وأن عليه أن يصرفهم الآن، إلا إذا أصر النقيب الجديد على إقامة هذه الحفلة.

كان الحاضرون يقولون، في كل لحظة، وهم يخاطبون نيفييدوفسكي: «نقيبنا»، أو «سيادتك». وكانوا يجدون في استعمال هذين اللقبين اللذة التي يجدونها وهم يسمون العروس: «سيدتي».

وكان نيفييدوفسكي لا يتظاهر بأنه لا يبالي بهذه التسمية فحسب، بل وأيضاً بأنه يزدريها؛ وكان من الظاهر، مع ذلك، أنه سعيد، وأنه يسيطر على نفسه لكي لا يتفجر فرحه الذي كان حرياً أن يثير الدهشة في هذا الوسط المتقدم والمتحرر الذي ينتمون إليه.

أثناء المأدبة، أرسلت عدة برقيات إلى الأشخاص الذين كانوا معنيين بسير الانتخابات. وأرسل ستيفان أركادييفتش الذي كان يحب التسلية كثيراً. البرقية التالية إلى داريا الكسندروفنا: «نيفييدوفسكي نجح بأغلبية عشرين صوتاً. تهاني. خبري». وأملاه بصوت عال وهو يضيف:

ــ «يجب أن نسرهم». وعندما تلقت دولي البرقية اكتفت بالتنهّد حين مر ببالها الروبل الذي كلفته البرقية، وقدرت أن هذه البرقية قد أرسلت من غير شك عند نهاية العشاء. كانت تعلم أن أحد مظاهر ضعف ستيفا هو أنه «يشغّل البرقيات» عند نهاية العشاء.

كان كل شيء أنيقاً، بسيطاً، بهجاً، مثل هذا العشاء الفاخر وتلك الخمور الأجنبية. لقد اختار سفياجسكي هؤلاء المدعوين الذين يبلغون نحو عشرين بين الرجال الجدد في الحزب الجديد ومن أخفهم روحاً وأعلاهم تهذيباً. وقد شربوا نخب مدير المصرف، ونخب «مضيفنا المحبوب». كان فرونسكي مفتوناً. لم يكن يصدق أنه سيجد في المقاطعة مثل هذه الأساليب.

غداً الجو أمرح، أي نهاية العشاء. لقد رجا الحاكم فرونسكي أن يحضر حفلة موسيقية لمصلحة «الأخوة السلاف»[1]، تنظمها امرأة أرادت أن تتعرف بالكونت.

ــ ستقام حفلة راقصة وسترى هناك ما عندنا من جمال، من جمال هو محط الأنظار.

---

(١) «الأخوة السلاف»: منذ بداية تمرد السلاف الجنوبيين على الترك في حزيران ١٨٧٥، نظمت حملات التبرعات في روسيا لمصلحتهم.

أجاب فرونسكي بالانكليزية.

ـ ليس ذلك من خلقي.

وكان يحب هذا التعبير، لكنه ابتسم ووعد بالمجيء.

في اللحظة التي سبقت قيام المدعوين عن الطاولة، والتي أشعلوا فيها سيجاراتهم، اقترب خادم فرونسكي منه ومعه رسالة على طبق، وقال بلهجة لها دلالتها:

ـ من «فوزدفيجنسكوي»، بالبريد العاجل.

قال أحد المدعوين بالفرنسية وهو يشير إلى الخادم:

ـ غريب كم يشبه النائب «سفنتتسكي».

كان فرونسكي يقرأ الرسالة وقد قطب بين حاجبيه. كانت الرسالة من آنا. وكان يعرف محتواها، حتى قبل أن يقرأها. لقد كان وعدها بالرجوع نهار الجمعة، مفترضاً أن الانتخابات ستنتهي في مدى خمسة أيام. واليوم هو السبت؛ وكان يعلم أن الرسالة تحتوي على لوم لأنه لم يعد في الوقت المحدد. أما الرسالة التي أرسلها البارحة مساء فلم تكن قد وصلت بعد. كان المحتوى كما انتظره، لكن شكل الرسالة كان غير متوقع، وقد انزعج منه انزعاجاً شديداً:

«آني مريضة جداً، والطبيب يقول: إن هناك التهاباً. وأنا أفقد صوابي، وحدي. الأميرة بربارة تربكني أكثر مما تساعدني. انتظرتك أول أمس وأمس، وأنا الآن مرسلة رسولي لأعلم أين أنت، وماذا حل بك. كنت أنوي أن ألحق بك، لكني غيرت رأيي، لعلمي أن ذلك سيسوءك. أرسل جواباً لأعلم ما الذي ينبغي أن أفعله».

كانت الطفلة مريضة، وهي تنوي أن تأتي! إن ابنتهما تتألم، وهي تخاطبه بهذه اللهجة المعادية!

إن التباين بين فرح الانتخابات البريء وهذا الحب الثقيل والمأساوي الذي

سيعود إليه أذهل فرونسكي. لكن، كان لا بد له من الذهاب، فسافر في أول قطار، في الليل.

[٣٢]

قبل سفر فرونسكي إلى الانتخابات، فكرت آنا في أن المشاحنات التي تحدث بينهما عند كل غيبة من غيباته لا يمكن إلا أن تصدّ فرونسكي عنها لا أن تعلقه بها، فقررت أن تتحامل على نفسها قدر الإمكان لتتحمل بهدوء هذا الفراق. لكن النظرة الباردة والقاسية التي حدجها بها وهو يعلن لها سفره قد جرحتها، فانهار هدوؤها حتى قبل أن يسافر.

وحين فكرت، أثناء وحدتها، في هذه النظرة التي تعبر عن حقه في الحرية، أفضى بها التفكير إلى الشعور بحقارتها: «إن له الحق في أن يسافر أينما شاء ومتى شاء. لا أن يسافر فقط بل وأن يتركني. إن له كل الحقوق، وليس لي أي حق. لكنه لا ينبغي له أن يتصرف هذا التصرف وهو يعلم ذلك. على كل حال، ما الذي فعله؟. . . لقد نظر إليّ نظرة باردة وقاسية وهذا شيء غير محدد، غير ملموس، لكن ذلك لم يحدث من قبل، وهذه النظرة لها دلالة مهمة جداً. إنها تدل على أنه بدأ ينفصل عني».

ومع أنها كانت مقتنعة أنه بدأ ينفصل عنها، فلم يكن بوسعها أن تفعل أو تغير شيئاً في علاقاتهما. لم يكن بوسعها أن تستبقيه إلا بحبها وسحرها، كما كان الأمر قديماً. وكذلك لم يكن بوسعها أن تسكن الرعب الذي يجتاحها حين تتصور أنه ربما كف عن حبه لها ذات يوم إلا بأن تشغل نفسها في النهار وتتناول المورفين في الليل. والحق أنه قد بقيت لها وسيلة: لا أن تستبقيه (لم تكن تبغي سوى حبه)، بل أن تتقرب منه، أن تكون في وضع لا يمكنه معه أن يهجرها. وهذه الوسيلة هي الطلاق والزواج. لقد بدأت ترغب في هذا الحل وقررت أن تعطي موافقتها عندما يكلمها فرونسكي أوستيفا في ذلك.

في هذه الحالة النفسية قضت وحدها الأيام الخمسة التي كان غائباً فيها.

كانت النزهات، والأحاديث بينها وبين الأميرة بربارة، وزياراتها للمستشفى، ولا سيما قراءتها المتصلة (كلما انتهت من كتاب تناولت غيره)، كان ذلك كله يشغل وقتها، لكنها أحست، في اليوم السادس عندما عاد الحوذي بدونه، أنها لا تملك القوة ولا سيما لتصرف تفكيرها عنه، وعما يفعله هناك. في هذه الفترة، مرضت طفلتها، فأرغمت نفسها على العناية بها، لكن ذلك لم يثنها عن تفكيرها، ولا سيما أن المرض لم يكن شديداً. إنها لم تستطع أن تحب هذه الطفلة، ولا أن تتظاهر بحبها، بالرغم مما تبذل من جهد. وفي المساء، عندما ظلت آنا وحدها، انتابها قلق مؤرق بصدد فرونسكي حتى إنها قررت أن تتوجه إلى عاصمة المقاطعة؛ لكنها بعد أن فكرت ملياً كتبت تلك الرسالة المتناقضة التي تلقاها فرونسكي، وأرسلتها بالبريد العاجل دون أن تعيد قراءتها. وفي اليوم التالي تلقت رسالة من فرونسكي فندمت على رسالتها. كانت تنتظر برعب تكرار النظرة الباردة التي رماها بها وهو يسافر، وبخاصة عندما يعلم أن الطفلة ليست مريضة مرضاً شديداً. بيد أنها كانت مسرورة لأنها كتبت إليه، بالرغم من كل شيء. لقد صارحت آنا نفسها الآن أن حبها عبء على فرونسكي، وأنه يترك بأسف حريته ليعود إليها، لكنها كانت سعيدة بعودته. وحتى لو كان يضجر فسوف يكون هنا، معها، وستراه، وسيطلع على كل حركة من حركاتها.

كانت جالسة في قاعة الاستقبال، في ظل المصباح، وبيدها كتاب جديد «لتين» تقرأ فيه، وهي تصيخ إلى صفير الرياح في الخارج، منتظرة وصول العربة بين دقيقة وأخرى. وخيل إليها، عدة مرات، أنها تسمع ضوضاء العجلات، لكنها كانت مخطئة؛ وأخيراً سمعت ضوضاء العجلات وصراخ الحوذي ودرجان العربة المخنوق تحت مطلع الدرج المغطى. وأيدت هذا الانطباع الأميرة بربارة التي كانت تلعب بالورق لعبة الصبر. غدت آنا قرمزية، ونهضت، لكن بدلاً من أن تنزل كما

فعلت مرتين من قبل، تجمدت في مكانها. لقد خجلت من خداعها، وخافت، بخاصة، من لقائه. اختفت الإهانة، ولم تكن تخشى إلا التعبير عن استيائه. وتذكرت أن صحة ابنتها تحسنت، منذ البارحة، وشعرت بالامتعاض من هذه الطفلة التي أبلت من مرضها في اللحظة التي أرسلت فيها رسالتها بالذات. ثم تذكرته، وفكرت أنه هنا بشخصه، بيديه وعينيه؛ وسمعت صوته، فنسيت كل شيء، وهرعت بفرح إلى لقائه.

سأل بوجل من تحت وقد رأى آنا تبادر إلى لقائه:

ــ وكيف حال «آني»؟

كان جالساً على كرسي وأمامه خادم يسحب جزمته المبطنة.

ــ إنها أحسن.

قال وهو ينفض نفسه:

ــ وأنت؟

أخذت إحدى يديه بين يديها وجذبته إليها دون أن تفارقه عيناها.

قال وهو يلف زينة رأسها، وثوبها الذي أدرك أنها ارتدته من أجله، بنظرة باردة:

ــ هيا، أنا مسرور جداً.

أعجبها ذلك كله، وطالما أعجبها من قبل! وإذا بذلك التعبير البارد الرسمي الذي تخشاه كثيراً يستقر على وجهه.

وردد وهو يمسح ذقنه المبللة بمنديله ويقبّل يدها:

ــ أنا مسرور جداً، وأنت، كيف حالك؟

قالت في نفسها: «ليكن ما يكون؛ فكل ما أبغيه هو أن يكون هنا؛ وعندما يكون هنا فلا يسعه إلا أن يحبني، لا يجرؤ إلا على أن يحبني».

مرت السهرة مرحة بحضور الأميرة بربارة التي كانت تشكو من أن آنا تناولت المورفين في غياب زوجها.

ـ ما العمل؟ لم أكن أستطيع النوم. . . كانت أفكاري تحول بيني وبين النوم. وأنا لا أتناول المورفين أبداً أو لا أكاد أتناوله عندما يكون هنا.

تحدث عن الانتخابات واستطاعت آنا بأسئلتها أن تقوده إلى التلميح إلى نجاحاته. وحدثته هي عما قد يعنيه من شؤون المنزل. ولم تنبئه بغير الحوادث السعيدة.

ـ اعترف بأنك غضبت حين تلقيت رسالتي وأنك لم تصدقني؟

وما إن قالت ذلك حتى أدركت أنه لم يغفر لها ما فعلته، مهما يكن الحب الذي يضمره لها.

قال:

ـ نعم، كانت رسالتك غريبة. كنت تنوين أن تسافري وآني مريضة.

ـ كان ذلك كله صحيحاً.

ـ لا أشك في ذلك.

ـ بلى، إنك تشك. وأنا أرى أنك غاضب.

ـ أبداً، لا. الشيء الوحيد الذي يضايقني هو أنك لا تريدين أن تقبلي بأن هناك واجبات. . .

ـ واجب الذهاب إلى الحفلة الموسيقية. . .

قال:

ـ دعينا من الكلام على ذلك الأمر.

ـ بلى، ولماذا لا نتكلم عليه.

ـ عنيت فقط أنه قد تعرض مساع لا بد منها. مثلاً سوف يتعين عليّ أن أذهب إلى موسكو من أجل البيت. . . آه! آنا، لم أنت سريعة التهيج؟ ألا تعلمين أنني لا أستطيع العيش بدونك؟

قالت آنا بصوت تغير فجأة:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فمعنى ذلك أن هذه الحياة عبء عليك... بلى، بلى، إنك تصل لتبقى يوماً تسافر بعده، هكذا يفعل...

ـ آنا، هذا قاس. أنا مستعد لأن أبذل حياتي كلها... لكنها لم تكن تصغي إليه.

ـ إن كنت ذاهباً إلى موسكو، فسأذهب إليها أنا أيضاً. لن أبقى هنا. ينبغي لنا أن نفترق أو أن نعيش معاً.

ـ أنت تعلمين أن هذه هي رغبتي الوحيدة. لكن من أجل ذلك...

ـ الطلاق ضروري؟ سأكتب إليه. أرى أنني لا أستطيع أن أعيش هكذا... لكنني سأذهب معك إلى موسكو.

فقال وهو يبتسم:

ـ كأنك تهددينني، لست أرغب في شيء رغبتي في ألا أفترق عنك.

وبينما هو يقول هذه الكلمات الرقيقة، التمعت في عينيه النظرة الباردة، بل الحاقدة، نظرة إنسان أثار حفيظته الاضطهاد.

رأت هذه النظرة واستشفت معناها.

كانت نظرته تقول:

ـ إن كان الأمر كذلك، فتلك هي المصيبة!

كان ذلك انطباعاً سريعاً، لكنها لن تنساه أبداً.

كتبت آنا إلى زوجها لتطلب منه الطلاق، وفي نهاية تشرين الثاني، وبعد أن افترقت عن الأميرة بربارة التي كانت ستذهب إلى بطرسبرج، ذهبت لتقيم في موسكو مع فرونسكي. أصبحا يعيشان الآن كزوجين، وينتظران بين يوم وآخر رد الكسي السندروفتش بالموافقة على الطلاق.

• • •

الجزء السابع

[١]

كان آل ليفين في موسكو منذ شهرين. وقد مر زمنٌ طويل على الموعد الذي قُدِّر أن آنا ستلد فيه، بحسب أدق الحسابات التي صدرت عن ناس لهم حبرةٌ بذلك. وظل الوضع على ما هو عليه ولم يدلّ شيء على أن الحل غدا أقرب مما كان قبل شهرين. ولم يستطع الطبيبُ والقابلةُ ودولي والأميرة وليفين، على الخصوص، أن يفكّروا فيما سيأتي دون رعب، وأخذوا يشعرون بنفاد الصبر والقلق. كيتي وحدها كانت مطمئنة كل الاطمئنان، سعيدة كل السعادة.

أحست أن شعوراً جديداً بالحب ينمو فيها نحو هذا الولد الذي كان موجوداً وجوداً حزئياً بالنسبة إليها، واستسلمت بفرح خاشع لهذا الشعور. لم يكن هذا الولد جزءاً منها لا غير؛ بل إنه كان يُبدي أحياناً حياةً مستقلّة. كانت تتوجّع من جراء ذلك، لكنها كانت تشتهي، في الوقت نفسه، أن تضحك من صدمة هذا الفرح الجديد والغريب.

جميع الذين يحبّونها كانوا بجنبها، وجميعهم كانوا بالغي الطيبة معها والملاطفة لها، ولم تكن ترى أمامها سوى آفاق سعيدة جداً بحيث لو لم تكن تعلم وتشعر أن ذلك سينتهي قريباً لما ابتغت حياةً غير هذه الحياة. همٌ واحدٌ كان يُفسد سحر هذه الحياة: وهو أن زوجها لم يكن كما أحبّته ولا كما كان في الريف.

كانت تحبّ هدوءه ولطفه وكرمه. أما في المدينة فكان يبدو قلقاً، محترساً، كأنه يخشى أن يهينه أحدٌ أو يهين أحدٌ كيتي بخاصة. كان في أملاكه يحس على نحو واضح أنه في مكانه، فلا يستعجل، وكان مشغولاً دائماً. أما هنا فكان

مستعجلاً كأنه لا يريد أن يفوّت شيئاً ما، في حين لم يكن لديه ما يفعله. وكانت تشفق عليه. وتعلم أن الآخرين لا يخالجهم هذا الشعور؛ على العكس، فعندما كانت تنظر إليه في المجتمع الراقي كما ننظر أحياناً إلى الرجل المحبوب محاولين جهدنا أن ننظر إليه كغريب لنفهم الأثر الذي يتركه في الآخرين، كانت تتبيّن، وكان ذاك يحّرك غيرتها، أنه لا يخلو فقط مما يثير الشفقة بل إنه كان جذاباً جداً بمجاملته التي عفا عليها الزمن، وحشمته مع النساء، وقامته المهيبة، وهذا الوجه الذي كان يبدو لها بليغَ التعبير. لكنها كانت تراه من الداخل، لا من الخارج؛ وإلاَّ لما استطاعت أن تفهم حالته. كانت أحياناً، تلومه ضمنياً على أنه لا يحسن العيش في المدينة؛ وكانت أحياناً أخرى تعترف بأن من الصعب عليه أن ينظّم لنفسه هنا حياة هانئة.

وبالفعل، ماذا كان بوسعه أن يفعل هنا؟ لم يكن يحب اللعب بالورق. لم يذهب إلى النادي. أما مخالطة محبـيّ الملذات من نوع أوبلونسكي، فكانت تعلم الآن ماذا يعني ذلك... ذلك يعني الانغماس في الشرب ثم الذهاب إلى حيث يعلم الله بعد الشرب. لم تكن تفكّر دون رعب بالأماكن التي يتردّد عليها الرجال في مثل هذه الظروف: أيعاشر المجتمع الراقي؟ كانت تعلم أنه لا بدّ لذلك من أن يستطيع صحبة النساء، وهو أمر لا يمكن أن ترضى عنه. أيبقى في البيت معها، قرب أمها وأخواتها؟ لكنْ مهما تكن ممتعة تلك الأحاديث، تلك الثرثرات المتكرّرة، فقد كانت تعلم أن ذلك لا بدّ أن يُضجره. ماذا يبقى عليه أن يفعل؟ أن يؤلّف كتابه؟ لقد حاول ذلك وقصد إلى المكتبة ليدوّن بعض الملاحظات ويجمع شيئاً من المواد؛ لكنه كان، كما قال لها، كلّما قلّ عمله قلّ وقتُه. ثم إنه شكا من كثرة الكلام على كتابه: لقد تشوّشت أفكارُه جميعها وفقدت شيئاً من أهميتها.

الميزةُ: الوحيدة لهذه الحياة في المدينة هي أنهما لم يكونا يتخاصمان أبداً. أكان ذلك لأن شروط الحياة مختلفة أم لأنهما أصبحا أكثر احتراساً وتعقّلاً بهذا

الصدد؟ الشيء الأكيدُ هو أنه لم تقع بينهما مشاحنات بسبب الغيرة التي كانا يرهبانها عندما جاءا ليُقيما في المدينة.

وفي هذا المجال، حدث حادث شديد الأهمية بالنسبة إليهما: لقد التقت كيتي وفرونسكي.

إن الأميرة العجوز ماري بوريسوفنا، اشبينة كيتي التي أحبتها كثيراً، رغبت رغبة شديدة في رؤيتها. وذهبت كيتي، وكانت لا تخرج من بيتها بسبب حالتها، مع أبيها إلى منزل السيدة العجوز المحترمة ولقيت هناك فرونسكي.

عندما عرفت شخصه الذي كان مألوفاً من قبل، وهو باللباس المدني، ضاق نَفَسُها، وتدفّق الدمُ إلى قلبها، وأحسّت بالحمرة القانية تصبغ وجهها: كان هذا هو التخاذل الوحيد الذي لامت نفسها عليه. لم يدمْ ذلك سوى بضع ثوانٍ. وقد سارع أبوها إلى الشروع في حديث محتدم مع فرونسكي، ولم يكن الحديث قد انتهى بعد حتى كانت كيتي مستعدّة للنظر إلى فرونسكي أو الكلام معه، إذا دعت الضرورةُ، كما تكلِّمُ الأميرةَ ماري بوريسوفنا دون أن يكون في نبرة صوتها أو في ابتسامتها ما يعرّضها للوم زوجها التي كانت كأنما تحسّ بحضوره غير المرئي إلى جانبها.

قالت له بضع كلمات، بل إنها ابتسمت عندما علّق على الانتخابات بدعابة إذ دعاها «مجلسنا النيابـي» (كان لا بدّ من ابتسامها لتظهر أنها فهمت النكتة). لكنها ما لبثت أن ارتدّت إلى الأميرة ماري بوريسوفنا ولم تُلق عليه بعد ذلك نظرة واحدة قبل أن تنهض لتستأذن بالإنصراف؛ في هذه اللحظة، حطّت عينيها عليه لسبب وحيد هو أنه ليس من الأدب في شيء ألاَّ تنظر إلى رجل يحيّيها.

كانت ممتنّةً لأبيها إذ لم يقل لها كلمةً واحدة عن هذا اللقاء؛ لكنها رأت، من الحنان الخاص الذي أبداه لها فيما بعد، أثناء نزهة من نزهاتهما المعتادة، أنه كان مسروراً منها. وكانت هي أيضاً، مسرورة من نفسها. لم تكن تعتقد أنها ستقوى على كبت ذكريات محبتها القديمة لفرونسكي في مكان ما من أعماق قلبها،

وأن تكون، لا أن تظهر فقط، هادئة غير مبالية كلياً إزاءه.

إحمرّ ليفين أكثر منها عندما قالت له إنها لقيت فرونسكي عند الأميرة ماري بوريسوفنا. صَعُبَ عليها أن تُخبره بذلك، وصعبَ عليها أكثر أن تستمر في سرد تفاصيل هذا اللقاء لأنه لم يطرحْ عليها أيّ سؤال، لكنه اكتفى بالنظر إليها وقد قطّب بين حاجبيه.

قالت له:

ــ أسفتُ كثيراً لأنك لم تكن هناك. لم أكن أريد أن تكون في هذه الغرفة... لأنني ما كنتُ لأكون طبيعية أمامك كما كنتُ إذ ذاك... وأنا في هذه اللحظة أشد خجلاً بكثير، بكثير، لكني أسفتُ لأنك لم تستطع أن تراني من ثقب الباب.

واحمرّت حتى البكاء. وقالت عيناها الشريفتان لليفين إنها مسرورة من نفسها، مع أنها احمرّت. فهدأ ليفين على الفور وأخذ يطرح عليها الأسئلة. كان هذا كل ما تطلبه. وحين عرف كل شيء وبيّنت له أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الخجل في اللحظة الأولى وحدها، وأنها أحست بعد ذلك بالراحة كما تحس بها مع أي شخص، انبسطت أساريرُه على الفور وقال إنه مسرور جداً وأنه لن يتصرّف في المستقبل بحماقة كما تصرف في الانتخابات، لكنه سيحاول جاهداً أن يكون لطيفاً قدر الإمكان عند أول لقاء مع فرونسكي. وقال:

ــ من المؤلم إلى حد كبير أن نعتبر الرجل عدواً نخاف رؤيته. أنا مسرورٌ جداً، جداً.

[٢]

قالت كيتي لزوجها عندما دخل إلى غرفتها في الساعة الحادية عشرة صباحاً قبل أن يخرج.

ـ إذنْ، مُرَّ على منزل آل «بوهل»، أرجوك. أنا أعلم أنك ستتناول العشاء مع أبـي في النادي لكنْ ماذا تفعل في هذا الصباح؟

أجاب ليفين:

ـ سأذهب إلى «كاتافاسوف»، هذا كل شيء.

ـ ولم أنتَ مبكّر إلى هذا الحد؟

ـ وعدني أن يعرّفني إلى «ميتروف». أود لو أكلّمه عن عملي؛ وهو عالم مشهورٌ من بطرسبرج.

سألت كيتي:

ـ آه! نعم، هو الذي كتب تلك المقالة التي مدحتَها كثيراً؟ وبعد ذلك؟

ـ ربما مررتُ على المحكمة من أجل قضيّة أختي.

ـ ألن تذهب إلى الحفلة الموسيقية؟

وماذا سأفعل هناك وحدي؟

ـ بلى، اذهبْ إليها؛ إذ يجري فيها تقديمُ الأعمال الجديدة التي طالما أثارت اهتمامك. لو كنتُ استطيعُ لذهبتُ بالتأكيد.

قال وهو ينظر إلى الساعة:

ـ على كل حال، سآتي لزيارتك قبل العشاء.

ـ ضعْ سترتك الرسمية؛ وهكذا تستطيع أن تمرّ رأساً على منزل الكونتسية بوهل.

ـ أذلك ضروري حتماً؟

ـ بدون شك. فالكونت قد جاء لزيارتنا. لن يشقّ ذلك عليك. سوف تصلُ، وتجلس وتتحدث خمس دقائق من الزمن، ثم تنهض وتنصرف.

ـ طيّب، لكنك لا تستطيعين أن تصدّقي إلى أي حدّ فقدتُ العادة في هذه الأمور كلها: إن ذلك يضايقني. فنحن نصل إلى منزل الغرباء، ونجلس، ونبقى

هناك دون أي سبب، ونضايق الناس جميعاً، ونضجر من تلقاء أنفسنا، ثم ننصرف.

فأخذت كيتي تضحك، وقالت له:

ــ أكنتَ تقوم بزيارة الناس عندما كنتَ عازباً؟

ــ نعم، لكني كنتُ أشعر دائماً بالضيق، وقد فقدت الآن هذه العادة إلى حد أقسم لك معه أني أفضّل الاستغناء عن العشاء مدة يومين على القيام بهذه الزيارة. إن الخجل ينتابني دائماً، ويلوح لي أن الناس سيغتاظون وسيقولون لي: «لمَ تأتي إلى حيث لا شغل لك؟».

قالت كيتي وهي تضحك وتأخذ يده:

ــ كلا، لن يغتاظوا، أؤكد لك ذلك. هيا، وداعاً... اذهبْ، أرجوك.

لثمَ يدها وأراد الخروج فاستوقفته:

ــ أتعلم، يا كوستيا، أنه لم يبقَ معي سوى خمسين روبلاً.

قال لها بوجه مستاءٍ تعرفه جيداً.

ــ لا بأس، سأمر على المصرف لأسحب بعض المال. كم تريدين؟ فاستبقتْه من ذراعه:

ــ لا، انتظرْ. إن الأمر يشغل بالي. فالمال يختفي مع اعتقادي بأنني لا أتزيّد في المصروف الذي لا طائل فيه. لعلنا لا نحسن التصرّف بالمال.

قال وهو يسعل سعالاً خفيفاً وينظر خفية:

ــ كلا.

كانت تعرف معنى هذا السعال. لقد كان دليلاً على الاستياء الشديد لا منها بل من نفسه. كان غاضباً لا لأن المال يطير بسرعة، بل لتذكيره بهذا الأمر المكدّر الذي يودّ لو ينساه.

ــ قلتُ لسوكولوف أن يبيع الحنطة وأن يقبض سلفاً أجرة الطاحونة. لن يعوزنا المال في حال من الأحوال.

ــ بالتأكيد، لكنني أخشى أن أسرف في المصروف...

فردّد:

ــ كلاّ، كلاّ. هيّا، وداعاً، يا روحي.

ــ الحق أنني آسف في بعض الأيام، على إصغائي لآراء أمي.

لو بقينا في الريف لكنا أسعد. فأنا أسبّب لكم جميعاً الكثير من المتاعب هنا، ونحن نُفرط في الإنفاق...

ــ كلا. فأنا لم آسف، منذ زواجنا، على أن تكون الأشياء قد جرتْ على نحو آخر لا أريده.

قالت له وهي تنظر إليه في وجهه:

ــ أحقاً ما تقول؟

قال ذلك دون أن يتروّى فيه، رغبةً منه في تعزيتها. لكنه عندما رأى عينيها الجميلتين، النبيلتين محدّقتين فيه وقد بدا عليهما التساؤل، كرّر الكلمات نفسها ومن أعماق قلبه هذه المرة. وتذكّر ما ينتظرهُ وفكّر في نفسه: «لا شك أنني نسيتُ ذلك». وهمس إليها وهو يتناول يديها:

ــ هل خلاصك قريبٌ؟ كيف تشعرين بنفسك؟

ــ لقد فكرت في ذلك كثيراً حتى إني لم أعد أفكر في ذلك الآن ولم أعد أعلم شيئاً.

ــ ألستِ خائفة؟

ابتسمت ابتسامة ازدراء.

ــ إن حدث شيءٌ فأنا عند كاتافاسوف.

ـ لن يقع شيء، لا تقلقْ. سأذهب لأتنزّه مع أبـي على الجادّة. سنزور دولي. إني أنتظرك قبل العشاء. آه! نعم. أتعلم أن وضع دولي أصبح لا يُطاق حتماً؟ إنها غارقة في الديون حتى رأسها، وهي لا تملك شيئاً من المال. كنا نتحدَّث عن ذلك أمس أنا وأمي وآرسين (زوج أختها لفوف) وقررنا أن تُنحيا عليه باللوم العنيف. هذا لا يطاق إطلاقاً. ولا طائل من إطلاع أبـي على ذلك... لكن إذا استطعتما كلاهما...

قال ليفين:

ـ وما عسانا أن نفعل؟

ـ اذهبْ، على كل حال، وحادثْ أرسين» في ذلك؛ سينبئك بما عقدنا العزم عليه.

ـ أنا آخذٌ سلفاً برأي أرسين. طيّب، سأمر عليه. وإذا كان هناك حفلة موسيقية فسأذهب مع ناتالي إلى اللقاء.

عند درج المدخل أوقفه العجوزُ «كوزما» الذي كان في خدمته قبل زواجه والذي كان يقوم بدور كبير الخدم في المدينة، وقال:

ـ بيْطرْنا «الظريف» (جواد العربة الأيسر) لكنه ما يزال يعرج. ما الذي ينبغي فعلُه؟

لقد أتى ليفين بالجياد من الريف: كان يرغب في أن يكون له اصطبل مناسب لا يكلّفه غالياً. لكنه تبيّن أن جياده تكلّفه أكثر من جياد الأجرة، وأن عليه أن يستأجر عربة من وقت إلى آخر.

ـ استدع الطبيب البيطري. لعله مريضٌ بالصحن في باطن حافره، وسأله «كوزما».

ـ وبالنسبة إلى كاترين الكسندروفنا؟

دهش ليفين، في الآونة الأولى بعد إقامته في موسكو، من أنه لكي يذهب من كنيسة «التمجيد» إلى «سيفتسيف فراجوك»، كان لا بدّ له من ربط جوادين قويين إلى عربة ثقيلة، لتقطع أربعة فراسخ في مزيج من الثلج والوحل، ومن ايقافها هناك أربع ساعات، ومن دفع خمسة روبلات فوق ذلك كله. أما الآن فصار يجد ذلك طبيعياً.

قال له:

ــ استأجر جوادين.

ــ بأمرك.

بعد أن حلّ ليفين صعوبةً تحتاج في الريف إلى تفكير طويل، خرج إلى درج المدخل، ونادى عربة وصعد إليها وأمر أن تأخذه إلى شارع القديس «نيسيفود». وفي الطريق نسي مسألة المال ولم يعد يفكّر إلاّ في مقابلته لعالم بطرسبرج الذي كان يهتمّ بعلم الاجتماع والذي أراد ليفين أن يحدّثه عن كتابه.

في بداية الأمر، كانت هذه النفقاتُ غير المعقولة بالنسبة إلى ابن الريف، وهي نفقات لا خير فيها وإن كانت لا بدّ منها، نفقات تُطلَب منه لدى كل خطوة، تدهش ليفين. أما الآن فقد تعوّدها. وبهذا الصدد وقع له ما يقع للسكّيرين: «فالكأس الأولى يصعب بلعها، أما الثانية فأسهل، وأما الثالثة فتطير كالعصفور الصغير». فعندما دفع ليفين مائة الروبل الأولى ثمناً لخلعتي الخادم والحاجب، فكّر بالرغم منه في أن هاتين الخلعتين الرسميتين لا فائدة منهما وإنْ كانتا ضروريتين حتماً إذا ما حكمنا على ذلك، من دهشة الأميرة وكيتي عندما لمّح ليفين بأن من الممكن الاستغناء عنهما، وأن هاتين الخلعتين تمثّلان أجر عاملين، أي نحو ثلاثمائة يوم عمل من أسبوع الفصح إلى آخر يوم قبل الصوم الكبير، ثلاثمائة يوم من الجهد المضني منذ الفجر إلى ساعة متقدمة من السهرة، وغمّه أن يدفع ورقة بمائة روبل، المائة التالية التي أنفقها في شراء المؤن المخصصة لعشاء عائلي

كلّفه ثمانية وعشرين روبلاً ذكّر ليفين أن ثمانية وعشرين روبلاً ثمثّل نحو مائتي صاع من الشوفان الذي عَرِقَ الرجالُ وتألّموا لحصده وربطه ودَرسه وتذريته وغربلته وتعبئته، لكنه تخلى عنها بسهولة أكبر. أما الآن فإن المال الذي كان ينفقه لم يعد يثير فيه مثل تلك التصوّرات، وكان يختفي بمثل السحر.

وقد كفّ عن التساؤل إن كانت اللذة التي يوفّرها ما يشتريه هذا المال يتناسب مع العمل الذي بُذل لتجميع ذلك المال. ونسي أن هناك أسعاراً محدّدةً لا يجوز بيع بعض أصناف القمح دونها. فشيلمه الذي حافظ ليفين على سعره زمناً طويلاً بيع كل مائة ليتر منه بخمسة وعشرين كوبيكاً أنقص من الشهر السابق. بل إنه لم يعد يخطر بباله أن هذا النمط من الحياة سيغرقه في الدَّيْن بعد سنة: لم يبق لذلك أية أهمية لديه. كل ما كان يطلبه هو أن يكون له في المصرف مبلغٌ من المال، دون أن يسأل من أين جاء المال، لكي يكون على ثقة من أنه قادر على شراء اللحم في اليوم التالي. وحتى هذه اللحظة، احتفظ بشيء من المال في المصرف، لكنه كان شيئاً زهيداً، ولم يكن يعلم من أين يأتي به. هذه الفكرة هي التي أزعجته عندما حدّثته كيتي عن المال. لكنْ لم يكن لديه من الوقت ما يكفي للتوقّف ملياً عندها. لم يكن يفكّر إلا في كاتافاسوف وفي مقابلته لميتروف.

[٣]

تقرّب ليفين كثيراً، أثناء هذه الإقامة في موسكو، من أحد أصدقائه القدامى في الجامعة هو الأستاذ «كاتافاسوف» الذي لم يره منه زواجه. كان كاتافاسوف يعجبه بوضوح مفاهيمه وبساطتها. وكان كاتافاسوف يرى، من جهته، أن عدم تناسق فكر ليفين ينجم عن نقص في تنظيم فكره؛ لكن وضوح كاتافاسوف كان يعجب لفين، كما أن وفرة الأفكار غير المنظمة عند ليفين كانت تعجب كاتافاسوف، ولذلك كانا يحبان أن يلتقيا ليتناقشا.

كان ليفين قد قرأ من كتاب كاتافاسوف مقاطع أثارت اهتمامه. وعندما لقيه كاتافاسوف البارحة في محاضرة عامة، قال له إن «ميتروف» الشهير الذي فَتنتْ مقالتُه ليفين، موجود في موسكو، وأنه اهتم كثيراً بما قاله له كاتافاسوف عن عمل ليفين، وأنه سيكون في بيته غداً صباحاً، في الساعة الحادية عشرة، وسيسعده أن يتعرّف بليفين.

قال كاتافاسوف وهو يُقبل على ليفين في الصالة الصغرى:

ــ لا شك أنك صرتَ تغيّر ما في نفسك، يا عزيزي، يسعدني أن أراك. قلتُ في نفسي وأنا أسمع الجرس: «ليس ممكناً أن يكون دقيقاً إلى هذا الحد»! حسناً! ما رأيك بأهالي الجبل الأسود[1]؟ جنودٌ أصيلون!

سأله ليفين:

ــ وماذا حدث؟

أبلغه كاتافاسوف في بضع كلمات آخر الأخبار، ودخل مكتبه فقدّم ليفين إلى شخص قوي، قصير القامة، حسن المظهر، هو «ميتروف». دار الحديث بعض الوقت حول السياسة وحول رأي الدوائر العليا ببطرسبرج في الأحداث الجديدة. وذكر لهما «ميتروف» بعض الكلمات التي قالها الامبراطور وأحد وزرائه بهذه المناسبة والتي وصلته من مصدر موثوق. بيد أن كاتافاسوف ترك نفسه على سجيتها وقال: إن الامبراطور قد علّق على الأحداث تعليقاً مختلفاً كل الاختلاف. وتصوّر ليفين موقفاً يمكن أن تُقال فيه هذه الكلماتُ وتلك، وتوقّف الحديث عن هذا الموضوع عند هذا الحدّ.

قال كاتافاسوف:

ــ إن صديقي أنهى كتاباً عن الشروط الطبيعية التي يوجد فيها العاملُ بالنسبة

(١) «ما رأيك بأهالي الجبل الأسود»، إن أمارة الجبل الأسود تحالفت مع بلاد الصرب وتجرأت على إعلان الحرب على تركيا في ١٨ حزيران ١٨٧٦.

إلى الأرض. لستُ اختصاصياً، لكنّ ما أعجبني، باعتباري مختصاً بالطبيعيات، هو أنه لا يعتبر الإنسانية عنصراً غريباً عن القوانين الحيوانية بل إنه يراها، على العكس، في تبعيتها لقوانين وسطها، وأنه يبحث في هذه التبعية عن قوانين تطورها.

قال متروف:

ـ هذا شائق.

قال ليفين وهو يحمّر:

ـ بدأتُ بكتابة كتاب عن علم الزراعة، ثم توصّلت، بالرغم مني، وأنا أدرس الأداة الأولى في الاقتصاد الريفي: العامل، إلى نتائج لم أكن أتوقعها.

وشرع ليفين يعرض نظريته بحذر، كأنه يتعرّف الأرض. وكان يعلم أن متروف قد كتب مقالة يعارض فيها التعليم الرسمي للاقتصاد السياسي، لكنه كان يجهل إلى أي حد يستطيع أن يعتمد على تعاطفه، ولم يكن يستطيع أن يستشفّ ذلك على وجه العالم الهادىء والذكي.

قال ميتروف:

ـ فيم يفترق العامل الروسي عن غيره من العمال، برأيكَ؟ أمن الناحية الحيوانية، إن صحّ القول، أم بسبب الشروط التي هو موجود فيها؟

رأى ليفين أن هذا السؤال يعبّر عن فكرة لا يوافق عليها، لكنه تابع عرضه لنظريته: وبرأيه أن للعامل الروسيّ علاقةً بالأرض تختلف تماماً عن علاقات عمال الأمم الأخرى بالأرض. ولكي يفسّر هذا الزعم سارع فأضاف أن هذا الموقف ينبع، برأيه، من شعوره بقَدَره الذي هُيِّء له: وهو إعمار مناطق شاسعة غير مأهولة في الشرق.

قال ميتروف مقاطعاً ليفين:

ـ من السهل أن يخطىء المرءُ وهو يستخلص نتائج بصدد قدر شعب من الشعوب، إن وضع العامل سيتوقّف دائماً على علاقاته بالأرض ورأس المال.

وبدأ ميتروف يعرض عليه آراءَه الشخصية، دون أن يتيح له الانتهاء من تبيان حججه.

أمّا علام تقوم هذه الآراء بالضبط، فلم يفهم ليفين ذلك، لأنه لم يحاول حتى أن يفهم: لقد رأى أن ميتروف، مثله مثل كثيرين غيره، لا ينظر إلى العامل الروسي إلاَّ من وجهة نظر رأس المال والأجر والدخل، بالرغم من المقالة التي دحض فيها مذاهب الاقتصاديين.

ومع أنه اضطُرّ إلى الاعتراف أن الدخل معدومٌ في الجزء الشرقي من روسيا، وهو أوسع أجزائها، وأن الأجر بالنسبة إلى تسعة أعشار السكان يقتصر على تحصيل ما يسدّون به الأود، وأن رأس المال لم يوجد بعد إلاَّ بشكل أكثر أدوات العمل بدائية، مع ذلك كله كان لا ينظر إلاَّ من تلك الزاوية الوحيدة ليدرس العامل، بالرغم من أنه يفترق، في كثير من الجوانب، عن الاقتصاديين وأنه دافع عن نظرية جديدة في الأجر عَرَضها على ليفين.

كان ليفين يصغي إليه دون لذة وقد ردّ عليه رداً لاذعاً في البداية. أراد أن يُقاطع ميتروف ليُفهمه وجهة نظره التي تجعل كل عرض لاحق أمراً لا جدوى فيه. لكنه بعد أن اقتنع بأنهما من رأيين مختلفين أشدّ اختلاف بحيث إنهما لم يتفاهما، كفّ عن الاحتجاج واكتفى بالإصغاء ومع أن ما كان يقوله ميتروف لم يعد ينطوي، بدءاً من هذه اللحظة، على أية أهمية بالنسبة إليه، بيد أنه أخذ يصغي إليه بشيء من المتعة. لقد أرضى غرورَهُ أن يعمد مثل هذا الرجل العالم إلى أن يعرض له أفكاره راضياً مختاراً، بهذه العناية الفائقة، مفترضاً فيه معرفة واسعة بالموضوع (كان يكتفي أحياناً بالتلميح إلى جانب واحد من المسألة) كان ينسب ذلك إلى مزيّته ناسياً أن ميتروف الذي استنفد الموضوع بحثاً مع مَنْ يحيط به، كان يجد لذة خاصة في الحديث مع مستمع جديد، وأنه كان، من ناحية أخرى، يتحدث راضياً مختاراً إلى الجميع عن مشكلة تشغله ولا بد له من توضيح بعض جوانبها.

قـال كاتافاسوف وقـد ألقى نظرة إلى الساعة بعد أن انتهى ميتروف من شرحه.

ـ سوف نتأخر. وستنعقد اليوم جلسة في جمعية الهواة في ذكرى مرور خمسين عاماً عـلى «سفنتيش». وسنذهب إلـيـهـا، بيبرايفانوفتش وأنـا، وقد وعدتُ بتقديم بحث عن أعماله في علم الحيوان. تعال معنا، سيكـون ذلـك شائقاً.

قال ميتروف:

ـ لقد حان الوقت، في الواقع، تعال معنا، وبعد ذلك نعرّج على بيتي إذا لاءمك ذلك، أحبّ كثيراً أن تقرأ علي كتابك.

ـ أوه! إنه ليس سوى مشروع كتاب. لكنني سأذهب بكل رضا إلى هذه الجلسة.

قال كاتافاسوف الذي أخذ يرتدي ثيابه في الغرفة المجاورة.

ـ أتعلم، يا عزيزي، أنني وقّعتُ المذكّرة؟

وأخذوا يتحدّثون عن النزاع الذي وقع في قلب الجامعة.

كان ذلك النزاعُ حَدثاً شديد الأهمية في موسكو، هذا الشتاء. لقد رفض ثلاثةٌ من الأساتذة القدامى وجهة نظر زملائهم الشباب، فقدّم هؤلاء مذكّرة. وكانت هذه المذكّرة كريهة برأي بعضهم، وأشد ما تكون بساطة وعدلاً برأي الآخرين، ولذلك انشق الأساتذة إلى حزبين.

كان المعارضون الذين ينتمي إليهم كاتافاسوف يصفون المحافظين بأنهم وشاةٌ ماكرون، وكان المحافظون يتّهمون المعارضين بالشيطنة والتمرّد. وقد سمع ليفين الناسَ يتحدثون عن هذه القضية منذ وصوله إلى موسكو، مع أنه غريبٌ عن الجامعة، وكوّن لنفسه رأياً في هذا الموضوع: فشارك في الحديث الجاري في الشارع بينما كانوا يتّجهون ثلاثتهم إلى الجامعة.

كانت الجلسة قد بدأت. وخلف الطاولة التي غُطّيت بغطاء والتي اتخذ كاتافاسوف وميتروف مكانهما إليها، جلس ستةُ أساتذة. كان أحدهم يقرأ وأنفهُ على مذكّراته. استقر ليفين على أحد الكراسي الفارغة التي تُحيط بالطاولة، وسأل بصوت خافت طالباً جالساً بجنبه عن الموضوع الذي يعالجه القارىء. رماه الطالب بنظرة ممتعضة وقال:

ـ السيرة.

ومع أن ليفين لم يكن يهتم بسيرة العالم، فقد أصغى بالرغم منه واكتشف في حياة رجل العلم الشهير بعض الخصائص المثيرة للاهتمام. حين انتهى الخطيب من كلامه شكره الرئيس وقرأ قصيدة أرسلها الشاعر «منت» بمناسبة العيد الخمسيني، ووجّه كلمات شكر إلى المؤلف. بعد ذلك، قرأ كاتافاسوف بصوته الصارخ والجهوري لمحةً عن أعمال سفنتيش العلمية. وعندما انتهى، نظر ليفين إلى الساعة ورأى أنه قد مرّت ساعةٌ، وأنه لن يتسنّى له أن يقرأ عمله على ميتروف قبل الحفلة الموسيقية، ثم إنه لم يكن يشتهي ذلك، وفكّر أيضاً، أثناء ذلك العرض الذي كان يقدّمه كاتافاسوف، في الحديث الذي جرى بينهم. لقد رأى الآن بوضوح أن أفكار ميتروف ربما كان لها أساس، لكن لأفكاره أيضاً أساساً، وأن هذه الأفكار لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة إلاّ إذا اشتغل كل واحد بشكل منفصل في الطريق التي اختارها، وأن المقابلة بين هذه الأفكار لن تعطي شيئاً حسناً. ولذلك فبعد أن قرّر ليفين رفض دعوة ميتروف، أقبل عليه في نهاية الجلسة، فقدّمه ميتروف للرئيس الذي كان يتحدّث معه عن الحوادث السياسية الجارية، وبهذه المناسبة، ردّد ميتروف على الرئيس ما رواه لليفين وردّد ليفين الملاحظات التي أبداها في الصباح، لكنه أضاف إليها، رغبةً منه في التنويع، فكرة مرّت بباله قبل هنيهة. وبعد ذاك، انتقل الحديث إلى خصام الجامعة. وبما أن ليفين قد سمع ذلك كله من قبل سارع إلى القول لميتروف: إنه يأسف على أنه لا يستطيع تلبية دعوته، ثم استأذن وقصد إلى منزل «لفوف».

[٤]

لقد قضى «لفوف»، زوج ناتالي أخت كيتي، حياته في العواصم وفي الخارج حيث تدرّب على مهنة الدبلوماسي.

في السنة الفائتة، ترك هذه الوظيفة لا على أثر المضايقات (لم تحدث له قطّ مضايقات مع أحد) بل لكي يوفّر لولديه تربية أفضل، واضطلع بمهمة في البلاط، في موسكو.

بالرغم من اختلاف واضح في العادات والآراء بين لفوف وليفين، ومع أن لفوف كان أكبر سناً من ليفين، فقد توثّقت العلاقات بينهما في هذا الشتاء، وأحبّ كل منهما الآخر.

كان لفوف في المنزل ودخل ليفين مكتبه دون أن يُعلن عن نفسه.

كان لفوف جالساً على مقعد، بسترة البيت وبحذاء من جلد الأيل، يقرأ، وعلى عينيه نظارةٌ زجاجتاها زرقاوان، في كتاب على مقرأ، وكان في يده التي نحّاها بحذر سيجار أحرق نصفه.

استضاء وجهه الجميل، الناعم، الذي ما زال فتياً والذي أسبغ عليه شعره الجعد الرمادي المائل إلى الفضي تعبيراً أكثر أصالة، استضاء بابتسامة عندما شاهد ليفين.

ــ رائع! كنت سأستخبر عنك. كيف حال كيتي؟ اجلسْ هنا، فهو أرْوحُ لك...

ونهض فقدم مقعداً قلّاباً وقال وفي لهجته نبرة فرنسية خفيفة:

ــ هل قرأتَ آخر منشور في «جريدة بطرسبرج» إني أجد ذلك ممتازاً.

روى له ليفين ما قاله له كاتافاسوف عن آخر الاشاعات المنتشرة في بطرسبرج، وبعد أن تحدّث بعض الوقت عن السياسة، صوّر له لقاءه مع ميتروف والجلسة التي حضرها. فاهتم «لفوف» بذلك اهتماماً كبيراً، وقال له:

ـ إني أغبطك على دخولك عالَمَ العلم هذا.

وبما أنه كان ميالاً إلى الثرثرة كعادته، فقد انتقل إلى الكلام بالفرنسية التي كانت أيسر عليه:

ـ الحق أنْ ليس لديّ الفراغ الكافي، فوقتي كله مشغول بخدمتي وبولديّ. ومن جهة أخرى فلست أخجل من الاعتراف بأن تعليمي غيرُ كاف.

قال ليفين مبتسماً، وقد تأثر، كدأبه دائماً، بهذا التواضع الصادق تماماً، الذي لم يتكلفَه صاحبُه رغبةً منه في الظهور أو حتى في التواضع:

ـ اسمح لي أن أشكّ في ذلك.

ـ بلى! إني أدرك الآن كل الثغرات في تعليمي، فمن أجل تربية ولديّ لا بدّ لي من تحريك ذاكرتي أو من الرجوع إلى دراساتي بكل بساطة. لأن الأساتذة لا يكفون، ولا بدّ من مشرف، كما أنك في استثماراتك لا بدّ لك من مدير أعمال قرب العمال. انظرْ، ماذا أقرأ هنا (وأراه كتاب قواعد لبوسلايف[1] موضوع على المقرأ)، إنهم يطلبون إلى ميشا أن يعرفه، وهو صعب جداً... هيّا، اشرحْ لي ما يقوله هنا...

أراد ليفين أن يقنعه بأن هذه المواد إنما ينبغي أن نعرفها لا أن نسعى إلى التعمّق فيها، لكن «لفوف» لم يكن من رأيه:

ـ أترى، إنك تهزأ بـي!

ـ على العكس، إنك لا تستطيع أن تتصوّر إلى أي حدّ اتّخذك قدوةً للمستقبل، ولا سيما فيما يتعلّق بتربية الأولاد.

قال لفوف:

ـ ليس لك أن تتّخذني قدوةً.

---

(١) قواعد بوسلايف: بوسلايف (١٨١٨ ـ ١٨٩٧) أستاذ بارز في علم اللغة مؤلف كتاب ممتاز هو: القواعد التاريخية للغة الروسية.

فقال ليفين:

ـ كل ما أعلمه هو أنني لم أر قط أولاداً أحسن تربيةً من أولادك، وأنا أحب أن يكون أولادي المقبلون مثلهم في تربيتهم.

أراد لفوف بشكل ظاهر أن يتمالك نفسه لكي لا يكشف عن فرحه، لكنه كان يشع من الفرح حقاً.

ـ بشرط أن يكونوا أفضل مني. هذا كل ما أبغيه. إنك لا تعرف بعدُ المشقّةَ التي يسبّبها الأولاد، ولا سيما عندما يُتركون، مثل أولادي، لأنفسهم في الخارج.

ـ سوف تعوّض ذلك كله. إنهم أولاد موهوبون، الأهم هي التربية الخلقية، هذا ما أتعلّمه وأنا أتطلّع إلى أولادك.

ـ أنت تقول: تربية خلقية. لا نستطيع أن نتصوّر مدى صعوبة ذلك! فما أن نتغلب على أحد الميول الشريرة حتى تنتصر الميولُ الشريرة الأخرى من جديد. ويبدأ الصراع مرة أخرى. ولولا سندُ الدين (لقد تكلمنا على ذلك، وأنت تتذكّر) لما استطاع والدٌ بقواه وحده أن يُفلح في تربية أولاده.

هذا الحديث، الممتع جداً بالنسبة إلى ليفين، انقطع بدخول ناتالي الكسندروفنا الجميلة التي ارتدت ملابسها استعداداً للخروج.

قالت:

آه! ما كنتُ أعلم أنك هنا.

وكان واضحاً أنها لا تشعر بأدنى أسفٍ بل إنها شعرت بالرضى حين قطعت حديثاً معاداً كان يضجرها، وأضافت:

ـ كيف حال كيتي؟ سأتعشى عندكم اليوم.

والتفتت إلى زوجها وقالت:

ـ صحيح، يا أرسين، هل ستأخذ العربة...

وقامَ بين الزوج والزوجة نقاش بشأن استخدامهم للوقت.

فالزوج كان مكلفاً باستقبال إحدى الشخصيات، والزوجة ستذهب إلى الحفلة الموسيقية، وإلى جلسة عامة لجمعية سلاف الجنوب. كان يجب التفكير في ذلك كله إذن، واتخاذ القرارات المناسبة. واضطرّ ليفين، باعتباره أحد أصدقاء البيت، إلى المشاركة في النقاش. وتقرّر أن يذهب ليفين مع ناتالي إلى الحفلة والجلسة، ومن هناك يرسل العربة لتقلّ أرسين إلى المكتب، حينئذٍ يأتي أرسين ليأخذ امرأته إلى منزل كيتي، وإذا لم ينه عمله فسوف يرسل العربة، وسيكون ليفين هو الذي يصحب السيدة لفوف.

قال لفوف لزوجته:

ـ إنه يدلّلني ويزعم أن أولادنا رائعون، في حين أعلم أن لهم الكثير من العيوب.

أجابت زوجته:

ـ أرسين يتطرّف دائماً، وطالما قلتُ له ذلك. إذا كنتَ تسعى إلى الكمال فلن تسَرَّ أبداً أبـي على حق حين قال إن الأهل في زمانه كانوا يقعون في تطرّف آخر: كانوا يرمون بالأطفال في الدور المنخفض ليسكنوا الدور الأول. أما الآن فالعكس هو الصحيح: فالأهل يسكنون الغرف المهملة، والأولاد في الدور الأول. الأهل، اليوم، لا يحقّ لهم العيش إلاَّ من أجل ذريتهم.

قال لفوف، وهو يبتسم ابتسامته الجميلة ويلمس يدها:

ـ وما أهمية ذلك، إن كان ذلك ألذّ؟ مَنْ لا يعرفك يظن أنه يسمع زوجة الأب.

قالت ناتالي بهدوء وهي تعيد مقطع الورق إلى مكانه:

ـ لا، التطرف في كل شيء خطأ.

ـ هيا، تعالا، أيها الولدان الكاملان.

قال لفوف ذلك لصبيين جميلين دخلا، وبعد أن سلّما على ليفين، اقتربا من والدهما وبنيّتهما أن يطرحا عليه بعض الأسئلة.

كان بودّ ليفين أن يكلّمهما ويسمع ما سيقولانه لأبيهما، لكن ناتالي وجّهت الكلام إليهما، وفي اللحظة نفسها، دخل الغرفة رفيق «لفوف»، ماكوتين ببزّة البلاط، كان مقرّراً أن يصطحب صديقه إلى المحطة، وفي الحال، بدأ حديثٌ لا ينضبُ عن «الهير زيجوفين[1] والأميرة كوزنسكي، والدوما[2]، وموت السيدة ابراكسين المفاجىء.

نسي ليفين المهمة التي عُهد بها إليه. ولم يتذكرها إلاَّ في اللحظة التي انتقل فيها إلى غرفة الانتظار. فقال لفوف الذي شيّعه حتى الدرج:

ـ آه! لقد رجتني كيتي أن أكلّمك بشأن اوبلونسكي.

قال لفوف محمّراً:

ـ نعم، نعم «أمي» تريد أن يؤنبه العدلاء على سلوكه. لكنْ، لمَ أنا بالذات؟

قالت السيدة لفوف وهي تبتسم، وكانت تنتظر نهاية الحديث في معطفها الجلدي الأبيض:

ـ أنا سأتولّى ذلك، إذن. لنذهبْ.

[٥]

قُدّم، هذا الصباح في الحفلة الموسيقية عملان ممتعان، كان أحدهما «فنتازية» عن «الملك لير في السهوب»[3]، وكان الآخر رباعياً مقدماً إلى ذكرى باخ. كانا عملين حديثين أوحت بهما الروحُ الجديدة، وكان ليفين يرغب في أن يكوّن لنفسه رأياً عنهما وبعد أن قاد أخت زوجته إلى مقعدها، ذهب واستند إلى

(١) «هيرزيجوفين»: كانت هذه المقاطعة تحت السيطرة العثمانية حتى انفجر عصيان (١٨٧٥).

(٢) «الدوما»: كانت المجالس البلدية في المدن الروسية تسمى كذلك، والمقصود هنا «دوما» موسكو.

(٣) «الملك لير في السهوب»: إشارة ساخرة إلى المجموعة السمفونية لميل بالاكيريف «الملك لير» (١٨٦٠)، التي أوحت بها قصة لتورغنيف بالعنوان نفسه. =

عمود وقرّر أن يصغي بأكبر قدر ممكن من الانتباه والدقة. لقد حاول جاهداً ألا يسمح لنفسه بالشرود أو بالانزعاج من جراء حركات قائد الجوقة ذي العقدة البيضاء، وهي حركات شديدة الإزعاج للمستمعين المتنبّهين، أو من جراء السيدات ذوات القبعات اللواتي غطّين بعناية آذانهن بالشرائط قبل أن يأتين إلى الحفلة الموسيقية، أو من جراء جميع هذه الوجوه العاطلة أو المشغولة بشتى المصالح لكنها ليست مشغولة بالموسيقى على كل حال. وحاول أن يتحاشى الهواة والمهذارين، وظلّ واقفاً يصيخ السمح، وقد خفض بصره إلى الأرض.

لكنه كان كلما أمعن في إصغائه إلى «فنتازية» الملك لير، ازداد إحساسُه بالعجز عن أن يكوّن لنفسه رأياً دقيقاً.

ففي كل برهة، كان التعبيرُ الموسيقي يتناثر مزقاً لحظة تفتّحه، بحسب المبادىء الجديدة، أو يذوب في إيقاعات بالغة التعقيد ولا رابط بينها إلاَّ نزوةُ المؤلف. لكن هذه الفقرات نفسها من التعبير الموسيقي كانت تصدم الأذن لأنها لم تكن متوقعة على الإطلاق ولم يمهد لها شيء، وإن كانت جميلة أحياناً. فالفرح والحزن واليأس والحنان والانتصار، كل ذلك كان يتتالى دون مسوّغ مثل انطباعات المجنون. وكانت تتلاشى فجأة كما تتلاشى انطباعات المجنون.

انتاب ليفين أثناء مدة العزف كلها إحساسٌ كإحساس الأصم الذي ينظر إلى الراقصين. لقد شعر، وهو حائر الفكر، عندما انتهت القطعة الموسيقية، بالإعياء من التوتر الذهني الذي لم يَجْنِ من ورائه شيئاً، سُمع تصفيق صاخب من كل الجهات، ونهض الجميعُ وأخذوا يمشون ويتكلّمون. وكان ليفين حريصاً على أن يجلوَ تلك الحيرة التي ألمّت به، فأخذ يبحث عن العارفين بالموسيقى، واغتبط حين شاهد واحداً منهم يحادث «بيستسوف».

كان بيستسوف يقول بصوته العميق والجهير:

ــ هذا مدهش! مرحباً، يا قسطنطين دميتريتش. إن أكبر المقاطع تصويراً،

وأقربها إلى النحت إن صح القول، وأغناها بالألوان هو المقطع الذي تشعر فيه بقرب كورديليا، والذي تدخل منه المرأة، الأنثى الخالدة، في صراع مع القدر ألست ترى ذلك؟

سأله ليفين بوجل وكان قد نسي كلياً أن الفنتازية تمثّل الملك لير في السهوب:

ــ ولماذا «كورديليا»؟

قال بيستسوف وهو ينقر بأصابعه البرنامج الصقيل والملمّع الذي كان يمسكه بيده والذي ناوله ليفين:

ــ إن كورديليا تدخل المسرح... انظرْ!...

حينذاك فقط تذكّر ليفين عنوان الفنتازية وسارع إلى قراءة أشعار شكسبير المترجمة إلى الروسية والمطبوعة على قفا البرنامج.

قال بيستسوف وهو يلتفت إلى ليفين، لأن محدّثه قد انصرف ولم يبقَ أحدٌ يحدثه:

ــ لا يمكن متابعة الموسيقى دون هذا البرنامج.

وشرع ليفين وبيستسوف في حديث عن مزايا الاتجاه الفاغنيري وعيوبه لقد أراد ليفين أن يبرهن على أن خطأ فاغنر وكل تلاميذه هو أنه أراد أن يلج ميداناً غريباً عن الموسيقى، كما أن الشعر يضلّ طريقه حين يصف قسمات الوجه، وهي مهمة من اختصاص التصوير. وضرب شاهداً على ذلك النحّاتَ الذي تصوّر أن ينحت من المرمر ظلالاً لصور شعرية تنتصب حول قاعدة تمثال الشاعر.

قال ليفين:

ــ هذه الظلال أبعد ما تكون عن الظلال باعتبارها تستند إلى قاعدة التمثال.

أعجبته هذه الجملة، لكنه لم يكن واثقاً من أنه لم يقلها من قبل، ولبيستسوف بالذات، فارتبك.

أما بيستسوف فقد أكّد له أن الفن واحدٌ، وأنه لا يمكن أن يبلغ الذُرا إلا باجتماع جميع الفنون.

لم يتمكن ليفين من سماع القطعة الثانية لقد حدّثه بيستسوف الذي ظل بجانبه بدون انقطاع، فانتقد بساطة العمل الباهتة والمتصنعة التي قارنها ببساطة الفنانين الذي سبقوا رفائيل في مجال التصوير. وعندما خرج ليفين التقى كثيراً من الناس المعروفين الذين تحدّث معهم عن السياسة، والموسيقى والعلاقات العامة؛ وشاهد فيمن شاهد الكونت «بوهل» الذي نسي كلياً أن يزوره.

قالت له السيدة «لفوف» التي أفضى إليها بذات نفسه.

ــ اذهبْ إلى هناك بسرعة. لعلهم لا يستقبلون اليوم. وبعد ذلك عُدْ لتأخذني من الجلسة، فسأكون فيها.

[٦]

قال ليفين وهو يدخل غرفة الانتظار في منزل الكونتيسة «بوهل»:

ــ ربما لم يكن هذا اليوم يوم استقبال؟

قال الحاجب وهو يخلع عنه معطفه بعزم:

ــ بلى، تفضّلْ بالدخول.

فكّر ليفين وهو يتنهّد ويسحب أحد قفازيه ويسوّي قبّعته: «يا له من همّ! لماذا جئتُ إلى هنا؟ ليس عندي ما أقوله لهم»!.

عندما عبر القاعة الأولى، لقي ليفين الكونتيسة «بوهل» وهي تلقي أوامرها على أحد الخدم وقد بدا عليها الانهماكُ والصرامة. ولما شاهدت ليفين ابتسمت ورجته أن يمر على قاعة الاستقبال الصغرى المجاورة التي وافى منها ضجيج

أصوات. كان يجلس في هذه الغرفة موظفٌ من موسكو يعرفه ليفين وابنتا الكونتيسة. دنا ليفين من الموظف وسلّم عليه وجلس بجانب الأريكة، وقبعته على ركبتيه.

ــ كيف حال زوجتك؟ هل ذهبتَ إلى الحفلة الموسيقية؟ نحن، لم نستطع. لقد اضطرت أمي أن تذهب إلى الجنّاز

قال ليفين:

ــ نعم، لقد علمتُ... أي موت مفاجىء!

عادت الكونتيسة، وجلست على الأريكة وطرحت أيضاً على ليفين أسئلة عن زوجته وعن الحفلة الموسيقية.

أجابها ليفين وكرر سؤاله عن موت السيدة ابراكسين الفجائي:

ــ على كل حال، لقد كانت دائماً رقيقة الصحة.

ــ هل ذهبت إلى الأوبرا أمس؟

ــ نعم.

ــ كانت «لوكا» رائعةً[(١)].

قال ليفين:

ــ نعم.

وبما أنه لم يكن يبالي برأي الناس فيه، فإنه كرّر ما قيل مئات المرات عن خصائص موهبة هذه المغنية، وقد تظاهرت الكونتيسة «بوهل» بالإصغاء. وبعد أن تكلّم ليفين بما فيه الكفاية وصمت، شرع العقيدُ الذي لزم الصمت حتى هذه اللحظة في الكلام بدوره. وتحدّث عن الأوبرا وعن الإضاءة الجديدة. وبعد أن لمّح إلى «اليوم العاصف»، الذي ينتوونه في منزل تيورين، أخذ يضحك، ونهض

(١) «كانت لوكا رائعة»: بولين لوكا (١٨٤١ ــ ١٩٠٨) مغنية إيطالية غنّت بنجاح على جميع مسارح أوروبا حتى سنة ١٨٨٧.

بصخب وانصرف. ونهض ليفين بدوره، لكنه أدرك، من وجه الكونتسيه، أن الوقت لم يحن بعد كي يستأذنها. كان ينبغي له أن يبقى دقيقتين أيضاً. فعاد إلى الجلوس.

وبما أنه لم ينقطع عن التفكير في سخافة ذلك كله، فإنه لم يعثر على موضع للحديث.

سألته الكونتسية:

ـ ألن تذهب إلى جلسة الجمعية؟

قال ليفين:

ـ لا، وإنما وعدتُ أخت زوجتي بالمرور عليها هناك لكي أصطحبها.

حدثَ صمتٌ. وتبادلت الأم وبنتيها النظر.

فكّر ليفين: «أظن أن الوقت قد حان الآن»، ونهض. شدّت السيدات على يده ورجونه أن ينقل تحياتهن إلى زوجته.

سأله الحاجب، وهو يمد إليه معطفه، عن عنوانه وسجّله على سجل خجل كبير مجلد تجليداً فخماً.

فكر ليفين: «من المؤكد أني لا أكترث لهذا، لكنه، مع ذلك يضايقني؛ إن هذا لمضحك حقاً»! . وعزاه أن الناس يفعلون مثلما فعل، قصد إلى جلسة الجمعية التي سيلقى فيها أخت زوجته ليقودها إلى بيتها.

في جلسة الجمعية، اجتمع خلقٌ كثير، كل المجتمع الراقي تقريباً. وقد وصل ليفين في الوقت المناسب ليستمع إلى بيان عظيم الأهمية، على حد قول الجميع. وعندما انتهى البيان أقبل الناس بعضهم على بعض، أما ليفين فقد لقي سفياجسكي الذي دعاه إلى المجيء، في هذا المساء نفسه، إلى الجمعية الزراعية حيث ستُلقى محاضرةٌ رائعة، كما لقي ستيفان أركاديفتش الذي كان عائداً لتوه من السباق، وكثيراً من الأشخاص غيره: كان لا بدّ له أن يلقي ويسمع أحكاماً شتّى

حول الجلسة، والأوبرا، وحول إحدى الدعاوى الجارية. لكنه ارتكب، وهو يتحدث عن الدعوى، غلطة عادت إلى ذاكرته عدة مرات لتغيظه، ولا شك أن ذلك إنما كان بسبب التعب الذي أخذ يحسّ به. فعندما كانوا يتحدّثون عن العقاب الذي فرض على أجنبي حوكم في روسيا والذي رأوه غير كاف لأنه حكم عليه بالطرد فقط، كرّر ليفين ما سمع صديقاً له يقوله أمس:

ـ يلوح لي أن طرده يعادل عقابنا لسمكة بإلقائها في الماء. لكنه تذكّر بعد ذلك أن هذه الفكرة التي يقدّمها باعتبارها له والتي سمع صديقاً له يعبّر عنها، كانت مأخوذة من حكاية لكلريلوف وأن هذا الصديق اقتبسها من مقالة في جريدة.

رجع ليفين بصحبة أخت زوجته، ووجد كيتي مبتهجةً، وبصحة جيدة، وذهب إلى النادي.

[٧]

وصل ليفين في الوقت نفسه الذي وصل فيه أعضاءُ النادي والمدعوون. لم يكن قد زار النادي منذ الفترة التي سكن فيها موسكو بعد الجامعة والتي أخذ يخالط المجتمع الراقي فيها. كان يتذكّر بعض التفاصيل الخارجية في موقع النادي، لكنه نسي كلياً الإحساسَ الذي كان يخالجه قديماً حين كان يدخله. وما إن ولج الفناءَ الواسع نصف الدائري، وترك عربته، وصعد درج المدخل، وبادر الحاجبُ ذو الحمّالة إلى لقائه وفتح له الباب دون ضجّة وهو ينحني؛ وما إن شاهد في البهو معاطفهم، وكذلك أحذيتهم المطّاطية التي تركوها هنا لأن ذلك أسهل عليهم من أن يحملوها إلى الطابق الأول؛ وما إن سمع دقة الجرس المحفوفة بالأسرار والتي تُعلن عنه وشاهد، وهو يصعد الدرج اللطيف الانحدار والمغطّى بسجادة، التمثالَ على قرص الدرج، وعلى عتبة باب الطابق الأول، الحاجبَ العجوز الذي يعرفه جيداً، وقد ارتدى لباس النادي الرسمي، وفتح له الباب دون استعجال وهو ينظر

إليه من رأسه إلى قدميه، حتى عاوده الإحساس القديم: إحساس بالراحة والرغد والحشمة.

قال الحاجبُ لليفين الذي نسي أن يترك قبعته في حجرة الثياب كما يقضي بذلك النظام:

ـ قبّعتَك، أرجوك. إننا لم نرك منذ زمن بعيد. جاء الأمير ليسجّلك أمس. لم يصل بعدُ الأمير ستيفان أركادييفتش.

كان الحاجب يعرف جميعَ معارف ليفين وأهله لا ليفين وحده، ولم يلبث أن حدثه عن أقرب الناس إليه.

بعد أن اجتاز ليفين مدخلاً أول مزيناً بحواجز، وغرفةً معزولة بحاجز إلى اليمين كان يقف فيها بائعُ الفواكه، أدرك رجلاً كان يمشي بخطوات بطيئة ودخل غرفة الطعام.

مرّ بين الطاولات المشغولة كلها تقريباً، وهو ينظر إلى المدعوين. رأت عيناه أشد الناس تنوعاً: الشبابَ والشيوخ، الأشخاص الذين لم يكد يعرفهم، الأصدقاء الحميمين. ولم يجد لأي منهم وجهاً مهموماً أو عابساً. وبدا عليهم جميعاً أنهم نزعوا في حجرة الثياب متاعبَهم وهمومهم مع قبّعاتهم، وأنهم تهيّؤوا لانتهاب خيرات العالم المادية بسلام. كان بين الحاضرين سفياجسكي، تشرباتزكي، نيفييدوفسكي، الأمير العجوز، فرونسكي، وسيرج إيفانوفتش.

قال له الأميرُ العجوز وهو يبتسم ويمدّ إليه يده من فوق ظهره:

ـ آه! لقد تأخرتَ!

وأضاف وهو يعيد فوطته إلى موضعها، بعد أن أدخل طرفها في إحدى عرى صدرته:

ـ وكيف حالُ كيتي؟

ـ إنها بخير. وسيتناولن ثلاثتهن العشاءَ في البيت.

ـ آه! من اللواتي يكرّرن أنفسهن. طيب! لم يبق محلٌ هنا. اذهبْ بسرعة واجلسْ إلى تلك الطاولة هناك.

قال الأمير ذلك ثم التفت وتناول باحتراس صحناً من الحساء بالسمك. صرخ صوت متودّد، من مكان أبعد قليلاً:

ـ ليفين، هنا!

كان توروفستين. وكان مع ضابط شاب، إلى جانب مكانين محجوزين. فانضم إليهما ليفين بسرور. لقد أحبّ دائماً توروفستين، وهو فتى عربيد وطيّب (كانت ذكراه مرتبطة بذكرى استفساره كيتي)، واليوم، بعد كل تلك الأحاديث التي حاول جاهداً فيها أن يظهر بمظهر الذكيّ، سُرّ سروراً خاصاً بسحنة توروفستين السمحة.

ـ المكانان لك ولأوبلونسكي. سيأتي في الحال.

كان الضابط الذي اعتدل في جلسته والذي كانت له عينان فرحتان وضاحكتان دائماً، من بطرسبرج واسمه «غاغين». عرّفهما توروفتسين أحدهما بالآخر.

ـ أوبلونسكي من دأبه التأخر.

ـ آه! ها هوذا.

قال أوبلونسكي وهو يدنو منهم بخطوات سريعة:

ـ وصلتَ للتوّ؟ مرحباً. هل تناولتَ شيئاً من الفودكا؟ هيّا بنا.

نهض ليفين ورافقه إلى قرب طاولة كبيرة ملأى بالمشروبات والمقبلات من كل صنف ولون. كان عليها ما لا يقل عن مائتي صنف من المقبّلات يستطيع المرء أن يختار منها ما يلائم ذوقه، لكن ستيفان أركاديفتش طلب لوناً خاصاً، وما لبث أن حمل إليه خادمٌ باللباس الرسمي ما يطلبه. أفرغا كلاهما كأساً صغيراً وعادا إلى طاولتهما.

بعد الحساء بالسمك رأساً، جيء بالشمبانيا، فصب منها غاغين أربعَ كؤوس. لم يرفض ليفين وطلب زجاجةً ثانية. كان جائعاً، وكان يأكل ويشرب بسرور، ويشارك بسرور أكبر في أحاديث مؤاكليه البسيطة والمرحة. وقد روى غاغين، وهو يخفض صوته، حكاية حديثةً من بطرسبرج: ومع أن هذه الحكاية كانت وقحةً وسخيفةً، إلا أنها كانت مضحكةً جداً حتى لقد أغربَ ليفين في ضحك صاخب والتفت مَنْ حوله ليتطلّعوا إليه.

فسأله ستيفان أركادييفتش:

ــ هذه الحكاية من نمط حكاية: «لا أستطيع أن أتحمّل هذا»! . أتعرفها؟ آه! ما ألذّ هذه الشمبانيا! زجاجة أخرى.

قال ذلك للخادم وانطلق في حكايته.

قاطعه خادم عجوز وهو يقدّم إلى ستيفان أركادييفتش وليفين كأسين لطيفتين من الشمبانيا الفوّارة:

ــ من عند بيير إيليتش فينوفسكي.

تناول ستيفان أركادييفتش الكأس، وبعد أن بادل النظر رجلاً أشقر، أصلع، طويل الشاربين، كان في الطرف الآخر من الطاولة، أومأ إليه برأسه وهو يبتسم.

سأله ليفين:

ــ مَنْ هذا؟

ــ لقد وجدته ذات مرة عندي، أتذكر؟ إنه فتى طيّب.

فأومأ ليفين برأسه مثل ستيفان أركادييفتش وأخذ كأسه.

كانت حكاية ستيفان أركادييفتش هي أيضاً، مسلّية جداً. وروى ليفين حكايةً أعجبتهم كثيراً أيضاً. وبعد ذلك، استقرّ الحديثُ حول الجياد والسباق وانتصار جواد فرونسكي، «ساتان»، الذي نال الجائزة الأولى. لم يحسّ ليفين بمرور الوقت.

قال ستيفان أركادييفتش في نهاية العشاء بعد أن تهالك على مسند كرسيّه ومدّ يده إلى فرونسكي الذي كان يمرّ بجنبه ومعه عقيد من الحرس مهيبُ الطلعة:

ــ آه، ها هما!.

كان وجه فرونسكي يشعّ بهذه المودة التي كانت تُرى منتشرةً في النادي. فاتكأ بمرفقه على كتف ستيفان أركادييفتش وقد بدا الفرح عليه، وهَمسَ إليه بشيء في أذنه، ومدّ يده إلى ليفين وهو يبتسم تلك الابتسامة الفرِحة، وقال:

ــ يُسعدني أن ألقاك. لقد فتشتُ عنك في يوم الانتخابات، لكنْ قيل لي إنك قد سافرتَ.

قال ليفين:

ــ نعم، لقد سافرتُ في اليوم نفسه. كنا نتحدث قبل هنيهة عن جوادك. أهنئك. لقد ضرب رقماً قياسياً.

ــ عندك جيادٌ أُخرى، فيما أعتقد.

ــ لا، أبـي هو الذي كان يملك جياداً كثيرة؛ لكنّ لي بها خبرةً قليلة.

سأله ستيفان أركادييفتش:

ــ أين تعشّيتَ؟

ــ على الطاولة الثانية، خلف الأعمدة.

قال العقيد:

ــ لقد احتفوا به. الجائزة الامبراطورية الثانية! أتمنّى أن يكون لي في اللعب مثل حظه في السباق. لكنْ لماذا أضيّع هذا الوقت الثمين؟ ها أنا عائد إلى الغرفة الجهنمية.

وابتعد.

أجاب فرونسكي عن سؤال توروفتسين:

ــ هذا «اياشفين».

وجلس على كرسي ظلت شاغرة قربهم. وقَبِلَ كأساً من الشمبانيا، وطلب زجاجةً. وشرع ليفين، بتأثير جوّ النادي أو ربّما بتأثير الخمر، في حديث حارّ مع فرونسكي عن أفضل الأصناف البقرية، واغتبط لأنه لم يشعر بأي حقد على هذا الرجل. بل إنه قال له، فيما قال له، إن زوجته قد أخبرته أنها لقيته في منزل الأميرة ماري بوريسوفنا.

قال ستيفان أركاديفتش:

ـ آه! الأميرة ماري بوريسوفنا، يا لها من امرأة ساحرة!

وروى عنها قصةً ألهتْ الجميع. وضحك فرونسكي بخاصة من كل قلبه حتى أحس ليفين أنه قد صالحه.

قال ستيفان أركاديفتش وهو ينهض ويبتسم:

ـ انتهيتمّ؟ لنخرجْ.

[٨]

عندما نهض ليفين عن الطاولة، أحسّ بيسر شديد في حركاته، واجتاز عدداً من الغرف الكبيرة مع غاغين قاصديْن غرفة «البليار». وفي إحدى الصالات التقى حماه.

قال له الأميرُ العجوز وهو يمسك بذراعه:

ـ ما رأيكَ بمعبد البطالة هذا؟ تعال، سأقودك لتطوف في أرجائه.

ـ كانت هذه نيّتي بالذات. إنه يثير الاهتمام.

ـ صحيح، لكن اهتمامي أنا به مختلفٌ عن اهتمامك.

وأضاف وهو يشير إلى رجل مقوس الظهر، متدلي الشفة، يحرّك بمشقّة رجليه اللتين لُفّتا بحذاء طري، وهو مقبلٌ عليهما:

ـ أترى إلى هؤلاء الشيوخ الصغار. أنت تظنّ أنهم وُلدوا خَرفين، وهذا يضحكك، أما أنا فأقول في نفسي: إنني سأصير مثلهم ذات يوم. أتعرف الأمير تشينشنسكي؟

سأل الأمير هذا السؤال ورأى ليفين، من وجهه، أنه يستعدّ ليقصّ عليه شيئاً مضحكاً.

ـ لا.

ـ كيف لا تعرفه! لكنه مشهور! على كل حال، لا فرق، إنه يلعب بالبليار كلّ الوقت. وذات يوم، منذ ثلاث سنوات، ولم يكن قد خرفَ بعد وكان يتصنّع الشجاعة، وكان يصف الآخرين بالبلاهة، وصل إلى النادي ولقي حاجبنا، بازيل، أنت تعرفه؟ الرجل الضخم، إنه حسن النكتة. سأله الأمير تشيتشنسكي:

ـ بازيل، مَنْ تراه جاء إلى هنا؟ هل وصل أولئك البله؟ فأجابه: «أنت الثالث»[1]. نعم، يا عزيزي، هكذا كان.

اجتاز ليفين والأمير العجوز جميع الغرف وهما يتحدثان ويحيّيان أصدقاءهما أثناءَ مرورهما: اجتازا الصالة الكبرى حيث نُصبت موائدُ اللعب وحيث بدأ اللاعبون المعهودون لعبَهم؛ والصالة الصغرى حيث كان اللاعبون يلعبون بالشطرنج؛ وصالة البليار حيث كانت تشرب الشمبانيا في ركن منها، قرب الديوان، جماعةٌ فيها غاغين؛ بل إنهما ألقيا نظرة على «الغرفة الجهنمية» حيث ازدحم كبار اللاعبين حول مائدة اللعب التي جلس عندها إياشفين. ودخلا، وهما يحاولان جاهدين ألا يُحدثا ضجيجاً، قاعةَ المطالعة المعتمة حيث جلس شاب متجهّم الوجه، تحت مصباح له كمّة يتصفّح مجلةً، وجنرالٌ أصلع، مستغرق في قراءته. كما عرّجا على الغرفة التي سمّاها الأميرُ العجوز: «صالة ذوي الفكر» وكان فيها ثلاثة رجال يتناقشون بحرارة في آخر الأخبار السياسية.

قال للأمير أحدُ رفاقه الذي كان يبحث عنه:

ـ تعال، يا أمير، فنحن ننتظرك.

جلس ليفين وأصغى، لكنه عندما تذكر أحاديث الصباح داهمه فجأةً ضجرٌ

(١) النكتة تقوم على لعب لفظي تتعذر ترجمته.

قاتل. فنهض بسرعة وذهب للبحث عن أوبلونسكي وتوروفتسين اللذين يمكن أن يتسلّى معهما على الأقل.

كان توروفتسين جالساً في حلقة الشاربين على الأريكة العالية في صالة البليار؛ وكان ستيفان أركادييفتش وفرونسكي يتحدّثان في ركن ناءٍ من الغرفة، قرب الباب. سمع ليفين أطرافاً من الحديث:

ــ ليس ذلك لأن الضجر ينتابها، بل إن هذا الغموض، وتلك الحيرة...

أراد ليفين أن يبتعد على الفور، لكن ستيفان أركادييفتش ناداه:

ــ ليفين!

لاحظ ليفين أن عيني ستيفان أركادييفتش مبلّلتان كما يصيبه دائماً عندما يشرب أو عندما يتأثر. وفي هذه المرة، إنما تبلّلت عيناه لكلا السببين.

وأردف:

ــ ليفين لا تذهبْ.

وشدّ بقوّة على ذراعه فوق المرفق، وهو ظاهر الحرص على ألا يدعه يفلت بأي ثمن. وقال لفرونسكي:

ــ هذا أوفى أصدقائي ولعله أفضلهم. وأنت أيضاً قريب من نفسي وعزيزٌ علي. وأنا أرغب أن تكونا صديقين وينبغي أن تكونا كذلك، لأنكما كليكما فتيان كريما النفس.

قال فرونسكي مداعباً ومادّاً يده إلى ليفين:

ــ لم يبق علينا، بعد ذلك، إلا أن نتعانق.

فتناول ليفين اليد التي مُدّتْ إليه وشدّ عليها بقوّة. وقال:

ــ أنا مسرور جداً، جداً.

فقال ستيفان أركادييفتش لأحد النُدل:

ـ هات زجاجة شمبانيا.

قال فرونسكي:

ـ وأنا أيضاً مسرور جداً.

لكن بالرغم من رغبة ستيفان أركادييفتش ومن رغبتهما المشتركة، فلم يكن لديهما ما يقولانه أحدهما للآخر، وكانا يحسّان بذلك كلاهما.

قال ستيفان أركادييفتش لفرونسكي:

ـ أتدري أنه لا يعرف آنا؟ لن أقبل إلا أن آخذه إليها. هيّا بنا، ليفين!

قال فرونسكي:

ـ حقاً؟ ستغتبط بذلك.

وأضاف:

ـ وسأذهب على الفور، لكن إياشفين يشغل بالي، ويجب أن أظل هنا حتى يفرغ من لعبه.

ـ أهو يخسر؟

ـ إنه يفقد كل ما يملك، وأنا وحدي قادر على كبح جماحه.

قال ستيفان أركادييفتش:

ـ ليتنا نلعب لعبة «بليار»، إذن. رائع.

وقال للسمجّل:

ـ هات الكرات.

قال المسجّل الذي رتّب الكرات على شكل مثلث وأخذ يدحرج الكرة الحمراء ليتسلى:

ـ إنها جاهزة، منذ مدة طويلة.

بعد اللعبة ذهب فرونسكي وليفين وجلسا إلى طاولة «غاغين»، وراهن ليفين، بناءً على نصيحة ستيفان أركادييفتش، على «الآس»، وكان فرونسكي يترك

الطاولة من وقت إلى آخر، بعد أن يأتيه بعض الأصدقاء ليدعوه إلى الإشراف على إياشفين في الغرفة الجهنمية.

أحس ليفين بانبساط لطيف بعد تعب الصبيحة الفكري. كان سعيداً بانتهاء العداء بينه وبين فرونسكي وتملكه شعورٌ بالراحة والحبور.

أمسك ستيفان أركادييفتش، بعد انتهاء اللعبة، ليفين بذراعه:

ــ إذن، ستأتي لزيارة آنا؟ إنها في بيتها. لقد وعدتها منذ زمن بعيد بأن آخذك إليها. أين تريد أن تذهب في هذا المساء؟

قال ليفين:

ــ ليس لديّ أي مشروع خاص. وعدتُ سفياجسكي بالمرور على الجمعية الزراعية. فلنذهب إذا شئت.

قال ستيفان أركادييفتش:

ــ رائع!

وقال لأحد الخدم:

ــ أتريد أن تسأل عن عربتي إن كانت هنا؟

عاد ليفين إلى الطاولة ودفع الأربعين روبلاً التي خسرها في اللعب، وسدّد حساباته لمدير الخدم العجوز المستند إلى أعلى الباب والذي كان يَعْرف ــ ولا يدري أحدٌ ما السرّ في معرفته ــ مقدارَها، واتجه إلى المخرج وهو يَخْطر بيديه خطراناً خاصاً به.

[٩]

صرخ الحاجب بصوت خافت وغاضب:

ــ عربة الأمير أوبلونسكي!

دنت العربةُ وصعد إليها الصديقان. في الآونة الأولى عندما عبرت العربة باب العربات. احتفظ ليفين بإحساس الهدوء والرضا والحشمة وهو الإحساس

الذي يخالج المرء في النادي، لكنْ ما إن دلفوا إلى الشارع، وما إن أحس بتهادي العربة على الأرض غير المستوية، وسمع صراخ الحوذي الذي واجههم، وما إن شاهد، على ضوء المصابيح الباهت، اللافتة الحمراء لإحدى الحانات، والدكاكين، حتى تلاشى ذلك الإحساس وأخذ يفكر في تصرّفه ويتساءل إن كان يحسن صنعاً بذهابه إلى بيت آنا. وماذا ستقول كيتي؟ لكن ستيفان أركادييفتش لم يتح له أن يقف عند هذه الفكرة وبدّد شكوكه، وكأنه تنبأ بها. فقال له:

ـ كم يسرّني أن تعرفها. أتعلم أن دولي كانت تتمنّى ذلك منذ زمن بعيد؟ «لفوف» أيضاً يزورها.

وأردف قائلاً:

ـ ومع أنها أختي، فأنا أستطيع القول بكل جرأة إنها امرأة مرموقة. على كل حال، سترى. إن وضعها شديد الصعوبة، ولا سيّما في هذا الوقت.

ـ ولماذا في هذا الوقت؟

ـ نحن نفاوض زوجها بشأن الطلاق. وقد أعطى موافقته، لكن هناك صعوبات بصدد الولد، والقضية التي كان ينبغي أن نفرغ منها منذ زمن طويل، ما تزال تمتد منذ ثلاثة أشهر. وما أن تحصل على الطلاق حتى تتزوج فرونسكي. يا لحماقة ذلك الاحتفال التقليدي بالزواج، وهو احتفال لا يؤمن به أحد، كما أنه يقف عثرة في وجه سعادة الناس! على كل حال، عندما يتم الطلاق والزواج، سيصبح وضعها محدداً، مثل وضعي ووضعك.

قال ليفين:

ـ من أين تأتي الصعوبات؟

ـ آه! إنها قصة طويلة ومملّة وغامضة جداً! لكن الواقع أنها تقيم منذ ثلاثة أشهر في موسكو، حيث يعرفها الجميع، بانتظار الطلاق؛ وهي لا تخرج من بيتها، ولا ترى أيّاً من صديقاتها ما عدا دولي، لأنها لا تريد أن يزورها الناس على سبيل

الإحسان إليها: حتى هذه الحمقاء «بربارة» سافرت. مقدّرة أن الوضع غير مناسب. وفي مثل هذه الحالة يصعب على امرأة غيرها أن تجد في نفسها ملجأً لها. بينما سترى كيف نظّمت هي حياتها، وكم هي هادئة وفاضلة.

وصرح ستيفان أركاديفتش وهو يطلّ من باب العربة:

ــ إلى اليسار، مقابل الكنيسة.

وأضاف وهو يفك أزرار معطفه الذي كان قد فتحه قليلاً بالرغم من الاثنتي عشرة درجة تحت الصفر.

ــ يا إلهي، ما أشد الحرارة!

قال ليفين:

ــ لكن لها بنتاً، ولا شك أنها تهتمّ بها؟

قال ستيفان أركاديفتش:

ــ كأنك لا ترى في المرأة سوى أنثى، سوى حاضنة لا ينبغي لها أن تهتمّ بغير أولادها، لا ، إن آنا تربّي ابنتها تربيةً حسنة، لكننا لا نسمعها تتحدث عنها. إنها مشغولة أولاً بما تكتبه. أراك تبتسم ساخراً، أنت مخطىء. إنها تكتب كتاباً للأطفال، ولا تحدّثُ أحداً عنه، لكنها قرأته لي، وقد أطلعت «فوركويف» على مخطوطته، أنت تعرف «فوركويف» الناشر. . . وهو كاتب أيضاً، فيما أعتقد. إنه خبير بهذه الأمور وقد قال: إنه كتاب مرموق. لكنك قد تظن أنها امرأة أديبة؟ ليس الأمر من ذلك في شيء. إنها، قبل كل شيء، امرأة ذات قلب كبير، وسترى. إنها تُعنى بأمر طفلة انكليزية وبعائلتها.

ــ ماذا، من باب حبّ البشر؟

ــ كلا، إنك تفتش دائماً عن الجانب السيء. ليس ذلك من باب حب البشر بل من باب الطيبة. كان لهما، أو على الأصح كان لفرونسكي مدرّبٌ انكليزي، قديرٌ جداً لكنه سكّير، أضاعه الشراب فترك عائلته بعد أن أُصيب بالهذيان

الرعاشي. لقد ذهبتْ لرؤيتهم، وأنجدتْهم، واهتمّتْ بهم، والأسرةُ كلها الآن على عاتقها، لكنها لا تقتصر على بذل المال لهم، إنها تعطي الصغار دروساً في الروسية لتهيئهم للمعهد، وجاءت بالصغيرة إلى بيتها. على كل حال، سوف تراها.

ولجت العربةُ الفناء، وقرع ستيفان أركادييفتش الجرس بقوة على باب المدخل الذي كانت تنتظر أمامه زلاجةٌ.

دخل أوبلونسكي البهو دون أن يسأل الخادم الذي فتح لهما الباب إن كان في البيت أحدٌ. كان ليفين يتبعه، وقد أخذت تقلّ ثقتُه بصحة هذه الخطوة التي يخطوها.

لاحظ ليفين، وهو ينظر في المرآة، أنه محمّر، لكنه كان واثقاً من أنه صاحٍ، وتبع ستيفان أركادييفتش الذي كان يصعد الدرج المغطّى بسجادة. وفي الطابق الأول سأل ستيفان أركادييفتش الخادمَ الذي حيّاه. سؤال من أكثر التردّد على المنزل، إن كان عند آنا أركادييفنا أحد، فأجابه أن عندها «فوركويف».

ـ وأين هما؟

ـ في المكتب.

اجتاز ستيفان أركادييفتش وليفين قاعة صغيرة للطعام نجارتُها الخشبية قاتمةُ اللون، ودخلا مكتباً فُرش بسجاد ناعم. وأضاءه مصباحٌ واحد ذو كمة داكنة. وكان في الجدار عاكس ينشر ضوءه على صورة امرأة بشخصها الكامل استرعت انتباه ليفين بالرغم منه. وكانت الصورةُ صورة آنا التي رسمها ميخايلوف. وبينما كان ستيفان أركادييفتش يمرّ خلف عريش من النباتات المعرّشة، وبينما صمت صوتُ الرجل الذي كان يُسمع في هذا الركن، كان ليفين يتأمل الصورة التي كانت تبدو. تحت النور الباهر، كأنما تريد أن تخرج من إطارها، ولم يستطع أن ينصرف عنها. بل لقد نسي أين كان، وظل معلّق العينين بالصورة الرائعة، دون أن يُصغي إلى ما كان يُقال له. لم تكن الصورة لوحةً وإنما كانت امرأةً فاتنة وحيةً بشعرها الأسود

الجعد، وكتفيها وذراعيها العارية، وبهذه الابتسامة الناعمة، المتأملة على شفتيها اللتين زانهما زغبٌ ناعم، وكانت تُلقي عليه نظرة رقيقة ومنتصرةً أدخلت الاضطراب على نفسه.

وسمع فجأةً بجانبه:

ــ أنا جد سعيدة.

كان الكلام مُوجّهاً إليه وكان هذا الصوتُ هو صوتُ المرأة التي أُعجب بصورتها. لقد أقبلتْ آنا عليه، وفي غبش الصالة الصغرى، شاهدها ليفين في ثوب أزرق، داكن، مشجّر. لم يجد الوقفة نفسها ولا التعبير نفسه لكنها كانت دائماً في هذه القمّة من الجمال التي ثبتّها الرسَّامُ على اللوحة. كانت أقل تألّقاً في الواقع لكنها كانت أكثر جاذبية.

[١٠]

لقد نهضت لاستقباله، دون أن تخفي الفرح الذي سبّبته زيارتُها. ومن اليُسر الذي به مدّت يدها الصغيرة والقوية إليه. وقدّمته إلى فوركويف، وأشارت له إلى طفلة صغيرة شقراء جالسة هنا تخيط، ودعتها يتيمة قاصرة في وصايتها، تعرّف ليفين بطرائق امرأة من الوسط الراقي، هادئة وطبيعية دائماً. وكان حساساً جداً لذلك.

ردّدت:

ــ أنا سعيدةٌ جداً، جداً.

وعلى شفتيها اكتست هذه الكلمات البسيطة معنى خاصاً، وأضافت:

ــ منذ زمن بعيد وأنا أعرفك وأحبك بسبب صداقتك مع ستيفا وبسبب زوجتك... لقد عرفْتُها فترةً قليلة من الزمن لكنها تركت في نفسي الأثر الذي تتركه الزهرةُ الرائعة، الزهرةُ، نعم، هذه هي الكلمة المناسبة. وعما قريب ستصبح أماً!

كانت تتكلم دون ارتباك ولا عجلة، ناقلةً، بين وقت وآخر، نظرها من ليفين إلى أخيها، وأدرك ليفين أنه وقع منها موقعاً حسناً، وأحسّ على الفور بالارتياح كما لو كان يعرف آنا منذ الطفولة.

وأجابت ستيفان أركادييفتش الذي سألها إن كان يستطيع أن يدخّن:

ــ من أجل هذا بالذات جئنا إلى مكتب الكسي، ايفان بيتروفتش وأنا.

وبعد أن ألقت على ليفين نظرة سريعة بدلاً من أن تسأله إن كان يدخّن، جذبت إليها علبة سجائر من الحرشف وتناولت منها سيجارة ملفوفة بورقة ذُرة.

سألها أخوها:

ــ كيف حالكِ اليوم؟

ــ لا بأس. الأعصاب، كالعادة.

قال ستيفان أركادييفتش الذي لاحظ أن ليفين تأخّر كثيراً عند الصورة:

ــ ألا تراها فائقة الجمال؟

ــ هذه أجمل صورة رأيتُها في حياتي.

قال فوركويف:

ــ وفائقة الشبه أيضاً، أليس كذلك؟

نقل ليفين نظره من الصورة إلى الأصل. استنار وجهُ آنا بضياء خاص عندما أحست بهذه النظرة تحدّق فيها. احمرّ ليفين وأراد أن يسألها، لكي يخفي اضطرابه، إن كانت لم تر داريا الكسندروفنا منذ زمن بعيد، لكن آنا وجّهت إليه الكلام، في هذه اللحظة بالذات:

ــ كنا نتحدث قبل لحظة، أنا وإيفان بيتروفتش، عن آخر لوحات «فاستشنكوف». هل رأيتها؟

أجاب ليفين:

ــ نعم.

ــ عفواً، لقد قاطعتُك، كنت تريد أن تقول. . .

سألها ليفين إن كانت لم تر دولي منذ زمن بعيد.

جاءت لزيارتي أمس. كانت جد غاضبة. يبدو أن استاذ اللاتينية في المعهد قاسٍ على غريشا.

قال ليفين وقد عاد إلى الحديث الذي بدأته:

ــ نعم، رأيت هذه اللوحات. ولم تعجبني كثيراً.

لم يكن ليفين يتكلم، هذه المرة، بجهدٍ، جهد الطالب المجدّ كما فعل في أحاديث الصباح. كانت كل كلمة مع آنا، لها معناها، كان الكلام معها ممتعاً، وأشدّ إمتاعاً منه الاستماع إليها. لم تكن آنا تعبّر عن ذاتها ببساطة وذكاء فحسب، بل إنها لم تكن تنزع في حديثها إلى التباهي ولم تكن تنسب لأفكارها أدنى قيمة. لقد كانت تمحّي أمام محدّثها.

ثم استقرّ الحديثُ على اتجاهات الفن الحديثة وعلى رسوم التوراة التي عملها رسّام فرنسي. وقد انتقد فوركويف الفنان على واقعيته التي بالغ فيها إلى حدّ الخشونة. وقال ليفين إن الفرنسيين قد أسرفوا في مواضعاتهم الفنية أكثر من غيرهم، ولذلك كانوا يرون أن في الرجوع إلى الواقعية مزيةٌ خاصة. كانوا يرون أمارات الشعر في كونهم كفّوا عن الكذب.

لم يتركْ أيٌّ من أحاديث ليفين الذكية ما تركه هذا الحديث من السرور. لقد استنار وجهُ آنا فجأةً. في اللحظة التي أحسّت فيها بوزن هذا التفكير. فأخذت تضحك، وقالت:

إني أضحك كما يضحك الناس عندما يرون صورة مشابهة للأصل كل المشابهة. وما قلته الآن يميّزُ الفنَّ الفرنسي المعاصر بدقة كبيرة سواء منه الرسم أم الأدب: زولا و «دوديه». لكن ربّما بنى الفنان أولاً تصوّراته بواسطة أشكال مخترعة أو اصطلاحية، وهو لا يبدأ بخلق أشكال أقرب إلى الطبيعة والدقة إلا

بعد أن تُستنفد جميع «التشكيلات» وبعد أن تغدو الأشكال المخترعة ثقيلة على النفس.

قال فوركويف:

ــ هذا صحيح كل الصحة.

وقالت وهي تلتفت إلى أخيها:

ــ وهكذا فقد ذهبتم إلى النادي؟

«نعم، نعم، إنها امرأة مدهشة!». كذلك فكّر ليفين وهو مستغرقٌ في تأمل هذا الوجه المتحرك الذي تحوّل قبل هنيهة تحوّلاً آنياً. لم يكن ليفين يسمع ما تقول لأنها كانت منحنيةً على أخيها، لكنه ذهل من تغيّر سحنتها. لقد غيّر فجأةً وجهُها الذي كان رائعاً قبل قليل بهدوئه، عن فضول غريب، وعن الغضب والكبرياء. لكن ذلك لم يدم سوى دقيقة. وأغمضتْ عينيها نصف إغماضة كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً ما. وقالت:

ــ على كل حال، هذا لا يعني أحداً.

وقالت للانكليزية:

ــ قدّمي الشاي، إذا شئتِ، في قاعة الاستقبال.

ونهضت الصغيرة وخرجتْ.

سألها ستيفان أركادييفتش:

ــ حسناً! وكيف كان فحصها؟

ــ رائعاً، إنها طفلة موهوبة جداً وحسنة الخلق.

ــ ستنتهين بأن تحبّيها أكثر من ابنتك.

ــ هذا حقاً حديثُ رجل. ليس في الحب أكثر أو أقلّ. إني أحب ابنتي على نحوٍ وأحبّ هذه على نحو آخر.

قال فوركوييف:

ـ كنتُ أقول بالضبط لآنا أركاديفنا أنها لو استخدمت واحداً بالمائة من الطاقة التي تبذلها لهذه الانكليزية الصغيرة في تربية الأولاد الروس لقامت بعمل عظيم، وبعمل مفيد.

ـ ماذا تريد مني، إني لا أستطيع. لقد شجعني كثيراً الكونت الكسي كيريلوفتش (عندما نطقتْ بهذا الاسم ألقت على ليفين نظرة وجلةً ومستفهمة، فأجابها على نحو لا إرادي بنظرة تنمّ على الاحترام والتأييد)، شجعني كثيراً على الاهتمام بمدرستنا في الريف، ولقد ذهبتُ إليها عدة مرات. إنهم في غاية اللطف، لكني لم أستطع الاهتمام بهذا المشروع. إنك تتحدّث عن الطاقة. الطاقة تقوم على الحب والحبُّ لا يؤمر به أمراً. أنا مشغوفة بهذه الطفلة، وأنا نفسي لا أدري لماذا.

ألقت مرة أخرى نظرة خاطفة على ليفين. وكانت ابتسامتُها ونظرتها تقولان إن هذا الكلام موجّهٌ إليه وحده، وأنها تقدّر رأيه تقديراً كبيراً وتعلم مسبقاً أنهما سيتفاهمان.

أجاب ليفين:

ـ إنني أفهم ذلك تماماً. فلا يستطيع الانسان أن يضع قلبه في مدرسة أو مؤسسة من هذا النوع، وأظن أنه لهذا السبب لا تعطي المؤسسات التي تهدف إلى الإحسان إلاَّ نتائج ضحلة.

سكتت ثم ابتسمت. وأيّدته قائلةً:

ـ نعم، نعم. إني لم أستطع قط. لستُ أملك قلباً كبيراً إلى الحد الذي يتّسع معه لأن أحب مشغلاً مملوءاً بالصغيرات البشعات. لم أفلحْ في ذلك قط. وكثير من النساء يبنين مركزهن الاجتماعي على ذلك.

وقالت بلهجة كئيبة ومطمئنة:

ـ وحتى في هذه اللحظة (كانت تبدو في الظاهر كأنها تكلّم أخاها، لكن من الواضح أنها لم تكن تخاطب إلا ليفين) وحتى في هذه اللحظة التي ربما كنت

بحاجة فيها إلى شغل يشغلني، فإني لا أستطيع.

وقطّبت بين حاجبيها (أدرك ليفين أنها تلوم ذاتها لأنها تحدّثت عن نفسها)، فغيّرت الحديث، وقالت لليفين:

ــ يُقال عنك إنك مواطن رديء. ولقد دافعتُ عنك قدر استطاعتي.

ــ وكيف ذلك؟

ــ كان الأمر متوقفاً على الانتقادات... لكنْ أتريد كأساً من الشاي؟

نهضت وتناولت دفتراً مجلداً بالجلد الملوّن.

قال لها فوركويف مشيراً إلى الدفتر:

ــ أعطيني هذا الدفتر، يا آنا أركادييفنا. إنه يستحق أن يُطبع.

ــ أوه! لا، إنه لم يكتملْ بعد.

قال ستيفان أركادييفتش لأخته وهو يشير إلى ليفين:

ــ لقد حدثته عنه.

ــ لا فائدة من ذلك. إن كتاباتي تشبه هذه السلال الصغيرة وتلك الأشياء المنحوتة التي يصنعها السجناء والتي كانت تبيعني إياها قديماً «ليزمير كالوف»، وكانت تهتمّ بالسجون (قالت ذلك ليفين). كان هؤلاء البؤساء يصنعون أشياء عجيبة مفرطة الدقة.

واكتشف ليفين سمةً جديدة في هذه المرأة التي فتنته بسحرها الأخّاذ. فقد كانت تتّسم بالاستقامة فضلاً عن الذكاء والرشاقة والجمال. ولم تكن تحاول أن تخفي عنه صعوبات وضعها. وبعد أن قالت ذلك تنهّدت واتخذ وجهُها تعبيراً صارماً، واكتسى صلابةَ الحجر. وكانت أجمل وهي هكذا. لكن هذا التعبير كان مختلفاً؛ كانت خارج دائرة التعبير عن ذلك الهناء المولّد للسعادة والذي التقطه الرسّامُ في صورتها. ونظر ليفين أيضاً إلى تلك الصورة بينما كانت تمسك بذراع أخيها وتقوده إلى الباب، وشعر نحوها بحنان وعطف أدهشاه هو نفسه.

رجتْ ليفين وفوركويف أن يدخلا الصالون، وتخلّفتْ هي لتحدّث أخاها.
وفكّر ليفين: «عمّ تحدّثه؟ عن طلاقها؟ عن فرونسكي؟ عمَّ يفعله في النادي؟ عني»؟. لقد هزّه هذا السؤال إلى الحد الذي لم يُعرْ فيه ما كان يقوله فيركويف أذناً صاغيةً، وكان يحدثه عن مزايا رواية آنا التي كتبتها للأطفال.

أثناء تناول الشاي، استأنفوا هذا الحديث الممتع والمليء بالمادة الدسمة. لم يكونوا فقط بغنى عن البحث عن موضوع للحديث، بل إنهم كانوا يحسّون، على العكس، بفيض من الأفكار المتواردة التي كانوا يصدونها وهم يستمعون بعضهم إلى بعض. كان كل ما يقوله فوركويف وستيفان أركادييفتش، لا آنا وحدها، يتخذ دلالةً خاصة بفضل انتباه ربة البيت وملاحظاتها: كان هذا هو انطباع ليفين على الأقل.

كان ليفين، وهو يتابع هذا الحديث، يتأمل جمال آنا، وفكرها، وثقافتها، وأيضاً بساطتها وأنسها. كان يصغي ويتكلّم، وهو لا يفكر إلا فيها، في حياتها الداخلية، وكان يحاول جاهداً أن يستشفّ عواطفها.

لقد غفر لها الآن، عبر مسيرة غريبة لأفكاره، وكان حكمه عليها من قبل جد قاسٍ، وفي الوقت نفسه، رثى لها وخشى ألا يفهمها فرونسكي فهماً كاملاً. وعندما نهض ستيفان أركادييفتش في الحادية عشرة ليستأذن (كان فوركويف قد ذهب)، خُيّل إلى ليفين أنه قد وصل لتوْه. فنهض بدوره على مضضٍ.

قالت له وهي تستبقي يده في يدها وتطيل فيه النظرَ:

ــ إلى اللقاء. أنا مسرورة لأن الجفاء بينكما قد زال.

أرخت يده وطرفت بعينيها، وأضافت:

ــ قلْ لزوجتك أنني أحبّها كما أحببتُها من قبل وأنها، إذا لم تستطع أن تغفر لي وضعي، فأنا أتمنى أن تظل دائماً على ما هي عليه. لكي يغفر الانسانُ لا بدّ له من أن يمرّ بما مررت به: وليحفظْها الله من ذلك.

قال ليفين وهو يحمرّ:

ــ سأبلّغها ما قلتِ، كوني واثقةً من ذلك.

[١١]

«يا لها من امرأة غريبة وفاتنة، وما أجدرها بالرثاء»!. كذلك كان ليفين يفكّر وهو ينغمس مرة أخرى في الهواء الجليدي مع ستيفان أركادييفتش.

قال ستيفان أركادييفتش وقد رأى ليفين مخلوب اللب:

ــ وماذا قلتُ لكَ؟

أجاب ليفين وهو ساهم الفكر:

ــ نعم، إنها امرأة نادرة! ليس فكرها وحده هو الذي يلفت النظر، بل وقلبها أيضاً. إنها تُثير منتهى شفقتي!

قال ستيفان أركادييفتش وهو يفتح باب عربته:

ــ الآن، سيُسوّى كل شيء عما قريب، ينبغي أن نؤمّل ذلك. أرأيت، ينبغي أن تحترس من الحكم في المستقبل. إلى اللقاء. فليس طريقنا واحداً.

على طريق العودة، لم يكفّ ليفين عن التفكير في آنا، وفي الأحاديث البسيطة التي تبادلاها. كان يستعيد في ذاكرته كل دقائق تعابيرها، ويحاول أن يضع نفسه موضعها، ويشعر نحوها بشفقة عميقة.

في البيت، أنبأه «كوزما» أن كاترين الكسندروفنا في صحة جيدة، وأن أختيها انصرفتا قبل قليل، وسلّمه رسالتين. قرأهما ليفين رأساً في البهو لكي لا ينشغل بهما فيما بعد. كانت الرسالة الأولى من مدير أعماله «سوكولوف». وقد كتب أنه لم يُفلح في بيع الحنطة، وأن السعر الذي دُفع له هو خمسة روبلات ونصف، وأنه لا يعلم من أين يأتي بالمال. وكانت الرسالة الثانية من أخته، وهي تلومه فيها على أنه لم يسوِّ لها قضيتها بعد.

«حسناً! سنبيع الحنطة بخمسة روبلات ونصف بما أن المشترين لا يدفعون أكثر من ذلك». هكذا قرّر ليفين، حاسماً بخفة مسألةً بدتْ له من قبل جد مُربكة. وقال في نفسه وهو يفكّر في الرسالة الثانية. «غريب، فهنا لا يجد المرءُ دقيقة واحدةً». وأحسّ بالذنب تجاه أخته لأنه لم يحقّقْ لها ما طلبته. «لم أذهبْ اليوم بعدُ إلى المحكمة، لكني لا أجد متّسعاً من الوقت، في الحقيقة». ومضى إلى غرفة زوجته وقد عزم أن يقوم حتماً بمسعاه غداً. وفي طريقه، استعرض بسرعة ذكرى يومه الذي انصرم. كانت أحداث اليوم عبارة عن أحاديث، أحاديث استمع إليها وشارك فيها. وكانت كلها تدور على موضوعات ما كان ليقف عندها، لو كان وحده في الريف. لكن هذه الأحاديث كانت تكتسي أهميةً هنا. وعلى الاجمال، لقد شارك فيها مشاركة حسنة: لم يجد ما يلوم نفسه عليه سوى فكرة السمكة التي ذكرها وسوى شفقته الرقيقة على آنا، وهي شفقة ربما كانت جديرة باللوم.

وجد ليفين زوجته حزينةً، بلا عمل. كان عشاء الأخوات الثلاث بهيجاً، لكنهن انتظرنه بعد ذلك، وأصابهن الضجرُ، وانصرفتْ الأختان وبقيت هي وحدها.

وسألته وهي تنظر إلى عينيه اللتين التمعتا ببريق مشبوه:

ــ وأنتَ، ماذا فعلتَ؟

ولكي لا تمنعه من أن يروي كل ما عنده، أخفتْ شكوكها وأصغتْ إليه وهو يقص قصة أمسيته وعلى وجهها ابتسامة الاستحسان.

قال:

ــ كنتُ مسروراً جداً برؤية فرونسكي. شعرتُ بالارتياح الشديد معه. أنت تفهمين أنني سأبذل وسعي، الآن، لكي لا ألقاه، لكنْ لن يكون بيننا ذلك التحرّج.

وتذكّر أنه حين بذل وسعه لكي لا يلقاه قصد مباشرة إلى منزل آنا، فعلته الحمرةُ. وأضاف:

ـ نحن نقول: إن أبناء الشعب يسرفون في الشراب؛ إني أتساءل مَنْ يشرب أكثر، أبناء الشعب أو أبناء عالمنا الراقي؛ أبناء الشعب، على الأقل، لا يشربون إلا في أيام الأعياد... لكن هذه التأملات لم تكن تَعْني كيتي. لقد رأته يحمرّ وأحبّت أن تعلم لماذا.

ـ وأين ذهبتَ بعد ذلك؟

ـ لقد أصرّ عليّ «ستيفا» كثيراً لكي أرافقه إلى منزل آنا أركاديفنا.

بعد أن قال ليفين ذلك ازداد احمراراً. لقد تبدّدت شكوكُه، وعلم الآن أنه ما كان يجب أن يقوم بهذه الزيارة.

جحظتْ عينا كيتي، عندما سمعت باسم آنا، وأرسلتا بريقاً، لكنها بذلت جهداً كبيراً لتكبت انفعالها، ونجحت في خداع زوجها. قالت ببساطة:

ـ آه!

ـ لا ينبغي أن يغضبك ذلك. ستيفا هو الذي طلب ذلك مني، كما أن دولي ترغب فيه أيضاً.

قالت:

ـ أوه! لا.

لكنه رأى في عينيها إكراهها لنفسها الذي لا يبشّر بخير.

استأنف كلامه على آنا، واهتماماتها، ناقلاً إلى كيتي ما كلّفته آنا قوله لها:

ـ إنها امرأة فتّانة وطيبة وجديرة حقاً بالرثاء.

فقالت كيتي عندما فرغ من كلامه:

ـ نعم، بالتأكيد، إنها جديرة حقاً بالرثاء. مَنْ كتب إليك؟

فأخبرها ومضى ليخلع ثيابه، ثقةً منه بهدوئها. عندما عاد وجد كيتي في المقعد نفسه. وعندما اقترب منها، رفعتْ عينيها إليه وانفجرت باكيةً. فسألها:

ـ ماذا جرى؟ ماذا جرى؟

مع علمه المسبق بالذي جرى.

ـ لقد وقعتَ في حب هذه المرأة الشريرة، لقد سحرتكَ. رأيتُ ذلك في عينيك. بلى، بلى! إلى أين سيؤدي ذلك؟ شربتَ في النادي، شربتَ وقامرتَ، وبعد ذلك ذهبتَ... وإلى أين! لا، فلْننصرفْ... سأسافر غداً.

ظلّ ليفين زمناً طويلاً دون أن يستطيع تهدئه امرأته. ولم ينجح في ذلك إلا عندما اعترف لها بأن الشفقة الممتزجة بفعل الخمر قد أفقدتْه رشده وأنه خضع لتأثير آنا الخبيث، لكنه سيتحاشى ذلك التأثير منذ الآن. وكانت أكثر لحظاته صدقاً هي اللحظة التي اعترف فيها بأنه إذا عاش حياته على هذا النحو في موسكو، بين الثرثرة والشرب والأكل فسوف يتحوّل إلى رجل غبـيّ تام الغباء. تحدّثا حتى الساعة الثالثة صباحاً. وفي الساعة الثالثة فقط تصالحا إلى الحد الكافي الذي سمح لهما بالنوم.

[١٢]

بعد أن شيّعت آنا ضيوفها، أخذت تذرع الغرفة طولاً وعرضاً بدلاً من أن تجلس. لقد بذلت وسعها أثناء هذه الأمسية لتوقظ حبّ ليفين، وإن كان ذلك على نحو غير واعٍ، (في الآونة الأخيرة، كانت تسلك هذا السلوك مع جميع الشباب). ومع أنها كانت تعلم أنها قد بلغت أربها بقدر إمكانها مع رجل متزوج وشريف، وفي أمسية واحدة، ومع أن ليفين أعجبها كثيراً (من وجهة نظر الرجل، كان ليفين وفرونسكي مختلفين جذرياً، لكنها استشفت، من حيث هي امرأة، ما هو مشترك بينهما وما يفسّر شغف كيتي بهذا وبذاك)، إلا أنها كفّتْ عن التفكير فيه منذ أن انصرف.

فكرةٌ واحدةٌ لا تتغيّر ظلّت تعذّبها بلا هوادة وبأشكال مختلفة: «إذا كنتُ أحدثُ مثل هذا التأثير في الآخرين، في هذا الرجل المتزوج والعاشق، فلمَ هو بارد

تجاهي؟ . . . على كل حال، إنه ليس بارداً. إنه يحبني. أنا أعلم ذلك. لكن شيئاً جديداً يفصل بيننا الآن. لما ظلّ غائباً الأمسيةَ كلها؟ لقد أبلغني بطريق «ستيفا» أنه لا يستطيع أن يترك إياشفين وأنه سيراقب لعبه. هل إياشفين طفل؟ ولنفرض أن ذلك صحيح، فهو لا يكذب أبداً، فإن في الأمر شيئاً آخر. إنه مسرور بهذه المناسبة لكي يظهر لي أن عليه واجبات أخرى. إني أعلم ذلك وأوافق عليه، فما حاجته إلى أن يبرهن لي على ذلك؟ لستُ بحاجة إلى البراهين وإنما أنا بحاجة إلى الحب وحده. ينبغي أن يدرك كم تشق عليّ هذه الحياة في موسكو. أأنا عائشةٌ؟ لستُ عائشةً، وأنا أنتظر حلاً يمتدّ ويمتدّ. ولا جواب! ستيفا يقول إنه لا يستطيع أن يذهب إلى الكسي الكسندروفتش. وأنا لا أستطيع أن أكتب إليه مرة أخرى. لا أستطيع أن أفعل شيئاً، أو أن أبدأ شيئاً، أو أن أغيّر شيئاً: إني أكظم غيظي، أنتظرُ مخترعةَ التسليات: عائلة الانكليزي، كتابـي، المطالعة، كل ذلك لكي أخدع نفسي، إنه نوع آخر من المورفين. ينبغي أن يرثي لحالي. قالت ذلك وأحسّت أنها توشك أن تبكي على نفسها.

سمعتْ قرع فرونسكي المفاجىء للجرس فسارعت إلى مسح دموعها؛ ولم تمسح دموعها فحسب بل إنها جلست أيضاً تحت المصباح وفتحت كتاباً، وهي تتظاهر بالهدوء. ينبغي أن تُظهر له استياءها من أنه لم يرجع كما وعد، أن تظهر استياءَها فقط، وينبغي أن تُخفي حزنها ولا سيّما إشفاقها على نفسها. يمكنها أن تشفق على نفسها أما هو فلا. إنها لا تحب الصراع، وهي تلومه على أنه يريد الصراع، لكنها كانت تتّخذ، على نحو لا إرادي، موقعاً قتالياً.

قال لها بلهجة مرحة، مليئة بالحيوية وهو يدنو منها:

ــ ألم تضجري؟ أي هوى رهيب هو القمار!

ــ لا، فقد تعلّمت، منذ زمن بعيد، ألا أضجر. جاء ستيفا ليراني مع ليفين.

قال لها وهو يجلس بجنبها:

ــ نعم، كانا ينويان أن يمرّا عليك. هل أعجبكِ ليفين؟

ــ كثيراً. ذهبا منذ زمن غير بعيد، وماذا فعل إياشفين؟

ــ ربح سبعة عشر ألف روبل. نجحت في ثَنْيه عن اللعب وكان على وشك الانصراف، بيد أنه رجع وأخذ يخسر.

سألته وهي ترفع عينيها إليه فجأةً. وكان تعبير وجهها بارداً وعدائياً.

ــ إذن لماذا بقيتَ؟ قلتَ لستيفا إنك باقٍ لتأتي بإياشفين، ثم تركتَه هناك.

نطقَ وجه فرونسكي بنفس التصميم على الصراع، فقال وهو يقطّب بين حاجبيه:

ــ أولاً لم أكلّفه أية مهمة إليكِ؛ ثانياً إني لا أكذب أبداً. وعلى الخصوص... إني بقيت لأني اشتهيتُ أن أبقى.

وأضاف بعد دقيقة صمت، وهو ينحني عليها ويفتح يده آملاً أن تضع يدها عليها:

ــ آنا، لماذا، لماذا؟

اغتبطتْ بهذه الدعوة إلى الحنان، لكن قوّةً غريبةً وشريرة منعتها من الاستسلام لحركتها الأولى، وكأن شروط الصراع تحرّم عليها الخضوع. فقالت له وقد أخذت تحتدّ شيئاً فشيئاً:

ــ من الطبيعي أنك بقيتَ لأنك اشتهيتَ أن تبقى. أنت تفعل كل ما تريد. لكنْ لماذا تقول لي ذلك. هل أنكر عليك أحدٌ حقوقك. تريد أن يكون الحق معك؛ فَلْيكنْ الحق معك.

انغلقت يد فرونسكي ثانيةً. فأعرض عنها واكتسى وجهُه تعبيراً أشد عناداً.

قالت وهي تنظر إليه بإصرار، بعد أن وجدت فجأة إسم ذلك التعبير الذي غاظها: العناد:

ـ الأمر، بالنسبة إليك، قضية عناد لا غير. المسألة، بالنسبة إليك، هي أن تعلم إن كنتَ ستتغلّب عليّ، أما أنا. . .

وانتابتها مرة أخرى بوادرُ الشفقة على ذاتها وكادت تتفجر باكيةً. وأضافت:

ـ ليتك تعلم ما الذي يدور في نفسي! عندما أحس، كما أحسّ في هذه اللحظة، أنك تعاملني كعدوة، نعم، كعدوة، فيا ليتك تعلم ما الذي يعنيه ذلك عندي! في هذه الآونة، أحسّ أنني قريبة من الكارثة، فأخاف، أخاف من نفسي!

وانثنت عنه لتخفي نحيبها.

ارتعبَ من هذا التعبير عن اليأس، فانحنى من جديد نحوها وتناول يدها وقبّلها، وقال:

ـ لكنْ عمّ تتحدّثين؟ لماذا؟ وهل فتشتُ عن اللهو خارج البيت؟ ألست أهرب من صحبة النساء؟

قالت:

ـ لن ينقصنا إلا هذا!

قال وقد تأثر بأمارات يأسها:

ـ إذنْ، أخبريني بما ينبغي فعله لتكوني هادئة البال. أنا مستعدٌ للقيام بأي عمل تكون فيه سعادتك. ولن أحجم عمّا يجنّبك الحزن، كحزنك، في هذه اللحظة، آنا!

فعادت إلى القول:

ـ لا قيمة لهذا، لا قيمة لهذا! لا أدري أنا نفسي ما الذي يصيبني: الوحدة، الأعصاب. . . دعْنا من ذلك.

وسألته وهي تحاول جاهدة أن تخفي انتصارها، لأنها هي التي انتصرت:

ـ والسباق؟ لم تروِ لي ما جرى.

طلب أن يُقدَّم إليه العشاء، وأعطاها بعض التفصيلات عن السباق: لكنها رأتْ، من صوته، ومن نظراته التي أخذت تفتر شيئاً فشيئاً، أنه لن يغفر لها انتصارها، وأن ذلك العناد الذي ناضلت ضده استقرّ من جديد في نفسه. لقد غدا أكثر برودة معها من ذي قبل، وكأنه ندم على خضوعه. أما هي فعندما تذكّرت كلماتها التي منحتْها الغلبةَ: «أنا على حافة كارثة فظيعة، وأنا خائفةٌ من نفسي»، أدركتْ أن ذلك سلاحٌ خطر وأنها لا ينبغي لها أن تستخدم مرةً أخرى هذا السلاح. وأحسّتْ أنه، إلى جانب الحب الذي يجمعهما، قد قام بينما روحُ الصراع، وهو روح خبيث لا تستطيع أن تطرده من قلب فرونسكي أو من قلبها.

[١٣]

ليس من وَضْع لا يستطيع الرجل أن يتعوّده، ولا سيما إذا رأى جميع الذين يحيطون به يفعلون الشيء نفسه. ما كان ليفين ليصدق، قبل ثلاثة أشهر، أنّ بإمكانه أن ينام نوماً هادئاً بعد مثل هذا اليوم؛ فبعد أن عاش حياةً منافية للعقل ولا هدف لها، وأسوأ من ذلك أنها فوق قدراته المادية، وبعد أن سكر في النادي (لم يكن بوسعه أن يُسمّي ما حدث بغير هذا الاسم) فأظهر صداقةً لا مكان لها لرجل كان عاشقاً لكيتي قديماً، وبعد زيارة أقل ملاءمة أيضاً لإمرأة لا يُمكن أن تُعتبر إلا امرأة ساقطة، امرأة امتلأ إعجاباً بها، والغم يملأ صدر كيتي، استطاع أن يغفو بهدوء في هذه الشروط. بيد أنه نام نوعاً عميقاً، بتأثير التعب، وليلة السهاد والخمر.

في نحو الساعة الخامسة، أيقظه صوت باب يُفتح. فوثّب ونظر حوله. لم تكن كيتي بجنبه. لكنه رأى خلف الحاجز ضوءاً يتحرّك وسمعَ خطواتها.

فهمهم وهو نصف غافٍ:

ـ ماذا؟ ماذا جرى؟ كيتي! مالك؟

قالت وهي تعود إلى الظهور، وفي يدها شمعدانٌ صغير:

ـ لا شيء.

وأردفت وعلى شفتيها ابتسامة بالغة الرقة والدلالة:

ـ كنتُ أحسّ بشيء من التوعك.

فقال وهو مرتعبٌ.

ـ هل بدأ... ؟ ينبغي أن نستدعي الطبيب.

وأراد أن يرتدي ثيابه على الفور.

قالت وهي تبتسم وتَثْنيه عن قصده:

ـ لا، لا. الأرجح أن ذلك ليس شيئاً ذا بال. شعرتُ بشيء من الضيق فقط. وقد زال الآن.

دنتْ من السرير، وأطفأت الشمعة، وتمدّدت ولزمتْ الهدوء. ومع أن أنفاسها الحصيرة، وعلى الخصوص تلك اللهجة المتوترة والمتوثّبة على نحو غريب، تلك اللهجة التي قالت بها: «ليس ذلك شيئاً ذا بال» بعد عودتها من حجرة الزينة قد أثارت شكوكه، إلا أن النعاس قد راوده بقوة حتى نام من فوره. وفيما بعد فقط تذكّر هذه الأنفاس الحصيرة وخمّن كل ما جرى في هذه النَفْس الساحرة بينما كانت مستلقية بجنبه دون حراك، بانتظار أشد اللحظات جلالاً في حياة امرأة. وفي الساعة السابعة، انتزعه من نومه مسُّ يدها لكتفه وهمسٌ خفيف. بدت كأنها موزعة بين أسفها على إيقاظه ورغبتها في الكلام إليه.

ـ كوستيا، لا تخفْ، ليس ذلك شيئاً ذا بال. لكنْ يلوحُ لي... ينبغي أن تذهب وتأتي باليزابيت بيتروفنا.

أُضيئتْ الشمعة من جديد. وأمسكت كيتي التي كانت جالسةً في سريرها، بشغلها الذي اشتغلت به في هذه الأيام الأخيرة.

قالت وهي تلمح وجهَ زوجها القلق:

ـ أرجـــوكَ، لا تخـفْ، ليـسَ ذلـك شيئـاً ذا بـال. لسـتُ خـائفـة علـى الإِطلاق.

وشدّتْ يدَ ليفين على صدرها، ثم على شفتيها.

وَثبَ بعجلة من سريره إلى الأرض، وقد خرج عن طوره، وارتدى مبذله دون أن يرفع عينيه عنها، ثم تجمّد هكذا. كان ينبغي له أن يترك الغرفة. لكنه لم يستطع أن يُزيح بصره عنها. هذا الوجه الذي أحبه كثيراً، والذي يعرف أقل تعبير فيه، لم يره قط على هذا النحو. وكم كان تصرّفه البارحةَ دنيئاً وكريهاً. حين تذكّر الحزن الذي سبّبه لها، في حالتها هذه! إن وجه كيتي المتضرّج بالحمرة، والذي تُحيطُ به خصلات حريرية تفلّتتْ من قبّعتها الليلية، كان يلتمع بالعزم الفَرِح.

مهما تكن كيتي طبيعية وبسيطة فإن ليفين ذهل ممّا انكشف له، الآن وقد انزاحتْ جميعُ الحجب، الآن وقد كان جوهر روجها يتسرّب إلى عينيها. فهذه البساطة وذلك العريُ كشفا النقاب عمّن يُحبّ. كانت تنظر إليه وهي تبتسم؛ لكن حاجبيها تقلّصا فجأة ورفعت رأسها؛ دنتْ من زوجها وتناولت يده وضغطت بها على جسدها وهي تغمرها بأنفاسها الملتهبة. كانت تتألم وكأنما تشكو له آلامَها. وفي اللحظة الأولى، انتابَه، كعادته، شعورٌ بالإِثم. لكن نظرة كيتي أرتْه حناناً يقول: إنها لا تمتنع عن لومه فحسب بل إنها تحبّه من أجل هذه الآلام. وقال في نفسه على نحو لا إرادي، وهو يسعى إلى الكشف عن مسبّب هذا العذاب ليعاقبه: «على مَنْ يقع الخطأ إذن، إنْ لم يكنْ عليّ؟»؛ لكنه لم يجد ذلك المسبّب، كانت تتوجّع، وتشكو، لكنها كانت تنتصر: كانت تحبّ هذا العذاب الذي يغمرها بالفرح. وأحسّ أن روحها تبلغ الأعالي لكنه لم يكن يستطيع أن يلحق بها. كان ذلك يفوق إدراكه.

ـ سأخبر أمي، أما أنت فاذهب وَآتِ باليزابيت بيتروفنا. . . .

كوستيا! . . . لا، ذهب الألم.

وقامت لتقرع الجرس.

ــ قمْ الآن، ستأتي «باشا»، أشعر بالتحسّن.

ودهش ليفين عندما رآها تستأنف شغلها.

بينما كان يخرج من باب، دخلت الخادمة من باب آخر. فوقف وسمع كيتي تلقي عليها تعليمات مفصّلة، وهي تساعدها على نقل السرير.

ارتدى ثيابه، وبينما كانت العربة تُعَدّ (لم يكن هناك من عربة أجرة في هذه الساعة)، رجع على عجل إلى غرفة النوم، لا على رؤوس أصابعه، بل خطفاً: على الأقل كذلك كان إحساسه. كانت فيها خادمتان منهمكتان في تغيير مواضعِ بعض الأشياء. وكانت كيتي تتمشّى وهي تسرد، كانت تصفّ السردات بعصبية، وهي تلقي أوامراها.

ــ سأذهب إلى الطبيب. بعثت من يخبر اليزابيت بيروفنا لكني سأمُرُّ عليها حبّاً بالاطمئنان. هل تحتاجين إلى شيء آخر. هل نستدعي دولي؟

ــ نظرت إليه: وكان ظاهراً أنها لم تكن تصغي إليه.

قالت بحيوية وهي تقطّب بين حاجبيها وتشير إليه بالابتعاد:

ــ نعم، نعم، اذهبْ.

بينما كان يجتاز قاعة الاستقبال، تناهى إلى سمعه أنينٌ شاك، ما لبث أن اختنقَ. فتوقف وظل برهةً طويلة دون أن يفهم.

وقال في نفسه وهو يمسك رأسه بكلتا يديه: «نعم، إنها هي». ونزل الدرج راكضاً.

ــ يا إلهي، ارحمنا! اغفرْ لنا، ساعدْنا! أخذ يردّد هذه الكلمات التي صعدتْ فجأة إلى شفتيه. لم يكن يلفظها فقط بشفتيه، مع أنه لم يكن مؤمناً. في هذه اللحظة، كان يعلم أن لا شكوكه ولا استحالة التوفيق بين العقيدة والعقل، وهي استحالة كان يعرفها جيداً، تمنعه إطلاقاً من التوجه إلى الله. لقد تبدّد دخاناً

ذلك كله الآن. وإلى مَنْ يتوجه إلا إلى ذاك الذي يحسّ أنه يملك بين يده روحه وحبه وشخصه بأكمله؟

لم يكن الجواد قد رُبط بعد؛ لكنه كان يشعر أن انتباهه وجميع قواه الجسدية مشدودة نحو ما يجب فعلُه، ولكي لا يضيع دقيقة واحدة ذهب مشياً دون أن ينتظر أكثر مما انتظر وأمر كوزما أن يلحق به.

في ركن من الشارع، التقى زلاجة تسير بسرعة، وكانت اليزابيت بيتروفنا فيها، وقد ارتدت سترة من المخمل، ولفّت رأسها بخمار. فتمتم في نفسه وقد تعرّف بفرح وجهها الصغير المدوّر الذي اكتسى، في هذه اللحظة تعبيراً غريب الرصانة والقسوة: «شكراً لله! شكراً لله!» واستدار وأخذ يركض بحذاء الزلّاجة، دون أن يأمر الحوذي بالوقوف.

سألتْه:

ـ منذ ساعتين، قلتَ؟ لا أكثر؟ سوف تجد بيير دميتريفتش في منزله، لكنْ لا تستعجلْه. وهات أفيوناً من الصيدلية.

ـ أتعتقدين أن الأمور ستكون على ما يُرام.

وقال في نفسه وهو يشاهد زلاجته تجتاز باب العربات: «يا إلهي ارحمنا، وأنجدْنا!». ووثب إلى جنب كوزما وأمره أن يمضي إلى منزل الطبيب.

[١٤]

لم يكن الطبيب قد نهض بعد، وأعلن خادمُه أن معلّمه نام متأخّراً وطلب ألا يوقظه أحد، وأنه سينهض بعد قليل. كان الرجل يمسح زجاج المصباح، وهو عملٌ بدا كأنه يستغرقه استغراقاً عميقاً. إن عناية الخادم بزجاج المصباح ولا مبالاته إزاء الحدث الذي طرأ في بيت ليفين، أدهشا ليفين في أول الأمر، لكنه أدرك بعد لحظة من التفكير أنْ لا أحد يعرف أو يحرص أن يعرف عواطفه، وأنّ عليه أن يتصرف

بهدوء ورزانة وعزم لكي يخرق جدار اللامبالاة هذا ويصل إلى هدفه. قال ليفين بينه وبين نفسه: «يجب ألا أستعجل وألا أهمل شيئاً»: لقد أحسّ أن مدّخرات متزايدة من القوة الجسدية ومن الانتباه تتدفّق في كيانه، تحسباً لكل ما بقي عليه أن يفعله.

عندما علم ليفين أن الطبيب لم ينهض بعد، قرّر أن يختار الخطة التالية من بين الخطط التي خطرت له: سيحمل «كوزما» رسالةً إلى طبيب آخر وسيذهب هو إلى الصيدلية ليؤمّن الأفيون، وإذا لم يكن الطبيب مستيقظاً بعد عندما يعود فسوف يرشو الخادم أو يستخدم القوة، في حالة الرفض، ليوقظ الطبيب مهما كلّف الأمر.

في الصيدلية، كان المُحضِّر المسرف الهزال يضع مسحوقاً في مغلّفات من الخبز الفطير لحوذي كان ينتظر. ولقد أبدى اللامبالاة نفسها التي أبداها الخادم وهو يلمّع زجاج المصباح، ورفض أن يعطي الأفيون. فحمل ليفين نفسه على الهدوء والصبر ورأى من واجبه أن يقنعه بإعطائه اسم الطبيب واسم القابلة وشرح له سبب حاجته إلى الأفيون. وفاوض المحضِّرُ بالألمانية شخصاً وراء الحاجز الفاصل، وعندما حصل على الإذن بتسليم الدواء، جاء بقمقمين وقمع، وملأ بهدوء القمقم الصغير مما يحتويه القمقم الكبير، وألصق عليه علامة ختمها بختمه، رغم احتجاجات ليفين، وأراد أن يغلّفها. لكن صبر ليفين نفد، في هذه المرة: فانتزع القمقم من بين يدي المحضّر بعزم ومضى راكضاً.

لم يكن الطبيب قد نهض بعد، ورفض الخادم إيقاظه فأخرج ليفين بهدوء ورقة بعشرة روبلات، ومدّها إلى الخادم وبيّن له، وهو يشدّد على كل كلمة من كلماته، أن «بيير دميترفيتش» (كم بدا عظيماً وهاماً الآن، في عيني ليفين، ذلك الشخص الذي كان حتى هذه اللحظة هزيلاً جداً) وعده بالمجيء في أية ساعة، يشاء، وأنه لن يغضب، وأنه يستطيع أن يوقظه على الفور.

قبلَ الخادم، وصعد إلى الطابق الأول، ورجا ليفين أن يدخل قاعةَ الانتظار.

سمع ليفين الطبيب خلف الباب، يسعل ويغتسل ويمشي ويتكلّم. ومرَّت ثلاث دقائق بدت لليفين كأنها أكثر من ساعة. ولم يعد بإمكانه أن ينتظر.

فقال بصوت متوسّل وهو يشقّ الباب:

ــ بيير دميتريفتش، بيير دميتريفتش! اغفرْ لي، بالله عليك! لكن استقبلْني كما أنت. ها قد مضت ساعتان منذ أن بدأ الوجع.

أجابه صوتٌ:

ــ على الفور، على الفور!

ودهش ليفين إذ أحسّ أن الطبيب كان يقول ذلك وهو يبتسم.

ــ لن أحتاج إلا إلى أقل من دقيقة.

ــ على الفور.

مرَتْ دقيقتان قبل أن يحتذي الطبيب جزمته ودقيقتان أخريان قبل أن يرتدي سترته ويمتشط.

فاستأنف ليفين بصوت شاكٍ.

ــ بيير دميتريفتش!

وفكّر ليفين: «هؤلاء الناس لا ضمير لهم، هم يمتشطون ونحن نهلك!».

قال له الطبيب وهو يتناول يده وقد بدا عليه الهدوء وكأنه يريد أن يزدريه:

ــ مرحبا! ما بك؟ لا داعيّ للعجلة.

حين حاول ليفين جاهداً أن يروي له قصته بأكبر قدرٍ ممكن من التفصيل، بدأ برواية تفاصيل لا فائدة منها. تتعلق بحالة امرأته الصحية؛ وكان يقطع روايته، في كل لحظة، ليحث الطبيب على الذهاب معه في الحال.

ــ على مَهْلكَ، ولا تُصَبْ بالذعر. ليس لك تجربة، فيما أرى، ولا أعتقد أن حضوري ضروري، لكني وعدت، وسوف آتي إذا شئتَ. لا داعي للعجلة. اجلسْ، أرجوك، أؤقدّم لك القهوة؟

تطلّع إليه ليفين كمَنْ يسأله إن لم يكنْ يهزأ به. لكن الطبيب لم يخطرْ بباله أن يهزأ. فقال وهو يبتسم:

ــ إني خبير بذلك. وأنا أيضاً متزوّج. نحن الأزواج باهتون أثناء هذا الوقت بالذات. إن لي زبونة هنا ينهزم زوجها دائماً كلما جاءها المخاض.

ــ ما رأيك، بيير دميتريفتش؟ أتظن أن الأمور ستمر بسلام؟

ــ كل المعطيات تبشّر بحسن العاقبة.

قال ليفين وهو يرمي بنظرته السامة الخادم الذي دخل ومعه القهوة:

ــ إذن، ستأتي على الفور؟

ــ بعد حوالى الساعة.

ــ ناشدتكَ الله!

ــ دعني، على الأقل، أشرب قهوتي.

صبّ الطبيبُ لنفسه قهوة. وصمتا كلاهما.

قال الطبيب وفمُه مملوءٌ بالقهوة:

ــ ما رأيك، يبدو أن الترك أخذوا ينهزمون حقاً. هل قرأتَ البلاغَ الأخير؟

قال ليفين وهو ينهض فجأةً:

ــ آه! لم أعدْ أحتمل ذلك. هل تكون عندي بعد ربع ساعة؟

ــ بعد نصف ساعة.

ــ كلام شرف؟

عندما وصل ليفين إلى البيت، نزل من عربته في الوقت نفسه الذي نزلت فيه الأميرة. فصعدا معاً إلى غرفة النوم. كانت عينا الأميرة مغرورقتين بالدموع وكانت يداها ترتجفان. وعندما شاهدت ليفين أخذته بين ذراعيها وهي تبكي. وقالت وهي تمسك بذراع القابلة التي أقبلت عليهما بوجه مشرق ومهموم في آن واحد. وقالت:

ــ الأمور تسير في طريقها السليمة. اقنعيها بالتمدّد، فذلك أسهلُ عليها.

منذ اللحظة التي استيقظ فيها ليفين وأدرك حقيقة الأمر، هيّأ نفسه لتحمّل الحدث. دون أن يشغله شاغل ودون أن يتوقع شيئاً، مخبّئاً جميع عواطفه وجميع أفكاره: إنه سيشدّ من عضد امرأته ويقوّي عزيمتها ولن يثبّطها. ولقد امتنع حتى عن التفكير فيما سيقع وفي عاقبة ذلك كله، فاستعد لأن يتجلّد ويمسك قلبه بكلتا يديه مدة خمس ساعات، بناءً على التقديرات المعتادة، وبدا له ذلك ممكن التحقيق. لكنه لما عاد من عند الطبيب وشهد من جديد أوجاع كيتي أخذ يردّد ويكثر من الترديد: «يا إلهي، اغفرْ لنا، وامنحْنا عونك!»، وأخذ يتنهد ويرفع رأسه إلى السماء، واستولى عليه الرعب من أنه لن يستطيع أن يتحمّل هذا المشهد، ومن أنه سينفجر باكياً أو سيهرب: سوف يقاسي عذاباً حقيقياً. هذا ولم تمض بعد سوى ساعة واحدة.

بعد هذه الساعة، مرّت ساعةً أخرى، ثم ساعتان، ثم ثلاث: انقضت الساعات الخمس التي عيّنها حداً أقصى لصبره والوضع ما يزال كما كان، وصَبرَ على الضيم لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الصبر على الضيم، وفي كل لحظة، كان يعتقد أنه قد بلغ غاية المكابدة وأن قلبه سيتحطّم من الشفقة.

لكن الدقائق، ثم الساعات كانت تتوالى وكان الشعورُ بآلامه ورعبه ينمو من لحظة إلى لحظة.

كل الشروط العادية للحياة، وهي شروط لا يمكن تصوّر شيء خارجاً عنها، قد كفّت عن الوجود بالنسبة إلى ليفين. لقد فقد مفهوم الزمن. فتارة تبدو له الدقائقُ ساعاتٍ عندما تدعوه كيتي إلى جنبها وعندما يمسك يدها الرطبة التي كانت تشدّ على يده بقوة لم يعهدها، لتصدّه بعد ذلك ثانية، وتارة تبدو له الساعات دقائق. ودهش عندما رجته اليزابيت بيتروفنا أن يشعل شمعة خلف الحاجز، فرأى أن الساعة قد بلغت الخامسة مساءً. ولو قيل له إن الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً لدهش أيضاً. ولم يكن يعلم أين كان في هذا الوقت ومتى. كان وجه كيتي

المحمّر أمام عينيه: كانت تبدو أحياناً مدهوشة من ألمها، وكانت أحياناً أخرى تبتسم له ابتسامة مطمئنةً. وكان يرى الأميرة وهي تبلع دموعها وتعضّ شفتيها، وقد احمّرتْ وتشنّجتْ وتناثرت خصلها الرمادية. كان يرى أيضاً دولي، والطبيب وهو يدخّن سيجارات غليظة، واليزابيت بيتروفنا بوجهها القوي المشجّع، والأمير العجوز الذي كان يذرع قاعة الاستقبال، وهو مقطّب الحاجبين. أما كيف كانوا يدخلون ويخرجون، وأين كانوا يقفون، فذلك ما كان يجهله. وكانت الأميرةُ مع الطبيب في غرفة النوم حيناً، وحيناً آخر، في المكتب حيث مُدّت المائدةُ، وفي بعض الأحيان كانت كيتي تقوم مقامها. وفيما بعد، تذكّر ليفين أنه قد أُرْسِلَ لشراء بعض الحاجات، وأنه قد طُلب إليه تغيير موضع طاولة وأريكة. فنفّذ ذلك بحميّة معتقداً أن ذلك لكيتي. وعلم بعد لحظة أنه أعدّ سريره. وبعد ذلك، أرسل إلى المكتب ليسأل الطبيبَ شيئاً. فأجابه الطبيب واستطرد إلى الحديث عن فساد الدوما. ثم كُلِّف أن يذهب إلى غرفة الأميرة ليُحضر أيقونة مغطّاة بغطائها الفضّي المذهب: فتسلّق على خزانة الصور بمساعدة خادمة حماته العجوز وكسر قنديلاً: فأوسعتْه الخادمةُ العجوز عزاءً من أجل القنديل ومن أجل كيتي، وحمل الأيقونة، ووضعها بعناية عند رأس كيتي، خلف الوسائد. أما أين ومتى ولماذا تمَّ ذلك كله، فهو أمرٌ لا يعلم عنه شيئاً. ولم يكن يفهم أيضاً لماذا كانت الأميرةُ تمسك بيده وتحثّه على الهدوء وهي ترنو إليه بعينين مشفقتين، ولا لماذا كانت دولي تحاول إقناعه بأن يأكل وتقوده إلى خارج الغرفة، ولا لماذا كان الطبيب يتأمله بوجهٍ مشفقٍ ويقترح عليه أن يتناول بعض القطرات.

كل ما كان يعلمه هو أن ما يحدث الآن يشبه ما حدث قبل سنة في فندق من فنادق عاصمة المقاطعة قرب السرير الذي مات عليه أخوه نيقولا. لقد حلَّ الفرحُ محل الحزن. لكن ذلك الحزن وهذا الفرح كانا خارج الشروط المعتادة للحياة، كانا كأنهما ثغرة في الحياة العادية تكشف عن شيء أسمى. كان الحدث الذي هو

في سبيله إلى التمام حدثاً شاقاً، معذّباً، وكانت النفس، وهي تتأملُ هذا الحدث الأسمى، تسير إلى أعالٍ لا تبلغ، أعالٍ لم تخطرْ بالبال من قبل، ولا يستطيع العقل فيها أن يتبعها.

كان يردّد بصوت خافت دون كلل: «يا إلهي، اغفر لنا ومدّ يد العون إلينا!». فقد كان يحسّ أنه أخذ يبتهل إلى الله بمثل الثقة والبراءة اللتين كان يبتهل بهما أيام طفولته وصباه، وذلك رغم التباعد الطويل الأمد والنهائي في الظاهر.

أثناء هذا الوقت كله، مرّ بحالتين نفسيتين مختلفتين. الأولى مع الطبيب الذي كان يدخّن سيجارة تلو سيجارة ويطفئها على حافة المنفضة المملوءة، ومع دولي والأمير: كان الحديث يدور حول العشاء والسياسة ومرض «ماري بيتروفنا»، وكان ليفين ينسى، للحظةٍ، نسياناً تاماً ما كان يجري، ويُخيّل إليه أنه يخرج من حلم، والحالة الثانية عند سرير زوجته، حينذاك كان قلب ليفين يودّ لو يتحطّم من الرأفة، لكنه ما كان يستطيع ذلك، وكان يصلي بلا انقطاع. وكان كلما انتشلتْه من نسيانه صرخةٌ آتيةٌ من غرفة النوم عاد إلى الاضطراب الغريب الذي استولى عليه في اللحظة الأولى: فما أن يسمع أنيناً حتى يثب عن مقعده ويجري ليبرّىء نفسه؛ ثم يتذكّر في طريقه أنه ليس مذنباً وتراوده الرغبة في الدفاع عن زوجته ونجدتها. فإذا رآها أدرك مرة أخرى أنه لا حيلة له وتملّكه الرعب وقال: «يا إلهي، اغفرْ لنا ومدّ يد العون إلينا!».

وكان كلما مرّ الوقت اتضح هذان الاستعدادان واشتدّ بروزهما: لقد ازداد شعوره بالطمأنينة ونسيانه كيتي كلياً عندما لا يكون بجنبها، وازدادت حدّةً آلام كيتي وشعور ليفين بالعجز أمام آلامها. كان لايني ينهض، متمنّياً أن يهرب إلى أي مطرح من الأرض، ثم يركض إليها.

كان أحياناً يحقد على كيتي، بعد دعواتها المتكررة له. لكنه ما إن يرى وجهها المذعن والمبتسم، ويسمعها تقول: «إنني أسبب لك الكثير من الهموم»،

حتى يلقي التبعة على الله، ثم لا يلبث إذا مر ذكر الله على باله أن يناشده المغفرة والرحمة.

[١٥]

لم يعد يعلم إن كان الوقت ليلاً أو صباحاً. ذابت الشموع، ودخلت دولي المكتب لتقترح على الطبيب أن يستريح قليلاً. وكان ليفين جالساً على مقعد، يصغي إلى الطبيب الذي أخذ يحدثه عن مشعوذ ينوّم مغنيطيسياً، ويتأمل رماد سيجارته. كانت لحظةَ استراحة وهو يُخلد إليها... لقد نسي كلياً ما يجري. كان يصغي إلى ثرثرة الطبيب ويفهمها. وفجأةً دوّى صراخ ليس فيه شيءٌ إنساني. كان هذا الصراخُ مرعباً إلى حدّ كبير حتى إن ليفين لم يتحرك، وإنما ألقى على الطبيب نظرة مرتعبة ومستفهمة وهو محتبس الأنفاس. فحنى الطبيب رأسه، وأصاخ السمع وابتسم وقد بدت الموافقة عليه. كان كل شيء خارقاً للعادة حتى إن ليفين لم يعد يدهش لشيء. وقال في نفسه: «لا شك أن الأمور ينبغي أن تكون كذلك»، وظل جالساً. لكن مَنْ الذي صرخَ؟ نهض فجأة وجرى على رؤوس أصابعه، سابقاً اليزابيت بيتروفنا والأميرة، واتخذ مكانه عند رأس كيتي. سكتَ الأنينُ لكن شيئاً هناك قد تغيّر. أما ماذا كان ذلك الشي، فهو ما لم يكنْ يراه ويفهمه، وما لم يكن يرغب في رؤيته وفهمه. لكنه تبيّنه من وجه اليزابيت بيتروفنا: كان وجهُها شاحباً، قاسياً، راسخ العزم كما كان، لكن فكّيها كانا يرتجفان قليلاً، وعيناها تُحدّان النظر إليها بالحاج. وكان وجهُ كيتي القرمزي والمنهوك مع خصلة الشعر التي ألصقها العرق به قد استدار إليه باحثاً عن نظرته. وكانت يداها تبحثان عن يدي ليفين. حتى إذا وجدتْ يدي ليفين الباردتين أخذتهما بين يديها النديتين وضغطتهما على وجهها.

قالت بعجلة:

ـ لا تنصرفْ، لا تنصرفْ، لستُ خائفةً! انزعي، يا أمي، قرطيَّ فهما يضايقاني. ألستِ خائفةً؟ اليزابيت بيتروفنا أسرعي، أسرعي. . .

كانت تتكلم بسرعة وتحاول أن تبتسم. لكن وجهها كشّر فجأة فدفعتْ زوجَها عنها. وصاحت:

ـ آه! هذا فظيع! سأموت! اذهبْ من هنا.

وعلا الصراخ الحيواني من جديد.

أمسك ليفين رأسه بين يديه وترك الغرفة راكضاً.

قالت له دولي:

ـ ليس ذلك شيئاً ذا بال، ليس ذلك شيئاً ذا بال، كل شيء يسير سيراً حسناً!

لكنْ، مهما يقولوا له فقد كان يعلم الآن أن كل شيء قد فُقد. كان يصغي، ورأسه مستندٌ إلى إطار الباب، إلى الصياح الآتي من الغرفة المجاورة، وهو صياح لا يُشبه في شيء ما سمعه حتى الآن، وكان يعلم أن هذه الصرخات تنبعث عمّن كانت قديماً كيتي. لم يعد يفكر في الوليد، منذ زمن بعيد. كان يكره ذلك الوليد. بل إنه لم يكن يتمنّى أن تحيا كيتي، فكل ما كان يتمناه أن يرى النهاية لمثل هذه الآلام المبرّحة.

قال وهو يمسك بذراع الطبيب الذي دخل:

ـ دكتور! ما هذا؟ ما هذا؟ يا إلـٰهي!

قال الطبيب:

ـ هذه هي النهاية.

وكان وجهه بالغ الرصانة حتى إن ليفين فسّر قوله: «هذه هي النهاية» بمعنى: «إنها تموت».

فأسرع إلى الغرفة، وقد خرج عن طوره. كان أول وجه لقيه هو وجه

اليزابيت بيتروفنا الذي كان أشدا اكفهراراً ورصانة. أما كيتي فلم تكن تُعرَفُ. فالموضع الذي كان فيه وجهُها انكشف الآن عن شيء مرعب كلّه تشنّجٌ وصراخ. أسند جبهته إلى خشب السرير، وأحسّ أن قلبه يوشك أن يتمزّق. كانت الصرخات المرعبة ترتفع دون انقطاع: لقد غدت أفظع، ثم انقطعت فجأة، وكأنها بلغت غايةَ الفظاعة. لم يصدّق ليفين أذنيه، لكنْ لم يبق مجالٌ للشك، لقد سكتَ الصياح. سُمعت الروحاتُ والجيئات الحذرة، وحفيفُ الثياب الخفيف، وأنفاسٌ متسارعة، ثم كيتي تهمس بصوت لاهث، مليء بالحياة والحنان والفرح: «انتهى الأمر».

رفع رأسه. كانت ذراعاها الخامدتين مستلقيتين على الغطاء، وهي خارقة الجمال والسكينة، تنظر إليه بصمت وتحاول أن تبتسم فلا تفلح في ذلك.

وفجأة، ألفى ليفين نفسه وقد انتقل فوراً من ذلك العالم غير الواقعي، الرهيب، المحفوف بالأسرار، الذي عاش فيه اثنتين وعشرين ساعة، إلى عالم عاداته القديم، لكن هذا العالم أخذ يلتمع الآن بنور السعادة الباهر حتى إنه لم يستطع أن يحتمله. وانقطعت الحبال التي شُدَّت شداً مفرطاً. فهزّهُ النحيب ودموع الفرح التي لم يتوقعها هزاً عنيفاً لم يستطع معه الكلام زمناً طويلاً.

جثا قرب السرير، وغطّى يد امرأته بالقبل؛ فردّت عليها بأن ضغطت بأصابعها ضغطاً رفيقاً. في هذه الأثناء، وعند قائمة السرير، كانت حياة كائن بشري لم يوجد من قبل في أي مكان، كائن سيعتدّ بحقوقه عما قريب وسيولّد كائنات أخرى شبيهة به، ترتعش بين يدي اليزابيت بيتروفنا الخبيرتين، كما يرتعش ضوءُ الشمعة.

وبينما كانت اليزابيت بيتروفنا تفرك ظهره، سمع ليفين:

ــ إنه يحيا! إنه يحيا! وهو صبـي! لا تخشَيْ شيئاً.

وقال صوت كيتي:

ــ أهذا صحيح، يا ماما؟

لم يسع الأميرة إلاّ أن تنتحب كجواب وحيد عن سؤالها. وفي غمرة الصمت ارتفع صوتٌ مختلف عن أصوات الحاضرين الخافتة، وكأنه يريد أن يبدّد شكوك الأم ولا يدع لبساً. كان الصوتُ صرخةً جريئة، وقحة يطلقها كائن بشري جديد يستخفّ بكل شيء، قد انبثق قبل قليل دون أن يعلم أحدٌ من أين.

لو قيل لليفين، قبل لحظة، إن كيتي ميتة، وأنه ميت في نفس الوقت معها، وأن لهما أولاداً ملائكة هم بحضرة الله، لما أحسّ بالدهشة؛ أما الآن وقد دخل عالم الواقع، فقد كان يلزمه جهدٌ فكري عظيم ليُدرك أنها سليمةٌ معافاة وأن هذا الكائن الذي يُطلق الصراخ الثابتَ هو ابنه. كانت كيتي حية، وزالت آلامُها. كان سعيداً وسعادته لا توصف. ذلك ما أدركه وابتهج به من كل كيانه. والوالد؟ من أين جاء، ولماذا، ومَنْ هو؟ لم يكن يستطيع أن يألف هذه الفكرة. كان هذا الوالد زائداً عن اللزوم، ولا حاجة به إليه، وقد مرّ زمن طويل دون أن يألفه.

[١٦]

في نحو الساعة الحادية عشرة، كان الأمير العجوز، وسيرج ايفانوفتش، وستيفان اركادييفتش مجتمعين عند ليفين وبعد أن استخبروا عن النَفْساء صَرَفوا الحديث إلى موضوعات أخرى. كان ليفين يُصغي إليهم وهو ينتقل بفكره، رغماً عنه، إلى الأحداث التي سبقت هذه الصبيحة، وإلى ما كان عليه هو نفسه البارحة، كان يحسّ أنه على علو لا يُنال وأنه يبذل جهده ليهبط منه حتى لا يجرح محدّثيه، كان لا ينفك يفكر بزوجته، وبحالته الجديدة، وبابنه، وبوجود هذا الابن الذي يسعى أن يتعوّده، وهو يتابع الكلام. إن عالم المرأة الذي اتخذ، في نظره، منذ الزواج أهميةً لم يكن يوليه إياها حتى لحظة الزواج، قد ارتفع عالياً جداً في فكره بحيث لم يكن بإمكانه أن يُلم به ولو بخياله. كان يصيخ السمع إلى حديث عن عشاء البارحة في النادي ويفكّر: «ماذا تفعل الآن؟ هل تنام؟ وهل صحتها حسنة؟

فيمَ تفكر؟ إن ابني «دميتري» يصرخ؟» وفي وسط الحديث، في وسط الجملة، نهض فجأة وترك الغرفة.

قال له الأمير:

ــ أرسلْ من يخبرني إن كنتُ أستطيعُ أن أراها.

أجاب ليفين:

ــ طيّب، على الفور.

وقصد إلى غرفة امرأته، دون أن يتوقّف.

لم تكن نائمةً وكانت تحدّث أمها بهدوء وكانتا تضعان المشاريع من أجل العماد القريب.

كانت مستلقيةً على ظهرها، وقد بدّلت ثيابها، وامتشطت، وغطُّت رأسها بقبّعة جميلة مزينة بلون أزرق سماوي، ومدت يديها على غطاء السرير. التقت عيناها عيني زوجها واجتذبتاهما إليها. وكانت نظرتها المضيئة تلتمع ببريق يزداد توهجاً كلما دنا منها. وكان وجهها يعكس تلك النقلة من عالم الأرض إلى عالم السماء التي نراها على وجوه الموتى؛ إلاَّ أنها هنا لم تكن إشارة الوداع بل إشارة الترحيب. فاعتصر قلبَ ليفين انفعالٌ شبيه بالذي خالجه ساعة وضعها. وأمسكت بيده وسألته إن كان قد نام. لم يستطع أن يجيب وثنى رأسه، وقد اقتنع بضعفه. وقالت له:

ــ أما أنا فنمت، ياكوستيا! وأحسّ أنني كأحسن ما أكون حالةً.

تطلعتْ إليه لكن تعبير وجهها ما لبث أن تبدّل. وقالت وقد سمعت زقزقة الوليد:

أعطيني إياه، يا اليزابيت بيتروفنا، حتى يراه أبوه.

قالت اليزابيت بيتروفنا وهي تتناول من السرير وتحمل رزمةً غريبة حمراء تتخبّط:

ـ بابا يريد أن يرانا. لكن انتظرْ حتى نستكمل زينتنا.

ووضعت القابلة الرزمةَ الحمراء على السرير وحلّتْ لفاقةَ الوليد ثم لفّته من جديد وهي ترفعه وتديره بأصبعها لكي ترشه بالبودرة.

وكان ليفين، وهو يتأمل هذا الكائن الصغير والجدير بالشفقة، يجهد نفسه عبثاً لكي يعثر فيها على أدنى أمارات الحب الأبوي. لم يكن يشعر نحو هذا الوليد بغير النفور. لكنه أحسّ حين خلعتْ ثيابه وظهرت هاتان الذراعان النحيلتان، وهاتان القدمان بلون الزعفران اللتان تميّز فيهما الإبهامُ عن الأصابع الأخرى، وحين رأى اليزابيت بيتروفنا تمسك بيديه الصغيرتين اللتين كانتا تنكمشان كأنهما نابضان ليّنان لتلّفهما، أحسّ بكثير من الرأفة وبكثير من الإشفاق حتى لقد أمسكها من ذراعها خوفاً من أن تؤذيه. فأخذت اليزابيت بيتروفنا تضحك.

ـ لا تخفْ، لا تخف!

عندما أُلبس الصغير وتحوّل إلى شرنقة، نقّلته القابلة من يد إلى أخرى، وهي فخورة بعلمها، وتنحّتْ لكي يتمكّن ليفين أن يرى ابنه بكل جماله.

لم تكفَّ كيتي عن النظر بمؤخر عينها في هذا الاتجاه.

قالت وقد همّت بالنهوض:

ـ أعطيني إياه، أعطيني إياه!

ـ ليتكِ تظلّين هادئة، كاترين الكسندروفنا، فهذه الحركات محظورة عليك! انتظري، فسوف أحمله إليك. سنُري البابا قليلاً مقدار جمالنا.

ورفعتْ اليزابيت بيتروفنا بيد واحدة هذا الكائن الصغير الأحمر، الغريب الذي كان يهزّ رأسه ويدخله في اللفافة، (أما اليد الأخرى فلم تكن تسند القذال المهتز إلاّ بأصابعها).

قالت القابلة:

ـ إنه لطفل جميل!

تنهد ليفين بحزن. فهذا الطفل الجميل لم يوح إليه إلاَّ بشعور من الاشمئزاز والشفقة. وليس هذا ما كان ينتظره.

أشاح بوجهه في الوقت الذي كانت فيه اليزابيت بيتروفنا تُجلس الصبي على صدر الأم.

وفجأة، حملته القهقهةُ على رفع رأسه. كانت كيتي مغربةً في الضحك. ذلك أن الطفل تناول ثديها.

قالت اليزابيت بيتروفنا:

ــ هيّا، كفى!

لكن كيتي لم تشأ أن تدع الصبي، لقد نام بين ذراعيها.

قالت كيتي وهي تدير الطفل نحو ليفين حتى يتسنّى له أن يراه:

ــ انظرْ إليه الآن.

تجعّد الوجهُ الصغير، الذايل أكثر من ذي قبل وعطس الطفل.

ابتسم ليفين، وأوشك أن يبكي من الحنان، فقبّل امرأته وترك الغرفة المظلمةَ.

ما اعتمل في نفسه نحو هذا الكائن الصغير لا يشبه في شيء ما قد توقعه. لم يكن هذا الشعور يتضمّن شيئاً من البهجة أو الفرح. على العكس، لقد انضاف إلى همومه همّ جديد. وأحسّ الآن أن منطقة كاملة من ذاته غدت قابلة للعطب. وقد عذّبه هذا الشعور، في اللحظة الأولى، أيّما تعذيب، وكان رعبُه من أن يرى هذا الكائن الأعزل يتألم، قوياً جداً حتى لقد منعه ذلك الشعور وهذا الرعب من ملاحظة الفرح الأرعن بل والاعتزاز الذين تملّكاه عندما عطس الصغير.

[١٧]

كان استيفان اركادييفتش في وضع سيء، فقد صرف ثلثي المال الذي باع به خشب الغابة كما اقترض سلفاً من التاجر الثلث الباقي كله تقريباً بتخفيض عشرة

بالمائة. وكان التاجر ينوي ألاَّ يعطيه المال ولا سيّما أن داريا الكسندروفنا التي أكّدت، لأول مرة، حقوقها على ثروتها، رفضت التوقيع على قبض الثلث الأخير. وكان مرتّب أوبلونسكي كله يذهب في نفقات المنزل وفي تسديد الديون الصغيرة. ولم يكن لهما من موارد على الإطلاق.

كان ذلك شيئاً كريهاً، مزعجاً، ولا يجوز أن يستمر على هذا المنوال، في اعتقاد ستيفان اركادييفتش. وكان يعزو هذا الوضع إلى صغر مرتبه. والمركز الذي يشغله بدا ممتازاً قبل خمس سنوات، أما الآن فالأمر مختلف. كان مدير المصرف، يقبض اثني عشر ألف روبل، وسفنتيزكي، وهو عضو في جمعية، يحصل على سبعة عشر ألفاً، وميتين الذي أسسّ مصرفاً يربح خمسين ألف روبل. وفكّر ستيفان اركادييفتش «لا شك أنني أنام وأن الناس ينسونني». ولذلك أخذ يترقب، ونحو أواخر الشتاء اكتشف مركزاً مربحاً جداً، فشنّ عليه هجوماً، من موسكو أولاً بواسطة العمّات والأعمام والأصدقاء، ثم لما نضجت الثمرةُ، قصد هو نفسه إلى بطرسبرج في الربيع. كان هذا المركز يدرّ من ألف إلى خمسين ألف روبل في السنة. وكان وظيفةً من هذه الوظائف التي هي أكثر عدداً اليوم من وظائف الزمن القديم التي تُشترى بالرشوة. كان المطلوب منه أن يصبح عضواً في لجنة الوكالات المتّحدة لمصرف التأمين والخطوط الحديدية في الجنوب. وكانت هذه الوظيفة تتطلب معارف واسعة جداً، ونشاطاً كبيراً جداً وهو ما يصعب أن يتوفّر في إنسان واحد. وبما أن الرجل الذي يجمع هذه الصفات لا يوجد، فقد كان من الأفضل أن يُعْهد بهذا العمل إلى رجل شريف بدلاً من أن يُعْهَد به إلى رجل غشّاش. أما الشرف فقد كان ستيفان اركادييفتش شريفاً بالمعنى الخاص الذي تملكه هذه الكلمة في موسكو، عندما تُطبّق على رجل الدولة أو الكاتب أو الصحيفة أو المؤسسة، أو اتجاه للرأي العام، والذي لا يدل فقط على أن ذلك الرجل أو تلك المؤسسة ليسا لئيمين، وإنما يدل أيضاً على أنهما يستطيعان عند

الضرورة إرسال سهامهما إلى الدولة إذا سنحت الفرصة. كان ستيفان اركادييفتش يتنقل في موسكو، في الحلقات التي أطلقت فيها هذه الكلمة وكان يُعتبر فيها رجلاً شريفاً: وإذن فقد كان له الحق أكثر من غيره في هذه الوظيفة.

كانت هذه الوظيفة تدرّ من سبعة آلاف إلى عشرة آلاف روبل في السنة، وكان اوبلونسكي يستطيع الجمع بينها وبين وظائفه الأخرى.

وكانت مرتبطة بوزارتين، وبسيدة، وبيهوديين، ومع أن هؤلاء الناس جميعاً قد أُبلغوا لدعمه، فقد كان ينبغي أن يذهب لرؤيتهم في بطرسبرج. وفضلاً عن ذلك، فإن ستيفان اركادييفتش وَعَدَ أخته آنا أن يحصل من كارينين على جواب ثابت بشأن الطلاق. ولذلك سافر إلى بطرسبرج بعد أن ابتزّ من دولي خمسين روبلاً.

كان يُصغي، وهو جالسٌ في مكتب كارينين إلى زوج أخته وهو يعرض عليه خطّته في إصلاح المالية الروسية، وكان يترصّد اللحظة التي يتوقّف فيها كارينين لكي يوجّه الحديث نحو شؤونه الخاصة وشؤون آنا.

قال ستيفان اركادييفتش بعد أن رفع الكسي الكسندروفتش نظارته التي لا يستطيع القراءة بدونها، وألقى عليه نظرة مستفهمة:

ــ نعم، هذا صحيح جداً في التفاصيل، لكن مبدأ عصرنا هو الحرية.

ــ وبذلك فإن المبدأ الجديد الذي أنادي به «يشمل» مبدأ الحرية.

قال الكسي الكسندروفتش ذلك وهو يشدّد على كلمة «يشمل».

ويضع نظارته ليعيد قراءة المقطع الذي عُرضت فيه وجهةُ النظر هذه بالتحديد.

تصفح محظوظاً أنيق الأحرف، عريض الهوامش وأعاد قراءة المقطع الذي يثبت ذلك.

وأضاف وهو ينظر إلى أوبلونسكي من فوق نظّارته:

ـ إذا كنت أدعو إلى مذهب الحماية فليس ذلك من أجل منفعة الأفراد بل من أجل المصلحة العامة، سواء في ذلك الطبقات الدنيا أم الطبقات العليا. لكنهم لا يستطيعون أن يفهموه، إنهم غيرُ معنييّن إلاَّ بمصالحهم الخاصة ويكتفون بالجمل الرنانة.

كان ستيفان أركادييفتش يعلم أن كارينين عندما يبدأ بالكلام على ما يفكر فيه أو يفعله الذين يُعارضون مشاريعه والذين هم سببُ الفساد في روسيا، فإنه يقترب من نهاية الكلام، ولذلك هجر، ستيفان أركادييفتش للحظةٍ مبدأ الحرية وقرر أن يوافق زوج أخته كلياً. وصمت الكسي الكسندروفتش وهو يتصفح المخطوط وقد بدا عليه التفكير.

فقال ستيفان أركادييفتش:

آه! أحببتُ أن أسألك بهذه المناسبة إن كانت الفرصة تسنح لك بلقاء «بومورسكي»، لتقول له كلمة من أجلي: فأنا أرغب في أن أكون عضواً في لجنة الوكالات المتحدة لمصرف التأمين وللخطوط الحديدية في الجنوب. ولقد نطق ستيفان أركادييفتش بهذا العنوان دون أن يخطى فيه، لفرط قربه من نفسه، ولألفته له.

سأله الكسي الكسندروفتش عن مدار نشاط هذه اللجنة الجديدة واستغرق في تأملات عميقة. كان يتساءل إذا كانت هذه المؤسسة لن تعرقل مشاريعه. لكن بما أن نشاط هذه المؤسسة الجديدة كان شديد التعقيد وبما أن مشاريع كارينين تضم ميداناً شديد الاتساع فإنه لم يستطع أن يحل المسألة مباشرة. فرفع نظارته وقال:

ـ بكل تأكيد، أستطيع أن أكلمه؛ لكن لماذا تريد أن تشغل هذه الوظيفة بالتحديد.

ـ إن المرتب يبلغ حوالي تسعة آلاف روبل، ومواردي...

فردّد الكسي الكسندروفتش وقد قطّب بين حاجبيه:

ــ تسعة آلاف روبل.

هذا الرقم المرتفع أظهر له أن نشاط ستيفان أركادييفتش من هذه الناحية يصدم الفكرة السائدة في مشاريعه: وهي العودة إلى التوفير:

ــ إني أجد أن هذه المرتّبات الضخمة في عصرنا من أمارات الخلل في قاعدتنا الاقتصادية (على كل حال، لقد كتبتُ مذكّرة بهذا المعنى).

قال ستيفان اركادييفتش:

ــ ماذا تريد؟ إن مدير المصرف يقبض اليوم عشرة آلاف روبل، وهو لم يسرقها. والمهندس يربح عشرين ألفاً. وهذه الوظائف ليست وظائف بلا عمل.

ــ أنا أزعم أن الأجرة هي ثمن سلعة وأنها ينبغي أن تخضع إذن لقانون العرض والطلب. فإذا انحرف تعيين الأجور عن هذا القانون، كأن أرى مثلاً مهندسيْن تخرّجا من مدرسة واحدة بمعارف واحدة ومؤهلات واحدة، يربح أحدهما أربعين ألف روبل ويكتفي الآخر بألفين؛ أو عندما يُعيّن على رأس أحد المصارف، بأجرة هائلة قانوني أو فارس من الخيّالة ليس له أية معرفة خاصة، فأنا استنتج أن راتبه لم يُقدّر بحسب قانون العرض والطلب بل على أساس المحاباة، بكل بساطة. وها هنا تعسّفٌ خطيرٌ في ذاته ومضر بمصلحة الدولة.

وأقدر...

فسارع ستيفان أركادييفتش وقاطعه قائلاً:

ــ نعم، لكننا هنا أمام مؤسسة جديدة ذات فائدة لا نزاع فيها. وأولو الأمر فيها يحرصون على أن تجري شؤونها «بشرف».

لكن المعنى الموسكوفي لهذه الكلمة غاب عن الكسي الكسندروفتش.

فقال:

ــ هذا الشرف ليس سوى صفة سلبية.

قال ستفيان أركادييفتش عرضاً في وسط الحديث:

ـ بالرغم من كل شيء، سيسرني أعظم السرور لو همستَ بكلمة صغيرة إلى بومودسكي:

قال الكسي الكسندورفتش:

ـ يُخيّل إليَّ أن ذلك يتعلّق ببولغارينوف، على الخصوص.

قال ستيفان أركاديفتش وهو يحمرّ:

ـ بولغارينوف موافق تماماً.

وإنما احمرّ ستيفان أركادييفتش عند ذكر اسم بولغارينوف لأنه زار في هذا الصباح ذلك اليهودي، ولأن ذكرى هذه الزيارة كانت مؤلمة.

كان ستيفان أركادييفتش مقتنعاً بأن المشروع الذي يبغي المؤازرة فيه مشروعٌ شريف ونافع؛ لكنه أحسّ فجأة بالضيق في هذا الصباح، عندما جعله بولغارينوف ينتظر ساعتين، في غرفة الانتظار، مع المراجعين. عن قصد ظاهر.

هل شعر بهذا الضيق لأنه، وهو الأمير ابلونسكي المنحدر من «روريك»، قد اضطرّ إلى الانتظار ساعتين في غرفة انتظار يهودي، أم لأنه خالف تقاليد أجداده الذين خدموا الدولة، لأول مرة، كي يضطلع بعمل جديد؟ لكن من المؤكد أنه لم يحسّ بالراحة. وأثناء هاتين الساعتين من الانتظار عند بولغارينوف، كان ستيفان أركادييفتش يذرع غرفة الانتظار وهو طلق المحيا، ممسّداً سالفيه، متحدثاً مع المراجعين، مؤلّفاً التوريات التي سيطرحها بشأن هذا التوقف عند يهودي، محاولاً جهده أن يخفي نفسه وأن يكتم عن الآخرين العاطفة التي تملأ نفسه.

لكنه أحسّ، أثناءَ هذا الوقت كله، بالحنق والضيق اللذين يجهل هو نفسه سببهما. أكان ذلك لأنه لم يستطع أن يتمّ توريته أم لسبب آخر؟ وعندما استقبله بولغارينوف أخيراً بلطف زائد، وهو ظاهر الانتصار، ورفضَ تقريباً طلبَه، سارع ستيفان أركاديفتش قدر الإمكان إلى نسيان هذه الإهانة. وها هو ذا يحمرّ الآن عندما تذكّرها.

[١٨]

قال ستيفان أركاديفتش بعد صمت قصير، عندما طرد الفكرة التي كانت تُزعجه:

ــ وعندي شيء آخر أحب أن أقوله لك، وأنت تعلم علام يدور. . . على آنا.

ما إن لفظ أوبلونسكي اسم آنا حتى تغيّر كلياً تعبير وجه الكسي الكسندروفتش: تحول من الحيوية والانتعاش إلى الإعياء والخمود.

قال وهو يستدير في مقعده ويطوي نظارته:

ــ وماذا تريد مني بالضبط؟

ــ قراراً ما، الكسي الكسندروفتش. وأنا أخاطبك، في هذه اللحظة، (وأراد ستيفان أركادييفتش أن يقول: «لا كرجل مُهان»، لكنه خشي أن يُعطِّل مسعاه، فغيّر الصيغة (لا كرجل دولة) وهو تعبيرٌ تبيّن أنه غير موفّق)، لكن بكل بساطة كرجل، كإنسان ذي قلب كبير، وكمسيحي. ينبغي أن تشفق عليها.

قال كارينين بصوت خفيض:

ــ من أية ناحية؟

ــ أؤكد لك أنك لو رأيتها لآلمك منظرها. إن وضعها فظيع، فظيع حقاً.

أجاب الكسي الكسندروفتش بصوت أنحف، صوت يكاد يكون حاداً:

ــ كان يبدو لي أن آنا أركادييفنا نالت كل ما تبتغيه.

ــ آه! بالله عليك، يا الكسي الكسندروفتش، فلندعْ مبادلةَ التهم! ما قد فاتَ فاتَ، وأنت تعلم أن ما تبغيه وتطلبه: إنما هو الطلاق.

فصرخ الكسي الكسندروفتش:

ــ لكني كنتُ أعتقد أن آنا أركادييفنا ستعدل عن الطلاق في حالة إصراري على الاحتفاظ بابني. وقد كتبتُ إليها بهذا المعنى، وكنتُ أظن أن المسألة منتهية، وأقدّر أنها منتهية.

قال ستيفان أركادييفتش وهو يلمس ركبة زوج أخته:

ـ أرجوك، لا تحتدّ. المسألة لم تنته. وإذا سمحت لي أن أجمل الأمور فالمسألة تتلخّص كما يلي: عندما انفصلتما كنتَ في غاية الشهامة: لقد منحتَها كلّ شيء: منحتها الحرية وحتى الطلاق.

وأكبرتْكَ هي. إنك لا تستطيع أن تتصوّر كم تأثرتْ بهذه الشهامة. لقد بلغ بها التأثُر في مطلع الأمر، أنها شعرت بأخطائها تجاهك وعجزت عن المضيّ في التفكير فرفضت كل شيء. لكن الواقع والزمن أظهرا لها أن وضعها مُعذبٌ وأن حالتها لا تُطاق.

فقاطعه الكسي الكسندروفتش وهو يرفع حاجبيه:

ـ إن حياة آنا أركادييفنا لا يمكن أن تعنيني في شيء.

فردّ عليه ستيفان أركادييفتش بهدوء.

ـ اسمحْ لي ألا أصدّق ما قلت. إن وضعها يعذّبها ولا يُفيد أحداً. قد تقول لي إنها تستحق ذلك. هي تعلم أنها تستحقه ولا تطلب منك شيئاً، وهي نفسها تقول: إنها لا تجسر أن تسألك شيئاً. لكنني أنا، وجميع أقاربها، وكل الذين يحبّونها نرجوك ونتضرّع إليك أن ترحمها.

لماذا تتألم؟ ومن يستفيد من ذلك؟

فقال الكسي الكسندروفتش:

ـ لكنك، في الحقيقة تضعني في موضع المتّهم.

فاستدرك ستيفان أركادييفتش وهو يلمس يده وكأنه كان مقتنعاً بأن هذه اللمسة ستهدّىء من ثائرته:

ـ كلا، كلا، على الإطلاق، افهمني، وأنا أكتفي بأن أقول لك ما يلي: إن وضعها مؤلم، وتستطيع أنت أن تخفف من ألم هذا الوضع، ولن تفقد شيئاً من

جراء ذلك. دعني أرتّبْ الأمور بحيث تظل بمنأى عن التدخل فيها. لقد وعدتَ. . .

ــ هذا الوعدُ قطعتُه على نفسي منذ زمن بعيد. وكنت أعتقد أن مسألة الولد قد سوّت المشكلة. وفضلاً عن ذلك، كنت آمل أن يكون لآنا أركادييفنا شيٌ من الكرم. . .

لفظ الكسي الكسندروفتش الذي غدا شاحباً هذه الكلمات بمشقة، وشفتاه ترتجفان.

ــ إنها تترك الأمر كله لكرم نفسك. وهي ترجوك وتتضرّع إليك أن تخلّصها من هذا الوضع الحرج الذي تجد نفسها فيه. وهي لا تطالب حتى بابنها. الكسي الكسندروفتش، أنت كريم النفس، ضع نفسك مكانها لحظةً واحدة: المسألة هذه مسألة حياة أو موت. ولو أنك لم تعدها في البداية لارتضت حياتها ولسكنت الريف. وإنما كتبتْ إليك وجاءت لتقيم في موسكو، على أثر وعدك. وها قد مضى على سكناها المدينة ستة شهور كل لقاء فيها طعنة خنجر، وهي تنتظر قرارك يوماً بعد يوم. إن حالتها شبيه بحالة محكوم بالموت وُضع الحبل في عنقه دون أن يقول له أحد إن كان ينبغي له أن يُعدّ نفسه للموت أو للتبرئة. أرأفْ بها وسوف أتكفل بتدبير كل شيء. . . إن وساوسك. . .

فقاطعه الكسي الكسندروفتش باشمئزاز:

ــ ليست القضية قضية وساوس. لكن لعلي وعدت بما لا يحقّ لي أن أعدّ به.

ــ وهكذا، فأنت ترجع عن كلامك؟

ــ لم أرفض قط ما هو ممكن، لكنني أطلب مزيداً من الوقت لأفكّر في صحة هذا الوعد.

فاستأنف ستيفان أركادييفتش وهو ينهض فجأة:

ــ لا ، الكسي الكسندروفتش، إني أرفض أن أصدق! إنها تعسةٌ كأتعس ما تكون المرأة، ولا يجوز لك أن ترفض . . .

ــ في نطاق الممكن، أنت تجاهر بأنك حر التفكير. أما أنا فلا أستطيع، باعتباري مؤمناً، أن أخرج على القانون المسيحي.

ــ الطلاق مسموح به في جميع المجتمعات المسيحية، وحتى في مجتمعنا، على حدّ علمي. وكنيستنا ذاتها تبيحه. ونحن نرى . . .

ــ ربما كان مباحاً، لكنْ في غير الحالة الحاضرة.

قال ستيفان أركادييفتش بعد صمت:

ــ الكسي الكسندروفتش، إني أنكرك، فأنت اليوم غيرك بالأمس. أأنت حقاً الذي أعجبْنا به والذي غَفَر كل شيء، أأنت الذي حرّكه الشعور المسيحي وأبدى استعداده للتضحية بكل شيء؟ كنتَ أنت نفسك تقول: من أخذ قميصك فأعطه معطفك؛ والآن . . .

قال الكسي بصوت حاد:

ــ أرجو أن تكفّ . . . عن هذا الحديث.

ثم نهض فجأة، وأخذ فكّه يرتجف، وشحب وجهه.

قال ستيفان أركادييفتش وهو يمد إليه يده ويبتسم ابتسامة مرتبكة:

ــ مهلاً! اصفحْ عني إن كنتُ قد آلمتك. كان عليّ، كرسول، أن أبلغك الرسالة التي حمّلتها.

تناول الكسي الكسندروفتش يده، وقال بعد لحظة من الصمت:

ــ ينبغي أن أفكّر في ذلك، أن أنتظر الإلهام. وستعلم جوابي النهائي بعد غدٍ.

[١٩]

كان ستيفان أركادييفتش على وشك الخروج عندما أعلن «كورنيْ»:

ـــ سيرج الكسيفيتش!

وكاد ستيفان أركادييفتش يسأل:

«ومن ترى يكون سيرج الكسيفيتش؟»، لكنه ما لبث أن تذكّر، وقال:

ـــ آه! سيريوجا!

وفكّر في نفسه: «ظننت أنه رئيس أحد المكاتب، لقد طلبتْ آنا إليّ أن أراه».

وتذكّر هيئتها الوجلة والمؤثرة عندما قالت له: «سوف تراه بكل تأكيد، وتستطيع أن تعرف ماذا يفعل، ومَنْ يعتني به. ثم يا ستيفا... إن كان ذلك ممكناً! أتظن ذلك ممكناً؟» وفهم ستيفان أركادييفتش ما معنى هذه الكلمات: إذا كان ممكناً أن تحصل، مع الطلاق، على حراسة الولد... كان ستيفان أركادييفتش يرى الآن أنه لا ينبغي التفكير في ذلك، لكنه كان مسروراً أن يرى ابن أخته، مع هذا.

ذكّر الكسي الكسندروفتش أخا زوجته أنه لا يجوز الكلام على آنا أمام ابنها ورجاه ألا يُلمّح إليها من قريب أو بعيد.

قال الكسي الكسندروفتش:

ـــ لقد مرض مرضاً شديداً بعد ذلك اللقاء بينه وبين أمه، وهو لقاء لم نتوقعه، حتى خفنا على حياته. لكن العلاج المناسب وحمامات البحر أعادت إليه صحته في هذا الصيف. وقد أدخلته المدرسةَ، هذا العام، بناءً على نصيحة الأطباء. والواقع أن تأثير رفاقه كشف عن فائدته له. وهو في صحة تامة ويعمل جيداً.

ـــ لكنه غدا رجلاً! ومن رأيـي ألا يُسمى «سيريوجا» بعد الآن.

قال ستيفان أركاديفتش ذلك وهو يبتسم عندما رأى فتى صغيراً، جميلاً، حسن القامة، يدخل بثقة، وهو يرتدي سترةً زرقاء وبنطالاً طويلاً. وكان الولدُ يبدو مبتهجاً، حسن الصحة. انحنى أمام خاله كما ينحني أمام الغريب، لكنه، عندما عرفه، احمرّ وسارع إلى الإشاحة بوجهه وقد بدا عليه الشعور بالإهانة والغضب. ثم دنا من أبيه وسلّمه العلامات التي نالها في المدرسة.

قال له أبوه:

ــ لا بأس بذلك. هيّا، تستطيع أن تذهب لتعلب.

قال ستيفان أركادييفتش:

ــ لقد غدا نحيلاً وطويلاً. إنه لم يعد طفلاً، بل هو فتى صغير. أحبّ ذلك. هل تذكرني؟

أدار الفتى الصغير عينيه بحدّة إلى أبيه، وأجاب وهو ينظر إلى أوبلونسكي:

ــ نعم يا خالي.

وخفض عينيه مرة أخرى.

دعاه ستيفان أركادييفتش إلى جنبه وتناول يده، وسأله وهو راغب في أن يحمله على الكلام دون أن يعلم ما يقول:

ــ ماذا تفعل الآن، إذن؟

احمرّ الولد ولم يفه بكلمة. كان يسعى إلى أن يخلّص يده. وما إن أرخى خاله يده حتى ألقى نظرةً مستفهمة على أبيه وهرب راكضاً، كالعصفور الذي أُعيدت إليه حريتهُ.

مضتْ سنةٌ منذ أن رأى سيريوجا فيها أمه آخر مرة. ومنذ ذلك الوقت، لم يسمعْ أحداً يذكرها. ثم أرسل إلى المدرسة، فتعرّف بالأولاد من لِداته، وأحبهم. أما الأحلام والذكريات التي أمرضته فلم تعد تشغله. فإذا عاودته ردّها بعناية لأنه

يراها مخجلةً، جديرة بالبنات لا بالطالب الفتى. كان يعلم أن خصاماً فصل بين أهله، وأنّ عليه أن يبقى مع أبيه، فيحاول جاهداً أن يألف هذه الفكرة.

لقد شقّ عليه أن يرى خاله الذي يشبه أمه لأن ذلك يوقظ فيه ذكريات يراها مخجلةً. وزاد من هذه المشقة أنه استشفّ، من خلال الكلمات التي التقطها بينما كان يتسمّع عند الباب، ومن تعبير أبيه وخاله بخاصة، أنهما قد تحدّثا عن أمه. ولكي لا يتحتّم عليه أن يحكم على أبيه الذي يعيش معه ويرتبط به، ولكي لا يُسلم نفسه إلى تلك الحساسية الزائفة التي يقدّر أنها مزرية، فقد حاول جاهداً ألا ينظر إلى خاله الذي جاء يشوّش هدوءه، وألا يفكر فيما يُعيده هذا الخال إلى ذاكرته.

لكن عندما لقيه ستيفان أركادييفتش على الدرج، وهو يترك زوج أخته، وسأله بم يلعب أثناء الفرصة، بدا سيريوجا، وهو بعيد عن أبيه، أكثر ثرثرة. وقال:

ــ في هذه الآونة، نحن نلعب لعبة السكة الحديدية. هكذا: يجلس اثنان على مقعد. إنهما المسافران. ويصعد عليه ثالث، ويتعلّق به الآخرون. ونحن نجره خلال القاعة بأيدينا أو بأحزمتنا، ونفتح مسبقاً جميع الأبواب، لكن من الصعب القيام بدور السائق.

سأله ستيفان أركادييفتش وهو يبتسم:

ــ ذاك الذي يظلّ واقفاً؟

ــ نعم، يجب أن يكون شجاعاً وحاذقاً، ولا سيما عندما يقف الآخرون فجأةً، أو عندما يسقط أحدُهم.

قال ستيفان أركادييفتش وهو ينظر بحزن إلى هاتين العينين المملوءتين بالحياة اللتين تشبهان عيني أمه واللتين فقدتا شيئاً من براءتهما الطفولية:

ــ نعم، ليس ذلك مريحاً.

ومع أنه وعد الكسي الكسندروفتش ألا يحدّثه عن أمه، فلم يَفِ بوعده، وسألُه فجأة:

ـ أتذكر أمّك؟

فأجاب سيريوجا بحدّة:

ـ لا.

وعلته الحمرةُ وخفض عينيه، ولم يستطع خالُه، هذه المرة، أن يستخلص منه شيئاً.

عندما وجد المربّي الصربي، بعد نصف ساعة، تلميذه على الدرج، لم يستطع أن يفهم إن كان يبكي أو إن كان حَرِداً. فقال له:

ـ لا شك أنك توجّعتَ حين وقعتَ. لقد قلت لك: إن هذه اللعبة خطرة، ينبغي أن أكلّم المدير.

ـ لو كنتُ توجعتُ لما لاحظ ذلك أحدٌ. كنْ واثقاً من ذلك.

ـ ما بكَ، إذن؟

فردد قائلاً، وكأنه يخاطبُ العالم أجمع، هذه المرة:

ـ دعْني... أتذكرتُ أم لم أتذكّرْ، ماذا يهمّه من ذلك؟ ولمَ أتذكّر، يا ترى؟ دعني وشأني!

[٢٠]

استخدم ستيفان أركادييفتش وقته في بطرسبرج أحسن استخدام، كما هو شأنه دائماً. ففضلاً عن أعماله: طلاق أخته والوظيفة التي يسعى إليها، كان لا بدّ له، كما قال، من أن يروّح عن نفسه، بعد تلك الإقامة في عَفَن موسكو.

ذلك أن موسكو، بالرغم من مقاهي الغناء فيها ومن عرباتها، لم تكن سوى مستنقع آسن، وكان ستيفان أركادييفتش يحسّ بذلك.

فعندما قضى فيها بعض الوقت، ولا سيما بجوار أسرته خُيّل إليه أنه غدا خامد العزم، فاتر الهمة. وبعد أن طالت إقامته في موسكو انتهى به الأمرُ إلى

انشغال باله بمزاج امرأته المتبرم وبلومها، وبصحة الأولاد وتربيتهم، وبتفاصيل عمله التافهة؛ بل لقد أخذ بالُه ينشغل بديونه. لكنْ كان يكفيه أن يصل إلى بطرسبرج، وأن يقيم فيها عدة أيام، في الحلقة التي يُتاح له الدخول إليها والتي يعيش فيها المرءُ حقاً بدلاً من أن يتعفّن، كما هي الحال في موسكو، حتى تغيب جميع أفكاره وتذوب كما يذوب الشمع إذا لامس النار.

المرأة؟... لقد تحدّث اليوم بالذات مع الأمير «تشيتسنسكي» وقد كان له أسرة أخرى غير زوجته وأولاده. ومع أن أسرته الشرعية كانت محبّبة إليه، إلا أنه كان يحس بقسط أكبر من السعادة في أحضان الأسرة الثانية. ولقد أدخل ابنه الشرعي البكر الأسرة الثانية، وبيّن لستيفان أركادييفتش أنه يجد ذلك مفيداً جداً لنمو الفتى. فكم سيتقوّل الناس في موسكو على ذلك! الأولاد؟... الأولاد هنا لا يمنعون الرجل من أن يحيا. إذ يُعهد بتربيتهم إلى المؤسسات، ولا توجد في بطرسبرج تلك الفكرة الغريبة والمنتشرة في موسكو (عند آل لفوف، مثلاً)، والتي بموجبها يستأثر الأولادُ بحق الرفاهية بينما يكون العمل والهموم من نصيب الأبوين. الناس، هنا، يدركون أن من حق الإنسان، باعتباره مخلوقاً متحضّراً، أن يعيش لذاته.

الخدمة؟... ليست الخدمة هنا ذلك العبء المزعج الذي يجرجره المرءُ خلفه في موسكو، الخدمة هنا ممتعةٌ. إن موعداً، وجميلاً يُسدى، وكلمةً ظريفة، وتبديلاً في ملامح الوجه، إن ذلك جدير بأن يوصل صاحبه إلى منصب متألق، كما هي الحال مع «بريانتسيف» الذي لقيه ستيفان أركادييفتش البارحة والذي يشغل مركزاً إدارياً رفيعاً.

لكن ما عزّى ستيفان أركادييفتش، على وجه الخصوص، هو الطريقة التي ينظر بها أهل بطرسبرج إلى أمور المال. إن «بارتنيانسكي» الذي بدّد خمسين ألف روبل على الأقل بسبب حياة البذخ التي يحياها، قد أبدى له، بهذه المناسبة، فكرةً مثقفةً.

فقَبْل العشاء بالضبط، قال ستيفان أركادييفتش لبارتنيانسكي، بينما هما يتحدّثان:

ـ أظن أنك حسن الصلة بموردفنسكي؛ ويمكنك أن تؤدي لي خدمة كبيرة لو قلتَ له كلمة من أجلي. هناك وظيفة أحب أن أشغلها.

عضو وكالة...

ـ لا يهمّني الاسم، وسوف أنساه حتماً. لكن كيف خطر ببالك أن تحشر نفسك في قضية السكك الحديدية هذه مع هؤلاء اليهود!...

قلْ ما شئتَ، لكن هذا المركز ليس برّاقاً.

لم يقل له ستيفان أركادييفتش إنه يجد هذا العمل ممتعاً، فما كان «بَارتيانسكي» ليفهمه، وإنما قال:

ـ أنا بحاجة إلى المال، وليس لديّ ما أعيش به.

ـ أنت تعيش مع ذلك؟

ـ صحيح، لكنّ عليّ ديوناً.

سأله بارنياتسكي وقد بدت عليه الرأفة.

ـ ماذا! أهي كثيرة؟

ـ نعم، حوالي عشرين ألف روبل.

فأغرب بارتيانسكي في ضحك فرح، وهتف:

ـ أوه! يا لك من رجل سعيد! عليّ، أنا، مليون ونصف، وليس بين يدي فلس واحد، وها أنت ترى أن صحتي ليست أسوأ، من جرّاء ذلك!

لاحظ ستيفان أركادييفتش صحة هذا الكلام. فقد كان جيفا كوف مديناً بثلاثين ألف روبل، ولم يكن معه روبل واحد، وظلّ يعيش حياته المترفة! وكان الكونت كريستوف، وهو في عسرٍ شديد، منذ وقت طويل، ينفق على عشيقتين. وبدّد بيتروفسكي خمسة ملايين، وظل مع ذلك يعيش حياة البذخ نفسها، بل ويدير

مشروعاً مالياً يدرّ عليه عشرين ألف روبل في السنة لكن بطرسبرج، بالرغم من ذلك كله، أثّرت تأثيراً حسناً في صحة ستيفان أركادييفتش. كان يستعيد شبابه. كان، في موسكو، يلقي بين الحين والحين نظرةً على شعره الرمادي، وينام بعد العشاء، ويجر ساقه جراً، وينفخ وهو يصعد السلّم، ويضجر بصحبة النساء الفتيات، ولا يرقص في الحفلات. أما في بطرسبرج فكان يحسّ، على العكس، أنه أصغر بعشر سنوات. لقد خالجه الإحساس نفسه الذي كاشفه به أمس بالذات الأميرُ بيير أوبلونسكي وهو ابن ستين، وقد عاد من الخارج.

قال له بيير أوبلونسكي:

ـ نحن، هنا، لا نعرف كيف نعيش. صدّقْني إذا شئتَ، لقد قضيتُ الصيفَ في «بادن» وأحسستُ هناك أنني شاب. إن مرأى امرأة حلوة كان يثيرني. . . وعشاء مع قليل من الشراب كان يبعث القوّة فيّ. فلما وصلتُ إلى روسيا، كان لا بد لي من زيارة امرأتي، وفوق ذلك كله في الريف. . . وفي مدى خمسة عشر يوماً، عدتُ إلى مبذلي، ولم أعد أرتدي ثيابي للعشاء. ذهب الشباب! ورجعتُ شيخاً، ولم يبقَ لي إلاَّ أن أفكّر في خلاص روحي. فقمت بجولة إلى باريس وردّ ذلك عليَّ صحتي مرة أخرى.

كان ستيفان أركادييفتش يحسّ بالفرق نفسه. ففي موسكو، كان يتهاون بالقيام بحق نفسه إلى حد بعيد بحيث لو قُدّر له أن يعيش طويلاً هناك فلربما انتهى به الأمر (وكل شيء ممكن) إلى أن ينشغل بخلاص روحه، أما في بطرسبرج فقد كان يغدو رجلاً مناسباً.

كانت بين الأميرة بيتسي تفيرسكوي وستيفان أركادييفتش روابطُ قديمة وغريبة حقاً. فقد غازلها دائماً، على سبيل المزاح، وكان يقول لها، على سبيل المزاح أيضاً، أشدّ الأشياء بذاءةً، لعلمه أن هذا هو الذي يسرّها قبل غيره. وفي اليوم التالي لحديثه مع الكسي الكسندروفتش، أحسّ، أثناء زيارته لها، بأنه في

ذروة شبابه، ومضى بعيداً في هذا الهزل الفاحش، حتى إنه يعلم كيف يتراجع، ذلك أنها، لم تكن، لسوء الحظ، تعجبه، بل إنها كانت تثير اشمئزازه، وقد توطّدت هذه اللهجة بينهما، لأن بيتسي كان تجده، في المقابل، ملائماً لذوقها. ولذلك اغتبط بمقدم الأميرة مياغكوي التي وضعت حداً لخلوتهما.

قالت له وهي تلحمه:

ــ آه! أنتَ أيضاً، هنا. وماذا حلّ بأختك المسكينة؟

وأضافت:

ــ لا تنظرْ إليَّ هكذا. فمنذ أن رأيت نساءً يفعلن أسوأ من فعلتها بألف مرة، ثم يقذفنها بحجارتهن، صرتُ أرى سلوكها رائعاً. لا يمكن أن أغفر لفرونسكي أنه لم ينبْئني بمروره في بطرسبرج. إذن لزرتُه ولطفتُ به في كل مكان. بلّغْه تحياتي. حدّثْني عنها.

بدأ ستيفان أركادييفتش كلامه وقد صدّق لسذاجته ما قالته الأميرة مياغكوي: «حدّثْني عن أختك».

ــ إن وضعها مؤلم جداً، فهي...

لكن الأميرة ما لبثت أن قاطعته، على عادتها، واسترسلت في تعليقاتها:

ــ لقد فعلتْ ما تفعله النساءُ جميعاً، ما عداي، وهن مختبئاتٌ؛ لم تشأ أن تستخدم الحيلةَ وهذا جميل جداً. وخيراً فعلت حين تركت فجأة ذلك الغبـي، صهرك. اعذرْني. الناس جميعاً كانوا يقولون: إنه ذكي، وأنا وحدي كنتُ أؤكد أنه ولد غبـي. والناس جميعاً الآن يقولون عنه بعد أن توثقت العلاقةُ بينه وبين ليديا ايفانوفنا و «لاندو»: إنه مختلّ، يسعدني ألاَّ أشاطر الناس رأيهم، لكن ذلك غيرُ ممكن، هذه المرة.

قال ستيفان أركادييفتش:

ــ اشرحي لي، أرجوك، ما معنى الشيء التالي: لقد زرتُه أمسِ لأكلّمه في

شأن أختي ولأطلب منه جواباً أكيداً. فلم يعطني الجواب وقال لي: إنه سيُفكّر؛ وإذا بـي أتلقى، في هذا الصباح، بدلاً من الجواب، دعوةً إلى سهرة الكونتيسة ليديا ايفانوفنا.

فهتفت الأميرة مياغكوي فرحة:

ــ صحيح، وهو كذلك! سوف يستشيرون «لاندو».

ــ لاندو؟ لماذا؟ ومَنْ هو؟

ــ كيف ألا تعرف «جول لاندو»؟ جول لاندو العرّاف الشهير(١)؟ وهو أيضاً مختل. لكن مصير أختك يتوقف عليه. هذه نتيجة الحياة في المقاطعة، فلستَ مطلعاً على شيء. لاندو هذا كان موظفاً في متجر بباريس. وذات يوم ذهب لاستشارة الطبيب. وفي صالة الانتظار نام، وأثناء نومه، أخذ يزجي النصائح للمرضى. نصائح مذهلة. ثم إن زوجة «يوري ميليدنسكي» (أتعرفه، المريض؟) علمتْ بوجود لاندو هذا، ودعته ليكون قرب زوجها. فيعتني به. وبرأيـي أنه لم ينفعه في شيء لأنه ما يزال واهن القوى، لكنهم يؤمنون به ويأخذونَه أينما ذهبوا. وقد جاؤوا به إلى روسيا. وهنا، ارتمى الناسُ عليه، وأرادوا أن يتعالجوا على يديه. ولقد شفى الكونتيسة «بيزوبوف» فشُغِفتْ به شغفاً كبيراً حتى تبنّته.

ــ تبنّته؟

ــ نعم. ولم يعد اسمُه «لاندو»، بل الكونت بيزوبوف. لكن ليس هذا ما يعنينا. وبطبيعة الحال فإن ليديا قد تعلّقت بعنق «لاندو» هذا، (وأنا أحبها كثيراً لكنها لا تعرف ما تفعل)؛ ولا شيء عندها أو عند الكسي الكسندروفتش يتقرّر بدونه، ولذلك فإن مصير أختك هو الآن بين يدي لاندو، أو بتعبير آخر بين يدي الكونت بيزوبوف.

---

(١) جول لاندو: شخصية خيالية لكنها نموذجية؛ فقد ذاع في بطرسبرج، في هذه الحقبة، أمر العارفين بالمستقبل ومستحضري الأرواح الأجانب، الفرنسيين والإنكليز.

بعد عشاء فاخر، وكمية كبيرة من الكونياك شربها ستيفان أركادييفتش عند بارتنيانسكي، حضر إلى منزل الكونتيسة ليديا ايفانوفنا، مع شيء من التأخر.

سأل الحاجبَ وهو يلحظ قرب معطف الكسي الكسندروفتش، معطفاً غريباً، بسيط التفصيل وله مشابك:

ــ مَنْ عند الكونتيسة؟ الفرنسي؟

فأجابه الحاجب بقسوة:

ــ الكسي الكسندروفتش كارينين والكونت بيزوبوف.

وفكّر ستيفان أركادييفتش وهو يصعد الدرج: «لقد حزرتْ الأميرة مياغكوي. غريب! هذه امرأة يجب أن أوطّد علاقتي بها. إنها ذات تأثير كبير. ولو أنها همست بكلمة إلى بومورسكي، لتأكدتُ من نجاح قضيتي».

كان نور النهار ما يزال قوياً في الخارج، لكن الستائر في القاعة الصغرى من منزل الكونتيسة ليديا ايفانوفنا كانت مسدلةَ والأنوار مضاءة.

كان يجلس قرب المنضدة، بجنب المصباح، الكونتيسة ليديا ايفانوفنا والكسي الكسندروفتش وهما يتحدثان بصوت خافت. وفي الطرف الآخر من القاعة، جلس رجلٌ قصير، هزيل الجسم، انثوي القوام، أصدف الساقين، شديد الشحوب، ذو وجه وسيم، وعينين جميلتين، براقتين، وشعر طويل حتى ياقة سترته، يتأمّل الصورَ المعلّقة على الجدار. بعد أن سلّم ستيفان أركادييفتش على ربة البيت وعلى الكسي الكسندروفتش، ألقى، بالرغم منه، نظرةً صوب الغريب.

نادت الكونتيسة بعذوبة ومراعاة أذهلتا أوبلونسكي:

ــ يا سيّد لاندو.

وعرّفتهما أحدهما بالآخر.

التفت لاندو على عجل، وأقبل عليهم، ووضع، وهو يبتسم، يده اليمنى، الهامدة في يد ستيفان أركادييفتش الممدودة. ثم ما لبث أن ابتعد وعاد إلى التأمل. فتبادلت الكونتيسة والكسي الكسندروفتش نظرة العارفيْن.

قالت ليديا ايفانوفنا وهي تدل ستيفان أركادييفتش على مكان بجنب كارينين:

ـ أنا سعيدة برؤيتك، وبخاصة اليوم.

وتابعت بصوت منخفض بعد أن ألقت نظرة سريعة على الفرنسي ثم على الكسي الكسندروفتش:

ـ لقد قدمته لك باسم «لاندو»، وإنما هو الكونت بيزوبوف، كما تعلم ذلك بدون شك. إنه لا يحب هذا اللقب.

أجاب ستيفان أركادييفتش:

نعم، أنا على علم بذلك. يبدو أنه شفى الكونتيسة بيزوبوف شفاء تاماً.

قالت الكونتيسة وهي تلتفت نحو الكسي الكسندروفتش:

ـ جاءت لزيارتي اليوم. منظرها مؤلم. هذا الفراق فظيع عليها. إنه صدمة شديدة!

سألها الكسي الكسندروفتش:

ـ إذن فقد قرّر أن يذهب.

قالت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا وهي تنظر إلى ستيفان أركادييفتش:

ـ نعم، سيسافر إلى باريس. لقد سمع صوتاً أمس.

فردّد أوبلونسكي وقد أحس بوجوب التزام أعظم الحذر في مجتمع حدثت فيه أو ستحدث فيه أحداثٌ لا يملك مفتاحها بعد:

ـ آه! نعم، سمع صوتاً!

وران الصمت دقيقةً قالت الكونتيسة بعدها وهي تبتسم لا بلونسكي، وكأنها تتطرّق إلى الموضوع الجوهري لحديثهما:

ــ إني أعرفك منذ زمن بعيد وأنا سعيدة بأن أراك في جلسة أقرب إلى الخصوصية. إن أصدقاءَ أصدقائنا هم أصدقاؤنا. لكن، لكي نكون أصدقاءَ يجب أن ننفذ إلى نفس الذين نحبّهم، وأخشى ألا تكون قد فعلتَ ذلك بالنسبة إلى الكسي الكسندروفتش.

واستأنفت وهي ترفع إليه عينين متأملتين:

ــ أنت تفهم ما أعنيه.

قال أبلونسكي، دون أن يفهم بالضبط الغرضَ من كلامها، مع حرصه، من ثمّ، على أن يظلّ في العموميات:

ــ إني أفهم جزئياً، يا كونتيسة، أن وضع الكسي الكسندروفتش...

قالت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا بلهجة قاسية، وهي تلاحق بنظرتها المولّهة الكسي الكسندروفتش الذي قام ودنا من «لاندو»:

ــ لستُ أتحدّث عن التغيّر الخارجي. إن قلبه هو الذي تغيّر. لقد مُنح قلباً جديداً وأخشى ألا تدرك تماماً مدى التغير الذي طرأ عليه.

ــ يعني أنني أستطيع أن أتصور هذا التغيّر في خطوطه العامة. فقد كنا دائماً متصافييْن والآن...

قال ستيفان أركادييفتش ذلك وهو يردّ على نظرة الكونتيسة بنظرة رقيقة. وكان يتساءل: بأي الوزيرين هي أعرف حتى يسألها التوسط له عنده.

ــ إن هذا التغير الذي حدث في كيانه لا يمكن أن يُضعف حبّه للقريب؛ على العكس، إنه لا يمكن إلاَّ أن ينمّي الحبّ فيه. لكنني أخشى ألاَّ تفهمي.

وأضافت وهي تشير بنظرتها إلى خادم يحمل صينية:

ــ أؤقدّم لك شاياً؟

ــ لم أفهمك كل الفهم، يا كونتيسة. فلا شك أن مصيبته...

قالت وهي تنظر إلى ستيفان أركادييفتش نظرة ذابلة:

ـ مصيبة غدت سعادته الكبرى، لأن قلبه قد تجدّد وامتلأ «به».

قال ستيفان أركادييفتش في نفسه: «أعتقد أنني يمكن أن أسألها التشفّع لي بكلمة عند الاثنين». قال:

ـ بالتأكيد، يا كونتيسة، لكن يلوح لي أن هذه التغيّرات هي في أعماق الذات بحيث لا يحب أحدٌ، حتى أقرب الأصدقاء. أن يحدّثك عنها.

ـ على العكس! يجب أن نتحدث عنها وأن نتعاون.

قال أوبلونسكي وهو يتكلّف ابتسامة لطيفة:

ـ نعم، ولا شك، لكنّ هناك اختلافاً في الآراء، ثم إنّ...

ـ لا يمكن أن يكون هناك اختلافٌ في الآراء عندما يدور الكلامُ على الحقيقة المقدّسة.

ـ بالطبع، بيد أن...

صمت ستيفان أركادييفتش، وقد ارتبك، لقد أدرك أن المقصود هو الدين.

قال الكسي الكسندروفتش بصوت خافت وبوقار وهو يدنو من ليديا ايفانوفنا:

ـ يبدو لي أنه سينام بين لحظة وأخرى.

التفتَ ستيفان أركادييفتش. كان «لاندو» جالساً قرب النافذة، متكئاً بمرفقه على ذراع المقعد، خافض الرأس، شاعراً بالنظرات المتّجهة إليه. رفع رأسه وابتسم ابتسامة صبيانية وساذجة.

قالت ليديا إيفانوفنا:

ـ لا تنتبهْ إليه.

وقدّمت كرسياً لا لكسي الكسندروفتش بحركة رشيقة واستأنفت:

ـ لقد لاحظتُ...

لكنها رأت خادماً يدخل ومعه رسالة، فقرأتها بسرعة، وبعد أن اعتذرت،

كتبتْ عدة أسطر بسرعة خارقة، وسلّمت الخادَم الجوابَ، وعادت إلى الطاولة، وتابعت كلامها:

ــ لقد لاحظتُ أن أهل موسكو، ولا سيّما الرجال، أقل الناس مبالاة بمسائل الدين.

فاحتج ستيفان أركاديفتش قائلاً:

ــ أوه! لا، يا كونتيسة، يبدو لي أن أهل موسكو مشهورون بصلابتهم في هذه المسألة.

قال الكسي الكسندروفتش وهو يلتفت إليه وعلى وجهه ابتسامة متعبة:

ــ وإذا كنتُ قد أحسنتُ الفهم، فأنت في عداد اللامبالين.

قالت ليديا ايفانوفنا:

ــ كيف يجوز أن يكون الانسان غير مبالٍ!

فردّ ستيفان أركاديفتش وهو يبتسم ابتسامةً مُهدّئة:

ــ أنا، من هذه الناحية، في طور الانتظار على الأقل، إن لم أكن غير مبالٍ. وأعتقد أن الأوان لم يحن بعد، بالنسبة إليَّ، للتفكير في هذه المسائل.

تبادل الكسي الكسندروفتش وليديا ايفانوفنا نظرة سريعة.

ــ لا يمكننا أبداً أن نعلم إن كان الأوان قد حانَ أم لا: ينبغي ألا نتساءَل إن كنا مستعدين أم لا: فالنعمة لا تخضع للاعتبارات البشرية؛ وهي تُهمل أحياناً الذين يتوقون إليها وتهبط على الذين لم يستعدّوا لها، مثل «شاول».

قالت ليديا ايفانوفنا التي كانت تتابع منذ بعض الوقت حركات الفرنسي:

ــ لا، أعتقد أن الوقت المناسب لم يحنْ بعد.

نهض لاندو والتحق بهم. وسأل:

ــ أتسمحون لي بالاستماع.

قالت ليديا ايفانوفنا وهي تنظر إليه نظرة حنونة:

أوه! نعم، ما كنتُ أريد أن أزعجك. اجلسْ بقربنا.

واستأنف الكسي الكسندروفتش:

ــ يجب فقط ألا نغمض عيوننا، حتى لا نُحرم النور.

قالت ليديا ايفانوفنا بابتسامة النشوة:

ــ آه! ليتك تعرف السعادة التي تخالجنا عندما نحسّ «حضوره» في نفوسنا.

قال ستيفان أركادييفتش:

لكن قد يرى الانسان نفسه عاجزاً عن الصعود إلى هذا العلو.

وأحسّ أنه يخالف ضميره حين يسلّم بسموّ الدين، وفي الوقت ذاته، لم يشأْ أن يطرحَ نفسه كمفكر حرّ، أمام شخص يمكنه بكلمة أن يحصل له على المركز الذي يصبو إليه.

قالت ليديا ايفانوفنا:

ــ تريد أن تقول من غير شك، إن الخطيئة تحول بينه وبين ذلك الارتفاع؟ وتلك فكرة خاطئة. لا خطيئة، بالنسبة إلى المؤمنين، لأن الخطيئة قد افتُدِيَتْ.

وأضافت وهي ترى الخادم يدخل ومعه رسالة أخرى:

ــ عفواً.

قرأت الرسالةَ وأجابت الخادم شفهياً: «قلْ له إنني سأكون غداً عند الدوقة العظمى».

وأردفت:

ــ لا، لا خطيئة بالنسبة إلى الذين يؤمنون.

قال ستيفان أركادييفتش:

ــ نعم لكن الإيمان بدون الأعمال إيمانٌ ميت[1].

(١) الإيمان بدون أعمال إيمان ميت: إشارة إلى رسالة يعقوب الرسول: ٢ ــ ١٧.

لقد تذكّر هذه الجملة من كتاب التعليم المسيحي، ولم يدلّ على شخصيته المستقلة إلاّ في ابتسامته.

قال الكسي الكسندروفتش وهو يلتفت إلى ليديا ايفانوفنا بشيء من العتب. والظاهر أنهما تحدّثا غير مرة من قبل حول هذا الموضوع:

ـ انظري إلى ذلك المقطع الشهير من رسالة الرسول يعقوب. فكم أساءَ التأويلُ الخاطيءُ إليه! لا شيء أبعد عن الإيمان من هذا التأويل. «لست أعمل، إذن فأنا لا أستطيع أن أكون مؤمناً». مع أن ذلك لم يرد في أي موضوع. والنّص يَعْني عكس ذلك.

قالت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا وقد بدا عليها الإشمئزاز والأزدراء:

ـ إن الكدّ في سبيل الله، وخلاص الروح بالصيام، إن ذلك من أضاليل الرهبان... في حين أن ذلك لم يرد الأمر به في أي مكان.

وأردفت وهي تنظر إلى أوبلونسكي وهي تبتسم تلك الابتسامة المشجّعة التي تصطنعها في البلاط لتشدّ من عزيمة الوصيفات اللواتي يضطربن من المراسم:

ـ والأمر أبسط وأسهل كثيراً.

فأيّد الكسي الكسندروفتش قولها وهو يوافق عليه بنظرته:

ـ إن المسيح خلّصنا وهو يتألم من أجلنا.

سألت ليديا ايفانوفنا:

ـ أتعرف الإنكليزية؟

ولما تلقّت رداً إيجابياً، نهضت واتجهت إلى رفّ، وقالت وهي تلقي على كارينين نظرة مستفهمة:

ـ سأقرأ عليك «سليمةٌ وسعيدةٌ» و «في ظل الجناح».

وحين وجدت الكتاب، عادت وجلست:

ـ النص قصير. وهو يصف الوسيلة لامتلاك الايمان، وتلك السعادة فوق الأرضية التي تكتسح النفس. إن الإنسان الذي يؤمن لا يمكن أن يكون تعساً، لأنه ليس وحيداً. سوف ترى.

كانت تستعد للقراءة عندما دخل الخادم مرة أخرى، وقالت له بعد أن حدّدت المقطعَ باصبعها، وحدّقت أمامها بعينيها الجميلتين المتأملتين:

ـ السيدة بوروزدين؟ قلْ لها إني سأذهب إليها غداً، في الساعة الثانية.

وتابعت قائلة لأوبلونسكي:

ـ انظرْ كيف يفعل الإيمان الحقيقي. أتعرف ماري سانين؟ أعلمتَ بمصيبتها؟ لقد فقدتْ ابنها الوحيد. كانت في أشدّ الأسى. فماذا جرى لها؟ لقد وجدت العزاء، وهي الآن تشكر الله على موت ابنها. هذه هي السعادة التي يوفّرها الإيمان.

قال ستيفان أركاديفتش وقد اغتبط بهذه القراءة التي ستتيح له أن يتمالك نفسه قليلاً:

ـ أوه! نعم، هذا...

وفكّر في نفسه: «لا، قطعاً، الأفضل ألاّ أسألها شيئاً اليوم. المهم أن أمضي من هنا قبل أن أضلّ سبيلي كلياً».

قالت الكونتيسة ليديا ايفانوفنا مخاطبة «لاندو»:

ـ سيُضجرك هذا، فأنت لا تعرف الإنكليزية. لكن النصّ قصير.

أجاب «لاندو» والابتسامة لا تفارقه:

ـ أوه! سوف أفهم.

وأغمض عينيه.

تبادل الكسي الكسندروفتش وليديا ايفانوفنا نظرة الدلالة، وابتدأتِ القراءةَ.

[٢٢]

تحيّر ستيفان أركادييفتش كلياً من هذه الأحاديث التي سمعها. إن تعقّد حياة بطرسبرج كان يستثيره، في معظم الوقت، بعد خروجه من ركود موسكو، لكنه لم يكن يفهم ويقدّر هذا التعقّد إلا في الحلقات التي ألفها. أما في هذا الوسط الغريب فقد كان يحسّ بأنه ضل السبيل وقصّر عن الفهم. لقد أخذ الثقلُ يدبّ إلى رأسه، وهو يستمع إلى ليديا إيفانوفنا أو يحس بعيني «لاندو» الساذجتين أو المنافقتين (لم يكن يعلم شيئاً عن ذلك) تحدّقان فيه.

اختلطت في ذهنه أشدُّ الأفكار تنوّعاً. «ماري سانين تفرح بموت ابنها... ما ألذّ التدخين في هذه اللحظة... يكفي الإنسانَ أن يؤمن حتى يلاقي الخلاص، والرهبان لا يعرفون كيف يتمّ ذلك؛ الكونتيسة ليديا تعلم، وهي... لمَ ثقلَ رأسي؟ أمن الكونياك أم من غرابة ذلك كله؟ أرجو ألا أكون قد ارتكبت أية فظاظة. لكن ليس الوقت مناسباً لكي أسألها أن تُسدي إليّ خدمة. يُقال إنهم يجبرون المرء على تلاوة الصلوات. بشرط ألا يطلبوا ذلك مني. سيكون ذلك مضحكاً جداً. أيةَ سخافة تقرأُ لي، لكنها تحسن الأدَاء. «لاندو» يُدعى بيزوبوف، لمَ يا ترى؟ وفجأة أحسّ ستيفان أركادييفتش أن فكه الأسفل ينخفض في تثاؤبه انخفاضاً لا سبيل إلى ردّه. فداعب سالفيه ليخفي تثاؤبه، وهزّ نفسه. لكنه أحسّ، في اللحظة التي تلت، أنه قد بدأ ينام وأنه يوشك أن يشخر. لكنه صحا في اللحظة ذاتها التي كانت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا تقول فيها: «إنه ينام».

حملق فيها بوجه مرتعب، كالمجرم الذي فوجىء بالجرم المشهود. وعادت إليه سكينتُه عندما تبين أن هاتين الكلمتين: «إنه ينام» كانتا تنطبقان على «لاندو» لا عليه. لقد غفا الفرنسي كما غفا ستيفان أركادييفتش. لكن نوم ستيفان أركادييفتش كان سيشعرهما بالإهانة (هذا ما فكّر فيه، على الأقل، بل إنه لم يفكر

في ذلك، لفرط ما بدا له كل شيء غريباً)، بينما كان نوم لاندو يغمرهما بالفرح، ولا سيما الكونتيسة ليديا إيفانوفنا.

قالت الكونتيسة ليديا إيفانوفنا وهي ترد ثنيات ثوبها الحريري إلى مكانها بحذر حتى لا تحدث ضجة، وتدعو الكسي الكسندروفتش، في غمرة هياجها، يا صديقي بدلاً من أن تدعوه باسمه:

ـ يا صديقي، أعطه يدك. أترى؟

وقالت للخادم الذي ظهر من جديد:

ـ صَهْ! لستُ فارغةً لأحد.

كان الفرنسي ينام أو يتظاهر بالنوم؛ كان رأسه مستنداً إلى مسند المقعد، وهو يحرك يده الموضوعة على ركبته بحركات خفيفة كأنه يريد أن يلتقط شيئاً. نهض الكسي الكسندروفتش وصدم المنضدة بالرغم من احتراسه ووضع يده في يد الفرنسي. نهض ستيفان أركادييفتش بدوره، وفتح عينيه واسعاً ليتأكد من أنه لم يكن ينام وألقى نظرته على هذا تارةً وعلى ذاك تارة أخرى. وأخذ يحس أن كل شيء يسير من سيء إلى أسوأ داخل جمجمته.

قال الفرنسي دون أن يفتح عينيه:

ـ ليخرجِ الشخصُ الذي وصل أخيراً، الشخص الذي يطلب. . . ليخرجْ!

ـ اعذرْه، لكنك ترى. . . ارجع في نحو العاشرة، والأفضل أن ترجع غداً.

وكرّر الفرنسي بشيء من نفاد الصبر:

ـ ليخرجْ!

قال ستيفان أركادييفتش.

ـ أنا، أليس كذلك؟

وحين تلقى الردّ بالإيجاب، نسي ما أراد أن يطلبه من ليديا إيفانوفنا، ونسي أخته ذاتها، وانسلّ خارجاً وبه رغبة واحدة وهي أن يُفلت من هذا المكان بأسرع ما

يمكن. هبط الدرج على عجل وكأنه يهرب من بيت مصابٍ بالطاعون، وثرثر ومازح الحوذي طويلاً كأنه يريد أن يستردّ توازنه.

وفي المسرح الفرنسي، حيث وصل في الفصل الأخير، ثم عند «التتر» حيث تناول زجاجة من الشمبانيا، تنفّس أخيراً الهواء المألوف لديه. لكنه أحسّ بالانزعاج طوال السهرة.

عندما رجع إلى منزل «بيير أوبلونسكي» الذي نزل عنده، لقي كلمة من «بيتسي» تقول فيها إنها تتوق إلى استئناف الحديث الذي انقطع وترجوه أن يأتي في اليوم التالي. ولم يكد يقرأ الرسالة وهو يقطّب بين حاجبيه حتى سمع في الأسفل خطوات وئيدة لناس يحملون شيئاً ثقيلاً.

خرج ستيفان أركادييفتش ليتطلّع. فإذا بيير أوبلونسكي الذي استعاد شبابه من غير شك. ذلك أنه كان ثملاً إلى حدّ لم يستطع معه أن يصعد الدرج؛ لكنه عندما شاهد ابن أخيه أمر أن يُسند، وتعلّق بستيفان أركادييفتش، واتجه إلى غرفته حيث أخذ يروي له كيف قضى أمسيته، ثم أغفى.

أحسّ ستيفان أركادييفتش أنه مهدود القوة، وقلما كان يقع له ذلك. وظل برهة طويلةً دون أن يجد إلى النوم سبيلاً. كانت ذكريات النهار كلها تبدو له قذرة، ولا سيما الأمسية عند ليديا إيفانوفنا.

في اليوم التالي، تلقى الكسي الكسندروفتش رفضاً قاطعاً للطلاق. وفهم أن هذا القرار كان مبنياً على ما قاله الفرنسي البارحة في نومه الحقيقي أو المصطنع.

[٢٣]

للشروع في أي شيء داخل الأسرة، لا بدّ إما من الخلاف الكلي بين الزوجين أو من الوئام القائم على المحبة. لكنْ عندما ينعدم الخلاف والوئام، وتظل العلاقات بين الزوجين غير محدّدة، فمن المستحيل التفكيرُ الجديّ في أي مشروع.

إن عائلات كثيرة تظل سنين كاملة في موضع غدا كريهاً على الزوجين، لسبب وحيد وهو أنه ليس بين الزوجين شقاق أو وفاق.

كانت الحياة في موسكو، في الحرارة والغبار، لا تطاق، بالنسبة إلى فرونسكي وإلى آنا. كانت الشمس محرقة كأنها شمس الصيف، مع أن الفصل ما يزال ربيعاً، وقد اكتست أشجار الشوارع أوراقها منذ زمن بعيد، وتغطّت أوراق الأشجار بالغبار؛ لكن بدلاً من أن يذهبا إلى «فوزد فيجنسكوي»، كما قرّرا من قبل، بقيا في هذه المدينة الكريهة عليهما لأن الشقاق أخذ يدبّ بينهما.

إن الغيظ الذي دفعهما إلى المواجهة لم يكن له أي سبب خارجي، وجميع محاولات التفاهم لم تعجز عن تبديد ذلك الغيظ فحسب بل إنها زادته تفاقماً. لقد كان غيظاً داخلياً أساسه، عندها، هو فتور فرونسكي إزاءها، وأساسه، عنده، هو الندم على أنه وضع نفسه بسببها في وضع عسيرٍ كانت لاتني تزيده ثقلاً بدلاً من أن تخفّفه. ولم يكن أي منهما يبيّن أسباب ذلك الغيظ، لكنّ كلاً منهما كان يجد الآخر مخالفاً للصواب ويحاول جاهداً أن يبرهن له على ذلك، في أول مناسبة.

كانت آنا ترى أن فرونسكي بعاداته وأفكاره ورغباته واستعداداته الجسدية والخُلُقية، لم يُخْلَق لغير الحب وهذا الحب ينبغي أن يتركّز عليها وحدها. هذا الحب لم يكن جيّاشاً كما كان من قبل؛ وذلك يعني إذن أنه قد حوّل جزءاً منه إلى امرأة أخرى أو نساء أخريات... وكانت غَيْرى من جراء ذلك. لم تكنْ غيرى من امرأة بعينها لكنْ من تضاؤل حبه. إن غيرتها لم تجد غرضاً لها بعد، فأخذت تبحث لها عن غرض. وعند أقل تلميح منه، كانت تنقل غيرتها من غرض إلى غرض. فتارة كانت تغار من هؤلاء المخلوقات السوقيّات اللواتي يستطيع أن يلتقيهن بسهولة، بفضل علاقاته كعزب؛ وتارة أخرى كانت تغار من نساء المجتمع الراقي اللواتي قد يصادفهن في طريقه؛ وفي بعض الأحيان كانت تغار من فتاة خيالية من

أجلها سيهجرها. وهذا الشكل الأخير من الغيرة هو الذي كان يعذّبها أكثر من غيره، لأنه تهوّر وقال لها، في لحظة من لحظات الصدق، أن أمه لم تحسن فهمه حتى إنها سمحتْ لنفسها بإقناعه أن يتزوج الأميرة الشابة «سوروكين».

كانت آنا تسخط عليه، والغيرة تنهشها، وتجد الذريعة، أينما نظرت، لتسخط عليه. لقد حمّلته مسؤولية كل ما هو مؤلم في وضعها. فانتظارها القاسي في موسكو، وحيدةً بين السماء والأرض، وبطء الكسي الكندروفتش وتردّده، وعزلتها، كل ذلك كانت تلقي تبعته على عاتق فرونسكي. ولو أحبها لأدرك كم كان وضعُها مؤلماً ولانتشلها منه. ثم إنه هو المسؤول عن سكناها موسكو لا الريف. فهو لا يستطيع أن يدفن نفسه في الريف كما كانت ثريد، وهو لا يستطيع أن يستغني عن المجتمع، ولقد ألجأها إلى هذا الوضع المضني دون أن يقبل به. وأخيراً فهو الذي يتحمّل مسؤولية انفصالها عن ابنها إلى الأبد.

بل إن لحظات الحنان النادرة التي كانت تعود إلى الظهور لم تكن تهدّئها؛ لقد غدت تكتشف في حنانه ظلاً من الدعة والثقة بالنفس اللتين لم تعهدهما فيه من قبل واللتين كانتا تثيران حنقها.

هبط المساء. وكانت آنا وحدها تنتظر عودته من عشاء للعزّاب قصد إليه، وتذرع مكتب فرونسكي (وكان هذا المكتب هو الغرفة التي تسمع فيها ضوضاءُ الطريق أقل من غيرها) طولاً وعرضاً، وتستعيد في ذاكرتها جميع تفاصيل خصام البارحة. وحين رَجَعتْ من الكلمات الجارحة التي تبادلاها إلى ما كان ذريعةً لها وسبباً عثرت على بداية الحديث. ولم تستطع أن تصدّق، لفترة طويلة، أن أصل خصامها حديث لا يؤذي أحداً ولا يستحقّ اهتماماً. ومع ذلك فقد وقع الخصام. لقد سخر من معاهد البنات التي رآها بلا فائدة، ودافعت هي عنها. حينذاك قال (وكان على العموم يستخفّ بتعليم المرأة) إن «حنّة» الانكليزية الصغيرة التي ترعاها صديقته، ليست بحاجة في شيء إلى تعلّم الفيزياء.

لقد حزّ ذلك في نفس آنا، ورأت فيه إشارةً إلى مشاغلها، مليئة بالازدراء. فردّت عليه بجملة فكّرت فيها وقالتها:

ـ ما كنت أتوقع منكَ بادرة من بوادر الودّ، لكني كنتُ أطمع في شيء من الرقة.

احمرّ من الكيد وأجابها بكلام كريه. ولا تذكر ردّها عليه، لكنه قال لها بعد ذلك، وهو يقصد قصداً واضحاً إلى إيذائها:

ـ صحيح، إن تولّعك بهذه الفتاة لا يعجبني. وأنا لا أُرى فيه غير التصنّع.

لقد أسخطتْها تلك القسوةُ التي هدّم بها العالمَ الذي بنتْه من حولها بكثير من الجهد لتتحمل حياتها، وذلك الظلم الذي أبداه وهو يصفها بالنفاق.

فقالت له:

ـ إني آسَفُ أشدَّ الأسف أن تكون المسائل الغليظة والمادية هي وحدها التي تتأثّر بها.

وتركتْ الغرفة.

وعندما عاد، في المساء، ليلقاها، لم يذكرا هذه المشادة لكنهما كانا يحسّان أن الخلاف باقٍ وإن هدأ.

لقد غاب، طوال هذا اليوم، وشعرت بالوحدة الشديدة، وبالأسف الشديد على خلافهما حتى لقد رغبت في نسيان كل شيء، والصفح عن كل شيء، ومصالحته. أرادت أن تتحمّل مسؤولية جميع الأخطاء وأخذت تفتّش عن الأعذار لفرونسكي.

وحدّثت نفسَها: «الذنب ذنبي، فأنا سريعة الغضب، وغيرى إلى حدّ سخيف... سنتصالح وسنسافر إلى الريف؛ فهناك سأكون أكثر طمأنينة».

وتذكّرت بغتةً كلمته، ولا سيّما القصد الجارح الذي أوحتْ به، وردّدت تلك الكلمة: «لا أرى في ذلك سوى التصنّع». «أعلمُ ماذا عنى. عنى أنه ليس من

الطبيعي أن أحب أبناءَ الآخرين في حين لا أحبّ ابني. لكنْ ماذا يعلم عن الحب الذي تحمله الأمُ لابنها، عن حبي لسيريوجا الذي ضحّيت به من أجله؟ كان يقول ذلك ليجرحني! نعم، إنه يهوى امرأة أخرى، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك».

وتبيّنتْ أنها بدلاً من أن تهدأ، دارت في الحلقة المفرغة من جديد وألفت نفسها في حالة الحنق التي بدأت بها، فخافت من نفسها، واستأنفت حديثها لها: «ألا أستطيع أن أتصرّف تصرّفاً آخر؟ ألا أستطيع أن أحمل نفسي على ذلك؟ وبدأتْ كل شيء من البداية: «إنه مستقيم، شريف، وهو يحبّني، وأنا أحبه. ويمكن أن يتم الطلاق بين يوم وآخر. فماذا يلزمني فوق ذلك؟ الهدوءَ والثقة. سأتحمل مسؤولية جميع الأخطاء. سأقول له، حين يعود، إنني أنا المذنبة (مع أن ذلك غير صحيح) وسنسافر.

ولكي لا تعود إلى التفكير ولا تستسلم لعصبيتها، استدعت الخادم وأمرت بإعداد الحقائب.

عاد فرونسكي في نحو الساعة العاشرة.

[٢٤]

سألته، وهي تقبل عليه بوجه رقيق، نادم:

ــ حسناً! وهل كان العشاء ممتعاً؟

فأجابها:

ــ كالمعتاد.

وتنبّأ من أول نظرة أنها كانت في لحظة من لحظات انشراحها. لقد تعوّد الآن تقلّبات مزاجها، وسُرّ سروراً جمّاً مما رأى، في هذه اللحظة، لأنه هو نفسه كان في أحسن حالاته.

قال وهو يشير إلى الحقائب في البهو:

ـ ماذا أرى؟ هذا جميل حقاً!

ـ نعم، يجب أن نسافر. لقد جلتُ بالعربة جولةً فوجدت النزهة ممتعة جداً حتى شوّقتني إلى العودة إلى الريف. لا شيء يحول بينك وبين السفر، أليس كذلك؟

ـ هذا كل ما أبغيه. سأبدّل ثيابي وأعود، وسنتحدّث. اطلبي لي شاياً.

ومضى إلى حجرته.

شعرت بالإهانة من قوله: «هذا جميل حقاً»! . فهذه الكلمة تُقال لولدٍ كفَّ عن نزواته. ثم إن لهجة الاعتداد بالذات إزاء موقف آنا المتواضع كانت أشد إهانة. وأحسّتْ، في طرفة عين، برغبة في الصراع تجتاحها، لكنها سيطرت على نفسها واستقبلت فرونسكي ببشاشة.

ثم قصّتْ عليه حكاية يَومها وعرضت عليه مشروع السفر، بجملٍ هيّأتها من قبل. قالت له:

ـ أتعلم أن ذلك كان بما يُشبه الوحي؟ ولمَ ننتظرُ الطلاق هنا؟ إذْ يمكننا أن ننتظره في الريف أيضاً. لم أعد أطيق انتظار الطلاق، ولا ترجّيه، ولا الاستماع إلى الحديث عنه. لقد قررتُ ألا يؤثّر ذلك في حياتي بعد الآن. أأنت موافق؟

قال وهو يلقي نظرة قلقة على وجهها المنفعل:

ـ أوه! نعم.

سألتْه بعد صمت:

ـ ماذا فعلتَ؟ ومَنْ كان هناك؟

فسمّى لها فرونسكي المدعوّين:

ـ كان العشاء لذيذاً، وبعد العشاء جرى سباقٌ للزوارق وكان ذلك رائعاً حقاً، لكن كل شيء في موسكو مشوبٌ بما يدعو إلى الضحك. فقد عرضوا علينا معلّمة السباحة لملكة السويد وأظهرت لنا مواهبها.

سألته آنا وهي تقطّب بين حاجبيها:

ــ ماذا؟ سبحتْ أمامكم؟

ــ نعم، في لباس للسباحة أحمر! وهي عجوز بشعة. إذن، متى سنسافر؟

قالت آنا دون أن تجيب:

ــ يا لها من فكرة سخيفة! وهل في طريقة سباحتها، يا ترى، شيءٌ خاص؟

ــ لا شيء على الإطلاق. قلتُ لكِ إن ذلك كان مضحكاً. متى تنوين السفر؟

هزّت آنا رأسها وكأنها تطرد فكرة ثقيلة.

ــ متى؟ كلما عجّلنا كان ذلك أفضل. لن نكون جاهزين غداً. بعد غد.

ــ طيّب... آه! لا، انتظري. بعد غد هو الأحد، ويجب أن أزور أمي فيه.

ارتبك فرونسكي لأنه ما إن لفظَ اسم أمه حتى أحسّ أنها ترشقه بنظرة متشكّكة ولجوجٍ. وزاد من ريبتها ما اعتراه من اضطراب. فتضرّج وجهُها وتنحّتْ عنه. لم تعد تفكّر الآن في معلمة السباحة لكن في الأميرة الشابة «سوروكين» التي تقيم عند الكونتيسة فرونسكي في ملكها القريب من موسكو.

قالت:

ــ بوسعك أن تذهب غداً إليها.

فأجاب:

ــ لا، فالوكالة والمال الذي ستسلّمني إياه لن يكونا جاهزيْن غداً.

ــ طيّب، إذن لن نسافر أبداً.

ــ ولِمَ ذاك؟

ــ إما أن أسافر الاثنين وإما ألا أسافر بعده أبداً!

قال فرونسكي وهو مدهوش:

ــ لكنْ لماذا؟ لا معنى لذلك!

ـ لا معنى لذلك عندك لأنك لا تهتمّ بـي. أنت لا تريد أن تفهم ما حياتي. الشخص الوحيد الذي كان يعنيني هنا هو «حنّة» وأنت تزعم أن ذلك نفاق. لقد قلتَ لي البارحة إنني لا أحب ابنتي وأنني أتظاهر بحب هذه الانكليزية الصغيرة، تصنّعاً مني؛ وأود لو أعرف ما الحياة التي يمكن أن تكون هنا طبيعية بالنسبة إليّ.

تمالكتْ نفسها، في مدى لحظة، وارتعبتْ لأنها لم تفِ بما وطّدت العزم عليه. لكن، مع علمها أنها تسعى إلى دمارها إلا أنها لم تستطع أن تكبح جماح غضبها، ولا أن تمتنع من البرهنة على خطئه بحقها؛ لم يعد بوسعها الخضوع له.

ـ لم أقلْ هذا قط؛ وإنما قلتُ: إنني لا أفهم هذا الحب المفاجىء.

ـ لماذا تكذب، وأنت تفتخر كثيراً باستقامتك.

قال بصوت بهيم وهو يكظم الغضب الذي يغلي فيه:

ـ إني لا أفتخر ولا أكذب أبداً. ومن المؤسف أنك لا تحترمين...

ـ إنما أخترع الناسُ الاحترام ليخفوا غيابَ الحب... إذا كنتَ لم تعد تحبني فالأشرف أن تعترف بذلك.

فصاح فرونسكي وهو ينهض:

ـ لا، أصْبح ذلك لا يُطاق.

وجاء فوقف أمامها وقال وهو يشدّد على مقاطع الكلمات:

ـ لماذا تمتحنين صبري؟ إن لصبري حدوداً.

قال ذلك كمن يستطيع أن يطيل في الكلام، لكنه يتمالك نفسه.

فصرخت وهي تتأمل برعب تعبير الكراهية الذي بدا على وجهه كله وبخاصة في عينيه الشرستين والمهدّدتين:

ـ ماذ تعني بذلك؟

فشرع يقول:

ـ عنيتُ...

لكنه توقّف وقال:

ـ ينبغي لي أن أسألكِ عمّا تبغينه مني.

قالت متمّمة فكرة فرونسكي:

ـ ما يمكنني أن أبغيه منك؟ يمكنني أن أبغي ألاّ تهجرني كما تنوي. بل إني لم أعد أبغي ذلك، فهذا ثانوي. أريد أن أكون محبوبة، ولم أعد كذلك. إذن، لقد انتهى كل شيء.

قال فرونسكي وهو يمسكها بيدها، وعلى جبينه غضون ما زالت تنم على القسوة:

ـ انتظري! انتظري! عمّ تتحدثين؟ لقد قلتُ إنه ينبغي أن نؤخر سفرنا ثلاثة أيام، فأجبتني أنني أكذب وأنني عديم الشرف.

ـ نعم، إنني أكرر: إن الرجل الذي يعيّرني أنه ضحّى بكل شيء في سبيلي (كانت تشير إلى خصام سابق) أسوأ من رجل فقد شرفه، إنه رجل لا قلب له.

فصاح وقد أرخى، من فوره، يد آنا.

ـ لقد نفد صبري.

حدّثت آنا نفسها: «إنه يكرهني، هذا واضح. وتركت الغرفة بخطوات غير ثابتة، دون أن تلتفت ودون أن تقول كلمة، وقالت في نفسها وهي تدخل غرفتها: «إني أريد أن أكون محبوبة، ولم أعدْ كذلك. وإذن فقد انتهى كل شيء. يجب أن أنتهي من ذلك كله». وتساءلت: «ولكنْ كيف»؟ ، وجلست في مقعد أمام المرآة. كانت تتساءل أين تذهب الآن: ؛ إلى العمة التي ربّتها، إلى دولي أو إلى الخارج بكل بساطة. وماذا يفعل الآن وحده في مكتبه؟ وهذا الخصام أهو حاسم أم أن المصالحة ما تزال ممكنة؟ وماذا سيقول عنها أصدقاؤها القدامى في بطرسبرج؟ وكيف سيتلقّى الكسي الكسندروفتش هذا النبأ؟ وماذا سيجري بعد انفصالهما؟ هذه الأفكار وغيرها دارت بخلدها لكنها لم تسترسلْ فيها. ففي أعماق نفسها كانت

تختبىء فكرةٌ مبهمة هي وحدها كانت تهمّها، وإن لم تبلغ دائرةَ وعيها. فعندما فكّرت، مرة أخرى، في الكسي الكسندروفتش، تذكّرت فترة المرض الذي تلا نفاسها والشعور الذي استولى عليها دائماً طوال هذه الفترة «لماذا لم أمُتْ؟ هذا ما قالته وما خالجها آنذاك. وفجأة أدركت ما استقرّ في أعماق نفسها. نعم هذه هي الفكرة التي تحلّ كل شيء. الموت! . . .».

«فالعارُ والخزيُ اللذان لحقا بالكسي الكسندروفتش وبسيرج، وعاري أنا، كل ذلك سَيُمَحَّى بموتي وإذا متّ فسوف يندم، وسوف يبكيني، وسوف يحبّني، وسوف يتألّم بسببي». وظلّت جالسةً في مقعدها، وعلى وجهها ابتسامة الرأفة بنفسها، تنزع وتعيد خواتم يدها اليسرى، وهي تتصوّر العواطفَ التي ستخامره بعد موتها في مختلف وجوهها.

وحوّلَ انتباهَها خطواتٌ تدنو، خطواتُه. فتظاهرت بأنها تضع خواتمها في علبها ولم تُدرْ رأسها إليه.

اقترب منها وأمسك بيدها وقال لها بهدوء:

ــ أنا، فلنذهبْ بعد غد، إذا رغبتِ في ذلك. أنا موافق على كل شيء.

لزمتْ الصمت.

فسألها:

ــ ماذا تقولين؟

فأجابته:

ــ افعلْ ما تشاء.

وفي اللحظة نفسها طفقت تنتحب، بعد أن عجزت عن تمالك نفسها.

وهمستْ في غمرة بكائها:

ــ اتركْني، اتركْني! سأسافر غداً. . . سأفعل أكثر من ذلك. لستُ سوى امرأة هالكة، سوى عبءٍ عليك. ولا أريد أن أعذّبك بعد الآن، لا أريد! سأعيد

إليك حريّتك. فأنت لم تعدْ تحبني، وأنت تحبّ امرأة أخرى.

تضرّع إليها فرونسكي لكي تهدأ وأكّد لها أن غيرتها لا أساس لها إطلاقاً، وأنه لم يكفّ ولن يكفّ عن حبها، وأنه يحبها الآن أكثر مما أحبها من قبل.

وقال لها وهو يقبّل يدها:

ــ آنّا، لماذا يعذّب كلٌ منا الآخر؟

كان وجهه يعبّر الآن عن الحنان وخُيِّل إلى آنا أنها سمعت صوته يتهدّج، وأنها أحست بالدموع تبلّل يدها. وفي اللحظة نفسها، تحوّلت غيرةُ آنا إلى حنان متّقد، يائس فأخذته بين ذراعيها وغمرتْ بالقبل وجهه وعنقه ويديه.

[٢٥]

حين أحسّت آنا أن المصالحة كانت تامة، اهتمت بأمتعتها منذ صباح اليوم التالي. ومع أنهما لم يقرّرا إن كانا سيذهبان نهار الاثنين أو الثلاثاء، بعد ذلك التساهل بينهما، إلاّ أن آنا كانت تتأهب للسفر بنشاط، وقد غدت الآن غير مبالية كلياً بالموعد الذي سيتركان فيه موسكو. كانت في غرفتها ترفع ثيابها من صندوق، عندما دخل عليها فرونسكي وقد بكّر في ارتداء ملابسه. قال لها:

ــ سأذهب، على الفور، لأرى أمي، وسترسل إليَّ المال مع «إيغور». وسأكون مستعداً للسفر غداً.

ومع أنها كانت منشرحة الصدر إلى حد كبير، إلاّ أن تذكيرها بهذه الزيارة وخزها كوخز الابر.

ــ لا، لن انتهي من الاستعداد غداً.

وما لبثْ أن فكّرت في نفسها: «وإذن فقد كان ممكناً ترتيب الأمور كما كنت أريد».

وقالت له وهي تكدّس المتاع على ذراعي آنوشكا المثقلتين به:

ـ إفعلْ ما كنتَ قد قرّرته. واذهب إلى غرفة الطعام، وسألحق بك حال انتهائي من رفع هذه الأشياء التي لا خيرَ فيها.

كان فرونسكي يتناول قطعةً من لحم عندما دخلتْ غرفة الطعام.

قالت وهي تجلس قربه لتتناول قهوتها:

ـ لا تستطيع أن تصدّق كم كرهتُ هذا المسكن. لا شيء أبشع من هذه الغرف المفروشة. إنها لا تعبّر عن شيء، وليس لها روح.

فهذه الساعات وتلك الستائر وتلك البسط المزخرفة بخاصة غدت كابوساً حقيقياً. وأنا أحلم بفوز دفيجينسكوي كما أحلم بالجنة. ألم ترسل الجيادَ بعد؟

ـ لا، ستلحق بنا. وأنتِ، أتنوين الخروج؟

ـ كنت أريد أن أمر على «ولسن» لآخذ لها فستاناً...

وقالت بمرح:

ـ إذن تَقرَّرَ أن تسافر غداً؟

وما لبث أن تغيّر وجهُها. ذلك أن خادم فرونسكي دخل ليطلب إلى معلّمه أن يوقع على إيصال برقية من بطرسبرج. لم يكن في ذلك شيء خاص، لكن فرونسكي قال، وكأنه يريد أن يخفي شيئاً ما، إن الإيصال في مكتبه وعاد بسرعة نحو آنا.

ـ سينتهي كل شيء غداً، لا محالة.

سألته دون أن تصغي إليه:

ممّن البرقية؟

فأجاب على مضض:

ـ من ستيفا.

ـ لماذا لم تطلعْني عليها؟ ما السر الذي يمكن أن يُخفيه «ستيفا» عني؟

نادى فرونسكي الخادم وأمره أن يأتي بالبرقية.

ـ لم أشأ أن أُريك إياها لأن ستيفا مُغْرم بالإبراق. ولماذا يُرسل برقية إذا لم يتقرر شيء؟

ـ بصدد الطلاق؟

ـ نعم، لقد كتب أنه لم يستطع أن يحصل على شيء. مع أنه وعدني مؤخّراً بالجواب النهائي. خذي، اقرئي بنفسك.

أخذتْ آنا البرقية، بيد مرتجفة، وقرأتْها. كانت كما قال فرونسكي بدقة. وفي نهايتها، أضاف أوبلونسكي: «سأعمل الممكن والمستحيل، وإن لم يكن هناك أملٌ كبير».

قالت وهي تحمّر:

ـ قلتُ لك البارحة: إنني لا أبالي بهذا الطلاق. فلا وجهَ إذن لأن تخفي ذلك عني.

وفكّرت في نفسها: «لا شك أنه يخفي عني بالطريقة ذاتها مراسلاته مع النساء».

قال فرونسكي:

ـ بالمناسبة، كان إياشفين ينوي أن يمرّ علينا، في هذا الصباح، مع فويتوف. وأظن أنه ربح نحو ستين ألف روبل من «بيفستوف»؛ وهذا المبلغ أكثر مما يستطيع «بيفستوف» دفعه.

فاستأنفت وقد اغتاظت من تغييره الحديث بغية إشعاره بعصبيتها:

ـ لا، لماذا تظن أن هذا الخبر يهمّني إلى الحدّ الذي ينبغي معه أن تخفيه عني. لقد قلتُ لك أنني لا أريد أن أفكّر فيه بعد الآن وأود أن توليه أقل قدر من الاهتمام.

قال:

ـ إذا كنت اهتمّ به فلأنني أحب المواقف الواضحة.

قالت وقد أخذ حنقها يتزايد لا من كلامه بل من لهجة الثقة الباردة التي يتكلّم بها:

ـ ما أهميّة الأشكال إذا وُجد الحبُّ، لماذا تتوقُ إلى هذا الطلاق؟

قال في نفسه وهو يقطّب بين حاجبيه: «يا إلـٰهي! رجعْنا إلى الحب!» وقال لها:

ـ أنت تعلمين كل العلم لمَ أتوق إليه: من أجلك ومن أجل أولادنا المقبلين.

ـ لن ننجب أولاداً بعد الآن.

قال:

ـ إنني آسف على ذلك أسفاً شديداً!

فقالت له:

ـ أنتَ لا تفكّر إلاَّ في الأولاد، لا فيَّ؛ ونسيتْ كلياً (بل إنها لم تسمع) أنه قال لها: «من أجلك ومن أجل الأولاد».

كانت مسألةُ الأولاد منذ زمن بعيد موضوعاً للخلاف بينهما. وكانت ترى في ميل فرونسكي إلى إنجاب الأولاد دليلاً على لا مبالاته بجمالها.

وردّد وهو يكشّر وكأنه أصيب بألم جسدي:

ـ بلى، لقد قلتُ: من أجلك. قبل كل شيء من أجلك. لأنني مقتنع أن عصبيّتك تأتي، في جزء كبير منها، من التباس وضعك.

وفكّرت دون أن تصغي إليه، متأملةً برعب هذا القاضي البارد والقاسي الذي كان ينظر إليها بعيني فرونسكي وهو يهزأ:

انجلتْ الحقيقة: لقد كفّ عن المداجاة وكشف عن الكراهية التي يضمرها لي.

وقالت:

لا، ليس هذا هو السبب. إن... عصبيتي، كما سمّيتَها، تأتي من أنني ملك يديك، بكل كياني. فوضعي إذن، على العكس، محدّد تحديداً جيداً.

فقاطعها مصراً على الإعراب عن فكرته.

ـ آسف كثيراً لأنك لا تريدين أن تفهمي. الالتباس يأتي من أنك تتصورينني حراً.

قالت له:

ـ تستطيع أن تكون مطمئناً تماماً، بهذا الصدد.

وانثنتْ عنه وأخذت تشرب قهوتها.

رفعت الفنجان، منحيّةً إصبعها، وقرّبته من شفتيها. ورشفت منه بضع رشفات، ثم ألقت نظرة على فرونسكي، فأدركت، بوضوح، من تعبير وجهه، أن يدها وحركتها وصوت الرشف قد أثارت حنقه.

فقالت وهي تحطّ الفنجان بيد مرتعشةٍ:

ـ لست أبالي أبداً برأي أمك ولا بمشاريعها لتزويجك.

ـ لم نتحدّثْ عن هذا.

ـ بلى، عن هذا بالذات. واعلم أن امرأة بلا قلب، سواء أكانت متقدّمة في السن أم لا، وسواء أكانت أمك أم لا، لا شأن لها عندي وأنا أوثر أن أتجاهلها.

آنا، أرجوك ألا تتحدثي عن أمي بهذه اللهجة التي تخلو من الاحترام.

ـ إن المرأة التي تكتشف أين تكمن سعادةُ ابنها لهي امرأةٌ لا قلب لها.

فقال وهو يرفع صوته وينظر إليها بقسوة:

ـ أكرّر عليك أنني لا أحبّ أن أسمعك تتحدثين على هذا النحو عن أمي التي أحترمها.

لم تجبْ. وألقت نظرة مُلحّة على وجهه ويديه، وتذكّرت جميع تفاصيل مصالحتهما البارحة ومداعباتها المشبوبة. وفكّرت: «إنه يسخو وسوف يسخو بمداعباته لنساءٍ أُخر».

ثم ردّتْ عليه بنظرة حاقدة:

ـ أنت لا تحبّ أمك. وما تقوله ليس سوى جُمل طنّانة لا غير.

ـ إذا كان الأمرُ كذلك فيجب...

ـ أن تتخذ قراراً، لقد اتخذت قراري.

وأرادت أن تخرج، لكن إياشفين دخل الغرفة في هذه اللحظة، فتوقّفت لتحيّيه.

لماذا وجب عليها، في حين ثارتْ في نفسها عاصفةٌ هوجاء وأحست أنها بلغت منعطفاً في حياتها يمكن أن يؤدي إلى نتائج رهيبة، لماذا وجب عليها أن تخفي الحقيقة، في هذه اللحظة، أمام الزائر الغريب؟ لم تكن تدري لماذا؛ لكنها سرعان ما حملتْ نفسها على الهدوء، فجلست وأخذت تحدّث الزائر.

سألت إياشفين:

ـ وقضيتك، أين صارت؟ هل تسلمتَ مالك؟

قال إياشفين:

ـ أعتقد أنني لن أتسلّم المالَ كله، وعليّ أن أسافر نهار الأربعاء. وأنتما. متى تسافران؟

ـ وكان إياشفين يلقي نظرته، بين الحين والآخر، على فرونسكي، وهو يطرف بعينيه. لقد استشفّ بوضوح أنه وصل في أثناء خصامهما.

قال فرونسكي:

ـ بعد غدٍ، بدون شك.

ـ على كل حال، كنتما تفكران في السفر، منذ أمدٍ بعيد.

قالت آنّا وهي تنظر إلى فرونسكي في عينيه نظرةً تقول: إنه لا ينبغي أن يفكّر حتى في إمكان المصالحة:

ـ الآن تقرّر ذلك، من مرّة.

وأردفت مخاطبةً إياشفين:

ـ ألم تأخذك الشفقةُ على هذا المسكين بيفتسوف؟

قال إياشفين وهو يشير إلى جيبه:

ـ لم أطرحْ قطّ هذا السؤال على نفسي، آنّا أركاديفنا. إن ثروتي كلها هنا، في جيبي، وأنا الآن غنيّ؛ لكني إذا ذهبت إلى النادي، هذا المساء، فقد أخرج منه وليس معي فلسٌ. والذي يلاعبني ليس له سوى همّ واحد هو: أن يسلبني كل شيء حتى قميصي، وأنا أفعل مثله. إننا نتصارع، وهاهنا اللذة.

ـ لكنْ لو كنتَ متزوجاً فماذا كانت ستقول امرأتك؟

أخذ إياشفين يضحك.

ـ من أجل ذلك بالذات لم أتزوجْ، ولا أنوي أن أتزوج.

قال فرونسكي وقد تدخّل في الحديث:

ـ وهلسنغفور؟[1].

وألقى نظرة سريعة على آنا التي كانت تبتسم. وعندما تلاقت نظراتهما اكتسى وجه آنا تعبيراً بارداً ومتعالياً كأنها تقول له: «لم أنسَ، ولم يتغيّر شيء».

قالت لإياشفين:

ـ ألم تحبّ قطّ؟

ـ أوه! يا إلـٰهي! ما أكثر ما أحببت! لكن اعلمي أن بعضهم يمكنهم أن يجلسوا إلى مائدة اللعب وأن يلعبوا فترة ثم يغادرون اللعب في الوقت المناسب

(١) «هلسنغفور» هي: (هلسنكي) عاصمة فنلندا، التي كانت تابعة لروسيا آنذاك والتي كان لإياشفين فيها مغامرة غرامية.

لكي لا يفوتهم الموعدُ. أما أنا، فإذا كنتُ أكرّس وقتاً للحب فعلى شرط ألّا أتأخّر عن اللعب. لقد دبّرت أموري دائماً لتكون على هذا النحو.

ــ لا، ليس هذا ما كنتُ أعنيه، لقد أردت الكلام على الحب الحقيقي.

كانت تريد أن تسأله عن «هلسنغفور»، لكنها أبت أن تردّد كلمة قالها فرونسكي.

ووصل «فويتوف» الذي اشترى جواداً؛ فنهضت آنا وتركت الغرفة.

قبل أن يخرج فرونسكي، مرّ عليها. أرادت أن تتظاهر بأنها تبحث عن شيء على الطاولة، لكنها استحتْ من هذا التصنّع وحدجته بنظرة متشامخة. وسألته بالفرنسية:

ــ أأنت بحاجة إلى شيء؟

ــ إني أبحث عن شهادة منشأ «غامبيتا» الذي بعته.

قال ذلك بلهجة أوضح ممّا لو قال: «ليس لدي وقت للعتاب ولن يجدي العتابُ نفعاً».

وقال في نفسه: «لم آتِ ما يستحق اللوم. وإذا شاءت أن تقتصّ من نفسها فلتفعلْ ما تشاء». لكنْ بينما كان يخرج، خُيِّل إليه أنه سمع شيئاً فانقبض قلبُه فجأة من الرأفة. وسأل:

ــ ماذا قلتِ، آنّا؟

فأجابت بهدوء:

ــ لا شيء.

ففكّر من جديد وقد فترت عاطفتُه نحوها «وإذنْ، فلتفعلْ ما تشاء!». وانثنى عنها وابتعد. وبينما هو يخرج، رأى في المرآة وجه آنا؛ كانت شاحبة، وكانت شفتاها ترتعشان. أراد أن يقف ويقول لها كلمة معزّية، لكن ساقيه حملتاه إلى خارج الغرفة قبل أن يجد ما يقوله.

ظل غائباً طوال النهار، وعندما دخل، في ساعة متأخرة، قالت له الخادمة: إن آنا أركادييفنا أُصيبت بصداع وهي ترجو ألاَّ يُزعجها أحد.

[٢٦]

لم يبقيا قط يوماً كاملاً على شجارهما. كانت هذه أول مرة.

وكان أكثر من شجار. كان إقراراً بالانفصال الكلّي. أمن الممكن أن ينظر إليها كما نظر إليها عندما جاء يبحث عن الوثيقة في غرفتها؟ أن ينظر إليها ويرى قلبها يتحطم من اليأس ثم يتابع طريقه بذلك الوجه الهادىء واللامبالي؟ لم ينفصلْ عنها فحسب، بل إنه كان يكرهها ويحب امرأة أخرى؛ ذلك واضح.

وعندما تذكّرت الكلمات القاسية التي قالها تصوّرت أيضاً الكلمات التي كان واضحاً أنه ينوي قولها فأخذ غيظها يتزايد من لحظة إلى لحظة.

كان من الممكن أن يقول لها: «إني لا احتجزك، وبوسعك أن تذهبي إلى حيث تشائين. لا شك أنك رفضتِ الطلاق لتعودي إلى زوجك. وإذا كنت تحتاجين إلى المال فسأعطيك المال. كم يلزمك؟».

أَنْطقتْه، في خيالها، بكل الأحاديث التي يمكن أن تبدر عن رجل فظّ، وأبت أن تغتفرها له وكأنه قد قالها فعلاً.

قالت في نفسها بعد ذلك: «بيد أنه كان حتى يوم أمس، يقسم أنه يحبني، وهو رجل مستقيم وشريف. أما انتابني اليأسُ، من قبلُ، مرّات؟

وفيما عدا زيارتها للسيدة ولسن التي استغرقت ساعتين، فقد قضت سحابة يومها تتساءل إذا كان قد انتهى كل شيء أم أنه قد بقي أملٌ في المصالحة، وإذا كان ينبغي لها أن تسافر في الحال أو أن تراه مرة أخرى. انتظرته حتى المساء؛ وعندما أوت إلى غرفتها أمرت أن يُقال له: إنها مصابة بصداع. وفكّرت في نفسها: «إذا دخل عليّ غرفتي فمعنى ذلك أنه ما يزال يحبني. أما إذا لم يدخل فمعنى ذلك أن كل شيء قد انتهى، وسأعلم ما الذي يبقى علي أن أفعله.

في السهرة، سمعتْ عربته وهي تقف، ودقة الجرس، وخطواته، وحديثَه مع الخادمة. لقد صدّق كلام الخادمة، ولم يسع إلى مزيد من الاستفسار، وقصد حجرته. لقد انتهى كلُ شيء إذن.

حينذاك بدا لها بوضوح أن الموت هو الوسيلة الوحيدة لتبعث في قلب فرونسكي الحبّ لها، ولتعاقبه، ولتنتصر في هذا الصراع الذي تخوضه تلك الروحُ الشريرة التي استولت عليها ضدّه.

استوى لديها الآن كلُّ شيء: السفرُ إلى «فوز دفيجنسكوي» وعدمه، الحصول على الطلاق من زوجها أم لا، لقد غدا ذلك كله الآن بلا جدوى. ولم يبق لديها سوى هدف واحد تلاحقه هو: معاقبته.

عندما صبّت لنفسها جرعة الأفيون المعتادة، فكّرت أنه يكفيها أن تتناول القارورة كلها لتموت، وبدا لها ذلك بالغ البساطة والسهولة حتى أخذت تتخيل بلذة كم سيتألم، وكم سيندم، وكم سيتعلّقُ بذكراها عندما يفوت الأوان. كانت مستلقيةً على فراشها، مفتوحة العينين، تتأمّل، على ضوء شمعة محتضرة، نواتىء إفريز السقف، وظل الحاجز الذي عتَّم على جزء منها، وتتصوّر بوضوح ما سيعانيه عندما تموت وتتحول عنده إلى ذكرى. تصوّرته وهو يُردّد على نفسه: «كيف جاز لي أن أوجّه إليها مثل هذا الكلام القاسي؟ كيف جاز لي أن أخرج من غرفتها دون أن أقول لها شيئاً؟ لقد ماتتْ الآن، وفارقتنا إلى الأبد. إنها هناك. . .» وفجأةً تراقص ظلُّ الحاجز، واكتسح الإفريزَ كله، والسقفَ كله؛ وأقبلتْ ظلالٌ أخرى من جهات أخرى مسرعةً إلى لقائه: تراجعت الظلالُ لحظة، ثم انهالت إلى الأمام بسرعة متزايدة، وذابت في موجاتٍ مرتعشة، وغرقتْ الحجرةُ في الظلمة. وفكّرتْ: «الموت!». واستولى عليها رعبٌ شديدٌ حتى لقد ظلّت برهة طويلة لم تستطع فيها أن تدرك أين هي، ولم تستطع أن تلتقط، بيديها المرتعشتين، علبة الكبريت لتشعل شمعة أخرى بدلاً من الشمعة التي ذابت. فقالت في نفسها:

«لا، كل شيء إلاَّ الموت! أنا أحبه وهو يحبّني. وقد وقع لنا مثل هذا من قبل. وسوف يزول». وأحست بدموع الفرح تَهمْي على وجنتيها. ولكي تنجو من الخوف، مضت بخطوات سريعة إلى مكتب فرونسكي.

كان ينام هناك نوماً عميقاً. دنت منه، وتأملته طويلاً، وهي ترفع الشمعة فوق وجهه. كانت تحبّه الآن وهو ينام حبّاً حماً حتى أنها لم تتمالك نفسها من ذرف دموع الحنان؛ لكنها كانت تعلم أنه لواستيقظ لألقى عليها نظرته الباردة، المنبئة بنزاهته، ولوجب عليها، قبل أن تكلّمه، أن تبرهن له أولاً أنه أذنب بحقها. وعادت إلى غرفتها، دون أن توقظه، وتناولت جرعة ثانية من الأفيون، ونامتْ عند الصباح نوماً ثقيلاً قلقاً لم تفقد خلاله شعورها بذاتها دقيقة واحدة.

وفي الصباح، رأت من جديد حلماً مرعباً طالما زارها قبل علاقتها بفرونسكي، وأيقظها. رأت شيخاً قصيراً، أشعث اللحية، منحنياً فوق قطعة من حديد، وهو يهمهم بكلمات فرنسية لا معنى لها؛ أما هي فكانت تحسّ (وهو إحساس كان يتردّد في كل مرة، وفيه كان يكمن هول هذا الحلم المرعب) أن هذا الرجل القصير لا ينتبه إليها لكنه يتابع عمله المرعب من فوقها. فاستفاقت والعرق المتجمّد يغطّيها.

وعندما نهضت تذكّرت، وكأنها تتذكّر من خلال الضباب، نهار أمس.

قالت في نفسها: «لقد تخاصمنا، كما جرى ذلك بيننا عدة مرات. قلت إنني مصابةٌ بصداع، ولم يعد إلى حجرتي. سنسافر غداً؛ يجب أن أراه وأن أفرغ من استعداداتي». واتّجهت إلى غرفته، لعلمها أنه فيها. وعندما عبرت الصالة، سمعتْ عربة تقف أمام الباب، وحين ألقت نظرةً من النافذة شاهدت عربة أطلّت من بابها فتاةٌ بقبعة خبازية تُلقي أوامرها على الخادم الذي فتح لها الباب. وبعد محادثة في غرفة الانتظار، صعد شخصٌ إلى الطابق الأول، وسمعت آنا خطوات فرونسكي الذي كان ينزل الدرج على عجل. خرجَ دون قبعة إلى درج المدخل ودنا من

العربة. فسلّمته الفتاة ذات القبعة الخبازية رزمةً، وقالت له شيئاً وهي تبتسم. وابتعدت العربة؛ وصعد الدرج مستعجلاً.

تبدّد فجأةً الضبابُ الذي اجتاح نفس آنا. واعتصرت قلبها مشاعرُ البارحة على نحو أشد إيلاماً. ولم تستطعْ أن تفهم كيف انحطّت وقبلت أن تقضي يوماً كاملاً مع فرونسكي تحت سقف واحد. فدخلت مكتبه لتبلغه قرارها.

قال لها بهدوء، ولم يشأ أن يلاحظ أو يفهم التعبير المأساوي والمهيب على وجهها:

حملتْ إلى الأميرة سوروكين وابنتها المال وأوراق أمي أثناء مرورهما ولم أستطع الحصول عليها البارحة. ووجعُ رأسك هل خفّ؟

حدّقت فيه دون أن تقول كلمة، وهي واقفة في وسط الغرفة، فرماها بنظرة سريعة، وقطّب بين حاجبيه، وتابع قراءة رسالته. فانثنتْ عنه واتجهت بخطوات بطيئة إلى الباب. كان يستطيع أن يناديها، لكنها أوشكت أن تخرج وهو مخلدٌ إلى الصمت: لم يكن يُسمع سوى صوت الصفحات التي يقلّبها. قال عندما أوشكت أن تجتاز عتبة الباب:

ــ آه! بالمناسبة، سنسافر غداً، لقد تقرّر ذلك؟

قالت وهي تلتف إليه:

ــ أنتَ، أما أنا فلا.

ــ آنا، الحياة مستحيلةٌ هكذا...

فكرّرت:

ــ أنت، أما أنا فلا.

ــ إن ذلك لا يُطاق!

ــ أنتَ... ستندم على ذلك!

قالت ذلك وخرجت.

أرْعبه تعبيرُ اليأس الذي رافق هذه الكلمات، فنهض فجأة وأراد أن يركض خلفها، لكنه تراجع عن ذلك، وعاد إلى الجلوس، وقطّب بين حاجبيه، وقد تشنّج فكاه. لقد غاظه هذا التهديدُ الذي رآه نابياً. وفكّر: «لقد حاولتُ كلّ شيء، ولم يبق علي إلا عدم الالتفات إلى ذلك». وتهيّأ للخروج: كان ينبغي أن يذهب إلى المدينة، ثم يمر على أمه مرة ثانية لتوقيع الوكالة.

سمعتْ خطاه في المكتب وفي غرفة الطعام. توقّف في قاعة الاستقبال، لكنه لم يرجع إليها، وأمر فقط بإعادة الجواد إلى «فويتوف» أثناء غيابه. ثم سمعت العربة تتقدم والباب يُفتح. وخرج ثم عاد إلى غرفة الانتظار ثم صعد شخصٌ السلّم مستعجلاً. كان هذا الشخص هو الخادم الذي عاد ليحمل له قفّازيه اللذين نسيهما. ركضت إلى النافذة. تناول قفّازيه، ولمس كتف الحوذي وقال له شيئاً. ثم استقر في صدر العربة، في وضعه المعتاد، مصالباً بين ساقيه، دون أن يتطلّع نحو النافذة، وغاب في ركن الشارع بينما هو يلبس أحد قفّازيه.

[٢٧]

قالت آنا في نفسها وهي واقفةٌ قرب النافذة «لقد ذهب! وانتهى الأمر!». وجواباً عن هذا السؤال اختلط القلقُ الذي استولى عليها في الظلمة بهول الحلم المرعب ليجمّدا قلبها من الرعب.

هتفت:

ــ لا ، هذا مستحيل!

وعَبَرتْ الغرفة ورنّت الجرس بيد قوية. كانت مرتعبةً من أن تجد نفسها وحدها إلى الحد الذي نهضت فيه لملاقاة الخادم بدلاً من أن تنتظره. وقالت له:

ــ استعلمْ عن المكان الذي ذهب إليه الكونت.

فأجابها أن الكونت ذهب إلى الاصطبلات:

ــ ورجاني أن أقول لك: إنك إذا أحببتِ الخروج فستعود العربة في الحال.

ــ حسناً. انتظر. سأكتب كلمةً. وأرسلْ «ميشيل» ليحملها إلى الاصطبلات.

وجلست لتكتب: «لقد أخطأتُ. عُدْ، يجب أن نتفاهم. بالله عليك، عُدْ، فأنا خائفة».

ختمت الرسالة وسلّمتها الخادم.

خافت أن تبقى وحدها، فقصدت إلى حجرة طفلتها بعد ذهاب الخادم.

«كيف، ليس هذا هو سيريوجا، وأنا لا أتعرّف إليه؟ أين عيناه الزرقاوان، وبسمته اللطيفةُ، الوجلة؟». كانت هذه هي الفكرة الأولى التي راودتْها، عندما شاهدت طفلة صغيرة، متوردة وسمينة، بشعر أسود جعد، بدلاً من سيريوجا الذي توقّعت، في غمرة تشوّش فكرها، أن تلقاه في حجرة الأطفال. كانت الطفلةُ جالسةً أمام طاولة لا تنفك تطبطب عليها بسدادة دورق، وكانت تنظر إلى أمها نظرة بلهاء بعينيها الشديدتي السواد، وبعد أن أجابت الانكليزية بأن صحتها ممتازة، وبأنها ستسافر إلى الريف غداً، جلستْ قرب ابنتها ودوّرت أمامها سدادة الدورق. لكن ضحكة الطفلة الرنّانة وحركةً من حاجبيها ذكرتاها بفرونسكي على نحو مذهل إلى حدّ نهضت معه مسرعةً وفرّت وهي تحبس عبراتها. وحدثت نفسها: «هل انتهى حقاً كلْ شيء؟ لا، هذا مستحيل. سيعود. لكن كيف سيفسّر لي تلك الابتسامة وهذه الحيوية بعد أن حادثها؟ وحتى لو لم يفسّر، سأصدّقه مع ذلك. وإلا، فلن يبقى سوى حلّ وحيد... وهو حل لا أريده!».

نظرت إلى ساعة الجدار. لقد مرت اثنتا عشرة دقيقة. «الآن، تلقّى رسالتي، وسوف يعود، سيكون هنا بعد خمس دقائق، ليس ذلك طويلاً... وإذا لم يعدْ؟ لا. ذلك مستحيل. يجب ألا يراني بعينيٍّ المحمرتين. سأغسل وجهي. هل وضعتُ قبعتي على رأسي؟».

لم تستطع أن تتذكر. فمدّت يدها إلى رأسها. «نعم، لقد لبستُ قبعتي، لكنْ متى، لست أذكر ذلك على الإطلاق». بل إنها لم تثقْ بيدها، ومضت إلى مرآة الحائط لترى أن كانت حقاً لابسة قبّعتها. لقد كانت مغطيّة رأسها لكنها لم تستطع أن تتذكّر متى كان ذلك. قالت في نفسها وهي تنظر في المرآة إلى وجه محمر، ملتمع العينين على نحو غريب، يتطلع إليها وقد بدا عليه الرعب: «مَنْ هذا؟». وأدركت فجأة أن وجهها: «آه نعم، هذا أنا»، وبينما كانت تفحص نفسها من رأسها إلى قدميها أحسّت بغتة بقبلات فرونسكي على جسدها، فارتعشت. وبعد ذلك رفعتْ إحدى يديه إلى شفتيها وقبّلتها.

«أأنا في طريقي إلى الجنون؟». ومرّت على غرفة النوم التي كانت ترتّبها «آنوشكا».

قالت وهي تقف أمام الخادمة وتنظر إليها، دون أن تعلم ما ستقول لها:

ــ آنوشكا.

قالت لها الخادمة وكأنها قد فهمتها:

ــ كنت تنوين زيارة داريا الكسندروفنا.

ــ آه! نعم، صحيح. سأذهب إليها.

«ربع ساعة للذهاب، وربع ساعة للعودة. إنه في طريقه، وسيكون هنا بين لحظة وأخرى» وأخرجتْ ساعتها ونظرت إليها. «لكن كيف أمكن له أن يذهب ويتركني في مثل هذا الوضع؟ كيف يمكنه العيش دون أن يصالحني؟» ودنت من النافذة ونظرتْ إلى الشارع. ينبغي له أن يكون قد عاد. لعلها كانت مخطئة؟ وعادت تعدّ الدقائق بعد ذهابه.

وبينما كانت تتحقق من الوقت على ساعة الجدار، توقفت عربةٌ أمام الباب. ألقت نظرة من النافذة وشاهدت عربة فرونسكي. لكنْ لم يصعد أحد. وسُمعت في الأسفل أصوات. كان فيها الرسول الذي أرسلته في العربة. فأقبلت عليه:

ـ لم نجد الكونت. . . لقد سافر من محطة «نيجني نوفغورود»[1].

قالت لميشيل، وهو فتى طلق المحيا أحمر الخدين، بعد أن أعاد إليها رسالتها:

ـ ماذا تريد مني؟ ماذا. . .

وتذكّرت:

«آه! نعم، هو لم يتسلّمها».

وقالت للخادم:

ـ عدْ حالاً بهذه الرسالة إلى قرية الكونتيسة فرونسكي، أتعرفها؟ وائْتني بالجواب على الفور.

وفكّرت: «وأنا، ماذا سأفعل؟ نعم، سأذهب إلى منزل دولي، صحيح، وإلا جُننتُ. لكني ما زلت أستطيع أن أبرق. وكتبت البرقية: «أنا بحاجة ماسة إلى أن أكلمكَ، عدْ بأسرع ما يمكن». . .

أرسلت البرقية وذهبت لترتدي ثيابها. وبعد أن وضعت قبعتها على رأسها، ألقت نظرة سريعة على آنوشكا الوديعة التي أخذت تسمن، كانت الرأفة تُقرأ في عينيها الصغيرتين، الرماديتين والمحببتين.

قالت آنا وهي تنتحب:

ـ آنوشكا، يا عزيزتي، ماذا يجب أن أفعل؟

وتهالكت على مقعد وقد بدا عليها الإِنهاك.

قالت الخادمة:

ـ لماذا تعذّبين نفسك إلى هذا الحد؟ هذه أشياء تقع كثيراً. اخرجي، فسوف يُسرّي ذلك عنك.

قالت آنا وهي تتمالك نفسها وتنهض:

---

(١) محطة نيجني نوفغورود: محطة موسكو التي يذهب منها الخط الحديدي إلى الشرق.

ـ نعم، هذا صحيح. إذا وصلتني برقيةٌ في غيابـي فلتُحمَلْ إليَّ في منزل داريا الكسندروفنا. . . أو بالأحرى لا، فلن ألبث طويلاً حتى أعود.

«نعم، يجب ألا أفكر. بل أن أفعل شيئاً ما، أن أخرج، أن أخرج بخاصة من هذا المنزل». كانت تقول ذلك في نفسها وهي تسمع برعب دقّات قلبها المخيفة. وخرجت مسرعة وصعدت إلى العربة.

سألها «بيير» قبل أن يجلس في مقعده.

ـ إلى أين ينبغي أن أوصل سيدتي؟

ـ شارع «التجلّي»، منزل آل أوبلونسكي.

[٢٨]

كان الجو صافياً. لقد هطلَ، طوال الصباح، مطرٌ ناعم وكثيف، ثم صَحَت السماءُ. كانت السطوحُ، وبلاطُ الأرصفة، وحجارة الطريق، والعربات وجلد عُدد الجياد ونحاسها، كان ذلك كله يلمع بضياء متوهج تحت شمس أيار. كانت الساعةُ الثالثةَ وهي الساعة التي تكون فيها حركة الشارع على أشدّها.

جلست آنّا في ركن من العربة المريحة المتهادية برفق على نوابضها الليّنة، والتي يخبّ بها جوادان رماديان، تستعرضُ أحداث الأيام الأخيرة، في قرقعة العجلات، ووسط الانطباعات التي تتالت بسرعة في الهواء الطلق. لقد رأت وضعها رؤيةً مختلفة كل الاختلاف.

ففكرةُ الموت لم تعدْ تبدو لها مرعبة كما كانت من قبل، والموت نفسه لم يعد يبدو محتّماً. ولامت نفسها على انحطاطها. «لقد رجوتُه أن يصفح عني. لقد خنعتُ. عزوتُ الأخطاءَ إلى نفسي. لماذا؟». ودون أن تجيب عن هذا السؤال، أخذت تقرأ عنوانَ المحلات: «مخزن ومستودع. طبيب أسنان. . . نعم سأقول كل شيء لدولي. إنها لا تحب فرونسكي. سيكون ذلك مؤلماً ومخزياً. لكني سأقول لها كل شيء. إنها تُضمر الحبّ لي وسأخذ بنصائحها. لن أذلّ بعد الآن أمامه.

وليس له أن يملي عليّ سلوكي. فيليبوف، خبز أبيض. . . يُقال إنهم يرسلون العجين إلى بطرسبرج. إن ماء موسكو عذبٌ جداً. وخزانات «ميتيشتي» وفطائرها!» وتذكّرتْ أنها قصدتْ مع عمْتها، منذ زمن بعيد، عندما لم يكن لها سوى سبعة عشر عاماً، إلى دير كنيسة القديس سيرج. «ذهبنا في العربة. أكنتُ أنا حقاً مع عمتي، بيديّ الحمراوين؟ كم من الأشياء تبدو لي الآن تافهةً وكانت تبدو آنذاك عجيبةً، بعيدة المنال، إن أحلام تلك الفترة هي التي لا أستطيع أن أجدها مرةً أخرى. أكنت أصدّق آنذاك أنني سأقبل مثل هذه المذلّة؟ كم سيكون فخوراً وراضياً عندما يتسلّم كلمتي! سوف أشعرُه. . . ما أكرهَ رائحة هذا الدهان! ما جدوى هذا الدهان المستمر وهذا البناء المستمر! وقرأتْ: «أزياء وملابس نسائية». حيّاها رجلٌ. كان زوجَ «آنوشكا». «طفيليون علينا» كما قال فرونسكي. علينا؟ لماذا علينا؟ إنه لشيء فظيع ألا نستطيع اقتلاع الماضي بجذوره. إذا كنا لا نستطيع اقتلاعه فنحن نستطيع. على الأقل، أن نتظاهر بنسيانه. وهذا ما سأفعله. وهنا تذكرتْ ماضيها مع الكسي الكسندروفتش الذي محته كلياً من ذاكرتها. ستعتقد «دولي» أنني أهجر زوجي الثاني وأن الذنب، من ثَمَّ، ذنبي. لكنني لا أطمح أن يكون الحقُّ معي!» واشتهتْ أن تبكي. وما لبثت أن تساءلت: لماذا كانت الفتاتان تتحدّثان وهما تبتسمان. كانتا تتحدثان عن الحب، من دون شك. وهما تجهلان كم هو محزنٌ ومُذلٌّ. . . الجارة، الأولاد. ثلاثة صبية صغار يلعبون لعبة الجياد. سيريوجا! إني أفقد كل شيء، وأنت لن تُعاد إلي. نعم، كل شيء ضائع، إن لم يرجع. لعل القطار فاته ولعله الآن في البيت. وقالت لنفسها: «أنتِ تَسْعين إلى إذلال نفسك من جديد! نعم، ما إن أرى دولي حتى أقول لها في الحال: أنا تعسة، والغلطة غلطتي، وأنا أستحقُ ما أصابني، لكني أتألم ويجب أن تهبّي إلى نجدتي. هذه الجياد، وهذه العربة، كل ذلك له، وإني لأشعر بالتقزز في هذه العربة. عمّا قريب، أكفّ عن رؤيتها إلى الأبد!».

كانت آنا تُهيء جملها، وهي تصعد الدرج، وتنكأ جراحها عن علم بما تفعل.

سألتْ في البهو:

ـ هل من أحد هنا؟

أجابها الخادم:

ـ كاترين الكسندروفنا ليفين.

وفكّرت آنا: «كيتي! كيتي نفسها الذي كان فرونسكي مشغوفاً بها، تلك التي يتذكّرها بقوله. إنه نادمٌ لأنه لم يتزوجها في حين هو يكرهني ويأسف على لقائنا».

عندما وصلت آنا، كانت الأختان تتناقشان في الإرضاع. نهضت دولي وحدها للقاء الزائرة التي قطعت حديثهما. وقالت لها:

ـ ألم تذهبي بعد؟ كنت أنوي زيارتك. تلقيتُ اليوم رسالة من ستيفا.

أجابت آنا التي كانت تنظر حولها باحثةً عن كيتي:

ـ نعم، لقد أرسل إلينا برقية.

ـ كتب إلي يقول: إنه لا يستطيع أن يفهم ما يريده الكسي الكسندروفتش بالضبط، لكنه لن يسافر قبل أن يحصل على الجواب.

ـ ظننتُ أن عندك ضيفاً. أأستطيع أن أرى تلك الرسالة؟

قالت دولي وقد انزعجت:

ـ نعم، كيتي هنا، وهي في غرفة الأولاد. لقد أبلّتْ من مرض شديد.

ـ علمتُ بذلك. أأستطيع أن أرى تلك الرسالة؟

قالت دولي وهي تقف على عتبة الباب:

ـ سآتيك بها. . . إنه لا يرفض، أتعلمين، على العكس، إن ستيفا ما يزال يرجو:

قالت آنا:

ــ أما أنا فلستُ أرجو شيئاً ولا أتوق إلى شيء.

فكّرتْ آنا وقد بقيت وحدها: «وهكذا، فإن كيتي تُقدّر أن من المُخزي مقابلتي! وربما كانت على حق. لكنها لا تملك، وهي التي أُغرمتْ بفرونسكي، أن تُملي عليّ سلوكي. أنا أعلم أن أية امرأة محتشمة تأبى أن تستقبلني وأنا في هذا الوضع. لقد ضحّيت له بكل شيء، منذ الدقيقة الأولى. وهذه هي مكافأتي! أوه! كم أكرهه! لمَ جئتُ إلى هنا؟ الأمرُ هنا أسوأ وأشقّ».

سمعت الأختين تتحدثان في الغرفة المجاورة. «ماذا سأقول لدولي الآن؟ سأُفرح كيتي بمشهد تعاستي، وسأبدو كمن يستجدي رضاها وعطفها! لا! على كل حال لن تفهمني دولي. وليس عندي ما أقوله لها. ومع ذلك فأنا أحب أن أرى كيتي لأُريَها كم أحتقرُ كل شيء وكل الناس، وكيف تستوي عندي الأشياءُ جميعاً».

عادت دولي بالرسالة، فقرأتْها آنا وردَّتْها إليها دون أن تقول كلمة.

قالت:

ــ كنت أعلم ذلك كله. وهذا لا يهمني بتاتاً.

قالت دولي وهي تنظر إلى آنا بفضول:

ــ ولمَ ذاك؟ على العكس، الأمل كبير.

لم ترها قط في مثل هذه الغرابة والعصبية. وسألتْها:

ــ متى تسافرين؟

نظرت آنا أمامها وهي تغمض عينيها نصف إغماضة، دون أن تجيب بشيء. ثم قالت وهي تنظر إلى الباب وتحمّر:

ــ هل تخاف كيتي مني؟

قالت دولي بشيء من الخرق لأنها لا تعرف الكذب:

ـ أوه! يا لها من حماقة! إنها ترضع ابنها، لكن ذلك لا يجري على ما يُرام، ولذلك قدَّمتُ لها بعض النصائح. . . ستُسَر كثيراً برؤيتك، وستأتي، في الحال.

عندما علمت كيتي بقدوم آنا، كانت أول حركة بدرت منها هي ألا تظهر أمامها. لكن دولي أقنعتها بالعدول عن ذلك. فحزمت كيتي أمرها ودخلتْ ودنت من آنا وهي تحمرّ لتمدّ يدها إليها، وقالت بصوت مرتعش:

ـ أنا سعيدة برؤيتك.

كانت كيتي مضطربة من جرّاء الصراع الذي نشب فيها بين عدائها لهذه المرأة الشريرة ورغبتها في التسامح؛ لكنها ما إن رأيت وجه آنا الجميل، الأنيس، حتى اختفى عداؤها.

قالت آنا:

ـ ما كنتُ لأدهش لو رفضتِ رؤيتي. لقد تعودتُ كل شيء. كنت مريضةً؟ نعم، أراك متغيرةً.

كانت كيتي تشعر أن آنا تنظر إليها بحقد. وعزتْ هذا الحقد إلى الضيق الذي تعانيه آنا الآن بحضورها، وكانت من قبل ترعاها، فأشفقت عليها.

تحدّثن عن مرض كيتي، عن ابنها، عن ستيفا، لكنْ كان واضحاً أن آنا لا تُعنى بشيء من ذلك كله. وقالت وهي تنهض:

ـ جئت لتوديعك.

ـ متى تسافرين؟

إلا أن آنا التفتتْ هذه المرة أيضاً إلى كيتي، دون أن تجيب، وقالت لها وهي تبتسم:

ـ أنا سعيدة لأنني رأيتك ثانيةً. سمعت الناس يتحدثون عنك من جهات شتّى، وحتى زوجك. وأضافت، بقصد سيء، على ما يظهر:

ـ لقد جاء لزيارتي، وأعجبني كثيراً. أين هو؟

قالت كيتي وهي تحمر:

ـ عاد إلى الريف.

ـ بلّغيه تحياتي، ولا تنسيْ ذلك.

فردّدت كيتي ببراءة وهي تنظر إليها نظرة مشفقة:

ـ لن أنسى ذلك.

ـ وداعاً، دولي!

عانقتها آنا، وشدت على يد كيتي، وخرجت مسرعة.

قالت كيتي بعد أن بقيت وحدها مع أختها:

ـ إنها ما تزال فاتنة كما كانت من قبل. ما أجملها! لكن فيها شيئاً يثير الشفقة. إنها تثير شفقتي على نحو هائل.

قالت دولي:

ـ لم تكن في حالتها الطبيعية. وعندما شيّعتها إلى البهو، لاح لي أنها كانت تشتهي أن تبكي:

[٢٩]

عندما صعدت آنا إلى العربة كانت أشد تعاسة منها عند مغادرتها بيتها. فإلى آلامها انضاف الآن ذلك الشعور بسقوطها وبإعراض الناس عنها، وهو شعور تملّكها على نحو شديد الحدة بحضور كيتي.

سألها «بيير».

ـ أتودّ سيدتي الرجوع إلى البيت؟

فقالت، مع أنها لم تعد تفكر في المكان الذي تقصد إليه:

ـ نعم.

«لقد تأمّلتاني كما يتأمل الناس شيئاً فظيعاً، شيئاً غريباً لا يفهم...». وحدثت نفسها وهي تنظر إلى اثنين من المارّة: «ما الذي يمكن أن يقوله أحدهما

للآخر بمثل هذه الحرارة؟... كنتُ أنوي أن أبوح بين يديها بما في نفسي، ولحسن الحظ أنني لم أفعل. كم كانت ستشمتُ بتعاستي! ما كانت لتدع شيئاً من شماتتها يظهر، لكن شعورها المهيمن كان سيكون شماتتها بأن تراني أكفّر عن المسرات التي حسدتني عليها. وكانت كيتي ستكون أعظم سروراً. إنني أقرأ في أفكارها إنها تعلم أنني كنت ألطف مما يليق مع زوجها. وهي تغارُ مني وتكرهني، وهي تحتقرني فوق ذلك كله. أنا، في نظرها، امرأة سيئة السلوك. ولو كنتُ كذلك لأغريتُ زوجها بحبّي... لو أردتُ ذلك. ولقد فكّرتُ في ذلك، على كل حال».

وقالت في نفسها بينما كانت عربتها تُقبل على رجل ضخم، نضر الوجه، ظنّ أنه يعرفها فرفع قبّعته العالية والبرّاقة من فوق رأسه الأصلع اللمّاع، ولم يفطن إلى غلطه إلا متأخراً: «وهذا رجلٌ راضٍ عن نفسه. لقد ظن أنه يعرفني. وهو لا يعرف عني إلا النزر القليل كأي إنسان على هذه الأرض. أنا نفسي لا أعرف نفسي. إنني أعرف «شهواتي» كما يقول الفرنسيون». وقالت وهي ترى صبيّين صغيرين يوقفان بائع المثلّجات الذي وضع سطله على الأرض وأخذ يجفف وجهه العرقان بطرف الممسحة: «هذان الصبيّان يشتهيان هذه المثلّجات الرديئة. إنهما واثقان من ذلك، على الأقل. نحن جميعاً نشتهي السكاكر والحلويات. فإذا لم نجد السكاكر ارتدْدنا إلى المثلجات الرديئة. هذا مثل كيتي: رضيتْ بليفين حين فقدت فرونسكي، وهي تحسدني، وتكرهني. أنا وهي متباغضتان. أنا أكره كيتي، وكيتي تكرهني. هذه هي الحقيقة. تيوتكين، مُزيّن... إني أزيّن شعري عند تيوتكين. سأروي له ذلك عندما يعود». قالت ذلك وابتسمت. لكنها تذكّرت في اللحظة نفسها أنه لم يبق هناك مَنْ تُضحكه... «على كل حال، ليس هاهنا ما يضحك. كل شيء حقير. الأجراسُ تدعو إلى صلاة المساء؛ ما أشدّ احتراسَ هذا التاجر وهو يرسم إشارة الصليب: كأنه يخاف أن يسقط منه شيء. لمَ هذه الكنائس، وهذه الأجراس، وذلك الكذب؟ لتخفي فقط أننا متباغضون، يبغض بعضنا بعضاً مثل سائقي

العربات الذين يشتمون بعضهم بعضاً. قال إياشفين: «إن خصمي في اللعب سيكون سعيداً لو سلبني كلّ شيء حتى قميصي، وأنا أفعل مثله». ما أصدق ذلك! توقفت أمام البيت، وهي مستغرقةٌ في هذه الأفكار التي ألْهتها عن نفسها حتى نسيتْ وضعها. ولم تتذكّر أنها أرسلت رسالةً وبرقية إلا عندما رأت الحاجبَ يخرج إلى لقائها. سألته:

ـ هل ورد الجوابُ؟

أجاب الحاجب:

ـ سأرى.

وبعد أن ألقى نظرة سريعة في غرفة الانتظار، تناول عن الطاولة المغلّفَ الناعم المربع المحتوي على البرقية وحمله إليها. فقرأتْ: «لا أستطيع العودة قبل الساعة العاشرة».

ـ ألم يعد الرسول بعد؟

فأجاب الحاجب:

ـ لا.

قالت في نفسها: «إذا كان الأمرُ كذلك، فأنا أدري ما الذي بقي علي أن أفعله» وشعرت برغبة مبهمة في الانتقام، وصعدت الدرج بسرعة. «سأذهب بنفسي لألقاه. سأقول له كل شيء، قبل أن أسافر إلى الأبد. لم أكره قط رجلاً كما أكره هذا الرجل!». وعندما رأت قبّعة فرونسكي معلّقة بالمشجب، ارتعشت من الاشمئزاز. لم يدرْ بخلدها أن هذه البرقية كانت رداً على برقيتها وأنه لم يتلقّ بعد كلمتَها. وتصوّرته وهو يتحدث بهدوء مع أمه ومع الآنسة سوروكين ويلتذَ بالآلام التي تكابدها. «نعم، يجب أن أسافر بأسرع ما يمكن».

قالت ذلك في نفسها، وهي لا تعلم بعد إلى أين تذهب. لقد أرادت أن تُفلت من العواطف التي اجتاحتها في هذا البيت الكريه.

إن الخدم والجدران والأشياء في هذا المنزل، كل ذلك كان يوقظ في نفسها الاشمئزاز والكره، ويسحقها.

«سأذهب إلى المحطة؛ فإذا لم أجده فيها ذهبتُ إلى هناك وداهمتهُ مداهمةً». وفتّشتْ في الجريدة عن مواعيد القطارات. كان بينها قطارٌ ينطلق في الساعة الثامنة ودقيقتين. «سأصل في الوقت المناسب». وأمرتْ بربط الجياد النشيطة. وملأتْ حقيبةً صغيرة بالأشياء التي لا بد منها لبضعة أيام. كانت تعلم أنها لن تعود. كما قررت أيضاً (كانت هذه خطةً من خطط عديدة خطرت ببالها) أنها ستأخذ القطار باتجاه «نيجني» وستنزل في أول محطة، وذلك بعد أن يحدث ما يحدث في المحطة أو عند الكونتيسة.

قُدّم العشاء، ومضت إلى غرفة الطعام، لكن رائحة الخبز والجبن أرعبتْها. فأمرت بتقريب العربة ونزلت. كان البيت يلقي ظله على عرض الطريق، وكان المساء صافياً، والشمس ما تزال تدفىء. وكانت آنوشكا التي أنزلتْ حقيبتها، و «بيير» الذي وضع الحقيبة في العربة، والحوذي، ظاهري الاستياء، وكانوا جميعاً كريهين في نظرها: لقد غاظتْها حركاتهم وكلماتهم.

ـ لا حاجة بـي إليك، يا «بيير».

ـ ومَنْ يقطعُ لك تذكرتك؟

فقالت بتبرّم:

ـ طيّب، لا فرق عندي، إذا شئت.

صعد «بيير» إلى المقعد، وحطّ قبضتيه على خصريه، وأمر الحوذي بالتوجه إلى المحطة.

[٣٠]

قالت آنا في نفسها بعد أن تحركت العربة مخلفةً وراء عجلاتها رنيناً مدوّياً على حجارة الطريق غير المستوية: «ها أنا ذا أفهم كل شيء مرة أخرى»!.

وأخذت الإحساساتُ تتوالى في رأسها من جديد.

حاولتْ أن تتذكّر «فيم فكّرت أخيراً؟ في تيوتكين، المزيّن؟ لا، ليس كذلك. نعم، كنتُ أفكر فيما قاله لي إياشفين: إن الصراع من أجل الحياة والكراهية، هما الرابط الوحيد الذي يجمع بين البشر. وقالت في فكرها لجماعة مستقرّة في عربة تقودها أربعةُ جياد، وكان واضحاً أن هذه الجماعة إنما تذهب إلى الريف طلباً للتسلية: «لا تستعجلوا إلى هذا الحد. الكلبُ ذاته الذي تأخذونه معكم لا يمكن أن يساعدكم. لن تُفلتوا من أنفسكم». ونظرت إلى الجهة التي نظر إليها «بيير» فرأت عاملاً فاقداً وعيه من السُكْر يهزّ رأسه، ويقوده شرطيٌّ. ففكّرت في نفسها: «هذا هو الأصحّ. لقد نشدنا، فرونسكي وأنا، هذه اللذة التي طالما ترجّيناها، فلم نهتد إليها. ولأول مرة سلّطتْ آنا على علاقاتها بفرونسكي، تلك العلاقات التي كانت تتحاشى أن تفكّر فيها من قبل، هذا النور الوهّاج الذي بواسطته انكشف لها كلُ شيء. «ما الذي كان يَنْشدُه فيَّ؟ لم يَنْشدْ الحب بقدر ما نشد إشباعَ الغرور». وتذكرتْ كلماته وأماراته المتذلّلة في الآونة الأولى من علاقاتهما. كل شيء الآن يؤكّد شكوكها. «نعم، إن غروره هو الذي كان ينتصر. كان يحمل لي شيئاً من الحب أيضاً، لكنه كان فخوراً بنجاحه قبل كل شيء. كان يفخر بـي، أما الآن فقد انتهى كلُّ شيء. لم يبقَ له ما يفتخر به. بل لقد غدا يخجل بـي. أخذ مني كل ما يستطيع أخذه، ولم تَعدْ له حاجةٌ بـي. أنا عبء عليه وهو يحاول جاهداً ألا يكون لئيماً معي. فضح نفسه أمس: إن كان يرغب في الطلاق، وفي الزواج بـي فلكي يقطع على نفسه خطّ الرجعة. إنه يجني، لكنْ بأية طريقة يجني؟ لقد تلاشى الباقي... وفكرت وهي تشاهد وكيلاً تجارياً أحمر الخدين يمتطي جواداً للترويض: «هذا الرجل يريد أن يُدهش جميع الناس وهو شديدُ الرضا عن ذاته...»، «لا، بل إنه فقد هذا الميلَ إليّ. ولو تركتهُ لاغتبط في أعماق ذاته».

لم يكن ذلك افتراضاً، وإنما رأته بوضوح في هذا النور الكاشف الذي كشف لها، في هذه اللحظة، معنى الحياة والعلاقات الإنسانية.

تابعت تفكيرها:

«إن حبي يزداد مع الزمن توقّداً وأنانيةً، أما حبُّه فيخمد من يوم إلى يوم، ولذلك تباعد أحدنا عن الآخر. ولا علاج لذلك. إنه كل شيء بالنسبة إليّ وأريد أن يمنحني نفسه كاملة. أما هو فيزداد رغبة في الإفلات مني. قبل علاقتنا، كان كل منا يسير إلى لقاء الآخر، أما منذ هذه العلاقة فكل منا يسير في طريقه التي لا محيدَ عنها. لا سبيل إلى تغيير ذلك. يقول لي: إنني أغار على نحو مضحك؛ وأنا لمتُ نفسي على غيرتي؛ بيد أن ذلك غير صحيح. فلست غيرى، وإنما أنا غير راضية. لكن...» فتحت فمها وغيّرت مكانها في العربة، وقد هزّتها فكرةٌ مفاجئةٌ مرّت ببالها. «ليتني أستطيع أن أكون شيئاً آخر غير عشيقة متعطّشة إلى مداعباته؟ لكنني لا أستطيع ولا أريد أن أكون شيئاً آخر بالنسبة إليه. إن شوقي إليه يَصْرفه عني، وأنا استشعرُ المرارة من جراء إعراضه، ولا مناصَ من ذلك. أنا واثقة من أنه لا يخدعني، ولا يطمع في الزواج بالصغيرة سوروكين، وليس عاشقاً لكيتي، وأنه لن يخونني. أعرف ذلك كله، لكنني لست أسعد حالاً، مع هذه المعرفة. ولو لم يكن طيباً ورقيقاً معي إلا بدافع الواجب، دون أن يحبّني، لما كان هذا هو ما أتوقُ إليه. نعم، إن ذلك سيكون أسوأ ألف مرة من الكراهية! سيكون... الجحيم! ولقد وصلنا إلى هذه النقطة. فمنذ زمن بعيد كفَّ عن حبي. وحيث ينتهي الحب تبدأ الكراهيةُ... لم أمرّ قط من هنا. شوارع تصعد وبيوت، بيوت لا تنقطع... وفي البيوت ناسٌ... وجميعهم، أياً كان عددهم، يبغض بعضهم بعضاً. مهلاً. لنحاولْ تحديد ما أصبو إليه لأكون سعيدة. ما الذي أصبو إليه؟ أنْ يوافقَ الكسي الكسندروفتش على الطلاق، وأن يعيد إليّ سيريوجا وأن أتزوج فرونسكي».

عندما فكّرت بألكسي الكسندروفتش تصوّرته بوضوح خارق، كما لو أنه كان

أمامها بنظرته الوادعة والمنطفئة، وبيديه البيضاوين وعروقهما الزرقاء، وبنبراته وأصابعه التي كانت تفرقع. وتذكّرت الشعور الذي كان قائماً بينهما والذي كان يُطلق عليه أيضاً اسم الحب، فارتعشت من الاشمئزاز.

«طيّب؛ لنفرض أنني حصلتُ على الطلاق وأنني صرتُ زوجةً لفرونسكي. وبعد ذلك؟ هل تكفُّ كيتي عن النظر إلي كما نظرتْ إليّ اليوم؟ لا. هل يكفُّ سيريوجا عن التساؤل لماذا تزوجتُ اثنين؟ هل يمكن أن ينشأ بين فرونسكي وبيني شعورٌ جديد؟ هل يمكنني أن أتوقع شيئاً (بغض النظر عن السعادة) لا يكون عذاباً لي؟ كلا ثم كلا»! أجابت بذلك هذه المرة دون أدنى تردّد. «هذا مستحيل! الحياة نفسها هي التي تَفْصل بيننا: أنا سبب شقائه، وهو سبب شقائي، ونحن لا نستطيع، لا هو ولا أنا، أن نغيّر نفسينا. لقد جرّبنا كل شيء، ولن يجدي شيء. ها هي ذي متسوّلةٌ مع ابنها. هي تتصوّر أنها تثير الشفقة. لكنْ ألم يُلقَ بنا على هذه الأرض لكي يبْغض بعضنا بعضاً. لكي نتعذّب ونعذّب الآخرين؟ وطلاّبُ المدارس؛ إنهم يلهون». وتذكّرت ابنها: «وسيريوجا؟ . ظننتُ أنني أحبه وتحنّنت على عواطفي نفسها. ومع ذلك، فقد عشتُ بدونه، وبادلتُ به حباً آخر ولم أشكُ من هذه المبادلة طالما كان ذلك الحبُ الآخر مُشبعاً». تذكّرت برعب ما سمّته الحب الآخر. لقد ملأها فرحاً ذلك الضياءُ الذي غَمرَ الآن حياتها وحياة جميع الناس. «نحن، في ذلك، سواء، أنا وبيير والحوذي فيدور، وذلك التاجر هناك وجميع الذين يسكنون على ضفاف الفولغا التي تحثنا هذه الاعلانات على زيارتها. الناس جميعاً كذلك في كل مكان وزمان». كذلك كانت تفكر وهي تقترب من محطة نيجني ــ نوفغورود المنخفضة. وهُرع الحمّالون إلى لقائهم.

سألها «بيير»:

ــ هل ينبغي أن نقطع التذكرة إلى أوبير الوفكا؟[1].

---

(١) أوبير الوفكا: محطة على خط نيجني نوفغورود، على ١٦ كم من موسكو، ومكان للاصطياف. =

نسيت كلياً إلى أين ستذهب ولماذا. وكان لا بدّ لها من أن تبذل جهداً كبيراً لتفهم السؤال.

قالت له وهي تمد إليه كيس نقودها.

ـ نعم.

تناولت حقيبتها الحمراء الصغيرة ونزلت من العربة.

وبينما هي تتّجه، من خلال الجمهور، إلى قاعدة انتظار الدرجة الأولى، عادت إلى ذاكرتها جميعُ تفاصيل وضعها والاختيارات المتعدّدة التي تردّدتْ بينها. وجاء الأمل واليأس الواحد تلو الآخر لينكأا جراح قلبها المُضنى والمتألم الذي اشتدّ خفقانه حتى كاد يتمزّق. كانت جالسة على أريكة لها شكل نجمة، تنتظر القطار، وتنظر باشمئزاز إلى الداخلين والخارجين، وجميعهم كانوا يبدون كريهين. فتارةً ترى نفسها وقد وصلت إلى المحطة، وأخذت تؤلّف الرسالة التي ستبعث بها إلى فرونسكي؛ وتارة أخرى تتصور فرونسكي وقد استخفّ بآلامها وأخذ يشتكي إلى أمه منها: هيّأتْ حينئذٍ ما سوف تقوله له وهي تدخل القاعة. أو أنها كانت تحلم بأنها يمكن أن تكون سعيدة، وبأن العذاب الحقّ هو أن تحبه وتكرهه في آن واحد كما هو شأنها الآن؛ وأرعبتْها دقاتُ قلبها.

[٣١]

دوّى قرعُ جرس؛ ومرّ أمام آنا شبابٌ كريهو المنظر، وقحو الهيئة، مستعجلون ومعنيّون، في الوقت نفسه، بالأثر الذي يُحدثونه. عَبرَ «بيير» قاعةَ الانتظار، وهو غارق في بزته الرسمية ولفافتيه، ودنا منها بوجهٍ كوجه الحيوان الغبـي، لكي يقودها إلى حافلتها. سكت الشبابُ الذين كانوا يتحدّثون بصوت عالٍ عندما مرت على الرصيف، بقربهم، وأبدى أحدهم ملاحظة بصددها تخلو من الحشمة. صعدت السلم الصغير وجلست في العربة الفارغة على أريكة لينة كانت بيضاء من قبل، وهي الآن مغطّاة بالبقع. وَثَبتْ حقيبتُها الصغيرة على نوابض الأريكة، ثم تجمّدتْ. رفع «بيير» عمرته المزينة بشرائط، من خلف النافذة، مودّعاً

لها، وعلى فمه ابتسامةٌ بلهاء؛ صفق باب العربة مراقبٌ فظّ. مرّت امرأة بشعة ترتدي خرّاطة (عرّتها آنا في فكرها وهالتْها بشاعتُها) ومعها بنات صغيرات وهن يقهقهن ويركضن على الرصيف.

صاحت إحدى البنات:

ـ كاترين أندريفنا هي التي تملكها، يا عمتي!

فكّرت آنا: «هذه البنت متصنّعة ومنافقة». ولكي لا ترى أحداً نهضت بسرعة وجلست في الجهة الأخرى من العربة قرب النافذة. مرّ أمام النافذة فلاح قصير، بشع وقذر، وعلى رأسه عمرةٌ تفلّتَ منها شعرُه الأشعث، وانحنى نحو عجلات القطار. وحدّثتْ آنا نفسها: «هذا الرجل القبيح يذكّرني بشيء ما». حينئذٍ عاد حلمها إلى ذاكرتها؛ فالتجأت بحذاء الباب وهي ترتجف من الرعب. فتح المراقبُ الباب ليُدخل سيداً وسيدة.

ـ أترغبين في النزول؟

لم تجب آنا. ولم يلاحظ المراقبُ والقادمان أمارات الرعب على وجهها الذي غشّته غلالةٌ. وعادت لتجلس في ركنها، وأخذت تفحص زينتها خفيةً، في حين جلس الزوجان في الطرف الآخر من المقصورة. وبدا لها الزوجُ والزوجة كريهين. استأذنها الزوج بالتدخين: كان من الواضح أن تلك ذريعةٌ ليشرع في الحديث معها. وعندما نال موافقة آنا، خاطب زوجته بالفرنسية قائلاً لها: إنه لا يرغب في الكلام ولا في التدخين. كانا يقولان تفاهات، ويتصنعان الجِدّ، ليسترعيا انتباه آنا، لا غير. وكانت ترى أن كلاً من الزوجين قد سئم الآخر وكرهه. وعلى كل حال كيف لا تُكرَهُ أمثال هذه المسوخ التي تدعو إلى الرثاء؟ تلتْ قرعةَ الجرس الثانية جَلبةٌ امتزجتْ فيها ضجةُ الأمتعة التي كانت تُنقل بالصراخ والضحك. كانت آنا مقتنعة أشد اقتناع بأنه لا مجال للإبتهاج فغاظها هذا الضحك حتى الألم؛ وتمنّت لو تسدّ أذنيها حتى لا تسمعه. وأخيراً رنّ الجرس للمرة

الثالثة؛ سُمعَ صوتُ صافرة ثم صوت القاطرة الشاكي؛ تحركَ القطار، ورسم الزوج علامة الصليب. قالت آنا في نفسها وهي ترميه بنظرة معادية: «من المثير أن نسأله عن المعنى الذي يَنْسبه إلى هذه الحركة». نظرتْ من النافذة، من فوق رأس السيدة، إلى الناس الذين جاؤوا لمرافقة المسافرين وقد ظهروا الآن كمن يتراجعون، وهم ثابتون على الرصيف. اهتزت العربةُ التي استقرت فيها آنا اهتزازاً منتظماً عند نقاط تلاقي الخطوط، وخلّفتْ وراءها الرصيف، وجداراً من الآجر، وقرص المرور، وقاطراتٍ أخرى؛ وأخذت العجلات تنزلقُ على الخطوط بسرعة متزايدة، في ضجيج معدني خفيف. استنارت النافذةُ بضياء المغرب الوهاج وهبّ النسيم الخفيف فرفع ستارها. نسيت آنا جاريْها، وهدهدها سيرُ القطار هدهدة رفيقة فاستأنفت تفكيرها وهي تتنفسُ الهواءَ النديّ.

«نعم، أين توقّفتُ في تفكيري؟ عند النقطة التالية: وهي أنني لا يمكنني أن أترقّب وضعاً لا تكون الحياة فيه عذاباً لي. نحن جميعاً خُلِقْنا لنتألّم، ونحن نعلم ذلك ونسعى إلى كتمانه عن أنفسنا. لكن متى رأينا الحقيقة، فماذا يجب أن نفعل؟

قالت السيّدة بالفرنسية، وواضحٌ أنها كانت راضيةً عن جملتها:

ــ لقد أعطيَ الإنسان عقلاً ليتخلّص ممّا يثيرُ قلقَه.

بدت هذه الكلمات كأنها ردٌّ على فكرة آنا. فكرّرت: «ليتخلّص مما يثير قلقه». ورمتْ بنظرتها السيدَ ذا الوجه الأحمر ورفيقته المهزولة، وقدّرت أن هذه المخلوقة السقيمة تعدّ نفسها امرأةً لم يفهمها زوجها، وتعتبر أن زوجها يخدعها، وتحافظ على رأيها بنفسها. وخُيِّل إلى آنا أنها ترى قصتهما وهي تنقّل الضوء في أشد حنايا نفسيهما خفاءً. لكنها لم تجد في ذلك ما يثير اهتمامها فعادتْ إلى تفكيرها.

«نعم، إنني أعاني قلقاً مبرّحاً، وقد أُعطيتُ العقل لأتخلّص منه؛ يجب إذن أن أتخلّص منه. لماذا لانطفىء الضوء عندما لا يبقى شيءٌ ننظر إليه، عندما يبدو

لك كلُّ شيء حقيراً؟ لكن كيف نفعل؟ لماذا يركض هذا المستخدم على السلم الحديدي؟ ولماذا يصرخ هؤلاء الشباب في العربة المجاورة؟ وما حاجتهم إلى الكلام والضحك؟ أينما تطلعتُ وجدتُ الزيف والكذب والمكر والشر» !

عندما توقف القطار في المحطة، نزلت آنا بين جمهور المسافرين، وتريّثتْ على الرصيف، متحاشيةً هؤلاء المسافرين كأن الوباء قد حلّ بهم، ومحاولةً أن تتذكّر لماذا جاءت إلى هنا وماذا كانت تنوي أن تفعل. كلُّ ما كان يبدو لها من قبل ممكناً بدا لها الآن عسير المنال، ولا سيما وسط هذا الجمهور الصاخب من الناس البشعين الذين لا يَدَعونها تستريح. كانوا حيناً من الحمّالين الذين يبادرون إلى عرض خدماتهم، وحيناً آخر كانوا شباباً يصعّدون فيها النظر ويتكلمون بصوت عالٍ ويدقون أعقابهم على أرض الرصيف، وفي بعض الأحيان كان الذين يصادفونها يتنحّون إلى الجانب الضيق من الرصيف. وتذكّرت أنها كانت تنوي متابعة سفرها إن لم تجد الجواب، فاستوقفتْ حمالاً وسألته إن كان لم ير حوذياً يحمل رسالةً إلى الكونت فرونسكي.

ــ الكونت فرونسكي؟ جاء الرسولُ من عنده قبل قليل ليأخذ الأميرة سوروكين وابنتها. صفي لي هذا الحوذي.

بينما كانت تتكلّم مع الحمال، دنا منها الحوذيّ ميشيل محمّراً فرحاً، بمعطفه الأزرق الداكن وسلسلة ساعته، وناولها رسالةً. فضّتْ الرسالة وانقبض قلبها قبل أن تقرأها. كتبَ فرونسكي: «آسف كثيراً لأن رسالتك لم توافني في موسكو. سأعود في الساعة العاشرة». وكانت الكلمات مخطوطةً بيدٍ متهاونة.

قالت في نفسها وعلى وجهها ابتسامةٌ مُستنكِرةٌ:

«الأمرُ كما قدّرتُ! كنت أتوقّع ذلك»! . وقالت بصوت بهيم وهي تلتفت إلى ميشيل:

ــ حسناً، تستطيع أن تعود.

كانت تتكلم بصوت خافت لأن ضربات قلبها المتسارعة منعتها من التنفّس. وفكّرت: «لا، لن أسمح لكَ بأن تعذّبني إلى هذا الحدّ». هذا التهديد كان موجّهاً إلى مَنْ عذّبها. وتابعتْ تمشّيها على الرصيف.

أدارت خادمتان كانتا تذرعان الرصيف رأسيهما لتنظرا إليها وأبْدتا بعض الملاحظات على زينتها بصوت عالٍ. قالتا عن التخريمات التي تضعها: «إنها تخريمات حقيقية». ولم يدعها الشبابُ وشأنها. فمرّوا قربها مرةً أخرى وهم يتفرّسون فيها ويصيحون بصوت متكلّف. وسألها ناظر المحطة إن كانت ستستقلّ القطار... وكان هناك صبي يبيع الشراب فلم يرفع بصره عنها. وفكرت وهي تبتعد: «إلى أين أذهب، يا إلـهي»؟ . وتوقفت في نهاية الرصيف. رأت نساءً وأطفالاً جاؤوا يبحثون عن سيّد ذي نظارتين وهم يضحكون ويتكلّمون بصخب، فلما شاهدوها بحذائهم لاذوا بالصمت. حثّتْ خطاها، وابتعدت عن الجماعة، ومضت لتقف على حافة الرصيف.

دنا قطارُ البضائع، وارتجّ الرصيف، وظنّت نفسها مرة أخرى في القطار الطائر.

وفجأة تذكّرتْ الرجلَ المدهوس في اليوم الذي لقيت فيه فرونسكي لأول مرة، وأدركت بغتةً ما الذي بقي عليها أن تفعله. فهبطت بخطوات سريعة وخفيفة درجات السلم الذي يقود من المضخة إلى الخطّ الحديدي. ووقفت قرب القطار الذي كان يدخل المحطة. لامسها القطارُ تقريباً. أخذت تفحص أسفل الحافلات والحزقات والسلاسل والعجلات الحديدية العالية في العربة الأولى التي كانت تتقدّم ببطء. وحاولت أن تقيس بعينيها المسافة التي تفصل العجلات الأمامية عن العجلات الخلفية، واللحظة التي تكون فيها وسط هذه المسافة.

قالت في نفسها وهي ترى، في ظل الحافلة، الرملَ الممتزج بنُثار الفحم والذي يغطّي العوارض: «هناك! هناك، في الوسط بالضبط؛ سأعاقبه وسأتخلّص من الجميع ومن نفسي».

أرادت أن ترمي بنفسها تحت الحافلة الأولى، لكن حقيبتها الحمراء الصغيرة التي لم تستطع أن تنزعها في الحال فوّتتْ عليها الفرصةَ. كان لا بد لها من انتظار الحافلة الثانية، تملّكها شعورٌ شبيه بالشعور الذي كان ينتابها قبل أن تلقي بنفسها في الماء، ورسمت علامة الصليب. هذه الحركة المألوفة حملت إلى نفسها موجةً من ذكريات الطفولة والشباب. وفجأة تبدّدت الظلماتُ التي كانت تغطّي، في نظرها، كل شيء، وبدتْ لها الحياةُ، في مدى لحظة، بكل أفراح ماضيها. لكنها لم ترفعْ عينيها عن عجلات الحافلة الثانية التي كانت مقبلةً عليها. وفي اللحظة ذاتها التي وجدت نفسها فيها وسط الفراغ الذي يَفْصل بين العجلتين، تخلّصت من حقيبتها الحمراء الصغيرة، وأدخلت رأسها بين كتفيها، ورمتْ بنفسها تحت الحافلة، ويداها أمامها؛ ثم انقلبت على ركبتيها بحركة مرنة كأنها تريد أن تنهض. وفي هذه اللحظة، ارتعبت ممّا أقدمتْ عليه. «أين أنا؟ ماذا أفعل؟ لماذا»؟. أرادت أن تنهض وأن ترتدّ إلى الوراء لكنْ كتلةً هائلة وصلبة ضربتها في رأسها وجرّتها من كتفها. فهمست وقد أحست أنْ لا فائدة من المقاومة: «اغفرْ لي، يا إلـهي، كل شيء». وكان هناك فلاح قصير يشتغل في قطعة من الحديد وهو يدندن. والتمع النورُ الذي أضاءَ لها كتابَ الحياة بحسراته وخياناته وهمومه، التمع ببريق وهّاج لم تعهده من قبل، وألقى الضوءَ على كل ما ظلَّ في العتمة حتى الآن؛ ثم تذبذبَ ذلك النورُ وشحب وانطفأ إلى الأبد.

• • •

الجزء الثامن

[١]

مرّ ما يقرب من شهرين. كان الصيف في منتصفه، وكان الجو شديد الحرارة، بيد أن سيرج ايفانوفتش كان يستعد الآن فقط لمغادرة موسكو.

لقد حدثت، في الآونة الأخيرة، أحداثٌ هامة في حياة سيرج ايفانوفتش. فقبل سنة تقريباً، فرغَ من كتابه الذي عنوانه: «بحث في المبادىء والأشكال الحكومية في أوروبا وفي روسيا»، وهو ثمرةُ جهد دام ست سنوات. وكان قد نُشر مدخلُ الكتاب وبعضُ فصوله في المجلات، كما أنه قرأ بعضاً من فقراته على حلقته، ولذلك فإن الإفكار المعروضة فيه لم تكن جديدة على الجمهور؛ ومع ذلك فقد كان سيرج ايفانوفتش يرجو أن يترك ظهورُ كتابه أثراً عميقاً ويقدّر أن هذا الكتاب إذا لم يحدثْ ثورة في العلوم فسوف يُثير هزةً قويةً، على الأقل، في دنيا العلماء.

صدر الكتاب الذي طُبع بعناية في السنة السابقة، وأُرسل إلى المكتبات.

كان سيرج ايفانوفتش يَرْصُدُ الأثر الذي ستُحدثه دراستُه في المجتمع وفي العالم الأدبي، دون أن يحدّث أحداً عن ذلك، متكلّفاً اللامبالاة عندما يسأله أصدقاؤه إن كان الكتاب قد لاقى إقبالاً، ودون أن يسأل أصحابَ المكتبات إن كان الكتابُ رائجاً.

ويمرّ أسبوع، ثم اثنان، ثم ثلاثة دون أن تظهر تلك الهزة التي ستهزّ المجتمع؛ بعض الأصدقاء من الاختصاصيين ورجال العلم حدّثوه عن كتابه، بدافع المجاملة كما يبدو. أما الآخرون الذين لم يكونوا يهتمون بمؤلف تقني فلم يفوهوا

عنه بكلمة. وأظهر المجتمع الذي كان، في هذه الفترة، مشغولاً بشيء آخر، لا مبالاة تامة. وأما الصحافة فلم تشر إليه بتاتاً.

حسب سيرج ايفانوفتش الوقت الضروري لظهور تقارير تتحدث عن الكتاب، لكن الصمت ظلّ كما كان بعد شهرين.

مجلة «جُعل الشمال» وحدها قالت، في عرض مقالة ساخرة عن المغني «دارا بانتي» الذي فقد صوته، كلمات ازدراء عن كتاب كوزنيتشيف، كلمات أوحتْ بأن كل واحد قد كوّن رأياً حول هذا الكتاب الذي هو غرض للسخرية العامة منذ زمن طويل.

وأخيراً، ظهرت في الشهر الثالث، مقالة ناقدة في مجلة رصينة، كان سيرج ايفانوفتش يعرف كاتبها، فقد لقيه مرةً عند غولوبتسوف. وكان ناقداً فتياً، مريضاً، قوي الأسلوب، لكنه ضحل الثقافة ووجل في علاقاته بالناس.

أقبل سيرج ايفانوفتش على قراءة المقالة باحترام كبير، رغم احتقاره التام لمؤلفها. كانت المقالة فظيعةً.

كان واضحاً أن كاتب المقالة قد فهم الكتاب فهماً مخالفاً للصواب، لكنه أحسن اختيار شواهده بحيث اتضح للذين لم يقرؤوه (ولم يقرأه أحدٌ تقريباً)، أن الكتاب لم يكن سوى لُمامة من الجمل المتكلّفة التي استُخدمتْ، فوق ذلك، في غير موضعها (كما بيّن الناقد ذلك مع إشارات استفهام)، وأن مؤلفه كان جاهلاً كالحمار. وقد قيل ذلك بكثير من البراعة حتى أن سيرج ايفانوفتش نفسه ما كان ليستنكر هذه الدعابة؛ لكن هذا بالضبط هو ما كان فظيعاً.

دقّق سيرج ايفانوفتش في صحة حجج الناقد، بأكبر قدر من النزاهة، لكنه لم يقف، ولو لحظة واحدة، عند العيوب والأخطاء التي هزىء منها: وما لبث أن تذكّر، بالرغم منه، التقاءه كاتب المقالة وحديثه معه، في أدق التفاصيل.

تساءل سيرج ايفانوفتش: «ألم أهنْه على نحوٍ أو على آخر».

وحين تذكّر أنه أشار، أثناء حديثه معه، إلى كلمةٍ تُبرز جهل زميله الشاب، وجد في ذلك تفسيراً للهجة المقالة.

بعد ذلك، كان الصمتُ المطلقُ، وتبيّن سيرج ايفانوفتش أن هذا الكتاب الذي قضى في إعداده ستَّ سنوات بذل فيها الكثير من الجهد والحبّ قد مرّ دون أن يترك أثراً.

ازداد وضعُ سيرج إيفانوفتش عناءً بسبب الفراغ: ذلك أن تأليف الكتاب كان يستغرق، من قبل، الشطر الأكبر من وقته.

كان سيرج ايفانوفتش ذكياً، مثقّفاً، صحيح الجسم، نشيطاً، ولم يكن يعلم فيم يُنفق نشاطه. فالأحاديث في قاعات الاستقبال، والمؤتمرات والجمعيات، وجميع الأمكنة التي يمكن الكلام فيها، كانت تشغل شطراً من وقته؛ لكنه كان يحترس احتراساً شديداً، باعتباره أحد أبناء المدن القدامى، من أن يبوح بنفسه كاملة أثناء الحديث، كما كان يفعل أخوه، ذلك الأخرق، أثناء إقامته في موسكو. ولذلك بقي له الكثيرُ من الفراغ ومن القوى العقلية. ومن حسن حظه، أثناء هذه الفترة العصبية عليه، خصوصاً بسبب إخفاق كتابه، أن المسائل التي كانت موضعاً لاهتمام الناس وعنايتهم، من مثل الشيع المنشقّة، والصداقات الأمريكية، ومجاعة «سامارا»، والمعارض واستحضار الأرواح، قد أخْلتْ مكانها للمسألة السلافية التي كانت، حتى الآن، تكمن تحت الرماد، فأفرغ سيرج ايفانوفتش جهده فيها، وكان أحد باعثيها منذ أمد بعيد.

إبان هذه البرهة، لم يكن الناس يتحدّثون في الوسط الذي ينتمي إليه سيرج ايفانوفتش إلا عن حرب الصرب[1]. وكل ما كان يفعله عادة الجمهورُ العاطلُ لقتل الوقت صار يُفعل الآن لمصلحة «الأخوة السلاف». فالحفلات الراقصة

(١) حرب الصرب: أعلن الصرب الحرب على تركيا في حزيران ١٨٧٦؛ تطوع ألفا روسي، وقاد جيش الصرب الجنرال الروسي «تشيرنيايف».

والموسيقية، ومآدب العشاء، وخطب المناسبات، والزينات النسائية، والجعة، والنُزُل، كل ذلك كان يشهد بالعطف الذي يكنّه الناس للصرب.

كان سيرج ايفانوفتش لا يوافق على شطرٍ كبير مما يُقال أو يُكتب في هذه المناسبة. وكان يرى أن القضية السلافية انتقلت إلى مرتبة الولع الذي تتتالى أنواعُه في المجتمع وتقوم مقام العمل الشاغل، وكان يرى أيضاً أن كثيراً من الناس لا يهتمون بالقضية إلا من أجل هدف تافه أو مربح. وكان يعترف بأن الجرائد تنشر الحماقات أو تبالغ، ولا غاية لها إلا اجتذاب الأنظار وَسبْق غيرها في الصراخ. وقد لاحظ أن الذين يتقدّمون غيرهم، في هذه الهجمة العامة، والذين يُغطّون بأصواتهم على الآخرين هم الفاشلون والمحرومون: الجنرالات بدون جيش، والوزراء بدون وزارة، والصحفيون بدون صحيفة، وزعماء الأحزاب بدون أنصار. كان يرى جميع المظاهر التافهة والمضحكة في اتجاه الرأي العام هذا؛ لكنه كان يرى أيضاً حماسة أكيدة توحّد جميع طبقات المجتمع، وتتعاظم من ساعة إلى ساعة، ولا يجوز لأحدٍ أن يبخل عليها بتعاطفه. إن ذبح الإخوة في العرق والدين قد أيقظ العطف على المضطهدين، والسخط على الظالمين. لقد وَلَّدتْ بطولةُ الصرب وأهالي الجبل الأسود الذين كانوا يناضلون من أجل قضية كبيرة، في الشعب بأسره، الرغبةَ في مساعدتهم لا بالأقوال بل بالأفعال.

وأخيراً، فإن حدثاً آخر غمر سيرج ايفانوفتش بالفرح، وهو ظهورُ الرأي العام. لقد أعرب المجتمع عن أمانيه بوضوح، ووجدت الروحُ الشعبية تعبيراً عنها، كما قال سيرج ايفانوفتش. وكان كلما أكبّ على هذا العمل اتضحتْ له الأبعاد الهائلة التي سيتّخذها والتي ستسمُ العصر بميسمها. فانصرف بكل كيانه إلى هذه القضية الكبيرة، وهكذا نَسيَ أن يفكر في كتابه.

كان كلُ وقته مشغولاً الآن، ولم يبق لديه من الفراغ ما يكفي للرد على جميع الرسائل وجميع الطلبات الموجّهة إليه.

بعد أن اشتغل الربيعَ كلّه وشطراً من الصيف، استعدّ في شهر تموز للحاق بأخيه في الريف.

قصد الريفَ ليستريح قرابة خمسة عشر يوماً، وليستمتع، في قدس أقداس الشعب، وفي أعماق الريف، بمشهد يقظة الروح القومية التي كان يؤمن بها إيماناً راسخاً جميعُ سكان العاصمتين والمدن الكبرى. وكان يصحبه كاتا فاسوف، وكان يتوق، منذ زمن طويل، إلى الوفاء بالوعد الذي قطعه لليفين بأن يذهب لزيارته.

[٢]

لم يكد سيرج ايفانوفتش وكاتا فاسوف يصلان إلى محطة «كورسك» التي كانت مضطربة بالحركة على وجه الخصوص، في هذا اليوم بالذات، وينزلان من العربة ليتفقّدا متاعهما، حتى أقبلت أربع عربات تحمل المتطوعين. فاستقبلتهن سيداتٌ تزوّدن بباقات الورد، ودخلوا المحطة يتبعهم جمهور انهال من خلفهم.

خرجتْ إحدى السيدات اللواتي جئن لاستقبال المتطوعين من قاعة الانتظار وتوجهت إلى سيرج ايفانوفتش فسألته بالفرنسية:

ـ وأنت أيضاً جئت مرافقاً لهم.

قال لها سيرج ايفانوفتش وهو يبتسم ابتسامة لا تكاد تُلحظ:

ـ لا، أنا ذاهب لأستريح عند أخي، يا أميرة. وأنتِ، أما تزالين ملتزمة بموقعك؟

أجابت الأميرة:

ـ لا بد من ذلك. أصحيح أننا قد أرسلنا ثمانمائة؟ لم يشأ مالفنسكي أن يصدّق.

قال سيرج ايفانوفتش:

ـ أكثر من ثمانمائة. إذا حسبنا الذين لم يذهبوا رأساً من موسكو أصبح المجموع أكثر من ألف.

قالت المرأة وقد تهلّلتْ:

ـ هذا ما كنتُ أقوله بالذات. أو ليس صحيحاً كذلك أن ما قِدِّم من هبات بلغ الآن نحو مليون هبة.

ـ أكثر، يا أميرة!

ـ هل قرأت برقية اليوم؟ لقد دُحر التركُ مرة أخرى.

أجاب سيرج ايفانوفتش:

ـ نعم، قرأتُها.

لقد أكدّت الأنباءُ، في هذه البرقية، أن الترك الذين دُحروا على جميع نقاط الجبهة، طوال ثلاثة أيام، قد لاذوا بالفرار: والمنتظر أن تجري المعركةُ الحاسمة في اليوم التالي.

ـ آه! كنتُ أنوي أن أقول لك الشيء التالي: هناك شاب ممتاز طلب السفر مع المتطوعين. لكنْ لا أدري لماذا خلقوا في وجهه الصعوبات. كنت أريد أن أسألك أن تكتب له كلمةً. أنا أعرفه، وقد أوصتني الكونتيسة ليديا إيفانوفنا به.

بعد أن استخبر سيرج ايفانوفتش الأميرةَ عن هذا الشاب، مضى إلى غرفة انتظار الدرجة الأولى، وكتب بطاقة لمن يعنيه الأمر وسلّمها الأميرة.

قالت له الأميرة عندما لحقت به، وهي تبتسم ابتسامة منتصرةً مثقلةً بالمعاني.

ـ أتدري أن الكونت فرونسكي، الشهير... يسافر اليوم...

ـ سمعتُ أنه سيسافر، لكني لا أعلم متى. سيستقلّ هذا القطار؟

ـ نعم. لقد رأيتُه، إنه هنا. أمه وحدها ترافقه. هذا...

خيرُ ما يفعله.

ـ طبعاً.

بينما كانا يتكلمان هُرع الجمهور إلى المقصف، فساقهما معه وسمعا صوتاً

قوياً لسيد يُلقي خطبة في المتطوعين. وكأسه بيده. كان يقول وهو يرفع صوته شيئاً فشيئاً: «خدمة العقيدة والإنسانية وإخوتنا! إن أمنا موسكو تبارككم من أجل هذا المشروع». وهتف والدموع في صوته: «مرحى!».

صاح الجميع: «مرحى!» وكادت الهجمةُ الجديدة على قاعة الانتظار تُلقي بالأميرة أرضاً.

قال ستيفان أركادييفتش الذي ظهر فجأة وسط الجمهور، وقد استنار وجهه بابتسامة مشرقة.

ــ حسناً! يا أميرة، ما قولكِ؟ لقد أجاد الكلام؛ كلامه ينبعث من قلبه! مرحى! آه! سيرج ايفانوفتش، أنت هنا! يجب أن تقول لهم بضع كلمات للتشجيع.

وأضاف وهو يبتسم ابتسامة رقيقة، تنمّ على الاحترام والحذر في آن واحد:

ــ وأنتَ تُحسن ذلك.

وحاولَ أن يجرّ سيرج ايفانوفتش من ذراعه.

ــ لا، إني ذاهب في هذه اللحظة.

ــ إلي أين؟

أجاب سيرج ايفانوفتش:

ــ إلى بيت أخي.

آه! سترى امرأتي. لقد كتبتُ إليها. لكنك ستراها قبل أن تصل رسالتي، أرجوك، قل لها إنك رأيتني وأن كل شيء على ما يُرام. وستفهم. آه! نعم، أرجو أن تكون لطيفاً لتقول لها: إنني عُيّنتُ في لجنة الوكالات المتحدة... أخيراً. وستفهم.

وقال وهو يلتفت إلى الأميرة وكأنه يريد أن يعتذر:

ــ هذه هي مكدّرات الحياة البشرية. هل أخبرتكِ أن الأميرة مياغكوي، «بيبيش» لا «ليز»، أرسلتْ ألف بندقية واثنتي عشرة ممرّضة.

أجاب كوزنيتشيف على مضض:

ــ نعم، سمعتُ بذلك.

قال ستيفان أركادييفتش:

ــ من المؤسف أنك ستذهب. فسوف نقيم غداً مأدبة عشاء على شرف متطوعين مسافرين هما: «ديمربارتنيانسكي من بطرسبرج، وصديقنا «فيسلوفسكي، غريشا»[1]. كلاهما مسافر إلى هناك، فيسلوفسكي تزوج منذ وقت قريب. إنه لفتى كريم النفس، أليس كذلك، يا أميرة؟

قال ذلك وهو يلتفت إلى الأميرة، فنظرت الأميرة إلى كوزنيتشيف دون أن تجيب. لكن ما بدا على الأميرة وعلى سيرج ايفانوفتش من ضيق بسبب حضوره لم يحرك فيه ساكناً. وكان تارةً يحدّق في ريشة قبعة الأميرة وهو يبتسم، وتارة أخرى يحيل نظراته حوله كأنه يسعى إلى تذكّر شيء ما. وعندما رأى امرأة تحمل صندوقاً للصدقة، ناداها ومنحها ورقة بخمسة روبلات.

قال:

ــ لا أستطيع أن أنظر إلى هذه الصناديق بهدوء ما دام معي مال. ماذا قلتَ عن برقية اليوم؟ ما أشد جسارةَ هؤلاء المحاربين من أهالي الجبل الأسود!

وهتف عندما أخبرتْه الأميرة بأن فرونسكي سيسافر في القطار القادم:

ــ غير ممكن!

عبرَ وجهُ ستيفان أركادييفتش، في لحظة، عن الحزن لكنه عندما دخل، بعد لحظة، بخطوته القافزة، الغرفة التي كان فيها فرونسكي، وهو يملّس سالفيه، كان قد نسي كلياً دموع الأسى التي ذرفها على أخته ولم ير في فرونسكي سوى بطل وصديق قديم.

قالت الأميرة لسيرج إيفانوفتش بعد أن تركهما أوبلونسكي:

(١) فيسلوفسكي، غريشا: سهو من تولستوي، لأن الشخص نفسه سمي «فانيا» في مكان آخر.

ـ بالرغم من عيوبه كلها، يجب أن نعترف بصفاته. فهو إنسان روسيّ حقاً، وهو سلافي على نحو نموذجي! أخشى فقط ألا يرغب فرونسكي في رؤيته. مهما تقلْ فإن مصير هذا الرجل يهزّني. حاولْ أن تتحدث معه أثناء الطريق.

ـ نعم، إذا سنحتْ الفرصة.

ـ إني لم أحبّه قط. لكن بادرته الآن تكفّر عن كثير من أخطائه. فهو لم يقنعْ بسفره نفسه وإنما اصطحب معه كوكبةً على نفقته.

ـ نعم، قيل لي ذلك.

رنّ الجرس، فاحتشد الجميعُ أمام الباب.

قالت الأميرةُ وهي تشير إلى فرونسكي:

ـ ها هوذا!

كان يلبس بنطالاً طويلاً وقبّعة سوداء عريضة الحافة ويتأبّط يد أمه. وكان أوبلونسكي يسير بجنبه ويحدّثه بحيوية.

كان فرونسكي شاخصاً أمامه، مقطّب الحاجبين، كأنه لا يسمع ما يقوله له ستيفان أركادييفتش.

التفتَ نحو الأميرة وسيرج ايفانوفتش، بناءً على تنبيه أوبلونسكي من غير شك، ورفع قبّعته دون أن يفوه بكلمة. لقد بدا وجهُه الشائخ الذي فتك به الألم كأنما تحجّر.

لما بلغ الرصيف صعد إلى القطار بعد أن تنحّى لأمه، وانزوى في مقصورته.

كان النشيد الوطني: «حفظَ الله القيصر!» يدّوي على الأرصفة، ممتزجاً بهتافات التعييش الروسية والصربية. ردّ أحد المتطوعين، وهو شاب فتيّ مديد القامة، منحني الظهر، على التحيات بتباه، هازاً قبعته اللبدية وباقة زهر من فوق رأسه. وظهر خلفه ضابطان ورجل متقدّم في السن ذو لحية طويلة وعمرة وسخة، وهم يوزّعون التحيات من نافذتهم.

[٣]

بعد أن ودّع إيفانوفتش الأميرة، صعد إلى الحافلة المكتظة، بصبحة كاتا فاسوف الذي لحق به، وتحرّك القطار.

في «تساريتسيتو»[١] استقبلت الموكبَ جوقةٌ أنيقة من الشباب كانت تنشد: «المجدُ لقيصرنا». انحنى المتطوعون من الباب مرة أخرى ليحيّوا الجمهور؛ لكن سيرج ايفانوفتش لم يكن ينتبه إليهم: لقد كان على صلة مستمرة بالمتطوعين فأضحى يعرف النموذجَ الشائع الذي يمثّلهم، ولم يكن ذلك ليثير اهتمامه. أمّا «كاتا فاسوف» الذي لم تكن أعماله العلمية تُتيح له ملاحظة المتطوعين فقد فتنه منظرهُم وأخذ يكثر من طرح الأسئلة على سيرج إيفانوفتش.

نصحه كوزنيتشيف أن ينتقل إلى الدرجة الثانية وأن يحادث بنفسه رفاقَ الطريق. في المحطة التالية، عمل كاتا فاسوف بهذه النصيحة.

في أول توقّف، قصد إلى عربات الدرجة الثانية، وشرع يحادث المتطوّعين. كانوا جالسين في ركن من الحافلة، يتحدثون بصوت عال، وقد رأوا بأم أعينهم أن انتباه المسافرين وكاتا فاسوف الذي دخل لتوّه، منصبٌّ عليهم. وكان الشاب الطويلُ المقوّس الكتفين يزعق أكثر من غيره. كان يروي روايةً وقد بان عليه السُكْر. وقبالتَه، جلس ضابطٌ في سنّ النضج يرتدي سترة الحرس النمساوية وكان يُصغي إلى الراوي وهو يبتسم له ويقاطعه من وقت إلى آخر. وكان الثالث، بلباس جنود المدفعية، جالساً جنبهم على حقيبة السفر. أما الرابع فكان نائماً.

خاطب كاتا فاسوف أصغرهم فعلم أنه تاجر ثريٌّ من موسكو. لقد بدّد ثروةً طائلة وهو لم يكد يبلغ الثانية والعشرين. لم يرتح كاتا فاسوف لمظهره المتخنّث. الرخو، السقيم؛ كان هذا الشاب مقتنعاً، ولا سيّما بعد أن أفرغ عدداً لا بأس به من

---

(١) تساريستينو: محطة تبعد ١٢ كم جنوبـي موسكو، على الخط الآتي من «كورسك» في القرم، وفيها قصر لم يتم لكاترين الثانية.

الكؤوس، أنه يقوم بعمل بطولي، وكان يتبجّج كأسوأ ما يكون التبجج.

ووقع الثاني، وهو ضابط متقاعد، موقعاً سيئاً أيضاً عند كاتا فاسوف. وظهر أنه اختبر جميع المهن. فاشتغل في السكك الحديدية، وكان وكيلاً ثم مديراً لمصنع. وكان يتحدث عن كل شيء دون أدنى ضرورة ويستخدم المصطلحات العلمية من غير داعٍ.

أما الثالث، وهو المدفعي، فكان قريباً من نفس كاتا فاسوف. كان رجلاً هادئاً، متكتّماً، متصاغراً أمام علم الضابط وتفاني التاجر البطولي، لا يتكلم على ذاته، وعندما سأله كاتا فاسوف عمّا دفعه إلى التطوّع أجاب بتواضع:

إني أفعل ما يفعله الآخرون. ولا بدّ من مدّ يد المعونة إلى الصرب. إن لم يخنّا التوفيق!

قال كاتا فاسوف:

ــ إنهم بحاجة إلى المدفعيين، أمثالك، على الخصوص.

ــ أوه! إني لم أخدم طويلاً في المدفعية؛ وربّما عُيّنتُ في المشاة أو في الخيّالة.

قال كاتا فاسوف، وقد تصور أن الرجل لا بد أن يكون ذا رتبة عالية، بالنظر إلى سنه:

ــ لماذا؟ ما داموا يحتاجون قبل كل شيء إلى المدفعيين.

ــ لأني لم أبق طويلاً في المدفعية. وما أنا إلاَّ مرشّحٌ.

قال ذلك وأخذ يشرح له لماذا فشل في الامتحانات.

كل ذلك مجتمعاً ترك أثراً سيئاً في كاتا فاسوف، وعندما نزل المتطوعون ليشربوا شيئاً في المحطة التالية، أحسّ بالحاجة إلى أن يُطلع غيره على انطباعاته. وكان في العربة شيخٌ قصير بمعطف عسكري، سمع الحديث. فلما بقيا وحدهما، التفت إليه كاتا فاسوف، وقال له، من غير أن يخرج عن الغموض في الإعراب عن

رأيه، مع استدراجه له إلى التعبير عن رأيه أيضاً:

ــ ما أشدّ التنوّع بين المسافرين إلى «هناك»!

كان الشيخُ ضابطاً حضر حربين. كان يعرف ما الجندي؛ ولقد عدّ هؤلاء الرجال جنوداً تافهين من مظهرهم، ومن أحاديثهم، ومن الطريقة التي يستقون بها بسالتهم من مطرة السفر، وأكثر من ذلك أنه كان من الريف؛ وأوشك أن يروي أن جندياً في مدينته الصغيرة، سكيراً ولصاً، أُعطي إجازة غير محدّدة، ولم يشأ أحدٌ أن يشغّله، قد سافر كمتطوع ولكن لعلمه بالتجربة أن من الخطر الإفصاح عن رأي مخالف للرأي العام، وأن من الخطر، على الخصوص انتقاد المتطوعين، في وضع العقول الراهن، فقد انتظر أن يكشف كاتا فاسوف عمّا يُبطن.

قال الشيخ وهو يضحك بعينيه:

ــ ماذا تنتظر، إنهم بحاجة إلى الرجال هناك.

طفقا يتحدّثان عن البلاغ الأخير وأبدى كل منهما حيرته: إذا كان الترك، بحسب آخر الأخبار، قد دُحروا على طول الجبهة، فعلى مَنْ ستشَن المعركة غداً؟ وافترقا دون أن يظهر كل منهما الآخر على أعماق فكرته.

عندما عاد كاتا فاسوف إلى حافلته، خان فكرته بالرغم منه، وأطلع سيرج ايفانوفتش على نتيجة تحرّيه:

لقد كان المتطوعون، برأيه، فتياناً ممتازين.

في أول مدينة كبرى، قوبل المتطوعون بالأناشيد والهتافات: وظهرت السائلات بصناديق الصدقات، وحملتْ سيداتُ المدينة باقات إلى المتطوعين ولحقْنَ بهم إلى المقصف؛ لكن الاستقبال كان أفتر منه في موسكو.

[٤]

أثناء التوقّف في عاصمة الإقليم، لم يذهب سيرج ايفانوفتش إلى المقصف واكتفى بالتمشيّ على طول الرصيف وعرضه.

عندما مرّ لأول مرة أمام مقصورة فرونسكي، لاحظ أن الستائر كانت مسدلة. لكنه شاهد الكونتيسة العجوز على النافذة، في المرة الثانية. فأومأت إليه بالاقتراب. وقالت له:

ــ أرأيتَ، سأرافقه حتى «كورسك».

أجاب سيرج ايفانوفتش وهو يقف أمام النافذة ويلقي نظرة إلى داخل الحافلة:

ــ نعم، لقد قيل لي ذلك.

وأضاف وقد تبيّن أن فرونسكي ليس في المقصورة:

ــ ما أجمل هذه البادرة منه!

ــ ماذا بوسعه أن يفعل بعد مصيبته؟

قال سيرج ايفانوفتش:

ــ يا للحادث المروّع!

ــ آه! لكم قاسيتُ! لكنْ هلا صعدت. . .

وردّدت عندما جلس سيرج ايفانوفتش على الأريكة بجنبها:

ــ آه! لكم قاسيتُ! لا يمكن أن نتصوّر ذلك! فهو لم يكلّم أحداً طوال ستة أسابيع، ولم يكن يأكل إلاَّ إذا تضرّعتُ إليه. كان يجب ألا نتركه وحده دقيقة واحدة. وقد رفعنا من بين يديه كل ما قد يُعينه على الانتحار؛ كنا نسكن الطابق الأرضيّ لكن كان لا بد من الاحتياط لكل شيء. وأنت تعلم أنه كان قد أطلق على نفسه النار بسببها.

وقطّبت المرأةُ العجوز حاجبيها لهذه الذكرى، وقالت:

ــ نعم، لقد انتهت كما ينبغي أن تنتهي امرأةٌ مثلها. بل لقد اختارت الموتَ الذليل. الحقير.

قال سيرج ايفانوفتش وهو يتنهد:

ـ ليس لنا أن نحكم، يا كونتيسة. لكنني أدرك كم كان ذلك مؤلماً لك.

ـ لا تسلْني عن ذلك! كنت في ممتلكاتي وجاء لزيارتي. حُمِلتْ إليه رسالةٌ فردّ عليها رأساً. لم يمر ببالنا أنها في المحطة. في المساء، بينما كنتُ ماضيةً إلى حجرتي، أخبرتني خادمتي، ماري، أن سيدةً ألقتْ بنفسها تحت القطار. صدمني ذلك. لقد أدركتُ أنها هي. كانت كلماتي الأولى أنني أمرتُ ألا يذكر ذلك أحدٌ لابني. لكنه كان قد علم بما جرى. ذلك أن حوذيّه كان هناك ورأى كل شيء. وعندما أسرعتُ إليه، كان كالمجنون، كان يبعث على الخوف. وذهب بأقصى سرعته إلى هناك، دون أن يفوه بكلمة. لستُ أدري ما الذي حدث هناك، لكنْ حين جيء به بدا كأنه فقد الحياة. لم أعرفْه.

قال الطبيب: إنه مصابٌ «بالوهن التام». وبعد ذلك بدأ نوع من الهياج. . .

وقالت الكونتيسة مع حركة من يدها:

ـ لكن، ما جدوى الكلام على ذلك! يا لها من فترة رهيبة! لا قلْ ما شئتَ، لقد كانت امرأةً سيئة. طفرات الهوى واليأس هذه، ما معناها؟ كل ذلك كان تصنعاً. وقد نجحت فيه! لقد أضاعت نفسها وأفسدت حياة رجلين مرموقين: زوجها وابني التعس.

سأل سيرج ايفانوفتش:

ـ ماذا فعل زوجُها؟

ـ استردّ ابنته. لقد وافق الكسي على كل شيء، في أول الأمر، وهو الآن نادمٌ كثيراً لأنه تخلّى عن ابنته لغريب. لكنه لا يستطيع أن يتراجع عن كلامه. حضر كارينين الدفن. ورتّبنا الأمور بحيث لا يلتقي الكسي. على كل حال، هذا أفضلُ بالنسبة إليه، إلى الزوج. كان موتها خلاصاً له. لكن ابني المسكين ضحّى له بكل شيء. لقد ترك كل شيء، ترك وظيفته وتركني. وهي لم ترحمه؛ قضتْ عليه أو كادت! لا، قلْ ما شئت، لقد ماتت ميتة المرأة الحقيرة التي لا دين لها. ليغفرْ

لي الله، لكني لا أستطيع أن أمتنع عن كره ذكرها، حين أرى الأذى الذي ألحقته بإبني.

ــ وكيف حاله الآن؟

ــ الله هو الذي أنقذنا بحرب الصرب هذه. إنني عجوز، ولست أفهم شيئاً من ذلك كله، لكني أرى في هذه الحرب تدخلاً من العناية الإلـٰهية لمصلحته. لا شك أن هذا السفر مروّع، بالنسبة إلى الأم، ولا سيما بعدما قيل: إن ذلك لا يُنظر إليه بعين الرضا في بطرسبرج. لكن ما العمل؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يردّ إليه قوّته. إن إياشفين الذي خسر ماله كله في القمار، كان يستعد للسفر إلى بلاد الصرب، فجاء إليه وأقنعه بمرافقته. وهو الآن مشغول بذلك. حدّثْه، أرجوك. أتمنى كثيراً أن يُسرِّي الناس عنه. فهو شديدُ الحزن. سيغتبط برؤيتك. أرجوك، اذهبْ إليه، فهو يتنزّه في هذه الجهة.

قال سيرج ايفانوفتش:

ــ إنه هو أيضاً سيكون سعيداً بذلك.

ومضى إلى الرصيف المقابل.

[٥]

بين الطرود المكدَّسة على الرصيف والتي كانت تلقي بظلها المائل في هذه الساعة المتأخرة، كان فرونسكي يروح ويجيء كالوحش في قفصه، متلفّتاً فجأة كل عشرين خطوة، وقد ارتدى معطفه الطويل، وخفض قبعته على عينيه، ووضع يديه في جيبه. خيل إلى سيرج ايفانوفتش أن فرونسكي رآه وتظاهر بأنه لم يعرفه. لم يأبهْ كوزنيتشف لذلك. كان موقفه من فرونسكي فوق الاعتبارات الشخصية.

كان فرونسكي، بنظر سيرج ايفانوفتش، في هذه اللحظة، رجلاً فعالاً، عظيم الأهمية، مشاركاً في عمل كبير، وقد رأى كوزنيتشيف أن من واجبه حثّه وتشجيعه، فدنا منه.

توقّف فرونسكي، وتفرّس فيه، وبعد أن تعرّفه، تقدّم بضع خطوات وشدّ على يده بقوة.

قال سيرج ايفانوفتش:

ــ لعلك لا ترغب في رؤيتي. هل أستطيع أن أكون نافعاً لك.

قال فرونسكي:

ــ لا يمكن للقاءٍ أن يكون أقلّ إزعاجاً لي من لقائك. اعذرني. لم يبق في الحياة ما يُبهجني.

قال سيرج ايفانوفتش الذي ظلّ شاخصاً إلى وجه فرونسي المتألّم:

ــ أفهمُ ذلك؛ كنت أريد أن أعرض عليك خدماتي. أتريد رسالة إلى «ريستيتش»[1]، إلى «ميلان[2]»؟

قال فرونسكي الذي بدا كمن يجد شيئاً من الجهد في فهمه:

ــ أوه! لا. لنمشِ قليلاً، إذا كان ذلك لا يزعجك. إن المرء ليختنق حقاً في هذه الحافلات! رسالة؟ لا، أشكرك؛ لا حاجة بنا إلى توصية إذا كنا نطلب الموت.

وأضاف وهو يبتسم بشفتيه فقط، في حين احتفظتْ عيناه بإمارات الألم والغضب:

ــ إلاَّ إذا كانت التوصية موجّهةً إلى الترك.

ــ نعم، لكن ذلك يُسهّل عليك العلاقات، وهي علاقات لا بدّ منها مهما يكن رأيك فيها، برجل أُعلم بوجودك. على كل حال، الأمرُ أمرك. اغتبطتُ كثيراً

(١) ريستيتش: وزير خارجية الصرب آنذاك. (١٨٣١ ــ ١٨٩٩).

(٢) «ميلان»: ميلان أوبرينوفتش (١٨٥٤ ــ ١٩٠١) أمير الصرب منذ ١٨٦٨. في سنة ١٨٧٦، أعلن ملكاً، بناء على مبادرة «تشيرنياييف»، لكنه اضطر إلى رفض هذا اللقب الذي عاد وتبناه في سنة ١٨٨٢.

حين بلغني قرارُك. هناك انتقادات كثيرة للمتطوعين، ورجلٌ مثلك يمكنه أن يرفع من شأنهم في نظر الرأي العام.

قال فرونسكي:

ــ ميزتي الوحيدة هي أنني لم أعدْ حريصاً على الحياة. وأنا أعلم أنه قد بقي لي من القوة الجسدية ما يكفي لخرق تشكيلة مربعة أو أموت في أرضي. وأنا سعيد لأنني وجدتُ سبباً للتخلص من هذه الحياة التي هي عبء عليَّ، بدلاً من أن تكون ضرورية لي. وسوف يكون ذلك ذا نفع من غير شك.

أُصيبت وجنتُه بتشنج عصبي. وكان يتألم من وجع واخز في سنه حرمه الراحةَ ومنعه من الكلام بالتعبير الذي يرومه.

قال سيرج ايفانوفتش الذي أحسّ بالتأثر:

ــ سوف تتجدّد، إني أتنبأ لك بذلك. فتخليص إخواننا من نيرهم هدفٌ يستحق أن نموت وأن نعيش في سبيله.

وأضاف وهو يمدّ إليه يده:

ــ ليمنحْكَ اللّـهُ التوفيق في مشروعك، ولينزلْ عليك السكينة الداخلية.

شدّ فرونسكي بقوّة على يد سيرج ايفانوفتش، وقال ببطء:

ــ ما زلت أستطيع أن أكون على شيء من النفع، من حيث أنا أداةٌ، أما من حيث أنا إنسان فلستُ سوى أنقاضٍ خَربة.

ملأ الألمُ الحاد فمه باللعاب ومنعه من الكلام. وصمت؛ لقد توقّف نظره على عجلات مقطورة كانت تنزلق ببطء نحوهما.

وفجأة أنساه الغمّ المبهمُ والضاغطُ ألمَ أسنانه لحظةً. فعند نظرته التي ألقاها على المقطورة فوق السكة الحديدية، وبتأثير هذا الحديث مع صديق لم يره منذ مصابه، تذكّرها فجأة، أو تذكّر ما بقي منها حين دخل كالمجنون تخشيبة المحطة؛ تذكّر جسدَها المدمّى الذي فارقته الحياة قبل هنيهة، ممدوداً بلا حياء أمام الغرباء،

رأسَها السليم، المردود إلى الخلف بضفائره الكثة وخصله على الصدغين؛ وعلى ذلك الوجه الفاتن تجمّد تعبيرٌ غريب، تعبيرٌ يستدّر الرثاء على الشفتين النضرتين المفترّتين، ورهيب في العينين المحملقتين كأنهما ترددان التهديد الذي واجهته به أثناء شجارهما: «سوف تندم على ذلك!».

حاول أن يستحضر ذكراها كما لقيها أول مرة في المحطة: غريبةً، محفوفةً بالأسرار، جذّابةً، محبّة، تنشد السعادة وتَهبُها، لا كما رآها في آخر لحظة: شرسةً ومتعطشة إلى الانتقام. حاول جاهداً أن يتذكر أفضل لحظات حياتهما الماضية التي تسمّمتْ إلى الأبد. والتعبير الوحيد الذي كان يراه لها الآن هو التعبير عن الانتصار، بعد تنفيذ تهديدها: لقد أخذ الندمُ يعذّبه منذ الآن دون أن ينتفع أحدٌ بذلك الندم. وانقطع إحساسُه بوجع أسنانه، وتقلّص وجهه من النحيب.

خطا بضع خطوات بحذاء الأكياس المكدّسة، فلما تمالك نفسه استدار بهدوء نحو سيرج ايفانوفتش:

ــ ألم تر البرقيات، بعد برقية أمس؟ لقد اندحروا مرةً ثالثة، ومن المنتظر أن يجري اللقاءُ الحاسم غداً.

وبعد أن تحدثا عن بيان «ميلان» الذي أُعلنَ ملكاً وعن النتائج الهائلة التي قد يُسفر عنها ذلك البيان، افترقا وصعد كل منهما إلى حافلته بعد دقة الجرس الثانية.

[٦]

لم يبرق سيرج ايفانوفتش إلى أخيه حتى يرسل مَنْ يأخذه من المحطة، لجهله متى يمكنه أن يغادر موسكو. كان ليفين غائباً عندما نزل كاتا فاسوف وسيرج ايفانوفتش أمام منزل «بوكروفسكوي»، حوالي الظهر، من مركبة رديئة، وقد اسودّ من الغبار. وقد تعرّفتْ كيتي التي كانت جالسةً على الشرفة مع أبيها وأختها، أخا زوجها فنزلت بأقصى سرعتها لتستقبله.

قالت وهي تمد يدها إلى سيرج ايفانوفتش وتقدم له جبينها:

ــ كان ينبغي أن تستحي من أنك لم تعلمنا مسبقاً.

أجاب سيرج ايفانوفتش:

ــ وصلنا بسلامة دون ازعاجكم. أنا مغطّى بالغبار إلى حدّ لا أجرؤ معه على ملامستك. كنت مشغولاً جداً حتى إني كنت أجهل متى أستطيع الانعتاق من الشغل.

وأضاف وهو يبتسم:

ــ وأنت، أما زلت تتمتعين بالسعادة الوادعة في ملجئك، بعيدة عن التيار. هذا هو صديقنا فيدور فاسيليفتش الذي قرّر أخيراً أن يأتي.

قال كاتا فاسوف بتهكمه المعهود، وهو يمدّ يده إلى كيتي ويبتسم: فيُظهر سوادُ وجهه أسنانه الناصعة:

ــ لستُ زنجياً؛ وإذا ما اغتسلتُ فستعود إليّ صورتي البشرية.

ــ سيغتبط كوستيا. إنه في المزرعة وسيعود في الحال.

ــ هو منكبّ على العمل دائماً! أنتم هنا في مأمن حقاً. لا حديث، في المدينة، إلاَّ عن حرب الصرب. ما رأيُ صديقنا؟ من المؤكد أن رأيه يخالف رأي الناس.

أجابت كيتي وهي مرتبكة، وقد ألقتْ نظرةً خاطفة على سيرج ايفانوفتش.

ــ لا أعتقد. سأرسل مَنْ يستدعيه. أبـي عندنا الآن. لم يمضِ على عودته من الخارج وقتٌ طويل.

بعد أن أمرت كيتي بإرسال مَنْ يُحضر ليفين، وبمرافقة الضيفين لكي يغتسلا، أحدهما في المكتب والآخر في حجرة دولي القديمة، طلبت غداءً للقادمْين، وعادت ركضاً إلى الشرفة، وهي سعيدة لانتفاعها بحرية الحركة التي حُرمتها أثناء فترة الحمل، وقالت:

ــ إنهما سيرج ايفانوفتش والأستاذ كاتا فاسوف.

فأجاب الأميرُ العجوز:

ـ أوه! في مثل هذه الحرارة، تلك مصيبة!

قالت كيتي وهي تبتسم ابتسامة تنمّ على التوسل لأنها رأت على وجه أبيها تعبيراً هازئاً.

ـ لا، يا أبـي، إنه لطيف جداً، وكوستيا يحبّه كثيراً.

ـ لكني لم أقل شيئاً.

قالت كيتي وهي تلتفت إلى أختها:

ـ اذهبـي إليهما، يا عزيزتي وحدّثيهما. لقد لقيا ستيفا في المحطة: وهو في صحة جيدة. سأسرع لآخذ «ميتيا». كان شيئاً مؤسفاً أنني لم أرضعه منذ تناول الشاي. لقد استيقظ. ولا شك أنه يصرخ الآن. وأحسّت بحليبها يدرّ فمضت مسرعة إلى حجرة الطفل. لم يكن افتراضاً بل حقيقة (لم ينقطع بعد الرابط الذي يربطها بالطفل): فعندما تحس بحليبها يدرّ كانت تعلم أن الصبـي جائع.

كانت تعلم أنه يصرخ قبل أن تدنو من غرفته. والواقع أنه كان يصرخ. وحين سمعتْ صوته، حثتْ خطاها. وكان كلما أسرعت اشتد صراخهُ. كان صوته، جميلاً وقوياً، لكنه صوتٌ جائعٌ لا يطيق صبراً.

سألتْ المربيةَ وهي تجلس على كرسي وتفتح صدارها:

ـ أهو يصرخ من وقت طويل؟ آه! كم أنت مُتعبة! فيما بعد، تعلّقين له طاقيته.

كان الصبـي يُبح من فرط الصراخ.

قالت آغات ميخايلوفنا التي قلماً كانت تترك حجرة الطفل:

ـ لا تجزعي، يا عزيزتي. يجب أن يُلبَس لباساً لائقاً.

ورنّمت للصغير دون أن تنتبه إلى أمه:

ـ آغو، آغو!

حملت المربيةُ الطفل إلى كيتي. تبعتها آغات ميخايلوفنا، ووجهُها متهلّلٌ من الحنان، وقالت وقد علا صراخُها صراخَ الصبـي:

ــ إنه يعرفني، إنه يعرفني، لقد تعرّف إلي حقاً كما أن وجود الله حقّ، يا كاترين الكسندروفنا.

لكن كيتي لم تكن تصغي إليها. كان صبرها آخذاً في النفاد كصبر الطفل.

وقد حال نفادُ الصبر هذا بينهما وبين بلوغ هدفهما برهةً طويلة. فلم يفلح الطفل في الوصول إلى ثديها وأخذ يغضب.

وأخيراً، بلغا غايتيهما، بعد اختناقة أخيرة، يائسة، للطفل الذي كان يرضع في الفراغ. فصمت الطفل والأم بعد أن زال كربُهما في آن واحد.

قالت كيتي بصوت خافت وهي تجسّ الوليد:

ــ يا للصغير المسكين، إنه ينضحُ عرقاً. لماذا تظنين أنه تعرّفك؟ هذا مستحيل! لو تعرف أحداً لكنتُ أنا.

قالت ذلك وهي تبتسم وتُلقي نظرتها على عيني الصبـي اللتين كانتا ترميانها، في اعتقادها، بنظرة ما كرة من تحت طاقيته المخفوضة على جبهته، وعلى وجنتيه الصغيرتين اللتين كانتا تنتفخان بانتظام، وإلى يده ذات الراحة الحمراء التي كان يحركها حركةً دائرية.

قالت ذلك وابتسمت، فمع أنها قالت: إنه لا يمكن أن يتعرّف أحداً قبلها، إلاَّ أنها كانت تعلم، في قرارة نفسها، أنه لم يكن يعرف آغات ميخايلوفنا فقط، بل إنه كان يعلم ويفهم كل شيء، حتى الأشياء التي لم يكن يعلمها أحد، وأنها هي، أمه، لم تعلم ولم تبدأ الفهم إلاَّ بفضله. كان ميتياً، بالنسبة إلى آغات ميخايلوفنا، وإلى مربيته، وإلى جدّه، وإلى أبيه ذاته، كائناً حياً لا يتطلّب سوى العناية المادية؛ أما بالنسبة إلى أمه، فقد كان، منذ زمن بعيد، شخصيةً معنوية تقيم معها علاقات روحية معقّدة.

ــ سترين عندما يستيقظ. ما إن أفعل له هكذا حتى يستضيء وجه، هذا الصغير الظريف. كالشمس الحقيقية المشرقة!

همست كيتي:

ــ كفى، كفى، سنرى. أما الآن فاخرجا. إنه ينام.

[٧]

خرجت آغات ميخايلوفنا على أطراف أصابعها؛ أسدلت المربية الستارة، وطردت الذبابَ الذي انسلّ تحت غلالة السرير الموصلية وزنبوراً صدم الزجاج، ثم جلست وهي تهز فوق الأم والصبي غصن بتولةٍ أخذ يذبل. وقالت:

ــ ما أشدّ هذه الحرارة! ليت الله يرسل إلينا شيئاً من المطر.

ــ نعم، نعم، صه. . .

قالت كيتي ذلك وهي تتمايل برفق وتضم إليها بحنان يد الوليد الدقيقة السمينة التي كانت تبدو مشدودةً إلى المعصم بخيط والتي كان «ميتيا» يحرّكها تحريكاً خفيفاً، فاتحاً عينيه تارةً، ومغمض العينين تارةً أخرى. هذه اليد الصغيرة شغلت بال كيتي: تاقت نفسها إلى تقبيلها، لكنها خشيت أن توقظ الصبي. وأخيراً، كفّتْ اليدُ الصغيرةُ عن الحركة وأغمضت العينان. كان الطفل يرفع، بين الحين والحين، حاجبيه الطويلين المقوّسين ويلقي نظرته على أمه، وهو يتابع رضاعته. كانت عينا الطفل النديتان تبدوان سوداوين في النور الخفيف. كفّت المربية عن تحريك غصن البتولة وأخذت تغفو. ومن الطابق الأعلى وافت صيحاتُ الأمير العجوز وضحكات كاتا فاسوف.

فكّرت كيتي: «لقد بدؤوا حديثهم بدوني، ومن المؤسف أن كوستيا لم يعدْ. فلعله تابع طريقه إلى المنحلة. فليذهب متى شاء، وإن كانت ذلك يحزنني. إن خروجه يروّح عنه، وهو ما يسرّني. إنه يغدو أكثر مرحاً من يوم إلى يوم، وهو في

حالة أفضل من حالته في الربيع. كان إذا ذاك ظاهر الاكتئاب والهمّ حتى خفت عليه.

وهمست وهي تبتسم:

ــ ما أغرب أطواره!

كانت تعلم ما يقضّ مضجعَ زوجها. كان كفره. ولو أنها سُئلتْ إن كان للكافر خلاصٌ في العالم الآخر لأجابت بلا قطعاً، ومع ذلك فلم يكن كفر زوجها ليشقيها: فمع اعترافها بأن من لا يؤمن لن يخلّص، ومع أنها تحب روح زوجها على كل شيء في العالم، فقد كانت تفكر بكفره وهي تبتسم، وتقول: إنه غريب الأطوار.

وتابعت تفكيرها: «لماذا يقرأ من أول السنة إلى آخرها مؤلّفات فلسفية؟ إذا كان ذلك كله مكتوباً في الكتب، فهو يستطيع أن يفهمها. أما إذا كانت تقول الأكاذيب، فما جدوى قراءتها؟ هو نفسه يقول: إنه يتوقُ إلى الإيمان. فلماذا لا يؤمن إذن؟ لأنه يسرف في التفكير، من دون شك. وإذا كان يُسرف في التفكير فذلك بسبب عزلته. إنه دائماً وحده. هناك أشياء لا يستطيع أن يحدّثنا عنها. أظن أن هذه الزيارات ستسرّه، ولا سيما زيارة كاتا فاسوف: هل ينبغي أن ينام وحده أو في غرفة سيرج إيفانوفتش؟ وهنا أرعدتْها فكرةٌ حتى كادت تزعج «ميتيا» الذي رماها بنظرة صارمة. فالغسالة لم تحمل الغسيل بعد، كما يلوح لي. وسنحتاج إلى الأغطية من أجل ضيوفنا. وإذا لم أتدخّل فإن آغات ميخايلوفنا ستعطي سيرج إيفانوفتش أغطيةً مستعملةً. . .».

ما إن مرّت ببالها هذه الفكرة حتى صعد الدم إلى وجهها. فقررتْ في نفسها قائلة: «سأتولى تدبير ذلك». وعادت إلى أفكارها الأولى، فتذكّرت أنها تركت في طريقها هماً روحياً بالغَ الأهمية شغلَها، فأخذت تبحث عنه، ثم تذكرته وابتسمت: «آه نعم، كوستيا كافر».

«فليكنْ! إني أوثرُ أن يكون دائماً هكذا على أن يكون مثل السيدة «ستاهل» أو مثلما أحببتُ أن أكون في الخارج. على الأقل، إنه لن يغدو منافقاً».

وعادت إلى ذاكرتها بوضوح سمةٌ من سمات طيبته. فقبل خمسة عشر يوماً، كتب ستيفان أركادييفتش إلى زوجته رسالةً مفعمةً بالندم. كان يتوسل إليها فيها أن تنقذ شرفه وأن تبيع ملكيتها لتسديد ديونه. فبلغ بها الأسى غايته: لقد كرهتْ زوجها، واحتقرته، ثم أشفقتْ عليه؛ وبعد ذلك قرّرت أن تطلب الطلاق وترفض طلبه، لكنها عادت فوافقت، لكي تنتهي من المشكلة، على أن تبيع جزءاً من أرضها. وتذكّرت كيتي وعلى شفتيها ابتسامةٌ لا إرادية من الحنان هيئة زوجها المرتبكة وتمهيده الأخرق لكي يعرض عليها، في نهاية الأمر الوسيلةَ الوحيدة لمساعدة دولي من غير أن يجرحها (وسيلة لم تخطر ببال كيتي): أن تتنازل له عن حصتها من الأرض.

«كافرٌ؟ مع قلبه الكبير، وخوفه من أن يجرح أي إنسان، حتى الصبي؟ كل شيء للآخرين ولا شيء له. سيرج إيفانوفتش يعتبره وكيلاً لأعماله. وأخته كذلك. والآن تتكل عليه دولي والأولاد. وهو يعدّ نفسه ملزماً بخدمة هؤلاء الفلاحين الذين يأتون ليروه كل يوم... واختتمت تفكيرها وهي تسلم «ميتيا» إلى مربيته وتلامس وجنته بشفتيها: «... نعم، اكتفِ بمشابهة أبيك، هذا كل ما أطلبه منكَ».

[٨]

منذ اللحظة التي نظر فهيا ليفين لأول مرة، وهو بجانب أخيه المحتضر، إلى مشكلات الحياة والموت من خلال قناعاته الجديدة (كان يسميها كذلك، على الأقل) التي حلّتْ، على نحو غير ملحوظ، من العشرين إلى الرابعة والثلاثين، محل عقائد طفولته وصباه، منذ تلك اللحظة أخذ يخاف الحياةَ أكثر مما يخاف

الموت. من أين جاءت؟ ولماذا؟ ولأية غاية؟ وما هي؟ لم يكن يعلم من ذلك شيئاً. الجهاز العضوي وتلفه، وعدم قابلية المادة للتلف، وقانون حفظ الطاقة، والتطور: هذه هي الكلمات التي حلّت محل عقيدته القديمة. فهذه الكلمات والمفاهيم المرتبطة بها كانت ممتازة في المجال الفكري؛ أما في الحياة فلم تكن تصلح لشيء، وأحسّ ليفين أنه في وضع شبيه بوضع رجل استبدل بمعطفه الدافىء رداء من الحرير الموصلي؛ وفي الهواء الجليدي، اقتنع، لأول مرة، بكيانه كله لا بالمحاكمة العقلية، أنه شبه عار وأنه قد كتبتْ عليه نهايةٌ مؤلمة، لا رحمة فيها.

منذ هذه اللحظة، تسلّط على ليفين هذا الرعبُ من جهله، مع أنه لم يتبيّن ذلك وظلّ يعيش كما كان يعيش في الماضي.

وفوق ذلك، فقد أحسّ إحساساً غامضاً أن ما سماه «قناعاته» لم يكن جهلاً فحسب وإنما كان شكلاً من أشكال التفكير يحرمه معرفة ما هو ضروري له.

في البداية، خَنقَ الزواجُ والأفراحُ والإلتزاماتُ الجديدة هذه الأفكارَ؛ لكنه عندما عاش في موسكو، في هذه الآونة الأخيرة، عاطلاً عن العمل، بعد ولادة الطفل، أحس بحاجة كانت تشدّ طروقاً وإلحاحاً، إلى حل هذه المشكلة.

كانت المسألة، بالنسبة إليه، هي التالية: إذا لم أرضَ بالأجوبة التي تقدمها المسيحيةُ لمشكلات الحياة، فبأيها أرضى؟ ولم يكن يستطيع أن يعثر بين جملة قناعاته لا على الجواب ولا حتى على ما يشبه الجواب.

كان كمن يبحث عن الطعام لدى بائع اللعب أو بائع الأسلحة. لقد غدا يفتّش الآن، تلقائياً ولا شعورياً، في كل كتاب، وكل حديث، وكل رجل عمّا يتّصل بهذه المشكلات وبحلها.

إن ما كان يُذهله ويثبّط عزمه، قبل كل شيء، هو أن معظم أبناء وسطه وسنّه كانوا، إذا استبدلوا بمعتقداتهم القديمة قناعات جديدة لم يجدوا بأساً في ذلك، وشعروا بتمام الطمأنينة والرضا. ولذلك فقد كان تُقضّ مضجع ليفين أسئلةٌ أخرى،

إلى جانب المشكلة المركزية: هل هؤلاء الناس صادقون؟ أهم يراؤون مراءاة أم أنهم يفهمون الأجوبة التي يقدّمها العلم للمشكلات التي تشغله فهماً مختلفاً، فهماً أوضح؟

منذ أن أخذ هذا البحثُ يستغرقه لم يقعْ إلا على اكتشاف واحد وهو: أنه أخطأ حين افترض هو ورفاقه في الجامعة أن الدين قد مضى زمنهُ. فجميع الأقرباء الذين أُعجب بحياتهم كانوا مؤمنين. والأمير العجوز، ولفوف، وسيرج إيفانوفتش كلهم مؤمنون؛ وامرأته تؤمن كما كان يؤمن في صباه؛ تسع وتسعون بالمائة من الشعب الروسي، هذا الشعب بأسره الذي يبعث فيه الاحترامَ الحقيقي، مؤمنون.

بعد أن قرأ كثيراً من الكتب، أمكنه أن يقتنع بأن الناس الذين يشاطرونه أفكاره لا يَعْزون إلى هذه الأفكار أيّ معنى خاص: كانوا يكتفون بإنكار هذه المشكلات، في حين كان يشعر أنه لا يستطيع أن يحيا دون أن يجد لها جواباً، وكانوا يبذلون ما في وسعهم لحل مسائل أخرى، مسائل لم تكن تستطيع أن تثير اهتمامه، من مثل تطور الأجهزة العضوية، والتفسير الميكانيكي للروح إلخ. . .

وفوق ذلك، حَدثَ حَدَثٌ مثيرٌ، أثناء نفاس امرأته. فلقد صلّى، وهو غير المؤمن، وفي اللحظة التي كان يصلي فيها، آمن. لكن هذه اللحظة قد انقضتْ، وليس بوسعه أن يمنح هذه الحالة النفسية العابرة مكانة في حياته الراهنة.

ليس بوسعه أن يعترف بأنه عرف الحقيقة في هذه الحقبة ثم عاد فوقع في الخطأ لأنه ما إن يبدأ بالتفكير الهادىء في ذلك حتى يتفتّت كل شيء؛ وليس بوسعه أيضاً أن يقرّ بأنه كان مخطئاً آنذاك، لأنه كان يُعزّ هذه اللحظات من ماضيه: ولو اعتبرها ثمرة من ثمرات الضعف لدنّس تلك الدقائق. كان على خلاف مع ذاته، وكان ذلك يعذّبه وكان يستنفر قوى نفسه جميعاً ليخرج من هذه الحالة.

[٩]

كانت هذه الأفكارُ تناوشُه بلجاجةٍ تقلّ وتكثر، لكنها لم تكن تتركه بتاتاً. كان يقرأ ويفكر، لكنه كان كلما قرأ وفكّر ازداد إحساسُه بالبعد عن الهدف الذي يُلاحقه.

في الآونة الأخيرة، في موسكو وفي الريف، وبعد أن اقتنع بأنه لن يجد الجواب لدى الماديّين، أعاد قراءة أفلاطون وسبينوزا وكنت وشيلنغ وهيجل وشوبنهاور[١]، وهم فلاسفة كانوا يبحثون عن تفسير للوجود في غير المادة.

كانت هذه الأفكار تبدو له خصبة ما دام موضوعُها دَحْضَ المذاهب الأخرى، وبخاصة المذاهب المادية: لكن ما إن تتصدى للبحث عن حل للمشكلات حتى يجد نفسه أبداً في النقطة نفسها. وبعد تعريف طويل لألفاظ غير محدّدة من مثل: روح، حرية، ماهيّة، وبعد أن يرتضي لنفسه السقوط في شرك الألفاظ الذي ينصبه له الفلاسفة أو ينصبه هو لنفسه، كان يُخيّل إليه أنه بدأ يفهم شيئاً ما. لكنْ كان يكفيه أن ينسى ترقّي فكرته المصطنع وأن يعود، بعد أن يمتزج بالحياة مرة أخرى، إلى ما كان يرضيه حين كان يفكر متابعاً سلكاً معيناً، حتى ينهار فجأة هذا البناءُ الاصطناعي كأنه قصرٌ من الورق، وحتى يغدو واضحاً أن هذا البناء لم يُصْنع إلا من الألفاظ التي بدّلتْ مواضعها، من غير استعانة بذلك «الشيء» الذي هو، في الحياة، أهم من العقل.

بدَّلَ، ذات يوم، وهو يقرأ شوبنهاور، كلمة محبّة بما يدعوه شوبنهاور: «إرادة»، فوفّرت له هذه الفلسفة الجديدة بضعة أيام من الهدوء، قبل أن يُعرِضَ عنها. لكن هذه الفلسفة انهارت كما انهار غيرُها عندما نقل نظراته فيها بعد أن اجتذبته الحياة إليها: بدتْ له كرداء الموصلي العاجز عن حمايته من البرد.

---

(١) «أفلاطون وسبينوزا وكنت وشيلنغ وهيجل وشوبنهار»: فلاسفة أعاد تولستوي نفسه قراءتهم في هذه الحقبة، ولا سيما شوبنهاور.

نصحه أخوه سيرج إيفانوفتش أن يقرأ كتابات «كومياكوف»[1] اللاهوتية. فقرأ ليفين المجلد الثاني من أعمال هذا الكتاب، وبالرغم من لهجة الجدل وتكلّف الأسلوب اللذين نَفَر منهما في أول الأمر، إلا أن نظريته عن الكنيسة أثّرت فيه. لقد راعته، في البداية، هذه الفكرةُ التي مفادُها أن فهم الحقائق الإلـٰهية غيرُ متاح للإنسان بل لطائفة من الناس متّحدين بالحب، وهي الكنيسة. وخامره الفرح، بعد ذلك، بهذه الفكرة وهي أن المرء حين يؤمن بكنيسة حيّة هي مُلتقى عقائد المؤمنين، وعلى رأسها الله ومن ثَمّ فهي مقدّسة ومعصومة، ثُم يقبل بتعاليمها المتعلّقة بالله والخليقة والسقوط والفداء، فذلك أسهل عليه من أن يبدأ بالله، الإلـٰه المحفوف بالأسرار والبعيد، وبالخليقة إلخ... لكنه حين قرأ فيما بعد تاريخاً للكنيسة كتبه كاتب كاثوليكي وكتاباً آخر للكنيسة كتبه كاتبٌ أرثوذكسي، تَبيّنَ أن الكنيستين المعصومتين في جوهرهما، تُنكرُ إحداهما الأخرى: حينئذٍ فقدت نظريات كوميالوف سحرها في عينيه وانهارت كما انهارت نظريات الفلاسفة.

طوال الربيع لم يبق هوهو، ومرّ بدقائق ممضّة. وكان يقول في نفسه: «إذا كنتُ لا أعلم ما أنا ولماذا أنا هنا، فلا يمكنني أن أحيا. ولا يمكنني أن أعلم، إذن لا يمكنني أن أحيا».

«في لا نهاية الزمان والمادة والمكان، تتشكّل فقاعة ـ عضوية، وتستمرّ بعض الوقت، ثم تنفجر. وهذه الفقاعة... هي أنا». هذه السفسطة المؤلمة كانت النهاية الوحيدة والمؤلمة لأفكار الانسان في هذه السبيل، أثناء قرون خلت.

كانت اليقينَ الأخير الذي يسند جميع أبحاث الفكر الإنساني، في جميع الفروع تقريباً.

---

(١) كومياكوف: الكسي كومياكوف (١٨٠٤ ـ ١٨٦٠) فيلسوف روسي وأحد أعمدة مدرسة أنصار السلافية؛ مجد في كتاباته اللاهوتية الديانة الأورثوذكسية القائمة على روح المجتمع المقدس لا على سلطة البابا المستبدة.

كانت القناعة السائدة التي تشبّع بها ليفين، من بين جميع التفسيرات الأخرى، على نحو تلقائي دون أن يعرف هو نفسه متى وكيف، لأنها كانت الأوضح، بدون شك.

ولم تكن هذه سفسطةً وحسب، وإنما كانت السخرية البغيضة لقوة خبيثة ومعادية ينبغي أن نرفض الخضوع لها.

ينبغي التخلص من هذه القوة. وهذا الخلاص في متناول كل واحد. ينبغي أن يوضَع حدٌّ لسلطان الشر. وليس هناك سوى وسيلة وحيدة هي: الموت.

إن ربّ الأسرة السعيد هذا، إن هذا الرجل الصحيح الجسم، أوشك على الانتحار عدة مرات إلى الحد الذي صار يخبىء فيه أصغر حبل خوفاً من أن يُغريه بشنق نفسه، وإلى الحد الذي كان يخشى فيه من إطلاق النار على نفسه إذا خرج ببندقيته. لكن ليفين لم ينتحر وظلّ يعيش.

[١٠]

عندما كان ليفين يتساءل: ما هو ولماذا يعيش، لم يكن يجد جواباً، فيغرق في اليأس. لكنه عندما كان يكفّ عن طرح هذه الأسئلة، كان يُخيّل إليه أنه يعلم، على نحو مشوّش، ما هو ولماذا يعيش، لأنه كان يسلك سلوكاً ثابتاً ودقيقاً، سلوكاً أثبت وأدقّ في هذه الآونة الأخيرة بالذات.

لقد كانت عودته إلى أراضيه في مطلع حزيران عودةً إلى مشاغله المعتادة. فاستغلال أملاكه، وعلاقاته بالفلاحين والجيران، وإدارة منزله، وأعمال أخيه وأخته التي اضطلع بها، وعلاقته بزوجته وأهلها، وولده، وشغفه الجديد بتربية النحل، كل ذلك كان يشغل وقته بكامله.

وإذا كانت هذه الإهتمامات تستغرقه فليس معنى ذلك أنه كان يسوغها أمام عينيه بواسطة النظرات العامة، كما كان يفعل من قبل؛ على العكس فمن جهة

خمدتْ همتهُ بعد فشل مشاريعه السابقة التي استهدفت الخيرَ العام، ومن جهة أخرى انشغل انشغالاً شديداً. بجملة الإلتزامات التي كانت تُثقل كاهله من كل الجهات، فهجر كلياً تأملاته حول الخير العام، وأكبّ على هذا النشاط لما لاح له فقط من أنه ينبغي أن يتصرّف على هذا النحو، وأنه لا يمكنه أن يتصرّف على نحو آخر.

عندما كان يحاول قديماً (بدأ ذلك منذ الطفولة تقريباً ولم ينقطع عن النمو حتى سن الرشد) أن يتصرف تصرفاً ينفع به الناس جميعاً، والإنسانية، وروسيا، وقريته، لاحظ أن هذا النمط من التفكير سائغٌ جداً لكن النشاط الذي ينبع منه يظل غير مرضٍ: كان ينقصه اليقينُ بأنه يقوم بعمل ضروري وكان نشاطه الذي بدا له في البداية شديد الاتساع يضيق شيئاً فشيئاً ويتلاشى؛ وحين أخذ الآن، منذ زواجه، يقتصر على أن يعيش لنفسه، كان على يقين من أنه يقوم بعمل ضروري يعطي نتائج مرضية أكثر فأكثر، عمل يتّسع يوماً بعد يوم، هذا مع أنه لم يكن يشعر بأي حبور عند التفكير بنشاطه.

لقد كان يغوص الآن في أعماق الأرض، ممعناً في ذلك، بالرغم من إرادته، كالمحراث، وليس بوسعه أن ينتزع نفسه منها إلا بعد أن يفرغ من ثلمه.

أن يعيش كما عاش أبواه وأجداده، في مستوى معيّن من الثقافة وأن يربّي أولاده تربية معينة، أمرٌ ضروريٌ بالطبع. ضروري كالعشاء بعد الجوع؛ وكما أنه من الضروري أن يُهيّأ العشاء، فكذلك لا بدّ من أن يتولى استغلال ممتلكات «بوكروفسكوي» بحيث تدرّ عليه دخلاً. وكما يجب عليه أن يدفع ديونه، فكذلك يجب عليه أن يصون أرض الأجداد لكي يشكره ابنُه عندما يتلقّى ميراثه كما شكر ليفين جدّه على كل ما بناه وغرسه. ومن أجل ذلك، يجب ألا يؤجر الأرض بل أن يستثمرها بنفسه، وأن يتعهد الماشية، وأن يسمّد الأرض، وأن يغرس الأشجار.

ولم يكن بوسعه أن يرفض الإشراف على أعمال سيرج إيفانوفتش وأخته،

والفلاحين الذين يأتون لاستشارته والذين تعوّدوا ذلك: لو رفض لكان كمن يهجر ولداً يعيله. يجب عليه أن يهتم براحة أخت زوجته وأولاد أختها المقيمين عنده، وبراحة زوجته وابنه ويجب أن يظل بقربهم عدة ساعات في النهار على الأقل.

كل ذلك، إضافةً إلى الصيد وشغفه الجديد بتربية النحل، كان يملأ هذه الحياة التي لا يجد لها معنى حين يفكر فيها.

وفضلاً عن أن ليفين كان يعلم علم اليقين ما ينبغي له أن يفعله، فقد كان يعلم علم اليقين أيضاً كيف ينبغي له أن يفعل ذلك كله، ويعلم علم اليقين تسلسلَ الأهمية في مشاغله.

كان يعلم أنه يجب أن يشغّل العمال بأرخص ما يمكن؛ بيد أنه لا ينبغي له أن يستعبدهم بأن يُسلّفهم سُلفاً أدنى من الأجر العادي، وإن كان ذلك مربحاً جداً. كان يستطيع أن يبيع الفلاحين العلفَ إذا أعوزهم العلفُ، مهما تكن رأفته بهم؛ لكن كان يجب عليه أن يُغلق النزل والخمّارة وإن كانا مصدراً للأرباح. كان يجب أن يُعاقَب بقسوة ما بعدها قسوةٌ قَطْعُ الأخشاب السرّي، وبالمقابل فمن المستحيل تغريمُ الفلاحين إذا ضلّت مواشيهم سبيلها في أراضيه؛ وبالرغم من الحنق الذي يخامر الحراس فلم يكن بوسعه أن يصادر الماشية التي ضُبطت متلبّسة بالجريمة.

يمكنه أن يقرض «بطرس» مالاً لينقذه من براثن مرابٍ يطلب منه عشرة بالمائة في الشهر؛ على أنه لا ينبغي أن يمنح الفلاحين الذين لا يدفعون إتاواتهم مهلةً أو تأجيلاً. لم يكن يغتفر لمدير أعماله إذا أهمل حصاد ركن صغير من الحقل. وكان يمتنع عن أن يمسّ الثمانين هكتاراً التي غرس فيها غابة فتية. وإذا ما عاد إليه عامل بعد ترك العمل، في موسم الحصاد، لأن أباه قد مات، خَصمَ عليه ليفين، على مضض، أجرة العطل الأسبوعية؛ لكنه كان لا ينفك ينفق على الخدم المسنين الذين لم يعودوا صالحين لشيء.

كان ليفين يعلم أيضاً أن أول واجباته، حين يعود إلى بيته، أن يزور امرأته

المتوعّكة، وأن الفلاحين الذين كانوا ينتظرونه منذ ثلاث ساعات يمكن أن ينتظروه قليلاً أيضاً؛ كان يعلم أنه مهما تكن اللذةُ التي يستشعرها أثناء ترتيب أماكن جماعات النحل، فقد كان ينبغي له أن يتخلّى عن تلك اللذة وأن يترك الرجل العجوز المكلّف بالمنحلة يتولّى هذه المهمة وحده، ليتناقش والفلاحين الذين جاؤوا يلاحقونه وهو في غمرة عمله.

لكنه كان يجهل إن كان يتصرّف تصرفاً حسناً أم سيئاً، ولم يكن يتحاشى الأحاديث والملاحظات التي تدور حول هذا الموضع فحسب، بل إنه لم يكن يبحث عن الحجج ليبرّر نفسه.

كان التأملُ يغرقه في الشك ويمنعه أن يرى ما يجب وما لا يجب فعلُه. وبالمقابل، فعندما كان يعيش دون تفكير، كان يحسّ إحساساً مستمراً بوجود قاضٍ في نفسه، لا يُخطىء في حكمه، قاضٍ يدله على الأفضل بين عملين ممكنين؛ فإذا لم يتصرفْ كما ينبغي أن يتصرّف شعر بذلك.

ولذلك كان يعيش دون أن يعلم أو يواجه إمكانية معرفة: ما هو ولماذا يعيش على هذه الأرض. كان هذا الجهل يعذّبه عذاباً شديداً إلى الحد الذي خاف معه أن ينتحر، ومع ذلك فقد ظلّ يشق بثبات طريقه الشخصي في الحياة.

[١١]

في اليوم الذي وصل فيه سيرج ايفانوفتش إلى بوكروفسكوي، كان ليفين في يوم من أسوأ أيامه.

كان في تلك الفترة من السنة التي يبلغ فيها العملُ أشُدّه: الفترة التي تتجلّى فيها، في الشعب بأسره، روحٌ فريدة من التضحية لا تظهر في ظروف الحياة الأخرى، روحٌ جديرة أن تُقدر تقديراً عالياً لو أن الناس الذين يُظهرون تلك الروح كانوا يقدّرون قيمتها، ولو لم يتكرر ذلك كل سنة، ولو لم تكن نتائجُ هذا الجهد طفيفة.

إن حشَّ الشعير والشوفان وحصادهما، وإدخال الحشيش، ومباشرة الحراثة الثانية، ودرس الحبوب، وبذار حنطة الخريف، كل ذلك يبدو بسيطاً وعادياً؛ لكنّ من الضروري، لكي يتمّ ذلك كله في وقته، من أن يعمل جميعُ أهالي القرية دون انقطاع من أكبرهم إلى أصغرهم ثلاث مرات أكثر من المعتاد، أثناء هذه الأسابيع الثلاثة أو الأربعة، وهم يتغذون بخمر «الكفاس» وبالبصل وبالخبز الأسود، ويدرسون القمح وينقلون الأكداس ليلاً، ولا يخصّصون للنوم سوى ساعتين أو ثلاث في اليوم. هذا ما يجري كل سنة في روسيا.

كان ليفين الذي عاش دائماً في الريف على صلة وثيقة بالشعب يحسّ، في فترة أعمال الحقول، أن عدوى هذا التهيج العام تسري إليه.

في هذا الصباح، كان قد ذهب ليرى بذار الشيلم وتجميع الشوفان في أكداس؛ ورجع ليكون مع زوجته وأختها عند نهوضهما، وتناولَ القهوةَ معهما، وعاد مشياً إلى المزرعة حيث ستُجرَّب درَّاسةٌ من نوع جديد.

ما انفكّ ليفين يفكّر، طوال اليوم، وهو يثرثر مع مدير أعماله ومع الفلاحين، ومع زوجته ودولي والأولاد وحميه في البيت، فيما كان يشغله آنذاك بالرغم من همومه باعتباره المسؤول عن المنزل، وأرجع كل شيء إلى السؤال التالي: «ما أنا؟ أين أنا؟ ولماذا أنا هنا؟».

كان واقفاً في مستودع للحصيد غُطِّي حديثاً، كانت ألواح من أشجار البندق التي ما تزال مكتسيةً بأوراقها العطرة مثبتةً بأعمدة من الحور المقشور تسند سقف القش. كان ليفين ينظر حيناً، من البوابة المفتوحة حيث كان غبار الدَرْس الجاف والحرّيف يغيب وهو يتراقص، إلى عشب الأرض المسوّرة التي تضيئها الشمسْ المحرقة وإلى القش الغضّ الذي أُخرج قبل قليل من المستودع، وحيناً آخر إلى السنونو ذات البطن الأبيض والرأس المبقّع التي كانت تأتي لتجثم تحت السقف وهي تصرخ صرخات قصيرة وحادة أو التي كانت تحطّ، وهي خفاقة الأجنحة، في

فرجة البوابة المضيئة، وفي بعض الأحيان كان ينظر إلى الجمهور الذي يعجّ به المستودع المظلم والمغبّر، فتراودُه أفكارٌ غريبة.

كان يفكر: «ما جدوى ذلك كله؟ لماذا أقف هنا فأجبرهم على العمل؟ لماذا ينشطون جميعاً ليبرهنوا لي على حميّتهم بحضوري؟» وفكّر وهو ينظر إلى فلاحة مهزولة الجسم كانت تثبّت قدميها الملوّحتين، وهي تدفع القمح بمشطها. على أرض البيدر الخشنة: «وهذه العجوز ماترينا التي أعرفها جيداً (اعتنيتُ بها عندما وقع عليها جسرٌ خشبيّ، أثناء الحريق)، لماذا تكدّ نفسها إلى هذا الحدّ. لقد شفيتْ وسوف تُدفَن اليوم أو غداً أو بعد عشر سنوات ولن يبقى منها شيءٌ، ولا من تلك الفتاة الأنيقة في تنورتها الكتانية الحمراء، التي تفصل القش عن قشر الحب بحركة ماهرة جداً، رشيقة جداً. هي أيضاً ستُدفَن، وهذا الحصان الأبقع سيهلك قبل الجميع...» قال ذلك وهو يتأمل حصاناً ينوء بحمله ويتنشّق الهواء بسرعة من منخريه المتسعين، ويتقدّم بخطوات بطيئة جاراً بحركته العجلة المائلة. «هو أيضاً سيُدفن، مثله مثل فيدور عامل الدرّاسة بلحيته الجعدة الملأى بالعصافة وقميصه الممزّقة التي تكشف عن كتفه البيضاء. لكنه يحلّ الحُزم، ويلقي الأوامر، ويصرخ على النساء ويصلح بحركة سريعة حزام الدولاب. وسوف أُدْفَن أنا أيضاً، على الخصوص، ولن يبقى شيء. إذن، ما جدوى ذلك؟

كان يفكّر في هذا وينظر، مع ذلك، إلى ساعته ليحسب كمية القمح التي تُدرس في ساعة. كان بحاجة إلى أن يعرف ذلك لكي يحدّد المهمة اليومية.

لاحظ ليفين: «لقد مرّتْ ساعةٌ ولم يكادوا يبدؤون بالعرمة الثالثة». ودنا من عامل الدرّاسة وغطّى بصوته على ضوضاء الآلة وأمره أن يلقمها في كل مرة كمية أقل من القمح:

ــ إنك تضع في كل دفعة أكثر من اللازم، يا فيدور! أرأيت، هذا يحشو الدرّاسة بالعُصافة ويمنعها من السير السريع. ساوِ بين الدفعات أكثر...

لكن «فيدور» الذي اسودّ من الغبار اللاصق بوجهه الناضح عرقاً، صرخ بشيء رداً عليه، ولم يعمل بملاحظاته. فدنا ليفين من اسطوانة الدرّاسة، ونحى فيدور، وأخذ يصب الحبّ بنفسه.

بعد أن عمل ليفين حتى عشاء الفلاحين، خرج مع عامل الدرّاسة وبدأ الحديث معه. وقفا بجانب عرمة من الشيلم كُدّستْ بعناية للبذار.

جاء هذا العامل من قرية نائيةٍ هي القرية التي حاول ليفين أن يقيم فيها تجربة الاستغلال الجماعي. والأرض الآن مؤجرة لمفتّش للأسواق يُدعى «كيريلوف».

ساق ليفين الحديثَ إلى هذا الموضوع وسأل فيدور إذا كان أفلاطون، وهو فلاحُ طيّب وثريّ من القرية نفسها، لا يريد أن يأخذ الأرض على حسابه.

أجاب الفلاحُ وهو يسحب القشة التي انسلّت إلى ما بين صدره الناضح عرقاً وقميصه:

ــ الأجور مرتفعة، ولا يمكن لأفلاطون أن يوفّق في هذا العمل، يا قسطنطين دميتريفتش.

ــ وكيف يوفّق كيريلوف إذن؟

ــ ميتيوك؟ (كان هذا الاسم هو تصغير التحقير الذي يطلقه الفلاحُ على مفتّش الأسواق). وكيف لا يوفّق، يا قسطنطين دميتريفتش؟ وهو الماهر في امتصاص الناس. إنه لا يرحم أحداً، أما العم فوكانيتش (هكذا كان يسمي أفلاطون العجوز) فليس بالرجل الذي يسلخ الفقراء. فهو هنا يؤجّر الأرض بالدين، وهناك يخفض الأسعار. إنه لا يكاد يردّ ماله. لكنه رجلٌ حقاً.

ولم يفعل ذلك؟

ــ لأن الناس ليسوا سواءً، يا قسطنطين دميتريفتش: فبعضهم لا يفكر إلا في حاجاته، مثل «ميتيوك» الذي لا يحلم إلا بملء بطنه، أما فوكانيتش فهو شيء آخر: إنه رجل عجوز حافلٌ بالكرامة. إنه يعيش من أجل روحه ولا ينسى الله.

فهتف ليفين وهو يكاد يصرخ:

ــ لا ينسى الله! يعيش من أجل روحه! ماذا تعني؟

ــ أنت تعلم ذلك كما أعلمه: أي أنه يعيش بحسب الحقيقة، بمقتضى قانون الله، آه! لا، الناس ليسوا سواءً. وأنت أيضاً، لا تسيءُ إلى قريبك...

قال ليفين وهو يختنق من التأثر:

ــ نعم، نعم، إلى اللقاء!

ورجع ليأخذ عصاه واتجه بخطوات سريعة إلى بيته. وعندما قال له الفلاح: إن فوكانيتش يعيش «من أجل روحه، بحسب الحقيقة وبمقتضى قانون الله»، انطلقت من إحدى زوايا كيانه أفكارٌ مشوّشة وخصبةٌ واندفعت كلها نحو الهدف نفسه، وأخذتْ تحوّم في رأسه وقد بهرتْه بضيائها.

[١٢]

كان ليفين يوسع الخطا على الطريق، ملتفتاً إلى حالته النفسية التي لم يعرفّها من قبل، أكثر من التفاته إلى أفكاره (التي ما تزال جدّ مشوّشة).

لقد فعلتْ فيه كلماتُ الفلاح فعلَ الشرارة الكهربائية: لقد حوّلت فجأة طائفةَ الأفكار المنعزلة، المتعدّدة، العاجزة التي ما انفكّت تشغله وجمّعْتها في كلّ واحد. وكانت هذه الأفكار ما تزال تسكنه بلا علم منه، عندما تحدّث عن تأجير الأرض.

أحسّ في نفسه بشيء جديد وأخذ يتقرّى بفرحٍ هذا العنصرَ الجديدَ دون أن يعلم ما هو.

«لا ينبغي أن نعيش من أجل شهواتنا، بل من أجل الله. من أجل أي إلٰه؟ وهو بوسعنا أن نقول ما هو أبعد عن العقل ممّا قال؟ لا ينبغي أن نعيش من أجل شهواتنا: وبعبارة أخرى: لا ينبغي أن نعيش من أجل ما نفهمه، من أجل ما يجتذبنا، من أجل ما نتوق إليه، بل من أجل شيء لا تبلغُه الأفهام، من أجل إلٰه

لا يمكن لأحد أن يدركه أو يعرفه. ومع ذلك أأفهم هذه الكلمات المنافية للعقل التي قالها فيدور؟ وهل وجدتها حمقاء مشوّشة، غير صحيحة؟

«لا ، لقد فهمتها بدقة كما يفهمها، لقد فهمتها فهماً أكمل وأوضح من فهم أي إنسان: لم أرتبْ فيها قط ولا يمكنني أن أرتاب فيها. ولستُ حالةً مفردةً: هذا هو الشيء الوحيد الذي يفهمه الجميع فهماً تاماً، الشيء الوحيد الذي لا يرتاب فيه أحدٌ».

«وكنتُ أنتظر المعجزات، كنت أشكو من أنني لا أرى المعجزات القادرة على إقناعي! المعجزة المادية كفيلة بأن تخلب لي. وها هي ذي المعجزة الوحيدة الممكنة، الدائمة: إنها تكتنفني من كل الجهات ولم ألاحظْها!

«يقول فيدور: إن كيريلوف يعيش من أجل بطنه. وهذا مفهوم ومعقول. فمن حيث نحن كائنات عاقلة لا يمكننا أن نعيش إلا من أجل بطننا. ثم ما لبث «فيدور» نفسه أن قال: إنّ من الشر أنْ يعيش المرُ من أجل بطنه، وأنه يجب أن يعيش من أجل الحقيقة، من أجل الله، وأنا أفهمه بالإشارة؛ أنا وملايين البشر الذين عاشوا منذ قرون خلتْ والذين يعيشون الآن، والفلاحون، والسذْج والحكماء الذين فكّروا وكتبوا مرددين الشيء نفسه بلغتهم الغامضة. جميعهم متّفقون على هذه النقطة، على هذه النقطة لا غير: على هدف الوجود وعلى ما هو خير. ليس من جامع بيني وبين الآخرين إلا هذه المعرفة الواضحة، الثابتة، الأكيدة، وهي معرفة لا يمكن أن تُحدَّد بالعقل: إنها خارجة عن العقل، لا تستند إلى أي مبدأ، ولا تستتبع أية نتيجة».

«لو كان للخير سببٌ لكفّ عن أن يكون الخير، ولو كان له نتيجة: الثواب، لكفّ عن أن يكون الخير أيضاً. فالخير إذن خارج عن كل علاقة من علاقات السبب بالنتيجة».

«هذا ما أعرفه، وما نعرفه جميعاً».

«وهل هناك معجزة أكبر»؟

«أأكون قد عثرتُ على الحل؟ وهل بلغتْ آلامي نهايتها؟».

كذلك كان يفكر ليفين وهو يمشي على الطريق المغبرة، غير آبهٍ بالحرارة والتعب، وقد استولت عليه السكينةُ النفسية. لقد ملأه هذا الشعورُ بحبور بالغ حتى إنه لم يجرؤ أن يصدّقه. كاد يختنق من الانفعال؛ وعجز عن أن يمضي في طريقه، فدَلَفَ إلى الغابة وجلس في ظل أيكة من الحور فوق العشب النامي. نزع قبّعته ليبرّد جبينه العرقان وتمدّد، وهو متكىء على مرفقه، فوق العشب الملتفّ والمنتفخ بالنسغ.

فكّر، وعيناه شاخصتان إلى العشب الغض تُتابعان حركات جعل أخضر صغير كان يتسلّق ساق بخيلٍ وقد أوقفته عن صعوده وريقةُ النجيل: «هيّا، يجب أن أوضَح أفكاري، أن أفهم».

وتساءل وهو ينحّي الوريقة لكي لا تُعيق الجعل، ويَحْني عشبةً أخرى لتمرّ الحشرةُ من فوقها: «ماذا اكتشفتُ؟ ما الذي يوفّر لي هذا الفرح؟ ماذا اكتشفتُ؟

«لا شيء. انكشف لي فقط ما كنتُ أعلمه. فهمتُ تلك القوة التي منحتْني الحياةَ وما تزال تمنحُني إياها. تخلصتُ من الخداع، وتعرّفت بسيدي».

«كنت أقول، فبيما مضى، إن تبادلاتٍ ماديةً كانت تتمّ في جسدي، كما تتمّ في جسد هذه النبتة، وجسد هذا الجعل (الذي رفض العشبة التي حنيتُها، وها هو يفتح جناحيه ويطير) بمقتضى قوانين فيزيائية وكيميائية وفيزيولوجية، وأن فينا جميعاً، بما في ذلك أشجار الحور والسحُب والسدُم، تطوراً يحدث. فممّ ينطلق هذا التطور؟ وإلام يفضي؟ تطور مستمر وصراع... وكأن التطور والصراع يمكنهما أن يستمرا إلى ما لا نهاية! وكنتُ أدهش، بالرغم من الجهد الشديد لفكري في هذه السبيل، ألا أكتشف معنى الحياة، معنى اندفاعاتي وأشواقي. وأنا

أقول الآن: إني وجدتُ معنى الحياة وهو: أن أعيش من أجل الله، من أجل روحي. وبالرغم من وضوح هذا المعنى فإنه يظل غامضاً، عجيباً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى كل ما هو موجود. نعم، كان ذلك من الكبرياء». قال ذلك وانقلب على بطنه محاولاً أن يعقد عقدة بقشتين من العشب دون أن يكسرهما.

وردّد: «لم يكن ذلك كبرياء العقل فحسب، بل حماقة العقل. ولا سيما. . . مكر العقل، ليس هناك كلمة أخرى. غشّ العقل، لا أكثر».

واستعاد بإيجاز مسيرةَ أفكاره كلّها منذ سنتين: منذ أن أذهلته فكرةُ الموت وهو بجنب أخيه المصاب بمرض عضال.

فبعد أن أدرك بوضوح لأوّل مرةً أنْ ليس أمامه، شأنه شأن سائر البشر، سوى الألم والموت والنسيان الأبدي، قرّر أنه لا يمكن أن يعيش هكذا، وأنّ عليه إما أن يفهم مشكلة الوجود على نحو لا يبدو معه هذا الوجود كأنه سخرية فظّة تمارسها روحٌ خبيثة، وإما أن ينتحر.

بيد أنه لم يفهم ولم ينتحر: لقد ظلّ يعيش ويفكّر ويحسّ؛ وأكثر من ذلك أنه تزوّج وخبر الكثير من المباهج وكان سعيداً ما لم يفكّر في معنى الوجود.

ما معنى ذلك؟ معنى ذلك أنه يعيش عيشة حسنة ويفكّر تفكيراً رديئاً.

كان يعيش (دون أن يفطن لذلك) على تلك الحقائق الروحية التي رضعها مع حليب أمه. بينما كان لا يرفض هذه الحقائق فحسب، حين يفكر، بل إنه كان يتفاداها بعناية.

لقد رأى الآن بوضوح أنه إذا استطاع أن يحيا فذلك بفضل المعتقدات التي رُبّي عليها لا غير.

«ماذا كنتُ سأكون، وكيف كنت سأعيش لو لم أكن مشبعاً بهذه المعتقدات، لو لم أكن عالماً بأنني يجب أن أعيش من أجل الله لا من أجل شهواتي؟ كنتُ سأسرقُ وأكذب وأقتل. وما كان سيوجد شيءٌ، بالنسبة إلي، ممّا يخلق أفراح

وجودي الأساسية». ومع أنه بذل جهداً جباراً، فإنه لم يستطع أن يتخيّل الكائن الحيواني الذي كان سيكونه لو لم يكن عالماً لماذا يعيش.

كنت أبحث عن جواب السؤال الذي يشغلني. ولم يكن التفكير قادراً على إعطائي الجوابَ، فليس بين التفكير وهذه المشكلة جامع مشترك. الحياةُ نفسها هي التي أعطتني الجواب، بفضل معرفتي بما هو خير وما هو شر. وهذه المعرفة لم أكتسبْها اكتساباً، لكنني وُهبتُها هبةً، لأنني لا أستطيع أن أحصل عليها أينما فتشتُ».

«ومن أين آتي بها؟ أهو العقل الذي برهن لي أنني يجب أن أحبّ قريبي لا أن اضطهده؟ لقد قالوا لي ذلك في طفولتي. واعتقدتُ ذلك بفرح لأنهما صاغوا لي ما كان في نفسي. لكن، مَنْ الذي كشفَ لنا عن ذلك؟ ليس العقل. العقل كشف لنا عن الصراع من أجل الوجود وعن القانون الذي يقضي بأن اضطهد الذي يقفون عثرةً في سبيل إشباع رغباتي. هذا هو استنتاج العقل. العقل لا يمكن أن يعلّمنا حبّ قريبنا، لأن ذلك مجافٍ للعقل.

[١٣]

وتذكّر ليفين مشهداً حديث العهد بين دولي وأولادها. ذلك أن الأولاد الذين تُركوا وحدهم أخذوا يلهون. فطهوا توتَ العليق على لهب الشمعة، وتراشقوا ببَقّ الحليب من أفواههم. وداهمتهم أمُهم، وهم في لهوهم هذا، فوّبختهم بحضور ليفين، وبيّنت لهم أن ما يخرّبونه كلّف الكبارَ كثيراً من الجهد، وأن هذا الجهد إنما تحمّلوه من أجلهم، وأنهم إذا كسروا الفناجين فلن يبقى لهم ما يتناولون به الشاي، وأنهم إذا ضيّعوا الحليب فلن يجدوا ما يأكلونه وسوف يموتون جوعاً.

ذهل ليفين من الشك المقطّب والهادىء الذي استمع به الأولادُ إلى أمهم. لم يؤمنوا بكلمة مما قالته لهم أمُهم، وانزعجوا فقط لأنها وضعت حداً لهذا اللعب

الذي أسر قلوبهم. لم يكن بوسعم أن يفهموا ما يخرّبونه هو ما يعيشون به، وذلك لأنهم عاجزون عن تصوّر مجموع الخيرات التي يتمتعون بها.

كانوا يفكّرون: «هذا شيء طبيعي، وليس في ذلك ما هو مثيرٌ أو مهمٌ، لأن ذلك قد كان دائماً وسيكون أبداً. وهم يكرّرون دائماً الأغنية ذاتها. علينا أن نفعل شيئاً آخر غير التفكير بما هو مطهوّ: نريد أن نبتكر شيئاً جديداً خاصاً بنا. كأن نضع، مثلاً، توت العليق في الفنجان ثم ندعه يَغْلي على لهب الشمعة، وكأن نتراشق ببَقّ الحليب من أفواهنا. هذا مسلّ وحديد. وهو يعدل الشربَ بالفناجين».

وتابع ليفين تفكيره: «ألسنا نفعل مثلهم، ألستُ أفعل مثلهم وأنا أبحث عن دلالة قوى الطبيعة وعن معنى حياة الإنسان؟».

«والنظرياتُ الفلسفية ألا تَفْعل مثل ذلك حين تقود الإنسان، بطريق للفكر غريبة، طريق تكاد تكون غير طبيعية، إلى معرفة ما يعرفه منذ زمن بعيد بكثير من اليقين حتى إنه لا يستطيع أن يعيش بدون هذه المعرفة.

أليس واضحاً، في شرح كل فيلسوف لنظريته، أنه يعلم سابقاً معرفةً لا ريب فيها كمعرفة الفلاح «فيدور» ــ وليست خيراً منها ــ الهدفَ الأساسي للحياة، وأنه يريد فقط أن يعود إلى ما يعرفه الناسُ جميعاً، بطرق العقل الملتبسة؟».

«فَلنَتْرُكْ الأولاد يقومون بأود أنفسهم، ويصنعون الآنية، ويحلبون البقر... إلخ... هل سيستمرون في شيطناتهم؟ لا، سيموتون جوعاً. ولْنُتْرُكْ الآن أهوائنا وأفكارنا، بدون مفهوم الله الواحد والخالق أو بدون معرفة الخير والشر الأخلاقي...».

«حاولوا أن تَبْنوا شيئاً دون هذه المفاهيم!».

«لن نفعل سوى الهدم، لأننا مَشبعون روحياً. ولا سيما الأولاد!» من أين جاءتني تلك المعرفة المُسعدة التي أشاطرها ذلك الفلاح والتي تحمل وحدها السكينة إلى نفسي؟ من أين أخذتها؟

وإذا كنتُ قد تربيتُ على فكرة الله، مسيحياً مغموراً طوال حياتي بالخيرات الروحية التي تسخو بها المسيحيةُ. مشبعاً وعائشاً بهذه الخيرات، فأنا أهدم، كالطفل غير الواعي، أو أحاول أن أهدم ما به أعيش. وإنما أتوجّه «إليه»، في الدقائق العصبية وحدها، كالأطفال عندما يلم بهم البرد أو الجوع، ولا أتبيّن، شأن الأطفال الذين توّبخهم أمهم على حماقاتهم، سوى أن محاولاتي، محاولات الطفل المدلّل، لمْ يُحْسَبْ حسابُها.

إن ما أعرفه، لم أعرفه بطريق العقل. لقد وُهبتهُ، لقد انكشف لي. إني أعرفه عن ظهر قلب، بطريق الإيمان بتعاليم الكنيسة الأساسية.

وكرّر ليفين: «الكنيسة؟ الكنيسة!» وهو ينقلب على جهته الأخرى، ويتكىء على مرفقه، ويُحدّق في قطيع يهبط إلى الساقية في الأفق البعيد.

«أيمكنني أن أؤمن بما تعلمه الكنيسة؟» فكرّ في ذلك ليمتحن نفسه وليستعرض كل ما يمكن أن يدمّر سكينته الراهنة. وتوقّف عن عمد عند المذاهب التي حيرته وأثارت حفيظته أكثر من غيرها.

«الخليقة؟ لكن كيف أفسّر الوجود؟ بالوجود ذاته؟ بلا شيء... الشيطان والخطيئة؟ وكيف أفسّر الشرّ إذن؟... والفداء؟...

لست أدري شيئاً، ولا يمكنني أن أعلم ما قيل لي وللناس جميعاً في آن واحد.

خُيّل إليه الآن أنْ ليس بين عقائد الكنيسة ما يمكنه أن ينال من الجوهري: الإيمان بالله في الخير باعتباره غاية الإنسان الوحيدة.

كل عقيدة من عقائد الكنيسة تتضمن أنه ينبغي أن نخدم الحقيقة لا شهواتنا. وكل منها لا يسيء إلى هذه القاعدة، لكنه يُسهم في تحقيق أعظم المعجزات التي تتمّ دوماً على هذه الأرض: وهي التي تُتيح لملايين الكائنات البشرية من كل جنس: الحكماء والسذج، الأطفال والشيوخ، لجميع الناس مروراً بهذا الفلاح،

و «لفوف» وكيتي، والمتسوّلين والقياصرة، تُتيح لهم أن يفهموا الحقائقَ نفسها وأن يؤلّفوا حياةَ الروح هذه التي تستحقُ وحدها أن يحياها الإنسان والتي نُكبر قيمتها وحدها.

أخذ ينظر الآن إلى السماء العميقة، الصافية، وهو مستلقٍ على ظهره. «أنا أعلم جيداً أن هذه السماء فضاء لامتناهٍ وليست قبّةٌ مستديرة. بيد أني، مَهما أطرفْ بعيني وأشدّد نظري فلن أرى سوى قبّة مستديرة ومحدودة، ومع يقيني بضخامة هذا الفضاء، فلا ريب أني أقرب إلى الصواب عندما أرى هذه القبة الزرقاء والصلبة، مني عندما أحاول جاهداً أن أرى أبعد منها.

[١٤]

كان ليفين ينظر أمامه ويرى القطيع في الأفق البعيد، ثم شاهد عربته يجرّها جوادُه «الأدهم». وعندما وصل الحوذي إلى قرب القطيع قال شيئاً للراعي؛ وبعد لحظة سمع غيرَ بعيد عنه صوت العجلات وصهيل الجواد؛ لكنه كان مستغرقاً في أفكاره إلى الحد الذي لم يتساءل معه لماذا جاء الحوذيُّ يطلبه.

لم يثبْ إلى ذاته إلا عندما ناداه الحوذي على خطوات منه.

ــ أرسلتني السيدةُ. لقد وصل أخوك قبل هنيهة مع سيّد آخر.

صعد ليفين العربة وتناول العنان.

ظلّ طويلاً قبل أن يتمالك نفسه: لاح له أن يخرج من حلم. كان ينظر إلى جواده المطهّم الذي تغطّى عنقه وصدره بالزبد في المواضع التي كان العنان يحفّها، وينظر إلى الحوذيُّ إيفان الجالس قربه، وقد عادت إليه ذاكرته: كان ينتظر أخاه، ولا بدّ أن امرأته قلقة الآن من جراء غيابه الطويل. حاول أن يحزر مَنْ يكون الزائر الذي يرافق أخاه. لم تعد الصورةُ التي يكوّنها عن أخيه وامرأته وضيفه المجهول

هي الصورة التي كوّنها سابقاً. وخُيِّل إليه أن علاقاته بالآخرين ستكون جدّ مختلفة منذ الآن.

«المسافة التي فصلتْ دائماً بين أخي وبيني ستختفي الآن. لن نتخاصم بعد الآن؛ لن أتشاجر مع كيتي ولا مع هذا الضيف، أياً كان، سأكون باشاً وطيّباً مع الخدم، بدءاً من إيفان. . . كل شيء سيتبدّل».

كان ليفين يلتفت لينظر إلى إيفان الجالس بقربه، وهو يكبح جواده النشيط الذي كان يحتفّز ليحثّ سيره؛ ولم يكن الرجل يعرف ماذا يفعل بيديه العاطلتين، فأخذ يشدّ على صدره قميصه الذي نفخه الهواء. وكان ليفين يفتش عن ذريعة ليبدأ الحديث معه. أراد أن يقول له: إنه قد أسرف في شدّ السير الذي يسند عريشَ العربة، لكن ذلك كان أشبه باللوم، ففتش عن حديث ودّي. ولم يخطر بباله شيء.

قال الحوذي وهو يسحب أحد طرفي العنان ليصحح وجهة السير:

ــ الأفضل أن تنحرف إلى اليمين قليلاً، فهذه أرومة شجرة.

قال ليفين الذي تألم من تدخّل الحوذي:

ــ أرجوك أن تتركني وشأني وألا تعطيني نصائحك.

لقد خامره بدقةٍ الحنقُ القديم نفسه عندما كان الناس يتدخّلون في شؤونه. وما لبثّ أن شعر شعوراً حزيناً إلى أي حد أخطأ حين تصوّر أن حالته النفسية ستُبَدِّل مباشرةً ردودَ أفعاله تجاه الواقع.

شاهد ليفين، على ربع فرسخ من المنزل، غريشا وتانيا يُهرعان إلى لقائه. فقالا وهما يتسلّقان إلى العربة:

ــ عم كوستيا! وصلت ماما وجدي وسيرج إيفانوفتش وسيد آخر.

ــ مَنْ ذلك السيد.

قالت تانيا وهي تصعد إلى العربة وتقلد كاتافاسوف:

ــ إنه بشع! وهو يعمل بيديه هكذا؟. . .

سأل ليفين وهو يضحك وقد ذكّره تقليد تانيا الإيمائي بشخص ما:

ــ أهو شاب أم كبير! ؟

وفكّر في نفسه: «على ألا يكون ضيفاً ثقيلاً»!

وما أن مالوا إلى المنعطف وشاهد ليفين الذين أقبلوا عليه، تعرف إلى كاتافاسوف بقبعة القش. كان يمشي وهو يخطر بيديه كما قلّدته تانيا تماماً.

كان كاتافاسوف يحب كثيراً الكلام على الفلسفة. كان ينظر فيها باعتباره عالماً طبيعياً، أي باعتباره رجلاً لم يهتم قط بالفلسفة، وقد ناقشه ليفين كثيراً، في هذه الآونة الأخيرة.

كانت الذكرى الأولى التي تبادرت إليه عندما تعرّف بصديقه ذكرى حديث تصوّر كاتافاسوف، على ما يبدو، أنه انتصر فيه.

قال ليفين في نفسه: «حسناً، لن أجازف بعد الآن بآرائي دون تروٍّ».

بعد أن نزل من العربة ليرحّب بالقادمين استخبر عن زوجته.

قالت دولي:

ــ ذهبت إلى الغابة مع ميتيا. أرادت أن تجلس به هناك. فالجو شديد الحرارة في المنزل.

وكان ليفين قد حذّر امرأته من أن تحمل الصبي إلى الغابة مقدّراً أن ذلك خَطِرٌ، فأزعجه هذا النبأ.

قال الأمير وهو يبتسم:

ــ لم تعرفْ هي وابنُها أين يختبئان من الحرارة. نصحتُها أن تحاول وضع الصبي في قبو الجليد.

سنذهب إلى هناك فوراً.

قال سيرج إيفانوفتش الذي تخلّف ليظلّ مع أخيه:

ــ وماذا تفعل الآن؟

أجاب ليفين:

ــ ما من شيء خاص. إني أهتمّ بممتلكاتي، كالعادة. هل ستبقى مدة طويلة؟ إننا ننتظرك منذ زمن بعيد.

ــ نحو خمسة عشرة يوماً، فعندي شغلٌ كثير في موسكو.

تلاقت نظرتا الأخوين، عند هذه الكلمات، وبالرغم من تشوّق ليفين الشديد، في هذه اللحظة، إلى إقامة علاقات ودية وبسيطة بخاصة مع أخيه، إلا أنه أحسّ بالضيق. فخفض عينيه ولم يدر ما يجيب.

استعرض جميع الموضوعات التي يمكن أن يستسيغها سيرج إيفانوفتش وأن تُلهيه عن حرب الصرب والمسألة السلافية التي لمّح إليها حين تحدّث عن مشاغله، وساق الحديثَ إلى الكلام على كتاب أخيه، فسأله:

ــ حسناً! وهل كُتبَ نقدٌ كثير حول كتابك؟

تبسم سيرج إيفانوفتش من تعمّد هذا السؤال، وقال:

ــ ما من أحد يهتم به، وأنا قبل غيري.

وأضاف وهو يشير بمظللته إلى الغيوم البيضاء التي ظهرت فوق رؤوس أشجار الحور.

ــ انظري، داريا الكسندروفنا، سينزل المطر.

هذه الكلمات كانت كافية لتقوم بين الأخوين تلك العلاقات الفاترة ــ لا العدائية ــ التي كان ليفين يحب أن يتفاداها.

لحق ليفين بكاتافاسوف، وقال له.

ــ ما أحسن فكرتك بالمجيء!

ــ كنتُ أنوي ذلك منذ زمن بعيد. سنتمكن من الحديث بهدوء. هل قرأت سبنسر؟

ـ لم أفرغ منه. على كل حال، لم أعدْ بحاجة إليه الآن.

ـ كيف ذلك؟ إنه شائق. لماذا؟

ـ عنيتُ أنني مقتنعٌ اقتناعاً راسخاً بأنني لن أجد عنده ولا عند أمثاله حلّ المشكلات التي تشغل بالي. الآن. . .

لكن تعبير كتافاسوف المرح والهادىء أذهله فجأة: لم يشأ أن يكدّر حالته النفسية وتذكر ما وطّد العزم عليه، فتوقف.

وأضاف:

ـ سوف نستأنف الحديث عن ذلك.

وقال وهو يخاطب الجماعة:

ـ إذا كنا سنذهب إلى المنحلة، فهذا هو الدرب الذي يجب أن نسلكه.

وصلوا بالدرب الضيق إلى فرجةٍ في الغابة كثيفة العشب، مسدودة من أحد جوانبها بسياج من القرطب ذي الألوان الفاقعة الذي تشابكت فيه الأغصانُ الخضراء الداكنة لأجمة صغيرة من الخربق. أجلس ليفين ضيوفه في ظل أيكة من شجر الحور الفتي على مقعد وكراسي خشنة معدّة للزائرين الذين يخشون النحل. واتجه هو نفسه إلى داخل الأرض المسوّرة لكي يأتي منها بالخبز والعسل الطازج والخيار لرفاقه.

بلغ الكوخَ الخشبي وهو حريص على أن يحدث أدنى قدر ممكن من الحركة، مصيخاً السمع إلى دويّ النحل الذي أخذ مروره يزداد بجنبه. وبينما هو عند عتبة الباب جاءت نحلةٌ وعلقت بلحيته فنزعها بحذر. وفي الممر المعتم تناول قناعه ذا الخيوط الحديدية والمعلق بالجدار ووضعه على وجهه، وخبّأ يديه في جيبيه وقصد إلى داخل السور حيث كانت توجد خلايا النحل وسط فراغ محصور. كانت أقدم الخلايا (كان يعرف تاريخ كل خلية من الخلايا) مصفوفةً في صفوف

منتظمة، مثبتة على الأوتاد بشرائح من اللحاء، وأفتاها، خلايا هذه السنة، مصفوفة على طول الحظيرة. وعند مدخل الخلايا، كان هناك تدويمٌ مستمر يتعب النظر: كان النحل واليعاسيب تحوّم في مكانها بينما كانت العاملات في حركة ذاهبة آتية تطير إلى زيزفونة مزهرة وتعود محمّلةً بالغنيمة.

وافتْ أذنه شتى الأصوات: فحيناً صوت عاملة تمرّ، مستغرقةً في عملها، وحيناً آخر صوت ذكر عاطل مُدوٍّ، وفي بعض الأحيان صوت الحارسات المستعدّات لإنقاذ حماتهن في العدو الذي يهدّدهن في ملكهن. وفي الجانب الآخر من الحظيرة، كان الحارس يَبْرد طوقَ برميل فلم ير ليفين. تجنّب ليفين مناداته ووقف في وسط المنحلة. كان سعيداً بهذه المناسبة التي أتاحت له أن يبقى وحده قليلاً وأن يراجع ذاته: لقد أزرى الواقعُ على أفكاره.

ففي برهة وجيزة من الوقت، وجد الذريعةَ ليغضب على إيفان، وليُظهر لأخيه شيئاً من الفتور، وأن يشرع في الحديث مع كاتافاسوف، بدون تروٍّ.

وفكّر: «أمن الممكن أن يكون ذلك حالةً عارضةً تتلاشى دون أن تخلّف أثراً»؟.

لكن حالته النفسية السابقة عادتْ إليه في اللحظة ذاتها، وأحسّ بفرح أن شيئاً جديداً ومهماً قد حدَث فيه. لقد حجب الواقعُ وقتياً السكينة التي بلغها قبل قليل بغشاء رقيق، وظلت تلك السكينة سليمةً في أعماقه.

وكما أن النحل الذي أخذ يحوّم حوله مهدداً له ومستأثراً بانتباهه، قد سلبَه هدوءَه واضطر إلى أن يدافع عن نفسه، فكذلك سلبتْه الهمومُ التي انهالتْ عليه منذ أن صعد إلى العربة حريّتَه الداخلية؛ لكن ذلك لم يدم إلا مدة وجوده وسط تلك الهموم. وكما أن قوته الجسدية ظلت سليمة بالرغم من النحل، فكذلك ظلّتْ سليمة تلك القوة الروحية التي شعر بها قبل حين.

[١٥]

قالت دولي بعد أن وزّعت على أولادها الخيار والعسل:

ــ أتعلم مع مَنْ سافر سيرج إيفانوفتش، يا كوستيا؟ مع فرونسكي إنه مسافر إلى بلاد الصرب.

قال كاتافاسوف:

ــ وهو ليس وحده! إنه يقود كوكبةً على نفقته!

قال ليفين:

ــ هذا شأنُه.

وأضاف وهو يرمي سيرج إيفانوفتش بنظرة سريعة:

ــ أما يزال هناك متطوعون للسفر إلى هناك؟

كان سيرج إيفانوفتش يحاولُ جاهداً أن ينتزع برفق من قاع قدحه، بسكين مثلّم، نحلةً ما تزال حية عالقةً في الشراب السكري لقرص من الشهد الأبيض، دون أن يجيب.

قال كاتافاسوف وهو يقرش خيارةً بصوت مسموع:

ــ وكيف لا! ليتك رأيت ما جرى أمس في المحطة!

سأل الأمير العجوز مُستأنفاً، كما يبدو، حديثاً بدأه قبل وصول ليفين:

ــ اشرحْ لي، بالله عليك، يا سيرج إيفانوفتش، إلى أين يذهب كل هؤلاء المتطوعين، وضدّ من يقاتلون. إن الفهم ليحارُ في ذلك!

قال سيرج إيفانوفتش وهو يبتسم بهدوء:

ــ ضدّ الترك.

لقد خلّص النحلةَ السوداء من العسل، وكانت تحرك قوائمها بيأس، ووضعها بواسطة سكينه على ورقة سميكة من الحور.

ــ لكن مَنْ الذي أعلن الحرب على الترك؟ إيفان إيفانوفتش راغوزوف،

والكونتيسة ليديا إيفانوفنا والسيدة ستاهل؟

ـ لم يعلم أحدٌ الحرب عليهم، لكن الناس يواسون إخوتهم في آلامهم ويتوقون إلى مساعدتهم.

قال ليفين متحزّباً لحميه:

ـ الأميرُ لا يتحدّث عن ذلك، وإنما يتحدّث عن الحرب. فهو يقول: إن الأفراد لا يمكنهم أن يشاركوا في الحرب بدون إذن الدولة.

قالت دولي وهي تطردُ زنبوراً:

انظرْ، كوستيا، إلى هذه النحلة! ستؤذينا بلدغها.

ـ هذا زنبور وليس نحلةً.

قال كاتافاسوف وهو يبتسم، وقد بدا واضحاً حرصه على أن يجر ليفين إلى النقاش:

ـ ما هي نظريتكَ إذن؟ لماذا لا يملك الأفراد مثل هذا الحق؟

ـ نظريتي هي التالية: الحرب، من جهة، شيءٌ فظيع، حيواني، ووحشي إلى الحد الذي لا يجوز معه لأي إنسان أن يأخذ على عاتقه الشخصي مسؤولية شنّها، بغض النظر عن المسيحيين: الحكومة وحدها يجوز لها ذلك، هذه هي مهمتها، وهي مسوقةٌ حتماً إلى الحرب. ومن جهة أخرى، إن العلم والحسّ السليم هما هنا ليشهدا بذلك. ففي شؤون الدولة، وعلى الأخص في أثناء الحرب، يتنازل المواطنون عن كل إرادة شخصية.

أخذ سيرج إيفانوفتش وكاتافاسوف يتكلّمان في الوقت نفسه: كانت لهما أجوبتهما الجاهزة.

قال كاتافاسوف:

ـ يا عزيزي، قد تكون هناك، بالضبط، حالات لا تلتزم فيها الحكومةُ برغبات المواطنين: وعلى المجتمع إذ ذاك أن يفرض إرادته.

لكن سيرج إيفانوفتش استنكر بجلاء هذا الردّ السريع. قطّب بين حاجبيه لكلمات كاتافاسوف وعبّر عن فكرته بطريقة أخرى.

ــ إنك لا تطرح المسألة كما ينبغي. ليس هنا إعلان حرب، وإنما التعبير عن شعور مسيحي، إنساني. إن إخواننا في العرق والدين يقتلون. ولنسلّمْ بأن الذين يقتلون ليسوا إخوتنا في العرق أو في الدين، لكنهم مجرد نساء وأطفال وشيوخ: إن الشعور ليثور وإن الروس ليبادرون لكي يسهموا في وضع حد لهذه الفظائع. تصوّرْ أنك تسيرُ في الشارع وأنك ترى سكّيرين يضربون امرأة أو ولداً؛ أعتقد أنك لن تتساءل إن كانت الحربُ قد أعلنتْ على المعتدي أم لم تُعلَنْ، وأنك ستنقضّ عليه لحماية الذي هوجم.

قال ليفين:

ــ لكني لن أقتله.

ــ بلى، ستقتله.

ــ لا أدري لو رأيتُ هذا لاستسلمتُ لشعور عفوي، ولا أستطيع أن أقول شيئاً سلفاً. بيد أني لا أحمل ولا يمكن أن أحمل مثل هذا الشعور العفوي فيما يتصل باضطهاد السلاف.

قال سيرج إيفانوفتش وهو يقطب بين حاجبيه بحركة لا إرادية:

ــ أنت ربما لم يكن لديك هذا الشعور. لكنه موجود، بلا ريب، عند غيرك. وما تزال تنتشر بين الشعب حكايات عن الأرثوذكسيين الذين يتألمون تحت نير الترك. لقد سَمع الشعب بعذاب إخوانه وهو يُسمعُ صوته.

قال ليفين مداوراً:

ــ ربما، لكني لا أشاهد ذلك؛ أنا نفسي من الشعب ولست أشعر بهذا الشعور.

قال الأمير:

ــ مثلي أنا. لقد أقمتُ في الخارج، وقرأتُ الجرائد هناك، وأنا أعترف أنني لم أفهم، حتى قبل الفظاعات[1] التي جرت في بلغاريا، سبباً لهذا الحب المفاجىء الذي يُبديه الروس لإخوانهم السلاف. أنا نفسي لا يخامرني حبٌّ لهم. وآلمني ذلك كثيراً إذ ظننتُ أنني وحش وأنني أخضع لتأثير مياه كارلسباد. ثم رجعتُ إلى روسيا اطمأنّت نفسي: ذلك إني تبيّنتُ أن هناك غيري مَنْ يهتم بروسيا أكثر ممّا يهتم بإخواننا السلاف. قسطنطين مثلاً.

قال سيرج إيفانوفتش:

ــ الآراء الشخصية لا دخل لها هنا. الآراء الشخصية لا شأن لها عندما تُعلن روسيا بأسرها إرادتها ويعلن الشعبُ بأسره إرادته.

قال الأمير:

ــ معذرة، لكني لا أرى شيئاً من ذلك. أما الشعب فهو يجهل كل شيء عن المسألة.

قالت دولي التي كانت تصغي إلى الحديث:

ــ كلا، يا أبـي، ماذا تقول؟ ونهار الأحد، في الكنيسة؟

وقالت للفلاح العجوز الذي كان ينظر إلى الأولاد مبتسماً:

ــ أيمكنك أن تأتيني بمنشفة... من المستحيل أن يكون هؤلاء الناس...

واستأنف الأمير كلامه:

ــ حسناً! ماذا جرى نهار الأحد؟ أُمر الكاهنُ أن يقرأ رسالةً، فقرأها ولم يفهموا شيئاً منها؛ تأوهوا كما يتأوهون كلما سمعوا الموعظة، ثم قيل لهم إن التبرّعات ستُجمع من أجل الحسنة، فأخرجوا كوبيكاتهم، لكنهم لا يعرفون لماذا أعْطوها.

(١) الفظاعات التي جرت في بلغاريا: في سنة ١٨٧٦ سحق الترك التمرد، في بلغاريا، سحقاً وحشياً، فأثار ذلك في انكلترا نفسها سخط غلادستون.

قال سيرج إيفانوفتش بلهجة قاطعة وهو ينظر إلى حارس المنحلة العجوز:

ـ لا يمكن للشعب أن يجهل ذلك. وإنه يحتفظ بوعيه لمصيره، وهو وعي يبرز في لحظات مثل هذه.

أما الشيخُ الوسيمُ ذو اللحية السوداء التي دبّ فيها الشيبُ، وذو الشعر الكثّ الفضي فقد ظلّ جامداً أمامهم، وقدحُ العسل بيده. كان ينظر إلى سادته من أعلى قامته نظرةً متودّدة وهادئة، وهو لا يفهم شيئاً مما يُقال، كما يبدو، ولا يريد أن يفهم شيئاً منه.

قال الشيخُ وهو يهز رأسه موافقاً، بعد أن فرغ سيرج إيفانوفتش من كلامه:

ـ هذا صحيح.

قال ليفين:

ـ هيّا، اسألْه. إنه لا يعرف شيئاً ولا يفكر في شيء.

وقال وهو يلتفت إلى الفلاح:

ـ هل سمعتَ عن الحرب، يا ميكايليتش؟ هل تذكر ماذا قُرىء في الكنيسة؟ ما رأيك في ذلك؟ هل ينبغي أن نذهب ونقاتل من أجل المسيحيين؟

ـ ما حاجتُنا إلى التفكير؟ إن امبراطورنا الكسندر نيكولايفتش يفكّر عنا في كل مناسبة. وهو يرى بوضوح أكثر مما نرى نحن...

وقال لداريا الكسندروفنا وهو يُريها غريشا التي كانت تلتهم كسرةً من خبز:

ـ هل ينبغي أن آتي أيضاً بشيء من الخبز للصبي؟

قال سيرج إيفانوفتش:

ـ لا جدوى من سؤاله. لقد رأينا من قبل ونحن نرى الآن مئات ومئات الناس يهجرون كل شيء ليخدموا قضية عادلة، يأتون من كل أنحاء روسيا ويعربون بوضوح عن فكرتهم وهدفهم. أنهم يحملون فلوسهم أو أشخاصهم ويقولون صراحةً لماذا. فما معنى هذا إذن؟

قال ليفين الذي بدأ يحتدّ:

ـ معنى ذلك، برأيـي، أننا نجد في شعب بلغَ ثمانين مليوناً عشرات الآلاف، لا المئات فقط، من الساقطين والخارجين على القانون المستعدين دائماً. . . للالتحاق بزمرة «بوغاتشوف»[1]، وللذهاب إلى «كيفا»[2] أو إلى بلاد الصرب. . .

قال سيرج إيفانوفتش بغيظ وكأنه يدافع عن آخر أرزاقه:

ـ قلتُ لك إنهم أكثر من مئات، وأنهم ليسوا أفّافين، لكنهم خير ممثّلي الأمة، والتبرعات؟ الشعب يعبّر هنا عن إرادته، دون مواربة!

قال ليفين:

ـ إن كلمة «شعب» شديدة الغموض. فأمناء السر المنطقيون، والمعلمون ورب فلاح من ألف فلاح، هم الذين يعرفون علام تدور هذه الكلمة. والثمانون مليوناً من الباقي، مثل ميكايلوفتش، لا يعبرون عن إرادتهم، بل ليس لديهم أدنى فكرة عن الضرورة التي تقتضيهم إظهارها. فكيف يكون من حقنا إذن أن نقول: إن هذه هي إرادة الشعب.

[١٦]

كان سيرج إيفانوفتش متمرساً بالجدل، فنقل الحديث إلى ميدان آخر، دون أن يرد على ليفين وقال:

ـ إذا أردتَ أن تقيس روح الشعب بطريق الحساب فذلك، بالطبع، عسيرٌ جداً. والانتخابات العامة ذاتها، وهي لا يمكن أن تُسْتخدم عندنا، لا تعبّر عن إرادة

(١) بوغاتشوف: المتمرد في عام ١٧٧٣.

(٢) كيفا: في سنة ١٨٧٤ شن الروس الحرب على أمير كيفا في آسيا الوسطى. فاضطر إلى الاعتراف بتبعيته للامبراطورية.

الشعب؛ لكنّ هناك وسائل أخرى للتقييم. إن المرء ليستشعر ذلك في الهواء، وبقلبه. ولستُ أتكلّم على تلك التيارات العميقة التي تهز المياه الراكدة في الشعب والتي تظهر جلية لعينيْ أقل الناس اطلاعاً. انظرْ إلى «المجتمع» بأضيق معانيه. إن أشد الأحزاب اختلافاً في الأوساط الفكرية قد اختلطت بعضها ببعض. واختفى كل تباين في الآراء. جميع الصحف تقول الشيء نفسه، جميعها شعرتْ بتلك القوة البدائية التي استولت عليهم وجرّتهم في اتجاه واحد.

قال الأمير:

ـ هذا صحيح، فالصحف تقول الشيء نفسه. هذا صحيحٌ حقاً. تماماً، كالضفادع قبل العاصفة. إنها تمنعك من أن تسمع شيئاً.

قال سيرج إيفانوفتش وهو يلتفت إلى أخيه:

ـ ضفادع أم لا، لستُ مدير صحيفة، وليس في نيّتي أن أدافع عنها. وأنا أتحدث عن الإجماع بين المثقّفين.

أراد ليفين أن يجيب لكن الأمير قاطعه، وقال:

ـ هناك الكثير من الخلاف بصدد الاجماع. أتعرف صهري ستيفان أركاديفتش. لقد حصل قبل قليل على منصب عضو في لجنةٍ لا أدري ما هي. ليس لديه على الإطلاق ما يعمله (وهذا ليس سراً، يا دولي)! وهو يقبض مرتباً قدره ثمانية آلاف روبل. جرّبْ واسأله إن كان عمله نافعاً، سيبرهن لك أن عمله نافع إلى أعلى الحدود. وهذا رجل شريف، لكن كيف يجوز ألا نؤمن بنفع ثمانية آلاف روبل!

قال سيرج إيفانوفتش بلهجة مستاءة، وقد رأى أن هذا الاستطراد نابٍ:

ـ لقد طلب إليّ أن أخبر داريا الكسندروفنا بأنه نال هذه الوظيفة.

ـ وكذلك الأمر بالنسبة إلى إجماع الصحف. لقد شرح لي بعضُهم ذلك:

فما أن تقع الحرب حتى تتضاعف عائداتُها. فكيف لا تُنادي بقَدرَ الشعب، وبالإخاء السلافي... و... بكل ذلك السقط من المتاع...

قال سيرج إيفانوفتش:

ــ هناك كثير من الجرائد لا أحبّها، لكن هذا الكلام ظالمٌ.

وتابع الأمير:

ــ يكفي أن نشترط شرطاً واحداً، لقد أجاد «ألفونس كار»[1] حين أوضحه أثناء الحربَ مع بروسيا: «أتقدّر أن الحرب لا مفرّ منها؟ رائع. فليشكّلْ جميعُ أنصار الحرب كتيبة خاصة بالمراكز الأمامية وَلْيمضوا قبل غيرهم إلى القتال».

قال كاتافاسوف وهو يُغرب في ضحك صاخب:

ــ ما أغرب هيئات الصحفيين، إذ ذاك!

لقد تصور عدداً من المحرّرين، من معارفه، في هذه الفرقة المختارة.

قالت دولي:

ــ لكنهم سينهزمون وسيعرقلون الآخرين.

قال الأمير:

ــ لو انهزموا لوجدوا خلفهم رصاص القوزاق أو سوطهم ليعيدوهم إلى موضعهم.

قال سيرج إيفانوفتش:

ــ معذرة، يا أمير. لكن هذه الدعابة لا ترفع رأسك فبدأ ليفين يقول:

ــ لكنها ليست دعابة...

بيد أن أخاه قاطعه قائلاً:

ــ على كل عضو من أعضاء المجتمع واجبٌ خاص يقوم به. ورجال الفكر يؤدون مهمتهم حين يُعبّرون عن الرأي العام. إن التعبير الكلّي والإجماعي عن

(١) ألفونس كار: (١٨٠٨ ــ ١٨٩٠) هجاء فرنسي.

الرأي العام ظاهرة مشجّعة يعود الفضل فيها إلى الصحافة. منذ عشرين سنة كنا سنسكت بينما نحن نسمع الآن صوت الشعب الروسي المستعد لأن يهبّ هبّة رجل واحد ولأن يضحّي في سبيل إخوته المضطهدين؛ إنها خطوة كبيرة إلى الأمام ودليل على القوة.

قال ليفين بوجل:

ــ عفواً، ليست المسألة مسألة تضحية بالذات، لكن مسألة قَتْل الترك.

وأضاف وهو يربط الحديث بالأفكار التي تشغله ربطاً غير إرادي.

ــ الشعب ينسى نفسه ويرضى بكثير من التضحيات عندما تُسْتهدَفُ روحهُ، لكن إذا كان المقصود هو القتل..

فقال كاتافاسوف مبتسماً:

ــ عندما تُسْتهدَفُ روحهُ؟ هذا تعبير مُربكٌ للعالم الطبيعي، وأنت تفهم ذلك. فما الروح إذن؟

ــ كأنك لا تعرف ذلك!

قال كاتافاسوف مقهقهاً:

ــ أُقسمُ لك أن ليس لديّ عنها أدنى فكرة!

فرد سيرج إيفانوفتش بدوره، مستشهداً بآية من الإنجيل قد هزّت ليفين دائماً أكثر من غيرها، مستشهداً بها باعتبارها أوضح ما يمكن أن يستشهد به:

ــ «ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً[1]».

فردّد الحارس الشيخ الذي بقي بجنبهم، رداً على النظرة التي ألقاها عليه عَرضاً سيرج ايفانوفتش:

ــ هذا صحيح حقاً.

فهتف كاتا فاسوف بفرح:

(١) ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً: من كلام المسيح. انجيل متى (١٠ ــ ٣٤).

ـــ هاأنت قد هُزمتَ، يا عزيزي، هُزمتَ شرّ هزيمة.

احمّر ليفين من الحنق، لا لأنه هُزم بل لأنه انجرَّ إلى النقاش. وفكّر: «إني أضيع وقتي في النقاش معهم، إن لهم درعاً لا يُخرَق، وأنا عارٍ».

كان يرى أن من المستحيل أن يُقنع أخاه وكاتا فاسوف، ولا سيّما أن يأخذ برأيهم. إن ما يجهرون به هو هذه الكبرياء الفكرية التي أوشكت أن تهلكه. ما كان بوسعه أن يقبل ادعاءَ حفنة من الرجال، في عدادهم أخوه، ادعاءً يستند إلى زعم مئات المتطوّعين الثرثارين الأفاقين، بأنهم يمثلون مع الصحف إرادة الشعب وفكره الذي يتجلى، كما أكدوا، في الثأر والقتل. ما كان بوسعه أن يسلّم بذلك لأنه لم ير قط هذه الأفكار مُعبراً عنها في الشعب الذي يعيش بين أحضانه، ولأنه لم يجدها في نفسه، (وهو لا يستطيع أن يعتبر نفسه سوى جزء متمّم للشعب الروسي). ولا سيما لأنه لم يكن يعلم أو يستطيع أن يعلم، لا هو ولا الشعب الروسي ما الخير العام؛ وكان مقتنعاً، بالمقابل، أنه لا يمكن بلوغ هذا الخير العام إلا بمراعاة قانون الخير الذي انكشف لكل إنسان؛ فلا يمكنه إذن أن يرغب في الحرب أو يدعو إليها مهما تمكن الأهداف التي يهدف إليها شاملةً. كان يقول مع ميكايلوفتش ومع الشعب الذي تعبّر عن فكرته التقاليدُ المأثورة المتعلقة بدعوة« الفاريغ[1]»، من قبل القبائل السلافية: «كونوا أمراءنا واحكمونا. ونحن نعاهدكم بفرح على الطاعة الكاملة، ونأخذ على عاتقنا جميع الأعمال والمذلات والتضحيات؛ لكن لن نكون نحن الذين يحكمون ويقرّرون». فهل يرى سيرج ايفانوفتش، أن الشعب قد تخلّى الآن عن حقه الذي كلّفه غالياً؟

كان يشتهي أن يقول أيضاً إنه إذا كان الرأي العام حكماً لا يخطىء فإن الثورة

(١) «الفاريغ»: أسطورة شهيرة رويت في بداية أخبار «نستور» ومفادها أن القبائل السلافية بعد أن طرد «الغاريغ» السويديين، عادت واستدعتهم قائلة لهم: «إن أرضنا كبيرة وخصبة، لكن ينقصنا النظام، فتعالوا أملكوا واحكموا بمقتضى العدل».

الفرنسية والكومونة شرعيّتان مثل الحركة لمصلحة السلاف. لكن هذه الأفكار كلها لم تكن سوى أفكار لا تحلّ شيئاً. النقطة الوحيدة التي كان متأكداً منها أن النقاش في هذه اللحظة أخذ يغيظ سيرج ايفانوفتش: فالأوْلى به إذن ألا يناقش. ولذلك آثر ليفين أن يلزم الصمتَ: استرعى انتباهَ ضيوفه إلى السحب التي تجمّعت ونصحهم بالعودة قبل هطول المطر.

[١٧]

صعد الأمير وسيرج ايفانوفتش إلى العربة وسبقا غيرهما؛ أما الآخرون فحثّوا خطاهم وعادوا سيراً على الأقدام.

لكن السحابة تحوّلت من البياض إلى السواد، وأخذت تزحف بسرعة شديدة اضطرتهم إلى أن يغذّوا السير لكي يبلغوا البيتَ قبل العاصفةَ. وتراكضت في السماء سحبٌ منخفضة وسوداء مثل السناج، بسرعة خارقة. كان البيتُ على مائتي قدم فقط، لكن الريح هبّتْ وكان المطر على وشك أن يهطل بين لحظة وأخرى.

ركض الأولاد في المقدمة وهم يطلقون صرخات الفرح والرعب، وكانت داريا تُعالج بمشقة تنانيرها التي أخذت تلتصق بساقيها، وصار مشيها أشبه بالجري منه بالمشي، دون أن ترفع بصرها عن الأولاد.

سأل ليفين، في البهو، آغات ميخايلوفنا التي أقبلت عليهم ومعها أخمرة وأغطية:

ــ أين كاترين الكسندروفنا؟

قالت:

ــ ظنّنا أنها معك.

ــ وميتيا؟

ــ من المحتمل أن يكونا في الغابة. المربيّة معهما.

تناول ليفين الأغطية ومضى راكضاً باتجاه الغابة.

أثناء هذا الفاصل الزمني القصير، توارت الشمس خلف الغيوم، واكفهرت السماءُ كأن هناك كسوفاً. وكانت الريح تعصف بلجاجة وكأنها تريد أن تكون كلمتها هي العليا: لقد عرقلتْ سير ليفين، وانتزعتْ أوراق الزيزفون وأزهاره، وعرّت تعريةً غريبةً أفنانَ البتولة الفضيّةَ، ولوتْ أشجار السنط، والأزهار، والأدغال، وسوقَ العشب، ورؤوس الأشجار العالية، لوتْها جميعها في جهة واحدة. وركضت البناتُ اللواتي يعملن في الحديقة ليلتجئن تحت السقف وهن يصرخن صراخاً حاداً. وكان ستار الزخّ الأبيض قد غطى الأحراج البعيدة ونصف الحقول وأخذ يتقدّمُ مسرعاً نحو الغابة. وأشبعَ الرذاذُ الهواء بالرطوبة.

بلغ ليفين أطرافَ الغابة، وهو حاني الرأس إلى الامام، يصارع العاصفة التي تريد أن تنتزع منه أغطيته، وشاهد بقعة بيضاء خلف سنديانة، وإذا بضياء باهر يُلهب الأرض كلها، وفي الوقت نفسه خامره إحساسٌ بأن قبة السموات أخذت تنهار فوق رأسه. أعماه البرقُ ولم يفتحْ عينيه إلا بعد لحظة، فاكتشف برعب، غشاء المطر الكثيف الذي غدا يفصله عن الغابة، وأن القمة الخضراء لشجرة السنديان العتيقة لم تكن في مكانها المعهود، فقال ليفين في نفسه: «لعل الصاعقة قد ضربتها»، وفي اللحظة نفسها، اختفى رأسُ الشجرة بين الأغصان وارتطم بالأرض.

إن وميض البرق، وقصف الرعد، وإحساسه بجسده المتجمّد، قد انصهرت جميعها في شعور واحد من الرعب. فهمس:

ـ يا إلهي! يا إلهي! على ألا يكون ذلك قد أصابهم!

ومع أنه قد فكّر على إثر ذلك أن هذه الصلاة غير معقولة لأن الشجرة سقطت، إلا أنه كرّرها، شاعراً أنه لن يجد خيراً من الصلاة.

جرى إلى الموضع الذي كانت فيه كيتي عادةً فلم يجدها. كانت في الطرف

الآخر من الغابة، تحت زيزفونة، تناديه. وإذا شبحان بثياب قاتمة (كانتا تلبسان ثياباً فاتحة قبل ذهابهما)، منحنيان في وضع حماية. كان الشبحان كيتي والمربية. كانت حافة تنورة المربية ما تزال جافة، أما ثوب كيتي فكان مبللاً بكامله، ملتصقاً بجسمها. ومع أن المطر توقف، فإنهما بقيتا في الوضع الذي اتخذتاه عندما انفجرت العاصفة: كانتا كلتاهما منحنيتين على عربة تعلوها مظلةٌ خضراء.

قال ليفين وهو يَخْبط في الماء الذي سال أخيراً وملأ حذاءه:

ـ أحياء؟ وبسلامة؟ الحمد لله!

التفتَ إليه وجهُ كيتي المتضرّج والناضح ماء وابتسم باستحياء تحت قبعتها التي تشوّه شكلُها.

فبدأ كلامه هائجاً:

ـ ألا تستحين! كيف يجوز لك أن تكوني طائشة إلى هذا الحد! فأخذت كيتي تقول معتذرة:

ـ أؤكد لكَ أن الغلطة ليست غلطتي. ففي اللحظة ذاتها التي كنت أريد الرجوع فيها، بدأ الجوّ يضطرب. كان لا بد من تغيير ثياب الصبي، وكنا على وشك...

كان ميتيا نائماً، ولم تصبّه قطرةُ ماء.

ـ هيّا، كل شيء بخير! لم أكن أدري ما أقول.

لُفّتْ ثياب الصبي في رزمة. وأخذت المربيةُ الطفل وحملته. كان ليفين يسير بجنب امرأته؛ وقد أحسّ بالخجل من فَوْرته، فشدّ على يدها سراً عن المربية.

[١٨]

برغم يأس ليفين من التجدّد داخلياً، إلا أنه ما انفكّ يحس بفيض قلبي غمره بالفرح طوال اليوم، أثناء الأحاديث المتنوعة التي لم يكن يستجيب لها بالجانب الخارجي من فكره، إن صح القول.

بعد المطر، أصبحت الرطوبةُ أشد من أن تسمح بالتنزّه؛ وفضلاً عن ذلك، فإن السحب العاصفة لم تختفِ من الأفق؛ كانت تمر من هنا تارة، ومن هناك تارة أخرى، وهي ترعد وتُعتّم ناحيةً من السماء. فبقي الجميع في البيت سائر اليوم.

لم يُثر أحدٌ النقاش؛ وبعد العشاء، كان الجميع مبتهجين.

سّلى كاتا فاسوف السيدات بطُرفه الفريدة التي كانت تفتن من يَلْقاه لأول مرة، وحَفزَ سيرج ايفانوفتش قريحته فأطلع مستمعيه على الملاحظات الممتعة التي لاحظها حول فروق الطباع والهيئة بين ذكر الذباب وأنثاه. سُرّ سيرج ايفانوفتش أيّما سرور، وأثناء تناول الشاي، وبناءً على إلحاح أخيه، عرض وجهة نظره عن مستقبل المسألة الشرقيّة بكثير من المهارة والبساطة فأصغى إليه الجميع بانتباه، ما عدا كيتي التي لم يُتَحْ لها أن تستمع إليه حتى النهاية: لقد استُدعيتْ من أجل حمّام ميتيا.

بعد دقائق من ذهاب كيتي، جاءت الخادمة تطلب إلى ليفين أن يذهب إلى غرفة الأطفال. فترك الشاي مغتاظاً لمقاطعته وسط حديث ممتع، وقلقاً في الوقت نفسه، لأنه لا يُدعى إلا في ظروف خطيرة.

لكنْ، مع أن خطة سيرج ايفانوفتش التي بمقتضاها سيفتحُ تحرّر أربعين مليوناً من السلاف عهداً تاريخياً جديداً بالنسبة إلى روسيا، قد أثارت اهتمامه إلى أعلى حد باعتبارها شيئاً جديداً كل الجدّة عليه، ومع أنه تساءَل بفضول وقلق لماذا استدعوه، إلا أنه ما لبث أن تذكّر، عندما ألفى نفسه وحيداً، بعد أن ترك قاعة الاستقبال، تذكّر أفكاره في الصباح، فبدت له هذه الاعتبارت عن أهمية العنصر السلافي في التاريخ العام جدّ تافهة، إذا قورنتْ بما يجري في نفسه، بحيث نسي في الحال كل ذلك وغرق من جديد في حالته النفسية السابقة.

لم يعدْ يسعى، كما كان يسعى من قبل، إلى أن يعيد تكوين مسيرة فكره (لم يكن ذلك ضرورياً). لقد انتقل دفعة واحدة إلى أحضان الشعور الذي كان يقوده

والذي كان مرتبطاً بأفكاره، فوجده في أعماق نفسه أقوى وأدق من قبل. كان، فيما مضى، إذا آنسَ سكينةً لزمه أن يصعد من جديد مجرى أفكاره ليبلغ الشعور. أما الآن فالأمر غدا مختلفاً. على العكس، كان الشعور بالفرح والسكينة هو الأقوى؛ أما الفكر فيأتي بعد ذلك.

لمح، وهو يجتاز الشرفة، نجمتين ظهرتا في السماء التي غدت أقل ظلمة، فعادت إليه ذكرى قديمةً، وفكر: «نعم، لقد قلتُ في نفسي، وأنا أنظر إلى السماء، إنني على حق في أن أراها قبّةً؛ لكنني لم أذهب بعيداً في هذا الاتجاه، لقد تملّصتُ. سيان، لا يمكن أن يكون هناك اعتراض مقبول. بالتفكير وحده يتّضح كلُ شيء.

وإنما تذكّر ما أخفاه عن نفسه عندما دخل غرفة الأطفال. وهو يتلخّص فيما يلي: إذا كان الدليل الرئيسي على وجود الله هو الكشف عن وجود الخير، وهو كشفٌ خصَّ به كلَّ إنسان، فلماذا يقتصر هذا الكشفُ على الكنيسة المسيحية؟ وما العلاقة بين هذا الكشف وعقائد البوذيين والمسلمين الذين يدعون هم أيضاً إلى الخير ويفعلونه.

وبدا له أن يملك جواباً عن هذا السؤال؛ لكنه دخل غرفة الأطفال قبل أن تتسنّى له صياغتُه. كانت واقفةً، مشمِّرةً عن كميها بجانب المغطس، منحنية على الطفل الذي كان يتخبّط في الماء. وكانت تسند بيد رأسَ الصبي الممتلىء الطافي على الماء وهو منفرج الساقين، وباليد الأخرى كانت تضغط اسفنجةً ضخمةً فوق الصبي بحركة منتظمة.

قالت لزوجها عندما دخل عليها:

ــ انظرْ، انظرْ، آغات ميخايلوفنا على حق: لقد عرفنا.

كان هذا هو الحدث: بدأ ميتيا يعرف مَنْ حوله، ولم يبقَ من سبيل إلى الشك في ذلك. وما أن اقترب ليفين من المغطس حتى أخضع الصبي للاختبار،

وكان الاختبار قاطعاً. ذلك أن الخادمة التي دُعيت خصيصاً انحنتْ فوق الصبي، فقطّب بين حاجبيه وهزّ رأسه بالنفي. لكن عندما قرّبت كيتي وجهها من وجهه ابتسم، وتشبثت يداه الصغيرتان بالأسفنجة، وزمّ شفتيه فأسمع صوتاً غريباً جداً ومفرحاً جداً بحيث أن ليفين، لا كيتي والمربية وحدهما، غمرتْه نشوةُ الفرح.

رُفعَ الصبيُّ على يد واحدة، ورُشَّ بالماء، ولفَّ في غطاء، ونشّف وبما أنه أخذ يصرخ صراخاً ثاقباً فقد قُدِّم إلى أمه.

قالت كيتي لزوجها عندما استقرّت بهدوء في مكانها المعهود وابنُها على ثديها:

ــ أنا مسرورة لأنك بدأتَ تحبّه. أنا جد مسرورة. لقد أخذ الأمر يؤلمني؛ كنتَ تقول إنك لا تشعر نحوه بأية عاطفة.

ــ لا، متى قلتُ هذا؟ قلتُ فقط: إن ظني خاب.

ــ كيف، هو خيّبَ ظنّك.

ــ ليس هو الذي خيّب ظني، لكني كنت أنتظر أكثر من ذلك. كنتُ أعتقد أن شعوراً جديداً ومعزّياً سينمو فيّ. وبدلاً من ذلك لم أشعر بغير الشفقة والاشمئزاز.

كانت تصغي إليه بانتباه، ناظرةً من فوق الصبي، وتضع خواتمها التي نزعتها لغسل «ميتيا».

ــ وشعرتُ على الخصوص بالرعب والشفقة أكثر مما شعرتُ بالسرور. لكني أدركت اليوم، بعد هذا الخوف الذي انتابني أثناء العاصفة، كم كنت أحبّه.

ابتسمت كيتي ابتسامةً مشرقة. وقالت له.

ــ خفت كثيراً؟ وأنا أيضاً، لكنني أشد خوفاً الآن بعد مرور الأشياء. سأذهب لأرى السنديانة مرة أخرى. ما ألطفَ كاتا فاسوف! على الإجمال، كان النهار ممتعاً. أنت لطيف مع سيرج ايفانوفتش عندما تريد... امضِ إليهم. الجو خانقٌ هنا، بعد الحمّام.

[١٩]

ما إن ترك ليفين الغرفة، حتى عاد إلى تلك الفكرة التي لم يتعمقها جيداً.

وبدلاً من أن يمضيَ إلى قاعة الاستقبال التي وافت منها الأصوات، وقف على الشرفة وأخذ يتأمل السماءَ وهو متكىءٌ بمرفقه على حافتها.

كان الجو مظلماً، والسماء صافية في الجنوب، بينما تكدّست الغيومُ في الجهة المقابلة. وكان وميض البروق يصل من هناك ممتزجاً بقصف الرعد. كان ليفين يصغي إلى القطرات تسقط في فُسح منتظمة من أغصان الزيزفون، وينظر إلى مثلّث معهود من النجوم وإلى المجرة التي تخترقه في وسطه. وكانت المجرة والنجوم التي تفوق غيرها لمعاناً تتوارى، عند كل ومضة برق، لكن ما إن ينطفىء ذلك الوميض حتى تعود إلى الظهور في مكانها نفسه، وكأن يداً ماهرة قد قذفتها.

قال ليفين في نفسه وهو يحس مسبقاً أن الجواب عن شكوكه غدا جاهزاً في نفسه، وإن لم يعرفه بعد: «ما الذي يثير اضطرابي، يا ترى؟».

«نعم، إن التجلّي الوحيد والبديهي والأكيد للألوهية هو قانون الخير الذي أُعلِن للناس جميعاً والذي أحسُّه فيّ. وشئتُ أم أبيتُ، أنا متحد بجميع الذين يُقرّون بهذا القانون ونحن نكوّن جماعة من المؤمنين».

وتساءل، وهو يعود إلى المشكلة التي بدت له عويصة: «وأصحاب الديانات الأخرى، مَنْ هم؟ أمن الممكن أن يحرَم مئاتُ الملايين الخيرَ الأسمى الذي تفقد الحياةُ معناها بدونه؟ واستغرق في أحلامه، لكنه ما لبث أن تمالك نفسه وقال: «ما السؤال الذي سأطرحه على نفسي؟ أنا مشغول البال بالعلاقات بين جميع عقائد البشرية وبين الألوهية!

أريد أن أنفذ إلى انكشاف الله للكون بكل سُدُمه! وماذا أنا فاعل! لقد انكشفتْ لي شخصياً، بواسطة القلب، معرفةٌ لا يبلغها العقلُ، وأنا أصرّ على التعبير عنها بكلمات وبواسطة العقل.

وتابع وهو ينظر إلى كوكب سيّارٍ، برّاق، غيَّر موضعَه فوق أعلى أغصان البتولة «أنا أعلم جيداً أن النجوم لا تسير. بيد أني حين أنظر إلى حركة النجوم، لا أستطيع أن أتخيّل دوران الأرض، وأرى من حقي أن أقول: إن النجوم تسير».

«أكان بإمكان الفلكيّين أن يفهموا أو يحسبوا شيئاً، أياً كان ذلك الشيء، لو أخذوا بالحسبان حركات الأرض المتنوعة والمعقّدة؟ إن كلَّ نتائجهم المذهلة عن المسافات والأوزان، وعن حركات الأجرام السماوية ودورانها، لا تستند إلا إلى حركة ظاهرة للكواكب حول أرض ساكنة، وهذه الحركة نفسها ظهرتْ وستظهر لملايين البشر خلال العصور، ويمكن التحقّق منها دائماً. وبمقدار ما تكون نتائج الفلكيين باطلةً ومتهافتةً إذا لم ترتكز على ملاحظة السماء المرئية بالنسبة إلى خطّ زوال واحد وإلى أفق واحد، فكذلك تكون نتائجي باطلةً ومتهافتةً إذا لم ترتكز على هذا الفهم للخير، الفهم الذي كان والذي سيظلّ هو نفسه بالنسبة إلى الجميع، والذي أستطيع أن أتحقّق منه في نفسي. أما مشكلة العقائد الأخرى وعلاقتها بالألوهية فليس لي الحق في حلها ولا القدرة على هذا الحل.

قال فجأة صوتُ كيتي التي دخلت القاعة، وهي تتفرّس في وجهه على ضوء النجوم:

ــ أما زلتَ هنا؟ هل ضايقك شيء؟

لكنها ما كانت تستطيع أن ترى تعبير وجهه لو لم يقذف البرقُ بضياء أشد توهجاً. حينذاك شاهدت وجهه كلّه، وإذْ رأته مطمئناً وسعيداً ابتسمت.

وفكّر: «إنها تفهم وتعلم ما أفكّر فيه. هل أكلّمها أم لا؟ نعم سأقول لها ما دار بخلدي». لكنها شرعت في الكلام عندما تهيّأ هو له.

وقالت:

ــ اسمعْ، كوستيا! أدِّ لي هذه الخدمة. اذهب إلى غرفة الزاوية وانظرْ كيف

رُتّبتْ غرفة سيرج ايفانوفتش. إن ذلك ليضايقني. هل وضعت المغسلة الجديدة في غرفته؟

قال ليفين وهو ينهض ويقبّلها.

ــ حسناً، سأذهب إلى الغرفة.

وفكّر عندما انصرف: «لا، الأوْلى ألا أقول شيئاً، هذا سرٌ لا يهمّ غيري ولا نستطيع التعبير عنه بالكلمات.

«هذا الشعور الجديد لم يغيّرني، ولم يجعلني أسعدَ، ولم يملأني فجأة بالضياء كما كنتُ أرجو. وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى شعوري نحو ابني. فلم تكن فيه أيضاً أيةُ مفاجأة. أهذا هو الإيمان أم لا ، لا أدري شيئاً من ذلك، ولا أعلم ما هو، لكن هذا الشعور انسلَّ إلى نفسي بواسطة الألم، على نحو غير ملحوظ، واستقرّ فيه استقراراً متيناً».

«سأظلّ أغضبُ على الحوذيّ ايفان، وأناقش، وأعربُ عن أفكاري في غير أوانها؛ سيظلّ هناك جدارٌ بين أقدس أقداس نفسي ونفوس الآخرين، حتى نفس امرأتي؛ سأظل أجعلها مسؤولة عن مخاوفي وأندم على ذلك، وأصلّي وأنا لا أفهم بعقلي لماذا أصلّي. لكن حياتي بأسرها منذ الآن، كل لحظة من حياتي، بغض النظر عمّا سيقع لي، سيكون لها معنى، سيكون لها طابع بوسعي أن أسبغه عليها: ألا وهو طابع الخير.

• • •

خلاصة الفصول

الفصل	الصفحة

الجزء السادس

الفصل	الصفحة

الجزء السابع

الفصل	الصفحة

الفصل	الصفحة

الجزء الثامن

الفصل	الصفحة

● ● ●



